

المناجات التربوي للسيرة النبوة

٩

التربيه الجامعية

د. منير الغضبان

الجزء الثاني

دار الوفاء

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

**الادارة : ش. الإمام محمد عبد المراجي لكتبة الأداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٣٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠**

المكتبة: أمام كلية الطب ت ٥١٣ / ٢٢٤٩٥١٣

E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM



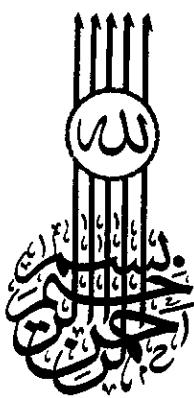
المُتَّبِعُ هُوَ التَّرْبُوٰي
لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

٩

الْتَّرْبِيَةُ الْجَامِعِيَّةُ

الجزء الثاني

منبر الغضبان



مقدمة

كان الجزء السابق يتحدث عن صفحة المهاجرين والأنصار التي انتهت مع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه آخر المهاجرين هجرة ، وبعد فتح مكة لم تعد البيعة على الهجرة ، إنما بقي الجهاد ماضياً إلى يوم القيمة حيث حُدّد انتهاء الهجرة بفتح مكة بقوله - عليه الصلاة والسلام :

« لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

فالهاجرون والأنصار من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين تم بهم فتح مكة يمثلون الحد الأعلى لهذه الطبقة التي بلغت عشرة آلاف مقاتل ، وشهادنا معهم فتح مكة ، وتعرفنا على تركيب الجيش الإسلامي كاملاً من قبل ، ومهما قيل عن مستوى هذه الطبقة ، فتبقى بعمومها إحدى القمم الإسلامية التي ذكرها الله تعالى في معرض الثناء عليها بقوله :

﴿ لَا يَسْتُوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلُّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الميد : ١٠] .

وقد وصفها الله تعالى بالعظمة ، وحق لها أن تثال هذا الشرف العظيم بقيادة إمام البشرية محمد - عليه الصلاة والسلام - والتي أتيح لها أن تعيش معه قرابة شهرين أو ثلاثة شهور من معينه العظيم ، وتربى بخلقه العظيم ، فتوصف بهذه العظمة لأجل ذلك .

ومنذ السابع عشر من رمضان بعد فتح مكة ، أصبح الذين يدخلون في هذا الدين ينالون شرف الصحة لكنهم لا ينالون شرف الهجرة .

ومسيرةنا في هذا الجزء تحتمل عاماً كاملاً ونيف ، حيث نشهد فيما غزوتين عظيمتين مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما غزوة حنين وغزوة تبوك .

إذاً كنا قد استعرضنا في الجزء السابق بناء القاعدة العريضة التي ارتفعت من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ مقاتل ، فنشهد في هذا العام ارتفاع هذه القاعدة في ذروتها ثلاثة أضعاف ما هي عليه اليوم ، وذلك في غزوة تبوك حيث بلغ الصحابة ثلاثين ألفاً كما تقول أكثر الروايات .

والفرق كبير بين تربية قرابة مائتين خلال عشرة أعوام ، وثلاثمائة ونيف خلال خمسة عشر عاماً ، وألف وخمسماة خلال عشرين عاماً ، مثلوا أولئك جميعاً قيادات

الأمة ، وبين تربية ثلثين ألفاً خلال عامين من الزمان . . . حيث نتابع الملامح العامة لهذه الأفواج الضخمة وسرعة إعدادها لتحول فيما بعد إلى القاعدة الصلبة التي تواجه البشرية الضالة ، فتمضي بها في طريق التحول العظيم إلى الإسلام ، وكما قلت فترهتنا في هذا الجزء تمتد من العاشر من شوال في العام الثامن من الهجرة إلى بداية شوال في العام التاسع للهجرة حيث وصل رسول الله ﷺ من تبوك .

والله نسأل أن يفتح علينا فتوح العارفين ، ويبصرنا بالمنهج النبوى لعملية البناء خلال هذا العام .

هوازن على الساحة تستعد للمواجهة

من هوازن؟ :

هي أكبر القبائل العربية أو من أكبرها لو انضم لها كل فروعها من بنى عامر وثيف، وهي التي تستعد الآن للمواجهة .

ثيف التي تنزل الطائف إحدى أمنع المدن العربية تنتهي في نسبها إلى هوازن، فهم: بنو ثيف بن منه بكر بن هوازن .

وعامر بن صعصعة أعز العرب وأشدّها شكيمة وأكثرها نفراً هي من هوازن ، فهم: بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .

وبين عامر بفروعهم الضخمة : كعب بن ربيعة ، وكلاب بن ربيعة ، وهلال بن عامر ، وغير بن عامر ، وعمرو بن عامر ، وعامر بن عامر .

ومن فروع هوازن كذلك :

بنو معاوية بن بكر بن هوازن ، وبينو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن أبرز أبطالهم دريد بن الصمة الفارس الشاعر ، وبينو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن أبطالهم - قائد هوازن في حنين : مالك بن عوف النصري ، وبينو سعد بن بكر بن هوازن وهو أظär رسول الله ﷺ ، فهي القبيلة التي أرضعته في الباذية العربية ومنهم حليمة السعدية ، والحارث بن عبد العزى أبوه من الرضاعة ، هذه الفروع كلها لو دخلت الحرب لامكن جمع ما لا يقل عن خمسين ألفاً للمواجهة مع النبي ﷺ ، ولكن تخلى فروع عامر بن صعصعة الكبيرة عن الحرب جعلت جيش هوازن في عشرين ألف مقاتل ، وحين رأى أبو سفيان بن حرب الجيش الإسلامي على ضواحي مكة وقد أشعل عشرة آلاف نار لعشرة آلاف مقاتل أذهله العدد ، وقال عنه في تصوره عن أكبر عدد يمكن جمعه من القبائل المجاورة :

(وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل ، فأفزعهم ذلك فزعًا شديداً وقالوا : هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب ! فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب . قالوا : فتتجمعت (١) هوازن على أرضنا ؟ والله ما نعرف هذا ، إن هذا العسكر مثل حاج الناس) (٢) .

(٢) المغازي للواقدي ٢/٨٤ .

(١) التنجع والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .

فلم يخطر بذهن أبي سفيان قبيلة يكن أن تجتمع هذا العدد من المقاتلين إلا هوازن ،
ويأتي السؤال الثاني : من تخلف من هوازن ؟
ونأخذ الجواب من خلال الحوار بين دريد بن الصمة فارس هوازن وشاعرها ، وبين
قبوته .

(قال : يا معشر هوازن ، أمعكم من بنى كلاب بن ربيعة أحد ؟ قالوا : لا .

قال : فمعكم من بنى كعب بن ربيعة ؟ قالوا : لا .

قال : فهل معكم من هلال بن عامر أحد ؟ قالوا : لا . وهذه القبائل الثلاث من
فروع عامر بن صعصعة .

قال دريد : لو كان خيراً ما سبقتموه إله ، ولو كان ذكراً أو شرقاً ما تخلفوا عنه ،
فأطیعونی يا معشر هوازن ، وارجعوا فافعلوا ما فعل هؤلاء ، فأبوا عليه . قال : فمن
شهدها منهم ؟

قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر . قال : ذائق الجذعان من عامر لا ينفعان
ولا يضران)١(.

فدرید بن الصمة يرى في غياب هذه الفروع الضخمة من عامر نذير شؤم بالهزيمة ،
وأنه لو كان يوم علاء ورفة لما غاب عنه كعب وكلاب ابنا ربيعة ، وهلال بن عامر .
وكان يرى - بعمق خبرته وتجربته - التخلّى عن مواجهة محمد ﷺ لغياب هذه الفروع .
ولعل الذي دعا كعباً وكلاباً للتخلّى عن الانضمام إلى هوازن في حرب رسول الله
ﷺ هو السبب نفسه الذي دعا دريداً للعدول عن المواجهة .

(وشهادها ناس من هلال ليسوا بكثیر ما يبلغون مائة ، ولم يحضرها من هوازن
كعب ولا كلاب ، ولقد كانت كلاب قرية فقيل لبعضهم : لم تركتها كلاب فلم تحضرها ؟
 فقال : أما والله إن كانت لقرية ، ولكن ابن أبي براء مشى فنهادا عن الحضور فأطاعتة .
وقال : والله لو ناوا محدداً منَ بين المشرق والمغرب لظهر عليه)٢(.

ولابد أن نعيد صورة كلاب بن ربيعة إلى الأذهان ، فقد كانت رئاسة كلاب وعامر
من ورائها إلى أبي براء - عامر بن مالك - ملاعب الأستنة ، وبعد أن كبر سنه آلت الرعامة
إلى عامر بن الطفيلي ابن أخيه ، وهو العدو الألد للإسلام ، وهو الذي نفذ مجزرة بشر
معونة وقتل سبعين من خيرة أصحاب النبي ﷺ ، وهو الذي جاء المدينة يساوم رسول

(٢) المصدر نفسه ٨٨٦/٣ .

(١) المغارى للواقدى ٨٨٧/٣ .

(فعن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة قال: حدثني أنس أن النبي ﷺ بعث خاله - أخي لام سليم - في سبعين راكباً ، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيلي خيرَ بين ثلاث خصال ، فقال : يكون لك أهل السهل ولِي أهل المدر ، أو أكون خليفتك أو أغزوكم بأهل غطfan بـألفِ والـفِ ، فطعن عامر في بيت أم فلان فقال : غدة كفدة البكر في بيت امرأة من آل فلان ، اتتوني بفرسي ، فماتت على ظهر فرسه)^(١) . ونقدَّر أن موته كان قبل حنين ، ولهذا لم يشارك فيها ، وأن ابن عمِه ابن أبي البراء خلفه ثانية في زعامة قومه ، وحال بينهم وبين الاشتراك في حنين ، ولعله هو الذي طعن عامراً ؛ لأنَّه خفر ذمة أبيه أبي البراء . ولو كان عامر حياً لاحتلها فرصة العمر ، ونفَّذ تهدیداته في مواجهة محمد - عليه الصلاة والسلام . أما كعب بن ربيعة فقد انتهت زعامتهم لقرة بن هبيرة ، وهو الذي وفَد على رسول الله ﷺ مسلماً فيما بعد بين حنين وحجة الوداع . ولا ننسى أن علقة بن علاته السيد المنافس لعامر بن الطفيلي قد أسلم وحضر فتح مكة مع رسول الله ﷺ ، وشارك ابن أبي براء في صدِّ كلاًّاب بن ربيعة عن المشاركة في حنين .

إضافة إلى تخلف هذه الفروع الضخمة من هوازن ، فيطالعنا كذلك اختلاف القيادات والذي يربز أشد ما يكون بين دريد بن الصمة - الشیخ المجرب الفارس الشاعر الذي تجاوز المائة والخمسين من عمره - ومالك بن عوف النصري الفتى الشاب الذي هو في الثلاثين من عمره ، والذي ألت القيادة لهوازن كلها له في هذه المعركة حيث جمع ما ينوف عن عشرين ألفاً من المقاتلين ويکاد يكون ضعف جيش النبي ﷺ .

يقول دريد مالك : (يا مالك ، إنك تقاتل رجلاً كريماً قد أوطا العرب ، وخلفته العجم ومن بالشام ، وأجلِي يهود الحجاز ، إما قتلاً وإما خروجاً على ذل وصغر ، وقد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام ! يا مالك ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ، وثناء الشاء ؟ قال مالك : أردت أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وما له وولده ونساءه حتى يقاتل عنهم . قال : فأنقض يده ثم قال :

راعي ضأن والله ، ما له وللغرب ؟ وهل يرد المهزم شيء ؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورممه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

(١) صحيح البخاري ١٣٤/٥ ، يقول المأذون ابن حجر في الفتح تعليقاً على هذا الحديث : (وأن النبي ﷺ أرسل أصحابه بشر معونة بعد أن رجع عامر ، وأنه غدر بهم وأخْفَر ذمة عمِّه أبي براء) (٢٨٧/٧) .

يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، فإذا صنعت ما صنعت فلا تعصيني في هذه الخطة ، ارفعهم إلى متنع بلادهم وعليها قومهم وعزهم ، ثم الق القوم على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وكان أهلك لا خوف عليهم ، وإن كانت عليك أفالك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك . فغضب مالك من قوله وقال :

والله لا أفعل ، ولا أغير أمراً صنعته ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، وحدث بعده من هو أبصر بالحرب منك ، قال دريد :

يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأي ، هذا فاضحكم في عورتكم ، ومحكم منكم عدوكم ، ولاحق بمحض ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه .

فصلٌ مالك سيفه ، ثم نكسه ، ثم قال : يا معشر هوازن ، والله لتعطيني ، أو لأنكشن على السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا :

والله لئن عصينا مالكاـ وهو شاب - ليقتلن نفسه ، ونبقي مع دريد ، وهو شيخ كبير لاقاتل فيه ، ابن ستين ومائة سنة ، وأجمعوا أمرهم مع مالك ، فلما رأى ذلك دريد ، وأنهم قد خالفوه ، قال : هذا يوم لم أشهده ، ولم أغرب عنه :

أَخْبُرْ فِيهَا جَذْعَ
يَا لِيَتِنِي فِيهَا جَذْعَ

وكان دريد قد ذكر بالفروسيّة والشجاعة ولم يكن له عشرون سنة ، وكان سيد بنى جشم وأوسطهم نسباً ، ولكن السن أدركته حتى فني فناه . وهو دريد بن الصمة بن بكر ابن علقمة ^(١) .

هذه هي صورة القيادات في هوازن ، والخلاف بين القائدين كبير ، والشقة واسعة ، فدريد الذي يحمل على أكتافه خبرة مائة وأربعين عاماً من الحرب ، رأى مصير قومه بأم عينه حتى كأنما يرسم الصورة المأساوية رسمًا ، فتأنى طبق تقديره .

فهو يرى ابتداءً أن تخلف كعب وهلال وكلاب من بنى عامر سبب كاف لعدم المواجهة مع محمد صلوات الله عليه ، فهي العناصر الأقوى شيكمة ، والأصلب في الحرب ، والأنكى في القتال ، ولو كان يوم علاء ورفعة لما تخلف هؤلاء المقاتلون .

ويرى أن الشخص الذي تعرض هوازن لحربه هو محمد بن عبد الله القرشي دانت له القبائل ، وخضعت له العرب ، وانقسم أهلها جميعاً إليه بعد فتح مكة ، وكانت القبائل

(١) المغارى للواقدى ٢/٨٨٧ - ٨٨٩ .

جميعها تنتظر مصير الحرب بينه وبين قريش لتنضم إلى هنا أو هناك ، فخصم مالك ليس شخصاً عادياً ، بل هو البطل الذي انتصر على قبائل حجارة ونجد ، وهذا زعيم تميم وزعيم عامر وزعيم غطفان معه في فتح مكة .

ومن جهة ثالثة : فإذا أصر مالك بن عوف على حربه . فيمكن له أن يتنازل عن رأيه ويشارك في الخطة المناسبة لهذه الحرب .

واستمع دريد لخطة مالك ، بعد أن سمع أصوات الحيوانات والنساء والأطفال ، فكان ملخص خطته :

أن يحضر كل مقدسات المقاتل معه ليقاتل وينزد عنها ، ماله وحرمه وأملاكه من الإبل والبقر والشاة ، فهو الضامن له إلا ينهزم ، وعم يقاتل العربي إن لم يقاتل عن هذا ؟ عن ماله وشرفه وولده ؟ ولعل دراسة هذه العقلية تفينا في فهم مدى تغلغل الوثنية في عقل الأعرابي المقيم في الصحراء ، فالرغم من أن اللات هي إحدى اثنين من كبريات الآلهة عند العرب، فيما كانوا يقسمون دائمًا (اللات والعزى). أما العزى : فقد دمرها خالد بن الوليد رضي الله عنه ، بينما اللات لا تزال في حصنها وقدسيتها عند ثقيف ، وثقيف شريك رئيس في الحرب اليوم وهي جزء من هوازن ، والأصل أن يذكر اللات بصفتها الآلهة التي يقاتل عنها من هوازن ، فلم نجد من ذلك شيئاً يذكر ، إنما حصر القتال عن المال والأهل والولد ، ولم يذكر عن الآلهة شيء . وهذا يعني أنهم في أعماقهم يعرفون أن هذه الآلة مزورة لا تستحق الموت من أجلها : « وجحدوا بها وأستيقنها أنفسهم ظلماً وعلوا » [النمل : ١٤] . لقد جحدوا بآيات الله - عز وجل - ورسالة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وهم موقنون بها في أعماقهم ، لكنه استكبار الذات وعتوها أمام هذا الدين المتزل من عند الله . وكل ما ساقه مالك للنحو عنده والموت في سبيله هو التعم والشاء والنساء والولد .

ولعل تدمير العزى جعل قناعتهم بإمكان تدمير اللات أمراً سهلاً غير ممتنع ، وإذا كان الوليد بن المغيرة هو أكبر سدنة العزى ومقدساتها في الجاهلية ، فإنه خالد بن الوليد هو الذي هدمها قائلاً لها :

يا عز كفرانك لا سبحانه إنني رأيت الله قد أهانك

ونعود إلى الخطة العسكرية التي اقترحها مالك بن عوف النصري ، وكيف رفضها دريد بن الصمة الجشمي ولم يجد حرجاً أن يتهكم عليه قائلاً : راعي ضمان والله .

فخبرة دريد الطويلة العميقه علمته أنه لا يرد المهزوم شيء، وأنه على مالك أن يستفيد من خبرته، ويعيد الأنعام والنساء إلى معاقلهن في هوازن ، ويترك المعركة بين المقاتلين .

وأصرَّ مالك بن عوف - الذي كان في قمة زهوه وشدة بأسه في الثلاثين من عمره - على تنفيذ خطته أو الانتحار بسيفه ما لم تنفذ هذه الخطة ، وهو على ثقة من النصر ، ولا يريد أن يكون لابن الصمة دور فيه أو ذكر . وافترق القائدان على ضعن ، ولا شك أن بني جسم قد سكتوا على مضض حين سُقِّه رأى سيدهم وشيخهم ابن الصمة ، ولم يعد الجيش على قلب رجل واحد ، إنما كان موزع الهوى شت الرأي ، ورأى دريد المصير البائس لقومه أمام عينيه فراح يقول :

يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأى ، هذا فاضحكم في عورتكم ، ومحكم
منكم عدوكم ، ولاحق بمحض ثقيف وتاركم ... وهذا الذي كان .

وخططت مالك بن عوف للتتجسس وكشف أمر المسلمين وقوتهم وتخطيطهم ففشل ،
إذ قُبضَ عليه أثناء المسير إلى فتح مكة .

(فلما كانت بين العرج والطلوب أتوا بعين من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، رأينا هؤلئة حين طلعننا عليه وهو في راحلته ، فتغبيَّ عنا في هذه ، ثم جاءنا فأوفى على نchez فقد علَّه عليه ، فركضنا إليه فاراد يهرب منا - وإذا بغيره قد عَقَّلهُ أسفل من النchez وهو يغيبه . فقلنا : من أنت ؟ قال : رجل من بني غفار . فقلنا : هم أهل هذا البلد . فقلنا : من أى بني غفار أنت ؟ فعمي ولم ينفذ لنا نسباً ، فارددا به ريبة وأسانا به الظن ، فقلنا : فلما أهلك ؟ قال : قريباً ، وأوْمَا يبيده إلى ناحية . قلنا ، على أى ماء ؟ ومن معك هنالك ؟ فلم ينفذ لنا شيئاً . فلما رأينا ما خلط قلنا : لتصدقنا أو لنضربن عنك . قال : فإن صدقتم ينفعوني ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم . قال :

فإنما كان يرددنا أولاً فيسلك في بطن سرف حتى يخرج إلينا ، وإن كان يزيد قريشاً فيسلزه الطريق . فقال رسول ﷺ : « وأين هوازن ؟ » قال : تركتهم بيقاء وقد جمعوا الجموع ، وأجلبوا العرب ، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم ، وتركث ثقيفاً على ساق قد جمعوا الجموع ، وبعثوا إلى الجرش في عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً ، قال رسول الله ﷺ : « ولائي من جعلوا أمرهم ؟ » قال : إلى فتاهم مالك بن عوف . قال رسول الله ﷺ : « وكل هوازن أجاب إلى ما دعا إليه مالك ؟ » قال : قد أبطأ من بني عامر أهل الجد والجلد . قال : « من ؟ » قال : كعب وكلاب . قال : « ما فعلت هلال ؟ » قال : ما أقل ما ضوى إليه منهم . وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد

قدم عليهم أبو سفيان بن حرب ، فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون .
فقال رسول الله ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما أراه إلا قد صدقني » ، قال
الرجل : فلينفعنى ذلك ؟ فأمر به رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه وخافوا أن
يتقدم ويحذر الناس ، فلما نزل العسكر من الظهران أفلت الرجل ، فطلبه خالد فأخذه
عند الأراك وقال : لو لا وليت عهداً لك لضررت عنقك ، وأخبر به رسول الله ﷺ ، فأمر
به فحبس حتى يدخل مكة ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وفتحها أتى به إلى رسول
الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلمه ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس)١١(.

(١) المغارى ٤/٢ - ٨٠٦ .

تركيب الجيش الإسلامي

لابد لنا من استعراض الجيش الإسلامي أو إعادة استعراضه إلى الأذهان ، إذ فصلنا في الكتاب السابق في هذا الأمر بإسهاب .

لقد كان الجيش الإسلامي الذي مضى إلى حنين يضم أربع طبقات في تكوينه :

الطبقة الأولى : طبقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وتمثل أهل بدر وأهل بيعة الرضوان وكانوا في بيعة الرضوان حوالي ألف وخمسة . فالمؤثر يرفعهم إلى ثمانمائة ألف . والمقل يتزل بهم إلى مائتين ألف ، والارجع من تعداد الروايات أنهم كانوا خمسة ونيف ألفاً . وهذه الطبقة تمثل القيادات الكبرى في الجيش ، أو الطبقة القيادية .

الطبقة الثانية : من الذين اتبعوهم بحسان ، قبل رسول الله ﷺ اعتبارهم مهاجرين ولو كانوا في مصارفهم وباديتهم ، ويمثلون أكثرية الجيش ، وهم من القبائل المجاورة للمدينة : مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغذار .

وقد اعتبرهم رسول الله ﷺ قد خلصوا من انتقامهم الجاهلي ، وأصبحوا جزءاً من الأمة الجديدة التي تتولى الله ورسوله :

« أسلم ، وغفار ، وأشجع ، ومزينة ، وجهينة ، ومن كان من بنى كعب ، موالي من دون الناس ، والله ورسوله مولاهم » (١) .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله » (٢) .

لهؤلاء الذين كانوا على هدى من سبّهم من المهاجرين والأنصار ، وقسم كبير منهم لم يتع لهم أن يتلقوا التربية في مدرسة النبوة ، لكن الكثرين منهم كذلك كانوا يتربدون على المدينة ، ويلتقطون بررسول الله ﷺ ، وبعضهم كان مقيناً بشكل دائم مع رسول الله ﷺ . وكان لهؤلاء دور في تربية إخوانهم في مصارف قبائلهم ، ويزيد تعداد هاتين الطبقتين عن سبعة آلاف .

(١) صحيح الجامع الصغير للألبانى / ١ / ٣٥٨ .

(٢) صحيح مسلم / ٤ / ١٩٥٤ ح ١٨٩ (٢٠٢٥) .

الطبقة الثالثة : وتمثل الذين أسلموا حديثاً وانضموا إلى الإسلام بعد الحديثية والذين يتحدثون عن الحديثية على أنها الفتح المبين يعتبرون من أسلم بعد الحديثية هم مسلمة الفتح ، وعمر هذه الطبقة في الإسلام لا يتجاوز الستين في أقصى حد ، وقد يبلغ شهوراً وأياماً حسب تاريخ إسلامهم . ومعظم هؤلاء يحضرون المدينة لأول مرة ، ويشاركون في الجهاد لأول مرة ، ولعلهم يرون رسول الله ﷺ لأول مرة كذلك . وعلى رأس هؤلاء جميعاً : (بنو سليم) والذين بلغوا الفاً وتسعمائة على خلاف في الروايات، وهو لاء لم يصلوا إلى المدينة ، ولم يتلقوا التربية النبوية أبداً ، إنما انضموا إلى رسول الله ﷺ في القديد بعد متصف الطريق بين مكة والمدينة . لكن المهم في بنى سليم أنهم جاؤوا فرساناً جميعاً (ولما نزل رسول الله ﷺ قديداً لقيته سليم ، وذلك أنهم نفروا من بلادهم ففوه - وهم تسعمائة - على الخيول جميعاً مع كل رجل رمحه وسلامه ، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم ، فذكراً أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ حيث نزلا عليهم ، وحشدوا - ويقال : إنهم ألف - فقالت سليم :

يا رسول الله ، إنك تقصينا وتستغضتنا ونحن أخوالك (أم هاشم بن عبد مناف : عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بنى سليم) فقدمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاونا ، فإننا صبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، فرسان على متون الخيل)^(١).

ولو أحصينا خيول المسلمين جميعاً لوجدنا تعدادها تسعمائة ونيف كما ذكرها الواقدي، وخيل سليم وحدها تسعمائة ، وهذا يعني أن لبني سليم وحدها نصف خيالة المسلمين .

والسلاح الهجومي الأول في المعركة هو سلاح الفرسان ، وتقع عليه أهمية المواجهة الأولى . وبمقدار حرص رسول الله ﷺ على الاستفادة من طاقات بنى سليم رجالاً وخيلاً ، بمقدار تأييه في تقديرهم ، فهو لا ينسى - عليه الصلاة والسلام - أن عصية ذكوان ، وغضل والقارة هي من سليم وهذا التي فتك بسبعين من صفة جنته في بثرة معونة وقتلهم جميعاً .

ويريد أن يستفيد كذلك - صلوات الله وسلامه عليه - من النسب القريب الذي يربطه بهم، فهم أخواله كما أن بنى التجار سادة الأنصار أخواله، فبني التجار أخواله بجده عبد المطلب بن هاشم ، وسليم أخواله بجده هاشم بن عبد مناف ، وشنان بين القبيلتين، فبني التجار قامت على أكتافهم دولة الإسلام منذ ثمانى سينين وعاشوا هذا العمر كله في مدرسة النبوة ، وبنو سليم ينضمون الآن إلى الجيش الإسلامي بعد حرب على الإسلام استمرت ثمانى سنوات ، لكن خبرة بنى سليم في الحرب مشهورة لا يناظرها فيها أحد .

(١) المغارى للواقدى ٢/٨١٢ ، ٨١٣ .

وأمام هذه العوامل جميعاً قدم رسول الله ﷺ سلاح الفرسان كله وجعل عليه خالد بن الوليد ، كما جعل على بنى سليم الضحاك بن قيس الذى كان يعدل مائة رجل ، وانتظم الجيش الإسلامي بهذه الصيغة .

ولا يمكن أن ننسى ثلث شخصيات كبيرة اشتراكاً رمزياً في هذا الجيش ، كل واحدة تمثل قبيلة من أعظم قبائل العرب :

الشخصية الأولى: عبيدة بن حصن الذي أفنى عمره في حرب الإسلام والمسلمين .
وانضم قبيل الفتح للإسلام (وكان عبيدة في أهلها بتجدد فاته الخبر أن رسول الله ﷺ يريده وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين فسلك عن ركوبه ، فسبق إلى العرج ، فوجده رسول الله ﷺ بالعرج فقال:

يا رسول الله ، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعاً ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جلبة كثيرة ، ولست أرى هيأة حرب ، لا أرى ألوية ولا رايات ، فالعمرة تريده ؟ فلا أرى هيأة الإحرام ، فain وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله » .
وذهب وسار معه)١(.

وعبيدة بن حصن بن حذيفة بن بدر هو سيد بنى غطفان بلا منازع ، وهو الذي كان يسميه رسول الله ﷺ : الأحمق المطاع . فعن إبراهيم التخنعي قال : جاء عبيدة بن حصن إلى النبي ﷺ وعنه عائشة فقال : من هذه ؟ وذلك قبل أن ينزل الحجاب . فقال : « هذه عائشة » ، فقال : ألا أنزل لك عن أم البنين ، فغضبت عائشة وقالت : من هذا ؟ فقال النبي ﷺ : « هذا الأحمق المطاع » يعني في قومه . رواه سعيد بن منصور عن أبي معاوية عن الأعمش مرسلًا ورجاله ثقات ، وأخرجه الطبراني موصولاً عن جرير ؛ أن عبيدة بن حصن دخل على النبي ﷺ ، وعنه عائشة . قال : من هذه الحالسة إلى جانبك ؟ قال : « عائشة » ، قال : ألا أنزل لك عن خير منها ، يعني أمرأته .

الشخصية الثانية: الأقرع بن حابس التميمي سيد بنى تميم .

(ووجد الأقرع بن حابس بالسفريا قد وافاها في عشرة نفر من قومه ، فساروا معه ، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعبيدة) .

وسنجد لهاتين الشخصيتين دوراً سيئاً ولمن كان معهما نتحدث عنه في موقعه .

الشخصية الثالثة: علقة بن علابة - سيد بنى عامر ، وهو الذي نافر عامر بن الطفيلي ، ومضط بمنافرتهم كتب الأدب والتاريخ والترجم ، وكانا ندين في الزعامة .

(1) المغارى للواقدى ٢/٨٠٣ .

ولا يبعد أن يكون عامر بن الطفيلي قد توفي . أو أنه بقى في قومه معانداً لله ولرسوله ، ولم يشارك كما ذكرنا - إن كان حياً على بعض الروايات أنه وفد على رسول الله ﷺ بعد الفتح - في الانضمام إلى هوازن في حربها لرسول الله ﷺ .

وقد اعتبر هؤلاء الثلاثة من المؤلفة قلوبهم ، وأعطى كل واحد منهم مائة ناقة .

وتبقى هذه الطبقات الثلاث هي التي تمثل المهاجرين والأنصار ، وشرفها الله تعالى بالمشاركة في فتح مكة .

الطبقة الرابعة : وهي التي انضمت إلى الجيش الإسلامي بعد فتح مكة ، ويطلق عليها اصطلاحات : مسلمة الفتح ، أي الذين أسلموا بعد فتح مكة ، ومعظم هذه الطبقة من قريش ، ويبلغ تعدادها ألفين . وهذا رقم ليس بالسهل ، فهو بعد الأنصار أعلى الأرقام بالنسبة للقبائل . وقد شهدنا جنود القبائل من قبل ، حيث كان أكبر أرقامها ألفاً أو ألفاً ونinet ، أما الذين انضموا من قريش الآن هم ألفان . وأكبر ما استطاعت قريش أن تخشد ضد رسول الله ﷺ ألفاً من المقاتلين في بدر ، ولم يزد العدد في أحد عن ذلك ؛ لأنها استنفرت القبائل المجاورة والآحباش حتى بلغ تعداد جيش المشركين ثلاثة آلاف ، وفي الخندق استجمعت الأحزاب من كل قبائل العرب حتى بلغ العدد عشرة آلاف ، أما الآن فينضم إلى الجيش الإسلامي ألفاً مقاتل من قريش التي أمضت حياتها في حرب رسول الله ﷺ ، وهذه الألفان ليسا على نفسية واحدة ، فبعضهم خرج عن قناعة ، وبعضهم خرج مشركاً ، وبعضهم خرج يتربص الدوائر برسول الله ﷺ يريدون اغتياله ، وبعضهم مضى متفرجاً لا يشك في النصر ، لعل بعض الغنائم ينالها - وهؤلاء كثير في هذا الجمع الجديد - وبعضهم ولا شك قد انضم راسخ العقيدة ، قوى الإيمان ، وأغلب هؤلاء من أهل رسول الله ﷺ وعشيرته الأدرين الذين لم يتع لهم فرصة الهجرة ، وكانوا يخضعون لضغط قريش في حربها لرسول الله .

وها هي الفرصة الذهبية الآن المتاحة له لكن ينضوي تحت لواء قائده محمد ﷺ وسيد عشيرته ، ورسول رب العالمين . وهؤلاء ثبتوها في ساعة الهول مع رسول الله ﷺ كأشد ما يكون الثبات ، وكانوا عشرة من أهل بيته ﷺ ، وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأخر المؤمنين هجرة في الأرض . وهو الشاعر الذي نطق بلسانهم فقال :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة
وقد فرَّ من قد فرَّ عنه وأقشعوا
وعاشرنا وافق الجمام بنفسه
لما مسَّه في الله لا يتوجه
وهو لاء هم: العباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل، وعلى بن أبي طالب، وأبو سفيان

ابن الحارث ، وأخوه ربيعة بن الحارث ، وهؤلاء هم الذين ذكرهم ابن إسحاق : (وَمِنْ ذِكْرِ الزَّبِيرِ بْنِ بَكَارٍ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ ثَبَّتْ يَوْمَ حَنْينَ أَيْضًا : جعفر بن أبي سفيان بن الحارث ، وقثم بن العباس ، وعتبة ومنتب ابنا أبي لهب ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب)^(١) .

وباستثناء على بن أبي طالب، فكلهم حديث عهد بالإسلام ، وإذا أضفنا إليه العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأبا سفيان بن الحارث ، وعمر ابنته في الذين أسلموا قبل الفتح على الطريق ، فيكون الثمانية الباقون من مسلمة الفتح ، الذين دخلوا في دين الله عز وجل بعد فتح مكة .

ولا عجب في ذلك ، ففى سيوفهم في الجاهلية كانت حمايتهم رسول الله ﷺ ، وحاربوا الدنيا من أجلهم وعلى رأسهم شيخ بنى هاشم : أبو طالب ، فكيف يكون اندفاعهم في الإسلام وبعده ، وبعد أن أشرق النور في قلوبهم برأية الإسلام ؟

وكما ذكرنا من قبل تركيب جيش هوازن ، وجهل قيادة الجيش عن أوضاع جيش المسلمين بعد أسر جاسوس هوازن ، وذكرنا هنا تركيب الجيش الإسلامي بطبقاته المتنوعة . نلاحظ أن عيون المسلمين وجواسيسهم قد دخلت إلى قلب جيش هوازن وقدمن تقريراً مفصلاً عنه ، وكان ذلك بعد التحرك إلى وادي حنين .

(وخرج رجال من مكة مع النبي ﷺ فلم يغادر منهم أحداً - على غير دين - ركبائنا ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فصيبيون من الغائم . ولا يكرهون أن تكون الصدمة لمحمد ﷺ وأصحابه)^(٢) .

(وخرج مع رسول الله ﷺ ناس من المشركين كثير منهم صفوان بن أمية ، وكان رسول الله ﷺ قد استعار منه مائة درع بأداتها كاملة . فقال : يا محمد ، طوعاً أو كرهاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « عارية مؤذلة » ، وقال له رسول الله ﷺ : « اكتفنا حملها » ، فحملها صفوان على إبله حتى انتهوا إلى أوطاس ، فدفعها إلى رسول الله ﷺ)^(٣) .

لقد ضم هذا الجيش تقريراً كل القادة التاريخيين للإسلام والمسلمين ، منهم من أسلم ودخل في دين الله طائعاً مختاراً ، ومنهم من لم ينزل على شركه يتحمل الانقسام في شخصه بين الانضمام للإسلام والثبات على الشرك ، ونظره في المؤلفة قلوبهم والذين أخذوا نصيباً وافراً من غنائم حنين نلاحظ أنهم الأعداء الرئيسيون والتقليديون للإسلام منذ نشأته ، وهذه أسماؤهم :

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر / ٨ / ٣٠ .

(٢) المغارى للواقدى / ٣ / ٨٩٤ ، ٨٩٥ . (٣) المصدر نفسه .

أبو سفيان بن حرب وابناء يزيد ومعاوية ، وحكيم بن حزام ، والنصر بن الحارث ، وأسيد بن حارثة ، ومخرمة بن نوفل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب ابن عبد العزى ، والحارث بن هشام .

وهؤلاء جميعاً من قريش . ومن قبائل العرب أعطى :

عيبة بن حصن الفزارى الغطفانى ، والأقرع بن حabis التميمى ، وعلقمة بن علابة العامرى ، والعباس بن مرداس السلمى ، ومالك بن عوف النصرى (قائد جيش هوازن) ، والحارث بن الحارث بن كلدة الثقفى ، وخالد بن هودة العامرى وغيرهم . إذ يقول الصالحي : (وجميع ذلك يزيد على الخمسين)^(١) . وكل هؤلاء كانوا جنداً فى الجيش الإسلامى .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٧٦/٥ .

التربية في الطريق إلى المعركة

ذكر استعماله عليه السلام عتاب بن أسيد أميراً على مكة :

قالوا : لما بلغ رسول الله صلوات الله عليه وسلم خبر هوازن ، وما عزموا عليه ، أراد التوجه لقتالهم واستخلف عتاب بن أسيد أميراً على أهل مكة ، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه ، وكان عمر عتاب إذ ذاك قريباً من عشرين سنة .

استعارة السلاح :

روى ابن إسحاق من رواية يونس بن بكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم لما أجمع السير إلى هوازن ذكر أن له عند صفوان بن أمية أدرعاً سلاحاً ، فأرسل إليه - وهو يومئذ مشرك - فقال : « يا أبا أمية ، أعنرا سلاحك هذا نلقى به عدونا » ، فقال صفوان : أخصبنا يا محمد ؟ قال : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » ، قال : ليس بهذا بأس ، فاعطى له مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فسأله رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن يكفيهم حملها ، فحملوها إلى أوطاس . ورواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن أمية بن صفوان ، ويقال : إنه صلوات الله عليه وسلم استعار منه أربعمائة درع بما يصلحها .

قال السهيلي : واستعار رسول الله صلوات الله عليه وسلم في غزوة حنين من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال صلوات الله عليه وسلم : « كأني أنظر إلى رماحك هذه تتصف ظهر المشركين » .

عبد الله بن أبي حدرد لكشف خبر القوم :

روى ابن إسحاق في رواية يونس بن بكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم لما سمع بخبر هوازن بعث عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنهما فامرته أن يدخل في القوم فقييم فيهم . وقال : « اعلم لنا علمهم » فأتاهم فدخل فيهم فأقام فيهم يوماً وليلة أو يومين حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله صلوات الله عليه وسلم وسمع من مالك وأمر هوازن وما هم عليه .

وعند محمد بن عمر أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف فيجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لاصحابه : إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السحر فصفوا مواشיהם

ونساءكم من ورائكم ، ثم صفوا ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيفو فكم
فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن
الغلبة لمن حمل أولاً^(١) ، انتهى .

ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : « ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد ؟ » فقال عمر : كذب ، فقال ابن أبي حدرد : والله لئن كذبتنى يا عمر لربما كذبت بالحق . فقال عمر : ألا تسمع يا رسول الله ما يقول ابن أبي حدرد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت ضالاً فهذاك الله » .

خروج رسول الله ﷺ للقاء هوازن :

روى البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال حين أراد حنيناً : « متزناً عدّاً إن شاء الله تعالى بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » ، وفي رواية : « متزناً إن شاء الله تعالى إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر » .

قال جماعة من أهل المغارى : خرج رسول الله ﷺ في الثاني عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف من المدينة ، وألفين من مكة .

وروى أبو الشيخ عن محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثى قال : كان مع رسول الله ﷺ أربعة آلاف من الأنصار ، وألف من جهينة ، وألف من مزينة ، وألف من أسلم ، وألف من غفار ، وألف من أشجع ، وألف من المهاجرين وغيرهم ، فكان معه عشرة آلاف ، وخرج باثنى عشر ألفاً ، وعلى قول عروة والزهرى ولابن عقبة يكون جميع الجيش الذى سار بهم رسول الله ﷺ أربعة عشر ألفاً ؛ لأنهم قالوا : إنه قلم مكة باثنى عشر ألفاً ، وأضيف إليهم الفان من الظلقاء .

قال محمد بن عمر - رحمه الله تعالى : غدا رسول الله ﷺ يوم السبت لست خلون من شوال . وقال ابن إسحاق : لخمس ، وبه قال عروة ، واختاره ابن جرير ، وروى عن ابن مسعود .

قال ابن عقبة ومحمد بن عمر : ثم بعد فتح مكة خرج رسول الله ﷺ أنه مبادر بهوازن ، وصنع الله لرسوله أحسن من ذلك ففتح له مكة ، وأقر بها عينه ، وكبت بها عدوه ، فلما خرج إلى حنين خرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحداً ركباناً ومشاة حتى خرج معه النساء يمشين على غير دين نظاراً ينظرون ويرجون الغنائم ، ولا يكرهون أن

(١) كسر جفن سيفه : أى كسر غمد السيف ، ليقاتل فيه حتى النهاية .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٥٥ / ٣ / ٦٤٦ .

وكان معه أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وكانت امرأته مسلمة وهو مشرك لم يفرق بينهما ، وجعل أبو سفيان بن حرب كلما سقط ترس أو سيف أو متاع من أصحاب رسول الله ﷺ نادى رسول الله أن اعطيه أحمله حتى أوقر بعيره .

قال محمد بن عمر : وخرج رسول الله ﷺ وزوجاته أم سلمة وميمونة فضربت لهما قبة .

اجعل لنا ذات أنواط :

روى ابن إسحاق ، والترمذى وصححه ، والنمسائى وابن أبي حاتم عن أبي قتادة (١) الحارث بن مالك ثنا قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لکفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة (وعند الحاکم في الإکلیل : سدرة عظيمة يقال لها : ذات أنواط) يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، وينبذون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ :

« الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، قلت والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى : « اجعل لنا إلهانا كما لهم إله » قال إنكم قوم تجهلون (٢٦) » [الأعراف] ، إنها لسن ، لتركين سنّ من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » (٢) .

فدائى وحارس :

عن سهل ابن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطربوا السير ، حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمتهم وشائتم اجتمعوا إلى حنين . فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

« تلك غنية المسلمين إن شاء الله » ، ثم قال : « من يحرستنا الليلة ؟ » قال أنس بن أبي مرثد الغنوى : أنا يا رسول الله ، قال : « فاركب » فركب فرساً له ، فجله إلى

(١) والأصح أن اسمه أبو واصد كما في الإصابة ، الكتبى ٤/٧/٢٠٠ .

(٢) سنن الترمذى ٤/٤٧٥ ح ٢١٨٠ وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

رسول الله ﷺ قال له : « استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلىه ولا تُغَرِّنَ من قبلك الليلة » .

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال : « هل أحستم فارسكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما أحسنتا ، فُتُوب بالصلوة فجعل رسول الله ﷺ يصلى وهو يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال : « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » ، فجعلنا ننظر من خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله فقال : إنني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت اطلعتُ الشعرين كليهما فنظرت فلم أر أحداً . فقال له رسول الله ﷺ : « هل نزلت الليلة ؟ » قال : إلا مصلينا أو قاضياً حاجة . فقال له رسول الله ﷺ : « قد أوجبت ، فلا عليك ألا تعمل بعدها » (١) .

شعر عباس بن مرداس :

أبلغ هوازن أعلىها وأسفلها
مني رسالة نصح فيه تبيان
إنى أظن رسول الله صاحبكم
جيشاً له في فضاء الأرض أركان
فيهم أخوكم سليم غير تارككم
وال المسلمين عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد
والإجريان بنو عبس وذبيان
تكاد ترجمُ منه الأرض تربه
وفى مقدمه أوس وعثمان

قال ابن إسحاق : أوس وعثمان قيلا مزينة .

حفظه ﷺ من أراد الفتى به :

روى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

قال أبو بردة بن نيار : لما كنا دون أوطاس نزلنا تحت شجرة ، ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله ﷺ تحتها ، وعلق بها رسول الله ﷺ سيفه وقوسه ، قال : وكانت من أقرب أصحابه إليه ، قال : مما أفرغنى إلا صوته : « يا أبا بُرْدَةَ » فقلت : ليك ، فأقبلت سريعاً فإذا رسول الله ﷺ جالس ، وعنه رجل جالس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا الرجل جاء وأنا نائم ، فسل سيفي ، ثم قام به على رأسي ففزعت (٢) وهو يقول : يا محمد من يؤمنك من اليوم ؟ قلت : الله . قال أبو بردة : فوثبت

(١) سنن أبي داود ٩/٣٢ ، والترمذى وقال عنه ابن حجر فى الإصابة : « إسناده على شرط الصحيح » .

(٢) فزع هنا بمعنى : استيقظت ، وليس بمعنى الخوف . ففى القاموس المحيط : فزع من نومه : هب .

إلى سيفي فسللته ، فقال رسول الله ﷺ : « شم سيفك » . قال : قلت : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق عدو الله ، فإن هذا عين من عيون المشركين ، فقال لي : « اسكت يا أبي بردة » . قال : فما قال له رسول الله ﷺ شيئاً ولا عاقبه ، فجعلت أصبح به في العسكر ليشهده الناس فيقتله قاتل بغير أمر رسول الله ﷺ ، فاما أنا فإن رسول الله ﷺ قد كفني عن قتيله ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « اللهُ عن الرجل يا أبي بردة » ، قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقال :

« يا أبي بردة ، إن الله مانع وحافظ حتى يظهر دينه على الدين كله » (١) .

جواسيس العدو :

وروى أبو ثعيم والبيهقي من طريق ابن إسحاق قال : حدثني أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أنه حدث أن رسول الله ﷺ قد انتهى إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشرين خلون من شوال ، وبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر من هوازن يتظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر فرجعوا إليه وقد تفرقوا أو صالحهم . فقال : ويلكم ما شأنكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تناستنا أن أصحابنا ما ترى ، والله ما نقاتل أهل الأرض إن نقاتل إلا أهل السموات ، وإن أطعتنا رجعت بقronymك ، فإن الناس إذا رأوا مثل الذي رأينا أصحابهم مثل الذي أصحابنا . فقال : أَفِ لَكُمْ ، أَنْتُمْ أَجْبَنْ أَهْلَ الْعَسْكَرِ ، فجسّهم عنده فرقاً أن يشيع ذلك الرعب في العسكر ، وقال : دلوني على رجل شجاع . فأجمعوا له على رجل ، فخرج ثم رجع إليه قد أصحابه كثيرون ما أصحاب من قبله منهم . فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضاً على خيل بلق ، ما يطاق النظر إليهم ، فوالله ما تمالكت أن أصحابي ما ترى . فلم يشن ذلك مالكاً عن وجهه .

وروى محمد بن عمر نحوه عن شيوخه (٢) .

تعبيئة المشركين والمسلمين :

قال شيخ محمد بن عمر :

(ولما كان من الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعيّنهم في وادي حنين - وهو وادٌ أجوف ، ذو شعاب ومضايق - وفرق الناس فيه ، وأوزع إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة ، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه ، وصفّهم صفوفاً في

(١) مغازي الواقدي ٨٩٢/٣ وهي في دلائل النبوة للبيهقي مختصرة ١٢٣/٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤٦٨/٥ .

السحر، ووضع الألوية والرايات في أهلها مع المهاجرين : لواء يحمله على عتبة ، ورابة يحملها سعد بن أبي وقاص ، ورابة يحملها عمر بن الخطاب .

وفي الانصار رايات ، مع الخزرج لواء يحمله الحباب بن المنذر ، ويقال: لواء الخزرج الاكبر مع سعد بن عبادة ، ولواء الاوس مع اسيد بن حبيب . وفي كل بطん من الاوس والخزرج لواء او راية . . . وكانت رايات الاوس والخزرج في الجاهلية خضر وحمر، فلما كان الإسلام أقروها على ما كانت عليه ، وكانت رايات المهاجرين سود والألوية بيض ، وكان في قبائل العرب في أسلم راتبان . . . وفي بني غفار راية . . . ومع بني ضمرة وليث وسعد بن ليث راية يرد مع كعب بن عمرو راتبان . . . وكان في بني مزيينة ثلاثة رايات . . . وكان في جهينة أربع رايات . . . وكان في بني أشجع رايتان . . . وكانت في بني سليم ثلاثة رايات . . . وكان رسول الله ﷺ قد قدم سليمًا من يوم خرج من مكة فجعلهم مقدمة الخيل ، واستعمل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فلم يزل على مقدمته حتى ورد الجعرانة .

قالوا : وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه ، وقد مضت مقدمته وهو على تعبئة في وادي حنين فانحدر رسول الله ﷺ - وهو واد حدور - وركب رسول الله ﷺ بغلته البيضاء دلدل ، وليس درعين والمفتر والبيضة ، واستقبل الصفوف ، وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا (١) (٢) .

* * *

بعد دراسة تركيبة الجيشين نقضى مع الجيش الإسلامي ، وعلى قيادته رسول الله ﷺ ، وقبل أن نغادر مكة ، وهى عاصمة الشرك الكبير من قبل ، ومعقل العدو الأول ، كيف يتركها رسول الله ﷺ ، ولمن يتركها ؟

لقد كان بنو أمية هم الذين انتهت لهم السيادة في مكة ، فأبو سفيان بن حرب سيد بنى كنانة وقريش ، ولكنه قد أسلم اليوم ، وليس من السهل أن يمحى تاريخ كامل من حياته لحظات ، ومن جهة ثانية فلا بد أن يدخل مدرسة التربية النبوية ويقضى مع الجيش الإسلامي ليبدأ الحياة الإسلامية من جديد ، ويدخل دورات المبتدئين مكتفة عالية وهو وأمثاله من قضى على إسلامهم شهراً دون شهر ، وليس من السهل أن تأتى عصبية جديدة تكون لها القيادة في مكة ، فأبا بن العاص في غياب أبي سفيان في الحديبية هو

(١) المغارى للواقدى ٨٩٥/٣ - ٨٩٧ ، وقد أخذنا ترتيب الصالحي في سبل الهدى والرشاد ، ولم نغير إلا بعض العناوين . أو نقل بعض الروايات من المصدر الذى عزماها إليه .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي من بداية هذا الفصل ٤٦٥ - ٤٦٩ .

الذى أجار مبعوث محمد : عثمان بن عفان ، ودعاه ليلبلغ رسالة محمد إلى قريش ، وأركبه خلفه ، وقال له :

أقبل وأدبر ولا تخف أحداً
بنو سعيد أعزه الحرم

وكانت عظمة التربية النبوية فى اختياره والى مكة فى غيابه على من تبقى فيها من الشيوخ والعلماء والنساء والمرشken والمسلمين .

لقد اختاره - عليه الصلة والسلام - ابتداءً من بنى أمية، ولم يغير عصبية قيادة مكة. لكنه اختاره شاباً يتقد الإيمان فى قلبه ، وليس عنده من مورثات الجاهلية شيء ، ولم يخض معركة ضد الإسلام والمسلمين ، وتفرّس فيه النجابة والعبقرية والإيمان .

إنه عتاب بن أبي العيسى بن عبد شمس الأموى ، أسلم يوم الفتح. ويروى لنا ابن هشام فى السيرة قصة إسلامه فقال : (حدثني ... أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أبيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة . فقال عتاب بن أبيد : لقد أكرم الله أسيداً لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعه ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو نكلمت لأخبرت عنى هذه المقصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : « قد علمت الذي قلت » ، ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك) (١) .

وحيث إن أباء أسيداً الذى كان من أشراف بنى أمية قد توفى ، وأمام هذه المعجزة التى رأها بعين قلبه ، وأمام الانهيار العام للشرك والمرشken حيث تكسر الأصنام ، كان أن أشرق الإسلام فى قلبه ، وهو شاب فى العشرينات من عمره. (فاستعمله النبي ﷺ على مكة لما سار إلى حنين واستمر - وقيل إنما استعمله بعد أن رجع من الطائف - وحج بالناس ستة الفتح ، وأقره أبو بكر على مكة إلى أن مات يوم مات . ذكر جميع ذلك الواقدى وغيره وقالوا : وكان صالحًا فاضلاً وكان عمره حين استعمله نيقاً وعشرين سنة) (٢) . بينما يذكر الصالحي فى سبل الهدى أنه دون ذلك : (وكان عمر عتاب إذ ذاك قريباً من عشرين سنة) (٣) .

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٤١٣/٢.

(٢) الإصابة فى تميز الصحابة لأبن حجر ٢١٢/٤/٢ ت ٥٣٨٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤٦٢/٥ .

وكان موضع ثقة رسول الله ﷺ ، حتى إنه ليحج بال المسلمين هذا العام نيابة عن رسول الله ﷺ . وهو إذن أمير أول حج إسلامى على الأرض ، أو أول أمير إسلامى على الأرض ، وهو قمة في الورع والتقوى كما يقول عن نفسه :

(أصبت في عملي الذي استعملني عليه رسول الله ﷺ برب الدين معقدين كسوتها غلامي كيسان . فلا يقولن أحدكم : أخذت مني عتاب كذا ، فقد رزقني رسول الله ﷺ كل يوم درهمن ، فلا أشبع الله بطنا لا يشبعه كل يوم درهمان) (١) .

وخيرية هذا المعدن تتضح لنا من خلال هذه المفاجأة النبوية العظيمة لأميره عتاب .

قال له رسول الله ﷺ :

« يا عتاب ، تدرى على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله عز وجل ، ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم » (٢) .

فهو معدن نفيس يشهد له رسول الله ﷺ بالخيرية لهذا الموضع على جميع من حوله . ومع أنه في بداية شرخ الشباب كان من الحزم والقوة في دين الله ، ما جعل أهل مكة يضجرون منه لاستقامته في دين الله ، فعن أنس أن النبي ﷺ استعمل عتاب بن أبيد على مكة وكان شديداً على المريب ، لينا على المؤمنين وكان يقول : والله لا أعلم متخلقاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه .

ونقف ملياً أمام هذا النص لنتعيد صورة مكة كاملة من خلاله .

ما هو نظام الحكم في مكة خلال قرن على الأقل ؟

كان نظام الحكم فيها هو الذي صنعه قصي بن كلاب أحد أجداد رسول الله ﷺ حين أسس مكة الدولة وقسم قريشاً على فروعها ، وأسس دار الندوة بجوار الكعبة ، وكان مشيخة قريش يجتمعون فيها ، ويتحذون قراراتهم السياسية والعسكرية والاجتماعية ، ولها نظام صارم لا يدخلها إلا من تجاوز الأربعين من عمره ، فعضوية هذا البرلمان كانت موقوفة على الكبار ، وسن النائب فيه أربعون فما فوق ، وزعماء القبائل القرشية هم أصحاب القرار النهائي . وحين يفكر أحد في المساس في هذا النظام يخلع ويطرد .

(فكان قصي أول بنى كعب بن لؤى أصحاب ملكاً أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسكنية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً في قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، ويزعم الناس أن

(١) ، (٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥٥٦ / ٣ .

قريشاً هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصى بيده وأعوانه . فسمته قريش مجمعاً ؛ لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره ، فما تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشارون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواءً لحرب قومٍ من غيرهم إلا في داره ، يعتقد لهم بعض ولده . وما تدرَّج جارية^(١) إذا بلغت أن تدرُّج إلا في داره يشق عليها فيها درعها ثم تدرُّجها ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قريش في حياته . ومن بعد موته كالدین المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، وفيها كانت قريش تقضي أمورها^(٢) .

(وعندهما قرر بنو عبد مناف أن ينazuوا بنى عبد الدار شرف مآثر قريش ، انقسمت مكة إلى حزيبين ، وكادت الحرب أن تقع وتفنى الفريقين ، ثم سوت بين القبائل ، وليز بعضها ببعض فعيَّبت بنو عبد مناف لبني سهم ، وعيَّبت بنو أسد لبني عبد الدار ، وعيَّبت زهرة لبني جمع ، وعيَّبت بنو تم لبني مخزوم ، وعيَّبت بنو الحارث بن فهر لبني عدى ابن كعب ، ثم قالوا : لتقن كل قبيلة من أستند إليها ، فيينا الناس على ذلك قد أجمعوا أمرهم للحرب إذ تداعوا للصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، ولم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام^(٣) .

وتحجَّر المناصب احتاج إلى هذه التعبئة والمحاولات والتهديد بالحرب ، وعملية تغيير النظام السياسي باءت بالفشل ، فذاك عثمان بن الحويرث أحد الأربعة الذين تركوا دين قريش^(٤) ، ومضى إلى قصر فتنصر ودخل في دينه (وحسن منزلته عنده) . قال ابن هشام : ولعثمان بن الحويرث عند قصر حديث منعنى من ذكره ما ذكرت من حدث حرب الفجار) .

أما هذا الخبر فقد ذكره السهيلي في (الروض الأنف) بقوله :

(وأما الزبير فذكر أن قيسراً كان قد توجَّ عثمان^(٥) ، وولاه أمر مكة ، فلما جاءهم أنفوا من أن يديروا لملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى : الا إن مكة حى لقاح لا تدين لملك ، فلم يتم له مراده^(٦) .

(١) تدرُّج جارية : تلبس الدرع أى تحجب .

(٢) السيرة النبوية لأبن هشام ١٢٥/١ .

(٣) السيرة النبوية لأبن هشام ١٣٢/١ .

(٤) هؤلاء الأربعة هم : عبيد الله بن جحش ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو وعثمان هذا .

(٥) توج عثمان : جعله ملكا .

(٦) الروض الأنف للسهيلي ٢٥٥/١ .

ويقى أن نعرف أن هذا الذى رفض ملكية عثمان هو عمه ، فعثمان هو ابن الحويرث
ابن أسد بن عبد العزى بن قصى ، والأسود هو ابن أسد بن عبد العزى بن قصى .
ورفضت ملكية عثمان المدعومة من قيسار .

هذا النظام الذى عاشته مكة ما ينوف عن قرن ونيف يغيره رسول الله ﷺ ، ويضع
أمرها كلها بيد عتاب بن أسيد ابن العشرين عاماً ، والذى لا يحق له أن يشارك فى
السياسة قبل عشرين عاماً تقريباً فى حسابات النظام السياسى فى مكة .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فلم يُقدم رسول الله ﷺ على اختيار رجل من بنى
هاشم - عشيرته الأدنين - وكان العباس بن عبد المطلب بسته ونضجه وخبرته وتجربته فى
الحياة هو المؤهل لذلك ، وكلمن من القادة السياسيين المشاركون فى القرار فى مكة ، لكن
رسول الله ﷺ لا يريد فقط أن يغير نظام حكم وراثى سياسى ، إنما يريد أن يجتث من
الجذور كذلك ، فكرة العصبية الجاهلية .

« إلا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية
الجاج ، إلا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا فيه الديمة مغلظة مائة من الإبل ،
أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معاشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة
الجاهلية ، وتعظيمها بالأباء ، الناس لأدم ، وأدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : « يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّةٍ وَأَنْشَئَنَاكُمْ شَعُورًا وَقَبْلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ إِنَّ
اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ (٢٣) » [الحجرات] (١) .

فتولية العباس بن عبد المطلب لن تفسر عملياً إلا عصبية جاهلية ، فهو ولى عمه
مكانه ، وبنو هاشم جمیعاً متهمون فى مكة بولائهم لمحمد بن عبد الله ، وقلوبهم معه ،
ولم يكن بنو هاشم ليخفوا هذا التعاطف مع رسول الله ﷺ ، ومكة التى تعج بالثار من
محمد وصحابه ، والقلوب مكلومة لا يناسبها أن تحكم من أحد آل بيته أو أحد الأنصار.
وهم الأعداء التقليديون لمكة المكرمة ، فاختار رسول الله ﷺ عتاباً - وهو من العائلة
الحاکمة بمكة ، من بنى أمية ، ولكن ليس له ماض معاد للإسلام ، وليس له ثارات معه ،
وليس له عقد سابقة تفرض عليه بعض المواقف الجاهلية ، وكان بإمكان رسول الله ﷺ
أن يولي أبا سفيان إمرة مكة ، وهو القائد التاريخي لها وزعيمها وسيدها ويُذعن القوم له ،
لكن لأبي سفيان حساباته ، و الماضي ، وقناعاته ، فمن الصعب أن يتصور نفسه اليوم
بثوب جديدة ، وقيم جديدة يحكم بها مكة ، ولا يشعر أهل مكة أن ديننا جديداً ، وعقيدة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٢ .

جديدة لابد من تطبيقها على يد هذا النظام الجديد ، فاكتفى - عليه الصلاة والسلام - بإبقاء أميره من بنى أمية محافظة على مشاعر أهلها ، لكن بعقلية جديدة ، ونفسية جديدة ، و Capacities شبابية جديدة لتنفيذ أوامر هذا الدين الجديد كاملة .

ولسنا بقصد تغيير نظام سياسي فقط ، أو تغيير قيم الجاهلية فقط ، إنما نحن أمام دولة إسلامية تقوم ، حيث تعتبر أبرز مظاهرها إقامة الصلاة :

﴿الَّذِينَ إِنْ مُكَثَّنُوهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج] ، ومكة هي أول مدينة تدين للإسلام بعد مدينة المصطفى ﷺ ، فلابد أن تطبق فيها أحكام الإسلام كاملة ، وتطبق فيها الحدود الشرعية ، وتقام فيها صلوات الجمعة ، فهي من أول مهام الأمير الإسلامي ، وكان عتاب من المزرم والتصميم والإصرار على إقامة أحكام هذا الدين ما جعل أهل مكة يهابون سلطانه وسلطته ، ويصارعون في تنفيذ شعائر الله تعالى في الصلاة ويعلن منهجه بقوله :

(والله لا أعلم متخلقاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق) (١) .

ولشنته ثوابه اتهمه أهل مكة بالأعرابية فقالوا لرسول الله ﷺ :

(يا رسول الله ، استعملت على أهل الله أعرابياً جافياً) . فقال :

«إنى رأيت فيما يرى النائم أنه أتى بباب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقعقها حتى فتح له ودخل » (٢) .

فنحن إذن أمام شاب رباني يراه رسول الله ﷺ في نومه يقع بباب الجنة ويدخل ، ويمثل القدوة الخالصة في مجتمعه ، فهو نظيف القلب نظيف اليد ، يعيش كل يوم على درهمين ، وفي رواية : على درهم واحد .

هذا كله القسم الأول من الخبر ، فما هو القسم الثاني ؟

(واستخلف عتاب بن أسيد أميراً على مكة .

ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه :

فتاتب يمثل الشوكة والقوة والسلطان ، لكنه بحاجة إلى أن يكون في جواره فقيه عالم يبصره بالشريعة ويعرفه بأهوالها ، وعتاب بن مسلم الفتح ، لم يبر على إسلامه

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٤/٢١٢ ت ٥٣٨٣ .

أكثر من نصف شهر حين استلم هذا المنصب ، فمن معاذ بن جبل الذي كلف بهذه المهمة العظيمة أن يكون معلم الناس في السنن والفقه ؟

إنه في سن عتاب بن أسيد رضي الله عنه فهو في الثامنة والعشرين من عمره أو السابعة والعشرين ، لكنه يحمل أعظم تاريخ يحمله شاب في مثل سنه ، حضر بيعة العقبة وهو شاب أمرد ، وكان أحد السبعين العظام الذين قاتلوا عليهم دولة الإسلام ، وكان عمره في بدر عشرين عاماً ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، فتاريخه عريق في الجهاد ما فاته مشهد واحد مع رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه .

أما في العلم : فعن أنس مرفوعاً : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدها في دين الله عمر ، وأصدقها حياء عثمان ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ^(١) .

فهو فقيه الأمة الأول بلا منازع ؛ لأنّه أعلم الناس فيها بالحلال والحرام .

وهو أعلمها بالقرآن كذلك ، فقد روى قتادة عن أنس قال : جمع القرآن على عهد رسول الله صلوات الله عليه وسلامه أربعة كلهم من الانصار : أبي بن كعب ، وزيد ، وعاذ بن جبل ، وأبوا زيد أحد عمومتي) .

وهو حبيب رسول الله صلوات الله عليه وسلامه : فعن معاذ رضي الله عنه قال : لقيني النبي صلوات الله عليه وسلامه فقال : « يا معاذ ، إني لا حبك في الله » . قلت : وانا والله يا رسول الله أحبوك في الله . قال : « أفلأ أعلمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة : رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ^(٢) .

فتحن أمام جبل من جبال العلم وصفه رسول الله صلوات الله عليه وسلامه أنه سابق العلماء وفي مقدمتهم « يبعث له رتبة فوق العلماء » ^(٣) .

(وكان طويلاً حسناً جميلاً، حسن الثغر، عظيم العينين، أبيض، جعد، قطط) ^(٤).
هذا هو الرجل الثاني الذي اختاره رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ليكون بجوار عتاب بن أسيد رضي الله عنه . وهي دورة الدهر .

(١) إسناده صحيح ، أخرجه أحمد ١٨٤ / ٣ والترمذى (٣٧٩٣) وغيرهما ، وذلك كما ذكر محقق سير أعلام النبلاء ٤٤٦ / ١.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١ / ٤٥٠ وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح » ، وأخرجه أبو داود (١٥٢٢) في الصلاة ، والنسانى ٥٣ / ٣ ، وصححه الحاكم ٢٧٣ / ٣ ووافقه الذهبي .

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١٠٧ / ٦ ت ٨٠٣٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ١ / ٤٤٥ .

فقبل ثمان سنين ، كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أجمل الناس ، وأنعم فتى في قريش ، وأنهد فتى في مكة هو الذي اختاره رسول الله صلوات الله عليه وسلام ليكون بجوار أسد بن زرار - باني دولة الإسلام في المدينة - والذى مثل الشوكة والقوة فيها - وكان الفقيه المقرب بجواره مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان الشابان في نهاية العشرينات كذلك ، ومن عاصمة الدولة الإسلامية في المدينة إلى المركز الثاني للإسلام في مكة كان هذا التداول في التاريخ .

وقبل أن نغادر مكة نشهد هذا الخط الذي فتحه رسول الله صلوات الله عليه وسلام مع صفوان بن أمية الذي يعيش الآن في ظل المهلة التي أعطاها إياه رسول الله صلوات الله عليه وسلام :

« أنت في الخيار أربعة أشهر » .

ولا يزال على شركه في مكة ، فلم تفتح مغاليق قلبه للإسلام ، والإسلام تعامل ،

وها هو محمد بن عبد الله يزوره ، ثم يقول له :

« يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا » .

وما الذي تغير ، أفلم يكن صفوان هو عدو محمد عشرين عاماً ، وهو لا يزال على شركه . لم يدخل في الإسلام بعد ، وهو يحس بعنة في حلقه . فقد فقدَ مركز الزعامة الذي كان يتبوأه في مكة ، والمشاركة في القرار السياسي والمصيري لمكة ، وأصبحت السلطة حقيقة بيد محمد وأتباعه ، واستسلمت مكة صاغرة ، وهزم في المعركة ، وفرّ منها (إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة) .

ترى ، هل هذه بداية الخط الجديد في استعمال السلطة السياسية لإذلال رجالات مكة الذين صبروا على دين آبائهم وأجدادهم ، ينزع منهم السلاح أولاً ثم يحيلهم إلى مجرمي حرب ثانياً يحاكمون على ما يعتقدون !؟ . ولكن لهجة محمد بن عبد الله تتضاعف إكراماً وتقديراً : « يا أبا أمية » فهو يناديه بأحب الأسماء إليه .

واللفظ صريح : « أعرنا » . لكن هل من السهولة أن يقبل هذا الأمر وغيره على ظاهره !؟

لا يمكن أبداً أن يكون ساذجاً لهذا الحد ، ولذلك ثار في نفسه سؤال لم يخفيه فقال :

أغضباً يا محمد ؟

قال - عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » .

ولقد جربَ محمدًا في أمانته ، فما رأى له غدرة قط ، ولا نكت معه قط ، وهذه الأيام الخمس عشرة التي ترك فيها الخيار له ، فلم تعتد له يد بسوء ولا عين بشzer ، يحضر

المجالس التي ي يريد ، ويضىء حيث يريد دون أن يتعرض له أحد بسوء ، فقد وفى محمد بهله وذمه .

وحيث تأكيد أن الأمر هو أمر مصلحة متبادلة وثقة وتعامل ، لم يتردد في الإعارة ، ثم يطلب منه رسول الله ﷺ أكثر من ذلك ، أن يحمل هذه الأدراج والأسلحة لمواجهة هوازن ، فلا يرى حرجاً في ذلك . فمحمد اليوم سيد قريش وسيد مكة ، وقد دانت له العرب قاطبة ، فإن كانت هوازن تريد أن تنازعه السيادة فهو مع محمد بن عبد الله الذي خبره منذ ثلاثين عاماً وأكثر ، والذي تعامل معه في اللحظات العصيبة بأرفع التعامل وأعلاه ، كان ذاك يوم جاء مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ في أول لقاء بعد حرب عشرين عاماً بينهما (فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يصلى بال المسلمين العصر في المسجد فوقها ، فقال صفوان : كم تصلون في اليوم والليلة ؟ قال عمير : خمس صلوات . قال : يصلى بهم محمد ؟ قال : نعم . فلما سلم صاح صفوان : يا محمد ، إن عميراً جاءنى ببردك ، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين . قال : « انزل أبا وهب ». قال : لا والله حتى تبين لي . قال : « بل تسير أربعة أشهر » ، فنزل صفوان ، وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر . وأرسل إليه يستعيده سلاحه ، فأغاره سلاحه مائة درع بآداتها ، فقال : طوعاً أو كرهاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « عارية مؤدة » فأغاره ، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين) (١) .

ورسول الله ﷺ يسعى إلى كسر الجليد بينه وبين صفوان ، فقد أقدم على أمر أكبر من الأدراج وذلك حين أقدم على استقراض المال منه بعد نزوله مكة .

قال محمد بن عمر : (وحدثني عبد الله الهذلي عن أبي حصين الهذلي قال : استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش ؛ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه ، واستقرض من عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف) (٢) .

واستعار رسول الله ﷺ من ابن عمته نوفل بن الحارث ثلاثة آلاف رمح فقال ﷺ :

(١) المغازي للواقدي ٨٥٤ / ٢ ، وقد أخرجه مالك عن ابن شهاب كما في سير أعلام النبلاء ٥٦٥ / ٢ وقال المحقق فيه : قال ابن عبد البر : وهو حديث مشهور عند أهل السير ، وابن شهاب إمام أهل السير ، وكذلك الشعبي .

(٢) المغازي للواقدي ٨٦٣ / ٢ .

« تأني أنظر إلى رماحك هذه تتصف ظهر المشركين » .

ولا عجب ، فنوفل قد أسلم مع مسلمة الفتح ، وبعض الروايات تشير إلى إسلامه بعد الخندق ، وأنه حضر بيعة الرضوان ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، فلا غرو أن يحدّثه رسول الله ﷺ عن قصف رماحه لظهور المشركين .

ونوفل بن الحارث هذا هو الذي أسره المسلمون يوم بدر ، وافتداه عمه العباس من ماله .

* * *

ولابد أن تكون الخطوة النبوية الأولى حين يتم الاتجاه نحو العدو هي معرفة هذا العدو وقواته ورجاله وخططيته ، فاختار رسول الله ﷺ أحد جنوده النجباء ، وبعثه عيناً له على العدو ، وكان هذا الجندي عبد الله بن أبي حبيب الأسالمي ، وقد انضم إلى الصف الإسلامي مع الراعيل الأول من أهل بيعة الرضوان وما تلاها من مشاهد ، وهو صاحب القصة الطريفة حين جاء يستعين رسول الله ﷺ في مهر زوجته . يقول خواصه :

تزوجت ابنة سراقة بن حراثة التجارى وكان قتل بيدر ، فلم أصب شيئاً من الدنيا كان أحب إلى منها من مكانها ، فأصدقتها مائتى درهم ، فلم أجد شيئاً أسوقه إليها ، فقلت : على الله وعلى رسوله المعوّل ، فجئت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « كم سقت إليها » ، قلت : مائتى درهم . فقال : « لو كتمت تغترفونه من ناحية بطحان^(١) ما زدت ». فقلت : يا رسول الله ، أعني في صداقها ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وافقت عندنا شيئاً أعينك به ، ولكن قد أجمعنا أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلاً في سرية ، فهل لك أن تخرج فيها ، فإني أرجو أن يغمض الله مهر أمرائك ... » .

ويحدثنا خواصه عن جولته في جهاده هذا بقوله :

فجرد أبو قتادة سيفه ، وجردنا سيفانا ، وكبر وكبرنا معه ، فشدّدنا على الحاضر ، فقاتل رجال ، وإذا برجل طويل قد جرد سيفه صلنا ، وهو يمشي القهقرى ويقول : يا مسلم ، هلم إلى الجنة فاتبعته ثم قال : إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر ، وهو يقول : الجنة ! الجنة ! يتهكم بنا ، فعرفت أنه مستقتل ، فخرجت في أثره ، فأدركته فرميته على جريداء منته^(٢) ، ثم قال : ادن يا مسلم إلى الجنة ، فرميته حتى قتله بنبل ، ثم وقع ميتاً فأخذت سيفه ... ولما رجعت من غرفة خضرة وقد أصبنا فيها ،

(١) بطحان : اسم واد بالمدية .

(٢) جريداء منته : أي وسطه وهو موطن القفا المتجرد من اللحم .

سهم كل رجل منا اثنا عشر بعيراً دخلت بزوجتي ، فرزقنى الله خيراً)١١(.

وذكر له رسول الله ﷺ تلك البطولة النادرة في قتل كبش كيبة العدو ، فأرسله في هذه المهمة وهي تحتاج إلى شجاعة من جهة ، ولباقة وذكاء من جهة أخرى ، وقال له : « انطلق فادخل في الناس حتى تأتى بخبر منهم ، وما يقول مالك » .

فهو لم يذهب مقاتلاً ، إنما ذهب مستخبراً ، ونجاح مهمته الحقيقي أن يأتي بخبر القوم ، وقد رأينا من قبل كيف انكشف عين هوازن حين لم يحسن التصرف ، ولم يحسن الاتمام لغفار ، واضطر أن يفضح مهمته حفاظاً على حياته من القتل ، وابن أبي حدرد قد ينتهي إلى النتيجة نفسها لو وقع في الارتباك الذي وقع فيه جاسوس هوازن ، فماذا كانت نتيجة مهمته ؟

فخرج عبد الله فطاف في عسكرهم ، ثم انتهى إلى ابن عوف فيجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يقاتل فقط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فينصر عليهم ، فإذا كان في السحر ، فصفوا مواشيم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم صفوا صفوكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيفوفكم فلتلقوه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن ، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .

فلما وعى ذلك عبد الله بن أبي حدرد رجع إلى النبي ﷺ فأخبر بكل ما سمع ، لقد نجحت مهمة ابن أبي حدرد أعظم نجاح ، فجاء بخبر القوم كاملاً ، وجاءه بنسخة كاملة عن خطة العدو وكأنها هي مصورة من ملفاته ، وحضر اجتماع تقرير خطة المواجهة ونقلها إلى رسول الله ﷺ .

فتحن إذن أمام جيشين : جيش هوازن ، وجهله مطبق تماماً عن عدوه ؛ لفشل مهمة استخباراته والقبض عليها حتى تحول إلى جندى إسلامى ، وبين جيش إسلامى نبوى ، يعرف كل شيء عن عدوه ، ويعرف خطته كاملة في المواجهة . وأول أسباب النصر معرفة العدو على حقيقته ، وهذا درس للدعاة والحركات الإسلامية اليوم عليها أن تعية وتستوعبه ، فكثيراً ما وقعت المحن الرهيبة في الإسلاميين نتيجة جهلهم المطبق بإمكانات عدوهم وخططه ومدى قوته ، وأحياناً يستدرج عدو الإسلاميين العاملين للإسلام ويستفرهم متظاهراً بالضعف ليهاجم الإسلاميين ، فينزل بهم بأسه وسطوته .

ولعل ما نزل بالعاملين للإسلام في كثير من الأقطار من البلاء والمحنة دليل على

(١) المغارى للواقدى ٢ / ٧٧٨ - ٧٨٠ مقتطفات .

ذلك ، وحين يأتي الإسلاميون لتفوييم الأمر يقومونه خطأ كذلك ، ولا يعيدون شيئاً من التقصير عليهم .

ولهم برسول الله ﷺ الأسوة الحسنة ، كما شهدنا في مستهل هذه الغزوة .

وأمام هذه المعلومات الخطيرة استدعي رسول الله ﷺ أكبر أركان حربه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأدلى له بالمعلومات التي وصلته من ابن أبي حدرد ، وفوجئ عمر بهذا الكلام الخطير عن قوة العدو وخطته فلم يتمالك أن قال : كذب ابن أبي حدرد ، فقال ابن أبي حدرد : لئن كذبتني لربما كذبت بالحق .

وكادت القضية الجانية تطغى على الموقف ، لكن أدب عمر رضي الله عنه أنهاها حين قال لقائده : يا رسول الله ، اسمع ما يقول ابن أبي حدرد .

قال : « صدق ، كنت ضالاً ، فهذاك الله » .

وأطفيت الفتنة ، وبقيت هذه المعلومات هي التي يتم بناء الموقف الإسلامي عليها . وجاء ما يؤكد هذه المعلومات من طرف آخر ، حيث قام بمهمة الاستخبارات جندى مسلم آخر لا نعرف اسمه ، لكنه أدى بعلماته على الملا .

قالوا : وكان سهل ابن الحنظلة الأنصارى يقول : سرنا مع النبي ﷺ في غزوة هوازن ، فأسرع السير حتى أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، قد تقطعوا من ورائك ، فنزل ، فصلى العصر وأوى إليه الناس ، فأمرهم فنزلوا ، فجاء فارس فقال : يا رسول الله ، إنني انطلقت من بين أيديكم على جبل كذا وكذا فإذا بهوازن على بكرة أبيها بظعنها ونسائها ونعمها في وادي حنين .

واختلفت صورة العرض بين الجنديين ، فقد قدم ابن أبي حدرد رضي الله عنه معلوماته لقائده مباشرة دون أن يكون معه أحد - وهذا هو الأصل - ومن أجل هذا استدعي رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه بصفته المستشار العسكري الأول ؛ ليثبthese هذه المعلومات ، ويتم الموقف المناسب على ضوئها ، ولم يعتبر النيل منه والذى تم على لسان ابن أبي حدرد ذا شأن ، فذكره بجهالته وتتابع بعدها بحث الخطة المناسبة مع عمر رضي الله عنه لمواجهة خطة هوازن ، ولا ندرى فقد يكون الإسراع في السير جزءاً من الخطة لاحتلال موقع معين قبل أن تختله هوازن ، وعندما لم يتمكن الجيش أن يتبع هذا السير الجاد توقف رسول الله ﷺ لصلة العصر حتى يصل بقية الجيش ويتکامل .

وحدث في هذه الائتماء ، وأمام جمع غير من الصحابة والجنود قدم هذا الفارس المسلم تقريره عن قوة هوازن وخروجهها عن بكرة أبيها لمواجهة محمد رسول الله ﷺ .

والقائد البصير يدرك خطورة هذا الكلام على نفسية جنده حين يسمعون عن الأعداد الهائلة التي سيواجهونها ، فكيف إذا كان سيد الخلق ، وقائد القادة - عليه الصلاة والسلام - والقوة المعنوية هي أكبر زاد يملكون المسلمون في حربهم .

فابتسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنية المسلمين غداً إن شاء الله » .

فهو يبيث في جنوده روح العزيمة والثقة بالنصر والقضاء على العدو .

هذا جانب من القضية ، لكن لا يجوز أن يتم هذا على حساب الإعداد والاستعداد للمواجهة ، وكما قلنا : فقد يكون جزء من الخطأ الإسراع في السير - لكن الجانب الذي برع أنه فعلاً تخطيط احتياطي مكافئ - هو البحث في الواقع الأخرى القرية لهوازن إن كان لهم كمين أو مدد ، فهو لا يكفي - عليه الصلاة والسلام - بأن يواجه جيشاً بهذه الصخامة ، وتجه قناعته إلى أن العدو هو الذي يواجهه فقط ، إنما القائد البصير هو الذي يضع في حسابه كل الاحتمالات ، فلو تقدم إلى الأمام للمواجهة قد ينقض عليه فريق من العدو من خلفه فيصبح بين فكي كعasha ، وتبدد قوته . ومن أجل ذلك أتجه رسول الله ﷺ إلى البحث في الواقع الخلفية والمجاورة عن وجود قوات احتياطية للعدو .

(ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ » إذ أقبل أنيس بن أبي مرثد الغنوى على فرسه . فقال : أنا ذا يا رسول الله ، فقال :

« انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا ، فلا تنزلن إلا مصليناً أو قاضي حاجة ، ولا تُغرنَ من خلفك » ، قال : وبتنا حتى أضاء الفجر ، وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « أحسستم فارسكم الليلة ؟ » قلنا : لا والله ، فأقيمت الصلاة فصلى بنا ، فلما سلم رأيت رسول الله ﷺ ينظر خلال الشجر . فقال : « أبشروا ، قد جاء فارسكم ... » .

الأمور تتتابع ، وبعد صلاة العصر يأتي خبر الفارس الذي جاء بأخبار هوازن ، ويقدم الليل فيخشى رسول الله ﷺ أن يؤتى من خلفه أو من الواقع المجاورة فقال ﷺ : « ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ » ، إنها دعوة لاستكشاف الطاقات الفدائية ، وحيث لم يأت جواب كان أنيس بن أبي مرثد الغنوى الفارس قد قدم خوفاً ، وأعلن استعداده أن يكون ذلك الحارس .

ولأول مرة يمر معنا هذا الاسم ، أما اسم أخيه مرثد بن أبي مرثد فقد كان معنا منذ فجر الدعوة ، لقد كان من الرعيل الأول في بدر ، وكان من السابقين الأولين من المهاجرين ، وكان أبوه أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب ، وتذكر بعض الروايات أن

مرثداً ورسول الله ﷺ كانا يعتقبان على بعير واحد في بدر من بين ثلاثة شاركوا في هذا الركوب ، أما أخوه أنيس فلم نسمع به حتى الساعة ، ونبحث عنه في كتب الترجم فتفيدنا هذه الترجم عن روایته لحدث واحد فقط دون استعراض لتاريخ حياته ، ومع ذلك لو لم يكن له إلا هذه الحادثة لكتبه بشهادة رسول الله ﷺ .

رسول الله ﷺ يرعى فارسه بقلبه ويقلق عليه عند تأخره مع انبلاج الفجر ، ويشغل المسلمين به : « أحسست فارسكم الليلة ؟ » قلنا : لا يا رسول الله ، وما أن يسلم من صلاته حتى يتبع تلفته - صلوات الله عليه - يبحث عن الفارس الحارس ، الذي لم تكن حراسته أمتاراً بجوار الجيش إنما كانت حراسته في الجبال المجاورة ، وهو على ظهر فرسه ، وربط الجيش كله بقدم الفارس ، ثم قال :

« أبشروا قد جاءكم فارسكم ». .

فمن المحتمل أن يكون العدو قد انقضى عليه وقتله لو رأه في هذه الامكنة أو كان له وجود فيها ، فاستحق المسلمون البشرة بقدوم الحارس الفارس ، الذي تقدم فقال :

(يا رسول الله ، إنني وقفت على الجبل كما أمرتني فلم أنزل عن فرسي إلا مصلباً أو قاضى حاجة حتى أصبحت) . فقد أمضى ليه كله على متن فرسه وهو يجوب في هذه الجبال في ظلام الليل ، قال رسول الله ﷺ : « انطلق وانزل عن فرسك ». .

وجلس رسول الله ﷺ إلى جيشه ليستمر هذه الحراسة ، ويضع القدوة العظيمة ، بين يديهم ، ويشير لهذا الجهد العظيم الذي قدمه حارسه ، فقال للجيش وهو يتحدث عن حارسه وفارسه :

« ما على هذا إلا يعمل بعد هذا عملاً ». .

نعم ولو لم يكن له إلا هذا العمل لكافاه .

وتركت هذه الكلمة لتعمل وتأخذ مداها في قلوب ومشاعر هذا الجيش النبوى الفتى ، فيتعلم ويتدرّب أصول الفروسية وأصول الانضباط ، وأصول الطاعة ، وأصول التنفيذ ، وأصول الجنديه ويسمع بشمرة هذه الطاعة إلى أين تقود صاحبها بهذا الاتجاه .

« ما على هذا إلا يعمل بعد هذا عملاً ». .

هذا هو جانب التربية في القدوة والثناء عليها ، ويطالعنا من جانب آخر التربية بالمعجزة الربانية والتي أدت إلى بث الرعب في قلوب جواسيس العدو .

لقد أعطى رسول الله ﷺ خمساً لم يعطهن أحد قبله ، ومن هذه الخمس :

وهذا الرعب الذي نزل بالجوايسين نشهده كما ذكر البيهقي وأبو نعيم والواقدي والرواية للواقدي :

(وانتهى رسول الله ﷺ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء عشر ليالٍ خلون من شوال ، وبعث مالك بن عوف رجالاً ينظرون إلى محمد وأصحابه - ثلاثة نفر - وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر ، فرجعوا إليه وقد تفرقوا أوصالهم . فقال : ما شأنكم وبلكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماستنا أن أصحابنا ما ترى ، وقالوا له : ما نقاتل أهل الأرض إن نقاتل أهل السموات ، وإن أفتدة عيونه - تخفق . وإن أطعتنا رجعت بقومك ، فإن الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصحابهم مثل الذي أصحابنا . قال : أَفْ لَكُمْ . بِلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ أَجْبَنْ أَهْلَ الْعَسْكَرِ . فحبسهم عنده ، فرقاً أن يشيع ذلك الرعب في العسكر) .

وهذه التربية للعدو ، فالمؤمنون لم يروا ما رأى هؤلاء الجوايسين ، ولم يتمكنوا من التعرف على جيش محمد ﷺ ، إنما رأوا ملائكة يملؤون ما بين السماء والأرض ، ولاجل هذا قالوا مالك قائدتهم : ما نقاتل إلا أهل السموات ، ولو كان مالك بن عوف متنازلاً عن غطرسته واندفعه لفَكَرَ ملياً بهذا الأمر ، وجنب قومه هذه الكارثة ، لكنه ماض في اندفاعه وجاهليته ، ولهذا راح يضم هذا الوفد الثلاثة بأنهم أصحاب أهل العسكر ، ولا غرو فأذن لهم تتحقق بين يديه ، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي نصّح فيها مالك بعدم المواجهة ، فقد نصحه دريد بن الصمة من قبل ألا يواجه محمدًا ؛ لأنّه قد هزم العرب قاطبة وهزم اليهود في خير ، فلم يرعوا لتداه ، ومع هذا فمالك يود أن يتعرف على أوضاع جيش محمد ﷺ ، فسأل عن أشجع أهل العسكر فذلوه عليه ، فأجمعوا على رجل فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصحابه نحو ما أصحاب من قبله منهم ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضاً على خيل بلق ، ما يطاق النظر إليهم ، فوالله ما تماست أن أصحابي ما ترى ، فلم يثنه ذلك عن وجهه .

إنه وهو يرى حوله عشرين ألفاً من قومه لا يمكن أن يرعى أو يثنى ، رغم ما رأى من الآيات الباهرات ، ولاشك أن هذا الكلام قد سرى في صفوف الجيش وبث الرعب فيه ، وما كان يصل إلى مسامع هذا الجيش من انتصارات سابقات جعله يقدم على المعركة مهزوز النفس ، متعدد الخطوات . إضافة إلى الجهالة الكاملة عن جيش محمد الذي

(١) من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم ، وهو عند مسلم / ١٣٧٠ ح (٥٢١/٣) .

انضممت إليه هذه الرجال البيض والخيل البلق .

فتحن أمام جيشهن ، نعود ثانية لنعرض نفسيات جنودهما ، فالمسلمون المؤمنون الواثقون بموعد الله سمعوا بكلمات هوازن مثل الجبال ومعها نعمها ونساؤها وظعنها ، لكنهم سمعوا موعد الله تعالى لهم بلسان رسول الله ﷺ : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » .

وذاك جيش هوازن وقد سمع عن جيش محمد من الرجال البيض والخيل البلق ، وكيف أقسم العيون الذين رأوه أنهم إنما يقاتلون أهل السموات لا أهل الأرض ، قال هذا الوفد الأول ، وقاله أشجع أهل العسكر ، لكن إصرار مالك على المواجهة كون نوعاً من الإرهاب النفسي عن الجيش من أن يقوم في داخلة تمرد أو عصيان ، ويشاء قدر الله أن تقع المواجهة .

ولعلنا كذلك أمام محاولة أخيرة من تخطيط مالك بن عوف النصري ، هذه المحاولة هي التخطيط لاغتيال محمد ﷺ ، وبذلك يربح المعركة قبل وقوعها ، وقد شهد المسلمون آثار هذه المحاولة دون أن يشهدوا التخطيط لها كما ذكر لنا أبو بردة بن نيار ثوريثة ، وكانت هذه المحاولة قريب الوصول إلى أوطاس - ساحة المعركة .

قال أبو بردة بن نيار : لما كان دون أوطاس تحت شجرة ، ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله ﷺ تحتها ، وعلق بها سيفه وقوسه ، قال : و كنت من أقرب أصحابه إليه ، قال : مما أفرغنى إلا صوته : « يا أبا بردة » ، فقلت : ليك ، فأقبلت سريعاً فإذا رسول الله ﷺ جالس وعنده رجل جالس ، فقال رسول الله ﷺ :

« إن هذا الرجل جاء وأنا نائم ، فسلَّ سيفي ثم قام به على رأسى ففزعته به وهو يقول : يا محمد من يؤمِّنك مني اليوم ؟ قلت : الله ». قال أبو بردة : فوثبت إلى سيفي فسللتة . فقال رسول الله ﷺ : « شِمَ سيفك ». قال : قلت : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق عدو الله ، فإن هذا من عيون المشركين . فقال لي : « اسكت يا أبا بردة ». فما قال له رسول الله ﷺ شيئاً ولا عاقبه ، فجعلت أصبح به في العسكر ليشهده الناس فيقتله قاتل بغير أمر رسول الله ﷺ ، وأما أنا فقد كفني رسول الله ﷺ عن قتله ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « الله عن الرجل يا أبا بردة ». قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا بردة ، إن الله مانع وحافظ حتى يظهر دينه على الدين كله ». .

إنها المعجزة الثالثة ، والبريد الثالث إلى مالك بن عوف النصري قائد جيش هوازن ، فقد حمى الله تعالى محمداً من القتل بعد أن أصبح بيد الفاتك ذلك ، ومنع رسول الله

صحابه أن يقتلوه ، ومنع أبي بردة أن يقتله حتى يعود إلى مالك بن عوف وإلى جيش هوازن فيحدثها بالمعجزة التي شهدتها ، وكيف خارت قواه والسيف بيده . وكيف انهارت عزيمته ، وهو بيده السيف الذي يقطع به عنق محمد ، وكيف رأى الموت بين عينيه بعد سقوط سيف محمد من يده ، واستدعاء أبي بردة ، ثم عادت له روحه يوم كف محمد عليه السلام أبو بردة عن قتله ، وكيف عاد الموت يتراقص بين عينيه يوم راح أبو بردة يصرخ بال المسلمين ليقتلوه قبل أن يصلهم نهى رسول الله صلوات الله عليه وسلم عن قتله ، ثم غاض صوت أبي بردة ومضى متسللاً بين الصفوف ، وفر عائداً إلى قومه .

إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم يريد أن يتجنب المسلمين كذلك معركة مدمرة ، ويجد أن تهيا القلوب للاستماع إلى الإسلام ، وأن تستسلم هوازن كما استسلمت مكة ، لكن مالك بن عوف كان كقيادات مكة التي أصرت على الحرب . كان مثل : صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، قد غشى على قلوبهم ، واشتعلت حمية الجاهليّة في نفوسهم دون إدراك للعواقب المترتبة على المواجهة ، فالتربيّة عند رسول الله صلوات الله عليه وسلم هي المبدأ ، وهو يريد أن يتحدث أبو بردة بن نيار بما سمع ، فيشهد المسلمون معجزة نبوية لم يسبق لهم أن شهدوها من قبل ، فقرابة ثلثي الجيش يخوض المعركة لأول مرة مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وقد سمع بالمعجزات النبوية ، لكنه لم يرها من قبل ، وهو ينظر إلى أنه يخوض معركة من معارك العرب والإسلام تنتهي بهزيمة هوازن ، وأخذها مع ظعنها ونسانها ونعمها غنائم توزع على المقاتلين ، أما رسول الله صلوات الله عليه وسلم فيريد أن تسلم هوازن ، وتستسلم دون قتال ، فكانت المعجزات تترى لتصل تباعاً إلى قيادة جيش هوازن لكن دون جدوٍ ، فالمعركة مفروضة لا خيار فيها .

والدليل على أن أكثر من ثلثي الجيش لا يزال يتطلع إلى الغنائم أكثر من تطلعه إلى انتصار العقيدة : هو النكسة الأولى التي أصابت الجيش وهو في طريقه إلى المعركة مع هوازن ، والتي رواها لنا أبو قتادة الحارث بن مالك إذ قال فيما رواه الترمذى وصححه ، والنمساني وابن أبي حاتم :

(خرجنا مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى حنين ، ونحن حديثو عهد بجاهلية ، فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم شجرة عظيمة يقال لها : ذات أنواع يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، وينذبون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق ، يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواع كما لهم ذات أنواع ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . قلت و الذى نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل

لَا إِلَهَ كَمَا لَهُمْ أَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٨﴾ [الاعراف] ، إنها لست لتركين سن من بقلكم حذو القذرة بالقذرة » ، وفي رواية: « حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا: يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال : « فمن؟ » .

إن تاريخ اليهود والنصارى ماثل فى أذهان المسلمين ، ورسول الله ﷺ يعيش هذا التاريخ بقلبه وعقله ، وبخشى على أمته أن تأتياها سنة الهالك كما أنت الأمم من قبلهم ، وربى المؤمنين على أن يستحضروا دائمًا وأبدًا هذا التاريخ ، فنقطة الانعطاف فى التاريخ خطيرة تقود الأمة من موقف الاستخلاف إلى موقف الاستبدال فى بعض الأحيان ، ومن خلال السيرة النبوية نجد هذه المحطة هي المحطة الثالثة التى يربط فيها أمته بتاريخ بنى إسرائيل يهود أو نصارى .

لقد كانت المحطة الأولى فى بدر حين بدا فى الأفق بعض الشاقل عن الجihad والخوف من مواجهة العدو :

﴿وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٧] .

﴿كَمَا أَخْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَظْرُونَ ۝﴾ [الأنفال] .

ويمثل هذه الروح هي التي حرمت بنى إسرائيل النصر أربعين عاماً يتيمون في الأرض.

ومن أجل هذا قال المقادير بن الأسود خليفة - الذى كان يحمل روح الحياة والجهاد والتضحية باسم إخوانه المهاجرين :

والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وقال سعد بن معاذ باسم إخوانه الأنصار :

يا رسول الله ، قد بايعناك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، فامض لما أراك الله فتحن معك ، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، إنا لصَّابِرٌ في الحرب ، صُدِقَ عند اللقاء ، فسر بنا على بركة الله ، لعل الله يربك منا ما تقر به عينك .

ونجح جيل بدر في الاختبار ، وكان خيرة هذه الأمة .

وكانت المحطة الثانية في الحديبية يوم أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يجوزوا العقبة ، وجازوها ولم يختلف أحد ، فقال - عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسي بيده ما مثل هذه الثنية الليلة إلا مثل الباب الذى قال الله لبني إسرائيل : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطْةٌ ﴾ [البقرة : ٥٨] ، وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله ودخلوا الباب سجداً - قال : باب بيت المقدس - فدخلوا من قبل استاهم وقالوا : حبة في شعيرة » .

وفي الوقت الذى رسب فيه بنو إسرائيل ، فلم ينجح أحد ، وقال موسى - عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّنَا لَا أَمْلَكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [٢٥] قال ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَبَاهَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [٢٦] [المائدة] .

في الوقت الذى سقطت بنو إسرائيل في الامتحان ، فاز المسلمون جميعاً ، وجازوا العقبة ولم يختلف أحد ، وقال رسول الله ﷺ : « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر له » .

وغدا جيل الحديبية وأصحاب بيعة الرضوان هم خيرة الأمة بعد جيل بدر ، وشكلوا معه القيادة العليا للأمة .

وكانت هذه المحطة الثالثة ، حيث انضم إلى الجيش الإسلامي أخلاط جديدة ، وكان بنو بكر من انضموا إلى الإسلام ، وبعد أن كانت غزوة مكة بسبعين حين تقضوا العهد وانقضوا ليلاً على خزانة وبيتها بالهجرة ، وقتلوا ركعاً وسجداً ، وكان فريق من بنى بكر قد انضم إلى الجيش الإسلامي الفاتح لمكة ، وعندما رأهم أبو سفيان قال : هؤلاء الذين غزاانا محمد بسبعين ، وانضم فريق آخر منهم إلى الجيش الإسلامي بعد فتح مكة مع دخول الناس أفواجاً في الإسلام ، وأبو واقد الليثي رضي الله عنه من بنى بكر ، فليث بطن من بطونهم يحدثنا عن قصة ذات أنواط التي كان يقدسها الناس في الجاهلية ، وخاصة قريش ، وعندما رأى هؤلاء المنضمون للإسلام حدثاً هذه الشجرة العظيمة قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

وحراسة النبي ﷺ لعقيدة هذه الأمة تجعله كما قال عن نفسه كالذى أشعل ناراً فجعلت الحشرات والهوام تهوى إليها ، « فأنما آخذ بجزكم عن النار : هلم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني فتقتلوني فيها » (١) .

فقد آلم - عليه الصلاة والسلام - أن يوجد في هذه الأمة من يعيد سيرة بنى إسرائيل

(١) أحمد والبخاري ومسلم وهو عند مسلم ١٧٨٩ / ٤ ح (٢٢٨٤ / ١٨) .

في طلب ذات أنواع جديدة مثل ما قالت بني إسرائيل لموسى ولم تجف أقدامهم من البحر: «أَعْجِلْنَا إِلَيْهَا كَمَا لَهُمْ أَلَهَةٌ قَالَ إِنْكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (١٣٨) [الأعراف] ، فهذه المحطة الثالثة إذن قد رسب فيها بعض المسلمين من هو حديث عهد بهذا الدين كما قال أبو واصد مجاشعي: (وكنا حديثي عهد بجاهلية - أو - حديث عهد بالجاهلية) . وليس صوتاً من واحد إنما أصوات متعددة (فتاتينا من جنبات الطريق) ولذلك اعتبرها رسول الله ﷺ ظاهرة خطيرة ، وليس مخالفة فردية ، وأشار إلى أنها الخطى في الانحراف حذو الخطى عند اليهود والنصارى ، ولكن الفرق بين الظاهرتين : أن بني إسرائيل كان أغلبهم - إن لم نقل : كلهم - قد طلب ذلك من موسى ، أما هذا الجيل الجديد فبقى يمثل مجموعة ضئيلة من الجيش ، لكن مع مرور الزمن قد تكبر هذه المجموعة وتتصبح أغلبية ، وتغتصب في جحر الضب الذي مضى فيه من كان قبلهم ، وعندئذ تكون الطامة . أما الآن فهي ظاهرة محدودة ، ومرتبطة بالذين لم يدخلوا بعد معلم الإيمان وينصهروا في بوقته ، أما العدد الأكبر فقد ثبت الإيمان في قلبه ، وخلص من أوضار الجاهلية ، أو في طريقه إلى الخلاص منها شيئاً فشيئاً .

هذا وقد جاء الحديث في الصحيحين منفصلاً عن هذه الحادثة . ونصه كما في رواية

مسلم :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبراً ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لا يتعموهم» ! قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن؟» (١) .

وشارح صحيح مسلم الذي اعتمد شرح النوى - رحمة الله - يقول :

(سنن) : السنن هو الطريق ، المراد بالشبر والذراع وجحر الضب : التمثيل بشدة المواقفة لهم ، المراد المواقفة بالمعاصي والمخالفات ، لا في الكفر) (٢) .

ويؤكّد هذا المعنى ما ورد في الحديث الصحيح كذلك، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول :

«إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحرير بينهم» (٣) .

(١) صحيح مسلم ٤/٥٤ ح ٢٦٦٩/٦ .

(٢) المصدر السابق ٤/٥٤ .

(٣) المصدر السابق ٤/٢٦٦ ح ٢٨١٢/٦٥ .

فقد قالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وأشاروا بالله ما لم يتزل به سلطاناً وعبدوا غير الله ، وغضب الله عليهم وأصلهم ، أما هذه الأمة فقد حفظها الله تعالى بحفظ كتابها الخالد إلى يوم القيمة ، فلن نضل ما تمسكت به ويستأْ رسول الله ﷺ . وهو محفوظ بحفظ الله تعالى ، وليس بحفظ البشر له : « إِنَّا نَحْنُ نَرْتَلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦) » [المجر] .

ومع ذلك فما أحوجنا إلى أن نكون على أعلى درجات الوعي واليقظة والحذر من النابحين على الطريق ليصلوا الأمة ويتكسوا بها في جحر ضب اليهود والنصارى ، فلا بد أن تبقى الطائفة الظاهرة على الحق على مدار التاريخ لا يضرها من خالفها أو خذلها حتى يأتي أمر الله ، وتقوم الساعة .

فقد يزيل المؤمنون ، وقد يوغلون في المعاصي ، ولكنهم أبداً لن يدخلوا في التيه إلى غير عودة ، إنما المنارة قائمة ، والدليل بين : « ما إن تمسكت بهما لن تضلوا أبداً : كتاب الله وستي » ، وهذا من فضل الله على هذه الأمة . وفيما نحن بصدد الحديث عن حديثي العهد بالجاهلية ، يطالعنا عباس بن مرداس السلمي بشعره الذي يتحدث فيه عن الجيش النبوى ، وعن الرسالة التي بعثها إلىبني عمه هوازن إذ قال :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها
مني رسالة نصح فيه تبيان
إنى أطن رسول الله صاحب حكم
جيشاً له فى فضاء الأرض أركان
فيهم أنحوكم سليم غير تاركم
والسلمون عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد
وكاد ترجمت منه الأرض ترهمه
وفى مقدمه أوس وعثمان

وعباس بن مرداس يتحدث من مركز القوة ، فمقدمة جيش المسلمين هي خيل سليم وهى تسمى فرس ، وعليها تسمى فارس وهى أكثر من نصف خيالة المسلمين كلها ، فلا عجب أن يهدم سليم قبيلته التى هي أخت هوازن على رأس الجيش الإسلامي ، وبمحوارها الأنصار الذين يتمتعون إلى دوحة غسان العربية . وهو انتماء قبلى جاهلى مقبول فى إطار الشعر والدعوة ، أما العضاداتان للجيش فهو يعلم أن لا وجود لهم يذكر فى صف الجيش الإسلامي ؛ إذ إن الحليفين - أسد وغطفان - هما اللذان يعرضهما على أنهما عضاداتان هذا الجيش ، ولم يشترك من غطفان إلا عيينة بن حصن ومعه أفراد من عبس وذبيان ، وقد توثر الجو بينه وبين عيينة بن حصن حين أراد عيينة أن يفخر على سليم بقومه أنهم أحلاس الخيل ، ورجال الحرب ، ورعاة الحدق ، فقال له عباس شاعرنا:

أقصر أيها الرجل ، والله إنك لتعلم لنحن أفرس على متون الخيل ، وأطعن بالقنا ، وأضرب بالشرفية منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت ولوتمت لنحن أولى بما ذكرت منك ، قد عرفه لنا العرب قاطبة . فأولما إليهما النبي ﷺ بيده حتى سكتا .

فلا تزال الروح الجاهلية تمثل في نفس عباس بن مرداش يوم أضاف إلى الجيش الإسلامي بنو أسد وبنو عبس وذبيان . ولا وجود لهما في الجيش تحت اسم قبائلهما ، إنما هناك أفراد من القبيلتين ضمن كتيبة المهاجرين . (فقد كان عيينة في أهلة بنجد فاتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يربد وجهه ، وقد تجمعت العرب إليه فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة ... فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرایات والألواح عضًّا على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد) (١) .

ولابد أن نضع في ذهننا هذه الصورة للجيش ، لتنقل بها إلى ساحة المعركة ، وقد شهدنا تفاوت مستوياته من الحد الأعلى من المهاجرين والأنصار إلى الحد الأدنى من جاء يبغى الشهرة والغنائم أمثال عيينة والأقرع ، والذين قال فيهم رسول الله ﷺ حين قارن بينهم وبين جعيل بن سراقة : قائلاً : « جعيل بن سراقة خير من طلاء الأرض كلها مثل الأقرع وعيينة » (٢) .

(١) المغازي للواقدي ٢/٣٨ ، ٤٠٨ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ١/١٢٥٠ ت (١١٦٧) وقال فيه ابن حجر : « هذا مرسل حسن لكن له شاهد موصول » .

الجولة الأولى من المعركة

إعجاب المسلمين بكثتهم :

روى يونس بن بكر في زيادات المغازي عن الربيع بن أنس قال : قال رجل يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، وكانت الهزيمة . وروى ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا مما أعجبهم من كثتهم ، فالتفوا فهزموا حتى ما يقوم أحد على أحد .

وروى أبو الشيخ والحاكم - وصححه - وابن مردويه والبزار عن أنس رضي الله عنه قال : لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثتهم فقال القوم : اليوم والله نقاتل ، ولفظ البزار : فقال غلام من الأنصار يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة ، فما هو إلا أن لقينا عدونا فانهزم القوم ، وولوا مدربين .

وروى محمد بن عمر عن الزهرى قال : قال رجل من أصحاب النبي ﷺ : لو لقينا بنى شيبان ما بالينا ، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة . قال ابن إسحاق : حدثني بعض أهل مكة : أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة من معه من جنود الله تعالى : « لن نغلب اليوم من قلة » كذا في هذه الرواية ، والصحيح أن قائل ذلك غير النبي ﷺ كما سبق .

وقال ابن إسحاق : وزعم بعض الناس أن رجلاً من بكر قالها ، وروى محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب أن أباً بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، لن نغلب اليوم من قلة ، كذا في هذه الرواية ، وبذلك جزم ابن عبد البر .

المواجهة الأولى :

قال ابن سعد : أشهد رسول الله ﷺ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء عشر ليالٍ خلون من شوال .

روى ابن إسحاق والإمام أحمد وابن حبان عن جابر بن عبد الله . . . وأبو يعلى ، ومحمد بن عمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد أجوف خطوط له مضائق وشعاب ، وإنما انحدر فيه انحداراً ، وفي عمایة الصبح ، وقد

كان القوم سبقونا إلى الوادي ، فمكثوا في شعابه وأجنابه ومضائقه وتهيؤوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتاب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وكانوا رماة . قال أنس رضي الله عنه : استقبلنا من هوازن شيء ، لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من كثرة السوداد ، قد ساقوا أبناءهم ونساءهم وأموالهم ثم صفووا صفوًا ، فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم ، فجعلوها وراء ذلك لثلا يفروا بزعمهم ، فلما رأينا ذلك السوداد حسبناه رجالاً كلهم . فلما انحدرنا في الوادي ، فيينا نحن في غيش الصحيح ، إن شعرنا إلا بالكتاب قد خرجت علينا من مضيق الوادي ، فحملوا حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل - خيل بنى سليم - مولية ، وتبعدهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء ، وارتفع النقع فما من أحد يصر كفه .

وقال جابر : وانحاز رسول الله صلوات الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : « أيها الناس ، هلم إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » قال : فلا شيء ، وحملت الإبل بعضها على بعض .

وذكر كثير من أهل المغارى : أن المسلمين لما نزلوا وادى حنين تقدمهم كثير من لا خبرة لهم بالحرب ، وغالبهم من شبان أهل مكة ، فخرجت عليهم الكتاب من كل جهة ، فحملوا حملة رجل واحد ، والمسلمون غارون ، وفرّ من فر ، وبلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كروا بعد .

وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه : عجل سرعان القوم ، وفي لفظ : شبان أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح ، فإنما لما حملنا على المشركين انكشفوا ، فأقبل الناس على الغنائم ، وكانت هوازن رماة ، فاستقبلتنا بالسهام كأنما رجل جراد ، لا يكاد يسقط لهم سهم ^(١) .

وفي رواية مسلم : ولكن خرج شبان أصحابه وأخفاوهم حسرًا ليس عليهم سلاح ، أو كثير سلاح ، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، جمع هوازن وبنى نصر ، فرشقونهم رشقاً ما يكادون يخطئون ، فأقبلوا هناك إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم ^(٢) .

قال ابن إسحاق : لما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم من جفة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال بما في أنفسهم من الصغرن ... وصرخ كلدة بن الحبيل - قال ابن هشام : كلدة - وأسلم بعد ذلك وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية - وصفوان مشرك

(١) (٢) مسلم / ٣ ، ١٤٠١ ، ٧٨ - ٨٠ / ١٧٧٦ .

الا بطل السحر اليوم ؟ فقال له صفوان : اسكت فضّ الله فاك ، والله أن يُربّنِي
رجل من قريش أحب إلى من أنا يُربّنِي رجل من هوازن) (١) .

وروى محمد بن عمر عن أبي بشير المازني قال : لما كان يوم حنين صلينا الصبح ،
ثم رجعنا على تعبئة رسول الله ﷺ بما شعرنا - وقد كاد حاجب الشمس أن يطلع وقد
طلع - إلا بعذمتنا قد كرت علينا قد انهزموا ، فاختلطت صفوتنا ، وانهزمنا مع المقدمة ،
وأكثراً يومئذ وأنا غلام شاب ، وقد علمت أن رسول الله ﷺ متقدم ، فجعلت أقول : يا
للأنصار ! بأبي وأمي عن رسول الله ﷺ تولون ، وأكثراً في وجوه المنهزمين ليس لي همة
إلا النظر إلى سلامة رسول الله ﷺ حتى صرت إليه وهو يصيح : « يا للأنصار ! » ،
فدنوت من دابته ، والتفت من ورائها وإذا الأنصار قد كروا كرة رجل واحد ، ورسول
الله ﷺ واقف على دابته في وجه العدو .

قال ابن عقبة :

(ومر رجل من قريش على صفوان بن أمية فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ،
فوالله لا يجتبرونها أبداً . فقال له صفوان : أتبشرني بظهور الأعراب ، فوالله لرب من
قريش أحب إلى من رب من الأعراب .
زاد عروة : وغضب صفوان لحسبه .

قال موسى : وبعث صفوان بن أمية غلاماً له ، فقال : اسمع لمن الشعار . فجاءه
الغلام فقال : سمعتهم يقولون : يا بني عبد الرحمن ، يا بني عبد الله ، يا بني عبد الله ،
قال : ظهر محمد ، وكان ذلك شعارهم في الحرب) (٢) .

وروى محمد بن عمر عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : مضى سرعان الناس من المنهزمين
حتى دخلوا مكة ، ساروا يوماً وليلة - يخبرون أهل مكة بهزيمة رسول الله ﷺ - وعتاب
ابن أسيد على مكة ومعه معاذ بن جبل ، فجاءهم أمر غمّهم ، وسرّ بذلك قوم من أهل
مكة ، وأظهروا الشمامنة وقال قائل منهم : ترجع العرب إلى دين آبائهن ، وقد قتل محمد
وتفرق أصحابه ، فتكلم عتاب بن أسيد يومئذ قال : إن قُتل محمد فدين الله قائم ،
والذى يعبده محمد حى لا يموت . فما أمسوا فى ذلك اليوم حتى جاءه الخبر أن رسول
الله ﷺ أوقع بهوازن ، فسر عتاب بن أسيد ، ومعاذ بن جبل ، وكبت الله تعالى من
هناك من كان يسره خلاف ذلك .

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٤٤٣ / ٢ .

(٢) دلائل النبوة لبيهقي ١٣١ / ٥ .

فرجع المهزمون إلى رسول الله ﷺ فللحقوه بأوطاس وقد رحل منها إلى الطائف .

محاولة اغتياله من شيبة بن عثمان :

روى ابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد ، والبغوى والطبرانى والبيهقى ، وأبو نعيم وابن عساكر عن عكرمة - رحمهما الله تعالى - قال : قال شيبة :

(لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، وغزا حنينا ، فقلت : أسيء مع قريش إلى هوازن ، فعسى إن اختلطوا أن أصيّب من محمد غرة ، وتنذكّر أبى وقتلّه حمزة ، وعمى وقتلّه على بن أبي طالب ، فقلت : اليوم أدرك ثارى من محمد ، وأكون أنا الذى قمت بشار قريش كلها ، وأقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما تبعته أبداً، فكنت مرصاداً لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسى إلا قوة ، فلما اختلط الناس ، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغاته ، وأصلحتُ السيف ، ودنوتُ منه أريد ما أريد ، وفي رواية : فلما انهزم أصحابه جتّه من عن يمينه ، فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء ، فقلت : عمه لن يخذه ، فجئت من عن يساره ، فإذا بأبى سفيان بن الحارث فقلت : ابن عمه لن يخذه ، فجئت من خلفه ، فلم يبق إلا أن أسروره (١) سورة بالسيف ، إذا رفع إلى فيما بيني وبينه شواطئ من نار كأنه برق ، فخفت أن يتمحشنى (٢)، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه ، ومشيت القهقري ، وعلمت أنه منزع ، فالتفت إلى وقال : « يا شيب ، ادن منى » ، فدنوت منه ، فوضعي يده على صدرى وقال : « اللهم اذهب عنه الشيطان ». فرفعت إليه رأسى وهو أحلى من سمى وبصرى وقلبي ، ثم قال : « يا شيبة ، قاتل الكفار ». قال : فتقدّمت بين يديه أحلى والله أن أقيه بنفسى كل شيء ، فلما انهزمت هوازن رجع إلى منزله ودخلت عليه فقال :

« الحمد لله الذى أراد بك خيراً مما أردت » ، ثم حدثى بما هممت به ﷺ (٣) .

محاولة ثانية من النضير بن الحارث :

قال محمد بن عمر : (حدثنا إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري عن أبيه قال : كان النضير بن الحارث من أحملم قريش ، وكان يقول : الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام ، ومن علينا بمحمد ﷺ ، ولم ثبت على ما مات عليه الآباء . فذكر حدثاً طويلاً ، ثم قال : خرجت مع قوم من قريش ، هم على دينهم بعد : أبو سفيان بن حرب ، وصفوان ابن أمية ، وسهيل بن عمرو ، ونحن نريد إن كانت ديرة على محمد أن نغير عليه فيمن

(١) أسروره : أعلىوه . (٢) يتمحشنى : يحرقنى .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ١٤٥ / ٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٤٤٤ / ٢ ، ٤٤٥ .

يغير ، فلما تراءت الفتتان ، ونحن في حيز المشركين ، حملت هوازن حملة واحدة ، ظننا أن المسلمين لا يجرونها أبداً ، ونحن معهم ، وأنا أريد بمحمد ما أريد ، وعمدت له ، فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شبهاء حولها رجال بيض الوجوه . فأقبلت عاماً إلينه ، فصاحوا بي : إليك ، فأرعب فؤادي ، وأرعدت جوارحي ، قلت : هذا مثل يوم بدر ، إن الرجل لعلى حق ، وإنه لعصوم ، وأدخل الله في قلبي الإسلام وغيره عما كنت أهن به ، فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله كرة صادقة ، وتنادت الأنصار بينها : الكرة بعد الفرة ، يا للخزرج ، يا للخزرج ، فحطمنا حطاماً ، فرقوا شملنا ، وتشتت أمرنا ، وهمة كل رجل نفسه ، فتحتني في غربات الناس حتى هبطت بعض أودية أو طاس ، فكمنت في خمر شجرة لا يهتدى إلى أحد إلا أن يدلله الله تعالى على ، فمكثت فيه أيامًا وما يفارقني الرعب مما رأيت ، ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فقام ما أقام ، ثم رجع إلى الجعرانة ، فقلت : لو صرت إلى الجعرانة ، فقارب رسول الله ﷺ ، ودخلت فيما دخل فيه المسلمين ، فما بقي أحد ، فقد رأيت عبراً ، وقد ضرب الإسلام بجرانه ، ولم يبق أحد ، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ فعز محمد لنا عز ، وشرف محمد لنا شرف ! فوالله إنى لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقاني بالجعرانة كفة بكفة (١) فقال : « التضير ؟ » قلت : ليك ، فقال :

« هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه » ، فأقبلت إليه سريعاً فقال : « قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع » قلت :

قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلهاً غيره لقد أغنى شيئاً ، وإنىأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « اللهم زد ثباتاً ». قال التضير : فوالذي بعثه بالحق ، لكان قلبي حجر ثباتاً في الدين وبصيرة في الحق)٢(.

* * *

يحكم هذا الفصل قول الله - عز وجل :

﴿ لَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حَنْيَنٍ إِذَا أَخْعَجْتُكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيَقُمْ مُدَبِّرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبه] .

وهذه الظاهرة لم تقع في التاريخ الإسلامي كله إلا هذه المرة .

فقد كان فرار في أحد ، لكنه على فتنة محدودة معدودة .

(١) كفة كفة - بكسر الكاف - أي كفاحاً ، وذلك إذا استقبلته مواجهة وهما اسمان جعلا واحداً ، وبينها على الفتح مثل خمسة عشر .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي من أول الفصل إلى هنا ٥ / ٤٧٥ - ٤٧٠ أما العناوين فمن اختياري .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقْرِيبَةِ الْجَمِيعُونَ إِنَّمَا اسْتَرَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِعَيْنِهِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [١٠٥] [آل عمران].

ووقع أن بعض الفصائل في الجيش الإسلامي فرت من المعركة . وذلك يوم موتة أمام الأعداد الضخمة التي واجهتها .

والحديث في هذه الآية الكريمة لل المسلمين عامة - للجيل الأول والثاني والثالث -
فيدخل في إطار هذه الآية الكريمة أهل بدر وأهل الحديبية ومن أسلم قبل الفتح .

ولا بالغ إذا قلنا : إن حنينا كانت من أقسى الدروس التي تلقاها المسلمين في تاريخهم . وتعود روح جو أحد لسيطر على الساحة ، فقد كان المسلمين واثقين من النصر بعد النصر الذي تلقوه في بدر ، ويتحرقون إلى مواجهة العدو .

وكثيراً ما يغيب عن الذهن البشري قوانين النصر والهزيمة ، وأن أول قضية في هذا المجال هي أن النصر بيد الله ، وأن النصر من عند الله . وقد جاءت آيات آل عمران تؤكد هذا المعنى آنذاك بعد أحد : ﴿إِنَّ يَصْرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

ونشوء أجيال جديدة ودخولها في الإسلام ، لم تكن لتدرك هذا المعنى إدراكاً حسياً حقيقياً ، وقد تدركه نظرياً من خلال تلاوة الآيات القرآنية . وكما كانت بدر ظاهرة فريدة في التاريخ أنزل الله تعالى فيها ملائكته وقاتلته مع المسلمين ، وبعث الله جنده من : الرعب والمطر ، والسكينة في قلوب المؤمنين وغير ذلك ، فكذلك كان فتح مكة ، فلم يخض المسلمون الجهد إلا معركة الفتح ، وقد فتحت مكة أبوابها واستسلمت إلا ذلك الحبيب الذي قاتل خالد بن الوليد ، وانتشى المسلمين بهذا الانتصار العظيم وكان من حيث أثره المعنوي أضخم حدث شهدته الجزيرة العربية لصالح الإسلام ، لكن من الناحية المادية ، فلم يفقد المسلمون أكثر من عدة قتلى استشهدوا في المعركة ، وعاشت الآلاف العشرة عرسها الذي كانت تحلم به منذ عشرين عاماً، وتهافت الأصنام الثلاثمائة والستون، وارتفعت راية التوحيد فقط فوق الكعبة ، وصعد بلا بقدميه السوداويين فوق ظهر الكعبة معلناً :

(أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) .

وأحسن المسلمين أنهم سادة الجزيرة بلا منازع ، وخاصة وبين صفوفهم سادات تميم وغطفان وعامر بن صعصعة ، فلم يكن عندهم أذني شك بن نصر الله لهم . لقد أحسوا أنهم هم الذين حققوا نصر الفتح ؛ ولذلك وعندما انضم الفان من أهل مكة تجمعت

الطاقة البشرية ، والخبرات العسكرية ، والأسلحة الضخمة ، فمن الذي يغلبهم بعد ذلك . ووردت الكلمة على أكثر من لسان : (لن تغلب اليوم من قلة) .

لقد كان المنافقون في جيش أحد هم عنصر الضعف البشري ، الذي انشغل بالدنيا ، وأراد أن يثار عبد الله بن أبي وحلفائه وأتباعه ، وكان في الجيش عناصر جديدة لم تتلق التربية الكاملة ، والكافية لصهرها في معانى الإسلام .

ونجد الصورة نفسها اليوم في الجيش الإسلامي .

فشهر واحد ليس كافياً للصياغة البشرية على مفاهيم وقيم ومبادئ الإسلام النظرية والعملية ، فالavan فقط من اثنى عشر ألفاً هم الذين كانوا الخميرية الرئيسية ، والقاعدة الصلبة للإسلام . والذين شاركوا في دورات الخديبية وخبير - وقرابة عشرة آلاف - لم يسبق لها أن شاركت في آية دورة إلا دورة فتح مكة التي هيأها الله تعالى لبيه بغير قتال ، ومن خلال النداء النبوى :

« من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

واستجابة لدعوة رسول الله ﷺ أن يعمي الأ بصار والعيون حتى لا يروا المسلمين إلا بغنة ، فقد كانت إذن معركة ذات أضخم أثر معنى ، وأقل خسارة مادية .

وعاش المسلمون هذه الأجواء ، ولعله كذلك قد ساهم في رفع معنوياتهم أكثر وأكثر قول رسول الله ﷺ لمن راح يصف قوة هوازن : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » .

وتحدثوا عن اجتماع القوتين - مكة والمدينة - فلن يبالوا بعد ومهما كان ضخماً ، ولو كان العدو بني شيبان الذي هزم فارس في ذي قار .

نحن أمام جيش معجب بنفسه ، مزهو بقوته ، معتد بكرته .

وكان الوصف القرآني الحالد : « إِذْ أَعْجَبْتُمْ كثُرْتُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً »

[التوبه : ٢٥]

وتنتقل إلى الخطوة الثانية إلى لحظة المفاجأة الصاعقة ، وهم منحدرون في الوادي والشعب من كل جانب ممثلة بالعدو ، الذي ساعدت عمایة الصبح على إخفاء وجوده في البداية ، وكان الانقضاض على المسلمين كالصاعقة من كل جانب .

وأمانتنا روایتان لابد من الجمع بينهما في سبب الهزيمة ، والروایتان في الصحيح .

الرواية الأولى : تتحدث عن انقضاض العدو المفاجئ على المسلمين . (فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتاب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وكانوا رماة) .

الرواية الثانية : عن البراء بن عازب رضي الله عنه تتحدث عن صورة مغايرة :

(عجل سرعان القوم ، وفي لفظة : شبان أصحاب محمد صلوات الله عليه ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح ، فإنما حملنا على المشركين انكشفوا فأقبل الناس على العناائم ، وكانت هوازن رماة فاستقبلتنا بالسهام كأنما رجل جراد لا يكاد يسقط لهم سهم) .

فهذه الرواية تشير إلى أن المسلمين هم البادئون في الهجوم ، وأنهم حققوا النصر ، وأكبوا على العناائم ، وجرى معهم ما جرى في أحد، حين انقضت عليهم سهام المشركين من كل جانب فلاذوا بالفرار ، وتقدرت للجمع بين النصرين أن فرقة من الجيش استعجلت الهجوم دون أمر من القيادة ، وتظاهر القوم بالتراجع ، ثم عادوا فانقضوا عليهم مهاجمين بسهامهم حتى أجبروهم على الفرار . أما الرواية الأولى فهي التي تتحدث عن وضع الجيش كله ، وأنه فوجئ بالمعركة والهجوم والسهام تحطط من كل جانب ، ولاذوا بالفرار لا يلوون على شيء .

كما تشير الروايات إلى أن أول من وقع عليه الهجوم كانوا من سليم ؛ وذلك لأن سليمًا خيالة المسلمين ، وكما ذكرنا كان عندها وحدها ما يعادل سلاح الفرسان بكامله عند المسلمين ، وقد كانوا في مقدمة الجيش الإسلامي وعلى رأسهم خالد بن الوليد ، وهم فوق أنهم يمثلون سلاح الفرسان ، فلهم خبرة بالحروب وهؤلاء هوازن بنو عمهم ، ولهم دراية بقوتهم وقتالهم . (فحملوا - أى العدو - حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل - خيل بنى سليم - مولية وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء ، وارتفع النقع فما من أحد يبصر كفه) .

فطبيعة القتال العربي قبل الإسلام كانت تقوم على الكر والفر ، وعندما يحس الخصم بقوة عدوه وإمكان الانتصار عليه يلوذ بالفرار ناجياً بنفسه ، وسلام - وهي التي تمثل هذا الطراز من القتال ، ولم يسبق لها أن قاتلت مع جيش إسلامي - تصرفت كما تصرف في كل معاركها ، فشدة السهام ، وهول الهجوم أربع الخيل فولت مدبرة دون تفكير في خطة مواجهة ، أو عملية التتفاف ، أو ثبات يوقف سيل الهجوم الكاسح ، بينما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقاتل وحده بضراوة حتى أثبته الجراح .

وعندما يقع الفرار من المقدمة سيتقلل الذعر والخوف إلى المؤخرة ، وتدرك أن عليها النجاء كما فعلت المقدمة ، ويسود الساحة هرج أمام زخم الفارين ، فتتابع الإبل الفرار متذرعة أمام هروب الخيل ، وتتصبح المعركة بغير قائد .

ورسول الله ﷺ فوجئ كذلك بفرار مقدمته ، كما وصف سلمة بن الأكوع خواصه الذي كان أحد الأبطال في الجيش قال : (غزونا مع رسول الله ﷺ حينئذ ، فلما واجهنا العدو تقدمت ، فأعلو ثنية ، فاستقبلني رجل من العدو ، فأرميه بسهم ، فتوارى عنى ، مما دريت ما صنع ، ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ ، فولى صحابة النبي ﷺ فارجع منهزمًا ، على بردنان متذر يأخذهما ، مرتدية بالآخر فاستطلق إزارى ، فجمعتهما جمیعاً ، ومررت على رسول الله ﷺ منهزمًا (أى سلمة) وهو على بغلته الشباء) فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ رَأَى ابْنُ الْأَكْوَعِ فَرْعَاعًا »^(١) فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة

فأول طلائع الفرار رآها رسول الله ﷺ من سلمة بن الأكوع ، وقال عنه : إنه رأى فرعًا ، ثم بدأ الفارون يرون على رسول الله ﷺ ويعشونه .

وتؤكد هذه الرواية من جهة أخرى - ما ذكرناه من قبل - من أن فضيلاً صغيراً من الجيش الإسلامي اشتباك مع العدو ، فانكشف العدو (ظاهراً) وانكبوا على الغنائم ، وعاد العدو فصب عليهم جام السهام صبياً . فهذا سلمة بن الأكوع خواصه يرمي بسهمه العدو الذي ظهر من إحدى الثنائي ، فيختفى العدو وكأنما جاء ليشغل ، حيث ظهر العدو من الثنية الأخرى وانقض على المسلمين فهزمهم ولووا مدبرين ، وكان تسلسل الهزيمة كما في رواية أنس :

(فيينا نحن في غيش الصبح إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه ، فحملوا حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل - خيل بنى سليم - مولية ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء ، وارتفع النقع بما من أحد يصر كفه) .

ونقف عند الفريق الثاني من المنهزمين - وهم أهل مكة - فقسم منهم حضر المعركة مشركاً متفرجاً ، وقسم منهم حضرها طمعاً في الغنيمة ، وقسم منهم حضرها ويتمنى للهزيمة لمحمد ﷺ ثاراً منه فيما قتل من مكة ، وقسم أسلم وحسن إسلامهم ، وحضروا المعركة ، وأبلوا بها البلاء الحسن .

ويؤكّد هذه النماذج المكية النصوص المتوافرة على كلّ منهم :

فالنضير بن الحارث يعطينا صورة عن واحد من هذه الأقسام ؛ إذ يقول :

(خرجت مع قوم من قريش هم على دينهم بعد ... ونحن نريد إن كانت دبرة

(١) مسلم ٣/١٤٠٢ ح (١٧٧٧/٨١).

على محمد أن نغير عليه فيمن يغير ، فلما تراءت الفتتان ونحن في حيز المشركين ، حملت هوازن حملة واحدة ، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبداً - ونحن معهم - وإنما أريد بمحمد ما أريد ، وعمدت له فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال يغض الوجوه ، وأقبلت عامداً إليه ، فصاحوا بي إليك ، فأرعب فزادي وأرعدت) .

فهناك طائفة من أهل مكة تربص الدوائر بمحمد ﷺ ، ولا يزال الحقد يملأ قلبهما وكيانها ولا تشتفى إلا بقتله وهزيمة أصحابه .

وهذا الذي قاله شيبة بن عثمان في نفسه :

(ولما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، وغزا حنيناً ، قلت : أسير مع قريش إلى هوازن ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة ، وتذكرت أبي وقته حمزة ، وعمي وقتله على بن أبي طالب ، فقلت : اليوم أدرك ثأري من محمد ، وأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها) .

فالذين انهزوا ابتداء بنو سليم ثم قريش ، وانعكست هذه الهزيمة على الجيش كله ، فلم يعد أحد يلوى على أحد ، والتعبير القرآني لا يستثنى من المؤمنين أحداً ، لأن هذه الكثرة كانت وبالاً على الجيش الإسلامي ، وهذه العناصر الفارقة هي التي أثرت على موقف الجيش كله ولم تغرن شيئاً ، بل أضرت أكثر مما نفعت :

﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ لَيْسُ مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبه] [٢٥] .

وكان لابد لهذا الجيش كله أن يتلقى هذا الدرس ، ويتعلم أنه ليس هو الذي يصنع النصر ، والنصر ليس متوقفاً عليه وعلى قومه وعلى عتاده وعلى عدته وعلى عدده ، يريد الله تعالى لهذه الأمة أن تتلقى الدروس العملية مباشرة دون واسطة لتصل إلى اليقين المطلق في مبادئ العقيدة ، ومن أهم هذه المبادئ : أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ومتى شاء ، ولو أقيمت آلاف الدروس النظرية في ترسیخ هذا المبدأ لما كان لها أثر مثل أثر هذا الدرس العملي الذي تلقاه الصف المؤمن بكل مستوياته ، والذي دخله الإعجاب لكثرة عدده وعدته .

والتربيـة الـربـانية جـاهـزة ؛ لأنـ الـسـنة الـربـانية هيـ تـمحـيـصـ الصـفـ المؤـمنـ . . . وـتـمحـيـصـ المؤـمنـينـ الـخـلـصـ منـ الـمنـافـقـينـ المـدخـولـينـ ، وكـما قـلتـ : إنـ حـكـمةـ اللهـ تعـالـى اـقـضـتـ أنـ يكونـ الـدـرـسـ للـجـيشـ كـلهـ . أـصـحـابـ بـدرـ ، وأـصـحـابـ الـخـدـيـبـةـ وـمـنـ أـسـلـمـ قـبـلـ الـفـتـحـ ، وـعـنـ الـفـتـحـ وـبـعـدـهـ . فقدـ كانـ الـدـرـسـ مـنـ الشـمـولـ بـحـيثـ تـلـقـاهـ اـثـنـ عـشـرـ أـلـفـ مـقـاتـلـ ، أوـ

لكن المواقف اختلفت كثيراً لهذه الأعداد الضخمة بعد الفرار . ما بين من هُلَّع قلبه وبقي مذعوراً حتى غادر رسول الله ﷺ حنين ، وبين من أظهر الشماتة ، وفرح بالهزيمة وبين من رآها فرصة لتصفية حساباته مع محمد ﷺ ، وبين من استجاب بعد لاي ، وبين من سارع بالإجابة مجرد سماعه لنداء رسول الله ﷺ ، وبين المائة الصابرة التي بقىت ثانية كالطود بجوار رسول الله ﷺ ، وستحدث عن هذه النماذج بالتفصيل فيما بعد . وندرك أثر البناء التربوي للأمة المسلمة من خلالها ، لكننا نكتفى هنا بالوقوف مع هذين الغادرين الفاتكين اللذين أرادا أن يأخذوا ثارهما من محمد ﷺ وهما : شيبة بن عثمان ، والضيير بن الحارث .

ويجمع بين الرجلين : أن كليهما من بني عبد الدار ، وعبد الدار هم الخصوم التقليديون لبني عبد مناف ، وغنى عن البيان أن مأثر قريش الكبرى قد تم اقسامها بين الفريقين ، فلبني عبد الدار الحجابة واللواء ، ولبني عبد مناف السقاية والرفادة ، واستمر الأمر وجاء الإسلام وهو على ذلك ، لكن الملهمة التي كانت في بني عبد الدار كانت في أحد حيث قتل تسعة من أبطالهم وصناديدهم تحت اللواء ، وهم :

الإخوة الثلاثة : طلحة بن أبي طلحة ، وعثمان بن أبي طلحة ، وأبو سعد بن أبي طلحة .

ثم تقدم أولاد طلحة الثلاثة - وهم كيش الكتبية - فقتلوا جميعاً ، وهم مسافع بن طلحة والجلاس بن طلحة ، وكلاب بن طلحة ، وشيبة صاحبنا هذا هو ابن عثمان بن أبي طلحة ، وكان الثلاثة الآخرون من بني عبد الدار من حملة اللواء من غير بن أبي طلحة ، وهم : أرطأة بن شرحبيل ، وشريح بن قارظ ، وعمرو بن عبد مناف العبدري .

вшيبة إذن قد قتل أخوته الثلاثة ، وقتل أبوه ، وقتل عماه ، فلا عجب أن ينزع حقداً على الإسلام وأبطاله ورجاله ، ويثار لعشيرته وقومه ، وكانت الفرصة السانحة له في قلب هذه الأجياد الفوضوية حيث لا يلوى أحد على أحد ، فمضى حتى صار خلف رسول الله ﷺ ، ولم يتمكن من أن يأتيه من أمامه؛ لأن عمه العباس هناك ولن يسلمه، فرأى أن قتله من خلفه هو الذي يحقق الهدف ، ولُيُقتل بعدها من بني هاشم ، لكنه يرى غلة صدره قبل قتله ويدرك ثأره، ويحدثنا عن المفاجأة المذهلة : فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسروره سورة بالسيف، إذا رفع إلى فيما بيني وبينه شواط من نار كأنه برق، ففخت أن يتمحشني، فوضعت يدي على بصرى خوفاً عليه ، ومشيت القهقرى ، وعلمت أنه منزع .

إن هذا الشهاب من النار الذي برق أمامه دخل فأحرق نار النار في قلبه كله ، وأيقن أن محمداً منع منه فلن يستطيع أن يصل إليه ، وهناك عنابة إلهية تمنعه لا يدرى سرها ولا كنها ، وصار قلبه بعد حرق الأحقاد مهياً لدخول الإسلام إليه .

(فالتفت إلى وقال : « يا شيب ، ادن مني » فدنوت منه ، فوضع يده على صدرى ، وقال : « اللهم أذهب عنه الشيطان ») .

فلقد كان الشيطان يريد أن يسابق الزمن ، ويدخل فيحتل البيت الذي أحرقت أحقاده ذلك الشهاب ، وهى معركة حياة أو موت بالنسبة للشيطان ، يريد أن يؤزه ليعيد المحاولة ، ويعيد عملية الاغتيال من جديد ، فجاءت الكلمة النبوية التى رافقت وضع اليد على صدره ، فمضى الشيطان طریداً يلوذ بالفرار يخاف أن يحرقه شهاب فيفنه .

وكانت هذه المسحة الحانية على الصدر هي التى قدمت لهذا القلب الحاقد الملتهب بالثار باسم الإيمان والحب والهدى والنور ، وأضاء هذا البيت من قلب شيبة حتى لغدا يعمر الكون كله ، بهذه المسحة الحانية ، وللمسة الرقيقة .

(فرفعت إليه رأسى وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبي) .

من الأمثال الشائعة فى مجتمعنا الإسلامي حين يطالب المرء بالتغيير الجذرى الشامل .
فيقول : تحتاج إلى لمسة نبى .

وهذه هي اللمسة التى كانت على صدر شيبة بن عثمان ، والدعاء الذى رافقها : « اللهم أذهب عنه الشيطان ». وكان لهذا الدعاء وهذه اللمسة تكوين إنسان آخر ، رسول الله أحب إليه من سمعه وبصره وقلبه ، بعد أن كان يريد أن يفرغ حقده وإحنته كلها في صدر محمد والفتى به .

إنها التربية التى لا يملكتها كل مربى الأرض ودعاة الإصلاح فيه ، وقد أعطاهما الله تعالى لعبد ونبئه محمد ﷺ ، وسعد بها هذا الجيل الأول ، وكان على شيبة أن يدفع ثمن هذا الحب مباشرة ، فقال له - عليه الصلاة والسلام : « يا شيبة قاتل الكفار » .

ولم يتردد ولم يتجلجج لحظة واحدة أو ثانية واحدة ، وكان أحد المائة الصابرة التي وقّت حسبيها محمداً ﷺ بأعز ما تملك ، وكما يقول شيبة :

(فتقدمت بين يديه أحب - والله - أن أقيه بنفسى كل شيء) .

ولا ننسى أن شيبة هذا هو ابن عم عثمان بن طلحة الذى كان أحد الثلاثة : خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص الذين قدموا على المدينة معلين دخولهم فى الإسلام وقال عنهم - عليه الصلاة والسلام : « لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها » .

والى العبدري الثانى : النضير بن الحارث بن علقة بن كلدة بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى ، وأخوه النضر بن الحارث الذى قتله رسول الله ﷺ بيد صبراً ، فقد كان من أعدى العدو لرسول الله ﷺ ، فهو الذى كان يزعم أنه سينزل مثل ما أنزل الله ، (وكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحضر قريشاً مما أصاب الأمم الخالية ، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم ، وعن اسفنديار ، وملوك فارس ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أسطoir الأولين اكتبها كما اكتتبتها) ^(١) . وكل الآيات التى ذكر فيها أسطoir الأولين إنما نزلت فى النضر بن الحارث ، ثم أمكن الله تعالى منه حيث أخذ أسيرًا فى بدر ، وفي عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة (حتى إذا كان بالصفراء قُتل النضر بن الحارث ، قتله على بن أبي طالب كما أخبرنى بعض أهل العلم من مكة) ^(٢) ، وبقيت الأحقاد تراكم فى قلب أخيه النضير بن الحارث من أجله ومن أجل أبناء عشيرته من بنى عبد الدار ، وانتهت إليه سيادة بنى عبد الدار (وكان من أحلم قريش ، وكان يقول : الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام ، ولم غمت على ما مات عليه الآباء) .

وهو الذى حديثنا عن المؤامرة التى كانت فى بعض صفوف قريش : (خرجت مع قوم من قريش ... ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير) . وكيف حانت الفرصة لذلك بعد الجولة الأولى لهوازن على المسلمين (ظننا أن المسلمين لا يجررونها أبداً ، ونحن معهم وأنا أريد بمحض ما أريد ، وعدت إليه فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال يغض الوجوه ، فأقبلت عاماً إلىه فصاحوا بي : إليك) .

وهؤلاء الرجال البيض لم ير مثلهم إلا يوم بدر ، يوم أسر أخوه النضر ونجا بنفسه ، وها هو اليوم يهم بقتل محمد ، وكانت كلمة (إليك) من هؤلاء الرجال كفيلة أن تدخل جيشاً من الرعب فى قلبه ، ومهمة هذا الجيش مثل مهمة الشواط الذى دخل إلى قلب شيبة أن يحرق الأحقاد والأضغان فى قلبه ، (فارعب فزادى وأرعدت جوارحى ، قلت : هذا مثل يوم بدر ، إن الرجل لعلى حق ، وإنه لعصوم ، وأدخل الله تعالى فى قلبي الإسلام وغيره عما كنت أهن به) . فلم تكن هنا لمسة النبي ، إنما كانت صيحة الملك هي التى غيرت تركيبة الداخلى كله ، وازداد يقيناً بصدق محمد (فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله ﷺ كردة صادقة وتنادت الانصار بينها : الكرة بعد الفرة ، يا للخرج ، يا للخرج ، فحطمونا حطاماً ، فرقوا شملنا ، وتشتت أمرنا ، وهمة كل رجل نفسه ،

(١) المصادر نفسه / ٦٤٤ .

(٢) السيرة النبوية لأبن هشام / ٣٥٨ .

فتتحيت في غربات الناس حتى هبطت بعض أودية أوطاس ، وكمت في خمر شجرة لا يهتدى إلى أحد إلا أن يدلله الله على ، فمكثت فيه أياماً ، وما يفارقني الرعب مما رأيت) فهو يخشى أن يأمر به محمد أن يقتله كما قتل أخيه النضر ، فقد هم بقتل محمد ، وتأمر ضده داخل المعركة ، لكن كيف يصل إلى محمد صلوات الله عليه ، ويعتذر له ، ويعلمه أنه آمن به وبصدق رسالته ، فقد يقط رأسه عن جسده قبل ذلك ، ولهذا بقي أياماً في خمر هذه الشجرة ، بعيداً عن العيون أن تراه ، وهو ليس نكرة ، حتى يجهله الناس .

وفي الوقت الذي تقدم شيبة بن عثمان وقاتل الكفار ، فات النضير شرف هذه المشاركة ، وبقى مع دقات قلبه الخائفة من الموت في هذا المكان الثاني .

ومضى رسول الله صلوات الله عليه إلى الطائف فأقام ما أقام ثم رجع إلى الجعرانة ، فقلت : (لو سرت إلى الجعرانة فقاربتي رسول الله صلوات الله عليه ، ودخلت فيما دخل فيه المسلمين ، فما بقى ؟) .

وها هو ينقل لنا حلقات نفسه ونبضات قلبه : (فقد رأيت عبراً ، وقد ضرب الإسلام بجرانه ، ولم يبق أحد ، ودانت العرب والعجم لمحمد صلوات الله عليه ، فعز محمد لنا عز ، وشرف لنا شرف) .

ومضى وقد صمم على الدخول في الإسلام ، ولم يجد في قلبه ذرة واحدة من الشك تمنعه عنه ،وها هو في الجعرانة مع المسلمين فرداً مغموراً بينهم ، وهو مرتاح بذلك مطمئن إليه ، مكتف بالنجاة من الموت .

ثم كان لقاء العمر السعيد له مع رسول الله صلوات الله عليه الذي أدخل أمواجاً من النور في قلبه وهو ما لا يملكه في أجيالنا اللاحقة : (فوالله إنى لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله صلوات الله عليه يلقاني بالجعرانة كفة بكفة فقال : « النضير ؟ » قلت : ليك) .

ويسعده ، كما يرجف فؤاده أن يتعرف عليه رسول رب العالمين ويسأل عنه ، ترى هل سيحاسبه على مخططيه الماكرون في المعركة ؟ فقال : « هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بيتك وبينه » .

ومضى كأنما يطير بجناحين لرسول الله صلوات الله عليه الذي غفر له زلة ، وقبله جندياً في صفة لم يعبر عن عميق إحساسه وسعادته الغامرة بهذا المنزل الجديد في الإسلام : (فأقبلت إليه سريعاً) ، وكأنما أخذ رسول الله صلوات الله عليه أوتار قلبه فعزف عليها متمناً حدشه له : « قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه تتوضع » .

فقلت : (قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلهًا غيره لقد أغنى شيئاً) .

وإذا كان أبو سفيان بن حرب قد تردد في لحظاته الأولى من الإيمان بالرسالة بعد إيمانه بالوحدانية ، أما هو فلن يكون كذلك لما رأى من معجزات جعلت قلبه فجعلته أيفي ناصعاً مثيراً .

(وإنىأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك رسول الله) .

قال رسول الله ﷺ : « اللهم زده ثباتاً » ، وهي الدعوة المكافحة للدعوة لشيبة : « اللهم اذهب عنه الشيطان » .

قال التضير : (فوالذى بعثه بالحق لكان قلبي حجر ثباتاً فى الدين وبصيرة فى الحق).
فلو طلب منه أن يصارع الدنيا كلها لصارعها من أجل هذا الدين ، وفي سبيل النزول عنه .

ومضى والسعادة تغمره بهذا اللقاء الحالم ، الذى اختصه به رسول الله ﷺ من دون الناس جميعاً ، وقنع بأن يكون حظه من الدنيا وحظه من التربية هذه اللحظات ، وعاد أدراجه يستعيد ماضيه كله يوم كان فى مكة يحارب محمداً ﷺ مع أخيه النضر ، ويستهزئ به ، بينما كان الرعيل الأول من المؤمنين يمضى عمره كله مع رسول الله ﷺ ، وندم على ما فات وعاد إلى واقعه فحمد الله تعالى مع ذلك أن عاش حتى دخل فى هذا الدين ، ولم يمت على الكفر كما مات أخوه النضر ، وفي قلب هذه الهواجس التى تنتابه إذ يسمع من يهتف باسمه يدعوه إلى رسول الله ﷺ . هل من جديد ؟ وتعلق قلبه ثانية فى جوفه : (ثم رجعت إلى منزلى فلم أشعر إلا برجل من بنى الدثل يقول :

يا أبا الحارث ، قد أمر لك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمائة بعير ، فأجزننى منها فإن على ديننا) (١) وضاع فى متأهات الأفكار ، مائة ناقة ثراء العمر ، أياخذنها ؟ أهل هى رشوة على دينه ؟ وهل فى إيمانه دخل ؟ إذن لا يريدها ، لكنها تأبه من رسول الله ﷺ ، والله تعالى يعلم رسوله صدق إيمانه وهو لم يطلبها ، إنما جاءته من رسول رب العالمين فلم لا يأخذها فتعمر دنياه مع آخرته ؟ !

(فاردت ألا أخذها ، وقلت : ما هذا منه إلا تألف ، ما أريد أن أرتشى على الإسلام .. ثم قلت : والله ما طلبتها ولا سألتها) .

وبين الشد والجذب انتهى إلى قبولها ، وأعطى الدثلى منها عشرة من الإبل على بشارته له بها .

(١) هذه التسعة حول المائة ناقة وحقيقة حياته من الإصابة فى تميز الصحابة ٢٣٨/٦/٣ ت (٨٧١٤) .

ونسال عن التضير بعد ذلك في متأهات التاريخ : أين هو ؟ فلا نجده إلا على قمة المجد يبني بهذا الدين سؤدد بنى عبد الدار .

(ثم خرج إلى المدينة فسكنها) ، وتلقى من مدرسة النبوة ما تمكن من تلقيه ، كجامعات محو الأمية للكبار ، لكنها تعادل أعظم جامعات الدنيا علمًا وفقهاً ونورًا ، واكتسب من هذه المدرسة أهم ما اكتسب منها فضل الجihad وهو في هذه السن المتأخرة ، ولشن فاته أن لم يقف في عمره كله لحظة جندياً مع رسول الله ﷺ إنما كان في صف عدوه ، ولكن إذا مات محمد ﷺ فإن رب محمد لا يموت ، وهو إنما يجاهد في سبيل الله لا في سبيل رسول الله ، فترك دنياه وودعها في مكة ، وبدأ رحلة الحياة الجديدة في صف المجاهدين إلى الشام يعبر قدميه في سبيل الله ، وسجل التاريخ أنسع صفحة من نور .

(ثم خرج إلى الشام مهاجرًا ، وشهد البرموك ، وقتل بها) ، وختم حياته في سجل الشهداء الحالدين ، ورضي الله عن التضير وأرضاه .

المعجزة الخالدة :

وسنعرض صور هذه المعجزة لفريقين :

الفريق الأول : المؤمنين ، وشهودنا فيها : جابر بن عبد الله ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبي زيد الفهري ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، والبراء بن عازب ، وسلمة بن الأكوع .

الفريق الثاني : المشركين - وقد أسلموا فيما بعد - وهم : عياض بن الحارث ، وعمرو بن سفيان . وجبير بن مطعم ، وعبد الرحمن مولى أم برشن ، ويزيد بن عامر السواني ، وأوس بن الحدثان ، وربيعة بن أبيزى .

وكما شهد يوم عرفة كيف يتداول المذيعون وصف الحجيج فيه ، كل ينقل ما يراه وما يركز عليه ، فتحن اليوم مع هذه المشاهد الحية لهذه المعجزة الخالدة :

١ - جابر بن عبد الله :

قال ابن إسحاق : (فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال : وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال : « أيها الناس ، هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ». قال : فلا شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته . . . واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعة الناس عن هزيمتهم حتى وجدوا

٢ - العباس بن عبد المطلب :

وروى ابن إسحاق ، وعبد الرزاق ، ومسلم (٢) عن العباس عم رسول الله ﷺ قال :

(شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه ، ورسول الله على بغلة له شهباء - قال عبد الرزاق : وربما قال معمراً : يضاء - أهداماً له فروة بن نفاثة الجذامي ، قال : فلما التقى المسلمين والكافر ، ولـى المسلمين مدربين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكافر ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ - وفي رواية : أكـفـها ألا تـسـرع - وهو لا يـأـلـوـ ما أـسـرـعـ نحو المـشـرـكـينـ ، وأـبـوـ سـفـيـانـ آـخـذـ بـرـكـابـ رسـولـ اللهـ ﷺ - وفي رواية : بـغـرـزـهـ وـفـيـ روـاـيـةـ : بـثـفـرـهـ (٣)ـ فـالـتـفـتـ رسـولـ اللهـ ﷺ إـلـىـ أـبـيـ سـفـيـانـ بنـ الـحـارـثـ وـهـوـ مـقـنـعـ فـيـ الـحـدـيدـ ، فـقـالـ : «ـ مـنـ هـذـاـ ؟ـ »ـ فـقـالـ : أـبـنـ عـمـكـ يـاـ رسـولـ اللهـ - وـفـيـ حـدـيـثـ الـبرـاءـ : وـأـبـوـ سـفـيـانـ اـبـنـ عـمـهـ يـقـودـ بـهـ - قـالـ أـبـنـ عـقـبةـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ : وـقـامـ رسـولـ اللهـ ﷺ فـيـ الرـكـابـيـنـ وـهـوـ عـلـىـ الـبـغـلـةـ ، فـرـفـعـ يـدـيهـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ يـدـعـوـ يـقـولـ : «ـ اللـهـمـ إـنـيـ أـنـشـدـكـ مـاـ وـعـدـنـيـ ... اللـهـمـ لـاـ يـنـبـغـيـ لـهـمـ أـنـ يـظـهـرـوـاـ عـلـىـنـاـ »ـ .

قال العباس : فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ، ناد : يا عشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » .

قال العباس : وكنت رجلاً صيّتاً - فقلت بأعلى صوتي : أين الأنصار ؟ أين أصحاب السمرة ، أين أصحاب سورة البقرة ؟ قال : والله لكأئماً عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها) .

وفي حديث عثمان بن شيبة عند أبي القاسم البغوي والبيهقي : (« يا عباس ، اصرخ بالماهجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين آتوا ونصروا ») ، قال : مما شهـتـ عـطـفةـ الـأـنـصـارـ عـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺ إـلـاـ عـطـفـةـ الـإـبـلـ عـلـىـ أـلـوـادـهـ ، حـتـىـ تـرـكـ رسـولـ اللهـ ﷺ كـاـنـهـ فـيـ حـرـجـةـ (٤)ـ . فـلـمـاـ رـمـاـهـ سـيـفـهـ وـتـرـسـهـ ، فـيـذـهـبـ الرـجـلـ يـتـنـيـ بـعـيـرـهـ وـلـاـ يـقـدـرـ عـلـىـ ذـلـكـ - أـىـ لـكـثـرـةـ الـأـعـرـابـ الـمـهـزـمـينـ - كـمـ ذـكـرـهـ أـبـوـ عمرـ بـنـ عبدـ البرـ - فـيـأـخـذـ درـعـهـ فـيـقـذـفـهـ فـيـ عـنـقـهـ ، وـيـأـخـذـ سـيـفـهـ وـتـرـسـهـ ، وـيـقـتـحـمـ عـنـ بـعـيـرـهـ ، فـيـخـلـىـ سـيـلـهـ فـيـؤـمـ

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ١٣٩٨/٣، ٤٤٣ ح (١٧٧٥) .

(٢) وهي عند سلم ٤٤٥ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ١٣٥ / ١٣٧ .

(٣) الفهر : السير في مؤخرة السرج .

الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا هم والكفار ، والدعوة في الانصار : يا معشر الانصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج ، وكانوا صُرِّباءً عند الحرب ، وأشرف رسول الله ﷺ في ركايه فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كالمطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا حين حمى الوطيس »^(١) .

ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد » فذهبت أنظر فإذا القتال على هيته فيما أرى ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلًا ، وأمرهم مدبرًا ، فوالله ما رجع الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون ، قتل الله تعالى منهم من قتل ، وانهزم منهم من انهزم ، وأفاء الله تعالى على رسوله أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

٣ - ابن يزيد الفهرى :

وروى ابن سعد ، وابن أبي شيبة والإمام أحمد وأبو داود والبغوى في معجمه ، والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي ب الرجال ثقات عن أبي عبد الرحمن بن يزيد الفهرى - يقال اسمه : كرز - رضى الله تعالى عنه - قال :

(كنت مع رسول الله ﷺ في حنين ، في يوم قاتظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال السمر ، فلما زالت الشمس ليست لأمتى ، وركبت فرسى ، فأتيت رسول الله ﷺ وهو في فساطته فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة ، الرواح قد حان ، الرواح يا رسول الله . قال : « أجل » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا بلال » . فثار من تحت سمرة كان ظله ظل طائر فقال : ليك وسعديك وأنا فداوك . قال : « أسرج لى فرسى » فأتاه بسرج دفاته من ليف ليس فيها أشر ولا بطر ، فركب فرسه ثم سرنا يومنا ، فلقينا العدو ، وتشامت الخيالن فقاتلناهم ، فولى المسلمين مدربين كما قال تعالى ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله ، يا أيها الناس إني أنا عبد الله ورسوله » . فاقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه ، وحدثنى من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها في وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » . قال يعلى بن عطاء : وأخبرنا أبناءهم عن آبائهم أنهم قالوا : ما بقى منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب ، وسمعنا صلصلة من السماء كمرّ الحديد على الطست ، فهزهم الله تعالى) .

(١) في المغارى للواقدى ٨٩٩/٣ : « الآن حمى الوطيس » .

روى أبو يعلى والطبراني برجال ثقات عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم حنين كفأ من حصى أبيض فرمى به وقال : « هزموا ورب الكعبة » ، وكان على قتوبيه يومئذ أشد الناس قتالاً بين يديه .

وروى ابن أبي شيبة والإمام أحمد والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال :

(جاءت هوازن يوم حنين بالنساء والصبيان والإبل والغنم ، فجعلوهم صفوفاً ليكتروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفى المسلمين والشراكون ، فولى المسلمين مدربين - كما قال الله تعالى . وبقي رسول الله وحده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله أنا عبد الله ورسوله » ، ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نداءين لم يخلط بينهما كلاماً ، فالتفت إلى يمينه فقال : « يا عشر الأنصار ، أنا عبد الله ورسوله » .

قالوا : ليك يا رسول الله ، نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : « يا عشر الأنصار ، أنا عبد الله ورسوله ». قالوا : ليك يا رسول الله ، نحن معك ، فهزم الله تعالى المشركين ، ولم يضرب بسيف ، ولم يطعن برمح) .

٥ - البراء بن عازب :

وروى ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه ، والبيهقي من طرق عن أبي إسحاق السبيعي - رحمه الله تعالى - قال : جاء رجل من قيس إلى البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أكتتم وليتم ؟ - وفي رواية : أوليت ؟ - وفي أخرى : أفررتم - يوم حنين يا أبي عمارة ؟ فقال :

(أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما ولى - وفي رواية : لا والله ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولكنه خرج بشبان أصحابه ، وهم حسر ليس عليهم سلاح - أو كثير سلاح - فلقوه قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فاقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام كأنها رجل جراد لا يكادون يخطرون ، وأقبلوا هناك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا واستغاث وقال : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، اللهم أنزل نصرك ». قال البراء : وكنا إذا احمر البأس نتفى برسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الشجاع منا الذي يحاذيه - يعني النبي صلى الله عليه وسلم) .

٦ - سلمة بن الأكوع :

وروى البخاري ومسلم والبيهقي عن سلمة بن الأكوع - رضي الله تعالى عنه - قال :

(. . . فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم إنه استقبل به وجوههم وقال : « شاهت الوجوه ». فما خلى الله تعالى منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين).

هذا هو الفريق الأول - فريق المؤمنين - ولنتنقل إلى الساحة الأخرى ساحة هوازن نتابع مع كف الحصباء والتراب آثار هذا السلاح الذي لا يقل فعله عن السلاح النبوي اليوم :

١ - عياض بن الحارث :

روى ابن سعد والبخاري في التاريخ والحاكم والبيهقي عن عياض بن الحارث رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ كفًا من حصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا .

٢ - عمرو بن سفيان :

وروى البخاري في التاريخ والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن سفيان رضي الله عنه قال : قبض رسول الله ﷺ قبضة من حصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا ، مما خيل إلينا إلا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا . وروى ابن عساكر عن الحارث بن زيد مثله .

٣ - جبير بن مطعم :

وروى ابن إسحاق وابن المتن ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : رأيت قبل هزيمة القوم - والناس يقتلون - مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نعل أسود قد ملا الوادي لم أشك أنها الملائكة ، ولم يكن إلا هزيمة القوم .

٤ - وروى مسدد في مسنده ، والبيهقي ، وابن عساكر عن عبد الرحمن مولى أم بُرُثُن قال :

حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة أن كيينا لهم ، فيبينما نحن نسوقهم في أدبارهم إذ التقينا بصاحب البغلة - وفي رواية : إذ غشينا - فإذا هو رسول الله ﷺ ، فتلتفتنا عنده - وفي رواية : إذ بیننا وبينه رجال يپض حسان الوجه قالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا ، وكانت إياها .

٥ - يزيد بن عامر السواني :

وروى عبد بن حميد - والبيهقي عن يزيد بن عامر السواني رضي الله عنه ، وكان حضر

يومئذ ، فسئل عن الرعب ، فكان يأخذ الحصاة ، فيرمى بها في الطست فيطن . فيقول : إن كنا نجد في أجواننا مثل هذا .

٦ - مالك بن أوس بن الحثثان :

وروى محمد بن عمر عن مالك بن أوس بن الحثثان قال : حدثني علة من قومي شهدوا ذلك اليوم يقولون : لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى فما من أحد إلا يشكو القذى في عينيه ، ولقد كنا نجد في صدورنا خفقاتاً كوقع الحصى في الطاس ما يهدأ ذلك الخفقات ، ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضاً على خيل بلق ، عليهم عمامات حمر ، قد أرخوهَا بين السماء والأرض كتائب كتائب ما يليقون شيئاً ، ولا نستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم .

٧ - ربيعة بن أبيزى :

وروى عن ربيعة بن أبيزى قال : حدثني نفر من قومي ، حضروا يومئذ قالوا : كمنا لهم في المصايب والشعوب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء وحوله رجال بيض حسان الوجه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا ، وكانت إياها ، وجعلنا نلتفت وإننا لنتظر إليهم يكدونا ، فتفرت جماعتنا في كل وجه ، وجعلت الرعدة تستخفنا حتى لحقنا بعلية بلا دنا ، فإن كنا ليحكى عنا الكلام ما ندرى به لما كان بنا من الرعب ، وقدف الله تعالى الإسلام في قلوبنا .

٨ - وروى أيضاً عن شيخ من ثقيف أسلموا بعد ما كانوا حضروا ذلك اليوم قالوا : ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا فيما نرى ، ونحن مولون حتى إن الرجل ليدخل منا حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهرية^(١) .

٩ - رواية موسى بن عقبة :

(قال موسى : وبعث صفوان بن أمية غلاماً له ، فقال : اسمع لمن الشعار ، فجاءه الغلام فقال : سمعتهم يقولون : يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبد الله ، يا بنى عبيد الله ، فقال : ظهر محمد . وكان ذلك شعارهم في الحرب ، وأن رسول الله ﷺ لما غشى القوم قام في الركابين وهو على البغله ويقولون : فرفع يديه إلى الله تعالى يدعوه يقول : « اللهم إنا أنسدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا » ، ونادى أصحابه وذمّرهم :

(١) أخذ هذا الفصل كله من سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ - ٤٧٥ - ٤٨٤ مقتطفات .

« يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ، الله الله ، الكرة على نبيكم » ، ويقال ، قال : « يا أنصار الله وأنصار رسول الله ، يا بنى الخزرج » ، وأمر من أصحابه من يناديهم بذلك ، وبعض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواصيهم كلها وقال : « شاهت الوجه » . وأقبل إليه أصحابه سراعاً ، يقال : إنهم يتذرون ، وقال : يا أصحاب سورة البقرة ، وزعموا أن رسول الله ﷺ قال : الآن حمى الوطيس ، فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصبهم فيها رسول الله ﷺ . واتبعهم فيها المسلمون يقتلونهم ، وغنمهم الله نسائهم وذرارتهم وشأههم)^(١) .

١٠ - وهذه صورة الجيش الإسلامي عند هوازن :

قال ابن إسحاق : وقال ابن العوجاء النصري :

رأينا سواداً منكر اللون أخصفا
شماريخ^(٥) من غزوى إذن عاد صفصفا
إذن ما لقينا العارض^(٦) المتكتشا^(٧)
ثمانين ألفاً واستمدوا بختدنا^(٨) (٩)
ولـا دنونـا من حنين وماـئـه
بلـلمـومـة^(٣) شـهـباء^(٤) لوـقـذـفـواـبـهـا
ولـوـأـنـقـومـىـ طـاوـعـتـنـىـ سـرـاتـهـمـ
إـذـاـ مـاـ لـقـيـنـاـ جـنـدـ آـلـ مـحـمـدـ

وقال مالك بن عمرو يذكر مسيرهم بعد إسلامه :

ومالك فوقه الرياحات تختلف
يوم حنين عليه الساج يأتلق
عليهم البيض والأبدان والدرق
حول النبي وحتى جنه الغسق
من السماء فمهزوم ومعتنق^(١٠)
لمنتـاـ إذـاـ أـسـيـافـنـاـ العـتـقـ
بطعنة بلـاـ منها سـرـجـهـ العـلـقـ^(١١) (١٢)

اذـكـرـ مـسـيرـهـمـ لـلـنـاسـ إـذـ جـمـعـواـ
وـمـالـكـ مـالـكـ مـاـ فـوـقـهـ أـحـدـ
حتـىـ لـقـواـ النـاسـ حـيـنـ الـبـأـسـ يـقـدـمـهـمـ
فـضـارـبـواـ النـاسـ حـتـىـ لـمـ يـرـواـ أـحـدـ
ثـمـ نـزـلـ جـبـرـيلـ بـنـصـرـهـ
مـنـاـ وـلـوـ غـيـرـ جـبـرـيلـ يـقـاتـلـنـاـ
وـقـدـ وـفـىـ عـمـرـ الـفـارـوقـ إـذـ هـزـمـواـ

ماـذاـ يـفـعـلـ القـائـدـ معـ جـيـشـ منـهـزـ مـطـارـدـ منـ عـدوـهـ ؟

وـهـذـاـ عـدـوـ يـلـغـ فـيـ عـدـهـ قـرـابـةـ ثـلـاثـةـ أـضـعـافـ جـيـشـهـ .

(٢) أخفف : فيه ألوان .

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١٣١ / ٥ ، ١٣٢ .

(٤) شهباء : عظيمة السلاح .

(٣) ملمومة : كيبة مجتمعة .

(٦) العارض : هنا الساحب .

(٥) الشماريخ : الجبال .

(٨) ختلف : قبيلة .

(٦) المتكتشف : الظاهر .

(١٠) المعتنق : الأسير .

(٩) السيرة النبوية لأبن هشام ٤٧٧ / ٢ ، ٤٧٨ .

(١٢) السيرة النبوية لأبن هشام ٤١٧ / ٢ .

(١١) العلق : النم .

إنه إما أن يعلن استسلامه لعدوه ، أو أن يلوذ بالفرار ، أو يسقط شهيداً دفاعاً عن شرف العسكري .

هذا مع القائد العادى ، أما مع سيد القادة - مع رسول الله ﷺ - فالامر يختلف تماماً عن ذلك ، فهو الموصول بالله تعالى رب الآرباب ، ومصدر القوة في هذا الوجود ، فلا بد أن يطلب المدد من ربه عز وجل ، ولا بد أن يحاول ترتيب صفوف جيشه المنهاج ، ويعيد إليه روحه المعنوية العالية ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع هذا الجيش الذى يشارك معظمه لأول مرة فى معركة معه ، وهذه الأعداد الضخمة التى فرت دفعت بنواء الجيش الأولى أن تشارك فى الفرار .

لقد صمم - عليه الصلاة والسلام - ابتداءً أن يواجه الجيش وحده ، ولقد قال الله تعالى له فى كتابه : « **فَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلُّ إِلَّا نَفْسَكَ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفُرَ بِأَسْنَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَاسًا وَأَشَدُ تَنْكِيلًا** (٤) » [النساء] .

فقد يكون فى مرحلة لا يملك إلا نفسه ، وعليه أن يقاتل عدوه ، وليس لرسول الله أن يفر من الفارين ، أو أن ينهزم من المهزمين ، ولذلك كانت أول خطواته ضمن تحضيره المحكم فى أدق الساعات الخرجية ، هو أن يركض بغلته قبل الكفار ، وأن يمضى مواجهًا لعدوه ، ثابتًا كالطود لا يتزعزع خطوة إلى الخلف .

ولئن قال موسى عليه السلام :

« **رَبِّ إِنِّي لَا يَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي** » [المائدة : ٢٥] .

فها هو - عليه الصلاة والسلام - لا يملك إلا نفسه وأخاه من الرضاعة أبا سفيان بن الحارث ، وعمه العباس بن عبد المطلب . والعباس وأبو سفيان قد أعلنا إسلامهما قبيل فتح مكة بأيام ، أى أنه قد مر على إسلامهما أقل من شهر ، ويصف لنا العباس - رضوان الله عليه - شاهد العيان فى تلك اللحظات :

النبي القائد الذى لم يفقد أعصابه ، ولم تمس معنياته ، ولم يفقد صوابه ، إنما كان يضع الخطة المناسبة فى أخرج لحظات حياته فى مواجهة عدوه ، ويخطط لتحويل هذه الهزيمة وهذا الفرار إلى نصر حاسم فى الوقت الذى لا يملك فيه إلا نفسه وصاحبيه - أبا سفيان والعباس - عمًا وابن عم .

(فلما التقى المسلمين والكافر ، ولـى المسلمين مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ - وفي رواية : أكفها إلا تسرع - وهو لا يألـى ما أسرع نحو المشركين ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ -

وفي رواية : بثفرها - فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث وهو مقنع في الحديد . فقال : « من هذا ؟ » ، فقال : ابن عمك يا رسول الله - وفي رواية : ابن أمك يا رسول الله) .

لقد عرف رسول الله ﷺ عمه العباس الذي كان يخفف من حدة اندفاع بغلته ، ورسول الله ﷺ يدفعها بعنف إلى الأمام ، لكن من هو هذا الفارس الثاني الذي سيشارك مع عمه في خوض هذه المعركة ، فهو مقنع في الحديد لا يظهر وجهه ، وجاء الجواب : ابن عمك يا رسول الله ، أو ابن أمك يا رسول الله ، وإذا كانت الحياة مواقف ، فهذا موقف أو منعطف من منعطفات التاريخ أن يثبت في هذه اللحظة الحرجة ، العدو اللدود لرسول الله ﷺ ، أبو سفيان بن الحارث ، هذا العدو طيلة عشرين عاماً لا يألو يهجو رسول الله ، ويقذع في هجائه ، ولا يدع وسيلة لحربه إلا حاربها فيه ، عسكرية كانت أو إعلامية أو سياسية ، وكما يقول عبد الرحمن بن سابط :

(كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة ، أرضعته حليمة أياماً ، وكان يألف رسول الله ﷺ ، وكان له تربى ، فلما بُعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط ، ولم يكن دخل الشعب ، وهجا رسول الله ﷺ ، وهجا أصحابه ، وهجا حسان بن ثابت . . . ومكث أبو سفيان عشرين سنة عدواً لرسول الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه ، ولا يختلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ ، ثم قذف الله في قلبه الإسلام) (١) .

وعندما قذف الله تعالى الإسلام في قلبه قالت له امرأته :

(قد آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعتم محمدًا وأنت موضع في عداوته ، وكانت أولى الناس بنصره !) (٢) .

وقال له أحد الأنصار عندما رأه ولم يقبل رسول الله ﷺ إسلامه بعد ، ولخص حياته معه بقوله : « أما ابن عمى ، فقد هتك عرضى » (٣) .

قال له أحد الأنصار : (يا عدو الله ، أنت الذي كنت تؤذى رسول الله ﷺ وتؤذى أصحابه قد بلغت مشارق الأرض وغاربها في عداوته) (٤) .

(هذا هو أبو سفيان الكافر العدو اللدود الذي قال له حسان :

الآن أبلغ أبا سفيان عنى مغلقة فقد برح الخفاء

(٢) المصدر نفسه ٨٠٧/٢ .

(٤) المغاري للواقدي ٤٠٨/٢ .

(١) المغاري للواقدي ٨٠٦/٢ .

(٣) السيرة النبوية لأبي هشام ٤٠٠/٢ .

هجوت محمداً وأجبتُ عنه
أتهجّوه ولست له بكافٍ
هجوت مباركاً برأً حنيفاً
أمن يهجو رسول الله منكم
فإن أبي والده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء)١(

هذا العدو اللدود ، هو الشخص الثالث الذي سيخوض رسول الله ﷺ به المعركة مع عدوه ، فها هو - عليه الصلاة والسلام - مع العباس وأبي سفيان ، يريد أن يواجه بهؤلاء الثلاثة ثلاثة ألفاً من العدو ، لكن أبو سفيان الجديد الذي ولد بالإسلام يحدثنا عن نفسه ، وعن تلك اللحظات الخرجية في التاريخ قائلاً :

(فخرجت معه ، وقد جمعت العرب جمعاً لم يجمع مثله قط ، وخرجوا بالنساء والذرية والماشية ، فلما لقيتهم قلت : اليوم يرى أثرى إن شاء الله ، ولما لقيتهم حملوا الحملة التي ذكر الله : « ... ثمَّ وَلَيْقَمْ مُذَبِّرِينَ » [التوبية] ، وثبت رسول الله ﷺ على بغلته الشباء وجراً سيفه) .

ويحدثنا أبو سفيان عن نفسه في هذه اللحظات قائلاً : (فاقتحم عن فرسى ، وبيدي السيف صلنا قد كسرت جفنه)٢(، والله أعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلى ، فأخذ العباس بجام البغلة فأخذت بالجانب الآخر ، فقال : « من هذا ؟ ». فذهبت أكشف المفتر ، فقال العباس : يا رسول الله ، أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث ، فارض عنه - أى رسول الله - قال : « قد فعلت ، فغفر الله كل عداوة عادانيها ». فأقبل رجله في الركاب) .

لم يتمالك أبو سفيان من فرحته العامدة برضاء رسول الله ﷺ عنه من أن يقبل رجل رسول الله في الركاب ، بعد أن سمع أسعد كلمة سمعها في حياته : « قد فعلت ، فغفر الله كل عداوة عادانيها » ، لقد ألقى عن كامله تاريخ عشرين عاماً من العار والشرك والوثنية وحرب رسول الله ﷺ ، وها هو يقبل الآن ؛ ليكون الشخص الثاني من بين ثلاثة ألفاً ليخوض بهم رسول الله ﷺ معركته الفاصلة .

(ثم التفت إلى وقال : « أخى لعمرى ») .

أما الشخص الأول الذي قدر له أن يكون مع رسول الله ﷺ في أحراج لحظات حياته هو عمه العباس بن عبد المطلب ، وشنان بين ماضى العباس وماضى أبي سفيان بن

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٢/ ٤٢٣ ، ٤٢٤ . (٢) جفنه : غمده .

لقد كان العباس هو خليفة أبي طالب في حماية رسول الله ﷺ ، فهو لا يغادره لحظة من اللحظات ، والعباس على شركه حتى أن الانصار عندما قدموا المدينة ليسألوا عن رسول الله ﷺ لم يعرفوه إلا من رفته للعباس . (فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ ، وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ﷺ . فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . فقال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ، قلنا : نعم - قال : وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً - قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس) (١) .

وهو الذي انفرد من دون الناس جميعاً حتى من المسلمين حين عقد بيعة العقبة بحضور هذه البيعة الحالدة :

(فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يا معشر الخزرج ، إن محمداً مانا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا من هم على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإن قد أبى إلا الانحياز لكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه من خالقه ، فأتمتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزة ومنعة من قومه) (٢) .

وهذا هو يوم الانصار ، فهل هم مسلموه وخاذلوه ؟ أم هم ناصروه ومانعوه من خالقه ؟

ولكته قبل أن يستغث بالأنصار الذين بايعوه أكثر من مرة ، كان لابد له أن يستغث برب الناس جميعاً .

فرفع يديه إلى الله تعالى يدعو يقول :

« اللهم إني أشدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبع لي لهم أن يظهرروا علينا » .

وما انتهى رسول الله ﷺ من استغاثاته بربه حتى جاء جيش السماء مددًا له من الملائكة فملا الساحة كلها ، وأصبح هو المسؤول عن حماية رسول الله ﷺ بلباس موحد ، وخيل موحدة ، كان هذا الجيش رجالاً بيضاً على خيل بلق .

(٢) المصدر نفسه ٤٤١/١ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٩/١ .

ولكن هذا الجيش لم يره إلا جيش العدو ، أما المسلمين فلم يروا شيئاً من هذا لأن هذا وقت امتحانهم على ثباتهم وصبرهم ، ورؤبة الملائكة معجزة ، ولا يريد الله تعالى لجنده الذي تربى على يديه أن يكون ثباته وصبره بمعجزة ، إنما يريد أنه يكون بالطاقة البشرية التي لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لكن جيش الشرك الذي صمد له رسول الله ﷺ وعمه وابن عميه لا يكفي ليواجه ثلاثة ألفاً من جحافل الشرك ، فكان هذا الجيش الاحتياطي الذي ملا الساحة وسد الأفق .

وحدثنا عنه جبیر بن مطعم المشرک الحليف للجیش الاسلامی بقوله :

(رأیت قبل هزیمة القوم والناس يقتلون ، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نعلأسود قد ملا الوادي لم أشك أنها الملائكة ، ولم يكن إلا هزیمة القوم) . وحدثنا عنه مذیع في جيش هوان يصف لنا تلك المواجهة بين جيش هوان وجيش الملائكة ، قال :

(فيینما نحن نسوقهم في أدبارهم إذ التقينا بصاحب البغة - وفي رواية : إذ غشينا - فإذا هو رسول الله ﷺ فتلقينا عنده ، وفي رواية : إذ بیننا وبينه رجال بيض حسان الوجه قالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا وكانت إیاها) .

وهذا حديث متواتر عن مجموعة من جيش هوان تنقل المشهد نفسه ، حيث ينقله لنا المذیع ربيعة بن أبيزى بقوله :

(كمّا لهم في المسايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء وحوله رجال بيض حسان الوجه فقالوا لنا : شاهت الوجه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمين أكتافنا ، وكانت إیاها ...) .

وهذا هو الجيش الأول الذي غير مصير المعركة .

وكان أن دخل المعركة سلاح جديد لم يسبق له أن استعمل إلا في بدر ، وهو سلاح التراب أو الحصباء وهو سلاح ذري لا يتقن استعماله في الوجود إلا رسول الله ﷺ :
﴿وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهُ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧] .

وبتوجيهه رباني تم السماح في استعماله ، فماذا كانت نتائجه ؟
كانت نتائجه : الرعب والعمى في قلوب المشركين .

فهذا عياض بن الحارث لم يصل إلى رسول الله ﷺ والجیش المدجج المحیط به إنما كان من الأفواج المتأخرة التي وصلها السلاح الفتاك حيث يقول :

(أخذ رسول الله ﷺ كفأ من حصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا) .

وهذا شاهد آخر هو عمرو بن سفيان يتحدث عن الهزيمة والرعب الذي رافقها ، فيقدم عنصراً جديداً من الساحة :

(قبض رسول الله ﷺ قبضة من حصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا ، فما خيل إلينا إلا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا) .

وروى الحارث بن زيد مثله كما في تاريخ ابن عساكر :

وأثر الرعب كذلك من حديث يزيد بن عامر السواني : (وكان حضر يومئذ فстал عن الرعب ، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن يقول : إن كنا نجد في أجوافنا مثل هذا) .

وأوس بن الحذان يقول :

(ولقد كنا نجد في صدورنا خفقاتاً كوقع الحصى في الطاس ما يهدأ ذلك الخفقات).

أما الرعب من الملائكة :

(ولقد رأينا يومئذ رجالاً يypress على خيل بلق عليهم عمامات حمر ، قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائب ما يليقون شيئاً ، وما نستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم) .

أما العمى فتشهده من رواية أوس نفسه :

(لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى ، فما من أحد إلا ويشكو القذى في عينيه) .

وفي حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

(ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ، ثم إنها استقبل به وجوههم وقال :

« شاهت الوجوه » فما خلق الله تعالى إنساناً إلا ملا عينيه تراباً من تلك القبضة).

وفي حديث عبد الرحمن بن يزيد الفهري : (وحدثني من كان أقرب إليه من أخذ حفنة من تراب فحثاها في وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » . قال يعلى بن عطاء : وأخبرنا أبناءهم عن آبائهم أنهم قالوا : ما بقي أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب .

وماذا يفعل المقاتل حين تمتلىء عينه من التراب والقذى فلا يمكن من رؤية شيء ،

ويتلى قلبه من الرعب ، ويكون وقع الحصى فيه كوقع الحصى في الطست في الخفقان من الخوف والرعب ؟

وابن العوجاء النصرى يتحدث عن معجزة مرتبطة برؤية الملائكة ، فالجيش الإسلامي كما قلنا: اثنا عشر ألف مقاتل، فكم هو في ذهن ابن العوجاء النصرى شاعر هوازن ؟ !

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم إذن ما لقينا العارض المتكشفا
إذاً ما لقينا جند آل محمد ثمانين ألفاً واستمدوا بخندقا
وحتى عند قائد جيش هوازن فالقتال مع الملائكة :

ثمت نُزُل جبريل بنصرهم من السماء فمه زوم ومعتنق
منا ولو غير جبريل يقاتلنا لئعتنا إذن أسيافنا العُتُق

وكانت الخطوة الثالثة بعد الاستغاثة الربانية ، وقدوم جيش السماء. والإذن باستعمال السلاح النرى ، كانت الخطوة الثالثة هي الالتفات إلى الجيش المنظم المبعثر .
وأخذ النساء ثلاثة مناح في التعامل مع الجيش .

إنه أولاً يعلم مدى حب أهله له، وهذه الفرصة التي ستحت لهم أن يفدوه بأرواحهم ودمائهم، لقد فدوا بأرواحهم ودمائهم، وعاشوا معه في شعب أبي طالب وهم مشركون، وتحملوا الجروح والفاقة والحرمان والخصار تحت راية شيخهم وزعيمهم أبي طالب ، وقال أبو طالب بلسانه :

كذبتم وبيت الله نُبَرِّى مهْمَداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصْرَحْ حوله ونذهب عن أبنائنا والخلاف

وها هم اليوم قد دخلوا في دين الله ، وجاءت الفرصة ليصرعوا حوله وينذهلوها عن أبنائهم ونسائهم وهو هم يسمعون النساء :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

فهو يُطل على العرب جميعاً بنبوته وبنسبه لجده عبد المطلب ، فأين أبناء عبد المطلب الذين يحمون عرينه وينذرون عنه، لقد رأينا من قبل العباس بن عبد المطلب، وأبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب اللذين مضى بهما رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليواجه الثلاثين ألفاً، حيث كان يركض بغلته نحو العدو ، وانضم لهم فتيان بطل بنى هاشم على بن أبي طالب ابن عبد المطلب .

فعند ابن أبي شيبة من مرسل الحكم بن عتبة قال :

(لما فرَّ الناس يوم حنين جعل النبي ﷺ يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

فلم يبق معه إلا أربعة نفر ، ثلاثة من بنى هاشم ورجل من غيرهم: على والعباس بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان ، وابن مسعود في الجانب الآخر)١(.

ولم يأت هذا النداء لبني عبد المطلب بعلى فقط ، فعلى إنما قدم طائراً ليكون بين يدي رسول الله ﷺ حين رأى الهزيمة ، لكن النداء جاء بسبعة آخرين من أبطال بنى عبد المطلب وبوزيرى رسول الله ﷺ لتكون القيادة جاهزة للانعقاد .

وأما ما ذكره النووي في شرح مسلم أنه (ثبت معه اثنا عشر رجلاً . فكأنه أخذه مما ذكره ابن إسحاق في حديثه : أنه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلى وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة ، وأسامي بن زيد وأخوه من أمه أمين ابن أم أمين ، ومن المهاجرين: أبو بكر وعمر فهو لاء تسعه ، وقد تقدم ذكر ابن مسعود في مرسل الحاكم فهو لاء عشرة . وحق للعباس خواص وهو يرى بنيه وبيني عمه وبيني إخوته هم الذين يحيطون برسول الله ﷺ إحاطة السوار بالمعصم ، إنهم بنو عبد المطلب جاؤوا يقدون سيدهم ونبيهم بالروح والدم وكما تقول الرواية :

وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل)٢(.

وفقد هؤلاء العشرة شهيداً منهم سجله العباس معهم رضوان الله عليه بشعره حين

قال :

(نصرنا رسول الله في الحرب تسعه وقد فرَّ من قد فر عنه وأتشعوا
وعاشرنا وافى الحمام بنفسه لما مسه في الله لا يتوجع)٣(

ولا تزال كلمة ابن عبد المطلب تعطى صداتها في نفس بنى عبد المطلب حتى تكامل بجوارهم سبعة آخرون من أهل رسول الله ﷺ ، فلم يكن أهله في اليخت الملكي خلف الصفوف عليهم حراسة خاصة ، إنما كانوا هم بنو الموت بين يدي سيدهم محمد بن عبد المطلب :

وما ترك قوم لا أبا لك سيداً كحوط الذماء غير ذرب مواكل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامي عصمة للأراميل
يلوذ به الهاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر / ٨ / ٣٠ .

(٣) المصدر نفسه / ٨ / ٢٩ .

وهي أمجادهم يتوارثونها كابرًا عن كابر ، وأن الأولان لترجمة القول بالفعل ، فهم أئم جيش عرمرم يهدف القضاء على سيدهم والفتاك به .

أما السبعة الذين انضموا من بنى عبد المطلب إلى هذا السوار الخالد وهذا الجدار من اللحم والدم فهم كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح : (ومن ذكر الزبير بن بكار وغيره أنه ثبت يوم حنين أيضًا : جعفر بن أبي سفيان بن الحارث ، وقثم بن العباس ، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ، وشيبة بن عمان الحجبي)^(١) .

وننتقل من بنى عبد المطلب إلى الجنود المجهولين الذين لم يُعرف بهم إلا القرآن الكريم ، والذين تناهى إلى أسماعنا بعض أسمائهم فنالوا مع رسول الله ﷺ شرف نزول السكينة عليهم :

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح : ٢٦] .

هؤلاء المؤمنون ثبتو في مواقعهم ، ولو لم يكونوا حول رسول الله ﷺ ، وما تزعزعت أقدامهم ، ولا خارت عزائمهم ، إنما كانوا قبل نزول الملائكة ثابتين على العهد ، وهم الذين أطلق عليهم : المائة الصابرة ، ولا ريب أن العشرين المذكورين منهم .

(فقد روى الترمذى من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال :

لقد رأينا يوم حنين وإن الناس ملوين وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل ، وهذا أكثر ما وقفت عليه من عدد من ثبت يوم حنين ، وروى أحمد والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال :

كنت مع النبي ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس ، وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا ، ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، وهذا لا يخالف حديث ابن عمر ، فإنه نفى أن يكونوا مائة ، وابن مسعود أثبت أنهم كانوا ثمانين)^(٢) .

ولعل حديث ابن مسعود انصب على الثمانين المهاجرين والأنصار ، وحديث ابن عمر انصب على الذين ثبتو من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فكثير من ذكر أنهم ثبتو مع رسول الله ﷺ من بنى هاشم ليسوا من المهاجرين والأنصار .

(قال محمد بن عمر يقال : إن رسول الله ﷺ لما انكشف الناس عنه يوم حنين قال

.(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨ / ٢٩ . (٢) المصدر نفسه ٨ / ٣٠ .

خارثة : « يا حارثة ، كم ترى الناس الذين ثبتوا ؟ » قال : فما التفت ورائي تحرجاً ، فنظرت عن يميني وعن شمالي فحزرتهم مائة . فقلت : يا رسول الله ، هم مائة ، فما علمت أنهم مائة حتى كان يوم مرت على النبي ﷺ وهو ينادي جبريل ، فقال جبريل : يا محمد من هذا ؟ قال رسول الله ﷺ : « حارثة بن النعمان » ، فقال جبريل : هو أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه . فأخبر رسول الله ﷺ حارثة قال : ما كنت أظنه إلا دحية الكلبي وافقاً معك)١(.

(ويقال : إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وبسبعين وستون من الأنصار)٢(.

وقدم - عليه الصلاة والسلام - بين يدي ربه هذا الدعاء حين انكشف الناس عنه ولم يبق إلا المائة الصابرة : « اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان ». قال له جبريل : لقد لُقْنَت الكلمات التي لقَنَ الله موسى يوم فلق البحر أمامه وفرعون خلفه)٣(.

لقد قال موسى - عليه الصلاة والسلام - دعاءه ذاك حين قال له قومه : « إِنَّا لَمَدْرُكُونَ)٤(» ، وأجابهم : « كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَهْدِينَ)٥([الشعراء] » ، ثم أطلق هذه الكلمات ، فانفلق له البحر ، وأطلق المصطفى ﷺ هذه الكلمات فنزل جيش السماء من الملائكة ، لكنه لم يقاتل ، واستعمل السلاح الذري من التراب والخصباء ، ثم جاء دور التخطيط لعودة الجيش إلى قائده ، فافتتح بالرجز النبوى الخالد :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

وبعد أن رأى رسول الله ﷺ المائة الصابرة حوله ، كانت الخطوة الرابعة ، هذه الخطوة هي استدعاء جيش الصاعقة عنده الذي قاتل معه منذ اللحظات الأولى للقتال منذ بدر ، وثبت معه في أحد ، وثبت معه في الخندق ، وبایع على الموت في الحديبية ، وشارك في فتح مكة ، جيش الصاعقة هذا هو جيش الأنصار ، فهو الذي خاض غمار الحروب السابقة ، ولم يتخل لحظة واحدة عن رسول الله ﷺ ، وهو الآن يحتاج فقط إلى وصل التيار الكهربائي بالمولود الأعظم ، بمحمد ﷺ حتى يتحول هذا الجيش كله من السالب إلى الموجب ، ويضيء درب القياد بالدماء ، وكان أن أرسل المصطفى ﷺ تياره في هذا الجيش .

(قال العباس : فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ، ناد : يا معاشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » .

(١) ، ٢) المغارى للواوى / ٣ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ . (٢) المصدر نفسه .

فهذه الأوسمة التي نالوها في تاريخهم الأغر لابد أن يذكروا بها ، أليسوا هم أصحاب سورة البقرة التي نزلت في ناديهم وتربيوا عليهم في كل آية من آياتها عبادة وجهاداً ونضجاً؟

أليسوا هم أصحاب السمرة؟ أليسوا هم الذين بايعوا تحت شجرة السمرة على الموت؟
فأين يفرون اليوم؟ هل ينكرون بالعهد؟ ألم ينالوا وسام رضوان الله بعد البيعة؟ «لقد
رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» [الفتح: ١٨]، ونالوا وسام النبوة: «أنتم
خير أهل الأرض» ، ونالوا الوسام الثالث: «لا يدخل النار - إن شاء الله - أحد باي
تحت الشجرة» فـ«فـأين يفرون عن نبيهم اليوم؟

أليسوا هم الأنصار لله ولرسوله ، وقد سماهم الله تعالى بذلك ؟ ألم يدخلوا التاريخ بهذا الشرف العظيم الذى ألسسوه ، فأين هم اليوم يدعون قائدهم وحده ؟
ومضى التيار يسرى في نفس كل أنصارى .

قال العباس: «فوالله لكانا عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها»،
وفى حديث عثمان بن شيبة: «يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة،
وبالأنصار الذين آروا ونصروا». قال:

(فوالله ما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه في حرجة ، فلرمي الأنصار كانت أخوف عندي من رماح الكفار) .

لقد سرى التيار الكهربى بحيث وصل إلى قلب كل أنصارى فأشعله بحمية الإسلام، ونار الحنين لله ورسوله والجهاد فى سبيله ، فصار فى طاقته أكبر من أن يقدر على مقاومته .

(فقالوا : يا ليك ، يا ليك ، فيذهب الرجل يشنى بعيته ولا يقدر على ذلك - أى لكتة الأعراب المنهزمين - فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتصر عن بعيته ، فيدخل سبيله ، في يوم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا هم والكافر) .

وإذا كان البعير لا يقدر مقاومة الأمواج المهزمة من البعير والخيل والبشر ، فالأنصارى قادر على ذلك ، فباخذ سلاحه ، ويمضي نحو الصوت لعله يلقى الموت هناك .

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

وأن أوان الجود بالأرواح .

وتخصص النداء أكثر في الكتبة الفدائية ، بطلائع الكتبة في بنى الحارث بن الخزرج .

(كانوا صبراً عند الحرب ، وأشرف رسول الله ﷺ في ركابه ، فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كانتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسول الله ﷺ هذا حين حمى الوطيس) .

فقد أجمع تنور المعركة ، وقد اشتبك الكفر بالإيمان في معركة الفداء ، وقد حفظت كتبة المغافر من الأنصار بيعتها يوم المذيبة على الموت ، وراحت تحالف أعداء الله ، وأعداء رسوله ، فكيف يصمد الكفر للإيمان ، إنه حين اشتبك الفريقان بعدوهم الضئيل القليل خرج الإعلان النبوى المدوى :

« انهزوا ورب محمد » .

(فذهبت أنظر فإذا القتال على هيته فيما أرى ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كلبلاً ، وأمرهم مدبرًا ، فوالله ما رجع الناس إلا وأساري عند رسول الله ﷺ مكتفون ، قتل الله تعالى منهم من قتل ، وانهزم منهم من انهم ، وأقام الله تعالى على رسوله أموالهم ونسائهم وأبناءهم ، فقد قذف الله الرعب في قلوبهم من الحصيات التبوية ، فما أسرع ما استسلموا قتلاً أو أسرًا ، وأصدق ما يكون وصفهم هو لأبي سفيان بن الحارث ، بطل الإسلام اليوم والرجل الثاني في الفداء بعد عمّه العباس ، حيث كان يوم بدر في جيش الشرك ، وخرج فاراً ناجياً بنفسه ، فلقنه عمّه أبو لهب فقاله :

هلم إلى يا بن أخي ، فعندي لعمري الخبر .

قال أبو سفيان لعمه أبي لهب : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحنتم أكتافنا يقتلون منا ويأسرون منا كيف شاؤوا ، وایم الله مع ذلك ما لمل الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض والله ما تُلقي شيئاً ، ولا يقوم لها شيء) .

هذا في بدر ، أما اليوم فأباو سفيان بن الحارث يضارب القوم بين يدي رسول الله ﷺ والرجال البيض والخيل البلق معه تصدى المشركين عنه ، وولداً أبي لهب عتبة ومعتب بجوار أبي سفيان يذودان عن الإسلام ورسول الإسلام ، وسيد بن هاشم محمد ﷺ .

وكانت الخطوة الرابعة - في تفجير الطاقات من رسول الله ﷺ ، والعودة بالجيش إلى الثبات والجهاد - هي الاهتمام بطلائع الجيش التي كانت أول الفارين ، وسلاح

الفرسان الذى فقد دوره فى المعركة والذى كان أكثر من نصفه من بنى سليم .

فأراد رسول الله ﷺ أن يصل بينه وبين بنى سليم ب Yoshiqa رحم وقربى تدفعهم إلى الثبات والعودة عن الفرار ، فأصدر إمام القادة فى الأرض نداءه :

« أنا ابن العواتك من سليم » .

والعواتك : عماته وجدات له من قيس لأبائه وأجداده ، ومنهن عاتكة بنت مرة بن هلال السلمى أم هاشم عبد شمس والمطلب بنى عبد مناف .

وعاد السلميون وفرسانهم فمارسوا دورهم فى القتال ، بعد أن صدت الملائكة هجوم هوازن ، واستجابوا لذلك النداء الدافع الذى يربطهم برسول الله ﷺ فهم أخواه ، إضافة إلى إسلامهم ، ويرزق سادة الأوس والخرج بهنون بقومهم لتكامل الملحمة .

فقد ذكر الواقدى : (أن سعد بن عبادة يصيغ يومئذ : يا للخرج ، يا للخرج ، وأسید بن حضير : يا للأوس ، يا للأوس ثلاثة ، ثابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل توارى إلى يعسوبيها ، فاخت المسلمون عليهم فقتلواهم حتى أسرع المسلمين فى قتل الذرية ، بلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال :

« ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ، الا لا نقتل الذرية » ثلاثة . فقال أسيد بن حضير :

يا رسول الله ، أليسوا هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أو ليس خياركم أولاد المشركين ، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأتباها يهودانها أو ينصرانها ») (١) .

وتغيرت الساحة تماماً ، وبعد أن كان المشركون هم الذين يطاردون المسلمين بعد أن ولوا مدربين ، استطاع سيد القادة ﷺ بملده بجيشه السماء ، واستدعاء كتيبة الفدائى من أهل الأرض ، وأوبية الجيش كله فيما بعد ، استطاع أن يحول الهزيمة الماحقة إلى نصر ساحق . يصف هذا النصر بعض الجنود الذين كانوا فى جيش هوازن كما نقل عنهم ربيعة ابن أبي زى قال : حدثنى نفر من قومى حضروا يومئذ قالوا :

(كمنا لهم فى المضائق والشواب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم ، حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء وحوله رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، أرجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا ، وكانت إيمانا ، وجعلنا نلتفت

(١) المغارى للواقدى ٩٥/٣ .

وإنا لنتظر إليهم يكدونا ، فتفرقت جماعتنا في كل وجه ، وجعلت الرعدة تستخفنا حتى
لحقنا بعلياء بلادنا ، فإن كان ليحكى عنا الكلام ما ندرى به لما كان بنا من الرعب وقدف
الله تعالى الإسلام في قلوبنا) .

لقد كانت التربية ريانية خالصة .

فمهما سمع هذا الجيل أوقرأ أن النصر من عند الله ، لن يستطيع أن يستوعب هذا
الجانب من العقيدة استيعاباً حقيقياً إلا من خلال التجربة والمعاناة ، وكانت هذه التربية
لهذه الآلاف الجديدة التي انضمت حدثاً إلى الإسلام والتي لم تنضم بعد تراها عياناً على
المسرح ، فتفع الهزيمة ، ويفر الجيل كله ، بل يهز أركان الجيل القيادي الأول فيضطره
للفرار معه ، ثم يرى وهو لا يدرى مصيره أيكون أسيراً أم قتيلاً ؟ يرى معية الله سبحانه
وقد ردت الثلاثين ألفاً عن ملاحقة المسلمين ، وقد بدؤوا يلوذون بالفرار بدون قوة بشرية
ولا طاقة مادية تواجههم ! ترى من الذي فعل بهم ذلك ؟ إنه نصر الله تعالى لرسوله
محمد ﷺ بالملائكة الذين لا يرونهم ، وبكيف الحصى التي أعمت عيونهم ، وأعمت
قلوبهم بالرعب ، وهذا هو الجيش الفار المنذعر يعود أدراجه ليطارد هوازن ويلاحقها ،
ويشتبك معها ، ويفوز بالأسرى والغنائم منها . إنها المعجزة الخالدة التي شهدتها هذا
الجيل بحسه وعصبه ، وكان هذا كافياً أن يجعل دقات الإيمان أنهاراً تفجر في قلوبهم ،
وتغمر كيانهم ، ويأتى القرآن بعد هذا ليؤكد هذا المعنى ويثبته في أذهانهم .

إننا نحن اليوم وبعد مرور خمسة عشر قرناً نقرأ هذه الآيات فيهتز كياننا منها ، وننهل
من معين الإيمان من خلال فقهها ، ونقرأ أحداث السيرة ، وكيف تغيرت الآية كلها ،
وانقلب السحر على الساحر ، وحمى الوطيس ، ووّقعت الهزيمة بثلاثين ألفاً من غير
حول ولا طول من هذه الآلاف العشرة أو الاثنين عشرة .

لقد ارتدت هوازن حسيرة كليلة يوم التقت بصاحب البغلة الشهباء ، والتلتقت بالحرس
الإلهي حوله من الملائكة يصرخ فيهم : شاهت الوجه ، وولوا والرعب يملأ أفندتهم مع
كف الحصباء والتراب الذي نزل بهم ، وجاء دور الجيش الإسلامي الفار بعد ذلك ليعيد
تنظيمه ، ويأخذ وضعه الجديد في الاتحام ، ثم المواجهة ثم المطاردة .

وهذه هي عملية تربية القاعدة العريضة التي تناولآلاف الأفراد في لحظة واحدة ،
فتمددهم برصيد إيمانى عجيب وإسلامى هائل .

والكافر من هوازن كانت هذه المعركة بالنسبة لهم معبر الانتقال إلى الإسلام ، فقد
شهدوا بأم أعينهم المعجزة التي ردتهم على أدبارهم خاسرين ، والتي قلبت الموازين كلها

عليهم بعد أن كانت لهم . حتى ليفرون إلى عليهما بلادهم لا يعون ، ومنهم من يفر إلى حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره - أى المسلم - من رعب الهزيمة .

أما الجدار البشري من اللحم والدم ، وأما المائة الصابرة التي زكاها الله تعالى في قرآن ، وما تلاها بعد ذلك من انضمام كتيبة الانصار ، والذين أنزل الله سكينته عليهم والذين يمثلون الجيل القيادي - جيل الفداء - فهذه نماذج من الحديث عنه في الفصل الجديد .

نماذج من التربية الفردية

أولاً : البطولات الفردية :

- ١ - (روى البزار عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - رضي الله تعالى عنهم - ضرب كل منهم يومئذ بضع عشرة ضربة وابن مسعود) ^(١) .
- ٢ - (وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح له طوبل أمام الناس ، إذا أدرك طعن ، قد أكثر في المسلمين القتل ، فيقصد له أبو دجانة فعرقب جمله ، فسمع خرخرة جمله واكتسح الجمل ، ويشد على أبو دجانة عليه ، فيقطع على يده اليمنى ، ويقطع أبو دجانة يده اليسرى ، وأقبل يضربانه بسيفيهما جميعاً حتى تعلم سيفاهما ، فكف أحدهما ، وأجهز الآخر عليه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : امض ، لا ترج على سلبه ، فمضيا يضربان أمام النبي صلوات الله عليه ، ويعترض لهم فارس من هوازن بيده راية حمراء ، فضرب أحدهما يد الفرس ، ووقع لوجهه ، ثم ضرباه بسيفيهما فمضيا على سلبه ... وكان عثمان بن عفان ، وعلى ، وأبو دجانة ، وأبيين ابن عبيد يقاتلون بين يدي رسول الله صلوات الله عليه) ^(٢) .
- ٣ - (وروى ابن أبي شيبة والإمام أحمد ، وابن حبان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلوات الله عليه : « من قتل قتيلاً فله سلبه » . قال : فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم) ^(٣) .
- ٤ - وروى الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن أبي قحافة - الحارث بن ربعى - واللفظ لسلم قال : (خرجنا مع رسول الله صلوات الله عليه عام حنين ، فلما التقينا كانت للMuslimين جولة ، فرأيت رجالاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين ، فاستدرت إليه حتى أتيته من ورائه ، فضربته على جبل عاتقه ، وأقبل على فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت ، ثم أدركه الموت ، فأرسلني ، فلحقت عمر بن الخطاب فقال : ما للناس ؟ فقلت : أمر الله . ثم إن الناس رجعوا ، وجلس رسول الله صلوات الله عليه فقال : « من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه ». قال : فقمت فقلت : من يشهد لي - ثم جلست ، ثم قال مثل ذلك ، قال : فقمت فقلت : من يشهد لي ؟ ثم جلست - ثم قال ذلك الثالثة فقمت ، فقال رسول الله

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي . ٤٨٥/٥ .

(٢) المغارى للواقدى . ٩٠٢/٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي . ٤٩٤/٥ .

٤ : « مالك يا أبا قنادة؟ » ، فقصصت عليه القصة . فقال رجل من القوم : صدق يا رسول الله ، سلب ذلك القتيل عندي ، فأرضه من حقه ، وقال أبو بكر الصديق : لا ها الله (١) ، إذاً لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ، فأعطيه إيه » ، فأعطاني ، قال : بعث الدرع فابتعد به مخرقاً (٢) فيبني سلمة ، فإنه لأول مال ثالته (٣) في الإسلام . وفي حديث الليث فقال أبو بكر : كلا ، لا يعطيه أضياع من قريش ويدع أسدًا من أسد الله (٤) .

٥ - ورى البخاري عن سلمة بن الأكوع رض قال : غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن ، في بينما نحن تتضحى مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناحه ، ثم انتزع طلقاء من حقه فقيد به الجمل ، ثم تقدم فتغدى مع القوم ، وجعل ينظر ، وفيها ضعفة ورقه من الظهر ، وبغضنا مشاهة إذ خرج يشتد فاتى الجمل فأطلق قيده ، ثم أناحه فقد عليه واشتد به الجمل ، واتبعه رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على ناقة ورقاء ، ثم انقتل ، فقال رسول الله ﷺ : « اطلبوه ثم اقتلوه » . قال سلمة : وخرجت أشتد فكنت عند ورك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأناحته ، فلما وضع ركبته على الأرض اخترطت سيفي فضررت رأس الرجل فندر ، ثم جئت بالجمل عليه درعه وسلاحه ، فاستقبلني رسول الله ﷺ والناس معه فقال : « من قتل الرجل؟ » قالوا : ابن الأكوع . قال : « له سلبه أجمع » .

٦ - قال أنس بن مالك كما رواه الإمام أحمد :

(...) غزوت معه يوم حنين فخرج المشركون بكثرة فحملوا علينا حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا وفي المشركين رجل يحمل علينا فيدقنا ويحطمها ، فلما رأى ذلك نبي الله ﷺ نزل فهزمهم الله عز وجل فولوا ، فقام نبي الله ﷺ حين رأى الفتح ، فجعل نبي الله ﷺ يجاء بهم أسارى رجلاً رجلاً فيباعونه على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : إن على نذراً لئن جيء بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمها لأضرابهن عنقه ، فسكت النبي ﷺ وجيء بالرجل فلما رأى نبي الله قال : يا نبي الله ، تبت إلى الله ، يا نبي الله ، تبت إلى الله ، فامسك نبي الله ﷺ فلم يباعه ليوفي الآخر بندره ، قال فجعل ينظر النبي ﷺ ليأمره بقتله ، وجعل يهاب نبي الله أن يقتله ، فلما رأى نبي الله ﷺ لا يصنع شيئاً بایعه ، فقال : يا رسول الله نذري ، قال : « لم أمسك عنه منذ اليوم

(١) لا ها الله : ما : يمعن الواو التي يقسم بها فكانه قال : لا والله (النووى) .

(٢) مخرقاً : بستاناً .

(٣) ثالته : اقتبه .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٤٦٤، ٤٦٥، وهو عند مسلم ١٣٧٠/٣ ح (٤١/١٧٥١).

إلا ليوفي نذرك » . فقال : يا نبى الله ، ألا أومضت إلى ؟ فقال : « إنه ليس لنبى أن يومض »)١(.

٧ - قالوا : وهزم الله تعالى أعداءه من كل ناحية ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ، وغنمهم الله تعالى نسائهم وذرارتهم وأموالهم ، وفرَّ مالك بن عوف حتى بلغ حصن الطائف هو وأناس من أشراف قومه ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله تعالى رسوله وإعزاز دينه .

قال ابن إسحاق : ولما هزم الله تعالى المشركين من أهل حنين وأمكن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه منهم قالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات وخيله أحق بالثبات

ورجع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من جهة المشركين بعد انهزامهم إلى العسكر وأمر بقتل كل من قدر عليه ، وثاب من انهزم من المسلمين .

وروى البزار بسنده رجاله ثقates عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قال يوم حنين :

« أجزر لهم جزراً » ، وأوْمَأ بيده إلى الخلق)٢(.

ثانياً : البطولات النسائية :

٨ - قال محمد بن عمر الواقدي : (حدثني سليمان بن بلال عن عمارة بن غزية قال : قالت أم عمارة : لما كان يومئذ والناس منهزمون في كل وجه ، وأنا وأربع نسوة في يدي سيف لى صارم وأم سليم معها خنجر قد حزمه على وسطها وهي يومئذ حامل بعد الله بن أبي طلحة ، وأم سليط ، وأم الحارث قالوا : فجعلت تسله وتتصبح بالأنصار : آية عادة هذه ، مالكم وللفرار ! قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء ، يوضع بحمله في أثر المسلمين ، فأعراض له فاضرب عرقوب الجمل ، وكان جملًا مشرقاً)٣(، فوقع على عجزه ، وأشد عليه ، فلم أزل أضريه حتى أثبته ، وأخذت سيفاً له ، وتركت الجمل يحزن يتصفق ظهراً لبطنه ، ورسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قائم مصلت السيف بيده ، قد طرح غمده ينادي : « يا أصحاب سورة البقرة ». قال : وكر المسلمين ، فجعلوا يقولون : يا بني عبد الرحمن ، يا بني عبد الله ، يا خيل الله ، وكان رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قد سمي خيله : خيل الله ، وجعل شعار المهاجرين : بني عبد الرحمن ، وجعل

(١) مستند الإمام أحمد ١٥١/٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤٨٩/٥ ، وعند ابن هشام في السيرة ٤٤٩/٢ .

(٣) مشرقاً : عاليًا .

شعار الأوس : بنى عبيد الله ، فكرتُ الانصار ، ووقفت هوازن حلبَ ناقة فتوح ، ثم
كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها ، ذهبا في كل وجه . فرجع ابني إلى -
حبيب عبد الله ابنا زيد - بأسارى مكتفين ، فأقوم إليهم من الغيط ، فأضرب عنق واحد
منهم ، وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت في مازن بن النجار ثلاثين أسيراً ، وكان
المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كروا بعد ما تراجعوا ، فأسمهم لهم النبي ﷺ
جميعاً (١) .

٩ - وكان أنس بن مالك يقول : (إن أم سليم أمي ابنة ملحان جعلت تقول :
يا رسول الله ، أرأيت هؤلاء الذين أسلموك ، وفروا عنك وخذلوك ، لا تخف عنهم إذا
أمكنت الله منهم ، فاقتلوهم كما قتلت هؤلاء المشركين . فقال : « يا أم سليم قد كفى
الله ، عافية الله أوسع » ومعها يومئذ جمل أبي طلحة قد خشيت أن يغلبها ، فأدانت
رأسه منها فادخلت يدها في خزامته مع الخطام ، وهي شادة وسطتها ببرد لها ، ومعها
خنجر في يدها ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا معلمك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته
معي إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به ، قال أبو طلحة : أما تسمع يا رسول الله ما
تقول أم سليم ؟ !) .

١٠ - (وكانت أم الحارث الانصارية أخذت بخطام جمل أبي الحارث زوجها ، وكان
جمله يسمى المحسار . فقالت : يا حار ، تترك رسول الله ﷺ ، فأخذت بخطام الجمل ،
والجمل يزيد أن يلحق بألاف ، والناس يولون منهزمين وهي لا تفارقه ، فقالت أم
الحارث : يا عمر ، ما هذا ؟ فقال عمر : أمر الله ، وجعلت أم الحارث تقول :
يا رسول الله من جاوز بعيري فأقتله ، والله إن رأيت كاليلوم ما صنع هؤلاء القوم بنا -
تعنى بنى سليم وأهل مكة الذين انهزوا بالناس) .

ثالثاً : وضع قيادات العدو :

١١ - وكانت راية الأحلاف من ثقيف مع قارب بن الأسود بن مسعود ، فلما انهزم
الناس أسترد رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف ، فلم يقتل منهم إلا
رجلان من بنى غيره : وهب واللجلاج ، وقال النبي حين بلغه قتل اللجلاج : « قُتِلَ اليوم
سيد شبان ثقيف ، إلا ما كان من ابن هنيدة ». وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار ،
فلما انهزمت هوازن اتبعهم المسلمون ويُستحصى القتل من ثقيف بيني مالك فقتل منهم
قريب من مائة رجل تحت رايته فيهم عثمان بن عبد الله ، فقاتل بها ملياً ، وجعل يبحث

(١) المغارى للواقدى ٩٠٢/٣ ، ٩٠٣ .

ثيقاً وهو اذن على القتال حتى قتل .

وكان للجاج رجلاً من بنى كُنَّةَ ، وقال رسول الله ﷺ لانجي بنى كُنَّةَ : « هذا سيد شبان كُنَّةَ إلا ابن هنية - الحارث بن عبد الله بن يعمر بن - الحارث » . وكان رسول الله ﷺ يضحك ، وكانت كُنَّةَ امرأة من غامد يمانية قد ولدت في قبائل العرب ، فأعتق الحارث كل ملوك من بنى كُنَّةَ (١) .

١٢ - (ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيما توجه نحو نخلة إلا بني غيره من ثقيف ، وتبعدت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الشابيا .

فأدرك ربيعة بن رُفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه كان في شجاع له ، فإذا برجل فاتاخ به ، فإذا شيخ كبير وهو دريد بن الصمة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريدي بي ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفيع السلمي ، ثم ضربه بيده ، فلم يُغْنِ شيئاً ، فقال : بشس ما سلحتك أمك ، خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ، وكان الرجل في الشجاع ثم أضرب به ، وارفع عن العظام ، وانخفض عن الدماغ فإني كنت كذلك أضرب الرجال . ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم والله قد منعت فيه نساءك ، فزعم بنو سليم أن ربيعة لما ضربه فوق تكشف ، فإذا عجاته (٢) وبطون فخذلية مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء (٣) ، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إيه . فقالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثة (٤) .

رابعاً : القيادات الإسلامية :

١٣ - قال ابن إسحاق :

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لاصحابه : قفو حتى تمضى ضعفاً وكم ، وتلحق أخراكم ، فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس .

قال ابن هشام : (ويبلغني أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية ، فقال لاصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قوماً واضعفي رماحهم بين آذان خيلهم ، طويلة

(٢) عجاته : ما بين فرجيه .

(١) المغارى للواقدى ٩٠٦/٣ ، ٩٠٧ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٣/٢ .

(٣) أعراء : جمع عرى وهو الذي لا سرج له .

بواههم (١) ، فقال : هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم ، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيل أخرى تبعها ، فقال لاصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارضي رماحهم (٢) أغفالاً (٣) على خيلهم . فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الشنوة سلكوا طريق بنى سليم ، ثم طلع فارس ، فقال لاصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارساً طوبل الباد ، واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بجلاء حمراء . فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأخلف باللات ليحالطنكم ، فابتوا له . فلما انتهى الزبير إلى أصل الشنوة أبصر القوم ، فقصد (٤) لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها) (٥) .

١٤ - وروى البزار في مسند أنس بإسناد حسن ما يشعر بأن قاتل دريد بن الصمة هو الزبير بن العوام ولفظه : (لما انهزم المشركون انحر دريد بن الصمة في ستمائة نفس على أكمة فرأوا كتيبة ، فقال : خلوهم لي ، فخلوهم ، فقال : هذه قضاعة ولا بأس عليكم منهم . ثم رأوا كتيبة مثل ذلك ، فقال : هذه سليم ، ثم رأوا فارساً وحده ، فقال : خلوه لي ، فقالوا : متجر بعمامة سوداء . فقال : فالتفت الزبير فرآهم ، فقال : علام هؤلاء ها هنا ؟ وخرجكم من مكانكم هذا . قال : فاتجهت زبيدة فرآهم ، فقال : فجعله بين فمضى إليهم ، وتبعه جماعة فقتلوا منهم ثلاثة فحز رأس دريد بن الصمة ، فجعله بين يديه) (٦) .

١٥ - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : لما فرغ النبي صلوات الله عليه من حنين بعث أبو عامر على جيش إلى أوطاس ، فلقي دريد بن الصمة ، فقتل دريد ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى : وبعثني مع أبي عامر ، فرمى أبو عامر في ركبته ، رماه جسми بسهم فابتة في ركبته ، فاتجهت إليه ، فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى ، فقال : ذاك قاتلي الذي رمانى ، فقصدت إليه ، فلحقته ، ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فترتعنْه فنزا منه الماء . قال : يا بن أخي ، أقرئ النبي صلوات الله عليه مني السلام وقل له : استغفر لى ، واستخلصني أبو عامر على الناس . فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت فدخلت على النبي صلوات الله عليه في بيته على سرير مرمل ، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهوره وجنبه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر ، وقال : قل له : استغفر لى ، فدعا بياء فتوضاً ، ثم رفع يديه فقال : « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر » . ورأيت بياض إيطيه ثم قال : « اللهم اجعله يوم القيمة فوق كثير من خلقك من الناس » . فقلت :

(٢) عارضي رماحهم : واضعيها بالعرض .

(١) ال Boyd : باطن الفخذ .

(٣) أغفالاً : لم يعلموا أنفسهم بشيء يعرفون به .

(٤) قصد : قصد .

(٥) فتح الباري لابن حجر ٤٢/٨ .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٦/٢ .

ولى فاستغفر ، فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيمة مدخلًا كريما » (١) .

١٦ - قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس (٢) أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمي أبو عامر بهم قتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن عميه ، فقاتلهم ، ففتح الله على يديه فهزهم ، فيزعمون أن سلمة بن دريد هو الذي رمى أبا عامر الأشعري (٣) بهم فأصاب ركبته فقتله ، فقال :

إن تسألو عن فلانى سلمه
أضرب بالسيف رؤوس المسلمين

قال ابن هشام : (وحدثني من ثقى به من أهل العلم بالشعر وحديثه : أن أبا عامر الأشعري لقى يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه . فقتله أبو عامر ، ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ، ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعه وبقى العاشر ، فحمل على أبي عامر ، وحمل عليه أبو عامر ، وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد على ، فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فكان رسول الله ﷺ إذا رأه قال : « هذا شريد أبي عامر ». ورمى أبا عامر أخوانه فأصاب أحدهما قلبه ، والآخر ركبته فقتلاه ، ووكي الناس أبو موسى الأشعري ، فحمل عليهم فقتلهم) (٤) .

١٧ - قال ابن إسحاق : (وحدثنى بعض بنى سعد بن بكر أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « إن قدرتم على بجاد - رجل من بنى سعد بن بكر - فلا يفلتكم » ، وكان قد أحدث حدثاً ، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فعنفوا عليها في السياق ، فقالت للMuslimين : تعلموا والله أنى لاخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ ، قالت : يا رسول الله ، إنى أختك من الرضاعة قال : « وما

(١) فتح الباري ٤١/٨ ، ٤٢ ح (٤٣٢٣) .

(٢) أوطاس : واد في دار هوازن وهو موضع حرب حنين .

(٣) أبو عامر الأشعري : هو عبيد بن سليم الأشعري .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٧/٢ .

علامة ذلك؟ » قالت : عضة عضضتيها في ظهرى وأنا متورتك - وفي رواية الواقدى : بوادى السرر ونحن يومئذ نرعى البَهْم وأبُوك أبى ، وأمك أمى ، وقد نازعتك الثدى ، وتذكر يا رسول الله حلابى لك عنز أبيك أطلال ، فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فوثب قائماً ، فبسط رداءه ثم قال : « اجلسى عليه » ، ورحب بها ، ودمعت عيناه ، وسألها عن أمه وأبيه ، فأخبرته بموتها ، فقال : « إن أحببت فاقيمى عندنا محبة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك وصلتك ورجعت إلى قومك » ، قالت : بل أرجع إلى قومى ، فأسلمت ، فأعطها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية وأمر لها بيعير أو بعيرين ، ووافاها فأعطها نعمًا وشأةً لمن بقى من أهل بيتها وكلمته في بجاد أن يهبه لها ويغفو عنه ، ففعل ﷺ (١) .

١٨ - (وروى عبد الرزاق وابن عساكر عن عبد الرحمن بن أزهر قال: كان خالد بن الوليد جرح يوم حنين ، وكان على خيل رسول الله ﷺ فجرح يومئذ ، فرأيت رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله تعالى الكفار ورجع المسلمين إلى رحالهم يمشي في المسلمين ويقول : « من يدلنى على رحل خالد بن الوليد؟ » فأتى بشارب ، فأمر من عنده فضربوه بما كان في أيديهم وحثا عليه التراب . قال عبد الرحمن : فمشيت - أو قال : سعيت بين يدي رسول الله ﷺ وأنا غلام محتمل أقول : من يدلنى على رحل خالد ، حتى دلنا عليه ، فإذا خالد مستند إلى مؤخرة رحله ، فأناه رسول الله ﷺ فنظر إلى جرحه ، فتفل فيه ، فبرا خونه) (٢) .

١٩ - (روى الحاكم وأبو نعيم وابن عساكر عن عائذ بن عمرو ثوبيه قال : أصابتني رمية يوم حنين في جبتي فسال الدم عن وجهي وصدرى ، فسلت النبي ﷺ الدم بيده عن وجهي وصدرى إلى شدوتى ، ثم دعالي ، قال حشرج والد عبد الله : فرأينا أثر يد رسول الله ﷺ إلى متنه ما مسح من صدره ، فإذا غرة سابلة كفحة الفرس) (٣) .

خامسًا : من آداب الحرب :

٢٠ - (روى الإمام أحمد وأبو داود عن رياح بن ربيع ثوبيه أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاماً وعلى مقدمته خالد بن الوليد ، فمر رياح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها - يعني ويعجبون من خلقها - حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته فانفرجوا عنها ، فوقف عليها رسول الله ﷺ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٨/٢ ، وعند الواقدى في المغارى ٩١٣ ، ٩١٤ .

(٢) المغارى للواقدى ٩١٢/٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤٩٣/٥ ، وهي عند أحمد ١٧٨/٤ .

فقال : « ما كانت هذه لتفاوت » ، فقال لأحدهم : « الحق خالداً وقل له : لا تقتل ذرية ولا عيسينا » (١) .

٢١ - (ورأى رسول الله ﷺ امرأة أخرى فسأل عنها فقال رجل : أنا قتلتها يا رسول الله ، أردفتها خلفي فأرادت قتلي ، فقتلتها . فأمر بها رسول الله ﷺ فدفنت) (٢) .

سادساً : جمع غنائم حنين :

(لما انهزم القوم أمر رسول الله ﷺ بالغنمائهم أن تجتمع ، ونادي مناديه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل » ، وجعل الناس غنائمهم في موضع حتى استعمل عليها رسول الله ﷺ .

وروى الحاكم بسند صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ وبرة من بعير ثم قال : « يا أيها الناس ، إنني لا يحل لي ما أفاء الله تعالى عليكم قدر هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمحيط ، وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيمة » . وذكر الحديث .

وكان عقيل بن أبي طالب دخل على زوجته وسيفه ملطخ بالدم فقالت : إنني علمت أنك قاتلت اليوم المشركين فماذا أصبت من غنائمهم ؟ فقال : هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك فدفعها إليها ، ثم خرج فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول : من أصحاب شيئاً من المغنم فليرده ، فرجع عقيل إلى امرأته وقال : والله ما أرى إيرتك إلا قد ذهبت منك . فأخذها فألقاهما في المغامم .

وجاء رجل بكبة من شعر فقال : يا رسول الله ، أضرب بهذه برذعة لي ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك » .

وأتى رسول الله ﷺ الناس يوم حنين في قبائلهم يدعوهم ، وأنه ترك قبيلة من القبائل وجدوا في برذعة رجل منهم عقداً من جزع غلولاً ، فأناهم رسول الله ﷺ فكبّر عليهم كما يكبّر على الميت .

وأصحاب المسلمين يومئذ السبايا ، فكانوا يكرهون أن يقعوا عليهن ولهن أزواج ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله تعالى : « وَالْمُعْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَّكَتْ أَيْمَانُكُمْ » [النساء : ٢٤] ، وقال رسول الله ﷺ :

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي . (٢) المغارى للواقدى ٤٩٣ / ٥ .

« لا توطأ حامل من السبي حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تخيس » .
ولما جمعت الغنائم أمر رسول الله ﷺ أن تتحدر إلى الجعرانة ، فوقف بها إلى أن
انصرف رسول الله ﷺ من حصار الطائف .

قال ابن سعد - وتبعه في العيون : كان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة
وعشرين ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة .

وروى الطبراني عن بُدْيل بن ورقاء رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ أمر أن تخبس السبايا
والآموال بالجعرانة حتى يقدم فحبست .

قال ابن إسحاق : وجعل رسول الله ﷺ على الغنائم مسعود بن عمرو الغفارى ،
وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : سبى رسول الله ﷺ يومئذ ستة آلاف سبي
بين امرأة وغلام ، فجعل عليهم رسول الله ﷺ : أبا سفيان بن حرب ، وقال البلاذرى:
بُدْيل بن ورقاء الخزاعى . والله تعالى أعلم) (١) .

سابعاً : بين عيينة بن حصن والأقرع بن حابس :

نقل محمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

(صلى رسول الله ﷺ الظهر يوماً بحنين ، ثم تناهى إلى شجرة فجلس إليها ، فقام
إليه عيينة بن حصن يطلب بدム عامر بن الأضبيط الأشجعى وهو يومئذ سيد قيس ، ومعه
الأقرع بن حابس يدفع عن محلّم بن جثامة لكانه من خندف) (٢) ، فاختصما بين يدي
رسول الله ﷺ ، وعيينة يقول : يا رسول الله ، والله لا أدعه حتى أدخل على نسائه
من الحرب) (٣) والحزن ما أدخل على نسائي ، فقال رسول الله ﷺ : « تأخذ الديمة ؟ »
فأبى عيينة حتى ارتفعت الأصوات ، وكثُر اللغط ، إلى أن قام رجل من بنى ليث يقال له
مكبتل ، قصير ، مجتمع عليه شكّة) (٤) كاملة ، ودرقة) (٥) في يده فقال : يا رسول الله
إني لم أجد لما فعل هذا شيئاً في غرّة الإسلام إلا غنى وردد فرمى أولها ، ففرّ آخرها ،
فاسن اليوم وغير غداً ، فرفع رسول الله ﷺ يده وقال : « تقبلون الديمة خمسين في
فورنا هذا ، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة » . فلم يزل رسول الله ﷺ بالقوم حتى
قبلوا الديمة - وفي رواية : فقام الأقرع بن حابس فقال : يا معشر قريش ، سألكم رسول
الله ﷺ قتيلاً تتركونه ليصلح به بين الناس ، فمنعتموه إيه ، أقامتم أن يغضب عليكم

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٥/٤٩٦ - ٤٩٨ .

(٢) خندف : أم تميم وقريش .

(٥) الدرقة : الترس .

(٤) الشكّة : السلاح .

رسول الله ﷺ ، فيلعنكم الله تعالى بعلته ، والله لتسلمته إلى رسول الله ﷺ أو ليأتين
بخمسين من بنى ليث كلهم يشهدون أن القتيل ما جلى قط فلأبطلن دمه ، فلما قال ذلك
قبلوها ، ومحلم القاتل في طرف الناس ، فلم يزالوا يؤذونه ويقولون : أنت رسول الله
ﷺ يستغفر لك ، فقام محلم وهو رجل ضرب طوبل آدم مُحمر بالحناء عليه حلة كان
تهيأ فيها للقتل للقصاص ، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ وعيناه تدمعن . فقال :
يا رسول الله ، قد كان من الأمر الذي بلغك ، وإنني أتوب إلى الله ، فاستغفر لى ،
فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ » ، قال : أنا محلم بن جثامة . فقال : « أقتلته
بسلاحك في غرة الإسلام ؟ اللهم لا تغفر لجثامة » بصوت عالٍ يُنفِدُ^(١) به الناس ،
قال : فعاد محلم فقال : يا رسول الله ، قد كان الذي بلغك وإنني أتوب إلى الله
فاستغفر لى ، فعاد رسول الله ﷺ لمقالته بصوت عالٍ ، يُنفِدُ به الناس : « اللهم لا تغفر
لمحلم بن جثامة » حتى كانت الثالثة ، فعاد رسول الله ﷺ لمقالته ، ثم قال له رسول الله
ﷺ : « قم من بين يدي ». .

فقام من بين يدي رسول الله ﷺ ، وهو يتلقى دمعه بفضل رداءه .

فكان ضمرة المسلمي يحدث - وقد كان حضر ذلك اليوم - قال : كنا نتحدث فيما
بيتنا أن رسول الله ﷺ حرك شفتيه بالاستغفار له ، ولكنه أراد أن يعلم الناس قدر الدم
عند الله تعالى)^(٢) .

(قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث عن الحسن
البصرى قال :

لما مات محلم بن جثامة دفنه قومه فلفظته الأرض ، ثم دفنه فلفظته الأرض ،
فطرحوه بين صخريتين فأكلته السباع)^(٣) .

ثامناً : ذكر من استشهد بحنين :

أيمن بن عبد الله بن زيد الخزرجي وابن أم أيمن ، وسراقة بن الحارث الأنصاري ،
ورقيم بن ثابت بن ثعلبة - وأبو عامر الأشعري أصيب بأوطاس ، ويزيد بن زمعة بن
الأسود جمع به فرس يقال له : الجناح قُتُل ، واستحرر القتل من ثقيف في بنى مالك ،
فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايته ، فيهم عثمان بن عبد الله بن الحارث ، وكانت
رايته مع ذي الخمار ، فلما قُتُل أخذها عثمان بن عبد الله ، فقاتل حتى قُتُل ،

(١) يُنفِدُ به الناس : يسمعه الناس .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤٩٨/٥ ، ٤٩٩ .

(٣) المغارى للواقدى ٩٢١/٣ .

ولما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال : « أبعده الله ، فإنه كان يبغض قريشاً » .

وروى البيهقي عن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال : قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل يوم بدر .
تاسعاً : من أشعار حنين :

وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم حنين :

حين استخف الرعب كل جبان
وسوأبجع (٣) يكتبون (٤) للأذقان
ومقطر (٥) بسنابك ولبيان (٦)
وأعزنا بعبادة الرحمن
وأذلهم بعبادة الشيطان
لولا الإله وعبدك وليت
بالجزع (١) يوم حبا (٢) لنا أقرانا
من بين ساع ثوبه في كفه
والله أكرمنا وأظهر ديننا
والله أهلكم وفرق شملهم

قال ابن هشام : ويروى فيها بعض الرواة :

يدعون يا لكتيبة الإيان
يوم العريض (٧) وبيعة الرضوان (٨)
إذ قام عم نيكم ولوئه
أين الذين هم أحبابا ريهم

قال ابن إسحاق : وقال عباس بن مرداش :

يا خاتم الْبَاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ
إِنَّ الْإِلَهَ بْنِي عَلَيْكَ مُحَبَّةٌ
ثُمَّ الَّذِينَ وَفَوْا بِمَا عَاهَدُوهُمْ
رَجُلًا بِهِ ذَرْبُ السَّلَاحِ (٩) كَأَنَّهُ
يَغْشِي ذُو النَّسْبِ الْقَرِيبَ وَإِنَّمَا
أَنْبِيكَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتَ مَكْرَهًا
طُورًا يَعْنَقُ بِالْيَدِينَ وَتَارَة
يَغْشِي بِهِ هَامَ الْكَمَاهَ وَلَوْ تَرَى
وَيَنْوُ سُلَيْمَ مُعْنِقُونَ (١٠) أَمَامَهُ

(١) الجزع : ما انحطط من الوادي .

(٢) حبا : اعترض .

(٣) يكتبون : يسقطون .

(٤) اللبان : الصدر .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٩/٢ ، ٤٦٠ .

(٦) معنقون : مسرعون .

(٧) السوأبجع : خيل كانها تسبح في جريها .

(٨) مقطر : يرمي على قطره .

(٩) العريض : واد بالمدينة .

(١٠) ذرْبُ السَّلَاحِ : حدته ومضائقه .

يُمشون تحت لواهه وكأنهم
ما يرتجون من القريب قربة
هذى مشاهدنا التى كانت لنا
أسد العرين أردن ثم دراكا
إلا بطاعة ربهم وهو اكا
معروفة وولينا مولاكا^(١)

قال ابن إسحاق : وقال مالك بن عوف ، وهو يعتذر يومئذ عن فراره :

نعم^(٢) بأجزاء الطريق مخضرم
وأعين غارتها إذا ما يغزم
فتتین منها حاسر وملام^(٣)
والله أعلم من أعق وأظلم
وخذلتمنى إذ تقاتل خصم
لا يستوى بان وآخر يهدم^(٤)

منع الرقاد فما أغمض ساعة
سائل هوازن هل أضر عدوها
وكتبية لبستها بكتيبة
كلفتموني ذنب آل محمد
وخذلتمنى إذ أقاتل واحداً
وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم

* * *

البطولات الفردية :

خير هذه الأمة بعد نبيها الخلفاء الاربعة الراشدون : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، والأصل في المرشحين للقيادة العظمى الإمامة أن يكون حولهم الحراسة المشددة ، وأن يكونوا بعيدين عن الخطر حتى لا تتعرض حياتهم له ، فإذا ما يكونوا في بيوتهم خارج ساحة المعركة ، وإنما أن يكونوا في الصفوف الخلفية تحت الحراسة المشددة بحيث لا يصل إليهم سهم طائش أو هجوم مباغت ، وأن يكون رسول الله ﷺ على رأسهم في غرفة العمليات يوجه تعليماته وأوامره منها ؛ لأن فقدان القائد هو فقدان المعركة ، لكن الأمر يختلف تماماً في هذه الأمة ، فالذى قاد الهجوم المعاكس ضد المشركين هو سيد ولد آدم وقائد المعركة محمد رسول الله ﷺ ، وكان أقرب ما يكون من العدو ، وهذا ليس خاصاً في غزوة حنين ، إنما هو سمة أصيلة فيه - صلوات الله عليه - كما يروى مسلم عن البراء بن عازب رض :

(وَكَنَا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَاسَ لِذَنَا بِهِ ، وَإِنَّ الشَّجَاعَ مِنَا لِلَّذِي يَحْذِي بِهِ - يَعْنِي

ﷺ^(٥)

(١) النعم : الإبل .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦١/٢ .

(٣) الملأم : الذى ليس لامة الحرب وهى الدرع .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٤/٢ .

(٥) صحيح مسلم ١٤٠١/٣ ح (١٧٧٦/٧٩) .

فإذن ما يرشح هؤلاء القادة للخلافة العظمى هو جنديتهم العظيمة ، وتحصياتهم الجسيمة ، وليس تدبيج كلام ، أو ارتفاع نسب أو وفرة مال ، إنما هو العلم والجهاد والكفاءة القيادية والتقوى .

فقد كانوا في حينين بين يدي رسول الله ﷺ يذودون عنه ، ويغدوه بالمهج والأرواح كما روى البزار عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر وعثمان وعلياً - رضي الله تعالى عنهم - ضرب كل منهم يومئذ بضع عشرة ضربة .

ونضيف إلى هؤلاء الأربع حوارى رسول الله ﷺ الذى لم تتحدث الروايات فقط عن إصابته ، إنما تحدثت عن شهرته التى جاوزت الآفاق ، كما تحدثت عن بعض المهام الخطيرة التى أوكلت إليه ، فهذا رأى مالك بن عوف قائد جيش العدو فيه .

قال ابن إسحاق : وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوق فى فوارس قومه على ثنية الطريق ، وقال لاصحابه : قعوا حتى تمضى ضعفاكم ، وتلحق أخراكم ، فوق هنالك حتى لحقت به منهزمة الناس . وهذا موقف محمد مالك سيد هوازن أنه لم يغادر ساحة المعركة حتى أطمأن على جيشه بعد الهزيمة . قال ابن هشام : وبلغنى أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية فقال لاصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قوماً واضعى رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم . فقال : هؤلاء بنو سليم ولا يأس عليكم منهم . فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لاصحابه ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارضى رماحهم أغفالاً على خيلهم . فقال : هؤلاء الأوس والخترج لا يأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بنى سليم ، ثم طلع فارس فقال لاصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارساً طويلاً الباد ، واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بجلاء حمراء ، فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم فائتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية . أبصر القوم فضmed لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها .

والزبير رضي الله عنه أول فارس إسلامى ، ففى بدر لم يكن لدى المسلمين إلا فرسان للزبير ابن العوام وللمقداد بن الأسود ، وقد امتدت شهرته منذ أحد والخندق ، حيث كان هو الذى جاء بخبر بنى قريطة إلى رسول الله ﷺ ، وأمه صافية هى التى قتلت اليهودى ، وانتشرت شهرته يوم قتل ياسر البطل اليهودى فى خير ، وأن يتبع مالك بن عوف أخبار أبطال المسلمين فأمر طبيعى ، لكن الاحتمال الأقوى فى شهرة الزبير هو المعركة الضخمة التى خاضها مع دريد بن الصمة ، ولا نبعد أن يكون ابن هشام قد وهم ، فذكر مالك بن عوف مكان دريد بن الصمة ؛ لأن رواية البزار المروية بسند حسن تذكر الصورة نفسها

لكن مع دريد ، وما يرجع أنها معه هو السؤال لمن معه : مَاذَا ترون ؟ فمالك في عنفوان شبابه ويرى كل شيء ، أما دريد فهو ينوف على المائة والعشرين سنة، فلا عجب إلا يرى بصورة واضحة ، أو أن يُخبر عنمن يظهر على الساحة . وبحضورنا تعارض آخر : ففي روایة البخاري أن أبا عامر الاشعري هو الذي لقى دريد بن الصمة بأوطاس حيث وجهه رسول الله ﷺ ، ولا مجال للجمع بين الروايتين إلا احتمال انضمام الزبير لأبي عامر في معركته مع دريد بن الصمة فليس هناك ما يشير إلى تأمير الزبير إنما هو انضمام طارئ ، لكن أبا عامر خليفة هو أمير السرية .

والذى نخلص إليه تلك الشجاعة الفائقة لدى الزبير خليفة والتي تدفعه إلى أن ينازل كتيبة وحده ، وفي روایة البزار أن يشتراك مع جماعة أو ثلاثة فيقضى على ثلاثة من هوارن، أى يقتل نصف الكتيبة المشركة التي بلغ تعدادها ستة .

لقد ترعرع في بيت البطولة وورثها كابرًا عن أبيه العوام بن خوبيل ، وعن أمه الهاشمية صفية بنت عبد المطلب التي كانت تعدد مثل هذا الموقف ، كانت تعدد وهو صغير ليقابل جيشًا جرارًا ، فقد أرضعته لبان البطولة من ثدييها ، وكما روى أنها كانت تصربه ضربًا شديداً وهو يتيم فقيل لها : قتلته خلعت فؤاده ، أهلقت هذا الغلام فقالت :

إِنَّمَا أَضْرِبُهُ لَكَيْ يُلْبِسْ
وَيُجْرِيَ الْجَيْشَ ذَا الْجَلَبِ (١)

فَهُوَ إِنَّمَا تَعْدُهُ لِيَكُونَ قَائِدَ جَيْشٍ .

واطمأننت منذ طفولته إلى أنه الشبل الذي تزيد ، فقد روى عروة كذلك : (قاتل الزبير بمكة وهو غلام رجلاً فكسر يده وضربه ضرباً شديداً ، فمر بالرجل على صفية وهو يحمل فقالت : ما شأنه ؟ قالوا : قاتل الزبير ، فقالت :

كَيْفَ رَأَيْتَ زَبِراً
الْأَقْطَانَ أَمْ تَرَأَ
أَمْ مَشْعَلًا صَخْرًا (٢)

ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الزبير الغلام المؤمن ، فتناهه تربية سيد ولد آدم إضافة إلى تربية عمته صفية ، فإذا به يستعد لمواجهة مكة كلها بلد الشرك فداء لرسول الله صلوات الله عليه .

(قال عروة : جاء الزبير بسيفه ، فقال النبي ﷺ : « مالك ؟ » قال : أخبرت أنك أخذت . قال : « فكنت صانعاً ماذًا ؟ » قال : كنت أضرب به من أخذك ، فدعاه له

(١) ، (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠١/٢ .

وكان عمره اثنى عشر عاماً آنذاك .

أما عم الزبير فهو نوقل بن خويلد الذى كان يقال له : أسد قريش ، وأسد المطينين ، فكان يعلق الزبير ويحمى عليه النار وهو يقول : لا أرجع إلى الكفر أبداً)٢(.

ولابراز مدى انصهاره مع الإسلام ، فقد تكفل هو بقتل عمه أسد الكفر .

(فاما نوقل بن خويلد فقتله ابن أخيه الزبير بن العوام يوم بدر)٣(.

(وفي بدر نزل جبريل عليه السلام بسم الله الزبير في عمامته كما يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير :

جدى ابن عممة أحمد وزيره
عند البلاء وفارس الشقراء
وغداة بدر كان أول فارس
شهد الوغى في اللامة الصفراء
نزلت بسم الله الملائكة نصرة
بالخوض يوم تائب الأعداء)٤() .

وكما أعدته أمه صفية رضي الله عنها أوكل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد مواجهة جيش المشركين فـ : « لما انصرف المشركون من أحد وأصاب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال : من يتدب لهؤلاء في آثارهم ، حتى يعلموا أن بنا قوة » ، فانتدب أبو بكر والزبير في سبعين ، فخرجا في آثار المشركين ، فسمعوا بهم فانصرفوا قال تعالى : « فَانقْلَبُوا بِعِصْمَةٍ مِّنَ الْهِ وَفَضَلُّ لَمْ يَمْسِسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ [آل عمران] ، أى لم يلقو عدواً)٥(.

وعن هذه الحادثة المخالدة قالت عائشة رضي الله عنها لعروة ابن أختها :

(يابن أختي كان أبواك - يعني الزبير وأبو بكر - من استجابوا لله ولرسول من بعد ما أصابهم الفرج)٦(، ومن ملاحة جيش المشركين في أحد والاستعداد لمواجهته ، إلى مواجهة العدو الألد يهود بنى قريطة .

(وقال البخاري ومسلم : جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندف : « من يأتينا بخبر بنى قريطة ؟ » فقال الزبير : أنا ، فذهب على فرس فجاء بخبرهم ، ثم قال « الثانية » ، فقال الزبير : أنا ، فذهب ، ثم « الثالثة » ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي حواريا ،

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٥ / ١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٠ / .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٧ / ١ .

(٤) المصادر نفسه ٤٤ / ١ .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٧ / ١ .

(٦) المصادر نفسه ٤٧ / ١ .

وقرت عين رسول الله ﷺ بفارسه العظيم فقال :

« الزبير ابن عمتي ، وحوارى من أمتي » .

وكان له اللواء الأعظم يوم فتح مكة .

وعن الثورى قال : هؤلاء الثلاثة نجدة الصحابة : حمزة ، وعلى ، والزبير .

فإذن قد سبقت الزبير شهرته ، وأطاحت الآفاق بطولته ، ولا غرو أن يسمع به مالك ابن عوف أو دريد بن الصمة فيقول : هذا الزبير بن العوام وهو قاتلکم ومخرجکم من مكانکم هذا .

أما قول مالك بن عوف : أحلف باللات ليخالطنکم فاثبتوه .

وما ثبتوه له ، فصمد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها ، وفي الرواية الثانية : فمضى إليهم ، وتبعه جماعة فقتلوا منهم ثلاثة ، فحز رأس دريد بن الصمة ، فجعله بين يديه .

ومن حوارى رسول الله إلى صاحب سيف رسول الله : إلى أبي دجانة الذى أعطاه رسول الله ﷺ سيفه فى أحد وشرط عليه أن يقاتل به العدو حتى ينحنى ، ومضى قاتلاً : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، وأنشد فرحاً :

أنا الذى عاهدى خليلي ونحن بالسفع لدى التخيل
الآن أقوم الدهر بالكيل أضرب بسيف الله والرسول

وأخرج عصابته الحمراء فقالوا : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، وبقى يقاتل بالسيف حتى انحنى ووفى بشرط رسول الله ﷺ ، فأين هو الآن والعدو يزيد الموت لرسول الله ﷺ ؟ وقبل أن تخيب على هذا السؤال نبحث عن الفتى ، فتى الإسلام عزة وشکيمة وسؤددا وهو على بن أبي طالب ، فهو شريك أبي دجانة في مواجهة أبطال الموت من هوازن ، وهما اللذان كانا يقاتلان بين يدي رسول الله ﷺ ، فجاء فعل القوم وكيش الكتبية يقتل كل من يرى أمامه ويؤدى قتل سيد ولد آدم (على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام الناس إذا أدرك طعن ، قد أكثر في المسلمين القتل ، فيصمد له أبو دجانة ، فعرقب جمله ، فسمع خرخرة جمله واكتسح الجمل ، ويسد على

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٧ / ٤٨ وهو عند البخاري ١٤٢ / ٥ / ٢

وأبو دجابة عليه ، فيقطع على يده اليمنى ، ويقطع أبو دجابة يده اليسرى وأقبلًا يضر بيه بسيفيهما جميًعا حتى تلثم سيفاهما ، فكف أحدهما وأجهز الآخر عليه . ثم قال أحدهما لصاحبه : امض ، لا ترجع على سلبه) .

فالاهم من سلبه الآن الذود عن رسول الله ﷺ من فاتك آخر ، ومن صاحب الرایة السوداء إلى صاحب الرایة الحمراء (فارس من هوازن يده رایة حمراء فضرب أحدهما يد الفرس ، ووقع لوجهه ثم ضرباه بأسيفاهما فمضيا على سلبه) .

أما الذي استشهد من الليوث الأربع : عثمان ، وعلى ، وأبو دجابة ، وأمين بن عبيد فهو رابعهم أمين أخو أسامة بن زيد لأمه ، وهو الذي عنده العباس بقوله :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وفد فرّ من قد فرّ عنه فاقشعوا وعاشرنا وافق الحمام بنفسه لما مسه في الله لا يتوجع

ومن صاحب سيف رسول الله ، وفتي رسول الله إلى فارس رسول الله : أبي قتادة الذي واجه جيش غطفان بشخصه ، واسترد ما سبوه من المسلمين ، وقال عنه رسول الله ﷺ : « خير فوارستنا أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة » ومضى اسمه : فارس رسول الله ﷺ ، وما هو يحدثنا عن نفسه في حينين فيقول :

(خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلما التقينا كان للمسلمين جولة فرأيت رجالاً من المشركين قد علا رجالاً من المسلمين ، فاستدرت إليه حتى أتيته من ورائه ، فضررته على حبل عاتقه ، وأقبل على فضمني ضمة ، وجدت منها ريح الموت ، ثم أدركه الموت فأرسلني) .

وكانت هذه العملية الفدائية ، وال المسلمين لا يزالون يفرون من أعدائهم . متذمرين في كل صوب ، ويعمار أولو الحجى ماذا يعملون فلتحقت عمر بن الخطاب فقال : ما للناس ؟ فقلت : أمر الله ، ثم إن الناس رجعوا ، وجلس رسول الله ﷺ فقال : « من قتل قتيلاً فله سلبٌ » .

وقام عزيزٌ يرغب أن يأخذ سلبَ ذلك القتيل الذي اشتم منه ريح الموت . فقال : (من يشهد لي ؟) ، ولم يتقدم للشهادة أحد ، ترى ألم يره أحد وهو يذرف على ذلك القتيل الذي أذاق المسلمين ويلات الجراح وكاد يفتت بالمسلم الذي أمامه ؟ ! ولعل هذا الجمجم الكبير لم يتتبه إلى ندائه ، وعاد واقفًا ثانية قائلًا : من يشهد لي ؟ إنه ليس نكرة بين المسلمين ، فلم يقم للشهادة أحد فهو خير الفرسان عند رسول الله ﷺ ، وهو

الذى قال عنه يوم ذى قرداً : « خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع ». وعاد ثلاثة فوق قائلًا : من يشهد لى ؟ وليس فى الساحة من يشهد ، وراغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون فارسه العظيم بهذا الوضع المخرج فقال : « مالك يا أبا قتادة ؟ » فقال : يا رسول الله ، إننى ضربت رجلاً على حبل عاتقه . وعليه درع له فأجهضت عنه ، ويعلم القائد العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدى صدق فارسه العظيم الذى ينطق فعله قبل قوله ، رغم مظاهره المتألفة ، وهو صعلوك لا مال له .

(فعن محمد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى أبي قتادة فقيل : يتراجل ، ثم أرسل إليه فقيل : يتراجل ، ثم أرسل إليه فقيل : يتراجل ، فقال : « احلقوا رأسه » .

فجاء فقال : يا رسول الله ، دعنى هذه المرة ، فوالله لأعتبنك ^(١) ، فكان أول ما لقى رأس المشركين مسعدة) ^(٢) .

(وفي رواية أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أبا قتادة يصلى ، ويتقى شعره ، فأراد أن يجزءه فقال : يا رسول الله ، إن تركته لأرضينك ، فتركه ، فأغار مسعدة الفزارى على سرح أهل المدينة ، فركب أبو قتادة ، فقتله ، وغشأه بردته) ^(٣) .

وأنقذ الموقف رجل من آخر الصف وقف فقال :

صدق يا رسول الله ، وسلَّب ذلك القتيل عندي فارضه منى .

وكان سيد الخلق ليس من سجيته ولا طبعه أن يرد أحداً طلب شيئاً منه ، ومقام النبوة مقام الجود في الأرض ، لكن كيف يضيع حق البطل العظيم أبي قتادة .

وهنا تدخل النائب الأول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكبير وزرائه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال قبل أن يتكلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

لا ها الله ، إذن لا يعمد إلى أسدٍ من أسدِ الله يقاتل عن الله ورسوله يعطيك سلبه .
قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صدق » .

إنها المرة الأولى التى نشهد فيها تدخل الصديق بين يدى قائد العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وذلك لنصرة أبي قتادة أسد الله وأسد رسوله الذى اشتـم ريح الموت قبل أن يظفر بعده ويفتله ، ثم يأتي رجل ليس بالغير ولا بالتفير يأخذ حقه ، ويطالب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإرضانه ؟ !

وهو تدرب على تحمل المسؤولية بين يدى القائد العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإعطاء المقاتل حقه

(١) لاعتبنك : أى يترك ما يجد عليه من أجله ، ورجع إلى ما يرضيه عنه بعد إسخاطه عليه .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٥٤ / ٤٥٤ ، وقال عنه المحقق : الحديث مرسل .

(٣) المصدر نفسه ٤٥٥ / ٤٥٥ وقال عنه المحقق : إسناده صحيح .

وسلَّبَ عدوه ، قال العلماء : لو لم يكن من فضيلة أبي بكر الصديق خُلُقُه إلا هذا لكتفي ، فإنه بثاقب علمه ، وشدة صرامته ، وقوه إنصافه ، وصحّة توفيقه ، وصدق تحقيقه ، بادر إلى القول بالحق ، فزجر ، وأفتي ، وحكم ، وأمضى ، وأخبر في الشريعة عن المصطفى بحضرته وبين يديه ، وبما صدقه فيه وأجراه على قوله)^(١) .

ونفذ الرجل أمر رسول الله ﷺ حين صدَّق حكم أبي بكر بين يديه .

(وعند محمد بن عمر : فقال لى حاطب بن أبي بلتقة : يا أبا قتادة ، أتبיע السلاح؟ فبعثه بسبع أواق فابتعدت به مخرقاً في بنى سلمة ، فذلك أول مال تأثّله في الإسلام) .

ومن فارس رسول الله ﷺ إلى خير رجاله سلمة بن الأكوع خُلُقُه .

وسلمة بن الأكوع بطل غزوة ذى قرد والذى هاجم الغطافانين الذين اغتصبوا لقاح رسول الله ﷺ ، ويقى يطاردهم وحده حتى استعاد لقاح رسول الله ﷺ منهم ، وهو الذى أحبه رسول الله ﷺ فأعطاه سلاحاً يوم الخديبية ، وطلب منه البيعة ثلاث مرات .

ففى صحيح مسلم قال : (باينته أول الناس ، ثم بايغ ويابع حتى إذا كان فى وسط الناس قال : « بايغ يا سلمة » ، قال : قلت : قد بايتك يا رسول الله فى أول الناس ، قال : « وأيضاً » ، قال : ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً فأعطانى جحفة - أو درقة - ثم بايغ حتى إذا كان فى آخر الناس قال : « ألا تباينت يا سلمة؟ » قلت : يا رسول الله قد بايتك فى أول الناس وفي وسط الناس قال : « وأيضاً » باينته الثالثة) . وفي صحيح البخارى عنه قال : بايغت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء كتم تبايعون؟ قال : على الموت) .

فإذا كان فى عنق الناس بيعة واحدة ، ففى عنقه خُلُقُه ثلاث بيعات .

وكان واحداً من الناس فجأه الموقف ، ورأى الناس جميعاً يفرون ففرَّ معهم ، ورآه رسول الله ﷺ فقال : « لقد رأى ابن الأكوع فرعاً » .

وما لنا لا نحضر مع سلمة المعركة ونسمع إلى تقريره عنها خُلُقُه .

غزونا مع رسول الله ﷺ حيناً فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم ، وتوارى عنى فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وأصحاب رسول الله ﷺ ، فولى أصحاب رسول الله ﷺ فارجع منهزاً ، وعلى بردtan مؤتزراً بإحداهما مرتدياً الأخرى ، فاستطلق إزارى فجمعتهما جميعاً ومررت برسول الله ﷺ ، وأنا منهزم وهو على بغلته

(١) سبل الهدى والرشاد ٤٩٦ / ٥ .

الشهباء ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد رأى ابن الأكوع فرعاً » .

وهنا عندما وصل سلمة إلى رسول الله ﷺ بقى بجواره يذود عنه ؛ لأنَّه ينقل لنا ما يراه مشهداً حيَا أمامه : فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم إنَّه استقبل به وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » فما خلى الله تعالى منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين) .

وها هو يحدثنا عن المهمة الفدائية التي كلف بها بين يدي رسول الله ﷺ ، تلك المهمة التي لا يقدر عليها من المسلمين غيره ، ولتتابع مع هذا الفدائى العظيم حدثه .

(روى البخارى عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن ، فيينا نحن نتضحي (١) مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل على جمل أحمر . فأناخه ، ثم انتزع طلقاً (٢) من حقه (٣) ، فقيده به الجمل ، ثم تقدم فتغدى مع القوم ، وجعل ينظر وفيها ضعفة ورقة في الظهر ، وبعضاً مشاة ، إذ خرج يشتت فأتى الجمل فأطلق قيده ، ثم أناخه ، ثم قعد عليه فاشتد به الجمل ، واتبعه رجل من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ على ناقة ورقاء (٤) ، فقال رسول الله ﷺ : « اطلبوه واقتلوه » .

حتى الآن هو متحدث إذاعي لنا عما يجري في الساحة ، لكنه ما أُنْ سمع الأمر العام : « اطلبوه واقتلوه » حتى انقلب إنساناً آخر عاد سلمة بن الأكوع العداء الأول في الجيش الإسلامي الذي يلاحق الجيوش على - قدميه ، ويواجهها بسهامه وحجاته ، ويتصدر عليها وحده . وعاد خير رجال المسلمين كما أسماه رسول الله ﷺ ، وإذا كان جيش العدو لم يعجزه فهل يعجزه جاسوس العدو .

وليتنا نراه الآن وهو يسابق الريح على قدميه ، ونشهد حدثه مع انطلاقته في نحر الجاسوس الرهيب ، يقول رضي الله عنه :

(وخرجتأشتد فكنت عند ورك الناقة) فيها هو قد حاذى الناقة الورقاء للرجل الذي مضى يلاحق الجاسوس ، ثم ها هو يخلف الناقة خلفه ، ويعدو ثم يعود ثم يعود .

(ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ...) ، ولم يعد بينه وبين العدو إلا أن ينقض عليه ، وها هو انقضاضه في عمله أسرع من وصفه لنا هذا الانقضاض ، ثم تقدمت

(١) تضحي : تأكل وقت الصبح . (٢) انتزع طلقاً : قبلاً من جلود .

(٣) من حقه : جبل يشد به الرجل إلى بطنه البعير . (٤) ناقة ورقاء : في لونها يা�ض إلى السود .

حتى أخذت بخطام الجمل . فأنجته . فلما وضع ركبته على الأرض ...) ، إننا نتابع الجمل ريشما ينبع وها هو يضع ركبته استعداداً لذلك ، ولكن هل يهلانا صاحبنا سلامة حتى نشهد إنناخة الجمل ، أم يشغلنا بشيء آخر عن ذلك ؟ ويأتي الجواب :

(فلما وضع ركبته على الأرض ، اخترطت سيفي ^(١) ، فضررت رأس الرجل فتلر . الآن كان عندنا جاسوس ، والآن ، الآن أصبح عندنا رأس بلا جسد ، فقد طار الرأس عنه فمالنا وجلسته ، (ثم جئت بالجمل أقوده ...) فلا داعي لأن ينبع (... عليه رحله وسلامه) .

أما المصطفى صلوات الله عليه وسلم ، فهو بانتظار مغامرة خير رجاله ، وسيُعَذِّب أصحابه .

(فاستقبلني رسول الله صلوات الله عليه وسلم والناس معه ...) ، فهو محظوظ أنظار الجيش كله ، وكيف لا يكون كذلك ورسول الله صلوات الله عليه وسلم يربو إلى الأفق ، يتنتظر قدومه ، وقلبه مفعم بالأمل أن يأتيه برأس الجاسوس الخبيث ، فما خاب لجنديه سلامة هدف فقط ، وما أفرده في الخديبية بالبيعة ثلاثة إلا لأنه يعرف أي معدن من الرجال هو .

(فاستقبلني رسول الله صلوات الله عليه وسلم والناس معه ، فقال : « من قتل الرجل ؟ » قالوا : ابن الأكوع ، قال : « له سلبُه أجمع » .

وبذلك انضم خير الفوارس إلى خير الرجال .

وماذا عن أبي طلحة : ذلك الذي حمى رسول الله صلوات الله عليه وسلم في أحد بظهره ونحره ، والسياه تساقط عليه من كل صوب وهو يقول لقائده عليه الصلاة والسلام : نحرى دون نحرك ، ظهرى دون ظهرك ، ما هو اليوم يعيد سيرة حمزة بن عبد المطلب في جيش المشركين كالجمل الأورق لا يقوم له شيء إلا أكله . فقد ساهم بمقام عشرين بطلاً لأنه قتل عشرين من جيش العدو ، وأخذ سلَبَهُم كله .

إنها الخطة النبوية العظيمة في استئثار الطاقات وتهييج الهمم لذبح أبطال العدو : « من قتل قتيلاً فله سلبُه » ، فهو يجمع خيرى الدنيا والأخرة ، رضا الرحمن ، بالتقرب إلى الله بدماء العدو ، والثروة الضخمة من خلال سلب هذا البطل - سلاحه وفرسه ودرعه وأثنائه ، وكل شيء للعدو هوله .

(روى ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ، وابن حبان عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « من قتل قتيلاً فله سلبُه » قال : فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم) .

(١) اخترط سيفه : سلأه من غمده .

وإذا كان سلب فارس واحد يشتري به أبو قتادة مخرقاً أو بستاناً في آل بنى سلمة ، فيامكان أبي طلحة اليوم أن يعيد بستانه بدماء الذي كان فيه ألف نخلة ، والذى كان أغنى بستانين المدينة بعد أن قتل عشرين صنديداً من صناديد المشركين - وحاز سلبهم كله .

بطولات ربات الخدور :

وإذا كان هذا حال فارسنا أبي طلحة ، فمن أى باب دخل إلى الإسلام ؟
لقد دخل أبو طلحة الإسلام من باب أم سليم بنت ملحان الذي جاء إليها خاطبها بعد وفاة زوجها .

(جاء أبو طلحة يخطب أم سليم فقالت : إنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركاً ، أما تعلم يا أبا طلحة أن إلهك الذي تعبد إنما هو شجرة من الأرض ، وإنما نهرها حبشي بنى فلان ؟) قال : بلى ، قالت : أما تستحي تسرج لخشبة تنبت من الأرض نهرها حبشي بنى فلان ؟ ولقد هيمنت كل كوامن الهدى في أعماقه وحركت أعنف الصراع في ذاته بين عقله الذي أنامه أو أماته ، وبين هواه واتباعه قومه ولو كانوا في ضلال مبين ، والمشكلة أن الذي يثير كوامن هذا الصراع امرأة من قومه لا تكاد تعتبر في عقلها من ينافس الرجال ، إنما هي محطة الهوى والمتنة والله ، فما بالها اليوم تغلبه بعقلها بعد أن غلبت بهواه لها .

والقت آخر قنابلها التي فجرت أعماقه ، وأضاءت ذاته .

(فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأروحك نفسى لا أريد صدائاً غيره) .

فليست أم سليم إذن من تبع نفسها بالمال ، وليس من يريد أن يتزع أغلى ما عنده: بستانه صاحب ألف نخلة ، وليس تعرض طلب الذهب والفضة ، إنما تريد عقلاً متحرراً من الهوى ، وهذا هو صداقها .

لقد رأى نفسه صغيراً أمامها ، وهى العملاقة التى تقود العقول إلى الهدى والنور ، وراحت أصواتها تتردد في أعماقه : أما تستحي أن تسجد لشجرة نبتت من الأرض نهرها حبشي بنى فلان ؟

تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، لا أريد منك صدائاً غيره ، ولم يذق النوم طيلة الليل ، وهو ينقلب ويفكر بهذه الكلمات النفادرة الغائصة في الأعماق ، لقد قال لها : (دعني حتى أنظر ...) ، وما هو ينظر ويقلب النظر ، وعزم عزمه الأخيرة ومضى صباح اليوم الثاني بعد انبلاج الفجر ، وارتفاع الضحى مضى (فذهب فنظر ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ...) .

ونظرت في ابنها أنس بن مالك الذي أرضعه الإمام وهو لا يزال يلتف في لسانه حتى فارقها أبوه مالك بن النضر مغاضبًا إياها لأنها علمت صغيرها هذا الدين ، نظرت في أنس الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر ، وقالت : قم يا أنس فزوج أبا طلحة) (١) .
وأين اليوم أم سليم ، وأين أبو طلحة زوجها .

أما أبو طلحة فقد شهدناه قناصًا يقتنص الرجال حتى قتل عشرين بطلاً ، أما أم سليم فكانت على رأس الركب الفدائي النسائي في حنين ، فلقد باتت في الخديبية ، ونوديت من بعيد من نودي :

« يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب بيعة الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة » وهي من نبت هذا العطاء المعطاء .

روى ابن أبي شيبة والإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال :

اتخذت أم سليم خنجرًا أيام حنين ، فكان معها ، فلقي أبو طلحة أم سليم ومعها الخنجر ، فقال أبو طلحة : ما هذا ؟ قالت : إن دنا مني بعض المشركين أبعُج به بطنه .
قال أبو طلحة : أما تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ فضحك رسول الله صلوات الله عليه وسلم.
لكن الذي يقلق أم سليم ويملأ كيانها غيظًا هو هؤلاء الذين نكثوا وفرروا وتراجعوا
فقالت : (يا رسول الله أقتل من يعدونا من الطلاقاء انهزموا عنك) فهي لا ترى جزاء
للغارين إلا الموت . فقال : « إن الله كفى وأحسن يا أم سليم » .

أما التي حدثتنا عن رفيقات دربها المجاهدات ، فهي بطلة أحد ، والتي كان لها
شرف بيعة العقبة بيعة الحرب ، فهي : أم عمارة نسية بنت كعب المازنية .

فهي تكشف لنا عن جانب مخبوء عند اختها أم سليم ، لم تعرف عنه من غيرها .

قالت رضي الله عنها :

(لما كان يوم حنين والناس منهزمون في كل وجه ، وكنا أربع نسوة ، وفي يدي سيف لي صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته في وسطها - وإنها يومئذ حامل بعد الله بن أبي طلحة) .

وستندع الحديث عن أم عمارة إلى أن نستوفى صورة أم سليم التي تعرفنا من نسيبة بنت كعب أنها حامل في ولدها ، عبد الله ، وأنها قد أعدت الخنجر لتعج بها بطنه المشركين ، وتسائل : ألم تأخذها موجة الفرار فيمن فر ، وهي المرأة الضعيفة العزلاء ؟

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٤٢٧ .

لقد اختارت أن تكون بجوار زوجها البطل أبي طلحة ، وفي خضم المعركة ، وخشية أن يغلبها جملها فيفر في هذه الموجة الطاغية مع الفارين ، نستمع إلى حديث عبد الله بن أبي بكر عنها فيما رواه ابن إسحاق حيث يقدم لنا جانبًا ثالثًا من جوانب البطولة والعظمة عندها :

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ رأى أم سليم بنت ملحان وكانت مع زوجها أبي طلحة ، وهي حامل بعد الله بن أبي طلحة ، وقد خشيت أن يفر بها الجمل ، فأدانت رأسه منها وأدخلت يدها في خزامة مع الخطام ، فقال رسول الله ﷺ : « أم سليم ؟ ». فلم يثر انتباه سيد ولد آدم أن يتجمع الأبطال حوله من الرجال ، لكن الذي أثار انتباهه أن يجد بينهم هذه المرأة بين طعن الرماح ورمي السهام فقط السيوف ، محافظة على ثباتها ممسكة بعنان جملها ، مسلحة في خنجرها ، فراغه هذا المنظر ، وناداها : « أم سليم ؟ » .

فقالت خواشت : (نعم بابي أنت وأمي يا رسول الله) .

وأين يكون الفداء إن لم يكن هنا ؟ ومتى يكون الفداء إن لم يكن اليوم ؟ إنها تنديه بأعز ما عندها ، وتتجسد دونه بروحها ودمها ، وتذود عنه بنفسها : (نعم بابي أنت وأمي يا رسول الله) .

وها هي خواشت تدعو - كما مر معنا - إلى خطوة تحرق زيف المدعين، وزيف المنافقين، فتابعت قائلة : (أقتل المتهزمين عنك كما تقتل الذين يقاتلونك) ولا يشفى قلبها إلا أن تستتصدر هذا الأمر من رسول الله ﷺ وتشرع الخنجر في كبد هؤلاء الفارين كما تشرعه في كبد الأعداء المقاتلين ، فهما عندها سواء ، وكفف عليه الصلاة والسلام من غلوائها ومن ثوريتها قائلًا : « أو يكفي الله يا أم سليم » .

إنها لا تعرف إلا الموت في سبيل الله وبين يدي رسول الله ، أما الفارون فهم عدو كالعدو المقاتل .

وها نحن ندعو أبطال الدنيا ليتعلموا دروس البطولة من هذه المرأة الحامل المسلحة بخنجرها الحاد للعمليات الهجومية الصارخة .

وقيل أن نعود ثانية إلى سيدة الفداء الأولى أم عمارة ، نبحث عن الأخرين الآخرين لها ولأم سليم فهي التي حدثتنا أنهن كن أربع نسوة .

ها هي تحدثنا عن أختها الثالثة أم الحارث فتقول : (وكانت أم الحارث الانصرية آخذة بخطام جمل الحارث زوجها وكان يسمى المحسار) .

وهي التي ساهمت في ثبيت زوجها ، وإيقاف الجمل عن ركوب موجة الفرار .

(فقالت : يا حار ، أترى رسول الله ﷺ والناس يولون منهزمين ، وهي لا تفارقه) .

ولقد كانت أم الحارث ، وأم سليم من مدرسة واحدة ، مدرسة قتل المنهزمين .

(فأخذت بخطام الجمل ، والجمل يريد أن يلحق بآلافه ، والناس يولون منهزمين ، وهي لا تفارقه ، فقالت أم الحارث - وقد رأت عمر بن الخطاب : يا عمر ، ما هذا ؟ فقال عمر : أمر الله ، وجعلت أم الحارث تقول : يا رسول الله من جاوز بعيري فاقتله ، والله إن رأيت كال يوم ما صنع هؤلاء القوم بنا - تعنى بنى سليم ، وأهل مكة - الذين انهزموا بالناس .

لقد كانت أم سليط رابعة ركب النساء ، ولم تذكر لنا كتب التراجم عنها شيئاً إلا قول ابن سعد في طبقاته : أم سليط التجارية ... أسلمت وبأيوب شهدت خيراً وحيناً .

ونعود بعدها لنسبة بنت كعب رضي الله عنها التي تجاوزت حد حمل السلاح إلى مرحلة القتال مباشرة ، لقد شهداها في أحد رضي الله عنها ورسول الله ﷺ يشهد لها بقوله : « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني » .

وها هو عليه الصلاة والسلام ينظر جرحها وجراحها في أحد ، فينادي ابنتها قائلاً : « أمك أمك أصعب جرحها » ، فقد تركت مهمة الطب هذه اليوم لابتها ، بينما أخذت مهنة القتال ، ولم يتمالك عليه الصلاة والسلام نفسه من الدعاء لها : « بارك الله عليك من أهل بيتك ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيك - يعني زوج أمك - خير من مقام فلان وفلان رحمكم الله أهل بيتك » .

لكن أم عمارة تعيش في عالم حالم آخر ، في عالم الملائكة الرباني ، فعجبها لرسول الله رضي الله عنها أكبر من الوصف ، ومن أجل هذا اختصرت الزمن قائلة :

(قالت : ادع الله أن نرافقك في الجنة) .

واستجاب لها سيد ولد آدم داعياً ضارعاً إلى ربه : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » .

وكعصفور كان مقيداً فطار ، ولتأت جراحات الأرض كلها عليها بعد هذا الدعاء .

قالت رضي الله عنها : (ما أبالى ما أصابني من الدنيا) .

وها هي تباع على الموت يوم الحديبية وقد اختار رسول الله رضي الله عنها رحلها ليكون موطن البيعة :

(فجلس في رحالنا ثم قال : « إن الله أمرني بالبيعة ». فأقبل الناس يبايعونه في رحالنا حتى تدارك الناس فما بقي لنا ماتع إلا وطئ فكأني أنظر إلى المسلمين وقد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل ، إنما خرجنا عماراً ، فأنما أنظر إلى غزية (زوجها) قد توشع بالسيف) لكن هى ماذا تعمل ، وأين سلاحها ؟ ^(١) .

(فقمت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته في يدي ، ومعي سكين قد شدته في وسطي قلت : إن دنا مني أحد رجوت أن أقتله) .

أما اليوم ، فلا عنز لها إلا تحمل سلاحها ، فقد خرجو للقاء هوازن .
وندع الحديث عنها ولها في هذا اللقاء الحالد .

(وكنا أربع نسوة وفي يدي سيف لى صارم) .

وهذا السيف ليس للحلية والزيمة حتى تصور به ، وتدخل التاريخ بطلة في الصورة .
إنما هذا السلاح ليشرب دم الكفار ويرتوى به ، وقبل أن نقلنا إلى الفيلم الحى عن قتالها .
نشهدها صارخة بالفارين ، وقد أعيدت صورة أحد أمامها :

(فجعلت أم عمارة تصبيع : يا الأنصار : أية عادة هذه . مالكم والفرار) .

وقد تتفن المرأة الصياح والصراخ تستغيث ، لكنها هل تتفن فن الموت ؟

قالت : (وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله في أثر المسلمين) .

أما غيرها ، فإنما أن تصرخ مولولة ، وإنما أن تخرب مخشياً عليها ، أما سيدة الفدائيات في الأرض ، فليست كذلك ، إنها تدع الفرار والصراخ والهلع للرجال ، أما لها ، فلا .
(فأعراض فأضرب عرقوب الجمل ، فوقع على عجزه) .

أولاً يكفيها أن رمت البطل على الأرض ، فليجهز عليه أحد الأبطال من أقرانه ،
ولكنها لا ترى له قريباً إلا هي . (وأشدّ عليه ، ولم أزل أضربه حتى أثبته) .

ولم تكتف بقتله « فمن قتل قتيلاً فله سلبة » هكذا سمعت منادي رسول الله ﷺ ،
(وأخذت سيفاً له) ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده وقد طرح غمده ينادي :
« يا أصحاب سورة البقرة » .

وقرت عينها ، فيها هم أهلها أصحاب سورة البقرة يكررون ثانية يستجيبون للمنادي ،

(١) مقتطفات من المقابلات الكبرى لابن سعد ٤١٤/٨ ، ٤١٥.

وبدأ الخوف على رسول الله ﷺ ينزاح عنها ، فقد عاد الفدائيون إلى مواجههم (ووقفت هوازن قدر حلب ناقة فتروح ثم كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة قط كان مثلها قد ذهبا في كل وجه) .

وتذكرت حين رأت الهزيمة أنها أم للثيدين بقاتلان في المعركة ، وبدأت تخن إلى نقايها ، أما عندما كان الخطر فلم تكن تذكر شيئاً في الدنيا إلا رسول الله ﷺ .

(فرجع إلى أبنائى جمیعاً : حبیب وعبد الله أبناء زید بأساری مکتفین .

وراعها هذا العدو الحی بين يديها ولو كان أسيراً ، ألم يكن يريد قتل رسول الله ﷺ وحرب هذا الدين (فأقوم إليه من الغیظ فأضرب عنق واحد منهم) .

لقد قتلت القائد المقاتل وتركت جمله يخرخر حتى ألحقته بحمله ، وها هي تقتل أحد أسرى أبنائها شفاء لصدرها ، وإرواء لغيبتها : « وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٦) »

[التوبة]

وكان بنو النجار هم أهل رسول الله ﷺ وهم أخواله ، ولم يرض أن يختار لهم نقیباً بعد أسعد بن زراة ، إنما انتسبوا إليه فهو نقیبهم عليه الصلاة والسلام .

« أنتم أخوالى وأنا نقیبكم » .

فكانت هذه الكتبية الفدائیة تعج بالأسرى (وجعل الناس يأتون بالأسرى ، فرأیت في بنى مازن بن النجار ثلاثة أسرى) وبنو مازن فرع من فروع هذه الكتبية الخضراء .

بقى علينا أن نعلم أن الكتبية النسائية المكونة من أربع فدائیات هي : حالات رسول الله ﷺ ، فالنسوة الأربع من بنى النجار الذين كانوا أخوال جده عبد المطلب ، وكانوا أعظم الناس فداءً وغناءً في الحرب .

فسیسیة بنت كعب أم عمارة : من بنى مازن بن النجار .

والرمیصاء أم سلیم بنت ملحان : من بنى عدى بن النجار .

وأم سلیط بنت عبید بن زیاد : من بنى مازن بن النجار .

وأم الحارث بنت الحارث بن ثعلبة : من بنى دینار بن النجار .

ولا ننسى ذلك الاستقبال الحافل لرسول الله ﷺ يوم نزل في بنى النجار من جواريهم الصغار حيث كن ينقرن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

ولم يتمالك عليه الصلاة والسلام وهو يراهن أن يسألهن : « أتخبئن ؟ » ، قلن :
نعم يا رسول الله . قال : « وأنا والله أحبكن » قالها ثلاثة .

وحيث نذكر الحب والفاء والتضحية لا ننسى في خضم هؤلاء الفدائيات تلك المرأة الدينارية التجارية ، وما ندرى لعلها أم الحارث أو غيرها (وقد أصيب زوجها وأخوها وأبواها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا لها قالت : بما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحيين ، قالت : أرونيه أنظر إليه ، قال : فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعده جلل)^(١) .

قيادات العدو :

وإذا كانت الجيوش بقادتها ، فلتبحث عن قيادات جيش هوارن أين انتهى بها المطاف ؟
أما مالك بن عوف النصرى القائد العام فقد مضى بعد هزيمة جيشه فاراً إلى الطائف .

(ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس
وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بني غبرة بن ثقيف ،
وتبع خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس ، ولم تبع من سلك الثناءيا .

وإذا كان مالك بن عوف قد انتهى به المقام إلى الطائف ، فدريد بن الصمة اختلفت
الروايات في مكان اتجاهه هل مضى مع من توجه إلى نخلة ، أم عسكر بأوطاس ؟
وروايات الصحيح أنه عسكر بأوطاس ، وساناً خذ بهذه الرواية في البخاري تاركين بقية
الروايات الأخرى لصعوبة الجمع بينها كلها ، وحين مضى إلى أبوطاس ، مضى مع قائد
عظيم من قادة المسلمين إليها هو أبو عامر الأشعري . نستمع إلى ابن أخيه أبي موسى
الأشعري ينقل لنا صوراً حية من ذلك الصراع بين المسلمين والمشركين :

(عن أبي موسى الأشعري روى قال : لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبو عامر
الأشعري على جيش إلى أبوطاس ، فلقي دريد بن الصمة ، فقتل دريد) .

وحيث لم تشر هذه الرواية إلى من قتل دريداً ، فيمكنأخذ الروايات الأخرى التي
ذكرت أن الزبير روى هو الذي قتله - أو كما في الرواية المذكورة عند البزار (فحز رأس
دريد بن الصمة فجعله بين يديه) وهي مروية بإسناد حسن عند البزار ، وإذا قرأتا :
(فحز بالمبني للمجهول : (فحز) يمكن بذلك الجمع بين الروايات كلها ، حيث يكون
ربيعة بن رفيع السلمي هو الذي حزَّ رأسه ، وجاء به إلى الزبير ، كما في رواية ابن إسحاق

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٩٩/٢ ، وقد كان لأم الحارث زوج قبل زوجها الذي كان معها في حنين وهو عمرو
ابن غزوة .

في السيرة ، وهي الرواية الوحيدة التفصيلية بين يدينا عن مقتل دريد ثبتها كما وردت في السيرة النبوية لابن هشام :

(فأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة - ذلك أنه كان في شجار له - فإذا برجل فنانخ به فإذا شيخ كبير وهو دريد بن الصمة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريدى بي ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمي ، ثم ضربه بسيفه فلم يُعن شيئاً ، فقال : بشن ما سلحتك أملك . خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ، ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنى قتلت دريد بن الصمة فرب يوم والله قد منعت فيه نسائك ، فزعم بنو سليم أن ربيعة لما ضربه فوقع فتكشف فإذا عجانه (١) مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء ، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إيه فقالت : (أما والله لقد أعتقدت أمهات لك ثلاثة) .

ولا عجب أن ينفصل دريد بن الصمة بفريق كبير من الجيش يتبع المعركة ، فهو القائد العربي الأشهر الذي خاض غمرات الحروب ، وهو الذي عرض الخطة الأنسب للمقاومة ، وهو الذي حذر مالكا من المواجهة ، وهو الذي لا يعرف الهزيمة ، وما منعه من قيادة قومه إلا كبر سنه حيث غدا شيئاً طاغياً في السن ليس له إلا التيمن والتبرك برأسه . وإذا كان دريد قد انتهى قتلاً ، ومالك قد انتهى فراراً ، فلا بد أن تشهد المعركة بأوطان بين الفيلق الإسلامي وفيق الشراك كما هي في رواية البخاري :

(قتل دريد ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى : وبعثنى مع أبي عامر ، فرمى أبو عامر في ركبته) .

وإذا كانت رواية البخاري لم تسق لنا تفصيات عن ذلك اللقاء فلنـى ابن هشام في السيرة تفصيات مثيرة تبرر لنا بطولة أبي عامر الأشعري :

قال ابن هشام : (وحدثني من أثق به من أهل العلم بالشعر وحديثه أن أبي عامر الأشعري لقي يوم أوطان عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر . ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ، يحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعه ، وبقى العاشر ، فحمل على أبي عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه

(١) عجانه : ما بين فرجيه .

إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد على ، ففك عنه أبو عامر ، فأفألت ثم أسلم وحسن إسلامه ، فكان رسول الله ﷺ إذا رأه قال : « هذا شريد أبي عامر » .

إن المبارزة في عالم الحرب لا تتحمل أكثر من مبارزة رجل لرجل ، والأصل أن يبرز بطل جديد مع كل بطل للعدو ، ولذلك لما يبذل المبارز من جهد ومشقة يتعرض خلالها للموت قبل أن ينهى خصم ، فما بال بطلاً اليوم يرضي أن يكون هو المناجز وحده للأبطال العشرة ، وهذه أقرب إلى الخارقة والكرامة منها إلى الحقيقة ، فلو كان يلعب لعباً بسيفه لأنفك ، فكيف وهو يرمي ويطرد ويطعن ، ولا يكتفى بأن يكون بطلاً مناجزاً في الحرب ، بل هو داعية إلى الله عز وجل يدعو كل مبارز للإسلام قبل أن يصرعه ، ويُشهد الله على ذلك ، فهو بمقام عشرة أبطال يصرع خصومه العشرة ، وكان قدر الله عز وجل أن يضيء قلب البطل العاشر بالإسلام قبل أن يتسرّب بدمه على يد أبي عامر رضي الله عنه فيصرخ قائلاً : اللهم لا تشهد على ، وإن القتل عند أبي عامر مهمته يؤديها جنديل تسعه أبطال صرعي في ساعة وساحة واحدة ، إن القتل عند أبي عامر مهمته يؤديها حين يصر عدو الله على الكفر ، أما في اللحظة التي يفر فيها العدو المناجز من الكفر ، فهو أسرع الناس بالكف عنه ، وهذا ما فعله الداعية العظيم أولاً والبطل العظيم ثانياً مع مناجزه العاشر ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يدخل في هذا الدين ويحمل لقب : شريد أبي عامر عوضاً عن أن يحمل لقب : صريع أبي عامر .

وإذا كان الأبطال العظام هم الذين ييرزون للساحة فيبارزون ويصارعون ، لكن بطلاً العظيم لم يتمكن أحد من التغلب عليه في المصارعة ، وقد أكل كبد العدو حين رمى بين رجليه تسعه أبطال مضرجين بدمائهم ، فكان لابد من صرعيه عن طريق الرمي - وهذا الذي كان - فقد رماه أخوان بسميهما أصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه ، ونعود من جديد لرواية البخاري تعطينا صورة جديدة عن اللحظات الأخيرة مع الشهيد العظيم ، يعرضها لنا ابن أخيه أبو موسى رضوان الله عليهما .

(فانتهيت إليه فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال : هذا قاتلى الذي رمانى) ، وهل يسكت أبو موسى على مقتل عمه دون ثأر ، والدم ينفجر في عروقه غضباً لله من قاتل عمه . فأين بطولته إذن مع هذا الفاتك الغادر ؟ وما أن رأى هذا الفاتك حتى مضى إليه كالصاعقة وأحسن رامي السهم بذلك ، فلاذ فاراً من أبي موسى : (فلما رأى ولی عنى ذاهباً ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحي ؟ ألسْت عريضاً ؟ ألا تثبت ؟ فكف) .

إنها أعظم مهارة في استئثار النعمة الجاهلية ، وإثارة التزعزع القومية عند هذا الفتى ، والعربي يأنف أن يعيّر بالجبن ، وستمضي سبة عليه أبد الدهر ، ومن أجل هذا حركته حمية الجاهلية فتوقف عن الفرار واستعد للمواجهة ، وهذا هو الذي يريد به بطلنا أبو موسى رضوان الله عليه .

(فكفَّ ، فالتيقيت أنا وهو ، فاختلتنا ضربتين أنا وهو فقتله) ، ولا شيء أسوأ من الحديث عن التسامح واللين حين البأس ، ففى خضم المعركة لابد أن تستجيش كل مكامن القوة فى النفس الإنسانية حتى لو اقتضى الأمر الخيلاء فى المشية التى يكرهها الله تعالى ، ويعتها :

« إنها لمشة يغضها الله تعالى إلا في هذا الوطن ». .

ولو اقتضى الأمر الفخر بالنسب ، والاعتزاز بالأصل :

وأنا الذي سمعتني أمي حيدره
كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

«أنا النبء، لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، «أنا ابن العواتك من سليم». .

وحدثت الحرب الذى يعلم على تحقيق النصر يناسبه ذلك التوجيه النبوى الخالد ،
كما ، الزاد سنه بحال ثقات عن أنس رضي الله عنه قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«اجز روه جزراً» وأو ما بيده إلى الحلق.

و « من قتل قتيلاً فله سلبه » وكما قال أبو بكر رضي الله عنه : (لا ها الله إدّا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه) أو « كلا، لا يعطه أصيغ من قريش ويدع أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدأه إلى) .
إذن في خضم المعركة لا يحكمها إلا قوله عز وجل : **« قاتلُوهُمْ يُعذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِرُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذَهِّبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) »** [التوبة] .

ولابد لابي موسى إذن أن يشفى صدر عمه أبي عامر بقتل قاتله ويذهب غيط قلبه .
(ثم قلت لابي عامر : قد قتل الله صاحبك ، قال : فائز هذا السهم ، فترتunte ، فترتا منه الماء) .

و بذلك أدرك أبو عامر ~~رضي الله عنه~~ أن أجله قد حضر ، وأنه لن يلقى نبيه وحبيبه في هذه

الحياة الدنيا بعد الآن ، وقد وفَتْ ذمته فقتل تسعة من صناديد المشركين ، وأفلت العاشر حين قال : اللهم لا تشهد على ، ورأى عينه قبل أن يغادر الحياة الدنيا ثاره عينه وقد أخذه له ابن أخيه أبو موسى ، وقتل قاتله ، عندئذ تفرغ غوثي لشاعره التي صارت كلها صيانة بالتبني ، بتلبيه ، ورغبة في لقاء الله .

(قال : يا ابن أخي ، أقرئ النبي ﷺ السلام ، وقل له : استغفر لى) ولابد للآمة من قائد بعد وفاته (فاستخلفني أبو عامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات)^(١) .

وتعسفنا رواية عند السيفي تجلي الصورة كاملة كذلك منقوله عن ابن إسحاق :

قال ابن إسحاق : (وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه إلى أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال ، فرمى بسهم فُقِلَّ ، وأخذ الرأبة أبو موسى الأشعري وهو ابن عميه ، فقاتلهم ففتح عليه ، فهزمهم الله .

وزعموا أن سلمة بن دريد هو الذي رمى أبا عامر بسهم فأصاب ركبته فقتله) (٢).

وندوع أبي عامر رضي الله عنه ، لتعود مع أبي موسى القائد المظفر إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وهو يتنتظر على آخر من الجمر أخبار قاتله أبي عامر الأشعري ، فهذه معركة جديدة لم تكن بالحسبان ولعلها تكسر شوكة هوازن وتنتهي قوتها العسكرية ، فإذا كان القائدان : دريد ، ومالك لا يزالان على قيد الحياة فيإمكانهما أن يجمعما ثانية قومهما ، ويفتحا جبهة ثانية جديدة .

ونصي مع أبي موسى رضي الله عنه إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من خلال روايته لنا أحداث هذا اللقاء كما في صحيح البخاري : (فرجعت ، فدخلت على النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه في بيته على سرير مرممل وعليه فراش قد أثمر رمال السرير بظهره وجنبيه) .

وَهُذَا هُوَ قَائِدُنَا الْعَظِيمُ سَيِّدُ الْقَادِئِينَ ، وَقَدْ أَنْهَى أَكْبَرَ قَوْةً تَوَاجَهَهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، هُوَ عَلَى سَرِيرِ مَرْمَلٍ أَثْرَ الرَّمْلِ عَلَى جَنْبِيهِ وَظَهِيرَهُ .

(فأخيرته يخبرنا وخبير أبي عامر ، وقال : قل له استغفر لى) .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بدعاه سريع ، إنما قام فتوضاً ورفع يديه حتى بدا
يياض إبطيه ، وكم يدل هذا الاهتمام على مدى حب وتقدير رسول الله ﷺ لهذا القائد
البطل :

(١) هذه الرواية في، البخاري ١٩٧/٢، ١٩٨.

(٢) دلائل النبوة للسيعى ١٥٤/٥ وهي في السيرة عند ابن هشام ٤٠٥/٢.

(فدعا ياء فتوضاً ثم رفع يديه فقال : « اللهم اغفر لعُيُّد أبي عامر » ورأيت بياض إيطيه) ، هذه الدعوة الأولى استجابة لرجاء جنديه أبي عامر ، لكن الدعوة الثانية استجابة لرغبة الحبيب المصطفى وجبه جنديه المجاهد :

« اللهم اجعله يوم القيمة فوق كثير من خلقك من الناس » .

ولم لا تقر عين أبي عامر بعد موته بهذا الدعاء ، وقد زَكَّى حياته بخير ما يختتم أمره حياته بالتقرب إلى الله تعالى بدماء تسعه من أبطال المشركين ، وكفه عنْ ظهرت منه ملامح الهدى حتى فاز بلقب : شريد أبي عامر ، فإن تكون الدعوة له بأن يرفعه فوق كثير من خلقه بما قَدِّمَ وضحي وجاحد في سبيل الله ، ووجادها أبو موسى رض فرصة سانحة ، فهو الذي أَفْرَأَ عين عمه في حياته بالثار له من قاتله ، وفي رواية أنه قتل كلا الرجلين اللذين رمياه في صدره وركبته . فقال للحبيب المصطفى صل وقد اتصل برب العزة جل جلاله داعياً ضارعاً :

(قلت : ولی فاستغفر) .

قال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيمة مدخلًا كريماً » .

قال أبو بردة : (وهو ابن أبي موسى) : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى . وهكذا نال البطل الجديد ما أقر الله به عينه من دعوة رسول الله صل له بعد أن أقر عين عمه بقتل قاتله أو قاتليه ، وكان هذا الوسام النبوى الأعظم له جزاء على هذه البطولة ، وبإله من وسام .

ومن القائدين الكبارين : دريد بن الصمة ، ومالك بن عوف إلى قائدى ثقيف ، التي شاركت بثقلها في المعركة ، وثيق موزعة بين قبيلتين كبيرين هما: الأحلاف ، وبين مالك . وكانت راية الأحلاف من ثقيف مع قارب بن الأسود بن مسعود ، فلما انهزم الناس أسد رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف فلم يقتل منهم إلا رجلان من بنى غيره : وهب ، واللجلاج ، وقال النبي صل حين بلغه قتل اللجلاج : « قتل اليوم سيد شبان ثقيف إلا ما كان من ابن هنية » ، وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار ، فلما انهزمت هوازن اتبعهم المسلمون ، ويستحضر القتل من ثقيف في بنى مالك ، فقتل منهم قريب من مائة رجل تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله ، فقاتل فيها ملياً ، وجعل يحيث ثقيفاً وهوازن على القتال حتى قتل .

قائدان أحدهما فَرَّ حين وجد الثبات لا يجدى أمام الكتاب كاجبال التي أمامه ، فقد قومه إلى النجاة فلم يقتل منهم إلا رجالان ، والثانى أَنِفَ من الهزيمة ، وصبر على لظى

الحرب مع قومه فأزهق قرابة مائة نفس منها ليصد عن سبيل الله ، وقتل بعد ذلك .
ونعماً كما انتهى قائداً هوازن بين قتيل وفار ، انتهى كذلك قائداً ثقيف بين قتيل وفار ،
وكان فرار القائدين لهوازن وثقيف إلى حصن ثقيف يتمتعون بها من الحرب المدمرة التي
نزلت بهم ، ولا يدرؤن كيف تكون العاقبة .

ونقف عند تعليق رسول الله ﷺ على مقتل اللجاج من الأخلاف ، حيث قال
رسول الله ﷺ : « اليوم قتل سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنية » .

فقد حصر عليه الصلاة والسلام هذه السيادة في ثقيف كلها بين شابين قتل أحدهما
وهو اللجاج ، ولم يقتل الآخر وهو ابن هنية ، ترى كم هي معرفة النبي ﷺ بكفاءات
خصومه وإمكاناتهم ومعدتهم ، حتى ليبرز سادتهم ويکاد الثقيفون لا يعرفون هذه
السيادة ، ولا يعرفون أوضاعهم كما يعرفها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فلم
يكونوا يعرفون أن اللجاج رجلاً من بنى كنته حيث قال عليه الصلاة والسلام عنه في
رواية أخرى : « هذا سيد شباب كنته ، إلا ابن هنية » وسيادة ابن هنية ، أنه - وسُمعت
هذه أمة يمانية من غان ولدت في قبائل العرب - أعتق كل ملوك من بنى كنته ، برأ بأمه ،
فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته (أى لابن هنية) : أيسرك أن أهل بيت عامر
ابن الطفيلي وعلقمة بن علاءة مكان كنته ! فقال : يا أمير المؤمنين لو ددت أن ذلك كان ،
فقال عمر : ليت أمى كنته وقد رزقني الله من برها ما رزقك ، وكان أبرا الناس بأمه ، ما
كانت تأكل طعاماً إلا من يده ، ولا يغسل رأسها إلا هو ، ولا يسرح رأسها إلا هو .

وقدّر لابن هنية - سيد شباب ثقيف وسيد بنى كنته - أن يحيا ويرى النور ويدخل في
دين الله ، بينما قضى اللجاج صريعاً في هذه المعركة ، وسيد ولد آدم يوفى كل أمرى
حقه ولو كان مشركاً .

بينما يصل إليه ﷺ مقتل عثمان بن عبد الله بن ربيعة من بين المائة الذين سقطوا
قتلى - وكان يحمل الراية بعد ذي الحمار - فقال عنه رسول الله ﷺ :

« أبعد الله عثمان بن عبد الله بن ربيعة فإنه كان يبغض قريشاً » لكننا نبحث عن
قاتل عثمان بن عبد الله بن ربيعة فنجد أنه عبد الله بن أبي أمية - وهو ابن عمّة الرسول
ﷺ وهو رفيق درب أبي سفيان بن الحارث اللذين جاءا ليسلمما في طريق الرسول ﷺ إلى
مكة ، ورفض ابتداء قبولهما بقوله : « أما ابن عمى فقد هتك عرضى - أى أبو سفيان
ابن الحارث - وأما ابن عمّى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » ثم قبل إسلامهما عليه
الصلاحة والسلام ، وكان ما رأينا من جهاد أبي سفيان بجوار رسول الله ﷺ حيث كان
آخذاً بشغر بغلته ، ويقاتل عنه يميناً وشمالاً حتى قال عنه عليه الصلاة والسلام : « أبو
سفيان بن الحارث سيد قبيان أهل الجنة » .

فماذا عن رفيق دربه عبد الله بن أبي أمية؟

لابد أن ثبت ابتداء ذلك القول الذى جرح رسول الله ﷺ فى أعماقه ، حتى ليذكره بعد عشر سنين ونيف ، ولا يقبل إسلامه ابتداء لذلك القول .

ترويه لنا كتب السيرة فتقول :

(والله لا أؤمن بك أبداً حتى تتحدى إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتينا ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظنت أنى أصدقك) (١) .

ونزل في كلامه قوله تعالى من السماء : « وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَئِبُوْعاً (٦) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَهَةً مِنْ نَخْلِيْلِ وَعَنْ فَطْحِيْرِ الْأَنْهَارِ خَلَالَهَا تَفْجِيرًا (٧) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كَسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبْلًا (٨) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرَقِيقَ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سَبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُوْلاً (٩) » [الإسراء] .

عبد الله بن أبي أمية هذا الذي كان من أبعد الناس عن رسول الله ﷺ ، والذي بقى كلامه جرحاً غائراً في قلب النبي ﷺ ، يدخل حظيرة الإسلام من دون أن يرى رسول الله صاعداً في السماء أو تأتي معه الملائكة شاهدة برسالته ، وينخرط جندياً في هذا الدين ، وتتاح له أول فرصة يجاهد في سبيل الله ، فيقتل سيداً من سادات ثقيف عثمان بن عبد الله بن ربيعة ، ولا يطول الزمن بالصحابي المجاهد عبد الله بن أبي أمية ختن رسول الله ﷺ ، فهو إضافة إلى أنه ابن عمته هو أخو زوجته أم سلمة ظريفة ، ويبلغ رسول الله ﷺ مقتل عثمان بن عبد الله بن أبي أمية، فيدعوه سيد ثقيف الذي يغضنه قريشاً على يد ابن عممه وختنه عبد الله بن عبد الله بن أبي أمية، فيدعوه له بالرحمة قائلاً: « يرحم الله عبد الله بن أبي أمية ، وأبعد الله عنه عثمان بن عبد الله بن أبي أمية ، فإنه كان يبغض قريشاً » عبد الله بن المصطفى ظريفة تعنى الشهادة ، وما هي إلا أيام قلائل حتى كان موعد رسول الله ﷺ له (وكان دعاء رسول الله ﷺ لعبد الله يرحمه الله فبلغه فقال : إنني لأرجو أن يرزقني الله الشهادة في وجهي هذا) فقتل في حصار الطائف .

إنه مشوار قصير جدّاً ، ورحلة أيام في عمره الطويل الخافل بحرب الله ورسوله حتى لينزل في كلامه وحربه ومحادته لله ولرسوله كلاماً يتلى ، وتتفتح أزاهير

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٨/١ .

قلبه إلى الهدى ورسول الله ﷺ على وشك فتح مكة ، وفي منتصف الطريق بين مكة والمدينة يدخل حظيرة الإسلام بعد أن أفنى شبابه وحياته في حربه ، وكانت أول موقعة يشهدها هي حنين ، فلا ندرى ماذا شارك في فتح مكة ، وأكرمه الله تعالى أن يقتل عدواً من أعداء الله في حنين ، ثم يقتله عدو من أعداء الله في الطائف قد لا يبلغ عمره شهراً في الإسلام ، وعوضاً عن أن يمضى في التاريخ يلعنه الجيل بعد الجيل ، ويضمه إلى قائمة أبي جهل وأبي لهب ، ها هو في شهر واحد ينضم إلى قافلة الإيمان ، ويدركه الجيل بعد الجيل بالرحمة عليه بعد أن ترحم عليه رسول الله ﷺ ، وبشره بالشهادة قبل أن يستشهد ، ويكتب مع الصديقين والشهداء والصالحين أحد رموزهم الكبرى وشخصياتهم العظمى ، وحسن أولئك رفيقاً ، وذلك الفضل من الله يؤتى به من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ويدرك التاريخ كذلك أن القائدين اللذين فرَا إلى حصن الطائف مالك بن عمود سيد هوازن ، وقارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف ، هذان القائدان اللذان فرَا من رسول الله ﷺ إلى حصن الطائف وساهما في تسيير الحرب ضد رسول الله ﷺ هذان القائدان قد انضما فيما بعد إلى كتبة الإيمان ، ودخلوا المدرسة التي دخلها عبد الله بن أبي أمية في آخر عمرهما ، وجاهدا في سبيل الله حق جهاده مع من جاهد فيما بعد ، وكان لقارب ومالك فضل عظيم في إسلام ثقيف تحدث عنه في مظانه إن شاء الله .

أما القيادات الإسلامية :

فقد شهدنا منها الزبير بن العوام وبلاعه في سبيل الله ، وشهدنا أبا عامر الأشعري وأبا موسى الأشعري وبلاعهما في سبيل الله ، وبقى علينا أن نبحث عن قائد الفرسان وقائد سلاح المغافير : خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي حمل سلاحه عباء الهزيمة في الجولة الأولى من المعركة ، حيث كان معظمها من بني سليم فهم أكثر من نصف خيالة المسلمين - ألف فرس وألف فارس - حين وقعت المعركة « فَلَمْ تُفْعِنْ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ [٢٥] » (التوبه) ، ثم أنزل الله سكتنته على رسوله وعلى المؤمنين ، وخالف قائد السلاح بيحث عنه رسول الله ﷺ فلا يجده .

وها هو يمشي بين المسلمين ويقول : « من يدلني على رحل خالد بن الوليد » ، وهو يعلم أنه نزل به جراحات كثيرة ، فلا أقل من عيادات ومواساة هذا الأسد الجريح ، قال عبد الرحمن : سعيت بين يدي رسول الله ﷺ وأنا غلام محتمل ، أقول : من يدلني على رحل خالد حتى دلّلنا عليه ، فإذا خالد مستند إلى مؤخرة رحله ، فأناه رسول الله ﷺ ، فنظر إلى جرحه فقتل فيه فبراً رضي الله عنه) .

إنها للذكريات الخالدة ، فخالد بن الوليد هو هو يوم أحد الذي أعاد الكراة على المسلمين ، وانقض عليهم من الخلف ، وقاد الهجوم المعاكس لإنهاء رسول الله ﷺ ، وكان القائد الجريح آنذاك هو رسول الله ﷺ ، شُج وجهه ، وكسرت رياعيته ، وكلمت شفته ، وكان هذا كله بسبب خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين ، أما اليوم وبعد مرور خمس سنوات ، فخالد بن الوليد المسلم قائد سلاح فرسان المسلمين هو الذي يصد هجوم المشركين ، وتنزل به الجراحات العميقية ، ويبحث عنه قائد محمد - عليه الصلاة والسلام ، يتقل من رحل إلى رحل ، ومن مكان إلى آخر حتى رأه فواساه ، وتنقل في جرحه فبرا ﷺ ، وهذا ما تقدمه النبوة لخصومها وأعدائها ، بعد أن يدخلوا في دين الله ، وذلك الصحابي الآخر وإن لم يكن قائداً فذا فهو جندي مجاهد غارق بجراحه هو عائذ بن عمرو ، فيحدثنا عن مستشفى المواساة التي دخلها عند رسول الله ﷺ فيقول : (أصابتني رمية يوم حنين في جبتي ، فسال الدم عن وجهي وصدري ، فسلت النبي ﷺ الدم بيده عن وجهي وصدرى إلى ثندوتي) وبقيت آثار العملية الجراحية عنده بعد خروجه من المستشفى النبوى .

قال حشرج والد عبد الله : (فرأينا أثر يد رسول الله ﷺ إلى متهى ما مسح به من صدره ، فإذا غرة سابلة كفرة الفرس) وهى إذن عملية تجميلية بعد العملية الجراحية التي عافته بإذن الله وجلّته .

من آداب الحرب :

ومع كل التوجيه فى الغلظة والشدة على المقاتلين « اجزروهم جزراً » و« من قتل قتيلاً فله سلبه » و« الآن حمى الوطيس » . لكن هناك آداب فى الحرب النبوية المهدأة رحمة للبشرية ، فمن آدابها : الا يقتل إلا المقاتل ، ويحاسب عن ذلك قائد الجيش نفسه (فعن رياح بن ربيع ثنا أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاماً وعلى مقدمته خالد بن الوليد ، فمر رياح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة ... فوقف عليها رسول الله ﷺ فقال : « ما كانت هذه لقتائل » فقال لأحدهم : « الحق خالداً وقل له : لا تقتل ذرية ولا عصيماً » .

أما المرأة المقاتلة ، فيختلف الحكم نحوها (فرأى رسول الله ﷺ امرأة أخرى فسأل عنها فقال رجل : يا رسول الله أنا قلتها ، أرددتها خلفي ، فأرادت قتلي ، فقتلتها) . وإذا سمح بقتل المرأة المقاتلة فيبقى أدب آخر يخصها ، هو أن تدفن ، فالمرأة عورة (فامر بها رسول الله ﷺ فدفنت) .

ومن الآداب النبوية فى الحرب ألا يقتل النبي العظيم الذى جاء مبلغاً للرسالة وهادياً

للبشرية ألا يقتل بالإشارة ولو كان هذا المطلوب قتله مجرماً عريضاً في إجرامه ، يحدثنا عن ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه كما روى عنه الإمام أحمد :

(غزوت معه يوم حنين ، فحملوا عليه حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا وفي المشركين رجل يحمل علينا فديقنا ويحطمها ، فلما رأى ذلك نبي الله صلوات الله عليه نزل فهزهم الله عز وجل فولوا فقام نبي الله حين رأى الفتح ، فجعل ي جاء بهم أسرى رجالاً فيبايعونه على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه : إن على نذراً لتن جيء بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمها لأضرابهن عنقه ، فسكت النبي صلوات الله عليه) ويعنى سكوته عليه الصلاة والسلام إقراره لهذا الصحابي في الوفاء بذاته .

وجيء بالرجل فلما رأى نبي الله قال : يا نبي الله بت إلى الله ، يا نبي الله بت إلى الله ، فأمسك نبي الله صلوات الله عليه فلم يبايعه ليوفى الآخر بذاته . قال : فجعل ينظر النبي صلوات الله عليه ليأمره بقتله ، وجعل يهاب نبي الله أن يقتله ، فلما رأى نبي الله صلوات الله عليه لا يصنع شيئاً بايده فقال : يا رسول الله نذري ، قال : « لم أمسك عنه منذ اليوم إلا ليوفى ذرك » فقال : يا نبي الله ألا أومضت إلى ؟ فقال : « إنه ليس لنبي أن يومض » .

لقد سبق في فتح مكة أن جيء بأحد مجرمي الحرب عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه شافعاً له ، الذي كان رسول الله صلوات الله عليه يستحب منه ، ويستحب أن يرد له طلباً ، وانتظر رسول الله صلوات الله عليه ملياً ، قبل قبول شفاعة الرجل الثالث في الأمة ، ثم قبلها ، وقال بعدها : « هلا قام إليه أحدكم فقتله » قالوا : يا رسول الله ، هلا أومات إلينا ؟ قال : « ما ينبغي لنبي أن يقتل بالإشارة » .

ولا تستطيع الرحمة المهدأة أن ترفض الشفاعة حتى ولو عن أكبر مجرمي الحرب ، ولا يمكن للرحمة المهدأة أن تقتل إيماء ، فتظهر شيئاً وتبطئ شيئاً، فهذا لا يليق بمقام النبوة التي قد تحمل سمة الغدر ، وتتكرر العملية مع هذا الرجل الذي كان يدق المسلمين ويحطمهم ، ومن حقه أن ينال عقوبة القتل على ما أجرم وسفك من دم ، وترك رسول الله صلوات الله عليه الفرصة كافية قبل أن يقبل بيته، ليقوم الصحابي الذي نذر بقتله أن يفي بذاته، ولكن أدب الصحابي العظيم ، إن أباح له أن ينذر بين يدي قائده وحييه قتل هذا العدو المجرم ولو جاء مستأمراً مستأمناً ، فلم يبح له أدبه أن يقوم بقتل هذا المجرم بين يدي رسول الله صلوات الله عليه دون أمر منه ، ولم يدرك أن رسول الله صلوات الله عليه في إبطائه عن قبول بيته، إنما يفسح له الفرصة بالإيفاء بذاته ، والرحمة المهدأة للبشرية حين يطلب منها البيعة على الإسلام قد تملك الإبطاء ، لكنها لا تملك الرفض ، ولا تملك أن تكون سبب شقاء لتائب مهما كان صاداً عن سبيل الله ، وما كان لمقام وأدب النبوة أن تشير أو تؤمّن بالقتل من

جاء يطلب منها البيعة على الإسلام ، وهكذا دخل هذا المجرم في حظيرة الإسلام والتوبيخ لأن الله تعالى كتبه إن شاء الله من السعداء .

ومن آداب الحرب في الإسلام : التعامل مع الغنائم ، فمع أن الغنائم كانت محرمة على الأنبياء السابقين وجعلها الله تعالى خصوصية من خصائص هذا النبي الكريم ، كما في الحديث الشريف :

« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبل ... وأحلت لى الغنائم » .

لكن جيئنا قوامه اثنا عشر ألف مقاتل لابد أن يتدرّب هذا الجيش على عدم المس بالغنائم قبل توزيعها من قبل قيادة الجيش ، والشيء الوحيد الذي أبى استثناء من ذلك هو سلب القتيل من خلال التعميم النبوى الصادر : « من قتل قتيلاً فله سلبه » أما ما دون ذلك ، فلا حق لجندي بذرة واحدة من هذه الغنائم ، والأصل أن تجمع كلها ثم يتم توزيعها من قيادة الجيش ، ولكن العرب لم يتربوا هذه التربية ، ولم يتادبوا هذا الأدب ، فكان ما يحوزه الواحد من الغنيمة ، هو هدفه من معركته التي يخوضها إضافة إلى الشهرة التي ينالها ، وتصبح شجاعته حديث ربات الخدور ، وهذا الجيش كما سبق ذكرنا من قبل أن ثلثيه جديد على الإسلام ، وتعتبر غزوة حنين أول معركة يخوضها ويظفر بغناائم فيها ، ومن أجل ذلك كانت التعميمات النبوية من الوضوح والدقة بحيث لا تفسح مجالاً للأجتهاد الشخصي .

(لما انهزم القوم أمر رسول الله ﷺ بالغنائم أن تجمع ، ونادي مناديه :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل » ، وجعل الناس غنائمهم في موضوع حتى استعمل عليها رسول الله ﷺ .

ولكن هذا التعميم لا يكفي ، فلا تزال النفوس المتلمظة للغنيمة ، قد يراودها شك في أن النبي ﷺ يريد أن يحتجزها له ، فأمر منادياً ينادي .

لكن النداء كان بصيغة عملية مع الصيغة اللفظية ، كما روى الحاكم بسند صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ وبرة من بعير ثم قال :

« يا أيها الناس ، إني لا يحل لى مما أفاء الله تعالى عليكم قدر هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » .

وإذا كانت الوربة من شعر البعير لا تخل لسيد ولد آدم إلا الخمس ، فكل جندي من باب أولى لا يحل له الوربة وما دون ذلك وما أكثر ، ولهذا تابع التعميم النبوى .

« فأدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيمة » .

وصادف هذا النداء أذنًا لسلم جديـد كان من الشبكة الحديدية حول رسول الله ﷺ أثناء القتال وهو عـقـيل بن أبي طـالـب ، ودخل على زوجته وسيـفـه ملطـخـ بالـدـمـ فقالـتـ : إنـيـ عـلـمـتـ أنـكـ قـاتـلـتـ الـيـومـ الـشـرـكـينـ فـمـاـذاـ أـصـبـتـ مـنـ غـنـائـمـ ؟ـ فـقـالـ :ـ هـذـهـ الإـبرـةـ تـخـيـطـ بـهـاـ ثـيـابـكـ ،ـ فـدـفـعـهـاـ إـلـيـهاـ .ـ

وإـذـ المـنـادـيـ يـنـادـيـ :ـ أـدـواـ الـخـيـاطـ وـالـمـخـيـطـ فـإـنـ الـغـلـولـ عـارـ عـلـىـ صـاحـبـهـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ .ـ

وـرـغـمـ أـنـ عـقـيلـ فـوـقـيـ لمـ يـتـلـقـ بـعـدـ شـيـئـاـ مـنـ تـرـبـيـةـ هـذـاـ الدـيـنـ ،ـ فـكـلـ عـمـرـهـ فـيـ أـقـلـ مـنـ شـهـرـ ،ـ وـيـسـتـطـيـعـ أـنـ يـحـفـظـ بـهـذـهـ الإـبـرـةـ دـوـنـ أـنـ يـدـرـيـ بـهـاـ أـحـدـ أـوـ يـعـرـفـ أـحـدـ عـنـهـ شـيـئـاـ ،ـ لـكـنـهـ آمـنـ بـ (ـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ)ـ إـيمـانـاـ حـقـيقـاـ مـنـهـجـ حـيـاةـ ،ـ وـتـوـقـفـ عـشـرـيـنـ عـامـاـ قـبـلـ أـنـ يـقـولـهـاـ ،ـ لـكـنـهـ عـنـدـمـاـ قـالـهـاـ كـانـتـ لـهـ مـصـيـرـاـ وـخـطـ حـيـاةـ وـمـنـ أـجـلـ هـذـاـ قـالـ لـزـوـجـهـ :ـ وـالـلـهـ مـاـ أـرـىـ إـبـرـتـكـ إـلـاـ قـدـ ذـهـبـتـ مـنـكـ ،ـ فـأـخـذـهـاـ فـأـلـقـاهـاـ فـيـ الـغـنـائـمـ .ـ

وـنـتـابـعـ أـثـرـ هـذـاـ النـدـاءـ مـعـ صـحـابـيـ آخـرـ ،ـ جـاءـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ وـمـعـ كـبـةـ مـنـ شـعـرـ فـقـالـ :ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ :ـ أـضـرـبـ بـهـذـهـ بـرـذـعـةـ لـىـ ؟ـ

وـلـمـ يـكـنـ يـخـطـرـ بـذـهـنـهـ لـحظـةـ وـاحـدـةـ أـلـاـ يـأـذـنـ القـائـدـ الـعـامـ لـهـ بـهـاـ فـهـيـ لـاـ تـساـوىـ ذـرـةـ بـيـنـ مـنـاتـ الـأـلـوـفـ مـنـ الـغـنـائـمـ مـنـ الـأـمـوـالـ وـالـثـيـابـ وـغـيـرـ ذـلـكـ .ـ

وـكـيـفـ يـفـقـهـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ هـذـاـ الفتـىـ بـعـنـ حـرـمـةـ الـغـنـائـمـ قـبـلـ التـوزـيـعـ وـأـنـ مـالـ عـامـ لـاـ يـجـوزـ أـخـذـهـ قـبـلـ أـنـ يـحـكـمـ فـيـ القـائـدـ الـعـامـ ،ـ قـالـ لـهـ تـلـكـ الـكـلـمـةـ الـخـالـدـةـ يـرـبـيـ بـهـاـ هـذـاـ السـائلـ ،ـ وـيـرـبـيـ الـأـمـةـ كـلـهـاـ مـنـ بـعـدهـ :ـ

«ـ مـاـ كـانـ لـىـ وـلـبـنـىـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ فـهـوـ لـكـ »ـ .ـ

وـأـعـلـمـ بـذـلـكـ أـنـ يـمـلـكـ التـنـازـلـ عـنـ حـقـهـ وـحـقـ عـشـيرـتـهـ الـأـدـنـيـنـ مـنـ بـنـىـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ ،ـ وـلـمـ يـقـلـ مـنـ بـنـىـ هـاشـمـ :ـ لـأـنـهـ لـاـ يـمـلـكـ ذـلـكـ ،ـ وـعـلـيـهـ أـنـ يـأـخـذـ السـمـاحـ مـنـ اـثـنـيـ عـشـرـ الـقـاتـاـ مـنـ الـسـلـمـيـنـ لـأـخـذـهـ هـذـهـ الـكـبـةـ مـنـ الـشـعـرـ لـيـخـيـطـ بـرـذـعـةـ لـهـ ،ـ وـلـاـشـكـ أـنـ هـذـاـ السـؤـالـ كـانـ عـلـىـ رـؤـوسـ الـأـشـهـادـ ،ـ وـكـانـ الـجـوابـ عـلـىـ رـؤـوسـ الـأـشـهـادـ كـذـلـكـ ،ـ سـمـعـهـ الـسـلـمـونـ وـنـقـلـهـاـ مـنـ سـمـعـهـاـ لـمـ يـسـمـعـهـاـ ،ـ وـعـرـفـ أـنـ الشـعـرـ الـوـاحـدـةـ وـالـمـخـيـطـ لـلـجـيـشـ كـلـهـ حـقـ فـيـهـ ،ـ فـلـاـ يـجـوزـ أـخـذـهـ وـاحـجـاجـهـ قـبـلـ أـنـ يـوـزـعـ ،ـ وـكـانـ هـذـاـ الإـعـلـانـ عـقـبـ الإـعـلـانـ الـأـوـلـ الـذـيـ أـكـدـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ الـحـقـ الـشـخـصـيـ لـقـائـدـ الـجـيـشـ كـذـلـكـ ،ـ وـلـاـ هـذـهـ الـكـبـةـ مـنـ الـشـعـرـ .ـ

وـوـقـفـةـ صـغـيرـةـ عـنـدـ شـخـصـ عـقـيلـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ :ـ فـعـقـيلـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ ،ـ وـقـدـ رـحـلـ

رسول الله ﷺ والمؤمنون معه من بنى هاشم وتركوا أرضهم ودورهم ، كان عقيل يتصرف بهذه الدور بيعاً وسكنى كما يشاء دون أن يسأله أحد عن شيء من تصرفاته : (فعن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح : يا رسول الله ، أين ننزل غداً؟ قال النبي ﷺ : « وهل ترك لنا عقيل من متزل » ^(١) .

ويقول ابن حجر رحمة الله شارحاً للحديث :

(فلما مات أبو طالب ووقيعت الهجرة ولم يسلم طالب ، وتأخر إسلام عقيل استولياً على ما خلف أبو طالب ، ومات طالب قبل ^(٢) بدر ، وتأخر عقيل ... وكان عقيل قد باع تلك الدور كلها ، وفي قوله : « وهل ترك لنا عقيل من دار » إشارة إلى أنه لو تركها بغير بيع لنزل فيها) ^(٣) .

واختلف في تقرير النبي ﷺ عقيلاً على ما يخصه هو ، فقيل : ترك له ذلك تفضلاً عليه ، وقيل : استماله له وتاليها ، وقيل : تصحيحاً لتصريحات الجاهلية كما تصحح أنكحthem ^(٤) .

فعقيل هذا الذي يستولي على دور المسلمين وبيعها في الجاهلية - من قومه من بنى هاشم - هو هو نفسه الذي يعيد إبرة الخيطة للغائم قائلاً لأمرأته : والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، وذلك عندما سمع نداء رسول الله ﷺ : « أدوا الخيطة والمخيط ، فإن الغلول عار على صاحبه يوم القيمة » .

إنه هو هو ، فعقيل في الجاهلية لا يتورع عن الإستيلاء على دور بنى هاشم من المسلمين وبيعها ، وعقيل في الإسلام يعيد إبرة الخيطة إلى الغائم لنداء سمعه من رسول الله ﷺ ، وقد قدم حياته ثمناً للنذوذ عن رسول الله ﷺ .

إننا بهذه المقارنة نستطيع أن نتعرف على المدى الذي يرتفع فيه المسلم بعد إيمانه ، وعن الوهدة التي يكون فيها قبل أن يذوق حلاوة الإيمان ، ولو كان عمر إيمانه أقل من شهر .

وحتى يتجلذر معنى الأمانة هذا في نفوس المسلمين الذين عاشوا عمرهم في الجاهلية على السلب والنهب والغائم يذكر لنا الصالحي هذه الرواية : (... وأتى رسول الله ﷺ الناس يوم حنين في قبائلهم يدعوههم ، وأنه ترك قبيلة من القبائل ، وجدوا في برذعة رجل منهم عقداً من جذع غلولاً ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فنكر عليهم كما يكبر على

(١) صحيح البخاري ٥/٢ ١٨٧.

(٢) الثابت أن طالب بن أبي طالب قد توفي بعد بدر ، فقد مضى مع قومه إلى بدر ورجع من متصرف الطريق ، وقال شعراً بعد غزوة بدر .

(٣، ٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/١٣ .

فالقبيلة كلها مسؤولة عن الأخذ على يد الغالب ، ولا يحق لها أن تسكت عليه ، والآن كان الموت خير لها من الحياة . والرجل الذي يبيع لنفسه أخذ شيء من الغلول بعد هذا النداء ، فكثير عليه كما تكبر على الميت .

(وجاءه رجل فقال : يا رسول الله هذا الحبل وجدته حيث انهزم العدو ، فأشد به على رحالى ؟ قال : « نصيبي منه لك ، وكيف تصنع بأنصباء المسلمين ») (٢) .
فلو أخذه بعد ذلك فهذا يعني أنه لم يحيى بهذا الدين بعد ، ولم يتقلل من الظلمات إلى النور .

هذا عف النفس عن شهوة الغنيمة ، فماذا عن عف النفس عن شهوة الجنس ، وقد غدت الجارية بين يديه وملك يمينه ، فجاءت الأوامر النبوية بالامتناع عن قرب هذه الجواري قبل أن تستبرأ بحيبة .

وقال رسول الله ﷺ يومئذ : « لا توطأ حامل من السبي حتى تضع حملها ، ولا غير ذات حمل حتى تخيض حيبة » لكن السبايا كذلك لم توزع عمليا حتى أذن رسول الله ﷺ بذلك .

قال ابن سعد وتبعه في العيون :

كان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة .

هذه الغنائم والسبايا ، كان يمكن أن تكون نهب الجيش كله ، وألا يكون هناك سلطة تملك السيطرة عليها لو لا هذا النظام العظيم الذي اخترعه رسول الله ﷺ نحوها .

فقد روى الطبراني عن بُدْيل بن ورقاء روى أن رسول الله ﷺ أمر أن تخبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم فحبست .

وتشير رواية عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب أن الأمير الذي أوكل إليه أمر السبايا وهم ستة آلاف سبي بين امرأة وغلام ، فجعل عليهم أبو سفيان بن حرب ، وقال البلاذري : بُدْيل بن ورقاء ، والله تعالى أعلم) .

وكلا الشخصين هم من قادة مكة الأوائل الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ، وهما اليوم أمناء الله في أرضه على سبايا هوازن .

(١) المغارى للواقدى ٩١٨/٣ وقال : « حدثني مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة » .
(٢) المصدر نفسه ٩١٨/٣ .

الحكومة بين سيدى تميم وغطفان

وهذا هو سيد العرب صلوات الله عليه وسلم حين يكون من جنوده زعيم تميم : الأقرع بن حابس ، وزعيم غطفان : عبيدة بن حصن ، وهما من هما مكانة في العرب ، ويختصمان ، ولو دفعت هذه الخصومة في الجاهلية لكان من ثمارها المرة حرّياً ضروراً تأكل الأخضر واليابس ، وتتفنّى القبيلتين ، أما الآن فهذا الجنديان يحتكمان إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم بعد أن أسقطت هزيمة حينين ما في نفسيهما من تطلع للانتصار على محمد والانقضاض عليه ، ولو أن هوازن انتصرت لكان لهما شأن آخر ، وقبل أن نقف مع هذه الحكومة نعود قليلاً إلى الوراء للحديث عمّا اختلفا عليه .

(ويعدّ رسول الله صلوات الله عليه وسلم أبو قاتادة بن ربيع في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار .

حدثني عبد الله بن زيد بن قسيط عن أبيه عن ابن أبي حدرد عن أبيه قال :

(بعثنا رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى بطن إضم أميرنا أبو قاتادة في تلك السرية ، وفيها محلم ابن جثامة الليشي وأنا فيهم ، فيينا نحن ببعض وادي إضم إذ مر بنا عامر بن الأضبيط الأشجعى ، فسلم علينا بتحية الإسلام فامسكنا عنه ، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله ، وسلبه بغيراً له ومتاعاً ووطباً من لbin ^(١) كان معه ، فلما لحقنا بالنبي صلوات الله عليه وسلم نزل فيها القرآن : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوْا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَقْرَبْتُمُ السَّلَامَ لَتَ مُؤْمِنًا تَبْغُونَ عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنَّدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُثُرُمَنْ قَبْلَ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ تَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ^(٢) » [النساء] ، فانصرف القوم ولم يلقوا جمعاً حتى انتهوا إلى ذي خشب ، فبلغتهم أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قد توجه إلى مكة ، فأخذوا على بين حتى لحقوا النبي صلوات الله عليه وسلم بالسقيا) .

فأهمية هذه السرية مهمة غويهية لتبليل أنكار أهل مكة وثيقيف وهو اوزان بحيث لا يعرفون أين يمضي رسول الله صلوات الله عليه وسلم ومن يقصد ، ومضت هذه السرية إلى بطن إضم ليس لها هدف قتالي ، إنما هدفها إعلامي وهو توجيه الانظار إلى احتمال غزو رسول الله صلوات الله عليه وسلم العرب في هذا المكان ، وكان يمكن لهذه السرية أن تمضى ، وقد تنسى لو لا هذا الحدث الهام الذي جرى بها وهو إقدام محلم بن جثامة المسلمين على قتل عامر بن الأضبيط

(١) وطاب اللbn : سقاء اللbn خاصة .

الأشجعى المسلم طمعاً فى سلبه ونبهه ، وليس بين يدينا ما يشير إلى تاريخ إسلام محلم ابن جثامة لتحكم على مدى تغلغل الإسلام فى أعماقه ومدى تحذير الجاهلية فى نفسه ، لكن يكفيينا لقاوه مع رسول الله ﷺ الذى سيرد فيما بعد ، ونقف هنا مع الحكومة بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، حيث تبنى ععيينة بن حصن يطلب بدم عامر بن الأضبطة الأشجعى - وهو يومئذ سيد قيس - وأشجع من غطفان ، وعيينة سيد فوارزة خاصة وغطفان عامة ، أما الأقرع بن حابس التميمى فيدفع عن محلم بن جثامة ل مكانه من خندف ، وخندف هى أم تميم وكتانة ، ويتهى نسب محلم إلى الليث من كنانة ، فالنسب بعيد ، لكنها الرعامة التى تحاول أن تبرز فى الصف الإسلامى بين هذه الآلاف المؤلفة ليتبه الناس إليهم أئمها سادة من السادة .

(وصلى رسول الله ﷺ الظهر يوماً بحنين ثم تحنى إلى شجرة فجلس إليها ، فقام إليه ععيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر يطلب بدم عامر بن الأضبطة الأشجعى ، ومعه الأقرع بن حابس يدفع عن محلم بن جثامة ، فاختصما بين يدى النبي ﷺ ، وعيينة يقول : يا رسول الله ، لا والله لا أدعه حتى أدخل على نسائه من الحرب والحزن ما أدخل على نسائى ، قال رسول الله ﷺ : « تأخذ الديمة ؟ » ويأبى ععيينة ، فارتقت الأصوات وكثير اللغط ، وتحركت بنو تميم تصر على قتل القاتل ، لكن الأقرع بن حابس يريد أن يلبى رغبة رسول الله ﷺ ، وعيينة بن حصن يود ذلك .

قال ابن إسحاق : وأخبرنا سالم أبو النضر أنه حدث أن ععيينة بن حصن وقيساً حين جاء الأقرع بن حابس وخلا بهم قال :

يا معاشر قيس ، منعت رسول الله ﷺ قتيلاً يستصلاح به الناس ، فأفأتمت أن يلعنكم رسول الله ﷺ ، فيلعنكم الله بلعنته ، أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه؟ والله الذى نفس الأقرع بيده لتسلمته إلى رسول الله ﷺ ، فليصنعن فيه ما أراد ، أو لآتين بخمسين رجلاً من بنى تميم يشهدون بالله كلهم لقتل صاحبكم كافراً ، ما صلى قط ، فلأبطلن دمه . فلما سمعوا ذلك قيلوا الديمة .

لقد اقترب الأقرع بن حابس كثيراً من الإسلام ، وأصبح رضا رسول الله ﷺ هو رضاه ، وغضب رسول الله هو غضبه ، ولكن الخطة التى هدد بها لمرضا رسول الله ﷺ هي خطة شهادة زور يقوم بها خمسون من تميم فينفون الإيمان عن عامر بن الأضبطة الأشجعى ، وبذلك يصبح دم كافر ، وهذا لا يختلف مع النهج الإسلامي فى الحكم والقصاص ، والقرآن الكريم أثبت إيمانه بما جدوى نفيه فى شهادة رجال من بنى تميم : « ولا تقولوا لمن ألقى إلينكم السلام لست مؤمناً » [النساء : ٩٤] ، كما أن الرواية فيها من

الداخل ما يجعلها غامضة كذلك ، فالاولى أن يقول هذا القول عبيدة بن حصن عن الاشجعى الذى هو من قبيلته ، لا أن يقوله الاقرع بن حابس الذى لا يدرى عنه شيئاً ، ولهذا نجد الرواية الثانية أدق في هذا الموضوع ، وهى التى تتحدث عن مكتيل الذى حسم الأمر بحزمه ورأيه مؤيداً لرسول الله ﷺ وسند تلك الرواية أقوى وأوثق كما أوردها ابن إسحاق فى السيرة :

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال : سمعت زياد بن ضميرة ابن سعد السلمى يحدث عن عروة بن الزبير عن أبيه عن جده وكانا شهداً حينما مع رسول الله ﷺ - إذ قام رجل من بنى ليث يقال له : مكثير ، قصیر مجموع ، قال ابن هشام : مكثيل - فقال : والله يا رسول الله ما وجدت لهذا القتيل شبهًا في غرة الإسلام إلا كفنه ورددت فرميتك أولها ، فنفت أخراها . استنى اليوم ، وغيره غداً .

قال : فرفع رسول الله ﷺ يده فقال : « بل تأخذون الدية خمسين في سفرنا هذا ، وخمسين إذا رجعنا » فقبلوا الدية .

وهكذا حسم الأمر بين الزعيمين بالدية التي ذكرها رسول الله ﷺ على أن يسلم نصفها مباشرة ، ويؤجل نصفها الآخر حتى يعود الناس إلى رحالهم .

وإذا كانت القضية قد انتهت بين الاقرع وعبيدة في خلافهم السياسي ، لكن قضية المبدأ والعقيدة وبناء الجيل الإسلامي الرائد لم يتجل بعد في مجتمع يقوم على الإسلام والإسلام وحده .

(ثم قالوا : أين صاحبكم هذا يستغفر له رسول الله ؟ فقام رجل آدم ضرب طويل عليه حلة له كان قد تهياً للقتل فيها حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال له : « ما اسمك ؟ » قال : محلم بن جثامة ، وفي رواية الواقدى :

(... وعيينا تدمغان ، فقال : يا رسول الله قد كان من الأمر الذي بلغكم ، فإني أتوب إلى الله تعالى ، فاستغفر لى . فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ ». قال : أنا محلم بن جثامة . قال : « قتلته بصلاحك في غرة الإسلام ، اللهم لا تغفر لمحلم بن جثامة ». قالها بصوت عال يتفقد به الناس ، فقال : يا رسول الله ، قد كان الذي بلغك ، وإنى أتوب إلى الله فأستغفر لى ، فعاد رسول الله بصوت عال يتفقد به الناس : « اللهم لا تغفر لمحلم بن جثامة » ، حتى كانت الثالثة ، فعاد رسول الله ﷺ لمقاتله ، ثم قال له رسول الله ﷺ : « قم » ، فقام من بين يدي رسول الله ﷺ وهو يتلقى دمه بفضل ردائه ، وكان ضميرة السلمى يحدث ، وكان قد حضر ذلك اليوم . قال : وكنا نتحدث فيما يبتنا أن رسول الله ﷺ حرك شفيه باستغفار له ، ولكنه أراد أن يعلم قدر الدم عند الله) .

لقد كان الدم أرخص ما يكون عند العرب ، وأغلى ما يكون عند العرب ، وهذا الذي جعل منهم أوزاعاً متفرقين لم يتمكنوا أن ينضهروا في أمّة واحدة لما بينهم من دماء وثارات ، فالقتل يتم على أهون سبب ولو كان من خليع ماجن ، ثم تحمل القبيلة بعدها آثار هذا الدم ، وتقع المعارك الطاحنة التي تستمر أياماً أو أشهراً أو سنيناً ، فما تجف من طرف إلا وتحرج من طرف آخر ، فإذا حليف اليوم عدو الغد ، وإذا ابن العم القريب النسيب غداً هو عدو رهيب ، هذه الحالة التي وصفها الله تعالى لهذه الأوزاع المتفرقة .

﴿ ... إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ يَنْعِمُهُ إِخْرَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَدْتُكُمْ مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقوله عز وجل : « وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [الأنفال] .

هؤلاء القوم المتناحرنون المتفرقون المتصارعون المتذابحون على مدى قرون متالية نشروا على هذه الجاهلية وهذه الثارات وهذه الدماء أجيالاً تعقب أجيالاً وتورث الحقد والدم والثار إلى الجيل الجديد .

هذه الأوزاع يريد الله تعالى أن يصنع منهم خير أمّة أخرجت للناس ، فجعل الجهاد والقتال شرعة لها مكتوبة عليها : « كُتُبَ عَلَيْكُمُ الْقَتْالُ وَهُوَ كُرْهَةٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرُهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شُرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [آل عمران : ٢١٦] .

[البقرة]

وفي عملية التربية الأولى التي كانت تهدف إلى تكوين جيل قيادي يمسك مقوّد التاريخ بيده ، فطمه عن القتال نهائياً قرابة ثلاثة عشر عاماً ، حتى تعود إليه ببناء جديد وصيغة جديدة إنطلاقاً من تطبيق شريعة الله ، والثار لدين الله ، واعتبر هذا الهدف إن جرى تحويله فيه ، فهو كفر .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » [آل عمران : ٧٦] .

إذا قدر للجيل القيادي الأول أن يصاغ صياغة كاملة بعد أمره بكف اليد ما ينوف عن عشرة أعوام ، فلم يهيا لهذا الجيل شيء من هذا ، وأقدم على الإسلام وعلى الجهاد ، وقد يكون واضحاً هذا من الناحية النظرية لكن التطبيق العملي عليه والتنفيذ له هو من أشق الأمور على النفس ، ولذلك وجدنا الموقف النبوى من خلال تربية هذا

الجبل في صرامة لم نشهد لها مثيلاً على الإطلاق في تاريخ النبوة ، فخلال هذه الأعوام كلها لم نشهد موقفاً واحداً لرسول الله ﷺ لا يقبل فيه توبة تائب - ولو كان من أكبر الجرميين - ولقد قبل توبة عبد الله بن أبي سرح بعد أن كان مهدر الدم لارتداده وكذبه على الله رب العالمين ، وقبل إسلام وتوبته قادة الكفر جميعاً في مكة ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، وقبل - حتى هنا في هوازن - توبة إسلام ذلك الرجل الذي كان يحطم المسلمين ويقتلهم بهم ويقتلهم ، أما محلم فلاول مرة في تاريخ النبوة نشهد لرسول الله ﷺ هذا الدعاء : « اللهم لا تغفر لمحلم » ، وأعادها ثلاثاً ، ثم طلب منه أن يقوم من بين يديه ؛ لأنه دخل في الإسلام ، وقتل فيه بدخول الجاهلية ، لقد وقعت هذه الحادثة من قبل مع أسامة بن زيد ، والمقداد بن الأسود ، وعنهما رسول الله ﷺ أشد تعنيف حتى لتمني أسامة بن زيد إلا يكون قد دخل قبلها في الإسلام . لكن المقداد وأسامة لم يقتلا من تلقي الكلمة التوحيد لثار قديم بينهما ، إنما قتلا ذلك الرجل باعتباره قالها هرباً من الموت - كما خيل لهما - لاعن قناعة بهذا الدين ، لثار قديم بينهم ، ولو فتح هذا الباب على مصراعيه لانتهت أمة الإسلام في أيام ، فالأنصار الذين يمثلون أعظم اللبنانيات الأولى في البيان الإسلامي بينهم من الثار ما يكفي لاستمرار الصراع بينهم قرناً جديداً ، والأيام بين الأوس والخزرج جعلت العداوة متصلة للأجيال المتلاحقة ، وقد أوضحت القرآن بشكل جلي أنه إنما قتله رغبة في الدنيا ، وحرصاً على سلبه: « ولا تقولوا لمن آتني إليكم السلام لست مؤمناً تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مقام كثيرة كذلك كُنتُ من قبلي » [النساء : ٩٤] . فهذه سجيتكم وطبيعتكم وجبلتكم قبل الإسلام فالصراع كله ابتغا عرض الحياة الدنيا: « كذلك كُنتُ من قبلي » أما اليوم فلا ، « فمن الله عليكم » وبعد من الله تعالى عليكم بالإسلام لا يجوز بحال من الأحوال أن تبقوا كما كنتم من قبل تقتلون ثار دفين ، أو رغبة في دنيا مؤثرة ومتاع رخيص ، حتى لو كان أحكام في الإسلام ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ لمحلم: « قتلتته بسلاحك في غرة الإسلام » ، وفي رواية: « أمنته بالله ثم قتلتة » . وقد آتى إليكم السلام ، وقبلتموه منه ، وأعطيتموه السلام والأمن على أنه أحدكم ، ثم قمت بقتله .

وكبرها ثلاثاً : « اللهم لا تغفر لمحلم » . ثم قال له : « قم » فقام يمسح دموعه بطرف رداءه .

لقد خاص رسول الله ﷺ مخاضاً عنيناً بين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، حتى أنقذ محلماً من القصاص والموت ، لكن هل يغضي بها محلم قاتلاً ، ورسول الله ﷺ

يفرض قبول الدية على أوليائه - لصالحه - ثم يبقى رمزاً للبغى لا ينال منه، فتمضي المظلمة، وتمضي الجاهلية تتفشى من جديد انتفاشة الشيطان... كلا. فهذا أمر وذاك أمر. إنها تربية للأمة على العفو ، وعلى تسكين الدماء ، وعلى إطفاء جذوة الثأر والعصبية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية حين رفض الاستغفار لمحلم ، بل دعا له بأن لا يغفر الله له هو كذلك قتل لنوازع الجاهلية والعصبية . واجتثاث لها من جذورها حتى لا تعود ثانية فتبرز من جديد ، وينتشر القتل في الصيف الإسلامي تحت أي ستار ، وأدرك الجيل الإسلامي هذا الدرس العظيم الخالد ، وقالوا فيما بينهم : إنما نرجو أن يكون رسول الله ﷺ قد استغفر له ، وأماما ما ظهر من رسول الله ﷺ فهو هذا ، وبصورة أدق في الرواية الأخرى : ولكن أراد أن يعلم قدر الدم عند الله .

وجاءت تتمة التربية على رؤوس الأشهاد كما روى الواقدى عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث عن الحسن البصري قال : لما مات محلم بن جثامة دفنه قومه فلفظه الأرض ، ثم دفنه ، فلفظته الأرض ، فطرحوه بين صخرتين ، فأكلته السباع .

إن الأرض التي ابتلت بها جهل وأبى بن خلف وفرعون وهامان وجنددهما وطغاة الأرض ترفض قبول جثة محلم ، يجيئنا رسول الله ﷺ على هذا التساؤل مؤكداً الهدف الذي سعى إلى تحقيقه من عدم الاستغفار له فقال :

« والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما يبنكم بما أراكم منه » (١) .

وهكذا كانت التربية الجماعية العظيمة الخالدة - بعد معركة هوازن - على فطم النفس عن شهوة الغنيمة قبل أن توزع ، وأن آخذ خيط منها غلوى يقود إلى العار والنار . وعلى فطم النفس عن شهوة الجنس حين منع الاقتراب من السبايا قبل استبرائهن بحقيقة .

وعلى فطم النفس عن شهوة الثأر والتلمظ للقتل حين لم يستغفر لمحلم ، وحين لفظه الأرض .

ولكن ليس الهدف من ذلك هو الحرمان والتبتل والانقطاع عن الدنيا ، إنما الهدف أن تكون هذه الشهوات مقيدة بأمر الله منطلقة من شريعة الله ، مضبوطة بحدود الله .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٨/٢ .

فالغنية حق ، ولكن بعد أن تقسم .

والنبي حق ولكن بعد أن تستiera .

والقتل حق حين يكون خالصاً لله سبحانه لا في سبيل الشيطان والطاغوت .

ومن أجل هذا وجدنا الشعر الإسلامي الذي صاغه عباس بن مرداس ، وهو يمارس هواية الشعر كما كان يمارسها من قبل ينطلق من الروح الإسلامية الجديدة التي سرت فيه ، ويصوغ شعره على هدى الإسلام الذي اعتنقه ، ويتناول أكبر قضية قد تناول منه . أنه قاتل مع بني سليم أبناء أعمامهم هوازن .

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم
جند بعثت عليهم الضحايا
لما تكفله العدو يراها
رجلأً به ذرب السلاح كأنه
يغشى ذوى النسب القريب وإنما
يبغى رضا الرحمن ثم رضاكا

هذا عن القائد ، فماذا عن الجند من بني سليم مع إخوتهم هوازن :

وينو سليم معنقون أمامه
ضربياً وطعننا في العدو دراكا
يُشنون تحت لواهه وكأنهم
أسد العرين أردن ثم عراكا
إلا لطاعة ربهم وهوaka

ونأخذ نوذجاً آخر من الشعر الإسلامي الخالص الذي لا تشوبه شائبة العصبية القبلية كما هو الحال لدى شاعرنا عباس بن مرداس ، هذا الشعر هو لبجير بن زهير بن أبي سلمى ، وحين تقرأ شعره لا تعرف عنه من أي قبيلة هو إلا أنه متسب لكتيبة الإيمان:

لولا الإله وعده ولَيُتمُ
حين استخف الربع كل جبان
بالجزع يوم حبالنا أقرانا
وسوابع يكعون للأذقان
ومقطري بستانبك ولبان
من بين ساع ثوبه في كفه
وأعزنا بعبدا الرحمن
فالله أكرمنا وأظهر ديننا
وأذلهم بعبادة الشيطان

وإن كان لابد لبجير أن يتسب ، فهو ينسى نفسه ، ويغتر بعشيرة رسول الله ﷺ ،
الغرّ من بني هاشم . ويغتر بالرعييل الأول من جيل الحدبية :

إذ قام عَمُّ نبيكم ووليكم
يدعون يا لكتيبة الإيمان
أبن الذين هم أجابوا ربهم
يوم العُرْيُض وبيعة الرضوان

ونأخذ نموذجاً ثالثاً عن الشعر الجاهلي في هوازن والذي قدمه قائد جيش العدو مالك ابن عوف النضري يعتذر عن فراره :

نعم باجزاع الطريق مخضرم
وأعين غارمها إذا ما يغرم
فتين منها حاسر وملام
منع الرقاد فما أغمض ساعة
سائل هوازن هل أسرّ عدوها
وكتيبة لبستها بكتبية

ويعود باللوم على قومه الذين كلفوه لقاء جيش محمد الذي لا يغلب :

والله أعلم من أعق وأظلم
وخدلتمنى إذ أقاتل واحداً
إذا بنيت المجد يهدم بعضكم
كلفتمونى ذنب آل محمد

فلقد مثلت هذه التماذج الثلاثة شعر الجاهلية عند مالك بن عوف النضري ، والشعر الإسلامي الجاهلي لدى عباس بن مرداس السلمي الذي لا ينفي يفخر بقومه بنى سليم ، والشعر الإسلامي الخالص الذي مثله شعر بجير بن زهير بن أبي سلمي والذي هو حديث عهد بالإسلامي ، لكنه جاء إلى هذا الدين ملقياً أوزار الجاهلية كلها خلف ظهره .

بقى علينا أن نتعرف على هذه المعركة الضخمة التي كانت بين ثلاثين ألفاً من هوازن واثني عشر ألفاً من المسلمين والتي دخلت الملائكة فيها عنصراً رئيساً من عناصر النصر ، كم هو عدد القتلى فيها من الفريقين ، ويکاد يكون ذكر هؤلاء هو الذي يجعل ضخامة المعجزة الربانية .

أما قتلى العدو فلا نجد بين يدينا إحصاء لهم ، لكننا نجد أن أبا طلحة وحده قتل عشرين فارساً وأخذ سبعة وحدة ، وسلمة بن الأكوع وأم عمارة قام كل واحد منها بسلب قتيله أو قتيلته .

وتذكر لنا كتب السيرة أن المقتول من بنى ثقيف ما ينوف عن السبعين من أبطالهم وصناديدهم ، ونبحث عن القتلى في صفوف المسلمين فلا نكاد نجد لهم أثر ، فهم بضعة أفراد :

أيمن ابن أم أيمن عاشر كتيبة المغافير الأولى من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو ولد أمته أم أيمن ، وأبو عامر الأشعري الذي لم يسقط شهيداً إلا بعد أن قتل تسعة من المشركين تركهم يتضرجون بدمائهم ، ويزيد بن زمعة بن الأسود جمحت به فرس يقال له: الجناح قُتِلَ (١) .

(١) وأضاف لهم الواقدي من الانصار : سراقة بن الحارث ورقيم بن ثابت ، فصار عددهم خمسة .

وبالمقارنة مع أحد نلحظ أنهم قابلو ثلاثة آلاف من المشركين ، فقضى منهم سبعون شهيداً ، واليوم يلقون ثلاثين ألفاً من المشركين . فلا يستشهد إلا ثلاثة .

وهذا يعني أن المعركة كلها قد أنهاها الله تعالى سبحانه عبده ونبيه محمد ﷺ حين خذله الناس ، وكانت الملائكة هي كتائب الرعب التي نزلت بهوازن ، فينصرف أبطالهم عند رؤيتهم ممزوجين مفروعين ، فهي معركة الرعب الكبرى في التاريخ الإسلامي .

وندع الإمام ابن القيم - رحمة الله - يحدثنا عن أسرار غزوة حنين وعلاقتها بفتح مكة المكرمة وغزوة الفتح فيها ، وذلك في خاتم حديثنا عن غزوة حنين قال :

(كان الله عز وجل قد وعد رسوله - وهو صادق الوعد - أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجاً ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ليظهر أمر الله و تمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمين مثلها ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين ، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق أولاً مراة الهزيمة مع كثرة عددهم وعددهم وقوه شوكتهم ، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ ، واضعاً رأسه ، منحنياً على فرسه ، حتى أن ذقه تقادم سرجه تواضعًا لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمه وأهله ولم يحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده ، ولبيين سبحانه لمن قال : لن نغلب اليوم عن قلة ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذه فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر نبيه ودينه لا كثركم التي أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم ، أرسلت لهم خلُّ الجبر مع بريد النصر : « ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جِنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » [التوبه : ٢٦] ، وقد اقتضت حكمته أن خلُّ النصر وجوازه إنما تفيض على أهل الانكسار : « وَتُرِيدُ أَنْ تُمْنَنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِيَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَجَنَدُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ » [القصص] .

ومنها أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهبًا ولا فضة ولا

متاعاً ولا سبيلاً ولا أرضاً ، كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال : (سالت جابرأ هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا ، وكانوا قد فتحوها بليجاف الخيل والركاب) هم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقدف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمتهم وشانهم وسيبهم معهم نزلاً وضيافة وكرامة لخزيه وجنته . وتم تقديره سبحانه بأن أطعمهم في الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر : « ولَكُنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَقْعُولًا » [الأنفال : ٤٢] . فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم وذرا يرثكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة فجاووا مسلمين ، فقيل : إن من شكر إسلامكم وإيانكم أن نرد عليكم نساءكم وأبنائكم وسيبكم و« إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتُكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخْلَدَ مِنْكُمْ » [الأنفال : ٧٠] .

ومنها أن الله سبحانه افتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزوتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزتين ، والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصاء فيهما ، وفي هاتين الغزتين طافت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فال الأولى خوفتهم ، وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفذت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله .

ومنها أن الله جبر أهل مكة ، وفرّ لهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواه لما نالهم من كسرهم وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لا يكلهم عدوهم إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى) (١) .

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن القيم ٢١١/٢ - ٢١٣ ، راجعه : طه عبد الرؤوف .

غزوة الطائف

(لما قدم فلُّ ثقيف الطائف رُمُوا حصنهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدینتهم وتهيؤوا للقتال ، وكانوا أدخلوا فيه قوت سنة لو حصرروا ، وجمعوا حجارة كثيرة ، وأعدوا سكناً من الحديد ، وأدخلوا معهم قوماً من العرب من عقيل وغيرهم وأمروا بسراحهم أن يرفع في موضع يأمنون فيه)^(١) .

الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين :

روى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا : لما افتحت رسول الله ﷺ حينئذ وأراد المسير إلى الطائف ، بعث الطفيلي بن عمرو إلى ذي الكفين - صنم عمرو بن حممة يهدمه - وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف ، فقال الطفيلي : يا رسول الله ، أوصني ، قال : « أقش السلام ، وابذل الطعام ، واستحى من الله كما يستحي الرجل ذو الهيئة من أهله ، إذا أسرت فأحسن » إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذكريين ^(١١٤) [هود] ». قال : فخرج الطفيلي سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين وجعل يحشو النار في جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا
میلادنا أقدم من میلادکا
إنی حشوت النار في فؤادکا

واسرع معه قومه ، انحدر أربعمائة من قومه ، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقامه بأربعة أيام ، فقدم بدبابة ومنجنين وقال : « يا معاشر الأزد ، من يحمل رايتكم ؟ » قال الطفيلي : من كان يحملها في الجاهلية ، قال : « أصبتكم » وهو النعمان بن زرقة التهبي . سيف الله إلى الطائف :

(وقدَّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من حين على مقدمته في ألف من أصحابه إلى الطائف ، فأنهى خالد الطائف فنزل ناحية من الحصن ، وقامت ثقيف على حصنهما بالرجال والسلاح ، ودنا خالد في نفر من أصحابه فدار بالحصن من كان متاجراً عنه ، ونظر إلى نواحيه ، ثم وقف في ناحية من الحصن فنادى بأعلى صوته : ينزل إلى بعضكم أكلمه ، وهو آمن حتى يرجع ، أو يجعلوا لي مثل ما جعلت لكم ، وأدخل

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٥٦/٥

عليكم حصنكم أكلمكم . قالوا : لا ينزل إليك رجل منا ، ولا تصل إلينا . وقالوا : يا خالد ، إن صاحبكم لم يلق قوماً يحسنون قتاله غيرنا . قال خالد : فاسمعوا من قوله :

نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بشرب وخير ، وبعث رجلاً واحداً إلى فدك فنزلوا على حكمه ، وأنا أحذركم مثل يوم بنى قريطة ، حصرهم رسول الله ﷺ أيامًا ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلهم في صعيد واحد ، ثم سبى الذرية ، ثم دخل مكة فافتتحها ، وأوطأ هوازن في جمعها ، وأنتم في حصن في ناحية من الأرض ، لو تركتم لقتلكم من حولكم من أسلم .

قالوا : لا نفارق ديننا . ثم رجع خالد بن الوليد إلى منزله .

رسول الله ﷺ يتوجه للطائف :

وسار رسول الله ﷺ بعد خالد ، ولم يرجع إلى مكة ، ولا بها عرج على شيء إلا على غزو الطائف قبل أن يقسم غنائم حنين ، وقبل كل شيء ، وترك السبي بالجعرانة ، وملئت عُرُش مكة منهم ، وكان مسيرة في شوال سنة ثمان ، وقال شداد بن عارض الجشمي روى في مسيرة رسول الله ﷺ :

| | |
|--|--|
| وكيف ينصر من هو ليس يتصدر ولم تقاتل لدى أحجارها هدر يظعن وليس بها من أهلها بشر (١) | لا تنتصروا اللات إن الله مهلكها إن التي حرقت بالسَّدَّ فاشتعلت إن الرسول متى ينزل بلادكم |
|--|--|

قال ابن إسحاق : فسلك رسول الله ﷺ من حنين إلى الطائف على نخلة اليمانية (٢) ، ثم على قرن (٣) ثم على الملبيح (٤) ، ثم على بحرة الرغاء (٥) من لية . فابتلى بها مسجداً فصلى فيه ، وأقاد يومئذ ببحرة الرغاء حين نزلها بدم ، وهو أول دم أقيد به في الإسلام ، أتى برجل من بنى ليث قتل رجلاً من هذيل فقتله به ، وأمر رسول الله ﷺ وهو بلية بحصن مالك بن عوف فهدم ، وصلى الظهر بلية ، ثم سلك من طريق يقال لها : الضيق ، فقال : « بل هي اليسرى » ، فخرج منها على نخب (٦) حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة ، قريباً من مال رجل من ثقيف ، قد تمنع فيه ، فأرسل إليه رسول الله

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٥٦/٥ .

(٢) نخلة اليمانية : واد يصب فيه يدعان ، وبه مسجد لرسول الله ﷺ .

(٣) قرن : قرية بينها وبين مكة واحد وخمسون ميلاً . (٤) الملبيح : واد بالطائف .

(٥) بحرة الرغاء : موضع في لية من ديار نصر . (٦) نخب : واد بالطائف .

عَنْ أَبِي إِسْحَاقِ الْمَقْبُرِيِّ: «إِما أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْكُمْ حَاتِّكَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَخْرُجَ فَأَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا خَرَابَهُ» (١).

قبر أبي رغال :

(روى ابن إسحاق وأبو داود والبيهقي عن عبد الله بن عمر رض قال : سمعت رسول الله ص يقول حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررنا بقبر ، فقال رسول الله ص : «هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج أصابته النسمة التي أصابت قومه في هذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إذا أنتم نبشتتم عنه أصبتموه » قال : فابتدره الناس فنبشوه فاستخرجوا منه الغصن) (٢) .

في حصار الطائف :

قال ابن إسحاق :

(ثم مضى رسول الله ص حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب عسکره ، وأشرف ثيف على حصنه - ولا مثال له في حصون العرب - وأقاموا رماتهم ، وهم مائة رام ، فرموا بالسهام والمقالع من بعد على حصنه ، ومن دخل تحت الحصن دلوا عليه سكك الحديد محممة بالنار يطير منها الشرر ، فرموا المسلمين بالليل رميًا شديداً كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراح ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً . فارتفع ص إلى موضع مسجده اليوم ، الذي بنته ثيف بعد إسلامها ، بناء عمر بن وهب بن معتب بن مالك ، وكانت فيه سارية لا تطلع عليها الشمس صبيحة كل يوم حتى يسمع لها نقيض أكثر من عشر مرات ، فكانوا يرون أن ذلك تسبيح ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضرب لهما قببين ، وكان يصلى بين القببين طول حصار الطائف كله ، وقال عمرو بن أمية الثقفي - وأسلم بعد ذلك - ولم يكن عند العرب أدهى منه ، لا يخرج إلى محمد أحد ، إذا دعا أحد من أصحابه إلى البراز ودعوه يقيم ما أقام ، وأقبل خالد بن الوليد فنادى : من ييارز ، فلم يطلع إليه أحد ، ثم عاد فلم ينزل إليه أحد ، ثم عاد فلم ينزل إليه أحد . فنادى عبد ياليل : لا ينزل إليك أحد ، ولكننا نقيم في حصننا ، خبانا فيه ما يصلحنا سنين ، فإذا أقمت حتى يذهب الطعام خرجنا إليك بأسيافنا حتى ثوت عن آخرنا . فقاتلهم رسول الله ص بالرمي عليهم وهم يقاتلونه بالرمي من وراء الحصن ، فلم يخرج إليه أحد ، وكثرت الجراحات له من ثيف بالليل وقتل جماعة من المسلمين) (٣) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٥٨/٥ .

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٤٨٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٥٥٩، ٥٥٨/٥ .

قال ابن هشام: ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق، حدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق ، رمى أهل الطائف)١).

حتى إذا كان يوم الشدحة عند جدار الطائف ، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فارسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محممة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً. فامر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون)٢).

من خرج إلينا فهو حر :

(قال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكر : حدثني عبد الله بن المكرم الثقفي ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : نادي منادى رسول الله ﷺ : « أيها عبد نزل من الحصن ، وخرج إلينا فهو حر ». فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً)٣).

(وروي الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم الطائف : « من خرج إلينا من العبيد فهو حر » فخرج عبيد من العبيد فيهم أبو بكرة فأعتقهم رسول الله ﷺ)٤).

وروى الشيخان عن أبي عثمان التهوي قال : سمعت سعداً - وهو أول من رمى بهم في سبيل الله - وأبا بكرة - وكان قد تصور حصن الطائف - قالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول :

« من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام »)٥).

(وفي رواية : نزل إلى النبي ﷺ ثلاثة وعشرون من الطائف ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، واغتاظوا على غلمانهم ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه بحمله ، فكان أبو بكرة إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان الأزرق إلى خالد بن سعيد بن العاص ، وكان وردان إلى أبيان بن سعيد بن العاص ، وكان يُحسن النبال إلى عثمان بن عفان ، وكان يسار بن مالك إلى سعد بن عبادة ، وكان إبراهيم بن جابر إلى أسيد بن الحضير ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يقرئوهم القرآن ، ويعلموهم السنن ، فلما أسلمت ثقيف ، تكلمت أشرافهم في هؤلاء المعتقين . منهم الحارث بن كلدة يردونهم إلى الرق ، فقال رسول الله ﷺ :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٨٣ .

(٢) سيل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٥٥٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٢٤٨ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/٤٥ ح ٤٣٢٦ ، ٤٣٢٧ .

والمنجنيق :

قال محمد بن عمر : (قالوا : وشاور رسول الله ﷺ أصحابه . فقال له سلمان الفارسي رضي الله عنه : يا رسول الله ، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإنما كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون ، وتُنصب علينا ، فنصيب من عدونا ، ويصيب منا بالمنجنيق ، وإن لم يكن منجنيق طال الثواء . فأمره رسول الله ﷺ ، فعمل منجنيقاً بيده) (٢) وهو أول منجنيق رمى به في الإسلام .

(وروى ابن سعد عن مكحول رحمة الله تعالى : أن رسول الله ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً) (٣) ، ويقال : قدم به يزيد بن زمعة بن الأسود وبدبابين ، ويقال : الطفيلي بن عمرو ، ويقال : خالد بن سعيد قدم من جرش منجنيق ودبابين ، ونشر رسول الله ﷺ الحسك شقين من حسك من عيدان حول حصنهم ، ودخل المسلمين من تحت الدبابة وهي من جلود البقر ، وذلك اليوم يقال له : الشدحة لما شدح فيه من الناس ، ثم راحوا إلى جدار الحصن ليحرقوه ، فأرسلت ثقيف بسكن الحديد المحمامة بالنار ، فحرقت الدبابة ، فخرج المسلمين من تحتها وقد أصيب منهم من أصيب ، فرمتهم ثقيف بالبنيل ، فقتل منهم رجال) (٤) ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخبلهم وتحريقها . قال عروة : أمر رسول الله ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس حبات ، فقطع المسلمين قطعاً ذريعاً ، فنادت ثقيف : لم تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذنا إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله والرحم ، فقال رسول الله ﷺ : « فإني أدعها لله والرحم » .

فتركتها رسول الله ﷺ .

(وكان رجل يقوم على الحصن فيقول : روحوا رعاء الشاء ، روحوا جلايب محمد ، أترونا نبتش على أحبل أصبتموها من كرومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « اللهم روح مروحًا إلى النار » ، قال سعد بن أبي وقاص : فأرميه بسهم ، فوقع في نحره ، فهو من الحصن ميتاً ، فسر رسول الله ﷺ بذلك) (٥) .

عيينة بن حصن :

روى أبو نعيم والبيهقي عن عروة بن الزبير رحمة الله تعالى قال :

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٠ / ٥ .

(٢) المغارى للواقدى ٩٢٧ / ٣ .

(٣) المغارى للواقدى لابن سعد ١٥٩ / ٢ .

(٤) المغارى للواقدى ٩٢٨ .

(٥) المغارى للواقدى ٩٢٩ / ٢ .

(٦) المغارى للواقدى ٩٣٠ .

(استاذن عيينة بن حصن رسول الله ﷺ أن يأتى أهل الطائف يكلمهم لعل الله تعالى أن يهديهم ، فاذن له ، فأتاهم ودخل فى حصنهم . وقال : بأبى أنت ممسكوا بمكانكم فوالله لنحن أذل من العبيد ، وأقسم بالله لو حدث به حدث ليملكن العرب عزّاً ومنعة ، وإياكم أن تعطوا ما بأيديكم ، ولا يتکاثر عليكم قطع هذا الشجر ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال له : « ما قلت لهم يا عيينة ؟ » قال : أمرتهم بالإسلام ، ودعوتهم إليه ، وحدّرتهم النار ، ودلتهم على الجنة . فقال له رسول الله ﷺ : « كذبت ، بل قلت لهم كذا وكذا » وقصّ عليه قوله . فقال : صدقـت يا رسول الله ، أتوب إلى الله ، وإليك من ذلك) (١) .

الحث على الرمي :

قال : وعن عمرو بن عبسة خواشـيـه قال : حاصرنا قصر الطائف مع رسول الله ﷺ ففيـمعـته يقول : « من بلغ بـسـهـمـ فـلـهـ درـجـةـ فـىـ الجـنـةـ » فـبـلـغـتـ يومـذـ ستـةـ عـشـرـ سـهـمـاـ ، ويـسـمـعـتـهـ يـقـولـ : « من رـمـىـ بـسـهـمـ فـىـ سـيـلـ اللـهـ فـهـوـ لـهـ عـدـلـ مـحـرـرـ ، وـمـنـ شـابـ شـيـةـ فـىـ الإـسـلـامـ كـانـتـ لـهـ نـورـاـ يـوـمـ الـقيـامـةـ ، وـأـيـمـاـ رـجـلـ أـعـتـقـ رـجـلـ مـسـلـمـاـ فـإـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ جـاعـلـ كـلـ عـظـمـ مـنـ عـظـامـهـ وـقـاءـ كـلـ عـظـمـ بـعـظـمـ ، وـأـيـمـاـ اـمـرـأـ مـسـلـمـةـ أـعـتـقـتـ اـمـرـأـ مـسـلـمـةـ فـإـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ جـاعـلـ كـلـ عـظـمـ مـنـ عـظـامـهـاـ وـقـاءـ كـلـ عـظـمـ مـنـ عـظـامـهاـ فـىـ النـارـ » رـوـاهـ يـونـسـ بـنـ بـكـيرـ وـأـبـوـ دـاـوـدـ وـالـترـمـذـيـ ، وـصـحـحـهـ النـسـائـيـ) (٢) .

النهـىـ عنـ دـخـولـ المـختـيـنـ :

(روـيـ بـنـ بـكـيرـ فـيـ زـيـادـةـ الـمـغـازـىـ ، وـالـشـيـخـانـ عـنـ أـمـ سـلـمـةـ خـواـشـيـهـ قـالـتـ : كانـ عـنـدـيـ مـخـنـثـ (وـهـوـ فـيـ عـرـفـ السـلـفـ : الـذـىـ لـاـ هـمـ لـهـ إـلـىـ النـسـاءـ لـاـ غـيرـ ذـلـكـ كـمـاـ سـلـيـاتـيـ) فـقـالـ لـعـبـدـ اللـهـ أـخـىـ : إـنـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ الطـائـفـ غـدـاـ فـإـنـىـ أـدـلـكـ عـلـىـ اـبـنـةـ غـيـلـانـ ، فـإـنـهـاـ تـقـبـلـ بـأـرـبـعـ وـتـدـبـرـ بـشـمـانـ ، فـسـمـعـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ قـوـلـهـ فـقـالـ : « لـاـ أـرـىـ هـذـاـ يـعـلـمـ مـاـ هـاـ هـنـاـ ، لـاـ تـدـخـلـ هـؤـلـاءـ عـلـيـكـنـ » ، وـكـانـوـاـ يـرـوـنـهـ مـنـ غـيرـ أـوـلـىـ الـإـرـبـةـ مـنـ الـرـجـالـ ، قـالـ اـبـنـ جـرـيـجـ : اـسـمـهـ هـيـتـ) . قـالـ اـبـنـ إـسـحـاقـ :

كانـ مـعـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ مـوـلـىـ - لـخـالـتـهـ فـاخـتـهـ بـنـتـ عـمـرـوـ بـنـ عـائـدـ - مـخـنـثـ يـقـالـ لـهـ : مـاتـعـ يـدـخـلـ عـلـىـ نـسـاءـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ ، وـيـكـونـ فـيـ بـيـتـهـ ، وـلـاـ يـرـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ أـنـهـ يـفـطـنـ لـشـىـءـ مـنـ أـمـرـ النـسـاءـ مـاـ يـفـطـنـ الرـجـالـ إـلـيـهـ ، وـلـاـ يـرـىـ أـنـ لـهـ فـيـ ذـلـكـ إـرـبـاـ ، فـسـمـعـهـ

(١) دـلـائلـ الـنـبـوـةـ لـلـيـهـقـىـ ١٦٣ـ /ـ ٥ـ

(٢) سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـشـادـ ٥٦٢ـ /ـ ٥ـ ، وـهـوـ عـنـ الـتـرـمـذـيـ ١٧٤ـ /ـ ٥ـ حـ ١٦٣٨ـ .

وهو يقول خالد بن الوليد : يا خالد ، إن فتح رسول الله ﷺ الطائف فلا تقتلن منك بادية بنت غيلان ، فإنها قبل بأربع وتدبر بشمان . فقال رسول الله ﷺ حين سمع هذا : « لا أرى الخبيث يفطن لما أسمع » ثم قال لنسائه : « لا تدخلنط عليهنَّ » فحجب عن بيت رسول الله ﷺ (١) .

الرؤيا النبوية :

قال ابن إسحاق : وبلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر :

« إنِّي رأيْتُ أَهْدِيَتْ لِي قُبَّةً مَلْوَعَةً زِيدًا فَنَقَرَهَا دِيكٌ ، فَهَرَقَ مَا فِيهَا » فقال أبو بكر : ما أظُنَّ أَنْ تَدْرِكَ مِنْهُمْ يَوْمَكَ هَذَا مَا تَرِيدُ ، فقال رسول الله ﷺ : « وَإِنَّا لَا أَرِيْ ذَلِكَ » (٢) .

وروى محمد بن عمر عن أبي هريرة خواصه قال : (لما مضت خمس عشرة من حصار الطائف ، استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي خواصه فقال :

« يَا نُوفَلَ ، مَا تَرَى فِي الْمَقَامِ عَلَيْهِمْ ؟ » قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ثَلَبَ فِي جُحْرٍ إِنْ أَقْمَتْ عَلَيْهِ أَخْذَتْهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَضْرُكَ) (٣) .

الإذن بالرحيل :

(قال ابن إسحاق : ثم إن خويلة بنت حكيم السلمية ، وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اعْطِنِي ، إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الطَّائِفَ - حُلُّ بَادِيَةَ بَنْتِ غِيلَانَ ، أَوْ حُلُّ الْفَارِعَةِ بَنْتِ عَقِيلَ - وَكَانَتَا مِنْ أَحْلَى نِسَاءِ الطَّائِفِ . فَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا :

« وَإِنْ كَانَ لَمْ يَؤْذِنْ لَنَا فِي ثَقِيفِ يَا خُولَةَ ؟ » فَخَرَجَتْ خُولَةُ ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعُمَرَ ابْنَ الْخَطَابِ خَوَاعِشَ فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا حَدِيثُ حَدِيثِي خُولَةَ ؟ رَعِمْتُ أَنْكَ قَلْتَهُ ؟ قَالَ : « قَدْ قَلْتَهُ » . قَالَ : أَوْ مَا أَذْنَ فِيهِمْ ؟ قَالَ : « لَا » . قَالَ : أَفَلَا أَذْنَ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ ؟ قَالَ : « بَلَى » فَأَذْنَ عُمَرَ بِالرَّحِيلِ) (٤) .

وروى الشیخان عن ابن عمرو أو ابن عمر خواصه قال :

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٣/٥ ، وهو في فتح الباري ٤٣/٨ ح ٤٣٢٤ .

(٢) المغارى للواقدى ٩٣٦/٣ ، ٩٣٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٤/٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٤/٢ .

لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ، ولم ينل منهم شيئاً قال : « إنما قافلون غداً إن شاء الله تعالى » فتقل عليهم ، وقالوا : أذهب ولا نفتح ؟ - وفي لفظ فقالوا : لا نبرح أو نفتحها . فقال : « اغدوا على القتال » فغدوا فقاتلوا قتالاً شديداً فأصابهم جراح فقال : « إنما قافلون غداً إن شاء الله تعالى » ، فأعجبهم فضحك رسول الله ﷺ (١) . قال عروة - كما رواه البهقى : وأمر رسول الله ﷺ الناس ألا يسرحوا ظهرهم ، فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ودعا حين ركب قافلاً وقال : « اللهم اهدمنا واكفنا مؤنتهم » (٢) .

(وروى الترمذى وحسنة عن جابر بن عبد الله قال : يا رسول الله أحرقتنا نار ثقيف ، فادع الله - تعالى - عليهم فقال : « اللهم اهد ثقيفاً واثب بهم » (٣) .

(قال ابن إسحاق فى رواية يونس ... أن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف ثلاثين ليلة أو قريباً من ذلك ثم انصرف عنهم ولم يؤذن فيهم ، فقدم وفدهم فى رمضان فأسلموا) (٤) ، وقال ابن إسحاق فى رواية زياد : وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة ، وقيل عشرين يوماً ، وقيل : بضع عشرة ليلة ، قال ابن حزم : وهو الصحيح بلا شك . وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس أنهم حاصروا الطائف أربعين ليلة واستغره فى البداية (٥) .

قال محمد بن عمر : فقال رسول الله ﷺ لاصحابه حين أرادوا أن يرتحلوا : « قولوا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » فلما ارتحلوا قال : « قولوا : آييون إن شاء الله تائتون ، عابدون ، لربنا حامدون » (٦) .

الشهداء :

سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعُرْفَةُ بْنُ حُبَّابٍ ، ويزيد بن زمعة ، جمع به فرسه إلى حصن الطائف فقتلوه ، وعبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه رمى بسهم ، فلم يزل جريحاً حتى مات بالمدينة بعد رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، والسائل ابن الحارث بن قيس السهمي ، وثابت بن الجذع ، والحارث بن سهل بن أبي صعصعة ،

(١) فتح البارى ٤٤/٨ ح ٤٣٢٥ ، ومسلم ١٤٠٣/٣ ح ١٧٧٨/٨٢ .

(٢) دلائل النبوة للبهقى ٥/٥ ح ١٦٩ .

(٣) سنن الترمذى ٧٢٩/٥ وهي فى السنن : أخرقتنا نبال ثقيف ح ٣٩٤٢ .

(٤) سيل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٥/٥ ح ١٦٩ .

(٥) المغارى للواقدى ٩٣٧/٣ ح ١٦٩ .

والمنذر بن عبد الله بن نوفل .

وذكر في العيون هنا : رُؤيْمَ بن ثابت بن ثعلبة مع ذكره له فيمن استشهد بحنين ،
تبع هناك ابن إسحاق وهنا ابن سعد) (١) .

عينة ثانية :

(وجعلوا يرحلون والنبي ﷺ يضحك ، فلما استفل الناس لوجوههم نادى سعد
ابن عبيد بن أسيد بن عمرو بن علاج الثقفي قال : ألا إن الحى مقيم ، قال : يقول
عينة بن حصن : أجل والله ، مجدة كراماً ، فقال عمرو بن العاص : قاتلك الله ، تمدح
قوماً مشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره ؟ قال :

إنى والله ما جئت معكم أقاتل ثقيلاً ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب
جارية من ثقيف فاطأها ، لعلها أن تلد لى رجلاً ، فإن ثقيلاً قوم مناكير) (٢) .
فأخبر عمر النبي ﷺ بمقالته فتبسم النبي ﷺ وقال : « هذا الأحمق المطاع ») (٣) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٥ / ٥ ، ٥٦٦ .

(٢) مناكير : ذو دماء وقطنة ، وهى عند الواقدى : مباركون ، ولا تصح .

(٣) المغارى للواقدى ٩٣٧ / ٣ ، والسيرة ٤٨٥ / ٢ .

الطائف من الدعوة إلى الغزوة

وكان هذا قبل ما ينوف عن عشرة أعوام ، وقد جاء رسول الله ﷺ إلى الطائف يدعوهم إلى الله عز وجل ، معه مولاًه زيد بن حارثة ، وعمد إلى نفر من ثقيف - هم يومئذ سادة ثقيف وأشاراًها - وهم أخوة ثلاثة : عبد يا ليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو ، وعندهم امرأة من قريش من بنى جمع ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمطر ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لتن كنت رسولاً لله كما تزعم لأنك أعظم خطراً من أن أكلمك ، ولتن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يش من خبر ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذكر لى : « إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى » . وكهرب رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فينذرهم ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعيدهم يسبونه ويصيرون به حتى اجتمع عليه الناس وألجموه إلى حائط لعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ، ومن كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حجلة من العنب ... فلما اطمأن رسول الله ﷺ - فيما ذكر لى - قال : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتى وஹانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعود بذور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والأخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحمل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

وعرض ملك الجبال يومئذ على رسول الله ﷺ أن يأمر بأمر رسوله ، ويفعل بعده ما شاء : (إن شئت أن أطبق عليهم الأخشين فعلت) ، وكان جواب إمام الدعوة في الوجود : « لا ، إنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » .

ولو انتهت ثقيف آنذاك بمعجزة ، ولم يقع فيها إلا خرابها ، لدرسنا هذه المعجزة ، ونحن عاجزون عن القدوة فيها ، لكن القدوة العظيمة كانت لنا في صبر رسول الله ﷺ

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٤١٩/٤٢٠ .

على صد ثقيف وعدائها وحربها على أمل ولادة جيل جديد يحمل هذه الرسالة ، وبالجهد البشري الدؤوب وبالعمل المستمر المنظم ، خلال عشر سنين ، ها هو رسول الله ﷺ يطرق أبواب ثقيف ليس وحده إنما بجيش قوامه الثاني عشر ألف مقاتل ، وقد هزمت ثقيف أمامه بمعجزة ربانية كذلك في غزوة هوازن ، وفر أبطالها ورجالها إلى حصونهم ، وعرفوا أن المواجهة خاسرة مع محمد ﷺ الذي أدموا عقبيه بالحجارة قبل عشر سنين ومعه سادة العرب ، وبقائهم الكبار تدق حصون ثقيف لتزلزلها بهم ، وهم الآن يواجهون جيشاً ولا يواجهون رجلاً ، ومن أجل هذا (رموا حصونهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدinetهم ، وتهيؤوا للقتال وكانوا قد أدخلوا فيه قوت سنة لو حصرروا ، وجمعوا حجارة كبيرة ، وأعدوا سكناً من الحديد وأدخلوا معهم قوماً من العرب من عقيل وغيرهم ، وأمروا بسرحهم أن يرفع في موضع يأمنون فيه) .

أما سيدهم عروة بن مسعود الثقفي أحد عظيمى القرىتين ، فقد كان في جرش يسعى إلى تسليح قومه أحد الأسلحة في الساحة العربية ، يتعلم صنعة الدبابات والمنجنيق هناك ، وهو الذي تحدى رسول الله ﷺ على أبواب الحديبية يقول له : (جمعت أوشاف العرب ، وجئت بهم تغض بيضتك ، فوالله إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وايم الله كأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً) . وخانت عروة بن مسعود فراسته أو التي أظهرها على الأقل ؛ لأنه قال لقريش غير ما قاله لمحمد ﷺ . قال لها :

(يا معاشر قريش ، إنني قد جئت كسرى في ملکه ، وقيصر في ملکه ، والنجاشي في ملکه ، وإنني والله ما رأيت ملکاً في قومه فقط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلموه لشيء أبداً ، فروا رأيكم) . ففراسته الحقيقة إذن أن هؤلاء لا يمكن أن ينفروا عنه أو يسلموه إلا على أرواحهم وأجسادهم ، ودخل رسول الله ﷺ على قريش مكة عنوة ، وهؤلاء أبطال مكة وسادتها جميعاً جنود في جيشه . من آمن منهم بالإسلام ، ومن لم يؤمن بعد ، وهذا الأقرع بن حابس ، سيد بنى تميم . وعبيدة بن حصن سيد غطفان ، وعلقمة بن علاته سيد بنى عامر بن صعصعة . جميعاً جنود في جيش محمد صلوات الله عليه .

وهذه هوازن بالثلاثين ألفاً التي خاضت المعركة بها ، بقائدها الجرىء مالك بن عوف ، وقائدها المجرب دريد بن الصمة قد انتهت كلها بين أسير وفار وقتل ، نساؤها سبايا ونعمها وإبلها وخيلها في المغائم تتضرر المقسم ، وثقيف إذن كل ما تملكه الآن أن تمنع في حصنها ، وأن تعد نفسها للحصار والموت خلال سنة لو أصر محمد على محاصرتها ،

ولم تكن تفكـر أبداً بالـمواجهة بعد أن قـتل سـيداً بـنـى مـالـكـ فىـ المـعرـكـةـ ، وـهـربـ سـيدـ الـأـخـلـافـ ، وـاستـحـرـ القـتـلـ فىـ بـنـى مـالـكـ حتـىـ بلـغـتـ القـتـلـىـ مـنـهـمـ قـرـابـةـ الـمـائـةـ ، وـهـذـاـ مـالـكـ بنـ عـوـفـ التـضـرـىـ مـخـبـيـاـ معـ ثـقـيفـ فـىـ حـصـنـهـمـ ، وـلـذـلـكـ عـنـدـمـاـ جـاءـ إـلـيـهـمـ سـيفـ اللـهـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ وـتـحدـىـ نـخـوتـهـمـ الـعـرـبـ يـدـعـوهـمـ إـلـىـ الـمـارـزـةـ ، لـمـ يـكـنـ يـشـكـ فـىـ أـنـهـمـ سـيـقـبـلـونـ التـحـدىـ ، وـإـلـاـ عـيـرـواـ بـالـجـنـ ، فـلـيـاـرـزوـهـ وـلـيـقـتـلوـهـ ، لـكـنـ ثـقـيفـاـ تـصـرـفـ بـالـمـكـرـ وـالـدـهـاءـ أـكـثـرـ مـاـ تـصـرـفـ بـالـعـاطـفـةـ وـالـانـدـفـاعـ .

قال لهم قائد فرقـةـ المـغـاـوـيرـ الـإـسـلـامـيـةـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ : يـنـزلـ إـلـىـ بـعـضـكـمـ أـكـلمـهـ ، وـهـوـ آـمـنـ حتـىـ يـرـجـعـ ، ثـمـ عـرـضـ عـلـيـهـمـ الـخـيـارـ الـآـخـرـ .

أـوـ اـجـعـلـوـاـ لـىـ مـثـلـ مـاـ جـعـلـتـ لـكـمـ ، وـأـدـخـلـ عـلـيـكـمـ حـصـنـكـمـ أـكـلمـكـ .

ولـمـ تـعـزـزـ ثـقـيفـ عـلـىـ الـخـيـارـيـنـ قـالـوـاـ : لـاـ يـنـزلـ إـلـيـكـ رـجـلـ مـنـاـ ، وـلـاـ تـصـلـ إـلـيـنـاـ .

وـعـادـوـاـ يـتـبعـونـ أـسـلـوبـ سـيـدهـمـ عـرـوـةـ فـىـ التـلـوـيـعـ بـالـقـوـةـ ، وـالتـهـدـيدـ بـالـمـواجهـةـ وـهـمـ دـاخـلـ حـصـنـهـمـ يـقـولـونـ : يـاـ خـالـدـ ، إـنـ صـاحـبـكـمـ لـمـ يـلـقـ قـوـمـاـ يـحـسـنـونـ قـتـالـهـ غـيـرـنـاـ .

وـهـمـ يـعـلـمـونـ أـنـهـمـ كـاذـبـونـ ، فـقـدـ فـرـوـاـ مـنـ الـمـعرـكـةـ مـذـعـورـيـنـ ، وـكـانـ لـابـدـ خـالـدـ خـوـيـثـيـهـ الـبـطـلـ الـعـدـوـ - قـبـلـ سـتـينـ - أـنـ يـسـعـمـهـ بـعـضـ مـاـ يـتـجـاهـلـهـ .

قال خـالـدـ : فـاسـمـعـواـ مـنـ قـولـيـ ... وـخـالـدـ هـوـ الـذـيـ خـبـرـ مـحـمـداـ عـلـيـهـ وـقـتـالـهـ مـنـ ثـنـانـيـةـ أـعـوـامـ ، فـلـيـسـ غـمـرـاـ يـتـحدـثـ ، إـنـاـ هـوـ بـطـلـ يـتـحدـثـيـ قالـ :

نـزـلـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ وـبـأـهـلـ الـحـصـنـ وـالـقـوـةـ يـشـرـبـ خـيـرـ ، وـبـعـثـ رـجـلـاـ وـاحـدـاـ إـلـىـ فـدـكـ فـنـزـلـوـاـ عـلـىـ حـكـمـهـ ، وـأـنـاـ أـحـذـرـكـمـ مـثـلـ يـوـمـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ ، وـكـمـ قـالـهـاـ الـيـهـودـ مـنـ قـبـلـ يـوـمـ خـيـرـ ، وـيـوـمـ قـرـيـظـةـ ، وـيـوـمـ بـنـىـ النـضـيرـ ، إـنـ مـحـمـداـ لـاقـ قـوـمـاـ لـاـ عـلـمـ لـهـمـ بـالـحـرـبـ فـهـزـهـمـ ، وـلـوـ قـابـلـاـ لـعـلـمـ أـنـاـ نـحـنـ النـاسـ ، ثـمـ اـسـتـسـلـمـتـ خـيـرـ ، وـهـوـتـ حـصـنـهـ ، وـاـسـتـسـلـمـتـ قـرـيـظـةـ .

وـمـنـ حـقـ خـالـدـ خـوـيـثـيـهـ أـنـ يـنـذـرـهـمـ مـغـبةـ تـجـاهـلـهـمـ أوـ تـعـالـيـهـمـ عـلـىـ دـيـنـ مـحـمـدـ ، وـيـنـذـرـهـمـ الـمـصـبـرـ الـأـسـوـدـ الـبـائـسـ الـذـيـ لـقـىـ أـمـثالـهـ فـىـ خـيـرـ وـقـرـيـظـةـ ، فـتـابـعـ حـدـيـثـهـ مـعـهـمـ (فـحـصـرـهـمـ ثـمـ نـزـلـوـاـ عـلـىـ حـكـمـهـ . فـقـتـلـ مـقـاتـلـهـمـ فـىـ صـعـيدـ وـاحـدـ ، ثـمـ سـبـىـ الـذـرـيـةـ ، ثـمـ دـخـلـ مـكـةـ فـاقـتـحـمـهاـ ، وـأـوـطـاـ هـوـازـنـ فـىـ جـمـعـهـاـ) وـبـعـدـ أـنـ قـدـمـ لـهـمـ صـفـحـةـ الـمـاضـىـ الـقـرـيبـ وـالـبـعـيدـ ، وـضـعـهـمـ فـىـ حـجـمـهـ الطـبـيـعـيـ :

(وـأـنـتـ فـىـ حـصـنـ فـىـ نـاحـيـةـ مـنـ الـأـرـضـ ، لـوـ تـرـكـكـمـ لـقـتـلـكـمـ مـنـ حـولـكـ مـنـ أـسـلـمـ) .
غـيـرـ أـنـ ثـقـيفـ لـاـ تـزـالـ مـعـجـبـةـ بـقـوـتهاـ ، مـزـهـوـةـ بـحـصـنـهـاـ ، مـفـتوـنـةـ بـدـيـنـهـاـ ، فـكـانـ

جواب هذا الإعلام المبين : (قالوا : لا نفارق ديننا) وتم البلاغ . ولم يعد من حديث إلا حديث السلاح .

(ثم رجع خالد بن الوليد إلى منزله) لينضم بعدها إلى الجيش النبوى المتوجه من هوازن إلى الطائف .

هدم معقل وثنى كبير :

فلا بد من تصفية الجيوب الوثنية كلها والمتشرة في الأرض العربية ، وكان صنم ذو الكفين في دوس لا يزال قائماً رغم وجود الجالية الإسلامية الضخمة في دوس ، لكن هذا الصنم يشترك في تعظيمه أكثر من قبيلة عربية . وبعد فتح مكة ، وهزيمة هوازن في حينين ، انهارت القيادات المجاورة ، وأصبحت تخشى من أي تحرك نبوى نحوها . وفي ظل هذه الظروف التي سادت في المنطقة ، ونشرت الرعب في قلب العدو ، ووظف رسول الله ﷺ هذه الظروف لصالح معركته مع العدو ، فبعث الطفيلي بن عمرو الدوسى إلى ذى الكفين ليهدمه ، أما جنوده فليكونوا من دوس نفسها التي تمثل الجالية الإسلامية في المنطقة .

والطفيلي ليس نكرة في تاريخ هذه الدعوة ، فهو من الرعيل الأول الذي جاء مكة ، وخاف قادتها أن يلتقي برسول الله ﷺ حتى لا يقتته عن دينه ، وما زالوا به يخيفونه من محمد بن عبد الله حتى حشى أذنيه قطناً كي لا يسمع من رسول الله ﷺ ، لكن الإرادة الربانية أدركته ، وفتح عقله بين يدي رسول الله ﷺ قائلاً :

(يا محمد ، إن قومك قالوا لي كذا وكذا - للذى قالوا - فوالله ما برحوا بي يخوفوننى أمرك حتى سدت أذنى بكرسف لثلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه فسمعته قوله حسناً ، فاعرض على أمرك ، قال : فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا على القرآن . فلا والله ما سمعت قوله قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق) .

ومضى بعدها داعية إلى الله في قومه ، ولم تدفع سيادته لقومه كى يستجيبوا بسرعة له (ثم دعوت دوساً إلى الإسلام ، فأبظروا على ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة ، فقلت له : يا نبى الله ، إنه قد غلبني على دوس الزنا ، فادع الله عليهم) .

وكانت تلك الدعوة المخالدة التي لا ترى قتل الناس وإيادتهم ، إنما ترى قتل الضلال والهوى في نفوسهم فقال : « اللهم اهد دوساً » (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨٣، ٣٨٤ .

وعرف الطفيلي أن طريق الكفاح طويلاً ، وطريق الدعوة شاق فعاد ثانية إلى قومه لا ينذرهم بدمارهم ، إنما ليتابع خطاه في دعوتهم إلى الله تعالى ، ثم كانت خبر وجه الطفيلي بشمرة كفاحه الطويل الذي استمر قرابة خمسة عشر عاماً ، جاء بسبعين بيئنا من دوس يعلون إسلامهم على يدي رسول الله ﷺ ، وأن الأوان لتؤدي دوس دورها اليوم في هدم طاغية الأزد - ذي الكفين - والذى كانت تعظمها خزانة دوس (١) ، لكن بانيه وسادنه عمرو بن حممة الدوسى ، وانضمت كتائب الإيمان الدوسية إلى سيدها الطفيلي بن عمرو ومضت إلى ذلك الصنم ، فخرج الطفيلي سريعاً إلى قومه فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشو النار في جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا
بلادنا أقدم من ميلادكا
أنا حشوت النار في فؤادكا

ومع هدم هذا الصنم وإحرقه كانت الفرصة مواتية لجبل الإيمان في دوس أن يتضم إلى الكتائب الإسلامية المجاهدة (فأسع معه قومه ، وانحدر معه أربعينات من قومه ، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقامه بأربعة أيام) .

وعلى رواية الواقدي : أن الطفيلي وقومه هم الذين أحضروا السلاح الحديث واستعملوه لأول مرة في الحرب الإسلامية (فقدم بدبابة ومنجنين) ، وهو الطفيلي وقد اجتمعت له هذه السرية العظيمة من المؤمنين المجاهدين ، وسلم الراية لحاملها في الجاهلية ، فهو الخبر الحربي القديم فلا بد من الاستفادة من خبراته ، وسأل الرسول ﷺ جنديه الطفيلي : « من يحمل رايتك ؟ » .

قال الطفيلي : من كان يحملها في الجاهلية . قال : « أصبتكم » ، وهو النعمان بن الزرافة اللهبي .

وقد تعلم الطفيلي هذا الأدب من رسول الله ﷺ فقد رأه عندما وفت عليه سليم يسأل عن حامل رايتهما في الجاهلية ليقلده الراية في الإسلام ، ولم يتدرّب الطفيلي على التخطيط العسكري فقط - من خلال صحبته الطويلة مع رسول الله ﷺ - إنما تعلم كذلك بعد الإيمان ، والسلوك الإسلامي ، فعندما غادر خاف الطفيلي من العوّاقب ، وأن يكون آخر العهد به فقال له : يا رسول الله ، أوصني . قال : « أُفشن السلام ، وأبدل الطعام... » وهذه سجية من سجایاه ، ويحمد الله عز وجل أن جاءت هذه الوصية منسجمة مع هذا الخلق النبيل المطبع عليه من إطعم الطعام ، وإفشاء السلام مرتبطة بذلك

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٩٤ .

الترحيب بالصنف القادم لإطعامه ، لكن التذوق الإيمانى الجديد الذى أعطاه رسول الله ﷺ للطفل وهو ماضٍ إلى قومه : « واستحب من الله كما يستحب الرجل ذو الهيئة من أهله ». هذا هو التوجيه الثانى للداعية المجاهد فى رحلته إلى هدم ذى الكفين .

أما التوجيه الثالث : « إذا أسلت فأحسن ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرُى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود] ». إنها الدعوة إلى الله في كل لحظة - في الحرب والسلم ، في المرض لهدم الصنم ، وفي الصبر على لأواء الصد عن سبيل الله - فالمسلم له سمات لابد من المحافظة عليها في مجتمعه ، فهو ذو مرءة وشرف لا يجوز أن يتزل عن قدرها ، أو تزل قدمه فيسقط ، وال المسلم أبداً يتبع السيئة بالحسنة حتى تمحوها ، والحسنات يذهبن السيئات ، وال المسلم دائمًا لمجتمعه وقومه وأمه ، يبذل السلام ويطعم الطعام ، ومن أجل هذا كان رصيد بطننا الطفيل أربعمائة جديدين من قومه انضموا إلى الركب الإسلامي ودخلوا مع الجيش الإسلامي المحاصر للطائف .

ورسول الله ﷺ هو لكل فرد في الوجود ، فكانت مسيرته من هوازن إلى الطائف تحقق هدفًا في كل خطوة ، وتطلق درساً تربوياً في كل انتلاقة .

(فسلك رسول الله ﷺ إلى الطائف على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ، ثم على المليح .

وهذا المنزل الذى نزله رسول الله ﷺ في نخلة عرفه المسلمين فيما بعد ، فابتداوا مسجداً في هذا الموقع لا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، ثم على بحيرة الرغاء من ليه . وهذه لم يدعها رسول الله ﷺ للجيil القايم كى يقوم بناء هذا المسجد ، إنما قام عليه الصلاة والسلام ببناء المسجد وصلى فيه مع جيشه ، وقد حدث حدث يقتضى نوعاً من التوقف لا يمكن المرور عليه دون مواجهة .

فالدرس الذى تم تلقيه من قبل محلم بن جثامة ، وما عاناه عليه الصلاة والسلام من تعنت الأعراب فى قبول دية عامر بن الأضبيط الأشجاعى ، ثم ما تلقاه محلم من درس كان أقسى درس تلقاه فى حياته ، وانعكس عليه بعد وفاته حين لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، بل يدعو الله تعالى ألا يغفر له ، وكان الدرس لكل الجيل المسلم ، لكن الحديث الجديد هو أن رجالاً من هذيل قتله رجل من بنى ليث ، فكان لابد من أن يشهد الناس دور القصاص بعد أن شهدوا دور الديمة . فجرى بالقاتل ، وقتل بين يدى رسول الله ﷺ ، وكان الأمر كما قاله مكيتيل : استن اليوم وغيره غداً ، فقد سنَّ مع محلم العقوبة المعنية وأنهاها بالدية ، وها هو عليه الصلاة والسلام يسن اليوم القصاص : « ولَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَئِكُمُ الظَّالِمُونَ» [البقرة : 179] ، وهو أول دم أقىده به فى الإسلام .

فدولة الإسلام قائمة في كل مكان والحدود تطبق على الضعيف والقوى ، ولابد أن تجت ظاهرة الاستهانة بالأرواح والإقدام على سفك الدماء .

ثم كان الدرس الرابع في تربية هذه القاعدة بعد عمار المسجد وتطبيق حد القصاص - وهي ذات صلة بنظام الحرب كذلك - هو هدم حصن مالك بن عوف التضري ، قائد جيش العدو ، والذى تابع استعداده للحرب والمواجهة حين انضم إلى ثقيف ، وأمر رسول الله ﷺ وهو بلية بحصن مالك بن عوف فهدم ، فلا يبعد أن يعود ثانية لاستعماله والتحصن فيه ، وتعلم الجيل المسلم أن للحرب سنتها في التعامل مع ممتلكات العدو وتخصيباته بحيث تجت كل مراكز قوته ، وكان الدرس الخامس في هذه التربية العامة المسلمين يتطلعون إلى رسول الله ﷺ في كل خطوة ، وفي كل كلمة ، وفي كل موقف ، ويتعلمون الإرادة الصلبة التي لا تهن في ابتعاد القوم ، فعندما مر على طريق يقال لها الضيقه لم يتشاءم كما هي عادة العرب ، ويتطير ، ثم يعود أدراجه من حيث جاء ، إنما يعلم هذا الجيل التفاؤل في هذه الأمور بتغيير أسمائها (ثم سلك على طريق يقال لها : الضيقه . فقال : « بل هي اليسرى ») وهي عكس الضيقه ، وتابع مسيره نحو هدفه ... وكان الدرس الخامس كذلك مع ذلك المتنع بحصنه ، والمعلن لحربه على الرسول ﷺ (حتى نزل تحت سدرة يقال لها : الصادرة قريباً من مال رجل من ثقيف وقد تمعن فيه ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : « إما أن تخرج وإما أن تخرب عليك حانطك » فأبى أن يخرج ، فأمر رسول الله ﷺ بتخريبه - وفي رواية بإحراقه .

والناس إذن صنفان : إما مهادن ، أو مقاتل معاد ، والمقاتل لابد أن يتحمل مسؤولية محاربته وعدائه لهذا الدين ، وكان الدرس الخامس حين مروا على قبرين على الطريق : القبر الأول نهى رسول الله ﷺ عن سبه مع أنه من طغاة المشركين ، بينما سمح بسب الثاني ولعنه ، وهو من حقت عليه لعنة الله .

أما القبر الأول فقبر أبي أحبيحة سعيد بن العاص الذي عاهد الله :

(ولئن أقمتني الله من مرضى لا يبعدنَ إله ابن أبي كبشة في الأرض) .

فهو عدو لدد وطاغية حقود ، ورأى الصديق قبره . فقال :

« لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان من يجادل الله ورسوله » .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب أبي جهل فرعون هذه الأمة مراعاة لولده عكرمة المهاجر المجاهد الذي انضم للإسلام :

« يأيكم عكرمة مهاجراً مجاهداً ، فلا تسبو أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحي » .

وليس الهدف إثارة عكرمة واستفزازه بمقدار ما كان الهدف تألفه واستقراره .

وإذا كان أبو أحيحة عزيز بنى أمية ، فإن له أسنان أو ثلاثة أسود في الصف الإسلامي وهم : خالد بن سعيد ، وأببان بن سعيد ، وعمرو بن سعيد ، وهذا النيل من أبيهم يؤذيهما ، فيدفعهم لينالوا من والد الصديق رضي الله عنه . لكن والد الصديق مسلم ، فلا شك أنهم قد نالوا جده المشرك .

وعلم رسول الله صلوات الله عليه وسلم هذا الجيل أن السباب واللعن ليس من مدرسة النبوة ، فهل هذا الجيل كله إلا أولاد المشركين ، قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً التربية السابقة التي يمكن أن تقود إلى أذى الأحياء المجاهدين المسلمين :

« إن سب الأموات يؤذى الأحياء فإن شتم شتم المشركين فعموا » .

والإضافة الجديدة في الدرس النبي العظيم هو البعد عن النيل والشتم لأشخاص بأعينهم ، إنما ليكن الأمر هو التعميم في لعن المشركين والنيل منهم دون اختيار أشخاص بذواتهم ، يتآذى أبناؤهم بشتمهم .

أما القبر الذي أعلم رسول الله صلوات الله عليه وسلم المسلمين قصته ، ولم يكن من حرج في النيل منه فهو قبر أبي رغال وهو مما يعتبر به من القوم .

(روى ابن إسحاق ، وأبو داود ، والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررتنا بقبر فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج أصابته النسمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه » .

قصة ثمود ماثلة في كيان المسلمين فذكرها في القرآن لا ينقطع بعد ذكر قصة قوم هود ، حتى إن عتبة بن ربيعة عندما كان رسول الله صلوات الله عليه وسلم يتلو عليه القرآن . وقال فيما يتلوه :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْتُكُمْ صَاعِدَةً مِثْلَ صَاعِدَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ﴾ [فصلت] . قال له خائفاً مرعوباً : ناشدتك الله إلا كفت ، ولكون ثمود بهذا الوضوح في ذهن المسلمين كان لابد من توجيههم إلى العبرة الكبرى في مقتل أبي رغال ، الذي حال الحرم دون نزول النسمة عليه ، فما أن غادر الحرم حتى تلقته هذه النسمة .

﴿فَإِنَّمَا تَمُودُ فَأَعْلَمُكُمْ بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة] ، وكانت هذه الطاغية : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَقْرُرُوهَا فَدَمِدَمُ عَلَيْهِمْ زَرْبُهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسُوَاهَا﴾ [الشمس] ، ﴿فَأَمْبَحُوا لَا

يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) [الاحقاف] .

ولكي يحيى هذا الجيش حياة النبوة لم يكتف رسول الله ﷺ بإخبار الخبر ، إنما دعاهم إلى شهود معجزة مماثلة لمعجزة الأنبياء من قبل فقال : « وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتם عنه أصبتموه ». قال : فابتدره الناس فنبشوه فاستخرجوا منه الغصن .

إنها العرب البائدة التي مر على إبادتها القرون تلو القرون ، يقص رسول الله ﷺ نبأها على قومه ويصل هذا النبأ فيبعثه حياً من جديد ، حين يرى آثار القبر لفرد من تلك الأجيال البائدة في مكان لا يمكن أن يُعرف إلا بتعريف الله تعالى لنبيه عنه ، وفي هذا الموقع بالذات حيث أنبث الحدث بالمعاينة ، ونبش عن غصن الذهب ، ورآه الجيش الذي يتوقف في كل لحظة إلى معجزة ربانية تُزيد المؤمنين طمأنينة وإيماناً برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام .

أما قبر أبي أحيحة فلا يحتاج إلى إعلام ، فهو قريب من أرضه التي كانت له على طريق الطائف ، وكان موضع سجال بين أولاد سعيد حين كانوا معتكرين إسلامي وشرك ، وحين كان أبان بن سعيد على رأس المشركين كان يهاجم أخويه خالد وعمرو على تخليهما عن عقيدة أبيهما وتراثه العتيد فيقول لهم :

الآيات مبنية بالظريبة شاهد لما يفترى في الدين عمرو وخالد
أطاعا بنا أمر النساء فأصبحا
بعينان من أعدائنا من نكابد

وحين يكون الأمر سجالاً بين الإيمان والشرك ، فلن يعبأ الأخوان المؤمنان بأبيهما ، وهما على استعداد للتبليغ منه إن اقتضى الأمر ، ويكفي أن التاريخ حفظ خالد بن سعيد رضوان الله عليه تلك المقوله الحالدة التي قالها رداً على أبيه المشرك .

قال أبو أحيحة سعيد بن العاص :

لئن رفعنى الله من مرضى لا يعبد إله ابن أبي كبشة ببطن مكة .

فقال خالد بن سعيد : اللهم لا ترفعه .

وهو الذي أجاب أخاه أبان بقوله :

ولا هو من سوء المقالة مُقصِّرٌ
أَلَا لَيْسَ مِيتًا بِالظَّرِيبَةِ يُنْشَرُ
وَأَقْبَلَ عَلَى الْأَدْنَى الَّذِي هُوَ أَفْقَرُ
أَخْيَى مَا أَخْيَى لَا شَاتِمٌ أَنَا عَرْضُه
يَقُولُ إِذَا اشْتَدَتْ عَلَيْهِ أَمْوَارُهُ
فَدَعْ عَنْكَ مِيتًا قَدْ مَضِيَ لِسِيلَهُ

ها هو رسول الله ﷺ عند حصن الطائف ، ولتتابع في مشاهد متالية الخطوات العسكرية التي خطتها رسول الله ﷺ ، وكيف مضى قبل أن تفتح عليه ، ونفقه منها دور القيادة البصيرة الرائدة في المضي إلى الهدف ، ثم العدول عنه لمصلحة هي أكبر من تحقيقه .

١ - النزول عند المحسون :

(ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من حصن الطائف فيضرب عسركه هناك ، فساعة حلّ رسول الله ﷺ وأصحابه جاءه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، إنما قد دنونا من الحصن فإن كان عنْ أمر سلمنا ، وإن كان عن الرأي فالتأخر عن حصنهم . قال : فأسكت رسول الله ﷺ) (١)

وهذه القضية لا تغيب عن ذهن المصطفى ﷺ ، ويدركها القائد العادى - به العبرى - لكن التربية على المسؤولية ، وإبراز الكفاءات هي القضية الأهم عند رسول الله ﷺ ، فالحباب بن المنذر رض يجد المجال متاحاً له دائمًا لإبداء الرأى ، وعرض خبراته العسكرية بين يدي قائده عليه الصلاة والسلام ، وذلك لكي يقوم كل أركان حربه عليه الصلاة والسلام بدورهم في الرأى والتخطيط والمناقشة ، ولكي يتعلم هذا الجيل كله ، والذي يحضر أغلبه هذه المعركة مع القائد العظيم عليه الصلاة والسلام لأول مرة ، وخاصة مع القيادات الجاهلية الكبرى التي لا تغير التفاصيل رأى أحد إلا لرأيها مثل عبيدة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وعلقمة بن علاء ، وأبي سفيان بن حرب ، وغير أولئك وأولئك ، لتعلم هذه القيادات كيف تفسح المجال لذوى الخبرة والاختصاص أن يؤدوا دورهم .

لقد شهدنا مالك بن عمرو النضرى يرفض أن يأخذ برأى واحد من الآراء العظيمة التى طرحتها أكبر خبراء الحرب فى الجزيرة آنذاك دريد بن الصمة ، ودعاه تاليه لنفسه أن يهدى بالاتحرار إذا نفذ رأى واحد من آراء دريد بن الصمة ، حتى لا تعود الشهرة له ، وصدق دريد فى رأيه الناقذ الصائب حين قال مالك : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيئاً ، وحذره من أن سياسته سوف تقود كل نساء هوازن سبايا ، ونعمها غنائم . ولكن جنون العظمة ، وشrix الشباب عند مالك دفعه لرفض كل مشورة . أما رسول الله ﷺ سيد الخلق فقد أنسح المجال رجباً لإبداء الرأى الحربى والخبرة العسكرية ليتعلم القادة فى

(١) مغازي الواقدى ٩٢٧/٣ .

ونجد عظمة التعامل النبوى مع اقتراح الحباب بن المنذر أنه فسح له المجال ابتداء دون أن يأخذ بهذا الرأى ؛ ليتعلم كذلك أركان الحرب أن الرأى فى النهاية للقائد الأول ، ولتتعلم هذه الجموع الضخمة كذلك جدوى الأخذ بالشوري ونتائج تركها أو إدخال حساباتها فى التخطيط .

(فكان عمرو بن أمية الضمرى ، يحدث يقول : لقد طلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شئ الله به علیم ، كأنه رجل من جراد ، وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال : « انظر مكاناً مرتفعاً مستاخراً عن القوم » فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارج من القرية ، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتولوا ، قال عمرو بن أمية : إنى لأنظر إلى أبي محجن يرمى من فوق الحصن بعشرة بعابيل كأنها الرماح ، ما يسقط لهم سهم ، قالوا : وارتفع رسول الله ﷺ عند مسجد الطائف اليوم) (١) .

وأراد سيد القادة ﷺ من البداية أن يتعرف جنوده على مصاعب الحرب ولاؤتها ، وذلك حين يكون التعامل مع حصون وجدران لا مع رجال وسلاح ، وبعد معاينة آثار السهام التى انصبت على الجيش كالجراد المنتشر من كل مكان ، وانتقل الإحساس إلى كل جندي عن مخاطرة البقاء تحت الحصون ، دعا رسول الله ﷺ خبيره العسكري الحباب ، وطلب منه أن يبحث عن مكان مناسب لنزول الجيش بعيد عن موقع نبال العدو ، وبعيد عن مرمى سهامهم بجوار الحصون ، فلو أقدم عليه الصلاة والسلام على الأخذ برأى الحباب منذ البداية ، وقبل هذه التجربة العنيفة بالجراح لشعر التائدون للنصر والتحمosen للحرب بأن البعد عن الحصون تجنب للحرب ، وخوف من اللقاء ، وبذلك يكون القرار المتخذ له أرضية فى نفس كل جندي ، وليس قراراً من الأعلى يتحمل البرود فى التجاوب معه ، فالرسول ﷺ يربى القادة ويربي الجناد ، والذى ينقل لنا أبناء هذا القرار هو عمرو بن أمية الضمرى الذى يعتبروا حداً من أكبر المغاورين عند العرب ، فهو ليس نكرة أو غفلاً فى عالم الحرب ، فهو الذى كلف بمهمة اغتيال قائد جيش مكة أبا سفيان بن حرب وحده ، وهو الذى كلف باستخلاص جثة خبيب رضى الله عنه من بين أيديهم ، وهو الذى ارث من بين القتلى ببشر معونة ، وجاء رسول الله ﷺ بخبر القوم ، وهو الذى قتل رجلين داخل مكة ، واختباً فى الغار ، وطاردته قوات مكة وفرسانها وعجزت عن اللحاق به ، وهو أخيراً المبعوث الخاص لرسول الله ﷺ إلى التجاشى فى الحبشة

(١) مغارى الواقعى ٩٢٦/٣ .

فإذن نحن أمام خير عسكري فذ وخاصة في حرب العصابات ، هو الذي ينقل لنا ما عانى المسلمين من نبال القوم ، وخاصة من نبال أبى محجن الثقفى الذى لا يسقط له سهم ، ويرمى بالنصال العراض من النبل كأنها الرماح ، وحاول المسلمون تجنب هذا الوابل من الرصاص أو السهام بالترس لها ، لكن كثرتها وقوتها جعلت من غير الممكن تجنب أخطارها ، وفي هذه الأجزاء التى نقلت الخطر إحساساً واقعاً عند أفراد الجيش الإسلامى ، عندها أمر رسول الله صلوات الله عليه وسلم خيره الحربى الحباب بارتياح المكان المناسب بعيد عن مرمى العدو ، وكان مكان مسجد الطائف اليوم هو المكان الذى انسحب إليه الجيش الإسلامي .

٢- محاولة المفاوضات مع العدو :

لقد فشلت المحاولات الأولى التى قام فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه قائد الطلائع المقاتلة وسدَّت من كل جانب ، وذلك بعد أن وجه إليهم إنذاره النهائي ، وبعد وصول رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى ساحة المعركة ، فلا غرابة أن تبدأ المفاوضات قبل انتهاء المعركة ، وكان المرشح لذلك هو يزيد بن زمعة بن الأسود رضي الله عنه ، وتقدم أمام الجيش بفرسه ، ونادى ثقيفاً يطلب الأمان لعرض السلام قبل الحرب وشروط هذا السلام ، فأعطته ثقيف الأمان (فلما دنا منهم رموه بالتبلي فقتلوه) وبذلك أبرزت ثقيف وجهها الأسود ، وغدرت بن أunte المأمان استخفافاً بمحمد صلوات الله عليه وسلم وعروضه ، وكان هذا الأمر - من الغدر السافر - يقتضى عقوبة تناسبه وقدر الله تعالى للموتور الثائر - أخي يزيد بن زمعة - أن يكون هو المتقم لأخيه ، وخرج هذيل بن أبي الصلت أخي أمية بن أبي الصلت من باب الحصن ، ولا يرى أن عنده أحداً ، ويقال : إن يعقوب بن زمعة كمن له فأسره حتى أتى به النبي صلوات الله عليه وسلم فقال : قاتل أخي يا رسول الله ، فسر رسول الله صلوات الله عليه وسلم فأمكنته النبي صلوات الله عليه وسلم فضرب عنقه .

لقد كان الرد سريعاً من خلال الفدائى العظيم يعقوب بن زمعة - والذى كمن عند باب الحصن يتظاهر قاتل أخيه - ولا ننسى أن يزيد ويعقوب كلاهما أصهار رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فهما أخوا سودة رضي الله عنها أم المؤمنين ، وهما يمثلان قربى قريبة من النبي عليه الصلاة والسلام ، وكانت هذه هي الخطوة الثانية من محاولات التفاهم قبل الإصرار على الحرب وتعسف ثقيف وعنجهيتها حال دون الوصول إلى رأى .

وكانت المفاوضات الثانية مع اثنين من أكبر رجالات محمد صلوات الله عليه وسلم ، ولهما وزن كبير عند ثقيف ، وكان هذان القائدان هما : أبو سفيان بن حرب شيخ مكة وقادتها السابق وصهر ثقيف ، والمغيرة بن شعبة الثقفى ابن أخي عروة بن مسعود .

(وتقىد أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى ثقيف فقالا: أمنوا حتى نتكلم ، فامنوهما . فدعوا نساءً من قريش ليخرجن إليهما وهم يخافون النساء - منهم ابنة أبي سفيان بن حرب ، كانت تحت عروة بن مسعود ، لها منه ولد ، والفراسية بنت سعيد بن عمرو كانت عند قارب بن الأسود بن مسعود ، وامرأة أخرى ، فلما أتاهن عليهما قال لهما بنو الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ويا مغيرة لا نتكلما على خير ما جتناما له ، إن مال بني الأسود - حيث قد علمتما - ليس بالطائف مال أبعد رشاء ، ولا أشد مؤنة منه ، ولا أبعد عماره ، وإن محمداً إن قطعه لم يعمر أبداً ، فكلماه فليأخذه لنفسه ، أو ليدعه لله والرحم فإن بيانه وبينه من القرابة ما لا يجهل فكلماه ، فتركه رسول الله ﷺ) .

وكانت هذه مباحثات خاصة ، لكنها ذات صلة وثيقة بالحرب ، وتهدف حرباً نفسية أكثر مما تهدف حرباً عسكرية ، فالطلب من القرشيات المتزوجات في ثقيف أن يخرجن إليهما ، إنما هو خوف عليهم من السبي ، وهو إشعار لثقيف أن الاسر والسبى سوف يكون نتيجة المعركة ، وحين لم تجد معهم هذه الصورة من التهديد المبطن ، عاد بنو قارب ابن الأسود بن مسعود يطالبون رسول الله ﷺ بحماية مال أبיהם من التحرير ، والخراب لو تم ، وطالبا بقرابة الرحم بحمايته ، واستجواب رسول الله ﷺ لقرابة الرحم ، وهو على استعداد عليه الصلاة والسلام لإجراء أي نوع من أنواع التقارب قبل اندلاع الحرب وفوات الأوان .

٣- إصرار ثقيف على المواجهة :

وحيث لم يتغير جواب ثقيف ولا موقفها ، فعاد رسول الله ﷺ بجيشه ليعلن دخول الحرب ، والتي كانت تبتدئ دوماً بالمبارزة بين الأبطال ، لكن خطة ثقيف كانت تتبع عن المواجهة خارج الحصون .

(وقال عمرو بن أمية الثقفى - وأسلم بعد ذلك - ولم يكن عند العرب أدهى منه : لا يخرج إلى محمد أحد ، إذا دعا أحد من أصحابه إلى البراز ، ودعوه يقيم ما أقام ، وأقبل خالد بن الوليد ونادى : من بيارز ؟ فلم يطلع إليه أحد ، ثم عاد فلم ينزل إليه أحد ، فنادى عبد يا ليل :

لا ينزل إليك أحد ، ولكننا نقىم في حصتنا ، خبأنا فيه ما يصلحنا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا) (١) .

لقد أعلنت ثقيف خطتها ، ورغم أن هذه الخطة تحمل كثيراً من العار والهزيمة ، فالاتجاء إلى الحصون والهرب من المواجهة السافرة هو جبن لم تالفه العرب ، وأن يكون

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٥٨/٥ . ٥٥٩ .

هذا في نهاية المواجهة للدفاع عن النفس فيمكن أن يقبل ، أما أن يكون هو ابتداءً فهذا دفع للتحصن بالضعف والجبن ، فالمسلمون يوم حفروا الخندق ، وجاء عمرو بن ود العامري يتحدى ويدعو للمبارزة ، فبرز له على بن أبي طالب رضي الله عنه وقتلته ، وبرز الأسود المخزومي فقتله الزبير ، وفر عكرمة بن أبي جهل من المواجهة ، أما هنا فالموقف علينا لا يتحمل التأويل أن لا مبارزة ولا مواجهة ، وإنما صبر على الحصار حتى تنتهي مدة ، ثم تكون المواجهة بعدها .

(فقاتلهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم بالرمي عليهم وهم يقاتلونه بالرمي من وراء الحصن ، فلم يخرج إليه أحد وكثُرت الجراحات له من ثقيف بالنبل وقتل جماعة من المسلمين .

ونظر رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فلا جدوى من هذه الحرب البعيدة ، ولا نتائج إلا الجراحات والقتل ، والزمن ليس لصالح الجيش الإسلامي ، فكانت الخطوة الرابعة) .

٤ - من نزل من العبيد فهو حر :

لقد بدأت هذه الخطوات في محاولات للضغط النفسي على ثقيف حتى تستسلم أو يهز كيانها من الداخل ، فتغير موقفها بعد عدم الجندي من المواجهة المباشرة .

(نادى منادي رسول الله صلوات الله عليه وسلم : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً . . . وفي رواية نزل إلى النبي صلوات الله عليه وسلم ثلاثة وعشرون من الطائف ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، واغتاظوا على غلمانهم ، فأعتقهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، ودفع رسول الله صلوات الله عليه وسلم كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله ، فكان أبو بكرة إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان الأزرق إلى خالد ابن سعيد بن العاص ، وكان وردان إلى أبيان بن سعيد بن العاص ، وكان يسار بن مالك إلى سعد بن عبادة ، وكان إبراهيم بن جابر إلى أسيد بن حضير ، وأمرهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن يقرئوهم القرآن ويعلموهم السنن ، فلما أسلمت ثقيف تكلمت أشرفهم في هؤلاء المعذقين منهم الحارث بن كلدة يردونهم إلى الرق . فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « أولئك عتقاء الله لا سبيل إليهم ») .

وبما أن الهدف الرئيسي في هذا الدين هو الإنسان ، فلا ضير عند رسول الله صلوات الله عليه وسلم الوصول إلى هذا الإنسان حرًا كان أم عبدًا ، حتى يصل بينه وبين هذا الينبوع الرباني ، فيتعرف على الإسلام .

هذا جانب ، والجانب الآخر هو التعرف على ثغرات ثقيف من خلال هؤلاء العبيد الذين يمكن أن يعطوا شيئاً من المعلومات من داخل صف العدو .

ومن جهة ثالثة فإن يرتبط تحرير الرقيق بالإسلام هو شيء له أهميته في الإسلام ، ولا شيء أعلى على العبد من نيله حرية ، ومن أجل هذا نجحت هذه الخطة ، وأدخلت بضعة عشر عبداً في حظيرة الحرية أولاً ، وحررتهم من رق العبودية ، ثم أدخلتهم في حظيرة الإسلام ، حيث كان توزيعهم على أشرف المسلمين سادة قريش بنى أمية ، كما كان يقول أباً عثمان عندما قدم عثمان بن عفان إلى مكة :

أقبل وأدبر لا تخف أحداً بنو أحىحة سادة الحرم

وكان الإخوة الثلاثة المؤمنون من شرفهم رسول الله ﷺ بهذه المسؤولية المادية والمعنوية : أباً عثمان وخالد وعمرو أبناء أبي أحىحة سعيد بن العاص ، هم الذين تحمل كل واحد منهم عبداً حرره ، وجعله مولى له في الوقت الذي يتحمل فيه هذا السيد مؤونة الإنفاق عليه ، ومؤونة تعليمه ، فهي مدرسة مجانية دخلها هؤلاء العبيد يتفرغون فيها لتلقي الإسلام والجهاد في سبيل الله وخدمة موالיהם ، بينما يقوم السادة بالإنفاق عليهم ، ومن شرفه رسول الله ﷺ بهذه المهمة : أسيد بن حضير سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وعليهم أن يصهروا هؤلاء العبيد الأحرار في مجتمع الإسلام الجديد . فليس تعليماً ذهنياً فقط ، إنما حياة إسلامية خالصة في قلب هذا المجتمع .

وحقق النداء هدفه ، وانضممت هذه التماذج إلى الصف الإسلامي ، لكن هذا لم يزحزح ثيقاً عن موقفها ، فرغم عظيم المها وازعاجها لوقف غلمانها أو بعضهم منها ، لكن الموقف الرسمي لم يتغير فيه شيء ، وعندما حاولت ثيق بعد إسلامها أن تستعيد هؤلاء العبيد ثانية ، فكان الجواب الخامس : أن ما حرره الله تعالى لن يستعبده أحد . فقال : « أولئك عتقاء الله لا سبيل إليهم » .

ورأينا بعد ذلك هؤلاء العبيد يأخذون موقعهم في الصف الإسلامي ، فيسار مولى سعد بن عبادة هو جد محمد بن إسحاق عالم السيرة الشهير ، والذى نهل منه حتى اليوم ، والذى قيل فيه : الناس في السيرة عيال على ابن إسحاق .

ووردان كان له دور مهم في التاريخ حيث صار فيما بعد مولى لعمرو بن العاص ، ويُحَسِّن مولى لصهيب بن سنان ، وحين صُدِّت قلوب ثيق وبيست عن أن تقبل هدى الله ، زلزل كيانها أن يدخل غلمانها في دين الله مختفين قاتلين لله سبحانه ، وهذه أول بوادر النظرة النبوية العظيمة لآفاق دعوته في الوجود : « عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » .

فإذا كان سفهاؤهم وعبيدهم يوم مضى داعية إليهم يرجمونه بالحجارة ، ويدمرون

عقبيه ورأسه ، ويشجون مولاه زيد بن حارثة ، فهزّلهم اليوم السفهاء والعيّد يدخلون في دين الله أفواجاً ، ويصيّبون جنوداً لفداء رسول الله ﷺ في المحب والأرواح ، ويقاتلون سادتهم الذين يصادون الله ورسوله ، وكم الفرق بين الموقفين والمنحنيين !

٥- رمي حصن الطائف بالمنجنيق :

وهي المحاولة الثالثة في الاستفادة من الخبرات العسكرية لدبّه ﷺ ، فسلمان الفارسي هو صاحب الخبرة العريقة في الحروب العالمية ، فقد جاء من فارس مركز الدنيا آنذاك وإحدى إمبراطوريات تحكم العالم ، وبخبرته في حفر الخندق ساهم في تحطيم أعظم هجوم قامت به الأحزاب نحو المسلمين . وهذا هو هنا يشير بالمنجنيق على رسول الله ﷺ : (يا رسول الله ، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإنما كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون ، وتُنصب علينا فنصيب من عدونا ويسقط من العدو ، وإن لم يكن منجنيق طال الشواء ، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقاً بيده ، فنصبه على حصن الطائف ، وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام) .

لقد استفاد رسول الله ﷺ من أعلى مستويات التطور الحربي في السلاح ، وبغض النظر عن اختلاف الروايات عنوان جاء بالمنجنيق ، لكن المهم أن الأخذ بالأسباب البشرية قد بلغ مداه .

وكان السلاح الثاني الذي استعمله المسلمون للوصول إلى حصن الطائف هو سلاح الدبابات يختبئون تحته حتى يصلوا إلى جوار الحصن ويضربوه بالمنجنيق ، غير أن الخبرة العسكرية عند ثقيف كانت متقدمة كذلك ومتكافئة مع الخبرة النبوية ، وكانت ثقيف قد بعثت عمرو بن مسعود ليتعلم صنعة المنجنيق من جرش في اليمن ، ولكنها ليست بحاجة ماسة له . فهي في موقع الدفاع عن حصونها ، وليس في موقف الهجوم ، لكن سلاحها الذي استعملته وهو سكك الحديد المحمامة ، أفشل الهجوم الإسلامي ؛ لأنّه أحرق الدبابات من الجلوود التي دخل المسلمون تحتها ، ووصلت النار إلى المهاجمين ، فلم يتمكنوا من الاقتراب من الحصون لتنفيذ ضربتها بالمنجنيق (فأرسلت ثقيف بسكك الحديد المحمامة بالنار ، فحرقت الدبابة ، فخرج المسلمون من تحتها وقد أصيب منهم من أصيب فرمتهن ثقيف بالنبيل فقتل منهم رجال) .

إن الطاقة البشرية قد استفدت في إنجاح هذا الهجوم وتحطيم مقاومة ثقيف ، لكنها بقيت عاجزة عن تحقيق هذا النجاح من خلال المواجهة ، وكل ما كان يمكن أن يضاف في رفع الوتيرة عالية في هذه الحرب هو الحث على الرمي المستمر بالسلاح التقليدي - النبل - كما روى عمرو بن عبسة : (حاصرنا حصن الطائف مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول :

« من بلغ بسهم فله درجة في الجنة » فبلغت يومئذ ستة عشر سهماً، وسمعته يقول: « من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر . . . » ولم يُقصَّر المسلمين في تبادل الرمي مع المشركين، وهذا التكافؤ لا يمكن أن ينهى حالة الحصار، أو يغير في واقع الأمر شيء، والزمن ليس لصالح المسلمين ، فليس بمقدورهم أن يتظروا أشهرًا طويلة حتى تنفذ مؤونة ثقيف وتستسلم، إلا إذا قدر الله تعالى معجزة من عنده ، فزلزل بهم حصونهم أو رماهم بصاعقة من عنده .

٦ - قطع أعناب ثقيف :

ومن خلال الخطط العسكرية كانت المحاولة الأخيرة في حرب نفسية عنيفة من خلال قطع كروهم وأعنابهم ، فعلل هذا الأمر يدفعهم إلى الاستسلام خوفاً على هذه الأموال التي مثلت جنى عمرهم كله ، والمال يعدل الروح أحياناً ، فما هو أثر هذه الخطة الأخيرة؟ (فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخبلهم وتحريقيها ، قال عروة : أمر رسول الله ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس حبات ، فقطع المسلمين قطعاً ذريعاً ، فنادت ثقيفاً : لم نقطع أموالنا؟ إما أن تأخذنا إن ظهرت علينا ، وإنما أن تدعها لله والرحم ، فقال رسول الله ﷺ : « فإني أدعها لله والرحم » ، فتركها رسول الله ﷺ) .

ليس قطع النخيل وتحريق العنبر هدفاً عند رسول الله ﷺ وجشه ، إنما الهدف هو الضغط على ثقيف لكي تستسلم وتسلم ، وكان الموقف أن ثقيف في غيابها ، وأبدت استعداداً لأن تبقى في حصونها ولو خسرت كل أموالها ، فلا تزال قلوبها مسدودة عن الإسلام ، ولا يزال عتو الباهلة هو الذي يحركها ، وعندما أعلنت موقفها كان رسول الله ﷺ يريد أن ييل هذه القلوب بلالها ويعامل معها على كسر بيستها ، وفتح أفقاً من التفاصيم والخير محل أفق التحدى والمواجهة حين قال: « بل أدعها لله والرحم » .

وقد تركوا المجال لسفهائهم يتحدون المسلمين في هذا المجال .

(وكان رجل يقول على الحصن فيقول : روحوا رعاء الشاء ، روحوا جلايب محمد ، أتروننا نبتسن على أحلب أصبتوها من كرومنا) .

ولم يتعامل سيد الخلق في موقفه العظيم في ترك قطع هذه النخيل والأعناب من خلال هذا الموقف الاستفزازي ، لكنه أراد أن تنزل عقوبة الله في هذا المتحدى لله ولرسوله ، (فقال رسول الله ﷺ : « اللهم روح مروحاً إلى النار » وكان الفدائى العظيم سعد بن أبي وقاص الذى دعا له الرسول ﷺ : « اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته » والذى فداء رسول الله ﷺ بآية وأمه ، كانت فرصة لهذا الفدائى أن يواجه

التحدى بمثله وأشد ، عملاً لا كلاماً ، يقول سعد : (فارميء بسهم فوقع في نحره ، فهو بين الحصن ميتاً ، فسر رسول الله ﷺ بذلك) .

وهكذا أنهى رسول الله ﷺ هذا الموقف الشاذ من هذا السفه المتحدى ، لكنه مضى صعداً في خط جديد ستظهر آثاره فيما بعد هو خط التخلّي عن الحصار ، وفسح المجال ثانية للسلام بعيد عن أهوال الموت والقتال .

الاتجاه إلى فك الحصار :

إن عظمة القائد البصير هو ألا يفقد قواته في معركة خاسرة ، فالمواجهة التي تمت مع هوازن رغم كل ما جرى فيها من هول ، لم يفقد المسلمين فيها إلا خمسة شهداء على أكبر تقدير ، ومعركة الطائف هذه فقد فيها رسول الله ﷺ اثنى عشر رجلاً دون مواجهة من خلال الرمي ، ومن خلال المحاولات الاستشهادية لضرب حصون الطائف بالمنجنيق ، ودم كل مسلم عند رسول الله ﷺ يعدل دماء المشركين كافة ، وإذا كانت المحاولات التي بذلت كلها لم تتحقق الهدف المطلوب في إجبار ثقيف على الاستسلام ، فما معنى الاستمرار في الحصار دون جدوى ، واختلفت الروايات في استمرار هذا الحصار بين أربعة عشر يوماً أو أربعين يوماً ، لكن هذا الاختلاف لا يغير من استراتيجية المعركة شيئاً على الإطلاق ، وعادت الروح التي سادت قبل الحديبية . لتسود من جديد بتوجيه أو توفيق رباني ، ونظر صلوات الله وسلامه عليه إلى المعركة بكل أبعادها ، واحتمالات نتائجها ، فرأى أن الطريقة الأنجع للحرب مع ثقيف هي حرب العصابات ، وهي أولى من غيرها ، وسيخطط لها فيما بعد ، وليس غايته أن يحقق نصراً عسكرياً ضخماً تنبع فيه ثقيف ، إنما همه أن تستسلم ثقيف دون خسائر ودماء كما استسلمت مكة ، وكما خطط رسول الله ﷺ ، فدخل مكة فجأة ووضعها تحت الأمر الواقع : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » ، وفي رواية : « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يروننا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة » فهو يريد صورة مماثلة يفاجأ بها ثقيفاً ويضعها تحت الأمر الواقع ، إنه لا يريد أن يجعل الأحقاد والدماء تتأرن في النفوس فتولد الثأر والحسدية ، بل يريد أن يلين هذه القلوب الجاسية والتي تأخذها العزة بقوتها وسلطتها ، وليس يضير القائد العظيم أن ينسحب من معركة يريد أن يحتل فيها موقعًا جديداً بخسائر باهظة جداً ، والقائد العظيم هو الذي يحسب القضية من جميع جوانبها ولا يندفع بعمى الحمية والتعصب والإصرار على النصر ، فيفقد كل قواته حتى لا يقال عنه : إنه انسحب من المعركة .

ولابد أن نقارن بين موقفين خالدين نتعلم منهما عظمة القيادة وعقربيتها .

الموقف الأول : هو ثباته يَعْلَمُهُ اللَّهُ في حين ، وال موقف الثاني : هو اتجاهه للانسحاب من حصار الطائف ، ففي الموقف الأول الذي يتعرض الجيش للخطر والموت ويؤدي فراره إلى تغيير ميزان القوى كلها ، واندفاع العدو المتقدم إلى احتلال موقع المسلمين قد حققها ، بل يُعرَض عاصمة الدولة كلها للخطر ، في مثل هذه الحالة نجد الرسول يَعْلَمُهُ اللَّهُ يصر على مواجهة العدو - ولو كان وحده - ويستدعي أعظم قواته وأعلاها خبرة وتدريبًا وقدائية لتقف معه ، وذلك حين راح يدعو الأنصار والمباعين تحت الشجرة ... ولو سقطوا جميعاً قتلى ، ولو فقد ثلث الجيش ونصفه كي يصد هذا الهجوم الرهيب الذي انقض في العدو عليه ، ولاذ جيشه بالفرار .

إن الخسائر في هذه الحالة لا تقاوم بالقتلى والجرحى ، إنما تقاوم الخسائر بالتخلي عن الواقع والأرض التي احتلها المسلمون ، وباحتطر الذي يتحقق بدولة الإسلام فيجعلها مطمئناً للعدو وهدفاً ينهي الوجود الإسلامي من خلالها ، وكما كان المتصرون يقولون : (لا تنتهي هزيمة محمد دون البحر) ، ويعنون بذلك أن مكة والمدينة قد تقعان في أيدي العدو المتصر ، في مثل هذه الحالات لا تبحث خسائر الأرواح والقتلى ، بل الثبات والصمود وصد الهجوم ولو فقد خمسة آلاف من جيشه حتى يدحر العدو المهاجم ، وينهى التحدي الجاهلي في الأرض .

أما الصورة الثانية : فهي محاولة للتغلب على خصم محصور قد فرَّ من معركة المواجهة وقد خرب شبابه وأبطاله ، وأغلق عليه حصنه ، فتأخير فتح الحصن لا يغير شيئاً من موازين القوى في الساحة العربية ، ويمكن في هذا التأجيل أن يتحقق الهدف بعد زمن بأقل قدر ممكن من الخسائر .

وكانت روح النبوة العظمى هي التي تملّك كيان المصطفى يَعْلَمُهُ اللَّهُ ، فلا يشغله شيء في هذه الدنيا كما يشغله هداية هذه الأمة لدين الله عز وجل ، وما كان القتل والقتال لحظة من اللحظات هدفاً عند رسول الله يَعْلَمُهُ اللَّهُ ، إنما كان وسيلة لكسر جمام الباطل المستعلى ليفسح المجال للحق المحارب : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »

[الأنفال : ٢٩]

ولذلك فقد أطلق رسول الله يَعْلَمُهُ اللَّهُ شعاره مع ثقيف ، والذى رسم الهدف كاملاً أمامه وذلك حين جاء المسلمين إليه يقولون : يا رسول الله أحرقنا نار ثقيف ، فادع الله تعالى عليهم ، فقال : « اللهم اهد ثقيفاً وات بهم » .

فها هو - وهو داعية أعزل - وحيداً ومعه ملك الجبال يقول له : لمن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت . يقول : « لا ، إنما لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » .

وها هو القائد العسكري الذى دانت له جزيرة العرب ، ومعه جيشه الذى يجمع جل الخبرات العربية . يقول : « اللهم اهد ثقيفاً وانت بهم » .

ونتساءل بعدها ، كيف مضى رسول الله ﷺ في تحقيق هذا الانسحاب ؟

١- الرؤيا :

قال ابن إسحاق : وبلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : « إنى رأيت أنى أهديت لى قبة مملوقة زيداً ، فتقرها ديك فهراق ما فيها » فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك ما تريد . فقال رسول الله ﷺ : « وأنا لا أرى ذلك » .

رسول الله ﷺ ، ومن خلال الدراسة الكلية للساحة ، لا يجد إمكانية تحقيق نصر سريع حاسم مع العدو المتحصن ، ولا جدوى من الإصرار على الحصار إلا زيادة القتلى والجرحى بين الفريقين .

٢- الاستشارة :

إذا كانت الرؤيا السابقة من رسول الله ﷺ هي استشارة من طرف آخر ل الكبير وزرائه في المعركة ، فها هي استشارة أخرى ل الكبير خبراء العدو سابقاً نوفل بن معاوية الديلي ، نوفل هذا الذي أشعل الحرب لفتح مكة حين قاد بكرًا لتهاجم خزانة وتقذر بها وتقتل أهلها راكعين ساجدين ، نوفل اليوم هو جندي في الجيش الإسلامي لم يفقد من مرتبته العسكرية في الجاهلية شيئاً ، فهو لا يزال بالرتبة العسكرية نفسها التي كان فيها في الجاهلية ، ومن أجل هذا اختصه رسول الله ﷺ بالاستشارة ، فقال : « ما ترى يا نوفل في المقام عليهم ؟ » .

قال : يا رسول الله ، ثعلب في حجر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك .

وكان هذا الرأى هو الذى قاله خالد مؤذن لهم : (وأنتم في حصن في ناحية من الأرض لو تركتم رسول الله ﷺ لقتلكم من حولكم من أسلم) فامكانية النصر قائمة ، لكن مع الوقت الطويل والضحايا الجسيمة ، فهل يستحق هذا الفتح كل هذه التضحيات ، أم لا ؟ فالشىء الذى انتهى له رسول الله ﷺ أن يؤجل هذا الفتح وينهى الحصار كما برزت معه كذلك نتائج الاستشارة لاركان حربه .

٣- إعلان الرأى لخولة بنت حكيم :

وكان تسريب هذا الرأى قد أخذ خطوات متالية ، وليس إعلاناً فجأاً مثيراً للأعصاب ،

فقد جاءت خولة بنت حكيم رضي الله عنها إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قائلة :

يا رسول الله ، اعطنى إن فتح الله عليك حلى بادية بنت غيلان ، أو حلى الفارعة بنت عقيل - وكانتا من أحلى نساء ثقيف - فروى أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قال لها : « وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف يا خولة ؟ » فخرجت خولة ، فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدثنيه خولة ؟ زعمت أنك قلته . قال : « قد قلته ». قال : أو ما أذن فيهم ؟ قال : « لا ». قال : أفلأوذن الناس بالرحيل ؟ قال : « بلى » فأذن عمر بالرحيل .

وهدف رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه هو تسريب هذا الخبر ، وإذا كان عمر في الحديبية رضي الله عنها قد فقد أعصابه للرحيل عند مكة دون فتح ، فقد كان درساً قاسياً من أقسى الدروس التي تلقاها حين ترك العنان لنفسه يواجه فكرة الصلح مع العدو ، أما اليوم - وما أشبه الليلة بالبارحة - فهو يواجه الموقف نفسه - الانصراف عن ثقيف - دون فتح ، وتحدى ثقيف للMuslimين وأغترارهم واستعلاءهم ، وهم على الباطل ، كل هذه المعانى تدور في خلده ، لكنه رأى أمر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أبرك من أمره ، وما يراه اليوم من فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وهزيمة هوازن ، وحضار ثقيف إلا أثر من آثار صلح الحديبية الفتح المبين ، فهو اليوم لم يأت ليناقش ، إنما جاء لينفذ ، إنه استفسار فقط عن صحة خبر خولة .

وعندما تأكد من صحة الخبر أن الله تعالى لم يأذن لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، لم يجد حرجاً أن يكون هو نفسه الذى يؤذن في الناس بالرحيل ، وشitan بين عمر اليوم وهو يدعون الناس إلى الرحيل عن الطائف ؛ لأن الله تعالى لم يأذن لنبيه بفتحها بعد ، وبين عمر في الأمس ، يتقل من موقع وهو يقول : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ فلم نعط الدنيا في ديننا ؟

وإن كان عمر رضي الله عنها قد عرفى من الابتلاء نتيجة التربية القاسية التى تلقاها فى الحديبية ، لكن هذا الجيش قرابة تسعه أضعافه من غير أهل الحديبية ، ولم يتلق ذلك الدرس القاسى آنذاك ، فلم تتحمل أعصاب هذا الجيش هذا الإذن بالرحيل ، وظهرت بوادر التوتر عنده للرحيل دون فتح .

روى الشیخان عن ابن عمرو أو ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما حاصر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الطائف ولم يبن منهم شيئاً قال : « إنما قاتلون غداً إن شاء الله تعالى » ، فتقل عليهم وقالوا : أذهب ولا نفتح - وفي لفظ قالوا : لا نبرح أو نفتحها .

ولابد أن تنتقل التربية من الدرس النظري إلى الدرس العملى ، وليس من المجدى الحديث عن تبريرات القفول وأسبابه وآثاره ، إن الانتقال إلى الدرس العملى هو الطريقة

الانجع في التربية .

وكما انتهت أزمة الحديبية عند المسلمين بالدرس العملي الذي قدمه رسول الله ﷺ حين أقدم على الخلق مباشرة ثم الذبح ، انتهت أزمة الطائف كذلك بالدرس العملي من رسول الله إذ قال لهم : « اغدوا على القتال » .

وانشرحت صدور الجيش الإسلامي للاستجابة النبوية له من دون أن يناقشه ، بل فتح المجال أمامه ألا يربح حتى يفتح ، وأصدر أوامره صلوات الله وسلامه عليه للجيش بالإذن بالقتال .

(فغدوا فقاتلوا قتالاً شديداً ، فأصحابهم جراح . قال : « إنا قافلون غداً إن شاء الله » فأعجبهم ، فضحك رسول الله ﷺ) .

قال عروة : وأمر رسول الله ﷺ الناس ألا يسرحوا ظهرهم فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ودعا حين ركب قافلاً وقال : « اللهم اهدهم واكفنا مؤونتهم ». وحين انحن الجيش بالجراح أدرك سر الأمر النبوى بالقفول ، وبمقدار ما تأزم فى اليوم الأول وأصر على عدم الرحيل إلا بفتح ثيف ، بمقدار ما سر فى اليوم الثانى وعوفى من أن يسقط الكثير من رجاله صرعى تحت الحصن بدون فتح .

وهي عظمة الحكمة النبوية بـلا يعرض جيشه للإبادة من أجل هدف صعب ، واكتفى باثنى عشر شهيداً ثمناً لهذا الحصار .

غنائم حنين ودورها في البناء التربوي للأمة

إلى الجعرانة :

١ - قالوا : خرج رسول الله ﷺ من الطائف . فأخذ على دحنا (١) ، ثم على قرن المنازل ، ثم على نخلة ، ثم خرج إلى الجعرانة وهو على عشرة أميال من مكة ، قال سراقة بن مالك :

لقيت رسول الله ﷺ وهو منحدر من الطائف إلى الجعرانة فتخلصت إليه ، والناس يضرون أمامه أرسلاً ، فوقفت في مقرب (٢) من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرونوني بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ما أنت ؟ وأنكروني ، حتى إذا دنوت وعرفت أن رسول الله ﷺ يسمع صوتي ، أخذت الكتاب الذي كتبه أبو بكر فجعلته بين أصابع من أصابعى ثم رفعت به وناديت : أنا سراقة بن جعشن وهذا كتابي ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا يوم وفاء وبر ، ادنه » فدنوت منه ، فكأنى أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ في غرزه كأنها الجمارة ، فلما انتهيت إليه سلمت وسقت الصدقة إليه ، وما ذكرت شيئاً أسلمه عنه إلا أني قلت : يا رسول الله ، أرأيت الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إن سقيتها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم في كل ذات كبد حرى أجر » (٣) .

قال محمد بن عمر : وقد كان رسول الله ﷺ كتب لسراقة كتاب موادعة سأله سراقة إيه فكتب له أبو بكر أو عامر بن فهيرة .

وروى محمد بن عمر عن أبي رهم الغفارى روى عنه قال : بينما رسول الله ﷺ يسير وأنا إلى جنبه ، وعلى نعلان غليظان ، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ ، ويقع حرف نعلى على ساق رسول الله ﷺ فلوجعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أوجعتنى آخر رجلك » ، وقرع رجلى بالسوط ، فأخذنى ما تقدم من أمرى وما تأخر ، وخشيست أن ينزل فى قرآن لعظم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة ، خرجت أرعى الظهر ، وما هو يومى ، فرقاً أن يأتي النبي ﷺ ورسول الله ﷺ يطلبنى ، فلما روحـت الركاب سالت ، فقالوا : طلبك رسول الله ﷺ فجثته وأنا أترقب . فقال : « إنك أوجعتنى برجلك

(١) دحنا : من مخالف الطائف .

(٢) المقرب : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل .

(٣) السيرة النبوية لأبن هشام ٤٩٠ / ١ .

فقرعتك بالسوط ، فخذ هذا الغنم عوضاً عن ضربتي » ، قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها (١) .

(وكان عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي يقول : كنت مع النبي ﷺ : في مسيره وهو يحادثني ، فجعلت ناقتي تلصق بناقه وكانت ناقتي شهمة (٢) ، فجعلت أريد أن أنحيها فلا تطاوعني ، فلصقت بناقة النبي ﷺ ، وأصبحت رجله فقال : « أخ ، أو جعنتني ». فرفع رجله من الغرز (٣) لأنها جمارة (٤) ، ودفع رجله بمحجنه في يده فمكث ساعة لا يتحدث ، فوالله ما نزلت حتى ظنت أن سينزل في عذاب ، قال : فلما نزلنا قلت لأصحابي : إنِّي أرُعى لكم ، ولم يكن ذلك يوم رعيتي ، فلما أرحت الظهر عليهم قلت : هل جاء أحد يبغضي ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغضك ، فقلت في نفسي : هي والله هي . قلت : من جاء ؟ قالوا : رجل من الأنصار . قال : فكان أكره إلى ، وذلك أنَّ الأنصار كانت فيهم علينا غلظة ، ثم قال : ثم جاء رجل من قريش يتغاضي ، قال : فخرجت خائفاً حتى واجهت رسول الله ﷺ ، فجعل يتسم في وجهي ويقول : « أو جعنتك بمحجني البارحة » ، ثم قال : « خذ هذه القطعة من الغنم » ، قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائعة (٥)) (٦) .

وفد هوازن وإسلامهم :

(قال ابن إسحاق وغيره : ونزل رسول الله ﷺ الجعرانة فيمن معه ، ومعه سبى هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاة ما لا ندرى عدته ، وذكر محمد بن عمر وابن سعد أنَّ السبي كان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، والغنم لا يدرى عدتها ، قال ابن سعد : أكثر من أربعين ألفاً وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى رسول الله ﷺ بالسبى لكي يقدم عليه وفدهم) (٧) .

قال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أمواهم وبساياهم ، أدركه وفد هوازن بالجعرانة ، وهم أربعة عشر رجلاً ، ورأسمهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إننا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامتن علينا منَّ الله عليك ، وقام

(١) سيل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٦/٥ .

(٢) ناقة شهمة : ناقة جلدة .

(٣) الغرر : مكان وضعها في الرحل .

(٤) جمارة : قلب النخلة وشحنته ، شبه ساقه بيضاها .

(٥) ضائعة : ذات صوف .

(٦) المغارى للراقدى ٩٤٠/٣ .

(٧) سيل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٨/٥ .

خطيبهم زهير بن صرد فقال :

يا رسول الله ، إن ما في الخطأر من السبابا عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي
كن يكفلنك ، ولو أنا ملحتنا - وقيل منها - للحارث بن أبي شمر ، أو للنعمان بن المنذر ،
ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائذتما وعطفهما ، وأنت يا رسول الله
خير المكفولين ، ثم أنشأ يقول (١) :

إمن علينا رسول الله في كرم
إمن على بيضة قد عاقها قدر
أبقيت لنا الدهر هنائاً على حزن
إن لم تداركها نعماء تنشرها
إمن على نسوة قد كنت ترضعها
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها
لا تجعلنا كمن شالت نعامتها
إنا لنشكر للنعماء إذا كفرت
فالبس العفو من قد كنت ترضعها
يا خير من مررت كُمْتَ الجياد به
إنا نؤمل عفواً منك تلبسه
فاعف عفا الله عما أنت راهبه

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال: «ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم»
وقالت قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، هذا حديث جيد الإسناد عال جداً ، رواه
الضياء المقدسي في صحيحه ، ورجح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن بسط القول عليه
في لسان الميزان .

قال ابن إسحاق ، فقال رسول الله ﷺ : «نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم
أموالكم؟» .

وفي الصحيح عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان بن الحكم : (فقال رسول الله
ﷺ : «فيمن ترون ، وأحب الحديث إلى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما
النبي ، وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم» ، وكان رسول الله ﷺ انتظراهم بعض

(١) ساق المؤلف الصالحي رحمة الله سندًا مباشرًا من عنده وصله برسول الله ﷺ عن طريق الطبراني . انظر
الصفحات ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

عشرة ليلة حين قفل من الطائف - فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد عليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا ، ولا نتكلم في شاء ولا بغير ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس فأظهرروا إسلامكم وقولوا : إننا إخوانكم في الدين ، وإننا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبال المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فإنى سأعطيكم ذلك ، وأسأل لكم الناس » وعلمهم رسول الله ﷺ التشهد ، وكيف يكلمون الناس ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر ، قاموا فاستأذنوا رسول الله ﷺ في الكلام فإذاً لهم ، فتكلم خطباؤهم بما أمرهم به رسول الله ﷺ فأصابوا القول ، فابلغوا فيه ، ورغبوا إليهم في رد سببهم ، فقام رسول الله ﷺ حين فرغوا ليشفعوا لهم . وفي الصحيح عن المسور بن مخرمة ومروان أن رسول الله ﷺ قام في المسلمين فحمد الله فأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائين ، وأنى قد رأيت أن أرد عليهم سببهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول فيء ي فيه الله علينا فليفعل » ، فقال الناس : قد طبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما لا ندرى من أذن منكم من لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاً لكم » ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم » فقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، فقال الأقرع بن حabis : أما أنا وبنو عميم فلا ، وقال عبيدة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، قال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بني سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال العباس بن مرداس : وهتموني .

قال رسول الله ﷺ : « من كان عنده منهن شيء فطابت نفسه أن يرده فسبيل ذلك ، ومن أمسك منكم بعقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء ي فيه الله على » ، فرد المسلمون إلى الناس نساءهم وأبناءهم ، ولم يختلف منهم أحد غير عبيدة بن حصن ، فإنه أخذ عجوزاً فلبى أن يردها) .

(وذكر ابن إسحاق ومحمد بن عمر واللفظ له أن عبيدة بن حصن حين ألبى أن يرد حظه من السبي ، خبروه في ذلك ، فنظر إلى عجوز كبيرة فقال : هذه أم الحى ، لعلهم أن يغلو فداءها ، فإنه عسى أن يكون لها في الحى نسب ، فجاء ابنها إلى عبيدة فقال هل لك في مائة من الإبل ؟ فقال عبيدة : لا ، فرجع عنه وتركه ساعة ، فقالت العجوز : ما أريك في بعد مائة ناقة ، اتركه فيما أسرع أن يتركتني بغير فداء ، فلما سمعها عبيدة قال : ما رأيت كالبيوم خدعة ، قال : ثم من عليه ابنها فقال له عبيدة : هل لك في العجوز لما

دعوتني إليه؟ قال ابنها : لا أزيدك على خمسين ، قال عيينة : لا أفعل ، قال : فلبت ساعة ثم مرّ به وهو يعرض عنه ، فقال عيينة : هل لك في العجوز في الذي بذلت لى؟ قال الفتى : لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة . هذا الذي أقوى عليه . قال عيينة : لا أفعل والله ، بعد مائة فريضة خمس وعشرون !! فلما تخوف عيينة أن يتفرق الناس ويترحلوا جاء عيينة . فقال : هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت؟ قال : هل لك في عشر فرائض أعطيكها؟ قال عيينة : والله لا أفعل ، قال الفتى : والله ما ثديها بناهد ، ولا بطنهما بوالد ، ولا فوها بiard ، ولا صاحبها بواجد ، فأخذتها من بين من ترى . قال عيينة : خذها لا بارك الله لك فيها ، فقال الفتى : إن رسول الله ﷺ قد كسا السبي فانخططاها من بينهم بالكسوة ، فهل أنت كاسيها ثواباً؟ فقال : لا والله ما ذلك لها عندي ، قال : لا وتفعل ، فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب ، ثم ولـ الفتى وهو يقول : والله إنك لغير بصير بالفرص) (١) .

قسمة الغنائم :

روى ابن إسحاق في رواية يونس بن بكر عن ابن عمر ثوبيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من رد سبابا هوازن ، ركب بيبره ، وتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فيتنا ، حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه ، فقال : « أيها الناس ، ردوا على ردائى ، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ، ثم ما أفتيموني بخيلاً ولا كذاباً ». ثم قام رسول الله ﷺ إلى جنب بيبره ، فأخذ من سمامه وبرة فجعلها بين يديه فقال : « أيها الناس ، والله ما لي من فئلكم ولا هذه الوربة إلاخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمحيط ، وإلياكم والغلول ، فإن الغلول عار وشنار على صاحبه يوم القيمة » (٢) .

وعن عبادة بن الصامت ثوبيه قال : صلى لنا رسول الله ﷺ يوم حنين إلى جنب بيبر من المغامن ، فلما سلم تناول وبرة بين أثنتين - وفي رواية فجعلها بين أصبعيه - ثم قال : « أيها الناس ، إن هذه من مغانكم ، وليس لي فيها إلا نصيبي معكم ، الخامس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمحيط وأكثر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فيه عار ونار وشنار على أهله في الدنيا والآخرة » (٣) . رواه أحمد وابن ماجه .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ ٥٧٤ - ٥٧١ ، وهو في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٨٨ - ٤٩٠ وفي البخاري ١٩٥ / ٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ ٥٧٥ .

(٣) المصدر نفسه / ٥ ٥٧٥ ، وهو عند ابن ماجه ٢/٩٥٠ ح (٢٨٥٠) .

وروى عبد الرزاق والبخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه بينما هو مع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم ومعه الناس مقلة من حنين ، علقت الأعراب برسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم ثم قال : « اعطوني رداءي ، فلو كان لي عدد هذه العصايم نعمًا لسته عليكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً » .

قال ابن إسحاق : أعطى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف العرب ، يتألف بهم قومهم .

قال محمد بن عمر ، وابن سعد : بدأ رسول بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، قلت : فمنهم من أعطاه مائة بعير وأكثر ، ومنهم من أعطاه خمسين ، وجميع ذلك يزيد عن الخمسين . وقد ذكرهم أبو الفرج بن الجوزي في التلقيح ، وابن طاهر في مبهماته ، والحافظ في الفتاح ، والبرهان الحلباني في التور ، وهو أحسنهم بياناً ، وأكثرهم عدداً ، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر ولم يتعرض أحد منهم لما أعطى كل واحد ، وقد تعرض محمد بن عمر ، وابن سعد ، وابن إسحاق لبعض ذلك كما سأله عليه .

روى الشیخان وغيرهما ومحمد بن عمر عن حکیم بن حرام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم بحنین مائة من الإبل فأعطيتها، ثم سأله مائة من الإبل فأعطيتها، ثم قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم : « يا حکیم ، إن هذا المال حلوة خضراء ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلة ، وابداً من تعول » . فقال : والذى بعثك بالحق لا أرزاً أحداً بعدك شيئاً ، فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه فيقول عمر : أيها الناس ، أشهدكم على حکیم بن حرام ، أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه ^(١) .

وروى البخاري عن صفوان قال: ما زال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم يعطي من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلى، حتى ما خلق الله تعالى شيئاً هو أحب إلى منه، وفي صحيح مسلم أنه صلوات الله عليه وآله وسالم أعطاه مائة من الغنم، ثم مائة ثم مائة ، قال محمد بن عمر : يقال إن صفوان طاف مع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم يتتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إيلاء - مما أفاء الله به على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم - فيه غنم وإيلاء ورعاوها مملوء فاعجب صفوان ، وجعل ينظر إليه ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم : « أعجبك هذا الشعب يا آبا وهب ؟ » ، قال : نعم. قال : « هو لك بما فيه ». فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله ، ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى ^(٢) .

(٢) المغازي للواقدي ٩٤٦/٣ .

(١) البخاري ١١٣/٤/٢ .

وروى الإمام أحمد ومسلم والبيهقي عن رافع بن خديج رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه
أعطى المؤلفة قلوبهم من سبى حنين كل رجل منهم مائة من الإبل فذكر الحديث فيه ،
وأعطى عباس بن مرداس دون المائة ، فأنثا العباس يقول :

التجعل نهبي ونهب العيد
فما كان حصن ولا حابس
وقد كنت في الحرب ذا تدرا
وما كنت دون امرئ منهمما

بين عبيتة والأقرع
يفوقان مرداس في المجمع
فلم أعط شيئاً ولم أمنع
ومن تضع اليوم لا يُرفع

بلغ ذلك رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فدعاه فقال له : « أنت القائل : فأصبح نهبي ونهب
العيد بين الأقرع وعيينة » ... فقال النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه : « اقطعوا عنى لسانه » ففرغ منها ناس
وقالوا : أمر بالعباس بن مرداس أن يمثل به ، وإنما أراد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ... أن يقطعوه
بالعطية من الشاء والغنم ^(١) .

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنت عند رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه
وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال ، فأتى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أعرابي . فقال :
الا تعجزني ما وعديني ؟ فقال له : « أبشر » ، فقال : قد أكثرت على من البشر ، فاقبل
على أبي موسى وبلال كهينة الغضبان فقال : « رد البشري فاقبلا أنتما » قالا : قبلنا ،
ثم دعا بقدر فغسل يديه ووجهه ومج فيه : ثم قال : « اشريا منه ، وأفرغا على
وجوهكم ونحوكم وأبشروا » ، فأخذوا القدر ففعلوا ، فنادت أم سلمة من وراء الستر :
أن أفضلا لأمكما ، فأفضلها منه طائفة ^(٢) .

قالوا : ثم أمر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه زيد بن ثابت بإحضار الناس والعناتم ، ثم فضها على
الناس فكانت سهامهم ، لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة ، فإن كان فارساً أخذ
اثنتي عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسم
له .

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي أن قائلاً قال
لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من أصحابه - قال محمد بن عمر : هو سعد بن أبي وقاص : يا رسول
الله ، أعطيت عبيتة بن حصن والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ؟
قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أما والذى نفسي بيده بجعليل بن سراقة خير من طلاء الأرض
كلهم مثل عبيتة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ولكنى تالفتهما ليس لهما ، ووكلت جعيل

(١) صحيح البخاري ١٩٩/٥ باب غزوة الطائف .

(٢) هي عند مسلم

وروى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (أعطي رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم رهطاً وأنا جالس فترك منهم رجلاً هو أعزبهم إلى فقمت فقلت : مالك عن فلان ، والله إنني لاراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم : « أو مسلماً » ذكر ذلك ثلثاً ، وأجابه بمثل ذلك ثم قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم : (إنني لاعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يکبه الله تعالى في النار على وجهه) .

(وروى البخاري عن عمرو بن تغلب قال : (أعطي رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم قوماً ومنع آخرين ، فكانهم عتبوا عليه فقال : (إنني أعطي أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله تعالى في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم عمرو بن تغلب) . قال عمرو : مما أحبت أن لي بكلمة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم حمر النعم) ^(٢) .

الأنصار والغنائم :

(روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : وقال ناس من الأنصار ، حين أفاء الله على رسوله صلوات الله عليه وآله وسالم ما أفاء من أموال هوازن ، فطفق النبي صلوات الله عليه وآله وسالم يعطي رجالاً المائة من الإبل فقالوا : يغفر الله لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم ، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، قال أنس فحدث رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم بمقاتلتهم ، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ، ولم يدع معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قام النبي صلوات الله عليه وآله وسالم فقال : « ما حدثت بلغنى عنكم ؟ » ، فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساونا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم ، يعطي قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبي صلوات الله عليه وآله وسالم : « فإني أعطي رجالاً حديبي عهد بكفر أثالفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبي صلوات الله عليه وآله وسالم إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير ما ينقلبون به » ، قالوا : يا رسول الله ، قد رضينا ، فقال النبي صلوات الله عليه وآله وسالم : « ستجدون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله صلوات الله عليه وآله وسالم فإني على الحوض » قال أنس : فلم يصبروا) ^(٣) .

وفي رواية عنه - فقال : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم » . فقال النبي صلوات الله عليه وآله وسالم : « لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لاخترت شعب الأنصار » ^(٤) .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/٥٨٣ ، ٥٨٤ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩٦ .

(٣، ٤) صحيح البخاري ٥/٢٠١ .

(روى ابن إسحاق عن ابن عمر والإمام والشیخان عن جابر، والشیخان والبیهقی عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، بينما هو يقسم غنائم هوازن إذ قام إليه رجل - قال ابن عمر وأبو سعيد : من تميم يقال له : ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم . فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أجل ، فكيف رأيت ؟ ». قال : لم أرك عدلت ، أعدل ، فغضب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وقال : « شقيت إن لم أعدل ، ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ » فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني أقتل هذا المافق ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنني أقتل أصحابي ، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمدون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، ينظر في النصل فلا يوجد فيه شيء ثم في القدح فلا يوجد منه شيء ، ثم في الفوق فلا يوجد منه شيء ». وفي لفظ : ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نصبيه فلا يوجد فيه شيء ، وهو قدحه - ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفrust والمدم ، يعقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم » - ولفظ رواية جابر : « إن هذا وأصحابه يقررون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية ، آتتهم أن فيهم رجلاً أسود ، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ، أو مثل البصعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقه من الناس » ، قال أبو سعيد : فأشهد أنني سمعت هذا من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وأشهد أن على بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه ، وأمر بذلك الرجل فالتمس حتى أتي به ، حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الذي نعت) (١) .

مالك بن عمرو وإسلامه :

قالوا : وقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه لوفد هوازن : « ما فعل مالك بن عمرو ؟ » ، قالوا : يا رسول الله ، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » ، وكان رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أمر بحبس أهل مالك بعكة عند عمتهم أم عبد الله بنت أبي أمية ، فقال الوارد : يا رسول الله ، أولئك سادتنا وأحبنا إلينا ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « إنما أريد بهم الخير » فوقف مالك فلم يجر فيه السهام ، فلما بلغ مالكاً ما فعل رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه في قومه ، وما وعده رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وأن أهله وماله موفور ، وقد خاف مالك ثقيقاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قال ما قال فيحبسوه ، فأمر براحتله فقدمت لديه حتى وضعت لديه

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥٨٧ / ٥٨٨ ، وهي عند مسلم / ٢٧٤٢ ، ٧٤٣ ح (١٤٤) ، ١٤٥ / ١٦٤ .

بدحنا ، وأمر بفرس له . فأتى به ليلاً ، فخرج من الحصن ، فجلس على فرسه ليلاً ، فركضه حتى أتى دحنا ، فركب بيته حتى لحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة ، فرد عليه رسول الله ﷺ أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل وأسلم وحسن إسلامه ، فقال مالك حين أسلم :

في الناس كلهم يمثل محمد
ومتي شأي يخبرك عما في غدِّ
بالسموري وضرب كل مهندٍ
وسط الهباء خادر في مرصد

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
أوفى وأعطي للجزيل إذا احتذى
وإذا الكتبية عرَدت أنيابها
فكانه ليث على أشباله

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، ومن تلك القبائل من هوازن وفهم وسلمة وثملة ، وكان قد ضوى إليه قوم مسلمون ، واعتقد له لواء ، وكان يقاتل بهم من كان على الشرك ويغير بهم على ثقيف فيقاتهم بهم ، ولا يخرج لهم سرح إلا أغمار عليه ، وقد رجع حين رجع - وقد سرح الناس مواشיהם ، وأمنوا فيما يرون - حين انصرف رسول الله ﷺ عنهم ، وكان لا يقدر على سرح إلا أخذنه ، ولا على رجل إلا قتلها ، وكان يبعث إلى رسول الله ﷺ بالخمس مما يغنم ، مرة مائة بعير ، ومرة ألف شاة ، ولقد أغمار على سرح لأهل الطائف فاستأق لهم ألف شاة في غداة واحدة .

العودة إلى المدينة :

قال محمد بن عمر وابن سعد : انتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليالٍ خلون من ذى القعدة ، فأقام بالجعرانة ثلاثة عشرة ليلة ... فلما أراد الاتصاف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لتنبي عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلاً ، فاحرم بعمره من المسجد الأقصى الذي تحت الوادى ، ودخل مكة فطاف وسعى ماشياً ، وحلق ورجع إلى الجعرانة ... فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمره غدا يوم الخميس راجعاً إلى المدينة ، فسلك في وادي الجعرانة حتى خرج على سرف ، ثم أخذ في الطريق إلى مر الظهران ، ثم إلى المدينة يوم الجمعة لثلاثة بين من ذى القعدة - فيما زعمه أبو عمرو المدنى . قال أبو عمرو : وكانت مدة غيابه ﷺ من حين خرج من الجعرانة إلى مكة فافتتحها ، وواقع هوازن ، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرین وستة عشر يوماً .

رسول الله ﷺ يبني أمة

مضى الناس فرحين بنصر هوازن ، وما أفاء الله على رسوله من غنائمهم ، كما مضوا عندهم غصة كبيرة لتعذر ثقيف ورجوعهم عنها دون فتح ، لكن سيد الخلق ﷺ كان في أعلى من هذه الآفاق بكثير لما أعده الله به لهدى البشرية قاطبة ، فقد كانت عدة أمور تأخذ بلبه وتشغله ، يريد أن يجد لها الحل الأنفع :

الأول : هوازن التي هُزمت ، وهىض جناحها ، وكسر فؤادها ، كيف يمكن أن تنضم هذه إلى الإسلام وتصبح من جنده وهى من أكبر قوى العرب ، وما جدوى نصر عسكري يؤرث حقداً على الإسلام وأهله ؟

الثاني : ثقيف التي تمنتت في ذراها ، وانصرف رسول الله ﷺ عنها دون فتح حصونها . كيف ستبقى ممتنة بقوتها ، سادرة في شركها ، ماضية في غيبها تحدى الله ورسوله ؟

الثالث : قريش التي استبيحت بيضتها ، وفتحت عنوة ، ورجالاتها العظام الذين أمضوا عمرهم وأفتوه في حرب الله ورسوله ، هل يمكن أن تنسخ من قلوبها أحقاد حرب عشر سنين بينها وبين الإسلام ؟

الرابع : قادة العرب الذين انضموا إلى جيش محمد ﷺ طمعاً في الغنائم ، وأملاً في الكسب ماذا سيكون موقفهم لو عادوا من الغنيمة بالإياب ، أو بضعة أبعة يذبحونها لضيقهم في غداة واحدة ؟

الخامس : هذه الأكثريّة الكبرى في الجيش والتي تريد نصيتها من الغنائم ، والتي خافت فتح مكة دون أن تأخذ شيئاً منها .

هذه الأمور جميعها كانت تشغّل بال رسول الله ﷺ ، وهو يريد من هذه القوى جميعاً أن تكون لبنات فاعلة في الصف الإسلامي ، وتنصهر جميعاً لتشكيل القاعدة العريضة للأمة المسلمة .

وللنظر إلى عظمة هذا البانى عليه الصلاة والسلام ، كيف تعامل مع هذه المضلات ، وأذاب الجليد عنها ، وصهر هذه القوى في البوتقة الإسلامية الواحدة .

أولاً : مع هوازن :

لقد كانت هزيمة هوازن لا مثيل لها في تاريخ العرب ، من جراء إصرار قائدها مالك

ابن عوف النضرى على إحضار النساء والأموال والنعم لحضور المعركة ليقاتل عنها المقاتل العربي ولا يفر ، حفاظا على شرفه وعرضه وماله .

وهذا حوار القائدين اللذين يمثلان جيلين في هوازن :

دريد : مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ،
وثناء الشاء ؟

مالك : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

دريد : ولم ؟

قال مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماهه ولده ونساهه ، حتى يقاتل
عنهم .

دريد : (يصفق بيديه قائلاً) راعى ضأن ، ماله وللحرب ؟ وهل يرد المنهزم شيء ؟
إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك ، فضحت في
أهلك وممالك .

وهذا الذي تم ، ورسول الله ﷺ يهمل في توزيع الغنائم رغم الإلزام الكبير من
الجيش على تقسيمها أملاً أن تتحرك عقلاء هوازن ، وتفضي نحو الإسلام لحفظ أهلها
ومالها ، ورسول الله ﷺ يتضرع ساعة بعد ساعة مثل هذه الخطوة . ولكنها لم تتم .

وقد بعث رسول الله ﷺ رسالة غير مباشرة لهوازن ، من خلال تعامله مع اخته في
الرضاعة الشيماء غوثيتها على أمل أن تكون سفيراً فوق العادة عند هوازن تخthem على
استعطاف رسول الله ﷺ لإعادة الأموال والنساء . فكيف تمت هذه السفاراة ؟

(وأمر رسول الله ﷺ بطلب القوم ثم قال خليله : إن قدرتم على بجاد فلا يفلتن
منكم ، وكان قد أحدث حدثاً عظيماً ... فكان قد عرف جرم فهرب ، فأخذته الخيل ،
فضسموه إلى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى اخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ،
فعنفوا عليها في السياق ، فجعلت الشيماء بنت الحارث تقول : إنى والله أخت صاحبكم ،
ولا يصدقونها ، وأخذتها طائفه من الانتصار ، وكانت أشد الناس على هوازن ، حتى أتوا
بها رسول الله ﷺ فقالت : يا محمد ، إنى أختك من الرضاعة ، قال النبي ﷺ : « وما
علامة لك ؟ » فارتئه عضة وقالت : عضضتيها وأنا متوركتك بوادي السرر ونحن يومئذ
برعائهم ، أبوك أبي ، وأمك أمي ، قد نازعتك الثدى .

وبالإضافة إلى ذكريات تحفر في أعماق المصطفى ﷺ أخاديد وشجون ، أيام طفولته في
سعد بن بكر التي لم يتجاوز الرابعة من عمره فيها ، والتي يذكر فيها يوم جاء جبريل عليه

الصلة والسلام وشق صدره . تُرى ، هل انبعثت هذه الذكريات وانقضت حية من جديد ، مع هذه الأنثى التي كانت رفيقة طفولته وأخته من الرضاع . ترى ، هل هي التي كانت ترقصه على يديها وتقول له :

هذا أخ لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمي

فأئمه اللهم فيما تمنى

وفي الإصابة أن الشيماء كانت ترقص النبي ﷺ وهو صغير وتعنى له وتقول :

يا ربنا أبق لنا محمدا حتى أراه يسافعا وأمردا

وأكبت أعاديه معًا والحسدا ثم أراه سيدا مسودا

وأعطا عزًا يدوم أبدا

قال : فكان أبو عزة الأزدي إذا أنشد هذا يقول : ما أحسن أجاب الله دعاءها (١) .

إنها تحمل أروع ذكريات الطفولة عن أحب خلق الله لها ، والذى تساق له اليوم ليحكم فيها ، إنها واجمة تعيش أسعد أيامها مع ذلك الطفل الحبيب الذى كان تربى لها والفرق بينهما قليل في السن حتى ليشترى كاماً في رعاية البهم . بل تحمله على ظهرها ، وشاءت إرادة الله عز وجل أن يعضاها تلك العضة التي آلتها حينذاك ، لكنها دخلت التاريخ بها بعد ذلك أختاً لسيد الخلق محمد ﷺ ، والرسول العظيم أرحم من في الأرض بأهل الأرض . وأعظم الناس في الوجود عاطفة وحناناً ووفاء يرى أمام عينيه أخته الشيماء التي طالما لعب معها في مرابع بنى سعد ، وحدثه في أحلامه هي هي الآن أمامه ، فما يتعالك سيد الخلق ، وأرحم الخلق أن تطفو الدمعة من عينه شوقاً وجماً ، وأن يقفر لاخته التي مر خمسون عاماً أو تزيد لم يرها فيها ، فيحيط لها رداءه ، ويعيشان معًا لحظة من لحظات التوأجد الإنساني أوقفت البشرية حركتها على هذه اللحظات .

(فوثب قائماً فبسط رداءه ثم قال : « اجلس علىي » ، ورحب بها ، ودمعت عيناه ، وسألها عن أمه وأبيه من الرضاعة فأخبرته بموتها من الزمان) .

لكن التاريخ لم يحدثنا عن الدموع الغزار التي بللت وجنتي الشيماء خلاصتها وهي الآن في مرابع العز عند أخيها ، قال لها - نور النبوة يتلألأ في وجهه ويحمل حب الوجود وحنانه وشوقه :

« إن أحببت فأقيمى عندنا محيبة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك

(١) الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر ٤/٨/١٢٣ .

ورجعت إلى قومك » . قالت : أرجع إلى قومي ، وأسلمت . فأعطها رسول الله ﷺ ثلاثة أعد وخارية أحدهم يقال له : مكحول ، فزوجوه الجارية .

قال عبد الصمد : أخبرني أبي أنه أدرك نسلها في بني سعد ، ورجعت الشيماء إلى منزلها ، وكلمتها النسوة في بجاد ، فرجعت إليه فكلمته أن يهبه لها ويعفو عنه . ففعل .

و تلك شفاعة لم تحظ بها إلا ابنة عمها أم هانى التي أجرت زعيمين من زعماء الشرك في بيتها ، وفي العودة الثانية عاد رسول الله ﷺ ليسألها عن كل شيء في زيارتها الثانية بعد أن قبل شفاعتها (وسألها : من بقى منهم ؟ فأخبرته بأختها وأخيها وبعمها أبي بركان ، وأخبرته بقوم سألها عنهم رسول الله ﷺ) . وتراجعت الحب في قلب الحبيب المصطفى صلوات الله عليه - الرحمة المهدأة للبشرية - فلم لا تنازل رحمة من نازعته الثدي (ثم قال لها رسول الله ﷺ : « ارجع إلى الجعرانة تكونين مع قومك ، فإنني أمضى إلى الطائف » ، فرجعت إلى الجعرانة ، وأتتها رسول الله ﷺ بالجعرانة فأعطها نعمًا وشاء لها ولمن بقى من أهل بيتها) . وإذا كان رسول الله ﷺ قد هتف بأم جده هاشم عاتكة ليدفع بنى سليم للجهاد معه ، فكيف بأمه حليمة السعدية التي رضع من ثديها حتى ارتوى ستين وتزيد ، وراح يفخر عليه الصلاة والسلام بتلك الرضاعة « وكيف لا أكون أفضح العرب ، وأنا من قريش ، واسترضعت في سعد بن بكر » . لكن الرحمة المهدأة لا تزيد أن يعم هذا الفضل فقط أخته الشيماء وعمه وأقاريبها ، إن هوازن كلها آباء وعماته وخالاته ، وهو يريد ﷺ أن يحرك هذا النسب من الرضاع ؛ لينقذ هوازن كلها من النار . وكانت - كما قلنا - الرسالة الأولى مع أخته الشيماء ، ورسول الله ﷺ يتضرر وصول الوفد والجيش يتعجب مطالباً بقسمة الغنائم .

(وجعلت الأعراب في طريق يسألونه ، وكثروا عليه حتى اضطروه إلى سمرة ، فخطفت رداءه فتركته عن مثل شقة القمر) .

وكما أراد الله تعالى أن يبرئ نبيه موسى لما قال بنو إسرائيل فيه فخطفت رداءه ، أراد الله تعالى أن يرى مؤلاء الأعراب هذا الجمال الأسر الذي يزورى بجمال القمر حين خطفت الرداء ، وذهل الناس بجمال جسمه الشريف ، وراح سيد الخلق يعالج هذه التغوس الحاسية الشديدة التي تحمل لهب الصحراء وغلظة البدية ، راح عليه الصلاة والسلام يؤكّد لهؤلاء الأعراب حقهم في المال قائلاً :

« أعطوني ردائى ، أعطونى ردائى ، لو كان عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً » ولكن الأرض كلها تأذت لهذا التجاوز في الأدب مع نبيها ، الأرض يأنسها وجنتها وبיהםا وجمادها فهو نبي هذا الوجود كله ، وملائكة

السماء آذها أن تخطف رداء رسول الله ﷺ في هذا الجو المشحون بحب الغنائم ، وإن كان السرور قد عم السماء والأرض بالقمر الذي سطع بعد سقوط الرداء .

وستعود ثانية إلى هؤلاء الأعراب الذين يربى رسول الله ﷺ أن يربىهم ليعدهم سادة للبشرية وقادة لها ، ويرفعهم من هذه الغنيمة إلى بحبوحة الجنة .

نعود ثانية إلى وفد هوازن :

قالوا : (وانتهى رسول الله ﷺ إلى البحرانية ، والسيبي والغنائم فيها محبوسة ، وقد اتخذ السيبي حظائر يستظلون بها من الشمس ، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى تلك الحظائر سأله عنها فقالوا : يا رسول الله ، هذا سبي هوازن استظلوا من الشمس ، وكان السيبي ستة آلاف ... فلما قدم رسول الله ﷺ أمر بُسر بن سفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للسيبي ثياباً يكسوها - ثياب العقد - فلا يخرج المرء منهم إلا كاسياً ، فاشترى بُسر كسوة فكساً السيبي كلهم) .

وكانت الشيماء ولا شك قد حضرت قومها أن يمضوا إلى محمد ﷺ يستشفعوه في نسائهم وأموالهم ، فكان عمه أبو برقان أول الوافدين في مجموعة من هوازن كما ذكر الواقدي (وكان في الوفد عم النبي ﷺ من الرضاعة ، قال يومئذ : يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا ، وأرضعناك من ثديينا ، ولقد رأيتك مرضعاً ، فما رأيت مرضعاً خيراً منك ، ورأيتك فطيمًا فما رأيت فطيمًا خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامتن علينا منَ الله عليك) .

ولم يكن رضاع محمد ﷺ فيبني سعد بن بكر حدثاً عابراً ، ولا نكرة غائرة ، إنما كان حدثاً ماجت به مضارببني سعد كلها ، وارتخت بأخباره العشيرة كلها كما تقول حليمة السعدية : (ثم قدمتنا منازلنا من بلادبني سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمی تروح على حين قدمتنا به معنا شباعاً لبنا ، فتحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاياهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغناهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمی شباعاً لبنا ، فلم نزل تعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت ستة وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه التلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ، قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحقرن شيئاً على مكثه فيما لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنيَّ عندي حتى يغفل

فإنى أخشى عليه وباء مكة . قالت : فلم تزل بها حتى ردهه معنا) ١(. وبقيت هذه الأحاديث تتناقلها الأجيال بعد الأجيال .

لكن ماذا يفعل رسول الله ﷺ في شفاعة عمه والوفد الذي معه بعد أن فات الأولان وزوّدت الغنائم والسبايا ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

« قد استأنيت بكم حتى ظنت أنكم لا تقدمون ، وقد قُسم السبي ، وجرت فيهم السهام » .

لكن هذا الوفد الخاص قد دفع إلى أن تلقى رجالات القبيلة جمِيعاً في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وقد أشرق النور في قلب هؤلاء القادة ، وبعثوا الوفد الذي يمثل القبيلة كاملة وعلى رأسهم أبو صرد .

(وقد علم عليه أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين ، وجاؤوا بإسلام من وراءهم من قومهم ، فكان رأس القوم والمتكلِّم فيهم أبو صرد زهير بن صرد فقال : يا رسول الله إنا أهلك وعشيرتك ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك يا رسول الله ، إنما في المظاهر عماتك وخالاتك وحواضنك الالاتي كن يكفلنك ، ولو أنا ملحتنا للحارث بن أبي شمر وللنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفهما وعائذتهما ، وأئَت خير المكفولين) .

وعجائز بنى سعد بن بكر جميعاً يعرفون من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فطالما تحدثن بحديثه ، وهن جميعاً حالات وعمات له من الرضاعة ، والبعيدات منهن بنات عماته وبنات حالاته .

إنها الوساطة نفسها التي ذكرتها قريش يوم كان مصيرها كلها بيد رسول الله ﷺ وقد حاربوه وأخْرَجُوهُ وَبَيْتُوا قتله ، ونسوا قرابته وفضله ، أما وقد جاء فاتحًا قد ارتهن مصيرهم بيده فقال لهم :

« ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخْ كريم وابن أخْ كريم .

قال : « إنما أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأتمتم الطلقاء » ، وكذلك هوازن يوم صممت على حربه ، وأرادت إنتهاء الإسلام وواده بهذه الحرب لم تزع زمام هذه القرابة ، وهذه الرضاعة ، أما وقد هزمت شر هزيمة ، وصار نساؤها سبايا ، وأموالها غنائم راحت تستدر عطف هذا الرضيع الهاشمي فيها ، وسلمت الحديث لابن العَوْنَى زهير بن صرد ، الذي لم يبق درة

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ١/١٦٤ .

لبن إلا أنطقها ، ولا حلمة ثدي إلا حرکها ، ولا ضمة صدر إلا صورها ، وبلغت قمة ذلك التصوير بقوله :

امن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه ونتظر

فهذه هو اذن المكلومة المهزومة المسيحية بيد سيد العرب محمد بن عبد الله :

امن على بيضة قد عاقها قدر مشتت شملها في دهرها غير

أبقيت لنا الدهر هتاً على حزن على قلوبهم الغماء والغمّ

لقد راح ينبع اليوم بخرايئها ، ولن تتفض حبة ما لم تداركها يد الرحمة النبوية :

إن لم تداركها نعماء تنشرها يا أرجع الناس حلمًا حين يُخبرُ

يا خير طفل ومولود ومتجب في العالمين إذا ما فُضل البشر

وأنت ابن هوازن ، فمن أولى بالمن عليها من ابنها الحبيب :

امن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها وإذ يزينك ما تائى وما تذر

فالبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك إن العفو مشتهـر

إن زهير بن صرد هو الخليفة لدرید بن الصمة ، فكلاهما جشميان ، وإن كان درید

يقتل لآخر لحظة حتى قتل ، فإن زهير اليوم يريد أن ينقذ قومه من عار السبي الذي

سيمضى مجللاً لهوازن بين العرب إلى آخر الدهر :

واسبق منا فإنما عشر زهر

لا تجعلنا كمن شالت نعامته

وعندنا بعد هذا اليوم مدخلـر

إنا لنشكـر للنعمـي إذا كـفرـت

ويضع زهير آخر إبداعه الشعري في محاولة لاستدرار عفو رسول الله ﷺ بعد أن

استدر البن الذى رضعه كله من هوازن :

عند الهياج إذا ما استوقد الشرر

يا خير من مرحت كمت الجياد به

هادى البرية إن تعفو وتنتصر

إنا نؤمـل عـفـواً منـك تـلـبـسـه

يوم القيـمة إـذ يـهدـى لـك الظـفـرـ

فـاعـفـ عـفـا اللـهـ عـمـاـ أـنـتـ رـاهـبـهـ

لقد ساق الحافظ الصالحي هذا الشعر بسند متصل إليه حيث ابتدأ السند بقوله :

(أخبرنا الأئمة المسندون ، أبو فارس عبد العزيز الحافظ عمر بن فهد الهاشمي العلوي

وختم السند بقوله : (... قال : حدثنا أبو عمر ، وزياد بن طارق ، وكانت قد أتت عليه مائة وعشرون سنة - قال : سمعت أبي جرول زهير بن صُرَدَ الجشمى خواصه يقول : لما أسرَّنا رسول الله ﷺ يوم حنين ويوم هوازن ، وذهب يفرق السبي والشاء أتيته وأنشأت أقول هذا الشعر :

امن علينا رسول الله في كرم

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال : « ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم » وقالت قريش : (ما كان لنا فهو لله ولرسوله) . (هذا حديث جيد الإسناد عالٍ جداً ، رواه الضياء المقدسي في صحيحه ، ورجح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن ، ويسط الكلام عليه في لسان الميزان) (١) .

وهذا أمر هوازن كله بين يدي رسول الله ﷺ ، لكن بعد أن قسمت السهمان ، وزرعت السبايا ووزرعت الأموال ، فلأى قوة تسترد هذه السبايا من أصحابها إلا فتنة جديدة قد تقضى بوحدهة الجيش كله ، لقد كان بالإمكان معالجة هذا الأمر قبل توزيع السهمان وإعطائها لأصحابها حقاً شرعياً أعطاه الله تعالى لهم ورسوله .

(ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنم ثم فضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة ، فإن كان فارساً أخذ إثنى عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرسٍ واحد لم يسهم له) .

وقول رسول الله ﷺ :

« قد استأنبت بكم حتى ظنت أنكم لا تقدمون ، وقد قسم السبي وجرت فيهم السهمان » .

هل من خطة تعالج هذا الجيش في استرداد السبي منه أو المال ، وجبر الخاطر الكسير لهوازن .

إن جيش هوازن قد كان قرابة ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامي ، وهو زان واحدة من كربيات القبائل العربية ، وهي إحدى أثافي العرب كما يقول ابن حزم :

(والأثافي : سليم ، هوازن ، غطفان ، أعصر ، محارب) (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٦٩/٥ - ٥٧١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٤٨٦ ، وعند ابن الكلبي أن جماجم العرب هي ، كنانة وتميم وغطفان وهو زان وبكر وعبد القيس والأرد ومذحج وطين وقضاعة .

فهو ي يريد لهذا الجرح أن يندمل ، ولهذه القلوب أن تنفتح للإسلام ، وكيف تفتح وأموالها مسلوبة ، ونساؤها مسيبة ؟
وكان الخطأ النبوية العظيمة في فن تربية القاعدة العريضة .

قال رسول الله ﷺ لوفد هوازن كما في البخاري :

(جاء وفد هوازن مسلمين ، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسيهم فقال لهم رسول الله ﷺ : « معى من ترون ، وأحب الحديث لى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السبي وإما المال ، وقد كنت استأنست بكم ... » وكان رسول الله ﷺ أنظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف . فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد لهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : إننا نختار سبينا) .

وتحديثنا روایة ابن إسحاق عن كيفية تعليم رسول الله ﷺ لوفد هوازن كيف يستجيش عواطف المسلمين لإعادة سباياهم لهم :

«إذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إننا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبال المسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، ف ساعطيكم عند ذلك وأسأل لكم» .

ومضى الوفد ينفذ الخطأ النبوية كاملة : (فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : « وأما ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم ») .

فرسول الله ﷺ إمام القادة وسيد العابرة كان بإمكانه أن يصدر أمراً بإعادة السبايا لهوازن ، ويمكن تطبيق الأمر خوفاً ، لكنه في الوقت نفسه يخسر قلوب جيشه ، فلا شيء أشد على النفس البشرية من سلبها حقها بعد أن حازته ، ولا يريد الرسول ﷺ أن يربّع هوازن مقابل خسارة غرر أصحابه وعيون جيشه ، وكانت القدوة العملية العليا أمام هذا الجيش كله أن رأى الحبيب المصطفى ﷺ يتنازل عن حقه من السبي باسمه واسم قبيلته بنى عبد المطلب ، ورأى الجيش رغبة قائد في ذلك ، والقاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار ، وهو الجيل القيادي ، والقدوة في الجيش هو المسؤول أن يتبع تنفيذ رغبة رسول الله ﷺ في ذلك .

(فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ) . هذا الخيل الذى اعتاد أن يعطى ولا يأخذ ، الذى يكثر عند الفزع ويقل عند الطمع ، الذى رياه رسول الله ﷺ خلال عشرين عاماً مثل هذه الازمات ، فهو الذى استدعاه يوم فر الجيش ليكون كثيبة الفداء بين يديه - جيل الحدبية - أين أصحاب

الشجرة ، أين أصحاب سورة البقرة . فتنادوا يا للهاجرين ، ويا للأنصار ، وتسابقوا على الموت راضين ، وها هم هؤلاء الآن يدعون للتخلّى عن السبابا التي في أيديهم بالإشارة للسماحة ، حتى بدون إشارة ، فيكيفهم أن يعلموا رغبة رسول الله ﷺ بذلك حتى يتسابقوا لتنفيذها فقالوا : ما كان لنا فهو لرسول الله ...

لكن الزعماء الجدد الذين انضموا إلى الإسلام ولهم حسابات أخرى غير حسابات الدعوة ، لم يقتدوا بالهاجرين والأنصار :

قال الأقرع بن حabis : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عبيدة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مردارس : أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، يقول عباس بن مردارس لبني سليم : وهمتمني . فلم يندمج بعد هؤلاء الزعماء في الصف الإسلامي ، ولا يزال انتماؤهم القبلي ، وعصبائهم القبلية تغلب عليهم ، وتبدو عظمة النبوة الخالدة بحيث لا يمكن أن تؤخذ القضية بالأكثريّة ، بينما يضعف الآخرون عن المخالفـة ، فيضطـرون لمسـايرة التيار العام خوفـاً وحـيـاءً ، فـسعـفـنا روـاـيـةـ الـبـخـارـيـ بـعـظـمـةـ هـذـهـ التـرـيـةـ الجـمـاعـيـةـ التـيـ لـاـ تـسـيـ فـرـدـاـ وـاحـدـاـ فـيـ الجـيـشـ ، اوـ تـبـخـسـ حـقـهـ .

(فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهلٌ له ثم قال :

« أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائينين، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يُفْيِي الله علينا فليفعل » . فقد عرض رسول الله ﷺ على جيشه الإعادة بدون عرض لمن طابت نفسه بذلك ، تلبية للرغبة النبوية ، والإعادة بعرض لمن وجد صعوبة في التخلّى عنها دون بديل .

فهي العاملة النبوية التي لا تنسى في غمرة التربية الجماعية حق كل فرد مهما كان شأن هذا الفرد .

(فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ :

« إنما لا ندرى من أذن منكم في ذلك من لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » .

وإنها للذروة في العدالة والإكرام للذات البشرية ، فليس المسلمين أرقاماً يسام باسمهم كل حق ، ويتنزع منهم كل حق ، إنما لكل فرد في هذه الأمة حقه وكيانه ورأيه ، ولو كان هذا الرأي مخالفـاـ لـرأـيـ سـيدـ خـلـقـ اللهـ ، لـرأـيـ سـيدـ ولـدـ آـدـمـ ، فـحقـهـ فيـ المـخـالـفةـ

لا يسقطه رئيس قبيلته ، ولا سيد عشيرته ، أو السلطان الحاكم .

إنما هو الذي يسقطه ؛ ولهذا رفض رسول الله ﷺ هذه الموافقة الجماعية وقال : «إنا لا ندرى من أذن منكم من لم يأذن» . وبما أن الجيش مقسم على كتاب وسرايا ، فالإمكان التعرف على رغبة كل جندي في الجيش من خلال سريته أو مجموعته ، وياعلام رأيه لعرife الذى يقوده : «فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاوكم أمركم» .

وفي الأعراف البشرية اليوم أن الجيوش لا تخضع لانتخابات ، إنما تقوم على التنفيذ الكامل للأوامر الصادرة ولا حق للاعتراض على أوامر القيادة ، وإن كان ولابد من هذا الحق فالمبدأ : (نفذ ثم اعترض) .

وقد سنَّ رسول الله ﷺ لهذه الأمة سنة الاستفتاء الفردى العام بحيث يرفع كل جندي في الجيش رأيه سواء وافق رغبة القيادة أم خالفها عن طريق العرفاء ، ويحفظ حق كل معترض فى أن يكون له العوض من أول فى يفيته الله تعالى على المسلمين ، فمتى يدرك العاملون للإسلام اليوم ، بل قادة الحركات الإسلامية قيمة الفرد وكيانه ورأيه وحقه ، ولا يملك سلطان في الأرض أن يسلبه هذا الحق إلا عن رضاء وطيب نفس ، ويتيهي الجدال حول الشورى والزماميتها . ونحن نرى هذا التطبيق العالمي الخالد لها على أوسع نطاق حتى النطاق الشخصى .

(فرجع الناس فكلمهم عرفاوهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبونى وأذنوا) .

والوحيد الذى يقى مصرًا على عدم القبول بالرد الطوعى أو الرد مع العرض ، فيما روى لنا فى كتب السيرة هو عيسى بن حصن ، والذى رأينا كيف رفض ابتداء فداء العجوز الذى معه بعاثة من الإبل ، ثم عرض أصابعه ندماً حتى لم يصل إلى بغير واحد ، بل أرغمه ولدهما علىأخذ قيمة الثوب الذى تستحقه عندما كسا رسول الله ﷺ السبي من ثياب مكة ، ففى رواية أبي نعيم عن عطية السعدي رض أنه كان من كلام رسول الله ﷺ فى سبى هوازن وكلم رسول الله ﷺ أصحابه فردوا عليه سببهم إلا رجلاً واحداً فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أخْسِ سهمه » فكان يمر بالحارية فيدع ذلك حتى مر بعجوز . فقال : آخذ هذه فإنها أم حى فيهدونها عليه ، فكبير عطية وقال : خذها والله ما فوها بيارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا زوجها بواجد ، عجوز يا رسول الله ما لها أحد . فلما رأى أنه لا يعرض لها أحد تركها .

أما فى رواية ابن إسحاق : (قال عيسى : خذها ، لا بارك الله لك فيها ، فقال الفتى : إن رسول الله ﷺ قد كسا السبي فأنخطاها من بينهم بالكسوة ، فهل أنت كاسيها

ثواباً ؟ فقال : لا والله ، مالها ذلك عندي . قال : لا ، وتفعل فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب) .

وهكذا عاد وفده هوازن موقر الشمار ، فقد ارتد إليه عرضه ونساؤه حرائر كريمات ، يشهدن عظمة المن النبوى عليهم بالفداء ، وتغدوا هوازن بعد هذا الاسترداد الذى لم يشهد التاريخ مثيلاً له فى فن البناء التربوى للنفوس .

عادت هوازن جزءاً من هذا الصف الإسلامى ، ورفداً عظيمًا ضخماً ينضم إلى هذه القاعدة العريضة لهذا الدين ، بعد أن كان من الممكن أن تبقى حاملة أحقادها وثاراتها ضد المسلمين وضد رسول الله ﷺ ، وها هنا يفترق النبي - الرحمة المهدأة للبشرية ، إمام الدعاة - عن القائد العسكرى الذى يهمه أن يسجل نصراً بذبح الآخرين .

ثانياً : من هوازن إلى ثقيف :

وكما مضى الجيش الإسلامي سعيداً بنصره على هوازن ، مضى وفي قلبه غصة أن يرتد حسيراً عن حصنون الطائف دون فتح ، أما الأمر مع سيد القادة وإمام المربيين فيختلف عما هو عليه عند جيشه ، إنه كما أمهه عليه الصلاة والسلام أمر هوازن أن يرقى جرحها ، وينفتح قلبها للإسلام ، فكذلك كان يهمه أمر ثقيف ، ثقيف الذى آذته أبلغ إيناء لقيه فى حياته ، عندما مضى داعياً إليها ، وصدت أمامه حصنونها ، وأفقدتهاثا عشر بطلأً من جيشه عندما جاء إليها فاتحاً .

فعندما سالت عائشة رضوان الله عليها عن أشد ما لاقاه رسول الله ﷺ في حياته .

كما روى عروة بن الزبير : (أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أنت أشد يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الشعالب - وهو المسنى بقرن المنازل - فرفعت رأسى فإذا سحابة قد أظللتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم على ثم قال : يا محمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشين - أى لفعت ، والأخشيان : هما جبلان مكة أبو قيس والذى يقابلها قعيقان - قال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل لا يشرك به شيئاً »)^(١) .

(١) صحيح مسلم ١٤١٠ / ٤ ، ح (١١١) ، ١٧٩٥/١١١ .

وهو هو الموقف نفسه يوم جاء المسلمين يقولون له: يا رسول الله، ادع على ثقيف فقد أحرقتنا نيرانهم فقال: «اللهم اهد ثقيناً واثن بهم» فلما تزال هداية ثقيف هي شغله الشاغل، لكن المعتد بقوته لا يمكن أن يصبح للحق، أو يستجيب له ، وهذا هو وضع ثقيف فقد استعملت بالشيطان، وكان آخر جواب لهم عندما قرر المسلمين مغادرة الحصون: (الا إن الحي مقيم) في إعلان للتحدي السافر للإسلام والمسلمين ، أدرك رسول الله ﷺ أن القوم لا يمكن أن تنكسر شوكتهم إلا من خلال حرب عصابات تشعرهم بضعفهم وعجزهم، وفي مقارنة بسيطة بين ثقيف والحدبية تتضح هذه الصورة، فقد مضى رسول الله ﷺ عن مكة دون أن يفتحها ، وهو هو يمضي عن ثقيف دون أن يفتحها ، واستعملت يومها قريش بالباطل ، وفرضت حظرها على الإسلام والمسلمين ، وحاربت المستضعفين فيها وأذاقهم أفانين العذاب وألوانه ، حتى قاد أبو بصير الثقفي حرب العصابات ضد قريش (الذى خرج حتى أتى سيف البحر وينقلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبى بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بغيراً خرجت لقريش إلى الشام إلا اعتضوا لها ، فقتلواهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشد الله والرحم لما أرسل ، فمن آتاه فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم فقدموا عليه المدينة)^(١).

وإذن لا بد لكى يقود حرب العصابات أن يكون رجلاً منهم ، واختار رسول الله ﷺ لذلك قائد هوازن: مالك بن عوف النصرى، وهو الذى تمنع والتتجأ إلى ثقيف بعد المعركة، وعندما جاء وفد هوازن مسلمين إلى رسول الله ﷺ سالم : «ما فعل مالك ابن عوف؟» ، قالوا : هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ﷺ : «أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه ماله وأهله ، وأعطيته مائة من الإبل» ، فاتى مالك بذلك، فخرج إليه من الطائف ، وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه .

وإنها أمر مالك بن عوف أمر مهم ، فالقائد قد يعود ثانية فيجمع فلول جيشه المهزوم ويقود حرباً جديدة ضد رسول الله ﷺ ، ومن أجل هذا كان عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال خبرته بمعاذن الرجال يعد مالكا لهذه المسؤولية ، فقد حافظ على ماله وأهله ، ولم يجر عليهم السهام والقسمة ، ووصل العرض النبوى المغرى لمالك بن عوف ، فماذا يبقى له وهو في ثقيف أكثر من لاجئ سياسى عندها ، وإنما قوته بقومه وعشائرته ، والقيادات فى ثقيف كثيرة وكبيرة ، فلن تدع له دوراً للقيادة والمسؤولية ، وهى هو لا يشك لحظة فى صدق محمد ، ويعرف أنه إذا قال فعل ، وقد دخل قومه فى

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٣٩٠ ، وانظر : السيرة لابن هشام ٣٢٤/٢ .

الإسلام ، إن مستقبله غداً الآن رهيناً ومرتبطاً بهذا الدين ، ماله وأهله ومائة بغير علاوة على ذلك ، وما الذي بينه وبين الإسلام ، وقد جرّب وغامر ودمّر قومه ، ولو لا فضل محمد ونبيله لبقي نساء هوازن سبايا أبد الدهر ، ولحق العار به وبقومه وصار سبة بين العرب .

(فأمر براحته فهيا له ، وأمر بفترس له فأتي به إلى الطائف ، فخرج ليلاً فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحتة حيث أمر أن تجنس ، فركبها ، فلحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة ، فردّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيت ولا سمعت بشـلـه
في الناس كلـمـ بـشـلـه
أوفـيـ وأعـطـيـ للـجـزـيلـ إـذـاـ اـحـتـذـيـ
وـمـتـىـ تـشـأـ يـخـبـرـكـ عـمـاـ فـيـ غـدـ
وـإـذـاـ الـكـتـيـةـ عـرـدـتـ أـنـيـابـهاـ
بـالـسـمـهـرـيـ وـضـرـبـ كـلـ مـهـنـدـ
فـكـانـهـ لـيـثـ عـلـىـ أـشـبـالـهـ
وـسـطـ الـهـبـاءـ خـادـرـ فـيـ مـرـصـدـ

وصدق مالك ، فمن خلال تجربته ومعاناته ، أصبح محمد ملء سمعه وبصره ، وملء وجوده وكيانه ، فهو لم يسمع ولم ير مثل محمد ، ومتى أعطى رجل خصمته في تاريخ العرب كلها أهله وماله ومائة بغير فوق هذا كله . هذا عن الكرم والجود والعطاء ، وأما عن الشجاعة والقتال فهو الذي رأى ما لم يره أحد ، وهو الذي انتهز بثلاثين ألفاً أمام اثنى عشر ألفاً ، بثبات محمد ﷺ الذي قلب الميزان ، وغير الساحة كلها من هزيمة ماحفة إلى نصر ساحق ، فهو يتحدث ولا يقدر أن يصف هذه البطولة ، فاللسان أعجز من وصفها ، وأصبح هو رأس هوازن المسلمين ، وثيق الدّى كان قبل أيام يتمتع معها ، كافرة مشتركة ، وهو الآن أمير الساحة الإسلامية كلها ، وثيق جزيرة شرك في بحر من الإسلام .

(فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وتلك القبائل ثمالة وسلمة وفهم ، فكان يقاتل بهم ثيقاً ، لا يخرج لهم سرح إلا أغارت عليه ، حتى ضيق عليهم ، فقال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي :

هـابـتـ الـأـعـدـاءـ جـانـبـنـاـ
لـمـ تـغـزـونـاـ بـنـوـ سـلـمـهـ
وـأـتـانـاـ مـالـكـ بـهـمـ
نـاقـصـاـ لـلـعـهـدـ وـالـحـرـمـهـ
وـأـتـنـونـاـ فـيـ مـنـازـنـاـ
وـلـقـدـ كـنـاـ أـولـىـ نـقـمـهـ

هذا الهجوم المتكرر على سرح ثيق - وكما ذكرنا أنه أغارت على سرح لهم فيه ألف

شاة فاستقه في غدأة واحدة - جعل ثقيف في حال لا تخسد عليها أبدا ، مما دعا أكبر قادتها إلى عقد اجتماع طارئ لمواجهة هذه الحرب المفروضة عليهم والتي شعارها : (اضربوا واهرب) .

(ثم إنهم اتّمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بمحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا) .

لقد قالت ثقيف لرسول الله ﷺ أنها قد أعدت مؤونة سنة تبقى في حضونها ، وبعد أن تنفذ مؤونة العام ، تخرج لتقاتله عن بكرة أبيها ، أما الآن وبعد أقل من عشرة أشهر . ومن جراء حرب العصابات التي شنها قائد الفيالق الإسلامية مالك بن عوف . راحت تتدبر أمرها ، وتحضر معها هذا المؤتمر .

(حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخيض أن عمرو بن أمية أخا بني علاج كان مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو الذي بينهما سبي ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب ، فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول لك : اخرج إلى . فقال عبد ياليل للرسول : ويلك أعمرو أرسلك إلى ؟ قال : نعم وهو هو ذا واقف في دارك ، فقال : إن هذا الشيء ما كنت أظنه ، لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك فخرج إليه ، فلما رأه رحب به فقال له عمرو : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها وليس لكم بمحرب طاقة . فانظروا في أمركم ، فعند ذلك اتّمروا ثقيف بينها وقال بعضهم بعض :

« إلا ترون لا يأمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقطع ». .

وعندما وصلوا إلى هذه الحالة من البلبلة والتمزق ، وكسرت شوكة القوة التي تعنى القلوب والأبصار عن الحق ، عندئذ أمكن أن يفكروا في الإسلام ورسول الإسلام .

(وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجالا ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل ، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة ، فقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً فاجتمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأخلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة . . فلما دنوا من المدينة ألقوا بها المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته . . فلما رأهم ترك الركاب عند الثقيفين ، وضبر يشتد يبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه . .).

« اللهم اهد ثقيفًا واثب بهم ». .

فقد تحقق دعاء الرسول ﷺ بعد بضعة أشهر من حصار الطائف ، ولن نستثنى الأحداث . فستدرس الوفد في حينه ، لكننا أشرنا إلى هذه الثمرة العظيمة التي جناها المسلمون من ذلك الحصار ، وإشعال حرب العصابات ضدهم ، ووقاية الجيش الإسلامي من مجزرة ضخمة ثمن هذا الفتح مع حفظ أرواح التفجيين من مجزرة أضخم ، وأحقاد أضخم وأضخم ، ولم يتأخر الأمر حتى يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله ، إنما جاء رأس الشرك عبد ياليل بنفسه ليعلن مع قومه دخولهم الإسلام ، وهو الذي قال عقب حصار الطائف ، أو ابنه كنانة :

فإنا بدار معلم لا نرئها
وكان بها الآباء من قبل ما ترى
فأخبرها ذو رأيها وحليمها
إذا ما أبى صر العذود نقيمها
ويعرف للحق المبين ظلومها

من كان يبغينا يريد قالنا
وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى
وقد جربتنا قبل عمرو بن عامر
وقد علمت إذ قالت الحق أنتا
نقومها حتى يلين شربها

وها هي صر العذود عند ثقيف تقوم ويلين شربها ، ويعرف للحق المبين ظلومها ،
فتنتضم إلى قافلة الإيمان العظيم .

ثالثاً : من ثقيف إلى قريش :

قريش ، وما أدرك ما قريش ، هي اليوم تشكل سدس الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر ثقيفاً ويحارب هوازن بعد أن نزل أكثر من نصف القرآن في الرد على طغاتها وعتانها ورؤوس الكفر فيها ، وبعد أن كانت معقل الكفر دار الحرب ، هي اليوم جند من جند محمد ﷺ ، ونحن حين نقرن الآلفين اللذين انضما إلى الجيش الإسلامي بعدد الجيش كله . نلاحظ أنه رقم لا يؤبه له ، فكما قلنا : يعادل سدس الجيش ، لكن إذا قارنا هذين الآلفين بنسبة أعداد كل قبيلة ومشاركتها في الجيش الإسلامي ، لوجدنا قريش تقfer حتى تأخذ المرتبة الثانية بعد الأنصار ، فلم يذكر عن قبيلة أنها أرسلت جنوداً لها في جيش محمد ﷺ تزيد عن الألف ، أما قريش - بعد فتح مكة - فقد كان من انصضم منها إلى جيش الإسلام ضعف ما قدمته كل قبيلة على حده .

ولم تقدم جنوداً فقط ، فقد قدمت كفاءات وقيادات وزعامات مشركة ومسلمة ، سارت مع الجيش الإسلامي نحو حنين ، لكن قريش مكلومة ، وجرحها غائر ينزف دماً من حربها المستمرة مع رسول الله ﷺ ، وقياداتها الآن في الظل ، تعانى من الماضي المخزي الذي سجلته في حرب الإسلام ، هذه القيادات . هل انتهت من الساحة ؟

أولاً تحتاج إلى لفته حانية من يد النبوة ، ونظرة رحيمة من الرحمة المهدية ، بلـ ،
ورسول الله ﷺ ما ينسى هذه القيادات الحريحة ، ولا يغيب عن ذهنه النكبة الكبرى التي
حلت بمكة ، فقد أفت مالها كله في الصد عن سبيل الله ، وحرب هذا الدين ، فمالها
الآن في ظل هذا الدين ؟

كانت هذه المعانى تحيش كلها في صدر سيد البشرية محمد ﷺ ، أو ليس أولى
الناس بيره أهلـ وعشيرته الذين أعلنوا أخيراً استسلامهم لهذا الدين ، ولا يريد رسول
الله ﷺ أن تكون ذكريات هذا الدين مع قيادات قريش - ذكريات النكبة والهزيمة واللأسى
والجرح الرائحة - إنما يريد أن يرتبط هذا الدين بالبلسم الشافي ، والدواء الناجع ، والخاطر
المجبور ، والعزـة القuese ، ومن أجلـ هذا وجهـ رسول الله ﷺ الجزء الأكبر من خمسة
الذوى القربيـ من أهـلهـ الذينـ يريدـ لهمـ العـزةـ بـعـزـ الإـسـلامـ ، والـغـنـىـ بـدـخـولـ الإـسـلامـ ،
والـقـيـادـةـ وـالـقـوـةـ فـيـ ظـلـ الإـسـلامـ .

ومن أجلـ هذا عندما وزعـ رسولـ اللهـ ﷺـ العـطـاياـ الـكـبـرىـ لـلـمـؤـلـفـةـ قـلـوبـهـ ، كانـ
نصـيبـ قـيـادـاتـ قـريـشـ تـنـوـفـ عـنـ الصـفـ ، وـكـانـ أـكـثـرـ مـنـ نـالـ مـنـ هـذـهـ الـقـيـادـاتـ الـخـصـومـ
الـكـيـارـ لـلـإـسـلامـ مـنـ بـنـيـ مـخـزـومـ وـمـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ الـذـينـ وـضـعـواـ حـيـاتـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ لـحـرـبـ هـذـهـ
الـدـيـنـ ، فـانـضـمـامـهـ إـلـيـهـ يـحـمـلـ أـكـبـرـ قـدـرـ مـنـ الـخـسـارـةـ الـمـادـيـةـ وـالـمـعـنـوـيـةـ ، فـأـحـبـ رـسـولـ اللهـ
ﷺـ أـنـ يـتـعـاملـ مـعـ هـذـهـ الـقـلـوبـ فـيـحـيـيـهـ بـهـذـهـ الـعـطـاياـ الـجـزـيلـةـ ، وـيـتـعـشـ عـودـهـ
الـذـوـاءـ ، وـتـعـاـمـلـ مـعـ هـذـهـ الـدـيـنـ أـنـ دـيـنـهـ ، وـهـوـ الـذـىـ قـادـ لـهـ الـكـرـامـةـ وـالـعـزـةـ وـالـثـرـاءـ ،
وـلـمـ يـكـنـ وـيـالـ وـلـاـ نـكـالـاـ عـلـيـهـ .

إنـ هـمـ الـقـائـدـ الـحـرـيـيـ أـنـ يـحـطمـ نـفـوسـ خـصـومـهـ ، وـيـقـودـ إـلـيـهـ أـكـبـرـ قـدـرـ مـنـ الذـلـ
وـالـصـغـارـ وـالـإـهـانـةـ ، وـيـرـقـصـ عـلـىـ جـمـاجـمـ أـعـدـائـهـ ، أـمـاـ هـمـ رـسـولـ الـبـشـرـيةـ كـلـهاـ أـنـ يـأـخـذـ
قـلـوبـ هـؤـلـاءـ الـخـصـومـ فـيـذـيـبـ مـاـ بـهـاـ مـنـ حـقـدـ ، وـيـسـعـ مـاـ نـزـلـ بـهـاـ مـنـ ذـلـ ، وـيـعـلـاـ هـذـهـ
الـقـلـوبـ حـبـاـ لـهـذـاـ النـورـ ، وـتـفـاعـلـاـ مـعـهـ ، وـاستـمـاتـةـ فـيـ سـيـلـهـ ، وـهـذـاـ مـاـ حـقـقـهـ رـسـولـ اللهـ
ﷺـ بـهـذـهـ الـعـطـاياـ الـتـىـ كـانـتـ بـلـسـمـاـ لـجـرـاحـ هـذـهـ الـقـلـوبـ ، وـلـمـ يـدـعـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ بـيـتـاـ مـنـ
بـيـوتـ العـزـ فـيـ قـريـشـ ، إـلـاـ أـعـطـاهـ هـذـهـ الـجـرـعـةـ الـعـظـيمـةـ الـتـىـ غـسـلتـ قـلـبـهـ وـطـهـرـتـ روـحـهـ ،
فـيـبـوـتـ قـريـشـ الـعـشـرـةـ نـالـهـ الـعـطـاءـ الـنـبـوـيـ الـكـرـيمـ .

١ - بنـوـ مـخـزـومـ : وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ الـخـارـثـ بـنـ هـشـامـ أـخـوـ أـبـيـ جـهـلـ ، وـعـكـرـمـةـ بـنـ أـبـيـ
جهـلـ ، وـزـهـيرـ بـنـ أـبـيـ مـغـيرةـ ، وـصـيـفـيـ بـنـ عـائـذـ ، وـعـثـمـانـ بـنـ وـهـبـ ، وـهـشـامـ بـنـ
الـوـلـيدـ ، وـالـسـائـبـ بـنـ أـبـيـ السـائـبـ ، وـسـفـيـانـ بـنـ عـبـدـ الـأـسـدـ .

٢ - بنـوـ أـمـيـةـ : خـالـدـ بـنـ أـسـيدـ ، وـأـبـوـ سـفـيـانـ بـنـ حـرـبـ ، وـمـعـاوـيـةـ وـيـزـيدـ أـبـيـ سـفـيـانـ .

- ٣ - بنو سهم : الجد بن قيس السهمي ، وخالد بن قيس .
- ٤ - بنو أسد : حكيم بن حزام .
- ٥ - بنو عامر بن لؤى : حويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو ، وهشام بن عمرو .
- ٦ - بنو زهرة : الألخنس بن شريق : ومخرمة بن نوفل .
- ٧ - بنو عدى : مطيع بن الأسود ، وأبي حذيفة وابنه أبو الجهم بن غانم .
- ٨ - بنو جمع : عمير بن وهب وصفوان بن أمية .
- ٩ - بنو عبد الدار : شيبة بن عثمان ، والنضير بن الحارث .
- ١٠ - بنو عبد مناف: أبو سفيان بن الحارث، وقيس بن مخرمة ، وجير بن مطعم . وقد توزعت عطائهم بين المائة ناقة والخمسين ناقة .

وبذلك غدا عز محمد ﷺ عز مكة كلها ، وعز رجالاتها وقياداتها وساداتها ، ويكتفى أن نأخذ نموذجاً واحداً على أثر هذه العطاءات في نفوس هذه القيادات :

روى البخاري عن صفوان قال : ما زال رسول الله ﷺ يعطي من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلى حتى ما خلق الله تعالى شيئاً هو أحب إلى منه . وفي رواية أن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتضيق الفنائم إذ مر بشعب ملعون مما أفاء الله به على رسول الله ﷺ فيه غنم ولبل ورعاوها ، فأعجب صفوان بن أمية ، وجعل ينظر إليه فقال رسول الله ﷺ : « أعجبك هذا الشعب يا أبي وهب ؟ » قال : نعم . قال : « هو لك بما فيه » . فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله ﷺ ما طابت بهذا نفس أحد فقط إلا نفسنبي .

وهذا هو المعنى الذي قصده رسول الله ﷺ ، وهو يتحدث إلى الأنصار عن ذلك بقوله كما روى البخاري : « إن قريشاً حدثت عهد بجاهلية ومصيبة وإنى أردت أن أجيرهم وأتألفهم » .

وهذا نموذج آخر يمثل أكبر قيادات قريش أبي سفيان موثق :

(ف جاء أبو سفيان بن حرب وبين يديه (أى رسول الله ﷺ) الفضة . فقال : يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريش مالاً ، فتسلم رسول الله ﷺ ، وقال : أعطني من هذا المال يا رسول الله ، قال : « يا بلال زن لأبي سفيان أربعين أوقية ، وأعطيه مائة من الإبل » قال أبو سفيان : ابنى يزيد أعطه . قال رسول الله ﷺ : « زنوا ليزيد أربعين أوقية ،

وأعطوه مائة من الإبل » قال أبو سفيان : أبني معاوية يا رسول الله ، قال : « زن له يا بلال أربعين، وأعطوه مائة من الإبل » قال أبو سفيان : إنك لكريم ، فذاك أبي وأمي ، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سلمتكم فنعم المسلط أنت : جزاك الله خيراً) .

وهكذا كان انتصار رسول الله ﷺ على هوازن فرحة مكة بعد أن كان غصنة لها ، وكان قادتها يبشرون بعضهم بعضاً في الجولة الأولى أن هزيمة محمد لا تنتهي دون البحر.

إن قريش مادة الإسلام ، وهي اصطفاء الله تعالى من الخلق ، رغم كل ما وقفت من صد عن سبيل الله ، لكنها تحولت بعد ذلك من أعظم دعائم الإسلام ، وأكبر أنصاره ، وارتفع رسول الله ﷺ فوق القرابة القريبة ، فلم يعط من بنى هاشم لأحد إلا ما ذكر من عطائه لأبي سفيان بن الحارث ؓ ، أما العشرة الذين وقفوا جداراً بشرياً أمامه من اللحم والدم ، وسقط أحدهم شهيداً بين يديه ، فلم يأخذ من هؤلاء أحد درهماً واحداً.

وإعطاء رسول الله ﷺ هذه القيادات يحمل معنى آخر أكبر من معنى العطاء المادي في صفوف قريش ، فهذا العطاء هو اعتراف لهذا القائد بقيادته ، ولهذا الزعيم بزعامته ، فهو يشرف بأن رسول الله ﷺ اعتبره من قادة مكة ، وأعطيه هذا العطاء ، كما قال عباس ابن مرداس مشيراً إلى هذا المعنى :

(ومن تضع اليوم لا يُرفع)

ففي موازين الجاهلية وقيمها الذي لا يعطي يعني أن رسول الله ﷺ غير معترف بزعامته ، ولتشهد أخيراً عظمة التربية النبوية في صفات قريش مع أحد قادتها الكبار حكيم ابن حزام ، الذي ذكر لنا حادثته بنفسه قائلاً كما في الصحيح : سالت رسول الله ﷺ بحدين مائة من الإبل فأعطانيها ، ثم سأله مائة من الإبل فأعطانيها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلة ، وابداً من تعول » فقال : الذي يبعث بالحق لا أرزاً أحداً بعدك شيئاً ، فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطائه فيأتيه أن يأخذنه ، فيقول عمر : أيها الناس أشهدكم على حكيم بن حزام ، أدعوه إلى عطائه فيأتيه أن يأخذنه .

قال ابن أبي الزناد : أخذ حكيم المائة الأولى وترك الباقي ، تماوياً مع التربية النبوية العظيمة للتنفس .

رابعاً : من قريش إلى القيادات العربية :

فقد حضر غزوة الفتح وغزوة حنين ثلة من القيادات العربية موزعة على الشكل التالي :

- من بنى تميم : الأقرع بن حابس وعمرو بن الأهتم .
- ومن بنى غطفان : عبيدة بن حصن .
- ومن بنى عامر بن صعصعة : علقة بن علاتة ، ولبيد بن ربيعة الشاعر ، وحرملة وخالد ابنها هودة .
- ومن بنى سليم : عباس بن مرداش السلمي ، وعمير بن ودقة ، وعمرو بن بعكل ، والأصح أن سليم كلها حضرت المعركة .
- ومن بنى ثقيف : أسيد بن جارية ، والعلاء بن جارية ، والأنحسن بن شريق حليف زهرة .
- ومن طيء : زيد الخيل (إن ثبت حضوره) .

وقد شاركت هذه القبادات مشاركة رمزية مع بضعة عشر من أبناء قبائلها - عدا سليم - وأراد رسول الله ﷺ أن يتآلف هذه القلوب المتممة إلى كبريات القبائل العربية - طيء ، وأسد ، وغطفان ، وتيم ، وعامر بن صعصعة ، وثقيف - كي تربط هذه القبادات عجلتها بعجلة الإسلام ، وبهذا الرباط الوثيق يمكن أن تنقاد القبيلة كلها إلى الله ورسوله ، وحيث لم يتحقق لهذه القبادات هدفها في فتح مكة ، فلم يكن هناك أسلاب ولا غائم ، وكيف تعود هذه القبادات إلى قبائلها من غير شيء ... وهى ستتحرى الذبائح لاستقبال أبناء هذه القبائل ، فكان هذا العطاء ربطاً وثيقاً لها بالإسلام وبرسالة الإسلام ، وهى في ظاهر الأمر معترف بزعامتها من رسول الله ﷺ :

فجماجم العرب : كلب ، وطيء ، وحنظلة ، وعامر بن صعصعة ، وتيم .
والجُفان : بكر وتيم .

ورسول الله ﷺ بعد أن فتحت مكة ، وهزمت هوازن لا يريد أن يخوض حرثاً طاحنة مع كل قبيلة حتى تدخل في الإسلام ، إنه يريد لهذه القبائل أن تلين قناتها ، وتكسر حدتها ، وتفتح صدرها دون حرب لهذا الدين ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يريد بهذه الزعامات تعيش في جو الإسلام وتشهد خلق هذا الدين وطبيعة هذه الرسالة ، وليس من السهل لمثل هذه الزعامات أن تتغير التغيير الجذري المطلوب نظراً لما لها من مصالح ومطامع وموقع في أقوامها ، لكنها مع ذلك وحين تشهد القوة الإسلامية لا تفكر في أن تحمل السلاح لتواجه المسلمين في المعركة ، وحين تشهد الخلق الإسلامي تستحب أن تقابل هذا الخلق المعروف باللؤم والغدر ، وهي من جهة أخرى معالم إإنذار ورسل إلى القبائل الأخرى التي لا تزال تربص بال المسلمين الدوائر ، فحين يرون تميماً ،

وغطfan ، وطيفاً ، وعامر بن صعصعة وأقربابها قد ألقى قيادها للإسلام فلن تفكّر هي بالمواجهة ، بل ستفكّر بالانضمام إلى هذا الركب الذي لا يقاوم لعلها تناول المخطوة عند نبي الإسلام كما نالتها هذه القيادات .

ولنا ثلث وقوفات مع أهم هذه القيادات ، ننظر من خلالها أثر هذه المعاملة النبوية العظيمة في تركيب هذه القيادات وبنائها :

الوقفة الأولى : مع عامر بن صعصعة :

فقبيلة عامر عادت الإسلام منذ لحظاته الأولى ، وذلك حين مرضى رسول الله ﷺ إلى مضارب بني عامر يدعوهم إلى الإسلام ، ويطلب الحماية منهم .

قال ابن إسحاق : وحدثني الزهرى أنه أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » قال : أفنهدف نحومنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك (١) .

وقال الكلبي : فأخبرنى عبد الرحمن المعايرى عن أشياخ من قومه قال : أتنا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ ، فقال : « من القوم ؟ » قلنا : من بني عامر بن صعصعة . قال : « من أى بني عامر بن صعصعة ؟ » قالوا : بنو كعب بن ربيعة ، قال : « كيف الملة ؟ » قلنا : لا يرام ما قيلنا ، ولا يصطلى بنازنا . قال :

« إنى رسول الله وآتكم لأبلغكم رسالة ربى ، ولا أكره أحداً منكم على شيء » قالوا : ومن أى قريش أنت ؟ قال : « من بني عبد المطلب » . قالوا : فلين أنت من بني عبد مناف ؟ قال : « هم أول من كذبنا وطردنا » قالوا : ولكننا لا نطردك ولا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . قال : فنزل إليهم القوم يتسوقون إذ أنتم بحيرة بن فراس القشيري ، فقال : من هذا الرجل أراه عندكم - أنكره - قالوا : محمد بن عبد الله القرشى ، قال : بما لكم وله ؟ قالوا : زعم أنه رسول الله فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربى ، قال : فماذا ردتم عليه ؟ قالوا : بالترحيب والسعادة ، نخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا . قال بحيرة :

ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من شيء ترجون به بدءاً ، ثم

(١) السيرة النبوية لابن حشام ٤٢٥/١

لتتابدوا العرب ، وترميكم العرب عن قوس واحدة - قومه أعلم به - لو ألفوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، أتمعدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذبوا ، فتذوونه وتتصرونوه ؟ فيبس الرأى رأيتم ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : قم فالحق بقومك ، فوالله لو لا أنك عندى لضررت عنقك ، قال : فقام إلى رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها . فغم الخبيث بحيرة شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ وألقته ...) (١) .

ومن المجرم بحيرة بن فراس القشيري إلى عريق الإجرام عامر بن الطفيلي الذي ساد بنى عامر بعد عمه أبي براء ملاعب الأسنة ، والذى كان وراء مأساة بشر معونة :

(فلما نزلوها (أى القراء السبعون) بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيلي ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء - وكان أبو براء عمه قد أجار هؤلاء المسلمين - فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكون فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غزوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيفهم ، ثم قاتلواهم حتى قتلوا عن آخرهم - يرحمهم الله - إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار . فإنهم تركوه وبه رقم ، فارت من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الحنديق شهيداً) (٢) .

وتشير رواية البخارى إلى أن عامر بن الطفيلي قد وفد إلى المدينة قبيل أحد ، وبعد أن وصلت إليه أبناء نصر بدر ، يريد أن يقتسم النفوذ مع رسول الله ﷺ ، وقال فى وفاته كما في البخارى :

(وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيلي خيراً رسول الله ﷺ بين ثلات خصال : يكون لك أهل السهل ، ولـى أهل المدر ، أو أكون خليفتك ، أو أغزوك بأهل غطفان بألف ألف) (٣) .

قال ابن حجر في الفتح : (بينما الطبراني من حديث سهل بن سعد ، وبين فيه قدوم عامر بن الطفيلي على النبي ﷺ وأنه قال فيه : « لاغزونك بالف أشرف وألف شقراء (أى فرس وحصان) ، وأن النبي ﷺ أرسل أصحاب بشر معونة بعد أن رجع عامر ، وأنه غدر بهم ، وأخفر ذمة عمه أبي البراء ، وأن النبي ﷺ دعا عليه فقال : « اللهم اكفني عامراً ...) (٤) .

ويحدثنا ابن إسحاق عن وفادة لعامر بن الطفيلي على المدينة يرجع أنها كانت بين

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٤ / ١٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ٧ / ٣٨٧ .

(١) البداية لابن كثير ٣ / ١٥٥ .

(٣) فتح الباري ٧ / ٣٨٦ ح (٤٠٩١) .

صلح الحديبية ، وفتح مكة وهو الذى يحمل التهديد والوعيد لل المسلمين فى الهجوم عليهم .

قال ابن إسحاق : (قدم عامر بن الطفيلي عدو الله على رسول الله ﷺ ، وهو يزيد الغدر به ، وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت أكثت أن لا أنهى حتى تتبع العرب عقبي ، أفالاً أتبع عقب هذا الفتى من قريش . ثم قال لأزيد : إذا قدمتنا على الرجل فإلئني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيلي ، يا محمد : خالنى ، وجعل يكلمه ويقتصر من أزيد ما كان أمره به ، فجعل أزيد لا يعبر شيئاً ، فلما رأى عامر يصنع أزيد قال : يا محمد خالنى ؟ قال : لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له ، فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : والله لاملأنها عليك خيلاً ورجالاً - وفي رواية : ولاريطن بكل نخلة فرساً - فلما ولى قال رسول الله ﷺ : اللهم اكتفى عامر بن الطفيلي ، فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأزيد : أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً ، قال : لا أبا لك ، لا تعجل على ، والله ما همت بالذى أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، فأفضلريك بالسيف !)

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيلي الطاعون في عنقه فقتلته الله في بيت امرأة من بنى سلول ، فجعل يقول : يا بني عامر ، أغدة كغدة البكر في بيت امرأة من بنى سلول) (١) .

وكان علقة بن علابة هو الذي ينافس عامر بن الطفيلي على الزعامة في عامر ، والمنافرة التي كانت بينهما مشهورة جداً في كتب الأدب والترجم ، ولم يُحكم لواحدٍ منها على الآخر ، وبموت عامر بن الطفيلي انتقلت الزعامة لعلقة بن علابة الذي انضم للإسلام قبيل فتح مكة ، وبعد إسلام عمرو بن العاص ظهرت .

قال أبو عبد الله : سألت عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبى : متى كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة كتابه ؟ فقال : أخبرنى أبى عن قبيصه بن ذؤيب أنه كتب لهم فى جمادى الآخرة سنة ثمان ، وذلك أنه أسلم قوم من العرب كثير ، ومنهم من هو بعد مقيم على شركه ، ولما انصر رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم مصدقًا بمحمد ، قد أتوا بالإسلام وهو فيمن حوله قليل حتى قدم علقة بن علابة وابنا هودة فهاجروا فذلك حين كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى بديل وبشر وسرورات بني

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٥٦٨/٢ .

عمرو ، سلام عليكم ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . . . أما بعد ، فإنه قد أسلم علقة بن علاته وابنا هوذة وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة . . . (١) .

فعامر بن الطفيلي يريد أن يغزو المدينة ، ويربط بكل نخلة فرسا ، ولم تكن القوة البوية آنذاك قادرة على مواجهة قوة بنى عامر ، فسلط الله تعالى عليه الطاعون واستجابة دعوة نبيه أن يكفيه عامر بن الطفيلي ، وفي رواية : أن في الدعوة أن يهدى بنى عامر أو يأتي بهم ، وهدى الله تعالى بنى عامر على يد زعمائهم : علقة بن علاته ، وحرملة بن هوذة بن ربيعة ، وخالد بن هوذة بن ربيعة . وجنب الله جنده وحزبه ودعوه إمكانية حرب غير متكاففة ، لكن بعد فتح مكة ، والنصر الإسلامي فيه ، والجيش الذي ارتفع عدد الفرسان فيه فوق ألفي فرس ، كان بالإمكان مواجهة هوازن كلها ، وعامر من هوازن ، أما قيادات عامر فكانت في الجيش الإسلامي ، واحتفى بها رسول الله ﷺ ، وأعطى لهذه القيادات - علقة وابنا هوذة - لكل واحد منهم مائة ناقة .

ولابد أن نشير أن علقة الذي تمذر حب الزعامة فيه ، لم ينته به المطاف في الصف الإسلامي ، إنما ارتدى مع المرتدين فيما بعد ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوران في خلافته .

ولا ننسى أن بين زعامتين بنى عامر : لبيد بن ربيعة الشاعر الفحل الذي يضرب به المثل ، أشعر من لبيد . لا ننسى أنه كان قد انضم إلى الصف الإسلامي ، وكان من المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم رسول الله ﷺ مائة ناقة ، لبيد هذا كان يلقى شعره في مكة في أيام الدعوة الأولى :

الآية كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت ، ثم أتم بيته : وكل نعيم لا محالة زائل ، فقال له عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، فتافق لبيد قائلاً : متى كان يؤذى جليسكم ، وما النهى حتى ثار لنفسه من هذا المسلم الذي يرد عليه حيث قاموا بضربيه لهذا القول ، أما لبيد اليوم فهو الجندي المسلم الذي يكرمه رسول الله ﷺ بين الزعامتين العربية في هذا العطاء .

الوقفة الثانية : مع عيسية بن حصن ، سيد غطفان :

وعيسية هذا أتعب المسلمين ولم يكن يدع فرصة للانقضاض عليهم وحرفهم إلا وشارك فيها ، وهو كان أحد الأحلاف الثلاثة الكبرى في الخندق ، وأغار كثيراً على المدينة ، وأغير عليه ، ولكن صلح الحديبية وإنتهاء قريش للحرب ضد رسول الله ﷺ جعلته يعيد

(١) المغارى للواقدى ٧٤٩/٢ ، ٧٥٠ .

حساباته ، فهو إن بقى في الساحة وحده لن يستطيع أن يواجه محمداً ، وقلبه لا يطأوه على مصالحته ، لكنه أرغم لذلك ، وجاء قبيل فتح مكة وأعلن إسلامه حرصاً على مصالحة^(١) ، وما أن جاءه خبر مسيرة رسول الله بجيش كثيف حتى قدم خصيصاً للمشاركة معه حتى لا تفوته غنيمة من الغنائم ، فقد أصبح محمد السيد المطاع في جزيرة العرب .

(كان عيينة في أهلة بنجد فأنا الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهها ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج في نفرٍ من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبه فسبق إلى العرج ، فوجده رسول الله ﷺ بالعرج ، فلما نزل العرج أتاه فقال : يا رسول الله ، بلغنى خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعاً ، ولم أشعر فأجتمع قومي فيكون لنا جلبة كبيرة ، ولست أرى هيأة حرب لا أرى اللوية ولا رaiات ، فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيأة الإحرام ، فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله » ، وذهب وسار معه ، ووجد الأقرع بن حابس بالسقيا قد وافاها في عشرة نفر من قومه ، فلما نزل قديد عقد الالوية وجعل الرایات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرایات والالوية عض على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تنتم ؟ قال : على قومي إلا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبو بكر ؟ قال : حيث يشاء الله ، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعيينة) .

والملاحظ أن جفاء الأعراب وغلظة الجاهلية لا تزال في نفس عيينة ، فالمسلم الذي يصدق إسلامه لا يلفظ اسم محمد ﷺ إلا (رسول الله) أما عيينة هنا فلا يزال يذكر بعقلية الحرب بينه وبين محمد ﷺ فيسأل أبو بكر : أين يريد محمد ؟ ويقول : لم يكونوا نفروا مع محمد .

فالقضية عنده قضية مغالبة بينه وبين محمد ﷺ أكثر ما هي قضية إسلام تشربه نفسه :

أ - وتابع عيينة بمسيره ، فها هو يثير صراعاً محموماً بينه وبين عباس بن مردارس السلمي في التفاخر بين غطفان وسليم ، فالعباس يقول : أقصر أيها الرجل ، والله إنك لتعلم أنا أفترس على متون الخيل ، وأطعن بالقنا ، وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت ولوت ، لنحن أولى بما ذكرت منك ، قد عرفته لنا العرب قاطبة ،

(١) عن الزبير بن حبيب قال : أقبل عيينة بن حصن إلى المدينة قبل إسلامه ، فتلقاء ركب خارجين من المدينة ، فقال : أخبروني عن هذا الرجل ؟ قالوا : الناس فيه ثلاثة ؟ رجل أسلم فهو معه يقاتل قريشاً والعرب ، ورجل لم يسلم فهو يقاتله فينهم التباين ، ورجل يظهر له الإسلام ، ويظهر لقريش أنه معهم ، قال : ما يسمى هؤلاء القوم ؟ قالوا : يسمون المافقين ، قال : ما في من وصفتم أحزم من هؤلاء ، أشهدوا أني منهم . (الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٥٧ / ٢ وقال عنه المحقق السلمي : إسناده حسن إلى الزبير بن حبيب) .

فأوْمًا إِلَيْهِمَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ بِيَدِهِ حَتَّىٰ سَكَنَ .

فهذه بداية متاعبه داخل الصف الإسلامي ، وإثارة التعرات الجاهلية في قلب الجيش في صورة لم يعهد لها جيش النبوة من قبل عبيته وأمثاله .

ب - وها هو يثير هذه التزعة ثانية مع الأقرع بن حابس بن حنين ، حين يطالب بدم عامر بن الأضبيط الأشجعى وعيينة يقول : لا والله لا أدعه حتى أدخل على نسائه من الحرب والحزن ما أدخل على نسائي ، قال رسول الله ﷺ : « نأخذ الدية ، ويأبى عبيته » ، فارتفعت الأصوات وكثير اللغط .

هذا الثلاثي من الزعماء وعيينة ، والأقرع ، وعياس السلمى هم دائمًا في منافسة محمومة ، وأخرج رسول الله ﷺ من إصرار عبيته ، وهو يريد رأب الصدع لا نزف الدم ، لكن روح الجاهلية تتفاخ في أوداج عبينة الذي أسلم حفاظاً على مصلحة وزعامته ، وقد يبدو هذا الكلام شديداً على صحابي بعدهما أسلم ، لكن مواقفه لا تنبئ عن صحة إسلامه كما زعم هو ابتداء ، وهذا هو الموقف الذي كشف غدره وخيانته .

ج - (قالوا : وقال عبيبة : يا رسول الله ، إينذن لي حتى آتى حصن الطائف فأكلمهم ، فإذا ذن له فجاءه فقال : أدنو منكم وأنا آمن ؟ قالوا : نعم ، وعرفه أبو محجن فقال ادن ، فدنا ، فقال : ادخل . فدخل عليهم الحصن . فقال : فداءكم أبي وأمي ، والله لقد سرني ما رأيت منكم ، والله لو أن في العرب أحد غيركم ، والله ما لاقى محمد مثلكم قط ، ولقد ملّ المقام . فاثبتو في حصونكم ، فإن حصنكم حصين ، وسلامكم كثير ، وماكم واتن لا تخافون قطعه ، قال : فلما خرج قالت ثقيف لأبي محجن : فإذا كرها دخوله ، وخشينا أن يخبر محمدًا بخلل إن رأه فيما أو في حصننا ، قال أبو محجن : أنا كنت أعرف له ، ليس من أحد أشد على محمد منه ، وإن كان معه ...) (١) .

وفي رواية عروة بن الزبير في مغاري موسى بن عقبة أنه قال لهم : بأبي أنتم تمسكون بمحلكم ، والله لنحن أذل من العبيد ، وأقسم بالله لئن حدث به حدث لتملكن العرب عزّاً ومنعة ، فتمسكون بحصنكم وإياكم أن تعطوا بأيديكم ، ولا يتکاثرون عليكم قطع هذا الشجر ، ثم رجع عبيبة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « ماذا قلت لهم يا عبيبة ؟ » قال : قلت لهم وأمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، وحذرتهم من النار ، ودللتهم على الجنة . فقال له رسول الله ﷺ : « كذبت ؟ بل قلت لهم كذا وكذا » فقص عليه رسول الله ﷺ حديثه . فقال : صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله عز وجل ، وإليك من ذلك (٢) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١٦٣ / ٥ .

(١) المغارى للواقدى ٩٣٢ / ٣ .

والمفروض أن تنهى هذه المعجزة دخل عبيدة ونفاقه ، ويعلم أن الله تعالى حق ، لكن الظاهر أن حب الزعامة كان أكبر عنده من أي عقيدة ، والمعجزات التي شهدتها عبد الله ابن أبي لم تقطع ، وجاءت فضائحه بالقرآن والوحى ، ومع هذا بقي مصراً على كفره ، وأنزل الله تعالى فيه :

﴿ وَلَا تُصلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا وَلَا تُقْمِدْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبه ٨٦] .

د - وعندما يوجه رسول الله ﷺ أمره بقطع عنب ثقيف وتخيلها ، قال عبيدة بن حصن ليعلى بن مرة الثقفى ، وهو يحسب أنه يتودد له طالما أنه من ثقيف ، فقال ليعلى : على حرام أن أقطع حظى من الكرم ، فقال يعلى بن مرة : إن شئت قطعت نصيبك ، فماذا ترى ؟ قال عبيدة : أرى أن تدخل جهنم ، فكانت هذه ريبة من عبيدة في دينه ، وسمع بذلك رسول الله ﷺ فغضب منه ، وأوعذ عبيدة ، وقال : أنت صاحب العمل أولى لك فاولى) (١) .

وشهد عمر ذلك التبذبب والنفاق لدى عبيدة في هواه مع المشركين ضد المسلمين . فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أقدمه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي » .

ومثل هذا الأمر في الأعراف السياسية لا جزاء له إلا القتل ، وهو في المفهوم الإسلامي خيانة وموالاة للكفار تصل إلى حد الردة والكفر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا اليُهُودَ وَالنَّصَارَى أُولَئِكَ بَعْضُهُمُ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ وَمَنْ يَعْتَلُهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيءِ لِلنَّاسِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة ٥٥] .

وتتشابه كثيراً مواقف عبيدة بن حصن مع موقف عبد الله بن أبي ، وكما رأينا فهو قد أسلم نفاقاً ، ورأى أن موقف المنافقين هو موقف أحرم الناس وأعقلهم : « مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هُؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » [النساء ٤٢] .

ومع هذا فحرص رسول الله ﷺ على سمعة الإسلام والمسلمين ، جعلت القتل مرفوضاً عنده حتى لا تهتز سمعة الصفة الإسلامية عند المشركين ، وحتى لا يكون القتل ثغرة تخيف العدو من الإسلام والتوبة ، ووجد أبو بكر ثغرة الفرصة سانحة لوعظه بعد هذه الخيانة المكشوفة ، وبعد أن شهد المعجزة بعيته فقال له: ويحك يا عبيدة، إنما أنت أبداً

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/١٦٣، ١٦٤.

موضع في الباطل ، كم لنا منك من يوم ؛ يوم الخندق ، و يوم بنى قريطة ، والتفصير وخبير تجلبت وتقابلنا بسيفك ، ثم أسلمت - زعمت - فتحرض علينا عدونا . فقال : أستغفر الله يا أبا بكر وأتوب إليه ، ولا أعود أبداً .

هـ - ولكن سرعان ما انكشف نفاقه ثانية وعاد لولائه للكفار ، كما يبرر ذلك من خلال هذه الحادثة : (فلما أمر رسول الله ﷺ عمر فأذن الناس بالرحيل ، وقال رسول الله ﷺ : إنا قافلون إن شاء الله) . فلما استقل الناس لوجوههم نادى سعيد بن عبيد ابن أبيه بن عمرو بن علاج الثقفي فقال : ألا إن الحى مقىم ، قال : يقول عبيبة بن حصن : أجل والله مجدة كرام . فقال له عمرو بن العاص : قاتلك الله تدح قوماً مشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ ، وقد جئت تنصره ؟ فقال : إنى والله ما جئت معكم أقاتل ثقيضاً ، ولكنى أردت إن افتح محمد الطائف أصببت جارية من ثقيف فأتطليها لعلها تلد لي غلاماً ، فإن ثقيضاً قوم مناكير)^(١) ، فأخبر عمرو بن العاص النبي ﷺ بمقالته فتبسم النبي ﷺ وقال : « هذا الحمق المطاع »)^(٢) .

ترى هل كشف ما في سيرته لعمرو بن العاص معتبراً عمرًا مثله ، وله ماض طويل معه في حرب رسول الله ﷺ ، وهو يعلن بصراحة أنه لم يأت لقتال المشركين ، إنما جاء ليطاً جارية من ثقيف تلد له غلاماً داهية لأن ثقيفاً كذلك ، ولم يدر أن عمرًا خواصه بلغ من تغلغل الإيمان فيه ما شهد له رسول الله ﷺ له دون غيره فقال : « أسلم الناس ، وآمن عمرو بن العاص » ، ولما كان جواب رسول الله ﷺ لعمرو في غاية البلاغة والحكمة والإيجاز . فعيينة هذا الموجل في الحمق تعطيه الآلوف المؤلفة من قومه . فهو لا يريد أن ينكا جرحًا جديداً ، ولا يفتح حرباً عوائناً مع غطفان لو قتل سيدهم ، وليظهر أنه هو وقومه مع الإسلام ، فعلى من الناحية السياسية ذلك ، ورسول الله ﷺ يريد الوصول إلى قلوب من وراءه ، ولا يمكن الوصول إليها لو مُسْ صنمها معظم عينته .

وشهدنا حمقه كذلك حين اختار العجوز الشمطاء على أمل أن يغالوا بها بالفقداء ، فقال له صاحبه الأقرع بن حابس - والذى توتر الجو بينهما قبل برهة : (إنك والله ما أخذتها بكيراً عزيرة)^(٣) ، ولا نصراً وثيرة)^(٤) ، ولا عجوزاً حيلة ، عمدت إلى أحوج شيخ من هوازن فسببت أمرأته ، قال عبيبة . هو ذاك)^(٥) .

و - ومع كل هذه المواقف التي أبرزت غدر عبيبة وخيانته ، فلم يصف رسول الله

(١) مناكير : دعاء .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ت . د . السلمي ٥٥٨ / ٥٥٩ .

(٣) العزيرة : المتوسطة في السن من النساء . (٤) الوثيرة : السمينة الزينة .

(٥) الطبقات وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٥ / ٢ .

الحساب معه ، وأعطيه مائة من الإبل ، وهو بذلك يعطى غطافان كلها هذا المبلغ و يجعلها تغسل عن جسمها عار المصادة لله ولرسوله ، وتنضوى تحت لواء الإسلام .

ز - وسرعان ما كشف نفاق عينه ، فما أن بلغه خبر وفاة رسول الله ﷺ حتى ارتد مع المرتدين ، وراح يحارب المسلمين .

(قالوا : وكان عينة قد ارتد حين ارتدت العرب ، ولحق بطليحة بن خوبيلد حين تباً فأمن به ، وصدقه على ما أدعى من النبوة ، فلما هُزم طليحة ، وهرب ، أخذ خالد ابن الوليد عينة بن حصن ، فبعث به إلى أبي بكر الصديق في وثاق ، فقدم به المدينة قال ابن عباس : فنظرت إلى عينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينحسه غلامان المدينة بالجريدة ، ويضربونه ، ويقولون : أى عدو الله كفرت بالله بعد إيمانك ، فيقول : والله ما كنت آمنت . . . فلما كلمه أبو بكر رجع إلى الإسلام فقبل منه ، وعفا عنه . وكتب له أمانا) (١) .

لقد كشف المخبوء لهؤلاء الغلمان أنه لم يكن قد دخل الإيمان إلى قلبه ، ولا خالطت بشاشته فؤاده ، وها هو الآن يعلن إسلامه من جديد على يد الصديق ، ونسأله تعالى أن يكون أسلم بعدها فحسن إسلامه : ويقى في زعامته أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما ، وتزوج عثمان ابنته وارتبطت عملياً بعجلة الإسلام . وانتهى التناقض والفصام النكد بينه وبين هذا الدين .

إن قصة عينة بأبعادها ومراحلها لتصلح أن تكون مدرسة تربية كاملة ، في فن التعامل مع الزعماء الأعداء ، وع兵器ية الفقه للنفوس التي تنتهي بها بعد ذلك إلى الصفة الإسلامية ، وتجنب مجازر وحروب قد تودي بالآلات من الفريقين ، وخوض الحروب حين لا يكون هناك مناص من ذلك ، حتى يفيء إلى الحق من استحکم به الباطل .

الوقفة الثالثة : مع الأقرع بن حابس سيد بنى تميم :

فقد حضر فتح مكة والطائف مسلماً كما رأينا ، ولم يكن له موقف أو عليه فيهما ، لكننا نشهد على حقيقته حين حضر مع وفد تميم إلى رسول الله ﷺ ، نعرض فيه مكتنون ذاته عارٍ كما برز في كلامه ، وكلامه غنى عن أي تعليق ، وذلك كما ورد في ترجمته عند ابن الأثير في أسد الغابة .

(. . . قدم على النبي ﷺ مع عطارد بن حاجب ، والزيرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم وغيرهم من أشراف تميم بعد فتح مكة ، وقد كان الأقرع بن حابس التميمي ،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٦١ / ٥٦٢ .

وعينة بن حصن الفزارى شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينا ، وحضرها الطائف .
فلما قدم وفد تميم كان معهم ، فلما قدموا المدينة قام الأقرع بن حابس حين نادى :
يا محمد ، إن حمدى زين ، وإن ذمى شين ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلكم الله
سبحانه ... فماذا تريدون ؟ » قالوا : نحن ناس من تميم جتنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك
ونفاذرك ، فقال النبي ﷺ : « ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا ، ولكن هاتوا » .
قال الأقرع بن حابس لشَّابِّ منهم : قم يا فلان ، فاذكر فضلك وقومك ، فقال :
الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه ، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء ، فنحن خير من أهل
الأرض ، أكثرهم عندنا ، وأكثرهم سلاحاً ، فمن أنكر علينا قولنا ، فليأت بقولٍ هو
أحسن من قولنا ، وبفعال هو أفضل من فعلنا ، فقال رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن
شمس الانصارى - وكان خطيب النبي ﷺ : « قم فأجبه » ، فقام ثابت فقال : الحمد
لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأنوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . دعا المهاجرين من بنى عمه ، أحسن الناس
وجوهاً ، وأعظم الناس أحلاماً ، فأصابوه ، والحمد لله الذى جعلنا أنصاره ، وزراء
رسوله ، وعزّاً لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منا
من نفسه وماله ، ومن أباها قاتلناه ، وكان رغمه في الله تعالى علينا هينا ، أقول قولى
هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات

فقام الأقرع بن حابس فقال : إني والله يا محمد لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء ،
قد قلت شرعاً فاسمعه ، قال : هات . فقال :

| | |
|--|------------------------------|
| إذا خالفونا عند ذكر المكارم | أتيناك فيما يعرف الناس فضلنا |
| وأن ليس في أرض الحجاز كدارم | وأنا روؤوس الناس في كل عشر |
| فقال رسول الله ﷺ : « قم يا حسان فأجبه » ، فقال : | بنى دارم لا تفخرروا إن فخركم |
| يعود وبالاً عند ذكر المكارم | هبلتم علينا تفخرون وأنتم |

فقال رسول الله ﷺ : « لقد كنت غنياً يا أخا بنى دارم أن يذكر منك ما كنت ترى
أن الناس قد نسوه » . فكان قول رسول الله ﷺ أشد عليهم من قول حسان ، ثم رجع
حسان إلى قوله :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| وأفضل ما نلتكم من المجد والعلى | رداقتنا من بعد ذكر المكارم |
| فإن كتم جتكم لحقن دمائكم | وأموالكم أن تقسموا في المقاسم |

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ولا تفخروا عند النبي بدارم
إلا رب البيت مالت أكفنا على رؤسكم بالمرهفات الصوارم

فقام الأقرع بن حابس فقال : يا هؤلاء ، ما أدرى ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا ،
فكان خطيبهم أرفع صوتاً ، وتكلم شاعرهم فكان شاعرهم أرفع صوتاً ، وأحسن قوله ،
ثم دنا إلى النبي ﷺ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله
ﷺ : « لا يضرك ما كان قبل هذا » .

وفي وفدي بنى تميم نزل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُّرَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ٤٤ 】 [الحجرات] .

تفرد برواية هذا الحديث مطولاً بأشعاره المعلى بن عبد الرحمن بن الحكم
الواسطي) ١(.

وما ندرى إن كان هذا الأمر مسرحية كى يقود قومه إلى الإسلام ، أم أن الأمر
 الواقع أبهته فأسلم ، وإن كنا نرجع الأخرى ؛ لأن رسول الله ﷺ اعتبر هذا بداية
إسلامه ، وقد جب كل ما كان قبله ، وقال له : « لا يضرك ما كان قبل هذا » .

وقد التقى هذا الثلاثي عند رسول الله ﷺ في المدينة ، سيد بنى عامر : علقة ،
وسيد بنى تميم : الأقرع بن حابس ، وسيد بنى غطفان : عبيدة بن حصن ، فأحسن رسول
الله ﷺ وفادتهم وأكرمههم ، كما روى ذلك البخارى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :
(بعث على بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بذهبية) ٢(في أديم مقروظ لم
تحصل من ترابها ، قال : فقسمها بين أربعة نفر : بين عبيدة بن حصن ، وأقرع بن حابس ،
وزيد الخيل ، والرابع : إما علقة ، وإما عامر بن الطفيلي ، فقال رجل من أصحابه :
كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال : فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ألا تأمنوني وأنا
أمين في السماء يأتيني خبر السماء صباح مساء ... ») ٣(.

قال ابن حجر : وجزم في رواية سعيد بن مسروق بأنه علقة بن علاته العامري ثم
أحد بنى كلاب وهو من أكابر بنى عامر ، وكان يتنازع الرئاسة هو وعامر بن الطفيلي ،
وأسلم علقة فحسن إسلامه ... وذكر عامر بن الطفيلي غلط من عبد الواحد فإنه كان
مات قبل ذلك .

(٢) ذهبية : قطعة من ذهب .

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١٢٩، ١٣٠ .

(٣) البخاري ٥/٢٧ .

من فحیح الارض إلى شعاع السماء :

لكتنا إن لم نجد للأقرع بن حابس رضي الله عنه موقفاً ذا بال في حين ، فلقد شهدنا العلقم من أحد أتباعه الذين أحضرهم معه ، والتي راحت آثاره في التاريخ الإسلامي إلى يوم القيمة ، فيتو تميم لم يكن لهم وجود في الجيش النبوى إلا أولئك العشرة الذين أحضرهم الأقرع معه ، ومن بينهم ذو الخويصرة التميمي ، الذي روت الصحاح وكتب الأحاديث قصته وجوهرها ، كما وردت في مسلم (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه) قال : بينما نحن عند رسول الله صلوات الله عليه وسلم وهو يقسم قسمًا - وفي الروايات الأخرى : بينما هو يقسم غنائم هوازن - أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم ، فقال : يا رسول الله ، أعدل ، قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ! قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله اذن لي فيه أضرب عنقه ، قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « دعه فإن له أصحابًا يحقرون أحلكم صلاتهم مع صلاتهم ، وصيامهم يقررون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء (وهو القدح) ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثبّق نضيه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء ، سبق الفرت الدم ، آيتهم رجال أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، يخرجون على حين فرقة من الناس » قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وأشهد أن على بن طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمس ، وُجِدَ ، فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلوات الله عليه وسلم) (١) .

وكل روايات الحديث تحدثنا عن نموذج من البشر يوغلون في العبادة حتى ليحرف أحدهنا صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم ، ومع هذا هم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، والعلامات المحددة لهذا النموذج أنهم لا يتورعون عن النيل من علماء الأمة وقادتها وصحابتها ، يقتذفونهم بالجهل إن اتفقى الأمر ، وبالظلم إن بدا لهم ذلك ، فلا يوقرون عالماً ، ولا يعف لسانهم عن صديق ، فإذا كان رأسهم ذو الخويصرة اجترأ على رسول الله صلوات الله عليه وسلم قائلًا له : لم أرك عدلت . وصاحبته الذين خرجوا من ضئضته ... لم يجدوا حرجًا أن يقتلوا الخليفة الراشد باسم الإسلام قائلين له : الحكم لله لا لك يا على ، أو لا حكم إلا لله يا على ، وذلك لأنه قبل التحكيم لحقن دماء عشرات الآلوف من المسلمين ، فمن إذن يمكن أن ترعى له حرمة بعد رسول الله صلوات الله عليه وسلم وأخيه في الدنيا والآخرة على بن أبي طالب ، ووصفهم عليه الصلاة والسلام بقوله في

(١) مسلم ٢/٧٤٨ ح (١٤٨) .

إحدى الروايات : « يقتلون أهل الإسلام ، ويذعنون أهل الأولان » ومن هذا المنهج أنهم لا أرب لهم إلا تقويم انحراف علماء الإسلام وفقهاء الإسلام ، ومحدثي الإسلام ، وأئمة المسلمين فهو شغلهم الشاغل عن المشركين والمرتدين وأعداء هذا الدين - وفي رواية مسلم كذلك قال فيها :

(فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجتين ، ناشر الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، مشعر الإزار فقال : يا رسول الله ، اتق الله ، فقال : « وبilk ألس أحق أهل الأرض أن يتقى الله » قال : ثم ولى الرجل . فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ، لا أضرب عنقه ؟ فقال : « لا ، لعله أن يكون يصلى » قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال رسول الله ﷺ : « إنني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم » قال : ثم نظر إليه وهو مقف ف قال : « إنه يخرج من ضئضي هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » قال : أظنه قال : « لئن أدركتم لاقتلتهم قتل ثمود » (١) .

والغريب أن هذه الرواية وأمثالها في الصحيحين ذكرت مناسبة الحادثة يوم قسم رسول الله ﷺ الذهبية بين الزعماء الأربع ، ولعل الحادثة تكررت ، أما ذو الخويصرة التميمي فلم يرد ذكره إلا في هوان وغنائم حنين ، عن جابر بن عبد الله : (أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة ، منصرفة من حنين وفي ثوب بلا لف فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس فقال : يا محمد ، اعدل . قال : « وبilk ومن لم يعدل إن لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . . .) .

والروايات تتطرق من منطلق واحد ، من فكرة الجرأة على رسول رب العالمين في القول : (اتق الله) أو القول : (يا محمد ، اعدل) . وكيف ذكر رسول الله ﷺ أوصافهم فيما بعد ودعا إلى قتالهم ، علماً بأنه لم يسمح لعمر خليفة ولا خالد خليفة أن يضرب عنقه ، ويعمل ذلك ابن حجر بقوله :

(وقد استشكل قول : « لئن أدركتم لاقتلتهم » مع أنه نهى خالداً عن قتل أصحابهم ، وأجيب بأنه أراد إدراك خروجهم واعتراضهم المسلمين بالسيف ، ولم يكن ظهر ذلك في زمانه ، وأول ما ظهر في زمان علي كما هو مشهور) (٢) .

ومن حجر الأرض الوطى إلى أفق السماء العالى ، الذى تبرز فيه خامات هذه الأمة ورجالاتها ، والذين قد يخطر خاطر فى القلب أن رسول الله ﷺ قد نسيهم لفقرهم أو

(١) صحيح مسلم ٢/٧٤١ ح ١٤٣ / ١٠٦٤ . (٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/٦٩ .

لضالة نسبهم أو لدمامة وجههم ، ونذكر من هذا الافق عظيمين لا يكادان يعرفان في التاريخ الإسلامي .

أولهما : عمرو بن تغلب :

روى البخاري عن عمرو بن تغلب قال : أُعطي رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين ، فكانهم عتبوا عليه . فقال :

« إني أُعطي أقواماً أخاف هلעם وجزعهم ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله تعالى في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم عمرو بن تغلب » .

قال عمرو : فما أحببت أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم) (١) .

تري كم في قلبه من الجبال من الخير والغنى حين يكتفي أن رسول الله ﷺ قد ضم إلى هؤلاء الأتقياء الأخيار الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يذكروا ، ولا أدل على هذه العظمة النفسية من أنه لو سبق له طلاع الأرض من حمر النعم . لا مائة منها فقط ، لهم أقل وأهون عنده من كلمة الحبيب المصطفى فيه .

أي طاز من الرجال هذا الرجل الذي ترتفع نفسه شموخاً واستعلاه واستصغرأه للمال كلما وجده يوزع على الكبار ، الكبار من رؤساء القبائل لما أودع الله تعالى في هذه النفس من الخير والغنى ، وحتى لو بحثنا عن ترجمة له في كتب التراجم لم نجد له حدثاً يذكر ، لكن رب العالمين اختار رسوله لكي يعلم الأمة إلى يوم القيمة عن هؤلاء المكتظة قلوبهم بالخير والغنى ، وأن يعلم عن اسم واحدٍ منهم فقط هو عمرو بن تغلب . أما في الرواية الثانية فقد بقى جميعهم مجاهلوهون في عالم الشهادة ، عرائس في عالم الغيب .

(روى البخاري عن سعد بن أبي وقاص ثجيته قال : أُعطي رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس فترك منهم رجلاً هو أعجبهم إلى فقمت فقلت : مالك عن فلان ، والله إنني لأراه مؤمناً . فقال رسول الله ﷺ : « أو مسلماً » ذكر ذلك ثلاثة ، وأجابه بمثل ذلك ثم قال رسول الله ﷺ : « إني لاعطي الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكتبه الله تعالى في النار على وجهه ») (٢) . وذلك لما في قلبه من الهلع والجزع كما هو واضح في الحديث السابق .

فقلوب مكتترة عامرة بالخير والغنى ، وقلوب مكتترة مكتظة بالهلع والجزع ، وشتان شتان .

(١) البخاري ٤/١١٤ كتاب فرض الخمس .

(٢) البخاري ١/١٥٤ .

ويشاء الله تعالى أن يبرز لنا خاتمة مجهولة ، ذكرها الناس في الخندق ، وراحوا ينشدون بهذا الحدث السعيد :

سماه من بعد جعيل عمراً
وكان للكافر يوماً ظهراً

إنه جعيل بن سراقة الضمرى ، وكان يذكر بدمامة فى وجهه ، وبعد أن أعطاه رسول الله ﷺ هذا الوسام وهذه التسمية ، غدا علمًا محبوبًا عند المسلمين ، وراغ أحد المسلمين أن يرى رسول الله ﷺ لا يعبأ به يوم حنين ، وكان موضع احتفاء المسلمين يوم الخندق .

وللتعرف على هذا السبب نستمع لابن إسحاق ينقله لنا من حديث محمد بن إبراهيم ابن الحارث التميمي :

(أن قائلًا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه :

يا رسول الله ، أعطيت عيضة بن حصن ، والأقرع بن حabis مائة ، وترك جعيل ابن سراقة الضمرى . فقال رسول الله ﷺ :

« أما والذى نفسي بيده بجعليل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيضة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ولكن تالفهما ليسلاما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه » (١) .

ونفاجأ هنا بعالم من القيم مرتفع مع السموات العلي ، فهذا الدميم المجهول الذى يحسب السائل أن رسول الله ﷺ قد نسيه أمام الزعامات العربية الكبرى ، حين يوضع فى الميزان معهما لا نقول يمكن أن يصل إلى مستواهما لدينه وتقاه ، أو يكافئهما حين توضع الزعامة والمجد والشهرة مقابل الإيمان والتقوى .

ولكن نقول ما قال رسول الله ﷺ :

لو أن أهل الأرض جمِيعاً إنسهم وجنهم أولهم وأخرهم كانوا نماذج قادة شرفاء كباراً أغنياء أمثال عيضة بن حصن والأقرع بن حابس ، ووضعوا جمِيعاً في كفة ميزان واحدة . وجيء بذلك الدميم المجهول من قبائل سراق الحجيج في كفة أخرى ، لرجح جعيل على كل أهل الأرض وطلاعها من هؤلاء .

« ولجعليل بن سراقة ، خير من طلاع الأرض كلها مثل الأقرع وعيضة » .

وهكذا تبرز القيم العليا في هذا الدين، ويبرز رسول رب العالمين يعطي الأفراد قيمتهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٦/٢

على ضوء عقidiتهم ودينهم، وأن هذا المال الذى يعطىهم إنما يتألف به قادة القبائل، وأبناءها على هذا الدين .

أما أن رسول الله ﷺ ينسى مثل هذه الطاقات . فمعاذ الله ، ولا أدل على ذلك من هاتين الحادثتين اللتين ينقلهما لنا صحابيان مغموران كذلك :

أما الأولى فينقلها عبد الله بن أبي حدرد .

ونعيد إلى الذاكرة الشروة الضخمة التي كانت له :

(كان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حدرد الإسلامي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهل ، فلزمه فقال : أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله عز وجل قد وعدنيه خيراً أن يغنم إياها ، وكان عبد الله بن أبي حدرد من شهد الحديثة . فقال : يا أبي الشحم ، إنما نخرج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال . فقال أبو الشحم حسداً وبغيّاً : تحسب أن قتال خيراً مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها التوراة وعشرة آلاف مقاتل ، قال ابن أبي حدرد : أى عدو الله تخوفنا بعذونا ، وأنت في ذمتنا وجوارنا ؟ والله لا رفعتك إلى رسول الله . فقلت : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم ، فأمسكت رسول الله ﷺ ، ولم يرجع إليه شيئاً ، إلا أنني رأيت رسول الله ﷺ حرك شفتيه بشيء لم أسمعه ، فقال اليهودي : يا أبا القاسم ، هذا قد ظلمتني وحبستني بحقى وأخذ طعامي ، قال رسول الله ﷺ : « أعطه حقه ». قال عبد الله فخرجت ، فبعث أحد ثوابي ثلاثة دراهم ، وطلبت بقية حقه فقضيته ، ولبست ثوبى الآخر ، وكانت على عمامة فاستدفأت بها ، وأعطيتني سلامة بن أسلم ثوباً آخر ، فخرجت في ثوبين مع المسلمين وقلنلي الله خيراً ، وغنمته امرأة بينها وبين أبي الشحم قرابة بعثتها منه بمال)^(١) .

هذا الصعلوك اختاره رسول الله ﷺ ليكون خبيه في الحديث من بين الآلاف الثاني عشر في طريق عودتهما إلى الجعرانة، ويحدثنا عن هذه الصحبة فيقول: (كنت مع النبي ﷺ في مسيرة وهو يحادثني فجعلت ناقتي تلصق بناقه ، وكانت ناقتي ناقه شهمة ، فجعلت أريد أن أنحيها فلا تطاوعنى . فلصقت بناقة النبي ﷺ ، وأصيي رجله ، فقال : « أخ ، أو جعنتى » ، فرفع رجله من الغرز كأنها جمارة ، ودفع رجلى بممحجن فى يده ، فمكث ساعة لا يتحدث ، فوالله ما نزلت حتى ظلت أن سبزيل فى عذاب ، فلما نزلت قلت لاصحابي : إنما أرعى لكم ، ولم يكن ذلك يوم رعيتى ، فلما أرحت الظهر عليهم ،

(١) المغارى للواقدى ٢/٦٣٥ . وسبق أن علقتنا على الحادثة من قبل بما فيه الكفاية .

قلت : هل جاء أحد يبغيني ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك ، فقلت في نفسي : هي والله هي ... فخرجت خائفا حتى واجهت رسول الله ﷺ، فجعل يبتسم في وجهي وقال : « أوجعتك بمحجني البارحة » ثم قال : « خذ هذه القطعة من الغنم ». قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائقة) (١) .

وأما ثانى الرجلين فهو من سراق الحجيج كذلك ، أبو رهم الغفارى رضي الله عنه .

إذ يسوق لنا المقدمات نفسها التي جرت مع أخيه ابن أبي حمراد (.. فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعنى الظهر وما هو يومي ، فرقا أن يأتي رسول الله ﷺ يطلبني . فلما روحـت الركاب سالتـ : فـقـيل لـىـ : طـلـبـكـ رسـولـهـ ﷺ . فـقـلتـ : إـحـدـاهـنـ وـالـلـهـ ، فـجـهـتـ وـأـنـاـ أـتـرـقـبـ . فـقـالـ : إـنـكـ أـوـجـعـتـنـىـ بـرـجـلـكـ ، فـقـرـعـتـكـ بـالـسـوـطـ فـأـوـجـعـتـكـ ، فـخـذـ هـذـهـ الـغـنـمـ عـوـضـاـ عـنـ ضـرـبـيـ » واختلف السياقان بين الطعن بالمحجن ، والضرب بالسوط . لكن التبيجة واحدة . ولكن إذا أبرزت الحادثة الأولى عدد الضأن ثمانين ، فقد أبرزت الحادثة الثانية أجمل بalf مرة من عدد الضأن ، أبرزت مكتون قلب أبي رهم الغفارى إذ يقول : (فرضاه عنى كان أحب إلى من الدنيا وما فيها) (٢) .

لقد غدت دنياهم كلها تباع بربا حبـبـهـمـ وـقـائـدـهـمـ رسـولـهـ ﷺ ، أما رسـولـهـ ﷺ فهو يقصـ أـقـلـ أـصـحـابـهـ منهـ ، وـيـعـوـضـ عـلـيـهـمـ وـخـزـاتـ الـمـ نـزـلـتـ بهـمـ بـعـشـراتـ النـعـاجـ .

فالترية الجماعية التي تمـ اليومـ لا تسحقـ الفـردـ باـسـمـ هـذـهـ التـرـيـةـ ، كـمـاـ هـيـ النـظـمـ الحـدـيـثـةـ التـيـ تـضـحـىـ بـعـشـرـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ الـأـمـةـ مـنـ أـجـلـ استـقـرـارـ النـظـامـ الشـيـوـعـيـ فـيـهـ ، وـتـسـحـقـ خـمـسـيـنـ مـلـيـونـاـ وـتـبـيـدـهـمـ إـنـ وـقـفـواـ فـيـ طـرـيقـهـ ، وـيـتـحـولـ شـعـبـهـ كـلـهـ إـلـىـ أـرـقـامـ فـيـ سـوقـ النـخـاسـةـ مـسـتـذـلـ كـالـعـبـيدـ لـاـ يـحـقـ لـهـ أـنـ يـتـمـلـكـ درـهـمـاـ وـاحـدـاـ حـتـىـ لـاـ يـكـونـ مـسـتـقـلاـ ، وـيـسـاقـ كـلـهـ إـلـىـ الـمـوـتـ عـنـدـمـاـ تـقـعـ الـحـرـبـ الطـاحـنـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـأـمـمـ الـأـخـرـىـ ، هـذـهـ الـأـنـظـمـةـ الجـمـاعـيـةـ التـيـ تـسـحـقـ الـفـردـ هـىـ غـيـرـ مـاـ نـشـهـدـ مـنـ التـرـيـةـ الجـمـاعـيـةـ لـلـأـمـةـ ، وـمـاـ يـسـاقـ لـكـبـارـ الـقـادـةـ مـنـ أـمـوـالـ وـأـنـعـامـ لـاـ يـفـقـدـ الـفـردـ حقـهـ مـنـ عـطـاءـهـ ، إـنـمـاـ هـؤـلـاءـ يـاخـذـونـ مـنـ خـمـسـ رسولـهـ ﷺ ، وـتـبـقـيـ الـأـرـبـعـةـ أـخـمـاسـ مـلـكـاـ لـلـمـجـاهـدـيـنـ الـقـاتـلـيـنـ مـنـ أـفـرـادـ الـأـمـةـ ، وـلـاـ نـسـىـ قـبـلـ الـاـنـتـقـالـ إـلـىـ الـظـاهـرـةـ الجـمـاعـيـةـ مـنـ عـتـبـ الـأـنـصـارـ أـنـ تـنـحـدـثـ عـنـ هـذـاـ الـعـطـاءـ الـذـىـ لـاـ تـعـرـفـ الـخـلـيـقـةـ مـثـلـاـ لـهـ إـلـاـ فـيـ الـجـنـديـةـ لـلـحـبـبـ المصـطـفـيـ ﷺ :

إـذـ نـحـنـ نـلـتـقـيـ مـعـ أـمـثـالـ ذـيـ الـخـوـيـصـرـةـ التـعـيـمـيـ ثـانـيـةـ - مـنـ هـؤـلـاءـ الـأـعـرـابـ الـجـفـافـةـ - وـنـلـتـقـيـ مـعـ أـبـيـ مـوسـىـ الـأـشـعـرـىـ رـضـيـهـ ، وـنـعـودـ ثـانـيـةـ لـلـاـنـتـقـالـ مـنـ فـحـيـجـ الـأـرـضـ إـلـىـ شـعـاعـ السـمـاءـ .

(٢) سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـشـادـ لـلـصـالـحـىـ ٥٦٧/٥ ، ٥٦٨ .

(١) المـغـارـىـ لـلـوـاقـدـىـ ٩٤٠/٣ .

(روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رض قال : كنت عند رسول الله صل
وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال ، فأتى رسول الله صل أعرابي فقال : إلا
تنجزني ما وعدتني ، فقال له : « أبشر » فقال : قد أكثرت على من أبشر ، فأقبل على
أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال : « رد البشرى فاقبلا أنتما » قالا : قبلنا .

والإشارة للرعييل الأول من رسول الله صل ذات مذاق خاص ، ونكهة خاصة لا
يعرفها إلا هذا الجيل ، والذى يرى بكل ذرة من كيان رسول الله صل أو مست كيان
رسول الله صل تقدم حياتهم من أجلها ، فما هي البشارة التى قبلها ؟

(ثم دعا بقدح فغسل يديه ووجهه ومجّ فيه ثم قال : « اشربا منه ، وأفرغا على
وجوهكم ونحوركما » وأى عطاء يعدل هذا العطاء النبوى الذى خص أقرب الناس إليه
وأحبهم أبا موسى الأشعري ، وبلال بن رياح . هو نور يسرى فى هذين الكيانين وهداية
حتى يلقيا وجه ربهم ، فهو يريد لهذا العطاء أن ينشئ لهما عافية فى بدنهم ، فى
ظهورهما ونحوهما ، وعافية فى قلبهما ودينهما فيعصمهما من الفت والهلع والجزع ، لو
قيل لاي منهما : هل لك فى عشرة آلاف من الإبل ، أو تأخذ مع رسول الله صل فى
رجيع غسيل وجه النبي ويده ؟ لما كان عندهما مجالاً للمقارنة ، فهذه الذرات التى خالطت
فم المصطفى ووجهه ونحوه قد تطهرت ببريق النبوة ، واغسلت بهدى الوحي ، فأصبحت
نوراً يضيئ فى الوجود ، فأحب رسول الله صل هذا النور لصفين من أصحابه .
« اشربا منه ، وأفرغا على وجوهكم ونحوركما ، وأبشرا » .

فأخذوا القدح ففعلا ، وراحوا يتنافسان على حصتهما ، وإذا بشريك ثالث يطالب
بحقه من القسمة . فمن الشريك الثالث ؟

إنه أم المؤمنين أم سلمة رضوان الله عليها ، والعجب لام المؤمنين لا تشبع من
رسول الله صل ، فهى معه فى بيته تناول من رحيقه ، وتغسل معه فى إناء واحد ،
وتمضى ليلة كاملة معه كل تسع ليال ، وقد تشرب مع رسول الله صل من قدمه ، وتأكل
من طعامه ، مع هذا كله مالها ولهذه المجة ولهذا الرحيق من الغسيل تشارك بها الحبيبين
لال وأبي موسى ، ولكنه النور للذى أحسه ، وللذى عاشه ، كلما ازداد نهلاً كلما
ازداد ظماً وشوقاً ، ولذلك خافت أن تفوتها هذه الفرصة .

(فنادت أم سلمة من وراء الستر : أن أفضلا لأمكما ، فأفضلا منه طائفة) (١) .
ومضى الأعرابى محمراً وجهه يندب حظه أن فاته ما وعده محمد به متبرماً من

قوله : « أبشر » رافضاً هذه البشرة النبوية ، والتي تحولت لهذين الصاحبين ولام المؤمنين .
من لعاعة من الدنيا إلى رسول الله ﷺ :

وهي أول مرة في تاريخ هذا الدين مع حزب الله من الانصار ، لقد بُرِزَت بعض معاملها همساً بعد فتح مكة ، وها هي تسرى وتشيع في حنين .

روى ابن إسحاق والإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ، والإمام أحمد والشیخان من طريق أنس بن مالك ، والشیخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين ، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، وفي رواية : طفق يعطي رجالاً المائة من الإبل ، ولم يكن في الانصار شيء منها قليل ولا كثير ، فوجد هذا الحى من الانصار في أنفسهم حتى كثُرَ فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : يغفر الله تعالى لرسول الله ﷺ إن هذا لهم العجب ، يعطي قريشاً ، وفي لفظ : الطلاقاء والمهاجرين ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، إذا كانت شديدة فتحن ندعى ، ويعطى الغنيمة غربنا ، وددنا أن نعلم من كان هذا ، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا ، وإن كان من رأى رسول الله ﷺ استعتبناه .

وراحت المقالة تسرى في صحف الانصار على أكثر من صيغة ، حتى صيغت شعراً على لسان حسان بن ثابت ، ولأول مرة يدمج حسان بن ثابت شعراً يعاتب فيه حبيبه المصطفى ﷺ فهو طيلة حياته لا يصوغ إلا الثناء على رسول رب العالمين .

وها هو يكشف لاجع نفسه وهم قلبه :

زاد الهموم فماء العين منحدر
سحاً إذا حفلته عبرة درر
و جداً بشماء إذ شماء بهكنة
هيفاء لا ذلن فيها ولا خور
دع عنك شماء إن كانت مودتها
نزرًا وشر وصال الواصل التذر

وترى شماء ، اتجه إلى سيد الخلق قائلاً له :

واثت الرسول وقل يا خير مؤمن
للمؤمنين إذا ما عُذِّدَ البشر
علام تُدعى سليم وهي نازحة
قادم قوم همُوا آروا وهم نصروا

ولم يسبق لحسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الإسلام أن يسأل مثل هذا السؤال ، لرسوله الحبيب ، أو يبيع لنفسه أصلاً أن يفكر فيه ، أما أن يثنى على الانصار ، فجاهلاً بذلك :

سماهم الله أنصاراً بنصرهم
دين الهدى ، وعون الحرب تستعر
وسائلها في سبيل الله واعتراضوا
للنابات وما خافوا وما ضجروا

والناس إلَّا علينا فيك ليس لنا إلا السيف ، وأطراف القنا وزر

ولا عجب . فتاریخهم تاريخ هذا الدين كله :

نجالد الناس لا نبقى على أحد
ولا نهزم جنة الحرب نادينا
كمارددنا بيذر دون ما طلبوا
ونحن جندك يوم النعف من أحد
فما ونبنا وما خمنا وما خبروا
ولا نضيع ما توحى به السور
ونحن حين تلظى نارها سعر
أهل النفاق ففيما يتزل الظفر
إذا حزنت بطرأً أحرازها مُضر
منا عشاراً وكل الناس قد عثروا

وصدق حسان ، فالأنصار كما ذكر وأكثر وأعظم ، لكن نفس العتاب يتدنس كل
بيت ، فهل هذا جزاونا يا رسول الله أن تقدم علينا سليم ابنة البارحة .

ووصلت الأخبار إلى الحبيب المصطفى بهذا العتاب من أحب خلق الله إليه ،
وروايات الصحيح تتفى أن يكون سادة الأنصار قد شاركوا في هذا العتاب ، كما في
البخاري : (فقام النبي ﷺ فقال : « ما حديث بلغنى عنكم ؟ » قال فقهاء الأنصار :
أما رؤساونا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثة أستانهم ، فقالوا :
يغفر الله لرسول الله ، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقتصر من دمائهم) .

أما رواية ابن إسحاق فتؤكد أن العتب شمل أكثر الأنصار (فمشى سعد بن عبادة
إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك
في أنفسهم ؟ قال : « فيم ؟ » قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك ، وفى
سائر العرب ، ولم يكن فيه من ذلك شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « فلين أنت من
ذلك يا سعد ؟ » قال : ما أنا إلا أمرؤ من قومي .

أقدم ضيابه عليه الصلاة والسلام ، وأعلاهم رتبًا ، وأعظمهم كفاءة ، ولو كانوا
في ميزان هذا العصر ل كانت رتب الجيش العليا من عقيد إلى فوق منهم ، والقادة
ال العسكريون هُم الذين يتحكمون في مصير أنهم في ذلك التاريخ ، وهم إضافة إلى ذلك
قادة سياسيون هم أركان الدولة ، وعظاماء الأمة ، ولا يتقدم أحد عليهم أو يوازيهم إلا
المهاجرون ، وأكبر تجمع في الجيش النبوى إذ يقارب أربعة آلاف - بمعنى أنهم ربع الجيش
- وهم على قلب واحد، وهم قادرون على تنفيذ انقلاب عسكري ، أو تمرد على الأقل .
يعيد الأمور إلى نصابها ، كما لو صدر قرار بإيقاف رواتب هؤلاء جميعاً وتحويل الميزانية
كلها للوافدين الجدد الذين كانوا قبل شهر أو أقل من ألد أعداء هذا الدين .

وادرك سيد ولد آدم ﷺ أنه لابد من معالجة الأمر فقال لسعد :

« فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة - وفى لفظ فى هذه القبة - فإذا اجتمعوا فأعلمنى » .

فخرج سعد يصرخ فىهم حتى جمعهم فى تلك الحظيرة ، وقال أنس : فارسل إلى الانصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم يدع غيرهم ، فجاء رجال من المهاجرين فإذا ذكر لهم فيهم ، وجاء آخرون فردهم حتى إذا لم يبق أحد من الانصار إلا اجتمع له وأتاه فقال : يا رسول الله ، قد اجتمع لك هذا الحى من الانصار حيث أمرتني أن أجتمعهم ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « هل منكم من أحد غيركم ؟ » قالوا : لا يا رسول الله إلا ابن أختنا ، قال : « ابن أخت القوم منهم » .

جرى كثيراً في أمم الأرض بمثل هذه المناسبة ، وخشية على السلطة أن استدعيت قوات أخرى فأبادت الحاضرين جميعاً في مجزرة جماعية، وإذا كان الأمر أخف من ذلك، فإن يتم اعتقال جماعي لإيقاف مثل هذا التمرد ، وفي أرفع مستويات أهل الأرض أن يكون تأييب وتبيح وتهديد بالقضاء على كل اعتراف يمكن أن يتم فيما بعد ، وتقويق هؤلاء الضباط أو تسريحهم أو نفيهم حتى يقضى على الفتنة بجهدهما .

هذا ما تعرفه أمم الأرض في جوشها حين تقع مثل هذه الأزمات ، لكن ما جرى بين الانصار ، وبين رسول الله ﷺ أفق وضيء أعلى من النجم وأرقى من السماء لم تصل له البشرية في تاريخها ولن تصل إليه ، لأن مثل هذا الجيل الفريد لم يتكرر في التاريخ ، وهو الجيل الذي قال الله تعالى فيه عز من قائل :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْهَنُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صَدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أَوْتُوا وَيَؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر] .

وما أعتقد أن مثل هذا الثناء من رب العالمين ورد على أحد بعد الأنبياء والمرسلين مثل ما ورد على هؤلاء الانصار ، فهم جيل العطاء لا جيل الأخذ ، وما تم اليوم يتسرق مع مستواهم وأفقيهم الذي خصمهم الله تعالى به ، ولنمض معًا مع إمام المربيين في الوجود ، ونشهد كيف عالج رسول الله ﷺ هذه الأزمة الجماعية في أكبر تجمع في جيشه وحزبه ، وهو فقيه هذه النفوس وخبيرها .

(فقام رسول الله ﷺ خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلها ثم قال :

« يا معشر الانصار ، ألم أتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعاللة فاغناكم الله ؟ وأعداء فالله بين قلوبكم ؟ » وفي رواية : « متفرقين فالله ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ،

الله ورسوله أمنٌ وأفضل .

(وفي رواية : « لا تحييون يا معاشر الأنصار » . قالوا : وما نقول يا رسول الله ، وماذا تحييكم ؟ المنَّ لله ولرسوله) .

ولا شك أن شريط حياتهم قد استعادوه في هذه اللحظات ، واستعرضوا تاريخهم الدامى من الصراع الذى استمر بينهم مائة سنة ، ما ينتهي من حرب إلا ويقعون فى أخرى ، وأنهم كانوا يعيشون فى الضلال ، ويعبدون الأوثان والحجارة ، وهم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنقذهم وهداهم ووحدهم وأغناهم ، فلما كانوا عليه من قبل .

﴿ وَإِذْ كُرُوا نَعْمَتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْرَاجًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حَفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَدْتُكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ ﴾ (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

هذه حقائق خالدة ثابتة ، لكن أليس بجوارها حقائق أخرى من بلاء الأنصار ، وجهاد الأنصار ، وتضحيات الأنصار ، وأمام هذا الجانب النفسي الآخر ، جاء التقرير النبوى الثانى يقول :

« والله لو شتم لقلتكم فصدقتم وصدقتم : جنتنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفاً فأنمناك ، ومخدولاً فنصرناك ، ومكذباً فصدقناك » فقالوا : المنَّ لله تعالى ولرسوله .

وفي هذا الإكرام النبوى لهم ، تكاد تكون قصة العتب قد أجهضت كلها ، فهم يخشون شيئاً :

الشىء الأول : أن يكون نزل بهم سخط من الله ورسوله لذنب اقترفوه فحرموا العطاء من دون الناس جميعاً .

الشىء الثانى : أن يكون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نسيهم فى غمرة احتفاله بقومه وبالعرب وبإقبال الناس على هذا الدين .

وإذ إن الأمرين لا وجود لهما ، فلا غصابة من حرمان العطاء مهما كان شأنه ، فإن يقول لهم سيد الخلق مقرأً ومعترفاً بفضلهم : « ولو شتم لقلتم ، ولصدقتم ولصدقتم ، ألم تكن طريداً فآويناك ، ألم تكن ... » فهو أعظم شهادة من رسول رب العالمين بأنهم هم القياده وهم السادة وهم السابعون ، وكان من الممكن أن يتنهى الأمر بهذه الشهادة النبوية ، ويسعى العتب من الأنصار بناءً عليها .

ولكن الأفق النبوى الارحب والأعظم ، لا يكفيه من أحب خلق الله له أن يزول العتب من نفوسهم على غصة ، بل يريد أن يرتفع بهم أكثر وأكثر ، وها هو يمضي فى إتمام صياغتهم العليا التى تتناسب مع مقامهم الرفيع الورضى الذى لا يرقى إليه أحد ، ولتتابع هذه الفقرات التى تعرض أمامهم دوافع العطاء التى يرفضون على ضرورتها أن ينالوا شيئا :

«إنى لأعطي رجالاً حديثى عهد بکفر لأتالفهم بذلك» .

وفى رواية : «إن قريشاً حديثوا عهد بمصيبة وجاهلية ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتالفهم » وفى رواية : «أرجدتم يا معاشر الاتنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتم إلى إسلامكم » .

وأحسن الاتنصار العظام هنا أنهم سقطوا فى ودهة لا تتناسب مع مقامهم العالى ، وأحسوا بذلك الندم ، وغصة الذل أن يكون قد صدر منهم هذا ، وهم المؤمنون على هذا الدين ، وهم الذين يباهى الله تعالى بهم ملائكته فى ترفعهم عن الدنيا ، وفى فدائهم وتضحياتهم التى كانوا مثل المحتدى فيه ، إنهم الآن فى حالة من تبرع غصص الآلام لهذه الكبورة ولهذه الهفوة ، التى تجعلهم أدنى ما وصفهم به رسول الله ﷺ ، والفرق كبير وكبير بين الوجد والعتب أولاً ، ثم العفو على غصة ثانياً ، ثم تبرع آلام غصص الندم أن يكون صدر هذا منهم ثالثاً .

ولكن البناء العظيم لا يكفيه هذا الأفق ، فها هو يعطىهم من فيضه ومن مكتون حبه ومن مكتون ثقته ما خباء عليهم خلال هذه الفترة حفاظاً على قلوبهم من الطيران بالسعادة فى هذا المقام ، فهم عنده أكبر من قومه وأكبر من أهله ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : «ألا ترضون يا معاشر الاتنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم تحوزونه فى بيوتكم ، فوالله ملن تنقلبون به خيراً مما ينقلبون به » .

وإذا الدنيا غير الدنيا ، وإذا الخلق غير الخلق ، وإذا الاتنصار ترتفع قلوبهم وترتفع ، وتسمو وتسمو ، وتترع بالحب وترتع ، وإذا البكاء والنحيب هو مخلصهم من هذه الهفوة ، وهو الحل لما آبوا به من الفضل . آبوا برسول الله ﷺ من دون خلق الله جميماً .

وفي جو هذا البكاء ، وفي جو هذا النحيب ، تقدم العطایا ، وتقديم الهبات بلا حد ولا قيد ، عطايا لا يعرف فضلها إلا أصحابها ، عطايا نبوية وهبات نبوية بعد أن وهب رسول الله ﷺ لهم ذاته أن يكون المحيا محياهم والممات مماتهم ، يتفجر هذا العطاء النبوى بالقول :

« فوالذى نفس محمد بيده ، لو سلك الناس شعباً ، وسلك الانصار شعباً لسلكت
شعب الانصار ». .

« والله لولا الهجرة لكنت امرأة من الانصار » .

« اللهم ارحم الانصار ، وأبناء الانصار ، وأبناء أبناء الانصار » .

رفقاً بهم يا سيد الخلق ، فما عادت قلوبهم تتسع لاكثر من هذا العطاء ، ومن هذا
الفيض تقاد قلوبهم تعصر عصراً ، وتصهر صهراً بحبك وفادائك ، والوجد بك لا عليك ،
والفداء لأنى ذرة تمسك بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وحياتهم .

رفقاً بهم يا سيد الخلق ، فقلوبهم قلوب بشر لم تعد تملك فيها ذرة واحدة لا تنبض
بالحب والود والوجد والفاء .

(ويکي القوم حتى أخضلوها خامهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً) .

وأراد رسول الله ﷺ أن ينزل بقلوبهم شيئاً ما بعد هذا الوجد والحب حتى لا تتلف ،
وكان أعظم ما أمل رسول الله ﷺ أن يأتيه الفتح بالبحرين ، وهى القطيف والإحساء ،
وهي ربيع العرب كلهم ، وواحة العرب كلهم ، لكنهم أبوا هذا التسكين ، ومضوا صعداً
في ذلك الإرتفاع .

(وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أراد حين إذ دعاهم أن يكتب بالبحرين
يكون لهم خاصة بعده دون الناس ، وهي يومئذ أفضل ما فتح عليه من الأرض)(١) .
لكنهم أبوا هذه اللوحة بالدنيا ، وأبوا أن يخالط قلوبهم شيء مع رسول الله ﷺ . (فقالوا :
لا حاجة لنا بالدنيا بعدك) .

وإن لذة تجرب حرمان الدنيا بالفوز برسول الله ﷺ لا يودون أن يعدل بها للذلة .

فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أن هذا الحرمان قد يستمر بعده وبعد وفاته عليه
الصلاوة والسلام ، لكنه معهم بين ظهرانيهم حياً وميتاً - صلوات الله عليه - إلى أن يرث
الله الأرض ومن عليها ، وسيسيقون معه وحده . . . وحده من دون الدنيا إلى أن يتلقوا معه
على الحوض . حيث الآية بعد نجوم السماء ، والناس يتزاحفون للوصول إلى رسول
الله ﷺ ، وهم هم الأوائل آنذاك في العطاء الريانى ثم في جنات النعيم : « إنكم ستجدون
بعدى أثرة شديدة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » ، وإنما هي ساعة قليلة من

(١) المغارى للواقدى ٩٥٨/٣ .

وفي صحة هذا النص شك ؟ إذ لم تكن البحرين قد فتحت على رسول الله ﷺ بعد ، وإنما كان ذلك
في العام الذى تلاه .

الدنيا ثم بعدها الآخرة ، وأنذاك يعرف الناس من هم سادات الدنيا في الوجود .

العودة إلى المدينة وانتهاء الدورة :

قال محمد بن عمر وابن سعد : انتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس الخامس ليالٍ خلون من ذى القعدة ، فأقام بالجعرانة ثلاثة عشر ليلة ، وأمر ببقاء المسئ فحبس بمجنية بناحية مَّرِ الظهران . قال في البداية : والظاهر أنه ﷺ أبقى بعض المفمن ليتألف به من يلقاء من الأغرب فيما بين مكة والمدينة ، فلما أراد الانصراف إلى المدينة ، خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلاً ، فأحرم بعمره من المسجد الأقصى ^(١) الذي تحت الوادي بالعدوة القصوى ، ودخل مكة فطاف وسعى ماشياً ، وحلق ورجع إلى الجعرانة ليلة ، وكأنه كان بائنا فيها ... فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمره ، غدا يوم الخميس راجعاً إلى المدينة ، فسلك في وادى الجعرانة حتى خرج على سرف ، ثم أخذ في الطريق إلى مَّرِ الظهران ، ثم إلى المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة - فيما رعنه أبو عمرو المدنى .

قال أبو عمرو : وكانت مدة غيته ﷺ من حين خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها ، وواقع هوازن ، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً .

هذا الشهراً والنصف يمر أمثالهما وعشرة أضعافهما آلاف المرات في التاريخ دون أن يذكر بهما حدث يذكر ، أما هذا الخامس والسبعين يوماً كان لها دور في تغيير تاريخ البشرية ، وخارطة الأرض . فقد انتهت خلالها الوثنية من الأرض العربية ، والتي كانت تتزعمها مكة المكرمة ، وفي البيت الحرام ، وفي جوار الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس لعبادته وتوحيده ، وغسلت عار عشر قرون عنها كانت تنوء تحت ظل هذا الشرك ، وعرف الشيطان أن دوره له على الأرض قد انتهت وصُفيت ، هذه الدورة هي الشرك بالله في جزيرة العرب ، فهو لن يعبد بعد اليوم ويتبع في الوثنية والشرك .

إن الشيطان قد يشـأن أن يعبد في أرضكم هذه ، ورضي فيما دون ذلك فيما تحقرـون من أعمالكم

وهل هناك أعظم من هذا الحدث في تاريخ البشرية في أن تتحرر ربقة التوحيد فيها من عبادة الشيطان إلى قيام الساعة ، وقد تم خلال هذه الدورة التدريبية صياغة أمة جديدة ، خلال ثلاثة أشهر تتجاوز عدد أفرادها عشرة آلاف جندي ، وهي تمثل سبعة أضعاف الأمة المسلمة المصاغة خلال عشرين عاماً ، وإن كانت لا تصل إلى مستواها بل دون مستواها

(١) المسجد الأقصى : المقصود به البعيد ، وليس المسجد الأقصى في القدس .

بكثير من ناحية الجوهر ، لكنها جماهير مجنة جاهزة لتجاهد في سبيل الله وحده ، وتخلص من ريبة القبيلة والعصبة لها إلى الانضمام إلى حزب الله الذي أصبح يقود البشرية نحو النور منذ هذا الوقت ، وإن قورنت هذه الجماهير من العشرة آلاف بالنماذج القيادية السابقة التي ثمت صياغتها حتى بيعة الرضوان ، فتبقى أدنى أفقاً منها بكثير ، لكنها إذا قورنت بالبشرية الهاابطة كلها دون تلك القمم القيادية ، فستبقى أعلى مرتفقى تصل إليه البشرية فيما بعد ، ويكفى شرفاً لها أن ذكرها الله تعالى في كتبه المقدسة ، حين تبرز في جبال فاران معلنة كلمة التوحيد في الأرض ، مقدمة التمودج الأعلى للبشرية سابقاًها وللاحقها بقيادة رسول رب العالمين .

وتحفلت هذه الدورة التدريبية كذلك خلال الخمس والسبعين يوماً المذكورة ، بانتهاء القوى المعادية وانضمامها للإسلام ، فسواءً مثلت بجميع أفرادها وزعاماتها كما هو الحال في هوازن أو مثلت في زعامتها كما هو الحال في قيم وعمر وغطfan وأسد ... لكنها تعنى أن القوة الوحيدة التي بقيت على الساحة في الحجاز وفي نجد هي قوة الإسلام ، والقيادة الوحيدة التي بقيت على الساحة الحجازية والنجدية هي قيادة رسول الله ﷺ ، اللهم إلا بعض الجيوب الصغيرة المتاثرة هنا وهناك ، والتي ستعلن تصفيتها النهائية بعد عام كامل من اليوم ، حين مضى على نبوته بصدر سورة براءة وقرأها على العرب كافة في يوم حجهما ، حيث كان نائب القائد الأعلى ووزيره الأول هو أمير الحج : أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

· وشهدنا في هذه الدورة التي خضع لها اثنا عشر ألف قائد وجندى من جميع المستويات والاختصاصات ، كيف ثمت التربية الفردية لكثير من النماذج ، وكيف ثمت التربية الجماعية ، وكيف تم بناء الدولة ، وكيف تم توحيد الكيانات المتفرقة كلها في كيان إسلامي موحد ، وندع الحديث للصالحي يحدثنا عن بعض الحكم في مقتطفات منه خلال هذه الدورة :

(...) الثاني : اقتضت حكمة الله تعالى تأخير فتح الطائف في ذلك العام لثلاثة يستأصلوا قتلاً ... وكما استأنى بهم من قبل لعل الله عز وجل أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئاً ، ناسب قوله ، بل استأنى بهم إلا يفتح حصنهم لثلا يقتلوا عن آخرهم ، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام القابل .

الثالث : ولما منع الله الجيش غنائم مكة فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبيلاً ولا أرضاً ، وكانوا قد فتوحوها بأنجحاب الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف وفيهم

حاجة إلى ما يحتاجه الجيش من أسباب القوة ، حرك الله سبحانه وتعالى قلوب المشركين في هوازن لحربهم ، وقذف في قلب كبيرهم مالك بن عوف إخراج أموالهم ونعمتهم وشأبهم وشيشهم معهم نزلاً وكراهة ، وضيافة لحرب الله تعالى ... فلما أنزل الله تعالى نصره على رسوله وأوليائه ، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم ولا في ذداريكم ، فأوحى الله تعالى إلى قلوبهم التوبة فجاؤوا مسلمين ، فقيل : من شكران إسلامكم واتيانكم أن ترد عليكم نساؤكم وأبناءكم وسيكيم و : ﴿إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧٠) [الأنفال] .

الرابع : اقتضت حكمة الله - تعالى - أن غنائم الكفار لما حصلت قسمت على من لم يتمكن الإيمان من قلبه من الطبع البشري من محبة المال ، فقسمها فيهم لتطمئن قلوبهم ، وتحجّم على محبتهم ؛ لأنها جابت على حب من أحسن إليها ، ومنع أهل الجهاد من كبار المجاهدين ورؤساء الانتصار مع ظهور استحقاقهم لجميعها ؛ لأنه لو قسم ذلك فيهم لكان مقصوراً عليهم بخلاف قسمه على المؤلفة لأن فيها استجلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضى رئيسهم ، فلما كان ذلك العطاء سبيلاً لدخولهم في الإسلام ، ولتهوية قلب من دخل إليه من قبل . تبعهم من دونهم في الدخول فكان في ذلك مصلحة عظيمة .

الخامس : ما وقع في قصة الانتصار ، اعتذر رؤساوهم بأن ذلك من بعض أتباعهم وأحدائهم ، ولما شرح لهم رسول الله ﷺ ما خفى عليهم من الحكمة فيما صنعوا رجعوا مذعنين ، وعلموا أن العنيمة العظيمة ما حصل لهم من عود رسول الله ﷺ إلى بلادهم فسلوا عن الشاء والبعير والسبايا بما حازوه من الفوز العظيم ومجاورة النبي الكريم حياً وميتاً ، وهذا دأب الحكيم يعطي كلّاً ما يناسبه) (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥٩٤/٥ ، ٥٩٥ .

الشاعران

هذان الشاعران هما : عباس بن مرداس ، وكعب بن زهير ، وكلاهما من فحول الشعراء العرب في الجاهلية ، تتحدث عن قصة انضمامهما لهذا الدين ، ودورهما في النزول عنه ، ودور التربية النبوية في إعادة صياغتهما على ضوء الإسلام .

أولاً : عباس بن مرداس :

أ - لقد كان عباس بن مرداس خصماً عنيقاً للإسلام والمسلمين ، ومن ورائه بنو سليم ، ولا ننسى :

أن محنة بشر معونة إنما كانت بقيادة عامر بن الطفيلي ، وجند قبائل من سليم ، ورجل وذكوان ، ونجد يخوض المعركة الشعرية ضد المسلمين ، ويقف بصف اليهود من بني النضير ضد المسلمين فيقول :

فبكُّ بنى هارون واذكر فعالهم
وقتلهم للجوع إذ كان مجداً
أخوات أذر الدمع بالدموع وابكيها
واعرض عن المكروه منهم ونكباً
فإنك لسو لاقيthem في ديارهم
لألفيت عما قد تقول منكباً
سراع إلى العليا ، كرام لدى الوعي
يقال لباغي الخير أهلاً ومرحباً^(١)

وذلك في مساجلة شعرية بينه وبين الشعراء المسلمين .

ب - ثم كان الانقلاب الهائل في أعماقه ، كما روى ابن هشام قال :

(كان إسلام عباس بن مرداس - فيما حدثني بعض أهل العلم بالشعر - وحديثه أنه كان لأبيه مرداس وثن يعبد ، وهو حجر كان يقال له : ضمار ، فلما حضر مرداس (أي حضره الموت) قال : أى بنى : اعبد ضمار ، فإنه ينفعك ويضرك ، فبینا عباس يوماً عند ضمار ، إذ سمع من جوف ضمار منادياً يقول :

أودي ضمار وعاش أهل المسجد
قبل للقبائل من سليم كلها
بعد ابن مرريم من قريش مهتد
إن الذي ورث النبوة والهدى
قبل الكتاب إلى النبي محمد
أودي ضمار وكان يعبد مرة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٢/٢ .

فحرق عباس ضمار ، ولحق بالنبي ﷺ فأسلم) (١) .

جـ- ولم يكن عباس بن مردارس السيد الأول في بني سليم، إنما كان الشاعر الأول.

ويحدثنا ابن سعد عن السيد الأول ، وعن وفادة سليم لرسول الله ﷺ فيقول :

(أخبرنا هشام بن محمد قال : حدثني رجل من بني سليم من بنى الشريد ، قال : وفد رجل منا يقال له قدر بن عماد على النبي ﷺ بالمدينة فأسلم وعاشه على أن يأتيه بالف من قومه على الخيل ، وأنشد يقول :

شددت يميني إذ أتيت محمداً بخير يد شدت بحجزة متزر
وذاك أمرؤ قاسمه نصف دينه وأعطيته ألف امرئ غير أعر

ثم أتى إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فخرج معه تسعمائة ، وخلف في الحى مائة ، فاقبل بهم يريد النبي ﷺ . فنزل به الموت ، فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه إلى العباس ابن مردارس وأمره على ثلاثة مائة ، وإلى الأخنس بن يزيد وأمره على ثلاثة مائة ، وإلى جبار بن الحكم ، وهو الفرار الشريدي وأمره على ثلاثة مائة ، وقال : اتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى ، ثم مات ، فمضوا حتى قدموا على النبي ﷺ ، فقال : « أين الرجل الحسن الوجه ، الطويل اللسان ، الصادق الإيمان؟ » قالوا : يا رسول الله دعاه الله فأجابه ، وأخبروه خبره ، فقال : « أين تكملة الآلف الذين عاهدنى عليهم؟ » قالوا : قد خلف مائة بالحى مخافة حرب كانت بيننا وبين كنانة . قال : « ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شيء تكرهونه » ، فبعثوا إليها ، فأتاه بالهدى - وهى مائة - عليها المنقع بن مالك - بن سليم ، فلما سمعوا ويد الخيل قالوا : يا رسول الله أتينا . قالوا : « لا ، بل لكم لا عليكم ، هذه سليم بن منصور ، قد جاءت » فشهدوا مع النبي ﷺ الفتح وحيثما ، وللمنقع يقول العباس بن مردارس القائد :

القائد المائة التى وفَّى بها تسعمائين فتم ألف أقرع) (٢)

دـ- وهو عباس بعد فتح مكة ينضم إلى الشعراء الإسلاميين ، ونجد له لأول مرة يشارك في فرحة الفتح بقوله :

الْفُ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاطَحَ مَسُومٌ
وَشَعَارُهُمْ يَوْمُ الْلَّقَاءِ مَقْدُومٌ
ضَنَكَ كَأْنَ الْهَامَ فِي الْخَتْمِ) (٣)

مَنَا بِكَةٌ يَوْمَ فَتْحِ مُحَمَّدٍ
نَصَرُوا الرَّسُولَ وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ
فِي مَنْزِلٍ ثَبَّتَ بِهِ أَقْدَامُهُمْ

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٠٨ / ٣٠٩ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٧ / ٢ .

(٣) الختم : الختام .

حرث سبابكها بنجد قبلها
الله مكّنه له وأذله
عود الرياسة شامخ عرنيه متطلع ثغر المكارم خضرم^(١)
حتى استقاد لها الحجاز الأدهم حكم السيف لنا وجد مزحم^(٢)
متطلع ثغر المكارم خضرم^(٣)

ومع أنه لم يكن هناك حرب تذكر في الفتح ، لكن سليمًا حاربت مع خالد في الخدمة ، وانتصرت على قلول قريش التي تجمعت تزيد المقاومة .

أما في حينين ، فقد كانت سليم أول من فرَّ في بداية المعركة ، ولعلها عادت فثبتت في الجولة الثانية ، وكان بلاؤها عاديًا في المعركة ، لكن الشعر الذي قدَّمه عباس بن مردار يضع سليم في المصفَّ الأولى ، وأن قينته بها تم النصر ، وعلى طريقة الشعر الجاهلي الذي يهول كثيراً ، وينسب لنفسه من البطولات أكثر بكثير من واقعه .

لقد احتل شعر عباس بن مردار السلمي الموقع الأول في الساحة الإسلامية ، وطفا على الشعراء المسلمين الأوائل ، ويکاد يكون شعر حينن كله لابن مردار ، فلا نشهد لحسان بن ثابت ولا لکعب بن مالك شيئاً في هذا الفتح ، وهذا هو الشيء الطبيعي ، فقد كانت حينن هبة ربانية لرسول الله ﷺ ، ولم يكن فيها ذلك القتال الرهيب بدليل نتائجها ؛ إذ لم يستشهد من المسلمين إلا اثنى عشر شهيداً ليس فيهم شهيد واحد من بنى سليم ، أما عباس فهو مكثر يکاد الشعر يغلبه ، وكما قال رسول الله ﷺ : بأبى أنت وأمي ، انى لأجد للشعر دبيباً على لسانى كدبب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بدأ من قول الشعر ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنین » وفي قول العباس هذا تعبير عن شاعرية أصلية ، فحين تواتيه المعانى لا يستطيع لها دفعاً ولا رداً ، فالشعر يتنزل على لسانه ، وتفيض به قريحته^(٤) .

وحيث لم يمر على إسلامه إلا فترة وجيزة . نجد في شعره تزاوج العنصرين الإسلامي والجاهلي ، حيث لم يكن قد تمت تربيته وصياغته بالتربيـة الكاملـة ، وتشير الروايات إلى أن رسول الله ﷺ جعل قائدهم الضحاك بن سفيان الكلابي الذي كان يعد بمائة فارس (وذكر أبو عمر في ترجمة الضحاك بن سفيان أن النبي ﷺ لما سار إلى فتح مكة كان بتو سليم تسعمائة ، فقال لهم - أى رسول الله ﷺ) :

« هل لكم في رجل يعدل مائة يوافيكم ألفاً » فوافاهم بالضحاك وكان رئيسهم . . .^(٥) .

(١) مزحم : كبير المراحمة .

(٢) خضرم : الجوارد الكبير العطاء .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٦/٢ .

(٤) ديوان العباس بن مردار السلمي . ت. د. يحيى الجبورى ، المقدمة ص ١٦ ، ١٧ .

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ٢٦٦/٣ ت (٤١٦٠) .

هـ- فعباس رضي الله عنه يفتح القصيدة الأولى برسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه :

بالحق كل هدى السبيل هداكما
في خلقه ومحمدًا سماكما

يا خاتم النباء إنك مرسل
إن الإله بنى عليك محبة

ليتقل بعدها إلى قومه بنى سليم وقادتهم الضحاك : فيفخر فيهم في عشرة أبيات :

جند بعثت عليهم الضحاكما
لما تكتفه العدو يراها
يغى رضا الرحمن ثم رضاها

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم
رجالاً به ذرب السلاح كأنه
يفشى ذوى النسب القريب وإنما

أما بنو سليم معه :

ضربياً وطعننا في العدو دراكا
أسد العرين أردن ثم عراكا
إلا لطاعة ربهم وهوها
معروفة وولينا مولاها

وبينو سليم معنفون أمامه
يمشون تحت لواهه وكأنهم
ما يرجون من القريب قرابة
هذا مشاهدنا التي كانت لنا

وكانما المعركة فقط بين بنى سليم وهوارن . وسليم اليوم مسلمة ، والعباس يفخر
بإسلامها .

وـ أما تصييده الثانية فعلى النسق نفسه منها :

عقد النبي لنا لواء يلمع
مجده الحياة وسؤددًا لا يتزع
بيطاح مكة والفتا يهزم
بالحق منا حاسر ومقنع

فهناك إذ نُصرَ النبي بالفتا
فزنا برأيته وأورث عقده
وغداة نحن مع النبي جناحه
كانت إجابت الداعي ربنا

ولا يجد حرجاً أن يقدم للمعركة وصفاً مجازياً للحقيقة لا يليق بمستوى الأدب مع
النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وكأنما الهزيمة واقعة بال المسلمين لو لا بنو سليم :

نُصرَ النبي بنا وكنما معشرًا في كل بائسة تضر وتتفع
بل يقلب الحقائق ويخل بمقام رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه إمعاناً في فخره بقبيلته .

ذُدنا غداتنذ هوارن بالفتا والخييل يغمراها عجاج بسطع
إذ خاف حدّهم النبي وأستروا جمعاً تكاد الشمس منه تخشع^(١)

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٢/٢ ، ٤٦٣ .

فسلميـمـ التـىـ كـانـتـ أـولـ الفـارـيـنـ - ورـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ الـذـىـ وـاجـهـ بـذـاتـهـ الشـرـيفـ جـمـعـ
الـثـلـاثـيـنـ أـلـفـاـ مـنـ هـواـزـنـ وـحـدـهـ يـصـبـحـ هوـ الـذـىـ يـخـافـ حـدـهـمـ وـسـلـيمـ - هـىـ الـتـىـ تـنـقـذـ
الـمـوـقـعـ :

حـتـىـ إـذـاـ قـالـ الرـسـوـلـ مـحـمـدـ أـبـنـيـ سـلـيمـ قـدـ وـفـيـتـمـ فـارـفـعـوـاـ
رـحـنـاـ وـلـوـلـاـ نـحـنـ أـجـحـفـ بـأـسـهـمـ بـالـمـؤـمـنـيـنـ وـأـحـرـزـوـاـ مـاـ جـمـعـوـاـ

فـلـوـلـاـ بـنـوـ سـلـيمـ عـنـدـ الـعـبـاسـ مـاـ كـانـ النـصـرـ ، وـحـقـيـقـةـ الـأـمـرـ أـنـ بـنـيـ سـلـيمـ كـانـوـاـ فـيـ
الـطـلـيـعـةـ أـوـلـ مـنـ فـرـأـمـ جـحـاـفـلـ الـشـرـكـ .

زـ - وـهـاـ هوـ يـعـلـنـ إـسـلـامـهـ أـمـامـ اـمـرـأـتـهـ الـتـىـ اـخـتـارـتـ الـشـرـكـ كـمـاـ تـقـولـ بـعـضـ الـرـوـاـيـاتـ :
فـإـنـ تـبـتـغـىـ الـكـفـارـ غـيـرـ مـلـوـمـةـ فـإـنـىـ وـزـيـرـ لـلـنـبـىـ وـتـابـعـ
وـلـاـ تـزـالـ أـلـفـ سـلـيمـ تـسـتـهـويـهـ كـلـمـاـ جـاءـ شـيـطـانـ الـشـعـرـ لـهـ :

فـجـثـنـاـ بـالـفـ مـنـ سـلـيمـ عـلـيـهـ لـبـوـسـ لـهـمـ مـنـ نـسـجـ دـاـوـدـ رـائـعـ
نـبـايـعـهـ بـالـأـخـشـبـينـ وـأـنـماـ يـدـ اللـهـ بـيـنـ الـأـخـشـيـنـ نـبـايـعـ
فـجـسـنـاـ مـعـ الـمـهـدـيـ مـكـةـ عـنـةـ بـأـسـيـافـاـ وـالـقـعـ كـابـ وـسـاطـعـ

إـنـ الـعـبـاسـ بـنـ مـرـداـسـ ؓـلـيـلـتـهـ لـمـ يـتـمـكـنـ أـنـ يـرـتفـعـ لـيـكـونـ شـاعـرـ الـمـسـلـمـيـنـ كـلـهـمـ ، وـإـنـاـ
الـفـضـيـلـةـ فـيـ ذـهـنـهـ أـنـ الـصـرـاعـ الـقـبـلـيـ قـائـمـ بـيـنـ يـدـيـ رسولـ اللـهـ ﷺـ ، وـمـهـمـةـ الشـاعـرـ أـنـ
يـحـافـظـ عـلـىـ أـمـجـادـ قـيـلـتـهـ أـمـامـ الـأـمـجـادـ الـأـخـرـىـ ، فـالـإـسـلـامـ حـاضـرـ مـعـهـ فـيـ كـلـ لـحـظـةـ ،
وـقـيـلـتـهـ كـذـلـكـ حـاضـرـةـ مـعـهـ فـيـ كـلـ لـحـظـةـ :

وـيـوـمـ حـنـينـ حـيـنـ سـارـتـ هـواـزـنـ
إـلـيـنـاـ وـضـاقـتـ بـالـنـفـوسـ الـأـصـالـعـ
صـبـرـنـاـ مـعـ الضـحـاكـ لـاـ يـسـتـفـزـنـاـ
عـشـيـةـ ضـحـاكـ بـنـ سـفـيـانـ مـعـتـصـ

وـهـوـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـحـربـ بـنـىـ عـمـهـ هـواـزـنـ فـيـ سـيـيلـ اللـهـ :

نـذـودـ أـخـانـاـ عـنـ أـخـيـنـاـ وـلـوـ نـرـىـ
مـصـالـاـ لـكـنـاـ الـأـقـرـيـنـ نـتـابـعـ
وـلـكـنـ دـيـنـ اللـهـ دـيـنـ مـحـمـدـ
رـضـيـنـاـ بـهـ فـيـ الـهـدـىـ وـالـشـرـائـعـ

أـقـامـ بـهـ بـعـدـ الـضـلـالـةـ أـمـرـنـاـ

حـ - وـرـضـىـ لـنـفـسـهـ أـنـ يـكـونـ شـاعـرـ بـنـيـ سـلـيمـ فـقـطـ ، كـمـاـ الـأـمـرـ فـيـ قـصـيـدـتـهـ الـخـامـسـةـ :

وأنا مع الهدى النبي محمد
بفبيان صدق من سليم أعزه
خفاف وذكوان وعوف تخالهم

ولا يتورع أن يجعل النصر إنما تم بهم ، فلم يتجرد بعد في ذهنه مفهوم النصر من
عند الله ، وأن الأمر بيد الله ينصر من يشاء :

بنا عزَّ دين الله غير تنحِلِ وزدنا على الحى الذى معه ضعفا
ويبدع بعدها من الناحية الفنية في وصف المعركة حتى ليصل النزوة مع الفحول من
الشعراء العرب :

فكائن تركنا من قتيل ملحَبِ وأرملة تدعوا على بعلها لهما
رضا الله ننوى لا رضا الناس نبتغى ولله ما يideo جميماً وما يخفى
ط - وهي المعانى تتكرر كل قصيدة بأسلوب جديد مبدع ، كما يideo ذلك فى قصيده
ال السادسة :

واذكر بلاء سليم فى مواطنها وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
 القوم هُم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر
 ولا يزال يصر أن عز هذا الدين إنما جاء من سليم :

ونحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عزآ ، وعند الله مدخل
لله ننصر من شئنا ونتصر وقد صبرنا بأوطاس استتنا
لو لا الملك ولو لا نحن ما صدوا حتى تأوب أقوام منازلهم
فما ترى معاشرًا قلوا ولا كثروا إلا قد أصبح منها فيهم أثر
ى - وتنق卜 عن المعانى الإسلامية غير الفخر بسلام فى قصيده السابقة ، فبأيتها ذلك
المدحى النبوى :

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تعد الأنفس
كما يفخر بتخليه عن عصبيته القبلية وهو يقاتل هوازن :
كفت العدو وقيل منها : يا احبسو
وغداة أوطاس شدنا شدة
ثذى ثمد به هوازن أبيس
تدعوا هوازن بالإخاوة يبتنا
حتى تركنا جمعهم وكأنه عَيْرٌ تعاقبه السبع مفرس

كـ - ويغاف أن يأتي أحد فيدعي أنه أقرب لرسول الله ﷺ منه ، أو يذكر بلاء في هذه الحرب غير بلاء سليم فيسد الطريق على الجميع في قصيده الثامنة :

ونحن خضبناها دمًا فهو لونها
غداة حنين يوم صفوان شاجره
وكنا على الإسلام ميمنة له
وكان لنا عقد اللواء وشاهره
يشاورنا في أمره ونشاوره
وكنا له عوناً على من ينكره
دعانا فسمانا الشعار مقدمًا
جزى الله خيرًا من نبي محمدًا
وأيده بالنصر والله ناصره

لـ - وتکاد تكون القصيدة الوحيدة التي اعترف فيها بفضل قبيلة أخرى إلى جوار بنى سليم وذلك في قصيده التاسعة :

فإن سراة الحى إن كنت سائلًا
سليمًا وفيهم منهم من تسلما
وجند من الاصار لا يخزلونه
اطاعوا فما يعصونه ما تكلما
ولا ينسى الثناء على خالد بن الوليد القائد العام لسلاح الفرسان :
فإن تك قد أمرت في القوم خالدًا وقدّمته فإنه قد تقدّمًا
بجند هداء الله أنت أميره تصيب به في الحق من كان أظلمًا
ويعود بعدها إلى ألفه وما فعلت في المعركة :

حلفت يميناً بسرة محمد فاكملتها ألفاً من الخيل ملجمًا
مـ - ومع أن يوم الطائف لم يكن فيه إلا رمي بالنبال ، ولم يكن فيه طعن بالقنا أو ضرب بالسيوف ، فهو يخص ثيقاً بهزيمتها يوم هوازن قائلًا :

إنى والسبعين يوم جمع
وما يتلو الرسول من الكتاب
لقد أحبت ما لقيت ثيف
تجنب الشعب أمس من العذاب
هم رأس العدو من أهل نجد
قتلهم ألد من الشراب
هزمنا الجمع جمع بنى قسى
وحكت برکها بيني رئاب

نـ - وبدل أن يجعل سعيه منصبًا للتلمندة في المدرسة النبوية فيدخل هذه المدرسة جنديًا عاديًا حتى يأخذ موقعه المناسب له في هذه المدرسة ، راح يشغل باله المنافسة مع زعيم بنى تميم وزعيم بنى غطفان ، وهما حتى هذا الوقت من خارج هذه المدرسة ، وأعلنا موقفهما بعد الغنائم حيث قال الجيش كله : ما كان لنا فهو لرسول الله ، فيما

يتعلق بالسبايا .

قال عينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا .

وكانت المفاجأة الصاعقة له ، أن رفضت بنو سليم رفضه ، فهى قد جاءت مهندية به راغبة فى الإسلام ولم تأت لتحقيق زعامة عباس وغيره ... وحين كانوا بنو تميم فى الجيش هم أزلام ابن حابس ، وكان بنو فزارة فى الجيش هم أزلام عينة وجنده ، فلم يكن بنو سليم كذلك ؟ إنما جاؤوا مهاجرين طائعين مختارين لا طمعاً فى الغنمة أو السبي ، وبذلك خذلوا عباس على الملا و قالوا : ما كان لنا فهو لرسول الله .

وعوضاً عن أن تقر عينه لتشرب الإسلام فى قلوب قومه ، راح يثار لذاته وهو يصاول هذين الزعيمين .

فقد رأى أنه أجهض بزعامته أمام قرينه ، فقال لقومه : لقد أوهتموني .

فالقضية لا تزال فى ذهنه قضية تناطح على الزعامة ، وقد ثلت هذه الزعامة بهذا الموقف الخارج عليه .

س - وكان الموقف الذى أفقده صوابه حين أعطى رسول الله ﷺ الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عينة بن حصن مائة من الإبل ، ولم يعطه إلا دون الخمسين ، فجين جنونه واعتبر أن هذا إنفاصاً من قدره ، وإجحافاً بحقه ، فهل عينة والأقرع خير منه حتى يعطيا المائة من الإبل وهو يأخذ الخمسين أو الأربعين ، وكل زعماء المسلمين العظام وعلى رأسهم رئيسه خالد بن الوليد وقادة المسلمين : أبو بكر وعمر ، وفارس الإسلام الأول على بن أبي طالب ، لم يعطوا شيئاً من ذلك . فلم يقس نفسه على أحد منهم ، إنما كل الذى يهمه فى هذه البداية المترامية الأطراف الا تمضى الركبان بالقول أن زعيم غطفان عينة ، وزعيم تميم الأقرع هما أعظم جاماً عند محمد ﷺ من شاعر سليم العباس بن مرداس ، وحضر شيطان الشعر عنده ليكون جاهزاً فى توجيه تساؤل لرسول الله ﷺ على لسانه فراح يردد :

كانت نهابة تلافيتها بكرى على المهر فى الاجرع

إذا هجع الناس لم أهجم

فالذى حال بينه وبين الحصول على الغنائم هو انشغاله بحرب المشركين ، وبعدها

يأخذ المترجون في المعركة أكثر منه نصيّباً من الغنائم ، وهو على فرسه العبيد يصول ويتحول ويقف في ظهور المشركين .

فأصبح نهبي ونهب العب
يدين عبيبة والأقمع
وقد كنت في الحرب ذا تُدرا
فلم أعط شيئاً ولم أمنع
إلا أفال (١) أعطيتها
عديد قوائمها الأربع
وهل نسب زعيم تميم وزعيم غطفان أعظم نسباً مني ؟
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
وهل مما أعظم غناً وسؤداً منه حتى أعطياً أكثر منه ؟

وما كنت دون أمرئ منها ومن تضع اليوم لا يرفع
وإذا ثبت هذا العطاء ، فستمضي عاراً عليه أنه دون هذين الزعيمين (ومن تضع
اليوم لا يرفع) .

٤ - واستدعى رسول الله ﷺ العباس بن مرداس الذي رأى النور بعينه وسمع النداء
من داخل صنمته ضمار يدعوه للانطلاق لدين الله ، فماله يضع نفسه مع هؤلاء الزعماء
الطاumين في المعلم والرياسة . فكلمه بصفته جندياً في الدعوة - كما في بعض الروايات :
« أتفول فيَّ الشعر ؟ » .

وأحس بندم شديد ، فاعتذر بقوله :

بابي أنت وأمي ، إنني لأجد للشعر ديباً على لسانك كدبب التمل ، ثم يقرضني كما
يقرض النمل فلا أجد بدأً من قوله .

وفي رواية موسى بن عتبة عن الزهرى : (فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه فقال :
« أنت القائل : أصبح نهبي ونهب العبيدين الأقمع وعيينة ») فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :
بابي أنت وأمي لم يقل كذلك ، ولا والله ما أنت بشاعر ، وما ينبغي لك ، وما أنت
براويه ... فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا عن لسانه » ففزع منها ، وقالوا : أمر
عباس بن مرداس يمثل به ، وإنما أراد رسول الله ﷺ بقوله : « اقطعوا عن لسانه » أي
يقطعواه بالعطية من الشاء والغنم) (٢) .

وتقول رواية ابن إسحاق : فأعطيوه حتى رضى أو (فزادوه حتى رضى فكان ذلك
قطع لسانه) (٣) .

(١) الأفال : جمع أفال وهي الصغار من الإبل .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١٨٢/٥ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٥/٢ .

لكن هناك رواية أورتها كتب الأدب ولم تروها كتب السيرة :

(فقال رسول الله ﷺ : « قم يا على فاقطع لسانه ». قال العباس: فقلت يا على ، وإنك لقاطع لسانى ، قال : إنى عما ف Vick ما أمرت ، فمضى حتى أدخلنى الحظائر . فقال : اعدد ما بين الأربعين إلى المائة ، قلت : بأبى أنت وأمى ما أحلمكم وأعلمكم وأكركم ، فقال : إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعين ، وجعلك من المهاجرين ، فإن شئت فخذها ، وإن شئت فخذ مائة وكن من المؤلفة قلوبهم . قال : أشر على ؟ قال : إنى أمرك أن تأخذ ما أعطاك فأخذتها) (١) .

فهو مخير بين أن يلتحق بركب المهاجرين ، ويرضى بما قسم له رسول الله ﷺ ، وبين أن يلتحق بركب المؤلفة قلوبهم ، فعندئذ يتساوى مع عيضة بن حصن ، والآخر بن حابس .

وهو مستوى تربوى عظيم يحرك فى نفسه الصراع بين الهدى والزعامة ، وحين طلب رأى على ثقته نصحه بأن يختار الهدى على الزعامة والهجرة على السمعة والسيادة . وهى خطوات يمضى بها النبي ﷺ فى صحبه ، حتى يتنهى بهم إلى الصف الإسلامى بعد أن كانوا ألد أعدائه .

لقد كان العباس بن مرداش شاعرًا مطبوعاً ، وكان مضطرباً بين انتقامه الإسلامى ، وبين انتقامه القبلى ورسول الله ﷺ يمضى به صعداً ليلحق بركب الإسلام الخالص النقي بعيد عن الشوائب ، وكان قتاله فى شعره يفوق كثيراً قتاله فى واقعه ، فكان كما وصفه عبد الملك بن مروان حين سأله جلساه : من أشجع الناس فى شعره ؟ فتكلموا فى ذلك فقال : أشجع الناس فى شعره العباس بن مرداش فى قوله :

أكر على الكتبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها (٢)

ثانياً : كعب بن زهير :

وهو ابن زهير بن أبي سلمى أحد الأربعه الكبار من أئمه الشعر الجاهلى ، والذى كان عمر ثقته يفضله على رفاته ، وهو من مزينة .

وندرج مع كعب من البدايات ، حيث نضجت شاعريته ، فى صغره فاذهلت الكبار .

١ - (قال ابن أبي الدنيا ... عن الشعبي قال : أنشد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر :

(١) زهر الأدب للحضرى القيروانى ٩٣٨/٢ ، ٩٣٩ . ت . على الباوى .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/٤ ت : ٤٥) .

تراك الأرض إمامت حقاً وتحسي ما حيت بها ثقلاً

فقال له النعمان بن المثذر : إن لم تأت بعده بيته يوضح معناه وإنما كان إلى الهجاء أقرب ، فتعسر على النابغة النظم ، فقال له النعمان : قد أجلتك ثلاثاً ، فإن قلت ، فلك مائة من الإبل العصافير وإنما فضريبة بالسيف باللغة ما بلغت ، فخرج النابغة وهو وجل فلقى زهير بن أبي سلمى ، فذكر ذلك له . فقال : اخرج بنا إلى البرية ، فتبعهما كعب فرده زهير ، فقال له النابغة : دع ابن أخي يخرج معنا ، وأردفه فلم يحضرهما شيء ، قال كعب للنابغة :

يا عم ، ما يمنعك أن تقول :

وذلك إن فللت البغي عنها فتمنع جانيها أن تيلا

فاعجب النابغة ، وغدا على النعمان ، فأشده ، فأعطاه المائة ، فوهبها لكتاب بن زهير فأبى أن يقبلها ، وذكرها ابن دريد في آماليه على غير هذا الوجه قال : عن ... ابن الكلبي قال :

زار النابغة زهيراً ، فنحر له وأكرمه ، وجاء بشراب فجلسا ، فعرض لهما شعر ، فقال النابغة البيت الأول ، وقال بعده : نزلت بمستقر العز منها ، ثم وقف فقال لزهير : أجز ، فهمهم ولم يحضره شيء ، وكان كعب حيئاً يلعب مع الصبيان بالتراب ، فاقبل فرأى كلاماً منها ذقنه على صدره ، فتفكير فقال : يا أبا مالى أراك مغتماً ، فقال : تنح لا ألم لك ، فدعاه النابغة فوضعه على فخذه ، وأشده فقال ، ما يمنعك أن تقول : فتمنع جانيها أن تيلا . فضمه أبوه إليه وقال : أبني ورب الكعبة .

وقال أبو أحمد العسكري : وكان موت زهير قبل المبعث (١).

ب- ويبلغ كعب مبلغ الرجال مع أخيه بجير ، ويكون الإسلام قد ضرب بجرانه في الأرض ، وخاصة في بني مزينة - فيخرجان قبيل الفتح - كما روى الحجاج بن ذي الرقية بن عبد الرحمن بن كعب بن زهير عن أبيه عن جده قال : (خرج كعب وبجير حتى أتيا أثرب ، فقال بجير لكتاب : أثبت في غمننا هذا حتى آتني هذا الرجل فأسمع ما يقول : فأسلم ، فبلغ ذلك كعباً فقال :

الآ أبلغـاـ عنـيـ بـجيـراـ رسـالـةـ
علـىـ أـيـ شـيـءـ رـبـ غـيرـكـ دـلـكاـ
علـىـ خـلـقـ لمـ تـلـفـ أـمـاـ وـلـاـ أـبـاـ
سـقاـكـ أـبـوـ بـكـرـ بـكـأسـ روـيـةـ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٣٠٢ / ٥ / ٣٠٣.

فبلغت أبياته رسول الله ﷺ فقال : « من لقى كعباً فليقتله » وأهدر دمه) (١) .

جـ- أما بعير فقد مضى جندياً في دعوة الإسلام يذود عن حماها ، فشاعرنا في التغنى بامجاد الفتح قائلاً :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| نفى أهل الحبلق) (٢) كل فيج | مزينة غدوة وبنو خُفاف) (٣) |
| ضربناهم بمكة يوم فتح النبي | الخير في البيض الخفاف |
| صيبحناهم بسبعين من سليم | والله من بنى عثمان) (٤) واف |
| نطا أكتافهم ضرباً وطعنًا | ورشقاً بالمريةة الطاف) (٥) |

وإذا كان شاعرنا العباس بن مرداس كما رأينا من قبل يقصر معركته على بنى سليم ، فبغير عليه السلام يعرض مزينة وسلام معًا ، ويصف لنا المعركة وصفًا لطيفًا هادئًا ليس باندفاع العباس قبله :

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| ترى بين الصدوف لها حفيًا | كما انصاع الفواق من الرصاف |
| فرحنا والجياد تحجول فيهم | بأرماح مقومة الثقاف |
| فأبنا غافلين بما اشتاهينا | وابسو نادمين على الخلاف |
| وأعطيننا رسول الله منا | مواثقنا على حسن التصافي |
| وقد سمعوا مقالتنا فهموا | غداة الروع منا بانصراف) (٦) |

دـ- وبعد حنين والطاف نجده ينصلح في مدرسة النبوة ، ويبتعد عن الحديث عن مزينة وسلام وغيرها ويصبح الشاعر الإسلامي للMuslimين جميـعاً فيقول :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| لولا الإله وعده وليت | حين استخف الرعب كل جبان |
| بالجزع يوم حبالنا أقراننا | وسوابع يكبون للأذقان |
| من بين ساع ثوبه في كفه | ومقطر بستانك ولبان) (٧) |

(١) الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر ٣/٥٥ ت (٧٤٠٥) .

ونرجح أن إهدار دمه لم يكن لهذه الآيات فقط ، إنما هناك شعر كثير هجاً كعب فيه رسول الله ﷺ فأهدر دمه ، بدليل قول بعير لأخيه فيما بعد (إن رسول الله قتل رجالاً بمكة من كان يهجوه ويؤذيه ...) .

(٢) قال السهيلي : الحبلق : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس ، والحبلق : الغنم الصغار ، ولعله واد لاصحاب الغنم .

(٣) بنو خفاف : بطون من سليم . (٤) بنو عثمان : مزينة قبيلة الشاعر .

(٥) المريةة الطاف : كنابة عن السهام . (٦) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٥/٢ . ٤٢٦ .

(٧) مقطر بستانك ولبان : قد أصابته الجراح وأصابت خيله .

والله أكرمنا وأظهر ديننا
وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرق جمعهم
ونلحظ التحول الكبير في أعماق بجير رضي الله عنه ، فها هو يعيد النصر لله عز وجل ،
والثبات لتوقيته ، وذلة العدو لغضب الله تعالى عليه ، ولم يعد الأمر فخراً بالقبيلة
والنسب والعشيرة ، وما نقله لنا ابن هشام كذلك يحدد المعركة تماماً كما وقعت ودور
رسول الله صلوات الله عليه وسلم وثباته ، وثبات الأنصار ، واستجابتهم للنداء النبوى الحالى :

إذا قام عم نبكم ووليه يدعون يا لكتيبة الإيمان

أين الذين هم أجبوا ربهم يوم العريض وبيعة الرضوان

فالفضل لكتائب المهاجرين والأنصار الذين تربوا من قبل ، وصاروا قادة الأمة ،
وهم أصحاب بيعة الرضوان ، وقد يكون المذنبون فيها بضعة أفراد أو بضعة عشر ، فلا
يضره ذلك أو يصرفه عن الثناء على الذين استجابوا لنداء رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وكانوا
القتل اللحمية التي صدت الهجوم وأوقفته .

هـ-- ومع أن الانحسار عن الطائف تحمل جراحًا في النفوس ، لكن شاعرنا جعل
منها عزًا لا يضام ويربط بينها وبين هزيمة حنين :

كانت علاله يوم بطن حنين وغداة أوطاس ويوم البرق ^(١)

جمعت بإغواه هوازن جمعها فتبدوا كالطائر الممزق

وشعر بجير شعر خاطف ، فهو ينهى هوازن كالطائر الممزق حين لاقت المسلمين
وفي جولتها الثانية :

لم ينعوا منا مقامًا واحدًا إلا جدارهم وبطن الخندق

ولقد تعرضنا لكيما يخرجوا فتحصنا منا بباب مغلق

ويعرض جانب الرعب والخوف عندهم حين لم يجرؤوا على المواجهة :

ترتد حسرانا ^(٢) إلى رجراجة ^(٣) شهباء تلمع بالمنايا يا فيلق ^(٤)

والجيش الإسلامي جيش أسود ، لا تجرؤ ثقيف أن تبرز له :

(١) البرق : الخيل الملوك .

(٢) حسرانا : جمع حسر وهو المعنى الكليل ، وقد تكون جمع حاسر .

(٣) الرجراجة : الكيبة الضخمة .

(٤) الفيلق : الجيش الكثير الشديد من الفلق : وهي الذاهية .

حضرنا^(٢) لظل كأنه لم يخلق
قدْرُ تفرقُ فِي القيادِ وتلتقي
كالنَّهِي هبَتْ ريحَه المترافق
جُدُلُّ نسج داود وَأَكْ محرق

ملمومة (١) خضراء لو قذفوا بها
مشي الضراء على الهراس كأننا
في كل سابقة إذا ما استحصنت
جُدُلُّ نسج فضولهن نعالنا

فهو يصف ذلك الحديد المحمي والحسك الذي وصفوه بين ظهراني المسلمين ، مثل الآساد التي تخوض بين الأشواك ، وقد لبست دروعها الحصينة وقد نسجت على يد آل داود الذي علمها ﴿ صنعة لَوْسٍ لَكُمْ لِتُعْصِنُكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ فَهُلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٦)﴾ [الأنبياء] .
ونكاد لا نجد لخصار الطائف وصفاً حياً مثل هذا الوصف .

- وتنضي حنين والطائف ويفترق الأخوان كل في معسكر ، هذا في كتبة الإيمان ، وأخوه كعب في جند الشيطان ، وتأخذ القضية أبعاداً أكبر إذ يتبدلان القصائد في هجاء بعضهما ، وابتدأ المعركة كعب بن زهير ضد أخيه بجير قائلاً :

| | |
|--|---|
| فهل لك فيما قلتُ وبِحِكَّ هل لـكَا | ألا أبلغـاً عنـي بـجـيرـاً رسـالـة |
| على أي شـئ غيرـ ذـلك دـلـكـا | فـبـيـنـ لـنـاـ إـنـ كـنـتـ لـسـتـ بـفـاعـلـ |
| عـلـيـهـ وـمـاـ تـلـفـيـ عـلـيـهـ أـبـاـ لـكـا | عـلـىـ خـلـقـ لـمـ تـلـفـ أـمـاـ وـلـاـ أـبـاـ لـهـ |
| وـلـاـ قـائـلـ إـمـاـ عـشـرـتـ لـعـاـ لـكـا | فـإـنـ أـنـتـ لـمـ تـفـعـلـ فـلـسـتـ بـآـسـفـ |
| فـأـنـهـ لـكـ المـأـمـونـ مـنـهـ وـعـلـكـا | سـقاـكـ بـهـاـ الـمـأ~مـونـ كـأـسـاـ روـيـةـ |

قال ابن هشام : ويروى (المؤمن) قوله : (فَيْنَ لَنَا) عن غير ابن إسحاق ويُعث بها إلى بجير ، فلما أتت بجيرًا كره أن يكتُمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع : (سقاك بها المؤمن) : « صدق وإنك لذنوب ، أنا المؤمن » ولما سمع : (على خلق لم تلف أمًا ولا أبا له عليه) قال : « أجل لم يلف عليه أبوه ولا أمه ». ثم قال بجير لكتب :

| | |
|--|--|
| تلومـ عـلـيـهـ بـاطـلـاـ وـهـيـ أحـزـمـ | مـنـ مـبـلـغـ كـعـبـاـ فـهـلـ لـكـ فـيـ التـىـ |
| فـتـنـجـوـ إـذـاـ كـانـ النـجـاءـ وـتـسـلـمـ | إـلـىـ اللـهـ -ـ لـاـ العـزـىـ وـلـاـ الـلـاتـ -ـ وـحـدـهـ |
| مـنـ النـاسـ إـلـاـ طـاهـرـ الـقـلـبـ مـسـلـمـ | لـدـىـ يـوـمـ لـاـ يـنـجـوـ وـلـيـسـ بـمـفـلـتـ |

(٢) الحَضْنَ : جبل بأعلى نجد .

(١) ملمومة : مجدة .

فدين زهير وهو لا شيء دينه ودين أبي سلمى على محرم (١)

لقد فرقت العقيدة بين الأخرين ، وتلحظ أن بجيراً أشدق على أخيه كعب ، فهو يدعوه بحرارة إلى الإسلام ويحذره مغبة إصراره على الكفر ، وإن كان بقى على ما هو عليه ، فبجيراً بريء من دين آبائه وأجداده :

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

[المتحدة : ٤]

ز- وعندما كان يصلو كعب في حرية للإسلام ، كان في صف كبار الشعراء أمثال ابن الزبيري ، وضرار بن الخطاب ، وأبي سفيان بن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب ، والخطيبة ، وعباس بن مرداس ، أما وقد فتحت مكة فقد انهار الصف كله بين معتقد للإسلام ، وبين فار بدينه ودمه بعد أن أهدر ، يبحث في الأرض عن منجاة له من محمد ، و ساعتد يفك التفكير الصحيح بعد أن زال عنه انتفاش الباطل وعز السلطان . وأدرك بجيراً خواصه هذا الظرف الدقيق المناسب لإعادة التفكير في الموقف لدى الرجال . ويروح الداعية المسلم الحريص على هداية أخيه كتب له الكتاب الآتي وفيه :

(... إن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة من كان يهجوه ويؤذيه ، وإن من بقى من شعراء قريش ، ابن الزبيري ، وهبيرة بن أبي وهب ، قد هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة ، فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فاتح إلى مجائبك من الأرض) (٢) .

قال ابن إسحاق : (فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض وأشدق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شيء بدأ ، قال قصيده التي يمدح بها رسول الله ﷺ ، وذكر فيها خوفه وإرتجاف الوشاية به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة ...) (٣) .

ح- لاشك أن الهواجس التي كانت تملأ كيانه - وهو يراجع رصيده ، وما قاله في هجاء رسول الله ﷺ - تربى الموت رأى عين ، وهو هو يمضى ليضع نفسه بين مخالب الأسد ، ومع ذلك فيسمع عن أولئك القادة الأعداء الذين ملؤوا الدنيا حريراً ضد محمد شرعاً وسيقاً ، وكيف أنهم نالهم عفو محمد ، وصاروا من أكرم جنوده وأتباعه ، فلم لا يكون واحداً من هؤلاء ، ولم يكن كعب يدرى أنه سيدخل التاريخ بهذه القصيدة التي

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٥٠١ / ٢ ، ٥٠٢ .

(٢) السيرة النبوية لأبن هشام ٥٠٢ / ٢ .

٥٠١ .

أعدها ليلقىها بين يدي رسول الله ﷺ بعد إسلامه ، وأن المحبون والمادحون من الشعراء سينهجون نهجه حتى تقوم الساعة ، وكل ما يخشأه أن يغتال قبل الوصول إلى محمد بن عبد الله فيستأمن عنده ، وها هو الآن على مشارف المدينة .

(ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة من جهة - وفي رواية أنه نزل على أبي بكر الصديق - فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ، فقال : هذا رسول الله ، فقم إليه فاستأمنه - فذكر لى - أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال :

يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتكم به ، قال رسول الله ﷺ : «نعم» ، قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ...) .

ودخل في حالة انعدام الوزن ، فهل يأمر أحداً بقتله ؟

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قنادة : أنه وتب رجل من الأنصار فقال :

يا رسول الله ، دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال :

فهل يدعه يضرب عنقه ، لقد رأى رأسه قد قط عن جسده أمام عينيه ، ومع ذلك فهو يأمل . (قال : «دعا عنك ، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه ») .

وأغضى رسول رب العالمين عن كل جراءات كعب وسفاهاته ومنْ عليه بالحياة ، بالحياة الحقيقية بهذا الدين قوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِسْتِعْبِدُوكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبُّكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ النَّارِ وَقَبِيلَهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (٢٤) » [الأنفال] .

لقد امتدت حياته ﷺ خمسة عشر قرناً في ضمير كل مسلم ، وهو يسمع ذلك الثناء العطر منه على رسول الله ﷺ في آبنته التي مضت معلماً من معالم الشعر الإسلامي في مدح النبي والى جاءت في إطارها الجاهلي العريق .

غضب كعب على هذا الحى من الأنصار ، لما صنع بهم صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، وما أجمل ذلك الغضب الذى اعترض رسول الله ﷺ حوله حباً ومكرمة ، وسجلاً لتأثير الأنصار في قصيدة التالية .

ط - ولا نستطيع أن نعرض القصيدة كلها ، إذ أفردت كتب في شرحها والتعليق عليها سواء من شراح الأدب والنقد أو كتاب السير والتراجم ، لكننا سنعرض مقتطفات منها ،

نعرض معها كعباً ^{غوثت} بفنه الشعري ، وذوقه الأدبي ، ووضعه النفسي ، وإشراقة الإيمان
في قلبه كما عرضها هو ^{غوثت} .

متيم إثرها لم يفدي مكحول
إلا عن غضيض الطرف مكحول
لا يشتكى قصر منها ولا طول
كانه منهل بالراح معلول

بانت سعاد (١) فقلبي اليوم متبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة
تمجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت

ويا لعظمة النبوة الخالدة ، وهي تستمع إلى هذا الشاعر الشارد الهارب وهو يصف
محاسن محبوته ، ثم يتقلل إلى وصف أسوأ أخلاقها الذي جعله يعيش التوتر والحرمان
ال دائم :

بوعدها أو لو أن النصح مقبول
فعج وولع وإخلاف وتبديل
كم تلون في أنوابها الغول
إلا كما يمسك الماء الغرابيل
إن الأمانى والاحلام تضليل
وما مواعيدها إلا الاباطيل

فيالها خلة لسو أنها صدقـت
لكـها خـلة قد سـيطـ من دـمـها
فـما تـدوـمـ علىـ حـالـ تكونـ بـهـا
وـما تـمسـكـ بالـوـعـدـ الذـىـ رـعـتـ
فـلاـ يـغـرنـكـ ماـ مـنـتـ وـمـاـ وـعـدـتـ
كـانـتـ موـاعـيدـ عـرـقـوبـ لـهـاـ مـثـلاـ

ترى ، أيصف محبوته سعاد هنا أم يصف الجاهلية التي كان يعيش فيها ، وليس
وراءها إلا السراب والضياع والأمانى الكاذبة ، ومن أجل هذا دعا إلى هجرها في النهاية .
إلا العناق النجيبات المراسيل
أمست سعاد بأرض لا يبلغها

ومن وصف محبوته إلى وصف ناقته التي يركبها في هذه الصحراء وهو ماض إلى
محمد رسول الله ^{صلوات الله عليه وسلم} وقد استغرق وصفها حوالي عشرين بيتاً ، ليتقلل بعدها إلى وصف
من حول ناقته :

تسعى الغواة جانيها وقولهم إنك يا بن أبي سلمى لقتول

وها هو يتقلل إلى نفسه التي تعيش القتل كأنما هو مائل أمام عينيه ، ويستغثـتـ
بوسيط أو شفيع فلا يجدـهـ وكـلـهـ يـتـخلـىـ عـنـهـ :

(١) قيل : إن سعاد هي امرأة وابنة عمـهـ ، خصـهاـ بالـذـكـرـ لـطـولـ غـيـرـهـ عـنـهاـ لـهـرـوـبـهـ مـنـ النـبـيـ ^{صلوات الله عليه وسلم} ، وـنـسـتـبعـدـ ذـلـكـ ؛
لـآنـ الـوـصـفـ لـمـحـاسـنـهاـ وـلـلـخـلـفـ فـيـ موـاعـيدـهاـ لـاـ يـقـبـلـهـ العـرـبـ فـيـ شـعـرـهـ عـنـ زـوـجـهـ .

وقال كل صديق كنت أامله لا الهينك إنى عنك مشغول
 وإذا كان القتل هو المصير ، وهو الحتم ، فلماين المفر من قدر الله ؟
 فقلت خلوا سبلي لا آبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
 كل ابن أثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول
 لكن إذا كان الإياد بالموت والقتل من رسول الله ، فهل يوجد في الوجود من
 يؤمل العفو منه أعظم منه ؟ فهو رسول أرحم الراحمين :
 نبشت أن رسول الله أوعذرني والعفو عند رسول الله مأمول
 فأنا مؤمن بالقرآن المنزلي من عند الله ، أما لهذا الإيمان من أثر في منجاتي من الموت :
 مهلاً هداك الذي أطاك نافلة (١) القرآن فيها مواعظ وتفصيل
 لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويل
 وهذا ماثل بين يديك أرعد من الخوف ، وأبرق من الأمل :
 لقد أقوم مقاماً لو يقوم به أرى وأسمع ما لم يسمع الفيل
 لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل
 وهذا هي يدي يا رسول الله أباعرك فيها على الإسلام ، وافعل بي ما تشاء :
 حتى وضعت يميني ما أنازعه في كف ذي نعمات (٢) قيله (٣) القيل (٤)
 فلهم أخوف عندي إذ أكلمه وقيل إنك منسوب ومسؤول
 ومن ثوابي بين يدي الأسد أقل خوفاً من مثلثي بين يديك ، فقولك حكم مبرم ، وهذا
 هي الجزيرة قد استسلمت لك :
 من ضيق (٥) بضراء (٦) الأرض مخدري في بطن عثر (٧) غيل دونه غيل
 يغدو فيلهم (٨) ضرغامين عشيهما لحم من الناس معفور (٩) خراديل (١٠)

(١) النافلة : الزبادة ، وسمى القرآن نافلة لأنها عطيته رائدة على النبوة .

(٢) ذي نعمات : المراد به رسول الله ﷺ لأنه يتقم من الكفار .

(٣) قيله : قوله .

(٤) القيل : الثابت الماضي . (٥) ضيق : أسد .

(٦) ضراء الأرض : الأرض التي فيها شجر . (٧) بطن عثر : اسم مكان مشهور بكثرة السباع .

(٨) يلحم : يطعم اللحم . (٩) معفور : ملقى في العفر .

(١٠) خراديل : قطع صغار والضرغامين ولداته .

إذا يساور قرنًا لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مغلوب ^(١)
 منه تظل سباع الجن نافرة ولا تمشي بواديه الأراجيل ^(٢)
 ولا يزال بواديه أخو ثقة مدرج البز والدرسان مأكلول
 وهذا هو القائد ، أما الرسول الهدى والنور للبشرية . والرسول القائد :
 إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيف الله مسلول
 ومن حوله ؟ من هذا الحزب الذى أسسه وبناه :
 فى عصبة من قريش قال قائلهم بيطن مكة لما أسلموا زولوا
 فكيف كانوا عندما أطلقهم من عرينهم وسمح لهم بالقتال .
 زلوا فما زال أنكاس ^(٣) ولا كشف ^(٤) عند اللقاء ولا ميل معاذيل ^(٥)
 شم العرائين ^(٦) أبطال لبوسهم من نسج داود وفى الهيجا سرابيل
 بيض سوابع قد شُكّت لها حلق ^(٧) مجدول كانوا حلق القفعاء ^(٨) وكأنما يقدم لنا عرضًا عسكريًا لهذا الجيش الإسلامى :

ليسووا مفاريح إن نالت رماهم قومًا وليسوا مجاريعًا إذا نيلوا ضرب إذا عرَد ^(٩) (٨) السود التنايل ^(٩) لا يقع الطعن إلا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل قال ابن إسحاق ، وقال عاصم بن عمر بن قتادة فلما قال كعب : إذا عرَد السود التنايل ، إنما يريدهنا عشر الانصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع ، وخص المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ بمدحته ، غضبت عليه الانصار . فقال بعد أن أسلم يدح الانصار ، وينذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ ، وموضعهم من اليمن .
 من سرَّة كرم الحياة فلا يزل فى مقرب من صالحى الانصار
 فهم بنو المجد ، وينو الحرب ، ورثوه كابرًا عن كابر :

- (١) مغلوب : مغلوب .
 (٢) الأراجيل : جماعة الرجال .
 (٣) الإنكاس : جمع نكس وهم الضياع .
 (٤) لا كشف : لا ينكشون عند الحرب .
 (٥) الميل المعاذيل : الذين لا سلاح منهم .
 (٦) شم العرائين : فى أنفهم علو كنایة عن العزة .
 (٧) حلق القفعاء : ضرب من الحشك وهو نبات له شوك .
 (٨) عرَد : فر وأعرض عن قرنه .
 (٩) التنايل : جمع تنايل وهو القصير .

ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار همُ بنو الأخيار
 وكما وصفهم زعيمهم سعد : إننا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء .
 المكرهين السّمهريّ (١) بأذرع كسوالف الهندي (٢) غير قصار
 والناظرين بأعين حمراء كالجمر غير كليلة الإبصار
 وإذا كانوا كذلك قبل الإسلام ، فكيف يكونون بعده ، وقادتهم وحبيهم المصطفى
 عليه الصلاة والسلام :

والبائعين نفوسهم لنسيهم للموت يوم تعانق وكراد
 والذائدين الناس عن أدیانهم بالشرفى وبالقنا الخ طار
 وهم يتقربون إلى الله تعالى بدماء الكفار المحاربين لله ولرسوله :
 يتطهرون يرون نسكاً لهم بدماء من علقوا من الكفار
 دربوا كما دريت بيطن خفية (٣) غلب الرقاب (٤) من الأسود ضوارى (٥)
 أما الذي يبغى حمى له وإجازة ، فلن يجد ذلك كما يجده عندهم :
 وإذا حللت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الأعفار (٦)
 ومضارب العرب وقبائلها تعرف ضربتهم على يوم بدر ، وعلى هو الذي تسب له
 كنانة ، وهى التي هزمت في بدر :
 ضربوا علياً (٧) يوم بدر ضربة دانت لوقتها جميع نزار
 لويعلم الأقوام علمى كله فيه لصدقني الذين أمارى
 وإذا كانت أعلى قيم العرب هي الشجاعة والندي ، فهي كذلك في الإسلام ، وهي
 ممثلة فيهم كذلك .

قوم إذا خوت (٨) النجوم فإنهم
 للطارقين النازلين مقارى (٩)
 في الغرّ من غسان من جرثومة

(٢) سوالف الهندي : حقات السيوف .

(١) المكرهين السمهري : الرمح .

(٤) غلب الرقاب : غلاظ الأعناق .

(٣) بطن خفية : إسم مأسدة .

(٥) ضوارى : معقودات الصيد والافتراض .

(٦) علياً : هو علي بن مسعود الغساني وإليه تسب بنى كنانة .

(٧) خوت النجوم : سقطت ولم تطر في نوثها .

(٩) مقارى : جمع مقرأة وهي الجفنة التي يصنع فيها الطعام للصيف .

قال ابن هشام :

ويقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده : (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) : « لولا ذكرت الانصار بخير ، فإنهم لذلك أهل » فقال كعب هذه الآيات وهي في قصيدة له ، قال ابن هشام :

وذكر لي عن على بن زيد بن جدعان أنه قال : أنشد كعب بن زهير رسول الله ﷺ في المسجد (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) (١) .

(١) السيرة النبوية لأبن هشام . ٥١٥/٢

العام التاسع للهجرة ... وبعث المصدقين

(قال محمد بن عمر ، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهرى وعبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو قالا : لما رجع رسول الله ﷺ من الحمرانة ، قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة ، فأقام بقية ذى القعدة وذى الحجة ، فلما رأى هلال المحرم بعث المصدقين . وبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار بصدقهم ، ويقال : كعب بن مالك ، وبعث عباد بن بشر الأشهلى إلى سليم ومزينة ، وبعث رافع بن مكث إلى جهينة ، وبعث عمرو بن العاص إلى فراة ، وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بنى كلاب ، وبعث بُسر بن سفيان الكعبي إلى بنى كعب ، وبعث ابن الليثية الأزدي إلى بنى ذبيان ، وبعث رجلاً من بنى سعد بن هذيم على صدقائهم) (١) .

* * *

ونقف ملياً عند هذه الظاهرة ، فقد غدا رسول الله ﷺ رئيس دولة تمتد في أصقاع الحجاز ونجد ، وأول سمات التمكين في الأرض إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : « **الذين إن مکتّبهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** » (٤١) [الحج] ، والحاكم هو المسؤول عن تنفيذ جلب الزكاة من المؤمنين ، حتى جعل الله تعالى نصيباً للعاملين عليها من أنصبة الزكوة ، واختار رسول الله ﷺ لهذه المهمة أعرق جنده ، فعبد بن بشر سيد الأولs إلى سليم ومزينة ؛ حيث يمثلون أكبر التجمعات الإسلامية ؛ إذ ألفت سليم وألفت مزينة ؛ أي شاركوا في الجيش النبوى كل قبيلة بألف رجل ، مزينة بألف رجل ومائتي فرس ، وسليم بألف فارس وفرس أو تسعمائة كما في الروايات الأخرى . ولم يجعل رسول الله ﷺ على صدقائهم رجلاً منهم . ولا ندرى ما السر في ذلك ؟ إذ من المحتمل أن تكون القيادات الكبرى فيهم لا يطمئن رسول الله ﷺ لها ، والذين يطمئن إليهم قد يشكل تكليفهم بذلك شرخاً في القبيلة بينهم وبين الرؤساء الكبار ، فتفادي رسول الله ﷺ هذه النتائج ، ولا تزال القبلية متمنكة في نفوس أبناء القبيلة .

وأما في فزاره قبيلة عيينة بن حصن ، فلا يزال عيينة ، وحسب موافقه السابقة محل

(١) المغازي للواقدي ٩٧٣ / ٣ .

تجربة ، ولا تزال طموحاته تغذيه ، ولم يستقر وضعه الإسلامي بعد ، ولا ترضي غطفان زعيمًا لها بديلاً عنه ، فكان أن تفادي رسول الله ﷺ الأمر ، وأرسل الداهية الأريب ، والمسلم الجديد عمرو بن العاص لهذه المهمة ، وهى تحتاج إلى حكمة وحسن سياسة ومداراة ، ولا وقع الاصطدام داخل القبيلة أو بينها وبين مثل رسول الله ﷺ . وذبيان جزء من غطفان بعث لها رسول الله ﷺ ابن التبية الأزدي .

وأما الآخرون فهم من أقوامهم قد فقهوا دين الله ، وعاشوا بكلف رسول الله ﷺ وليس في قومهم خلاف لهم ، فبريدة بن الحصيب ؓ أول المؤمنين إسلاماً من قومه وأسلم سبعون من قومه على إسلامه ، وأسلم وغفار ، قد صارتتا جزءاً من المجتمع النبوى المدنى وقال فيهم رسول الله ﷺ : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما إنى لم أقتلها ولكن قالها الله عز وجل » (١) .

ورافع بن مكيث إلى جهة فهو من قومه ، والضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب بن ربيعة من قومه وقد كان علقة بن علابة من حضر الفتح وحنينا ، وهو سيد بني كلاب بن ربيعة .

إنما الشيء الذى نجهله هو توليته ﷺ لابن التبية الأزدي ، ولم تسعننا كتب التراجم عنه بشيء ولا عن تاريخ إسلامه ، ولا عن جهاده . لكن الحديث فى الصحيحين عنه مستفيض ومشتهر ، وذلك عندما جاء بالصدقات إلى المدينة ، ندع الحديث عنها لابن حميد الساعدى ؓ قال : (استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد على صدقات بني سليم يدعى بن الأتبية - وفي الرواية الثانية : ابن التبية - فلما جاء حاسبه . قال : هذا مالكم . وهذا هدية . فقال رسول الله ﷺ : « فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتك هديتك إن كنت صادقاً » ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل ما ولأنى الله ، فإذاً فما يقول : هذا مالكم وهذا هدية أهديت لى ، أفلأ جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً منها بغير حقه ، إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيمة . فلأنعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بغيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » ثم رفع يديه حتى روى بياض إيطيه ثم قال : « اللهم ، هل بلغت ؟ » بصر عيني وسمع أذنى .

وفي الرواية الثانية : ثم قال : « اللهم هل بلغت ؟ » مرتين (٢) .

وحين تتجاوز الجانب الفردى لنلاحظ عمق الدروس التربوية التى تلقيناها من حادثة

(١) مسلم /٤ ١٩٥٣ ح (١٨٥ / ٢٥١٦) .

(٢) مسلم /٣ ١٤٦٣ ح (٢٦ ، ٢٧ / ١٨٣٢) .

ابن اللتبية ، فهو عامل رسول الله ﷺ ، ولكنه ليس العامل المطلق اليد الذى ينهب كما يريد ، ويجمع كما يريد ، إنما هو العامل الذى يحاسب على كل ما جاء به بدقة كاملة .
ولا يبعد أن يكون اختيار ابن اللتبية ثوابت لكتبات عنده فى الخرص والحساب
تؤهله لهذا الموقع ولو لم يكن قد يدين الإسلام وعرقه . وهى صورة تعلمنا أن نستفيد من
الاختصاصات والكتبات فى موقعها المناسب ، ولكن دون أن ترك مطلقة اليد تفعل ما
تشاء ، فلا أحد أكبر من الحساب فى ميزان رسول الله ﷺ ، وصدق الرجل الحساب ،
وميز بين ما أهدى له ، وبين ما هو حق الله فى الزكاة . ولم يكن يدرى حرمة ذلك عليه ،
فجاء الجواب النبوى بأبلغ ما يمكن تحديداً وتائيراً .

« فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً » فالامير
الذى يعطى وبهدى لا لشخصه إنما يهدى لموقعه ، فلو عزل اليوم لما نظر له أحد ، ولما
أهدى له أحد ، ولتحولت الهدايا إلى خلفه ، خاصة إذا كان طاغية ظالماً متجرراً
إمارته ، وهذا هو الأمر الذى أوضنه رسول الله ﷺ إلى واليه ابن اللتبية ، وأخذ كل
المال المهدى ، وحق الزكاة . والله أعلم .

وفي فقه التربية أن يبقى الأمر سراً بين رسول الله ﷺ وعامله ؛ لا يفتح عنده ،
لكن عندما تكون القضية تشكل ظاهرة خطيرة تمس بناء المجتمع كله . فلا يجوز السكوت
عليها .

إن رسول الله ﷺ يبني عالم دولته ، وخصائص أمرائه فى كل خطوة وفي كل
توجيه وفي كل موقف . ولو بقى الأمر سراً بين رسول الله ﷺ وبين عامله كيف تربى
الأمة بعدها على هذه القيم الكبرى في المجتمع .

وللموازنة بين الحفاظ على كرامة العامل الذى أخطأ ، وعدم التشهير به ، وبين
توجيه الأمة والتحذير من الظاهرة الخطيرة - ظاهرة الرشوة للأمراء . قام رسول الله ﷺ
خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأخفى اسم العامل الذى بعثه ، والأمير الذى أمره على
الصدقات ، وأكفى بالكلام العام الذى يعالج الظاهرة ؛ فليس الهدف تحطيم الأمير ، إنما
الهدف توجيه الأمة إلى خطورة هدايا الأمراء .

فالحال عليه الصلاة والسلام : « ما بال عامل أبعثه » أو « فإني أستعمل الرجل منكم
على العمل » أو « ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول » ولم يرد التشهير به في
أى من الروايات المذكورة ، وبعد أن نفى عليه الصلاة والسلام حق العامل فى الهداية ،
وأنها لموقعه وليس لشخصه ، وليس له أن يقبلها ، وعليه أن يردها إلى أصحابها . عاد
عليه الصلاة والسلام إلى البناء ليس من خلال النظام ، ولكن من خلال الإيمان الذى

رسخ في نفوس هذه العصبة المسلمة ، فما هو جزاء من يأخذ الهدية على عمله ؟

إنه جزاء فاضح له يوم يقوم الأشهاد - وبكل بساطة - فهو يحمل هداياه على عنقه ، يوم القيمة ، ولو كانت جملأً يرغو أو بقراً يخور أو شاة تغير ، وفي هذه الفضيحة على رؤوس الخلاقين ، حتى لو رأه رسول الله ﷺ وهو من أصحابه وهو من عماله ، وهو من أمرائه فلن يملك له من الله شيئاً . ولن يملك له الشفاعة ، إنما سيقف ليحاسب على ما غلَّ ، والغلول عار ونار وشمار يوم القيمة . ولخطورة الأمر ، ختمه عليه الصلاة والسلام بقوله : « اللهم هل بلغت » مرتين . ولم يقلها بصوته فقط إنما قالها بكيانه كله كما نقل لنا أبو حميد ثنا . فرفع يديه حتى روى بياض إيطيه ، وفي الرواية الثانية : فرفع يديه حتى رأينا عفرتى إيطيه .

ولم يدع رسول الله ﷺ الحادثة تمر هكذا ، إنما عاد فذكرها بعيدة عن الحادث حتى يعلم الناس حكمها إلى يوم القيمة في تفصيل دقيق ومثير يحسن عرضه كما سمعه المسلمون ونقلوه لنا ؛ ليكون هادياً لنا في بناء المجتمع الإسلامي الذي نصبو إليه ، وهي معالجة لما وراء الهدية ، معالجة لأخفاء حق الله ثم استلامه .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول ، فعظم أمره ثم قال :

« لا ألفين أحدكم يوم القيمة يجيء يوم القيمة على رقبته بغير له رغاء يقول : يا رسول الله ، أغتنى فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيمة على رقبته فرس له حمامة فيقول : يا رسول الله ، أغتنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيمة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله ، أغتنى فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيمة على رقبته نفس لها صباح (١) فيقول : يا رسول الله ، أغتنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيمة على رقبته رقاع (٢) تتحقق فيقول : يا رسول الله ، أغتنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيمة على رقبته صامت (٣) فيقول : يا رسول الله ، أغتنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك » (٤) .

وذلك حتى يكون البلاغ المبين ، أن كل من غل وأخذ من حق الامة سوف يأتي بحمله على رأسه يوم القيمة يفتضح به على رؤوس الخلاقين ، حتى ولو كان صاحب

(١) صباح : صوت إنسان .

(٢) رقاع : كثابة عن الثياب .

(٣) الصامت من المال : النعْب والفضة .

(٤) مسلم ١٤٦٢ / ٣ ح (١٨٣١ / ٢٤) .

رسول الله ﷺ . فلا يملك له رسول الله شيئاً . ولا يغتله رسول الله ﷺ بعد أن أبلغه . فكيف بالحاكمين الذين يسطون على الدور والعقارات والثروات كلها يحتجزونها لأنفسهم من دون الناس ، ويشرون من رقابهم ، ويعيشون على انتصاف دمائهم .. وكم من الحاكمين من يحتجن ويحتجز لنفسه كل أملاك أمته من البترول والذهب والفضة حتى ليغدو في ثروته من أغنى أغنياء العالم ، فلو جلس في بيت أبيه وأمه ، فكيف يتحقق هذه الثروة ؟ وإنها للجنة أبداً ، أو النار أبداً .

إنه لا بد لهذه التربية ولا بد لهذه الشدة ، ولا بد لهذا البلاغ المبين مع اللحظات الأولى من قيام دولة الإسلام ، وقيام العاملين على الصدقات . وابتداء تطبيق الإسلام بياتاء الزكاة . ليكون العدل هو الذي يسود هذه الدولة الفتية . وكما قال النبوي رحمة الله :

والمعنى : إن كل شيء يغله الغال يجيء يوم القيمة حاملاً له ليفتضح على رؤوس الأشهاد . سواء كان هذا المغلول حيواناً أو إنساناً أو ثياباً أو ذهباً وفضة .

ومن الآداب الكبرى التي رافقت الصدقين أو العاملين على الصدقات ، والتي برزت في وصيته لعبد بن بشير رضي الله عنه :

« يا عباد ، سر إليهم فخذ صدقات أموالهم ، وتوقد كرائم أموالهم » (١) . فالزكاة تكون من أوسط الأموال لا من أبخسها ولا من أنفاسها .

وفي وصيته لمعاذ بن جبل فيما بعد ، إضافة إلى هذه الوصية :

« واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وليس المظلوم المسلم فقط ، إنما المظلوم إنسان كائناً من كان ، ومهمة الأمير . أخذ حق الله دون ظلم لأحد . وتحقيق العدل في حكمه وولايته .

ولئن استغرق حديث ابن التبي استفاضة مع إشارة دولة الإسلام ؛ لأهمية الموضوع الذي عالجته الأحاديث ، فستتفق مع حدث آخر مرتبط بصدقات خزانة رافقته أحداث كبيرة ، تمثل موقف الدولة المسلمة حين تُمنع الصدقة . أو تُمنع الزكاة .

(١) المزارى للواقدى ٩٨١ / ٣ .

بسر بن سفيان وصدقات خزاعة

قال محمد بن عمر : حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهرى وعبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو .

(فخرج بسر بن سفيان على صدقات بنى كعب - ويقال : إنما سعى عليهم نعيم بن عبد الله النحام العدوى - فجاء وقد حلَّ بنواحيم بنو جهيم من بنى تميم ، وبنو عمرو ابن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فهم يشربون معهم على غدير لهم بذات الأشطاط - ويقال : وجدهم على عسفان . ثم أمر بجمع مواشى خزاعة ليأخذ منها الصدقة قال : فحشرت خزاعة الصدقة من كل ناحية ، فاستنكرت ذلك بنو تميم ، وقالوا : ما هذا ؟ تؤخذ أموالكم منكم بالباطل ، وتجشوا ، وتقلدوا القسى ، وشهروا السيوف .

فقال الخزاعيون : نحن قوم ندين بالإسلام ، وهذا من ديننا . قال التميميون : والله لا يصل إلى بغير منها أبداً . فلما رأهم المصدق هرب منهم وانطلق مولياً وهو يخافهم ، والإسلام يومئذ لم يعم العرب ، قد بقيت بقايا من العرب وهم يخافون السيف لما فعل رسول الله ﷺ بمكة وحبشة ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر مصدقه أن يأخذوا العفو منهم ، ويتقوا كرائم أموالهم . فقدم المصدق على النبي ﷺ فأخبره الخبر وقال : يا رسول الله إنما كنت في ثلاثة نفر . فوثبت خزاعة على التميميين فأخرجوهم من محالتهم ، وقالوا : لو لا قرابتكم ما وصلتم إلى بلادكم ، ليدخلن علينا بلاء من عداوة محمد ﷺ وعلى أنفسكم حين تعرضون لرسول الله تردونهم عن الصدقات . فخرجوا راجعين إلى بلادهم . فقال رسول الله ﷺ : « من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا ؟ » فانتدب أول الناس عيسية بن حصن الفزارى . فقال : أنا والله لهم ، أتبع آثارهم ولو بلغوا بيرين ، حتى آتيك بهم إن شاء الله ، فترى فيهم رأيك أو يسلموا . فبعثه رسول الله ﷺ في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجر واحد ولا أنصارى ، فكان يسير بالليل ، ويكتمن لهم بالنهار ، خرج على ركوبه حتى انتهى إلى العرج ، فوجد خبرهم أنهم قد عارضوا إلى أرض بنى سليم ، فخرج في إثرهم حتى وجدهم قد عدلوا عن السقية يؤمنون أرض بنى سليم في صحراء قد حلوا ، وسرحوا مواشيهم ، والبيوت خلوف ليس فيها أحد إلا النساء ونفیر . فلما رأوا الجموع ولوا وأخذوا منهم أحد عشر رجلاً ، ووجدوا في المحلة من النساء إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً ، فحملهم إلى المدينة ، فأمر بهم النبي ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث . فقدم منهم عشرة من رؤسائهم : العطارد بن حاجب التميمي ، والزيرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وقيس ابن الحارث ، ونعيم بن سعد ، وعمرو بن الأهتم ، والأقرع بن حابس ، ورياح بن

الحارث بن مجاشع ، فدخلوا المسجد قبل الظهر . فلما دخلوا سأله عن سببهم فأخبروا بهم فجاؤهم ، فبكى الذراري والنساء ، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ثانية ، ورسول الله ﷺ يومئذ في بيت عائشة ، وقد أذن بلال بالظهور بالأذان الأول ، والناس يتظرون خروج رسول الله ﷺ فجلوا خروجه . فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا ، فقام إليهم بلال فقال : إن رسول الله ﷺ يخرج الآن ... فخرج رسول الله ﷺ ، وأقام بلال الصلاة ، وتعلقوا به يكلمونه ، فوقف رسول الله ﷺ معهم بعد إقامة بلال الصلاة ملياً وهم يقولون : أتيناك بخطيبنا وشاعرنا ، فاسمع منا ، فتبسم النبي ﷺ ، ثم مضى فصلى بالناس الظهر ، ثم انصرف إلى بيته . فركع ركعتين ، ثم خرج فجلس في صحن المسجد ، وقدموا عليه ، وقدموا عطارد بن حاجب التميمي . فخطب فقال : الحمد لله الذي له الفضل علينا ، والذى جعلنا ملوكاً ، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم مالاً ، وأكثرهم عدداً ، فمن مثنا في الناس؟ أنسنا بربوس الناس وذوى فضلهم؟ فمن يفاخر ، فليعدد مثل ما عدنا ، ولو شئنا لاكثرنا من الكلام ، ولكننا نستحب من الإكثار فيما أعطانا الله أقول قولى هذا لأن يؤتى بقوله هو أفضل من قولنا ، فقال رسول الله ﷺ ثابت بن قيس : « قم ، فاجب خطيبهم ». فقام ثابت فقال :

الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيها أمره ، ووسع كل شيء علمه ، فلم يك شيء إلا من فضله ، ثم كان مما قدر الله أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى لنا من خلقه رسولاً ، أكرمنهم نسباً، وأحسنهم زياً، وأصدقهم حديثاً ، أنزل عليه كتابه ، واتسنه على خلقه ، وكان خيرته من عباده ، فدعوا إلى الإيمان ، فأمن المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أصبح الناس وجهاً ، وأفضل الناس فعلاً ، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله ﷺ ، فتحن أنصار الله ورسوله ، نقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر بالله جاهدناه في ذلك ، وكان قتله علينا يسيراً أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . ثم جلس .

قالوا : يا رسول الله ، ائذن لشاعرنا . فأذن له ، فأقاموا الزيرقان بن بدر فقال :

| | |
|---|---|
| فينا الملوك ، وفينا تنصب البیع عند النهاب وفضل الخیر يتبع من السدیف إذا لم یؤنس القزع للنازلین إذا ما انزلوا شبعوا | نحن الملوك فلا حی يعادلنا وکم قسرنا من الاحیاء کلهم ونحن نطعم عند القحط ما أكلوا ونحر الكوم عبطاً في أرومتنا |
|---|---|

قال رسول الله ﷺ : « أجبهم يا حسان بن ثابت » . فقام فقال :
إن الذواب من فهر وإن خوتهم قد شرّعوا ستة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته
تقولى الإله وبالامر الذى شرعا
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
إن الخلائق فاعلم شرها البدع
عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
ولا ينالهم فى مطعم طبع
فكل سبق لاذنى سبفهم تبع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم
وكان رسول الله ﷺ قد أمر بنبر فوضع فى المسجد ينشد عليه حسان وقال :

« إن الله ليؤيد حسان بروح القدس ما دافع عن نيه » ، وسر رسول الله ﷺ يومئذ
والملعون بمقام ثابت وشعر حسان . وخلا الوفد بعضهم إلى بعض ، فقال قائل : تعلم
والله أن هذا الرجل مؤيد مصنوع له ، والله خطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعرهم أشعر
من شاعرنا ، ولهم أحلم منا . وكان ثابت بن قيس من أجهر الناس صوتاً . وأنزل الله تعالى
على نيه في رفع أصواتهم ، التيميين ، وينذر أنهم نادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات
فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ » إلى قوله : « أكثرهم لا
يَعْقُلُونَ (١) [الحجرات] ، يعني تعيّماً حين نادوا النبي ﷺ ، وكان ثابت حين نزلت هذه
الأية لا يرفع صوته عند النبي ﷺ فرد رسول الله ﷺ السبي والأسري .

وقام عمرو بن الأهتم يومئذ يهجو قيس بن عاصم - كانوا جمِيعاً في الوفد - وكان
رسول الله ﷺ قد أمر لهم بجوائز ، وكان يجيز الوفد إذا قدموا عليه ، ويفضل بينهم
في العطية على قدر ما يرى فلما أجازهم رسول الله ﷺ قال : « هل بقي منكم أحد لم
نجزه ؟ » قالوا : غلام في الرحل ، فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوه نجزه » ، فقال
قيس بن عاصم : إنه غلام لا شرف له ، قال رسول الله ﷺ : « وإن كان ، فإنه وافد
وله حق » ، فقال عمرو بن الأهتم شعراً ي يريد قيس بن عاصم :

ظلت مفترشاً هلباك تشتمنى
عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
إننا وسُؤددنا عَوْدٌ وسُؤددكم
مخلف بعكاظ العجب والذنب
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم
والروم لا تملك البغضاء للعرب

قال : حدثني ربيعة بن عثمان عن شيخ أخبره أن امرأة من بنى التجار قالت : أنا
أنظر إلى الوفد يومئذ يأخذون جوازهم اثنى عشرة أوقية ونئساً . قالت : وقد رأيت
غلاماً أعطاه يومئذ وهو أصغرهم أعطى خمس أواق . قلت : وما النش ؟ قالت :
نصف أوقية) (١) .

* * *

(١) المغارى للواقدى ٩٧٣/٣ - ٩٨٠ .

لقد كانت خزاعة حلفاً للإسلام منذ لحظاته الأولى ، تمسكاً بحلفها مع عبد المطلب جد رسول الله ﷺ ، مسلمها ومشاركتها وعية نصر له ، ثم دخلت كلها في الإسلام . ونعلم كيف أن الرسول ﷺ خاض حرباً عوائنا مع مكة نصراً لها عندما اعتدى عليها من بنى بكر . وكان بسر بن سفيان سيداً من سادات خزاعة ، أسلم سنة ست ، وخزاعة وقد دخلت في الإسلام مهياً لأن تدفع صدقات أموالها ، كما هو معروف من أساسيات هذا الدين .

لكن هذا الحى من تميم لا يزال يعيش في باديه ، معرقاً فيها لا يدرى ماذا جرى في الدنيا ، رغم أن الأقرع بن حابس التميمي أحد زعمائهم قد شهد انتصار الإسلام وسيادته في الأرض ، غير أن فروع تميم كبيرة ، ولم يكن الاتصال سهلاً لوضع كل قبائل بنى تميم في الصورة ، خاصة أن هذه الفروع قد تركت موقعها وجاورت خزاعة ، ولأول مرة تشهد عجباً ، أن يقدم الناس طوعاً على إعطاء أموالهم لرجل فرد يأخذها إلى محمد بن عبد الله . ولعل الرواية التي تقول : إن نعيم بن عبد الله النحام هو الذي بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً لهم هو أقرب للصحة ليتناسب مع هذه الرواية . فما كان لتميم أن تنزع خزاعة من إعطاء أموالها لبسر بن سفيان أحد زعمائها ، إنما كانت النكارة والغرابة أن تعطى الأموال لقرشى مغمور ، بحيث يتحكم فيها فيختار ما يشاء من نعمهم وشائعاتهم ويسوقها لهم ينظرون إليه . وأخذت بنو تميم العزة بالإثم ، وحالوا بالقوة دون أخذ الصدقة ، وليس مع نعيم جيش يواجه به بنى تميم . وكان هذا الموقف بمثابة إعلان حرب على دولة الإسلام ، ومنع إقامة شريعة الله في الأرض .

وجاء المصدق لرسول الله ﷺ ، ونقل له الخبر ، وأدرك خزاعة خطورة الأمر الذي سوف يصل إلى رسول الله ﷺ فيسوؤه ، ولو يدعه يمر دون رد ، فأجلت بنى تميم عنها . ولا يبعد أن تكون قد بعثت إلى رسول الله ﷺ من يحمل صدقاتها .

لكن بقي هذا الجيب الذي يعلن استعصاءً على دولة الإسلام . ولو اتصل دون مواجهة بجزء بنى تميم كلها إلى موقف معاد للإسلام ، ورسول الله ﷺ يود أن يعالج القضية بالسرعة الالزام ، وهذه هي خطته ﷺ في الحرب الخاطفة ، وفي الرد السريع ، الذي يحصر الأمر بأقل الخسائر ، ويتحول دون العدو ، ودون تجبيش قواه ، وجمع حلفائه ، فإذا كان الأمر أمر الحرب ، فلا موقع فيه للتباطؤ والتساهل ، فقد بعث ﷺ بالسيف ، وبعد أن يكتب جمام العدو ، ويكسر تحديه تبدأ خطوات الرحمة والمودة والإحسان لفتح قلبه للإسلام ، وطبيعة الأعراب هذه أدركها رسول الله ﷺ حتى قبل أن يخوض حروبه معهم ، فهم لا يصيرون لكلام أو رأي طالما هم أقوىاء أشداء ، ولقد رأى

من تعنتهم ما رأى حين كان يمضي إليهم داعيًا إلى الله ، كيف خذلوه جميعًا ، ورفضوا حمايته لأنهم علموا أن قومه قد تخلوا عنه، فلابد أن يتعامل معهم بالمنطق الذي يفهمونه، منطق الرد السريع على هذا العدونان السافر . فقال رسول الله ﷺ :

« من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا ؟ » .

فانتدب أول الناس عيينة بن حصن .

ويا للطرافة في هذا الانتداب ، إنه عيينة الذي فعل ما فعل ، والذي اكتشفت نفسيته في أكثر من معترض ، والذي تحكمه عقدة الزعامة ، ويحكمه سوء المعاشرة عليها لتفكيره الضيق وحمقه . ولكنها ذو كفاءة حربية عالية وخاصة في حرب الصحراء ؛ إذ أفنى عمره فيها ، وله سوابق مع بني تميم وأيام .

فوقف قاتلاً لرسول الله ﷺ :

أنا والله لهم ، أتبع آثارهم ولو بلغوا بيرين ، حتى آتيك بهم إن شاء الله ، فترى فيما رأيك أو يسلموا .

إن القيادة العسكرية التي يريدها رسول الله ﷺ قد وجدت ، لكن من هم جنوده ، هل يسلمه ﷺ قيادة كتيبة من الأنصار والمهاجرين ، وقد لا يعرف لهم حقاً ، ولا يقيم لهم وزناً ، ويتحكم في رقبتهم كما يشاء ، فهو أمير رسول الله ﷺ ، وله عليهم حق السمع والطاعة .

ورأى عليه الصلاة والسلام حلاًً ألمع ، وأكثر جدوى من هذه المغامرة ، وهو أن يكون جنوده جميعاً من طبنته ومن الأعراب من قومه أو غيرهم الذين ألفوا قيادته ، وأعجبوا ببطوله ، وأسلسوه الزعامة ، وعندهم خبرته القتالية في حرب الصحراء .

فيبعثه رسول الله ﷺ في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى واحد .

ويقف المرء ليقارن بين موقفين :

بين غزوة ذات السلاسل والتي اختار رسول الله ﷺ لها عمرو بن العاص قائداً وهو حديث الإسلام مثل عيينة ، فاختار له جنوداً من أعز وأغلى جنوده عنده من سادة المهاجرين والأنصار . وبين هذه المعركة التي لم ينضم لها مهاجرى ولا أنصارى واحد تحت إمرة عienne ، وهو حديث عهد بالإسلام مثل عمرو بن العاص ، ولكن شتان بين معدنين .

بين معدن عمرو بن العاص الذي تشرب قلبه الإسلام ذرة ذرة ، حتى ليقول فيه رسول الله ﷺ : « أسلم الناس ، وأمن عمرو بن العاص » .

ويبن معدن عيّنة الذي أسلم نفأً ابتداءً ، وكشف عن خبيثة نفسه أنه إنما حضر زوجة الطائف ، لعل محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتصرّ فيأخذ جارية ثقيف تلد له ولدًا داهية لأن ثقيفاً قوم مناكير .

وقال الله تعالى فيه وفي أمثاله : «**فَأَلَّاتِ الْأَعْرَابُ آمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»** [الحجرات : ١٤] ، وهو الذي كشف عن نفسه بعد الردة مقسمًا بالله أنه لم يؤمن قط .

ويعجب الإنسان من عظمة العبرية النبوية التي لا مثيل لها في التاريخ . في كيفية الاستفادة من الطاقات البشرية ، فحتى عيّنة رغم كل ما ظهر منه . يمكن أن يكون له دور في خدمة الإسلام ، ولكن دون أن يحمل المسلمين عبه خلله وانحرافاته ، إنه قائد ولا شك ، ولكنه ليس القائد الإسلامي المؤهل ليمثل هذا الدين قدوة وسلوكًا . إنما هو مندفع للقتال تيم ، بما بينه وبينها من ثارات سابقة . ولم لا توظف هذه العاطفة لصالح هذا الدين ، بعد أن أعلن عيّنة إسلامه ، وأعلن هذا الفضيل من تيم شركه وحزبه على الإسلام . فلتكن إذن هذه السرية .

وعيّنة يعرف ضعف ثقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به ، وخاصة حين واجهه بكلبه وغدره يوم التقى ثقيفاً ودعاهما إلى الصمود في وجه محمد ، ثم كذب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه دعاها إلى الإسلام .

وعيّنة يريد وقد التقت مصلحته اليوم مع مصلحة الإسلام أن يغطي تلك السوءات بعمل عظيم يخدم فيه هذا الدين ، ويستعيد ثقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به . ولذلك حدد لنفسه مهمته . وأن ليس هدفه السلب والنهب والغزو والسيء ، إنما سيأتي بهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل بهم ما يشاء . وعيّنة فنان في قيادة الأعراب أمثاله ، فليكن هو أمير السرية ، ولتكن هو المؤهل في التدريب ليترسخ الإيمان في قلبه ، وليفسّل خطأه بعمل عظيم في سبيل الله .

وحقق الهدف كاملاً . ونفذ ما وعد به .

(فكان يسير بالليل ويكتمن بالنهار ، خرج على ركوبة حتى انتهى إلى العرج ، فوجد خبرهم أنهم قد عارضوا إلى أرضبني سليم ، فخرج في أثرهم حتى وجدهم قد عدلوا عن السقيا يؤمّون أرضبني سليم في صحراء قد حلووا وسرعوا ماشيّتهم) .

ألم تكن حرب داحس والغيرة عشر سنين بين العشرين عبس وذبيان ؟ !

وكانت هناك حرب بين فزارة وعلى رأسها عيّنة بن حصن وبين بنى تيم وذلك في

يوم جزع ظلال ، فالحرب التى عاشها عيينة هيأت له متابعة هذا الفرع المستعصى من تميم فى أرض بنى سليم وفى الصحراء بين مكة والمدينة حتى وصل إليهم .

(والبيوت خلوف ليس فيها أحد إلا النساء ونفiri ، فلما رأوا الجمع ولوا وأخذوا منهم أحد عشر رجلاً ، ووجدوا في المحله النساء إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً . فحملهم إلى المدينة) .

وانتهى دور عيينة ، وأبدع فى مغامرته هذه ، وأتى بهم ليرى رسول الله ﷺ فىهم رأيه . (فأمر بهم النبي ﷺ فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث) .

ورسول الله ﷺ لا يريد أن يبعد أيام العرب كما كانت من قبل ، ففى كل حدث عنده هدف لا يدركه أحد ، وكل قضية يجب أن توظف لبناء القلوب لا لتحطيمها ، ولحب الإسلام لا للحقن عليه ، فلم يقم رسول الله ﷺ بتوزيع السبايا والأسرى على المقاتلين ، إنما حبسهم فى دار رملة بنت الحارث ، وبدأ يتضرر عليه الصلاة والسلام بثاقب نظره قدوم وقد تميم إليه ، كما كان من قبل يتضرر قدوم وقد هوازن إليه ، ليرد لهم سببهم وأموالهم ، ويعلم هذه الأمة التى عاشت على السلب والنهب والغزو أن ديننا جديداً قد حلَّ فى هذه الأرض ، وأن روحًا جديداً قد سرى فى هذه الأمة فأحياناً من جديد ، وأنه هو الذى نهتم بالحياة والموت من أجله .

فقد سئل عليه الصلاة والسلام عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل عصبية ، ويقاتل رياءً ، فـأىـها فى سـيـلـ الله؟ وهـذـهـ هـىـ دـوـافـعـ القـتـالـ فـىـ الـمـجـمـعـاتـ الـجـاهـلـيـةـ ، مـحـصـورـةـ فـىـ هـذـهـ الـقـيـمـ ، فـيـأـتـىـ الـجـوـابـ النـبـويـ لـيـلـغـىـ هـذـهـ الـآـهـادـافـ كـلـهـاـ وـيـضـعـ هـدـفـاـ جـدـيدـاـ هـوـ مـيزـانـ التـغـيـيرـ فـىـ الـأـرـضـ : هـوـ الـقـتـالـ لـتـكـونـ كـلـمـةـ اللـهـ هـىـ الـعـلـيـاـ «ـ مـنـ قـاتـلـ لـتـكـونـ كـلـمـةـ اللـهـ هـىـ الـعـلـيـاـ » .

وهـذـهـ السـرـيـةـ جـزـءـ مـنـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ ؛ لـتـكـونـ كـلـمـةـ اللـهـ هـىـ الـعـلـيـاـ فـىـ تـطـيـقـ الزـكـاـةـ وـتـكـونـ كـلـمـةـ الـذـيـنـ كـفـرـواـ السـفـلـىـ ، أـىـ كـلـمـةـ بـنـىـ تمـيمـ الـذـيـنـ حـالـواـ دونـ تـفـيـذـ الزـكـاـةـ وـإـعـطـاـتـهـاـ لـمـسـتـحـقـيـهاـ هـىـ السـفـلـىـ ، وـالـلـهـ عـزـيزـ حـكـيمـ .

وـكـانـ الـفـرـاسـةـ النـبـوـيـةـ ، وـقـدـ بـنـىـ تمـيمـ فـىـ عـشـرـةـ مـنـ رـؤـسـائـهـ ، وـلـشـنـ كـانـ الـأـقـرـعـ بـنـ حـابـسـ وـحـدـهـ فـىـ حـنـينـ وـالـطـائـفـ ، فـهـاـ هـىـ الـفـرـصـةـ مـوـاتـيـةـ لـلـقـاءـ مـعـ سـادـةـ تمـيمـ جـمـيعـهـمـ ، وـالـتـعـرـفـ عـلـىـ أـعـماـقـهـمـ وـمـاـ يـكـنـونـ .

لـقـدـ أـمـضـىـ عـيـيـنةـ عـمـرـهـ فـىـ الصـفـحةـ السـابـقـةـ تـحـكـمـهـ هـذـهـ الـآـيـةـ :

﴿الأُغْرَابُ أَشَدُّ كُفَّارًا وَنَفَّاقًا وَأَجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾

وها هو اليوم تحكمه الآية :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُفْقَدُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُذْلِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ [التوبه : ٩٩] .

وها نحن نغضى في خطوات وثيدة مع تميم الذين يغضى الأمر بهم من الكفر إلى الإسلام ، وأرادوا أن يطمتنا على سباياهم وأسراهم فرأواهم ، وأجهش السبايا والأسرى بالبكاء ، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ثانية دون أن يعرفوا حرمة رسول الله ولا لدين الله ، ونادوا رسول الله ﷺ : أن اخرج إلينا يا محمد ، فليس في دينهم بالبادية استثنان . ولا حرمة فكأنهم لا يزالون هناك ، ومع أن بلا لا خطيئته قد ذكرهم بأن رسول الله ﷺ سيخرج ، فعادوا ونادوه ثانية يتطلبون خروجه ، فهم زعماء وقادة ولا يجوز في عرفهم أن يحتجب عنهم رسول الله ولا يتأخر عليهم ، فهو نقص في كرامتهم ونقص في زعامتهم ، وخرج إليهم رسول الله ﷺ ، وما مثل سيد الخلق ينزل الناس منازلهم فهو يعرف قدر هؤلاء عند قومهم ، وأنهم لب العرب ومادته ، فهو حريص على هدايتهم ، وما تأخر في سباياهم وأسراهم إلا طمعاً في قدوم هذا الوفد .

وآن أوان الصلاة ، وأقام بلال الصلاة ، وهم لا يدركون هذه القدسية لها ، فراحوا يعرضون القضية الكبرى التي جاؤوا بها وراء طلب سبيهم وأسراهم ، وكأنما هم في سوق عكاظ يتفاخرون شرعاً ويتنازعون زعامة ، وهم لا يدركون أنهم عند رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قالوا : (أتياك بخطيبنا وشاعرنا فاسمع منا ، وتبسم النبي ﷺ) .

لقد كانت هذه البسمة أعمق جواب لهذا الوفد ، فكل ما عندهم قابل للإنتصارات إليه ، ولكن الصلاة لله تعالى لا يقدم عليها شيء كذلك ، ولينظروا إلى هذا الجيش اللجب يخر راكعاً وساجداً لله في شيء لم يالفوه ، بل ويأنفون منه ، لكنه مع ذلك منظر مهيب رهيب لهم في هذه الطاعة العجيبة لهم وراء قائدتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، فأبا سفيان بن حرب وهو ابن البيعة القرشية المدنية المتحضرة استغرب تلك الصلاة ، فكيف بجفاة الأعراب الذين لا يعرفون مثل هذا الانضباط في حياتهم أبداً !!

(ثم مضى فصلى بالناس الظهر ، ثم انصرف إلى بيته فركع ركعتين ثم خرج فجلس في صحن المسجد) .

ويالها من عظمة لا تعدلها عظمة ؛ أن ينزل رسول الله ﷺ إلى أفقهم المحدود الضيق الم giojol بطنية الأرض ، ويرضى أن يكون الأمر فخاراً بين الخطباء ، وسجالاً بين

الشعراء ، فالداعية اليوم تراه أجهل الناس بطبعائ من يدعوهم إلى الله ، وينزل السباب والشتم واللعن بالسفهاء الذين يعيشون الجهلة الجهلاء والضلاله العمياء في العصبية والجاهلية ، ويريد أن ينصح الناس صاغرين لهذا الدين ولو لم يدركوا قيمه ، ولم يفهوا أهدافه ، بل يمضى ليحدثهم عن البدع وعن الشركات ، ويقذف التغريب الجاهلي . بل لا يطبق سمعاً بيت من الشعر .

وسيد الخلق يعلم هذه الأمة إلى قيمة الساعة : كيف تفك الأقوال المستعصية ، وكيف تأسر القلوب الجاشرة التي لا تعرف في حياتها إلا العصبية والفاخر بالحسب والنسب والجاه ومال ، رضي رسول الله عليه السلام هذه المفاخرة لتكون مدخلاً إلى تحطيم تلك الآلهة التي يعبدونها ، فإن شاء أن يستمعوا له فلا بد أن يستمع لهم ويستمع إلى ترهاتهم . وأمجادهم وفخارهم ؟ حتى يهتئم بعد لسمعوا لقيم هذا الدين ، ويهتئم ليتلقا نسمات هذا الدين .

(وقدموا عليه وقدّموا عطارد بن حاجب التميمي ، فخطب فقال :

الحمد لله الذي له الفضل علينا ، والذى جعلنا ملوكاً وأعطانا الأموال نفعل فيها بالمعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثرهم مالاً ، وأكثرهم عدداً ، فمن مثلنا في الناس ؟ أنسنا ببرؤوس الناس وذوى فضلهم ؟ فمن يفاخر فليعدد مثل ما عدنا ، ولو شتنا لأكثروا من الكلام ، ولكننا نستحب من الإكثار فيما أعطانا الله . أقول قولى هذا لأن يؤتى بقول هو أفضل من قولنا) .

هل تستطيع قريش ومعها الأنصار - الأوس والخزرج - أن يزعموا أنهم أكثر منهم مالاً ؟ هل يستطيعون أن يزعموا أنهم أكثر منهم عدداً ، ونقيم أكثر العرب عدداً بلا منازع ، وهل يزعمون أنهم أكثر منهم قوة وشكيمة وأبطالهم مشهود لهم في الباادية والحاضرة ، ولعل الخل الذي تعرضه تميم بعد هذه المفاخرة أن يعطي سيد العرب محمداً الباادية لبني تميم ، وتبقى له الحاضرة ، وبذلك يتقاسمون الأمجاد بينهما وتهدا الثارات .

(فقال رسول الله عليه السلام ثابت بن قيس : « قم فأجب خطيبهم » .

فقام ثابت عليه السلام وما كان درى من ذلك بشيء وما هيأ قبل ذلك ما يقول . فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيها أمره ، ووسع كل شيء علمه ، فلم يك شيء إلا من فضله ، ثم كان مما قدر الله أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى لنا من خلقه رسولاً أكرمهم نسبة . وأحسنهم زياً ، وأصدقهم حديثاً ، وأنزل عليه كتابه ، واتمنه على خلقه ، وكان خيرته من عباده) .

وكم الفرق هائل بين الشرى وبين الثريا !!

كم الفرق بين ذلك الفخر بالحسب والنسب والمال في هذه الجزيرة المحدودة المسية في الأرض ، والمحجورة لولا الإسلام ، وبين الذي السموات والأرض خلقه ، اختار من هذا الخلق محمد بن عبد الله ، وكان هذا المختار المصطفى سيد هذه البشرية خلُقًا ونسِيًّا وأصدق البشرية حديثًا ، ومن أجل هذا الصدق الحمض كان هو الذي شرفه الله تعالى بوجهه ، وأنزل عليه هذا الكتاب وجعله أميناً على الخلق ، فلما هذا الأفق من ذاك ؟ حيث كان الخطيب يبدئ ويعيد ويكرر في المال والعدد والقوة والملك ، وإذا هي قفزة هائلة من صحراء في زاوية من الأرض إلى المثول بين يدي رب السموات والأرض ، والارتفاع بهذا الإنسان من وهذه هذه القيم لكي يكون حزب الله وراء رسول الله المنزلي عليه كتاب الله ، الأمين على خلق الله . أين هذا من ذاك ؟

(فدعا إلى الإيمان ، فأمن المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أصبح الناس وجوهًا ، وأفضل الناس فعالاً ، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله) .

فليس الأمر إذن أمر تيم وقريش ، أو أمر غطفان والأوس والخزرج ، لقد طوبت هذه الصفحة إلى الأبد ، إن الأمر الآن أمر أنصار الله تعالى ورسوله ، وأمر أعداء الله تعالى ورسوله بغض النظر عن قبيلتهم ونسبهم ومالهم وعدهم وملوكهم .

(فتحن أنصار الله ورسوله ، نقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر بالله جاهدناه في ذلك ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات) .

لقد كان أبلغ درس في العقيدة ، ما كان ليأخذ وضعه الصحيح لو لم يتم السمع من خطيب القوم ، وعرض بضاعتهم التي عندهم ، وأن الأولان لتميم أن تدرك أن الأمر ليس أمر مفاخرة بالاحساب والأنساب والأموال ؛ إنها أمر عقيدة يدين الخلق بها لخالقهم الواحد ، فإن فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم ، وإن رفضوا هذه العبودية لله ، وليس لأحد من خلقه فكما قال فيهم كعب بن مالك :

يتقربون يرون نسكاً لهم بدماء من علقوا من الكفار
وكان قتله يسيراً على المؤمنين .

ومع ذلك فالعرب لا تقيم وزناً كبيراً للخطابة إذ الشعر هو ديوان العرب وهو مجمع مفاخرهم . فكان لابد أن تتبع تيم خطتها ، ويرضى سيد الخلق أن تتبع تيم في عرض ما عندها من مفاخر .

فال قالوا : يا محمد ، ائذن لشاعرنا . فاذن له فأقاموا الزيرقان بن بدر فقال : (كما

فيما الملوك وفيينا نقسم اليع (١)
عند النهاب وفضل العز يتبع
من الشواء إذا لم يؤنس القرع (٢)
من كل أرض هُويَا ثم تصطنع
للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
إلا استفادوا فكان الرأس يقطع
فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنما كذلك عند الفخر نرتفع (٣)

نحن الكرام فلا حى يعادلنا
وكم قسرنا من الأحياء كلهم
ونحن يُطعم عند القحط مطعمتنا
بما ترى الناس تائينا سراتهم
فتتحرر الكوم عبطاً فى أرومتنا
فلا ترانا إلى حى نفاخرهم
 فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه
إنما أينما فلا يابى لنا أحد

لقد قال الزيرقان شعره وحسان غائب ، وهو الشاعر الأول لرسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله خلف حسان . وأكَدَ الزيرقان أنهم الجود كل الجود حين تمحل الأرض وتضنه السماء ، فينحررون الإبل السمان العظام يطعمون الناس اللحم والشحم فلا ينصرفون إلا وهم شباع يحمدونهم ، وأما إذا كان البأس ، فالرأس الذى يتطاول علينا يقطع ، وتنترك الحديث عن انتصاراتنا لأنباء الركبان يتناقلونها ولا أحد يسامينا حين نأبى ونفخر ، فلا حى يعادلنا ، وكيف تعادلنا الأحياء ومنا الملوك ، وفيينا نقسم الريع . إذ يأخذ زعيمنا ربع الغنائم ، ويروع الباقى للأبطال المجاهدين .

وجاء حسان والشعر يتفتق على لسانه فلا يستطيع له كظمًا ، جاء يقول :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| على أنف راض من معِدٍ وراغم | منعنا رسول الله إذ حل وسطنا |
| بأسافنا من كل باغ وظالم | منعناه لما حل بين بيوتنا |
| بحاجية الجنوان وسط الأعاجم | بيت حرید (٤) عزه وثراؤه |
| وجه الملوك واحتمال العظام (٥) | هل المجد إلا السؤدد العود والندى |

هكذا ربط الماضي بالحاضر ، فهم أبناء الملوك من غسان الذين أقاموا دولتهم وسط أرض الأعاجم ، وهم اليوم جنود رسول الله ﷺ وهو الذى اختارهم من دون غيرهم .

(١) قال ابن هشام : منا الملوك وفيينا نقسم الريع وهى الأصح ، فلا معنى لقسم مواضع الصلوات والعبادات التي هي اليع .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٦٣ .

(٤) التزعزع : السحاب الرقيق .

(٥) البيت الحرید : الفريد .

ولأول مرة يدعى حسان خواسته لسجال شعرى ، فقد كان هذا في الجاهلية ، أما في الإسلام فلم يقع أن جاء وفدياً فاختر بشعره المسلمين إلا هذا الوفد ... وكان حسان يرسل قصائده عبر الأثير لتصل إلى خصوصه في قريش ، بعد المزحوب الطاحنة التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين ، أما اليوم فهو يأتي لهذا الهدف المخصوص لفاخر شاعر بنى تميم ، وسائل عما قاله الزيرقان .

وأرسل قصيده التالية ليتتهم بها شعر الزيرقان وفخره :

إن الذوائب من فهر وإن خوتهم قد يبنوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع

هذا الحزب الشديد ، حزب الله الذي تشكل من المهاجرين الذين هم الذوائب من فهر ، ومن إخوتهم من الانصار ، غدت قيادة العرب كلها لهم ، فهم الذين يسنون الهدى وراء رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . والناس خلف هداهم يسيرون ، ويقرنون القول بالفعال .

أو حاولوا النفع في أشيائهم نفعوا قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم

إن الحالات فاعلمن شرها البدع سجية تلك منهم غير محدثة

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأنى سباقهم تتبع

وابدح حسان فبلغ الذروة ، فالسباقون من الناس هم خلف آخر سباق من المسلمين ، اليوم وغداً وإلى قيام الساعة ، فهم الأمة الوسط التي ينقاد الناس لها .

عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم

وازنوا أهل مجد بالندي متعوا ^(١) إن سباقوا الناس يوماً فاز سباقهم أو

لا يطبعون ^(٢) ولا يرديهم طمع أعفة ذكرت في الوحى عفتهم

ولا يمسهم من مطعم طبع ^(٣) لا يخلون على جار بفضلهم

ولا يوجد في الأرض من ذكر الوحى فضله وكرمه وجوده في ترفع عن الم والأذى ، وإيثار للضيف على النفس إلا هم - أعفة ذكرت في الوحى عفتهم - وصدق حسان ، فلا دنس ولا لوث في جودهم « وأَذْنِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارُ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْعَلُونَ مَهَاجِرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

(١) متعوا : زادوا .

(٢) دنس .

(٣) طبع .

خَصَامَةٌ وَمَنْ يُوقَ شَعَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٦) ﴿الخنزير﴾ .

وأين يقف الشعر مهما سما أمام هذا الوصف القرآني الفريد الرباني المعجز ، ويكتفى
حسان فخرًا أن يشير إلى أن الوحي ذكر عفتهم ، والناس بعد أن يسلموا يعرفون هذا
الذكر ؛ لأنهم قبل إسلامهم على قلوبهم أكنة أن يفهوه ، وبعد أن ينتقل لوصف الحرب
لهذا الجيش المؤمن تجده يصل قمة إبداعه في الصور التي يعرضها عنها :

إذا نصبنا لـى لم ندب لـهم كما يدب إـلى الوحشية الفزع
نسمـو إذا الحـرب نـالتـنا مـحالـبـها إذا الزـعـانـفـ من أـظـفـارـها خـشـعـوا
فـحـيـنـ يـدـبـ الرـعـبـ فـي قـلـبـ كـلـ جـبـانـ ، وـقـدـ أـنـشـتـ الحـربـ أـظـفـارـهاـ . فـنـكـونـ نـحنـ
الـذـينـ نـصـعـدـهاـ .

لا يـفـخـرـونـ إـذـا نـالـوا عـدـوـهـمـ وإنـ أـصـبـيـوا فـلاـ خـوـفـ وـلـاـ هـلـعـ
وـلـاـ شـكـ أـنـ هـذـاـ خـلـقـ إـسـلـامـيـ أـصـيـلـ ؛ إـذـ الفـخـرـ دـيوـانـ العـرـبـ ، وـخـاصـتـهـ حـيـنـ
يـنـالـواـ مـنـ عـدـوـهـمـ .

كـائـنـهـمـ فـى الـوـغـىـ وـالـمـوـتـ مـكـتـبـعـ أـسـدـ بـحـلـيـةـ فـى أـرـسـاغـهـاـ فـدـعـ
خـذـ مـنـهـمـ مـاـ أـتـىـ عـفـوـاـ إـذـ غـضـبـوـاـ وـلـاـ يـكـنـ هـمـكـ الـأـمـرـ الـذـىـ مـنـعـواـ
فـلـانـ فـيـ حـرـبـهـمـ فـاتـرـكـ عـدـاـتـهـمـ شـرـاـ يـخـاصـ وـفـيـهـاـ السـمـ وـالـسـلـعـ
فـهـمـ اـسـدـ الـذـينـ لـاـ يـقـومـ أـحـدـ لـغـضـبـهـمـ إـذـ غـضـبـوـاـ ، وـهـوـ يـنـصـحـ النـاسـ أـنـ يـتـجـبـبـواـ
حـرـبـهـمـ فـقـيـهـاـ السـمـ وـالـسـلـعـ الـمـسـمـوـ ، وـلـاـ تـفـكـرـ بـاـنـ تـنـالـ مـنـهـمـ ذـرـةـ وـاحـدـةـ إـذـ قـدـرـواـ مـنـعـ ماـ
عـنـهـمـ .

وصدق حسان ، ألم يفعلوها يوم الأحزاب حين أراد رسول الله ﷺ أن يكسر شوكة
عدوهم فراح يفاوض غطفان على ثلث ثمار المدينة ، ماذا كان جوابهم :

وـالـلـهـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ، لـقـدـ كـانـ نـحـنـ وـلـيـاـهـمـ فـىـ الـجـاهـلـيـةـ لـاـ يـطـمـعـونـ أـنـ يـاـكـلـوـاـ مـنـ تـمـرـةـ
وـاحـدـةـ إـلـاـ قـرـىـ أـوـ بـيـعـاـ ، فـبـعـدـ أـنـ أـعـزـنـاـ اللـهـ بـكـ وـأـكـرـمـنـاـ بـالـإـسـلـامـ نـعـطـيـهـمـ أـمـوـالـاـ ، لـاـ
وـالـلـهـ لـاـ نـعـطـيـهـمـ إـلـاـ سـيـفـ ؛ وـلـاـ يـكـنـ هـمـكـ الـأـمـرـ الـذـىـ مـنـعـواـ .

أـكـرمـ بـقـوـمـ رـسـوـلـ اللـهـ شـيـعـتـهـمـ إـذـ تـفـاوـتـ الـأـهـمـاءـ وـالـبـدـعـ
أـهـدـىـ لـهـمـ مـدـحـتـىـ قـلـبـ يـؤـازـرـهـ فـيـمـاـ أـحـبـ لـسـانـ حـائـكـ صـيـعـ
فـلـانـهـمـ أـفـضـلـ الـأـحـيـاءـ كـلـهـمـ إـذـ جـدـ بـالـنـاسـ جـدـ القـوـلـ أـوـ شـمـعـواـ

وابتدأ الحديث عن صلتهم برسول الله ﷺ ، وانتهى به كذلك فهم شيعة رسول الله ﷺ ، أو شيعتهم رسول الله وحافظهم عن الخلل والزلل . عندما يقود غيرهم الأهواء والبدع ، وأحسن التميميون أن الفرق كبير بين الفريقين ، فحاول الأقرع بن حابس أن ينقد الموقف . فيقدم بعض الشعر فيعدل الكفة المائلة فقال كما في رواية ابن الأثير :

(فقام الأقرع بن حابس ، فقال : إني والله يا محمد ، لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء ، قد قلت شعرًا فاسمعه . قال : هات . فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا
إذا خالقونا عند ذكر المكارم
وأنا رؤوس الناس من كل عشر
وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وزاد ابن هشام : وهو ينسبها إلى الزيرقان بن بدر :

وأنا نذود المعلمين (١) إذا انتخوا
ونضرب رأس الأصيد (٢) المتفاقم
وأنا لـنا الـربـاعـ فـى كلـ غـارـةـ
نـغـيرـ بـنـجـدـ أـوـ بـأـرـضـ الـأـعـاجـمـ (٣)
فقال رسول الله ﷺ : قم يا حسان فأجبه فقال :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم
لنا خمول من بين ظهر وخدم
فقال رسول الله ﷺ : « لقد كنت غنياً يا أخا بني دارم أن يُذكرَ منك ما ترى أن
الناس قد نسوه » .

فكان قول رسول الله ﷺ أشد عليهم من قول حسان :

ثم رجع حسان إلى قوله :

رداـفـتـناـ مـنـ بـعـدـ ذـكـرـ الـمـكـارـمـ
وأـفـضـلـ مـاـ نـلـتـ مـنـ الـمـجـدـ وـالـعـلاـ
وأـمـوـالـكـمـ أـنـ تـقـسـمـواـ فـيـ الـمـقـاسـمـ
فـإـنـ كـتـمـ جـتـمـ لـحـقـنـ دـمـائـكـمـ
وـلـاـ تـفـخـرـواـ لـلـهـ نـدـاـ وـأـسـلـمـواـ
فـلـاـ تـجـعـلـواـ لـلـهـ نـدـاـ وـأـسـلـمـواـ
وـلـاـ وـرـبـ الـبـيـتـ مـالـتـ أـكـفـاـ
عـلـىـ رـؤـسـكـ بـالـرـهـفـاتـ الصـوـارـمـ
وـلـاـ عـجـبـ أـنـ يـكـنـتـهـ مـبـالـغـاتـ شـاعـرـ فـيـماـ يـتـنـافـسـ فـيـهـ الشـعـراءـ ،
فـقـوـلـ حـسـانـ قـدـ يـكـنـتـهـ مـبـالـغـاتـ شـاعـرـ فـيـماـ يـتـنـافـسـ فـيـهـ الشـعـراءـ ،
لـكـنـ أـنـ يـقـرـ رـسـولـ اللهـ

(١) المعلمين : الذين يعلمون أنفسهم بالحرب لشجاعتهم .

(٢) الأصيد : التكبر .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٥٦٦ / ٢ .

هذا الأمر ، وأنه كان ولم ينسه الناس بعد ، فقد أصبح وصفاً لازماً لهم لا فكاك عنه ، وينهى حسان حديثه بدعوتهم إلى الإسلام ، وإنها حالة الحرب ، وإلا فالقتل والقتال هو الذي ينهى الأمر بين الفريقين .

ونعود إلى رواية ابن هشام فقد ساقت أبيات حسان بإضافات جديدة لا يناسب غضن الطرف عنها .

(فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

وجاه الملوك واحتمال العظام
على أنف راض من معنٍ وراغم
بجأية الجحولان وسط الأعاجم
بأسافينا من كل باغٍ وظالم)

هل المجد إلا السؤدد العود والندي
نصرنا وأويننا النبي محمدًا
بحى حرید أصله وثراوه
نصرناه لما حل وسط ديارنا

وهنا يدلل الشعر الإسلامي الدافئ الحار الصادق :

جعلنا بنينا دونه وبناتنا
وطبنا له نفساً بفء المغافنام
وصدق حسان ، وما يوم حنين بسر ، يوم ذهب الناس جميعاً بالشاء والبعير ،
وذهبوا هم برسول الله ﷺ .

ونحن ضربنا الناس حتى تابعوا
على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها
أو ليس هاشم قد تزوج ليلي التجارية ، فأخبئت له عبد المطلب الذي يتسبّب الرسول
ﷺ إليه ، فهم الذين ولدوه وهم الذين نصروه ، وعاد بعد هذا المجد الخالد والعز التالد
بتتحدث عن بنى دارم :

يعود وبالاً عند ذكر المكارم
لنا خَوْل من بين ظئر وخدم
وأموالكم أن تقسموا في المقاسِم
ولا تلبسو زِيَاً كزى الأعاجم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم
فإن كتُمْ جُتُمْ لحقن دمائكم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا

وابن هشام اللغوي العالم أعرق بالشعر من غيره وأعرف ، وهذا هو الأنسب أن
يدعوهم إلى الإسلام دون أن ينذرهم بالحرب ، ويستثير نخوتهم وجاهليتهم وعصبيتهم .
لقد كانت هذه أغرب سجال تم بين المسلمين وخصومهم من بنى تميم ، ولا تزال

نساؤهم سبايا وأولادهم أسرى ، وأرادوا أن يملكون الساحة بالبيان حين عجزوا عن ملك ناصيتها بالستان ، فكانت خسارة اللسان أكبر ، وكانت أدعى أن تعيدهم إلى صوابهم ، وتهدي رواعهم ، وتفتح قلوبهم للإسلام إذ هو الحل الذي لا مفر منه ، هو الإسلام كما قال تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[الحجرات : ١٤]

وتجمع الروايات كلها بعد على إسلام بنى تميم .

(فقام الأقرع بن حابس فقال :

يا هؤلاء، ما أدرى ما هذا الأمر ؟ تكلم خطبهم فكان خطبهم أرفع صوتاً ، وتكلم شاعرهم ، فكان شاعرهم أرفع صوتاً وأحسن قولًا .

وكما نشهد فلا يخدثهم عن المبادئ والعقائد ، ولا عن بطidan آلية الكفر وزيفها ، وعن العبودية لله الواحد إنما يخدثهم عن الهزيمة في الشعر والثر ، فلابد أن يكون شاعرهم موهوباً ومؤتاً من قوة خفية هي فوق قوتهم ، وكان الإيمان أمام هذه الهزيمة .

(... ثم دنا إلى النبي ﷺ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « لا يضرك ما كان قبل هذا » .

وفي وفدي بنى تميم نزل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُّرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) » [الحجرات] . تفرد برواية هذا الحديث مطلقاً بأشعاره المعلى بن عبد الرحمن ابن الحكم الواسطي) (١) .

وعند ابن هشام :

قال ابن إسحاق : (فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله ، قام الأقرع بن حابس فقال : وأبى ، إن هذا الرجل ملتوى له ؛ خطبيه أخطب من خطبينا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ؛ ولا صواتهم أحلى من أصواتنا . فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوازتهم) (٢) .

وقد نقل لنا الواقدى عن المرأة الانصارية أنها شهدت هذه الجوازات وأنها كانت اثنى عشرة أوقية من الفضة . وللغلام الذى معهم ست أوقيات ونشا ، أى نصف أوقية .

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى ١٢٨ / ١ - ١٣٠ ت الأقرع بن حابس .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٦٧ / ٢ .

ويتهىء هذا السجال بالإسلام ، لكن هناك جوانب أخرى قد عرضها القرآن ، أو عرضتها الروايات الأخرى ، تمس الجانب التربوي لا مندوحة من الحديث عندها ، فقد أجمعـت الروايات أن هاتين الآيتين نزلتا في بنـي تميم عندما نادـوا رسول الله ﷺ : « اخـرـج إلينـا يا مـحـمـد » تـحدـثـان عن سـوءـ أدـبـ الـوـفـدـ مع سـيدـ الـأـوـلـيـنـ وـالـآـخـرـيـنـ ، وكـلـاـماـ هـمـ قـادـمـونـ مـلـقاـةـ عـيـنةـ بـنـ حـصـنـ سـيـدـ غـطـفـانـ أوـ غـيـرـهـ ، وـمضـتـ تـسـهـمـ إـلـىـ قـيـامـ السـاعـةـ : « إـنـ الـدـيـنـ يـنـادـيـنـكـ مـنـ وـرـاءـ الـحـجـرـاتـ أـكـثـرـهـمـ لـاـ يـعـقـلـونـ ④ وـلـوـ أـنـهـمـ صـبـرـوـاـ حـتـىـ تـخـرـجـ إـلـيـهـمـ لـكـانـ خـيـرـاـ لـهـمـ وـالـلـهـ غـفـورـ رـحـيمـ ⑤ 】 [الحجرات] ، ولـئـنـ ذـهـبـ عـنـهـمـ الذـنـبـ ، فـهـلـ يـذـهـبـ عـنـهـمـ الجـهـلـ وـأـنـهـمـ لـاـ يـعـقـلـونـ ؟

دعاة... وقادة

بعد غزوة حنين كان رسول الله ﷺ يعلم على اتجاهات ثلاثة في التعامل مع عرب الجزيرة :

الاتجاه الأول : هو بعث المصدقين للذين أعلنا إيمانهم وإسلامهم إيذاناً بقيام دولة الإسلام في الأرض وانضمامهم إليها ، وهذا ما سبق أن تحدثنا عنه في الفصل السابق .

الاتجاه الثاني : هو بعث الدعاة في الأرض العربية من النماذج العليا من أصحابه ، ليقوموا بدل الجيوش بإدخال الأمة في الإسلام .

الاتجاه الثالث : إرسال بعض السرايا لشمال الجزيرة وجنوبها لمن لا يزالون يتعاملون من خلال القوة ، بحيث تقدم الدعوة لهم ، وإلا فالسيف يحكم بين الفريقين .

وستتحدث ابتداء عن هؤلاء الدعاة الهداء الذين اختارهم رسول الله ﷺ لهذه المهمة العظيمة :

١- إلى عُمان والبحرين :

(وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابني الجلندي وهما من الأزد يدعوهما إلى الإسلام ، وكتب معه إليهما كتاباً وختم الكتاب)^(١) ، ونصه :

« من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى .
أما بعد : فإني أدعوكم بدعابة الإسلام ، أسلماً تسلماً ، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكم إن أقررتما بالإسلام ولَّيتُمَا ، وإن أبيتمَا أن تقرأ بالإسلام فإن ملككم زائل ، وخيال تحمل بساحتكم ، وتظهر نبوتي على ملككم » .

قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان . فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقاً فقلت : إني رسولُ الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعوني إليه؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخليع ما تبعد من دونه ، وتشهد أن

(١) الطبقات الكبرى لأبي سعد ٢٦٢/١ .

يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا به قدوة ، قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووادت أنه كان أسلم وصدق به . وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : كيف صنع قومه بذلك ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس خصلة في رجل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت وما نستحله في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلـ . قال : فبأى شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النبيّ أخوه : أتدع عبدي لا يخرج لك خرجاً ، ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو ؟ قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يامر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصلب . قال : ما أحسن هذا الذى يدعون إليه ، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ، ونصدق به . ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً ، قلت : إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم قال : إن هذا خلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال : يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ قلت : نعم ، فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطعون لهذا . قال : فمكنت بيابه أيامًا وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه . فأخذ أعونه بضياع ، فقال : دعوه ، فأرسلت فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعوني أجلس . فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوماً ، فقض خاتمه ، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرق منه . قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ قلت : تبعوه إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقى غيرك في هذه الحرجـة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته يوطنك الخيل ويبعد

حضراءك . فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال .
قال : دعني يومي هذا ، وارجع إلىَّ غداً .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إنني لا أرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه . حتى
إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنني لم أصل
إليه ، فأوصلني إليه . فقال : إنني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن
ملكت رجالاً ما في يدي وهو لا يبلغ خيله ما هنا . وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس
كتفال من لاقى . قلت : أنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجني خلا به أخيه فقال : ما
نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه . فأصبح فارسل إلى ، فأجاب إلى
الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقَا النبي ﷺ ، وخلآ بينه وبين الصدقة ، وبين الحكم
فيما بينهم ، وكانوا عوناً لي على من خالفني)١(.

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ . منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمي إلى
المتذر بن ساوي العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام ، وكتب إليه كتاباً ، فكتب إلى
رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه ، وإنى قد قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهُم من
أحب الإسلام ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلى في
ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إنك مهما تصلح فلن نزعلك عن عملك ،
ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » ، وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس
هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية ، وبيان لا تنكر نساؤهم ،
ولا توكل ذباختهم ، وكان رسول الله ﷺ بعث أبا هريرة مع العلاء بن الحضرمي ،
وأوصاه به خيراً .

وكتب رسول الله ﷺ للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال ، فقرأ
العلاء كتابه على الناس ، وأخذ صدقاتهم)٢(.

٢- إلى اليمن :

أخرج البخاري روى عن البراء بن عازب روى قال :

(بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد إلى اليمن . قال : ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه
قال : « من أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ، ومن شاء فليقبل » ،
فكتت فيمن عقب معه ، قال : فغمت أوابي ذوات عدد)٣(وقال الحافظ : (كان

(١) عيون الأثر ٢٦٧ - ٢٦٩ ، وزاد المعاد لابن القيم ٧٤ / ٣ ، ٧٥ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٦٣ / ٨ .

(٣) المصدر السابق ٦٥ / ٨ .

ذلك بعد رجوعهم من الطائف وقسمة الغنائم بالجعرانة) (١) .

وروى البيهقي في السنن والدلائل والمعرفة عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال البراء :

فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فاقمنا ستة أشهر ندعوه إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم إن النبي ﷺ بعث على بن أبي طالب مكان خالد وأمره أن يُقْتَل خالدًا وقال: من أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل . قال البراء : فكنت فيمن عَقَبَ مع على ، فلما دنونا من القوم خرجو إلينا فصلّى بنا على ، ثم صفتَ صفتًا واحدًا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعًا ، فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرًّا ساجداً ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان » مرتين . رواه البخاري مختصرًا) (٢) .

قال الحافظ : (قد ذكر في آخر الباب حديث جابر ، وأن علياً قدم من اليمن ، فلما وفق النبي ﷺ في حجة الوداع وقد تقدم الكلام عليه في كتاب الحج . وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذى من طريق أخرى عن على قال: بعثنى النبي إلى اليمن فقلت: يا رسول الله ، تبعثنى إلى قوم أحسن منى ، وأنا حديث السن لا أبصر القضاء . قال : فوضع يده على صدرى وقال : « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه » وقال :

« يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر » فذكر الحديث) (٣) .

بعثة معاذ رضي الله عنه :

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : « إنك ستأنى قوماً من أهل الكتاب . فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإنهم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإنهم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغانيائهم ففرد على فقارائهم ، فإنهم أطاعوا لك بذلك ، فليأتك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بيته وبين الله حجاب » (٤) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/٦٥ ح (٤٣٤٩) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/٣٥٨ .

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٨/٦٥ .

(٤) فتح الباري ٨/٦٤ ح (٤٣٤٧) .

وعن أبي بردة قال :

(بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال : وبعث كل واحد منهما على مخلاف . قال : والميمن مخلافان ثم قال : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تفرا » (١) . فانطلق كل واحد منها إلى عمله ، وكان كل واحد منها إذا سار في أرضه كان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً فسلم عليه ، فسار معاذ في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ، فإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه . فقال له معاذ : يا عبد الله بن قيس ، أيم هذا ؟ قال : هذا رجل كفر بعد إسلامه . قال : لا أنزل حتى يقتل . قال : إنما جيء به لذلك ، فأنزل . قال : ما أنزل حتى يقتل فأمر به قتل ، ثم نزل فقال : يا عبد الله ، كيف تقرأ القرآن ؟ قال : أتفوقة تفوقاً ، قال : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول الليل ، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحسب نومي كما أحسب قومي) (٢) .

قال الحافظ : (باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع)
كانه أشار بالتقيد بما قبل حجة الوداع إلى ما وقع في بعض أحاديث الباب أنه رجع من اليمن فلقي النبي ﷺ في حجة الوداع لكن القبلية نسبة ، وقد قدمت في الزكاة في الكلام على حديث معاذ متى كان بعثه إلى اليمن ، وروى أحمد من طريق عاصم بن حميد عن معاذ : لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه ومعاذ راكب ... الحديث ، ومن طريق يزيد بن قطيب عن معاذ : وما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن . قال : « قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم ، فقاتل ابن أطاعك من عصاك » . وعند أهل المغارب أنها كانت في ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة) (٣) .

* * *

أكبر القادة العسكريين عند رسول الله ﷺ عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، واللذين أوكل إليهما إنتهاء جيوب الوثنية حول مكة المكرمة ؛ ها هنا اليوم يُعدان لمهمة غير عسكرية ، لمهمة دبلوماسية سياسية في ظاهرها ودعوية في حقيقتها ، ويعلم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام أنهما خلقا للقيادة الحربية ، لكنه وهو يربى هذه الأمة يريد أن يتزعزع عنهما في هذه المهمة قصة الحرب والانتصار بالقوة ليتدرجا على أن يكونوا دعاة فقط ، وبدون هذا التدريب سيكونان نسخة مكررة عن القادة الحربيين في الأرض الذين لا

(١) فتح الباري / ٨ / ٦٠ ح (٤٣٤١، ٤٣٤٢) .

(٢) المصدر السابق / ٨ / ٦٠ .

(٣) المصدر السابق .

هم إلا تحقيق الانتصار بالقوة في سفك الدماء وذبح الأعداء ، ي يريد لهم رسول الله ﷺ أن يتجرداً من السلاح ، ويتحركاً بسلاح الإيمان فقط والدعوة إليه والحرقة عليه . ليرافقهما هذا التدريب في حياتهما التالية كلها ، بحيث يمثلان القيادة المؤمنة في الأرض لا القيادة فقط وستتابع معهما ، ومع العلاء بن الحضرمي ثالثهما ، أخبار هذه المهمة العسيرة . هؤلاء الثلاثة الذين تحركوا نحو عمان واليمن والبحرين في وقت واحد هو بعد انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة ؛ ليكونوا منبع النور في هذه الأرض الجديدة ، بعيداً عن الحجاز ونجد حلبة الصراع ، وسنمضى ابتداءً مع عمرو بن العاص رض إلى عمان . يحدثنا عمرو بن العاص رض عن أعماق نفسه حين أسلم ، وطمأناته الكبرى بعد أن أسلم على يدي النجاشي فيقول :

أسلمت عند النجاشي ، وبأيامه على الإسلام ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فأعلمه أني قدّمت راغباً في الهجرة وفي ظهور الإسلام ، وأنا أحب أن يرى أثرى وغناي في الإسلام وأهله ، فقد طال ما كنت عوناً عليه . فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يجب ما قبله ، وأنا باعثك في أناس أبعثهم إن شاء الله » (١) .

ومر الزمن ، وقد غزوة ذات السلاسل ، وحضر فتح مكة ، وشهد نصر حنين ، وهدم صنم سواع وعاد من دورته التربوية التي تؤهله ليكون الرجل الداعية في الإسلام . إن مقدرته الحرية وكفاءته القتالية قد أبرزها مع الجيش الإسلامي في غزوة ذات السلاسل ولكن دور القوة يكاد ينتهي . فقد انسحاب العرب للقيادة المحمدية طوعاً أو كرهاً بعد إسلام مكة ، وأصبح الدور الأهم للدعوة لا للقوة ، وأصبح الإسلام الآن بحاجة إلى الإداري الماهر ، والدبلوماسي الكفء الذي ينفذ شريعة الله على هذه القبائل التي دانت بالإسلام . وإلى الداعية العظيم المترشّب بروح الإسلام والمعجون فيه كي يدخل الإسلام إلى قلوب الناس رغبة بعد أن دخلوا رهبة .

واختار رسول الله ﷺ من حزبه ثمانية رجال ، وكان أحد هؤلاء الثمانية عمرو بن العاص ، يقول عمرو : (فلما كان بعد ذلك بعث رسول الله ﷺ ثمانية نفر سماهم ، فكنت أنا المعهود إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، وكانا من الأرد ، والملك منهم جيفر) (٢) .

إذن لقد تحقق الحلم ، وها هو بمفرده يكلف بدولة عمان ، ورفاقه السبعة كلهم قد مضوا إلى قبائل أعلنت إسلامها ، أما هو فيمضي إلى عمان ولا يزال ملكها على الشرك . ورسول الله ﷺ الخير بالأرض والناس يدرك سماحة أهل عمان ونفاسة معدنهم ، وهو يطمئن إلى حسن استقبالهم لرسول رسول الله ﷺ وذلك كما في صحيح مسلم :

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٠٧/١٩ .

« ولو أن أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك » (١) .

وها هو عليه الصلاة والسلام يحدد جغرافية الأرض ، وطبيعة أهلها كما في الحديث الذي رواه أحمد : « إنى لأعلم أرضاً يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر ، لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا حجر » (٢) ، فهو الوحى الربانى إلى رسوله بطبيعة هذا البلد وأهلها ، والتى سيطئها عمرو بن العاص لأول مرة وبعد أن أعطى عليه الصلاة والسلام هذه المعلومات لجنديه (كتب إليهما كتاباً يدعوهما فيه إلى الإسلام ، وكتب أبي بن كعب الكتاب وختمه) .

إنه يسير من أقصى غرب الجزيرة بالمدينة ، إلى أقصى شرق الجزيرة ، إلى عمان المتاخمة لارض فارس ؛ من البحر الأحمر في الغرب الذى قطعه مرات إلى الحبشة في الجاهلية والإسلام إلى بحر عمان في أقصى الشرق يجوب الصحراء العربية كلها وحيداً في مهمته التاريخية ، وهكذا يصنع التاريخ الرجال ، ويصنع الرجال التاريخ .

عند ملكى عمان :

لا ندرى من أين استقى عمرو بن العاص خواصه معلوماته التاريخية الخاصة عن جيفر وعبد ولدى الجلندى ، وعرف بثاقب نظره أن جيفر الملك أمامه عُقدَّ ضخمة تحول بينه وبين الإسلام ، بينما أحوه عبد أقل عُقداً منه ، فهو أصغر سنًا منه ، وهو بمثابة مستشار لأخيه الملك ، فمن الممكن التوغل إلى قلبه قبل قلب أخيه .

يقول عمرو : (خرجت حتى انتهيت إلى عمان فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقاً . فقلت : إنى رسول الله إليك وإلى أخيك . فقال أخي المقدم علىَ بالملك والسن وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك) .

وكان من الممكن لدى غير ابن العاص أن يمضى وينتظر حتى يلتقي بجيفر ، لكنه يرى فرصة سانحة للحديث عن الإسلام بين يدي عبد أخيه ، فلم لا يستغلها ، والظاهر أن عبداً أخاً جيفر من طراز عمرو ذكاءً ودهاءً وفصاحةً ، ولتشهد معركة الكر والفر بين الرجلين .

(ثم قال لي : وما تدعوا إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبد من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله) .

والتلجلج في العقيدة ليس دهاءً ولا عبرية ، فلا بد أن تتضح من اللحظات الأولى طبيعة هذا الدين ومنطلقاته . لقد كان إعلان الحاكمة والوحدانية لله تعالى قبل كل

(١) مسلم ٤/١٩٧١ ح ٢٢٨(٢٥٤٤) .

شيء ، والتلقي لكل هذه الأمور من رسول الله ﷺ هي هوية هذا الدين الذي لا يقوم ولا يعرف إلا به . ويدرك عمرو بن العاص - وهو الذي خاض معركة العقبة عشرين عاماً يرفض الاعتراف بهذه الوحدانية - أنه لا إسلام بلا توحيد . وثبتات رسول الله ﷺ وإصراره عليها هو الذي جلى له هذه الحقيقة : « إنما جنتكم بلا إله إلا الله ، وتبذلون ما تعبدون من دونه ، فإن قبلكم فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن أبیتم أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم وهو خير الحاكمين » .

لكن عبد بن الجلندي أبرز جوانب عقريته بهذا السؤال لعمرو :

(يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة)

وبذلك أوقع عمراً في معضلة لا يخلص منها إلا مثل عمرو ذكاء ودهاء وحسن حيلة ، وهو المنطق الذي استعمله الملا من قريش مع رسول الله ﷺ : يوم طلبوا منه بعث قصي بن كلاب ليؤمنوا به ، وأدرك عمرو مرامي ابن الجلندي ، وأخذ الكُرَّة وألقاها ثانية في مرماه بقوله :

(مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به...) .

ويدرك ابن الجلندي أن عمرو بن العاص عريق في الجاهلية والكفر ، وأنه جديد على الإسلام ، ومن السهل أن يتراجع عن هذا الدين الذي لم يمر عام واحد على اعتناقه له في المدينة ، وعرف عمرو ما يجول بذهنه عبد فتى كلامه : (وقد كنت أنا على مثل رأيه ، حتى هداني الله للإسلام) .

وعاد ابن الجلندي ، فمضى بعمرو يرد سهمه نحوه ، مشيراً إلى حداثة عهده بالإسلام : (قال : فمتى تبعته ؟ قال : قريباً ، فسألني : أين كان إسلامي ؟) .

وما أحرض عمرو على أن يقدم هذه المعلومات لعبد بن الجلندي عن موطن إسلامه ، فالجلندي والنجاشي خاضعاً لقيصر ملك الروم ، وكلاهما نصاريان . يمكن أن يقتدى أحدهما بالأخر (١) .

(فقلت : عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم) .

وهو الخبر الذي استحوذ على اهتمام ابن الجلندي ، فغدا هو المحور الرئيسي للحديث (قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه) .

(١) يقول اللواء شيت خطاب في كتابه *سفراء النبي ﷺ* : وهذه المحاجرة تدل على أن الأخوين كانوا من النصارى ، وأن هرقل لآنه ملك أكبر دولة مسيحية . كانت له هيبة على نصارى الشرق بدون استثناء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ص ١٥٨ .

ولم يكُد عَقْل عبد يصدق الخبر ، فدولة النصارى ضاربة أعماقها في جذور الحبشه ، والأساقفة والرهبان هم الذين نخرعوا نخرة رجل واحد ضد سلفه السابق حين أُعلن إيمانه بالوحدانية ويعبودية عيسى ابن مريم ، ولم يتراجعوا حتى حرّكوا الجماهير في ثورة عنيفة ضده حتى اضطر إلى التراجع عن إعلانه الإسلام ، وأخفى دينه في أعمقه .

(قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ ! قلت : نعم) .

إن هذا ضد منطق الأحداث ، وعقبالية ابن الجلندي في حكمه على التطورات السياسية الدينية لا تدعه يقبل هذا التطور المفاجئ ، وأمامه عمرو بن العاص ذاهية العرب ، فكيف يكذبه وهو يعلن أمامه ذلك .

قال : (انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب .

قلت : ما كذبت ، وما نستحله في ديننا) .

لقد تجاوز الحديث المظاهر الدبلوماسية ، والبروتوكولات الرسمية ، وتقدّم عمرو إلى أعمق عبد بن الجلندي حين هزَّ بحديث النجاشي ، يقول ابن الجلندي متفاعلاً مع الحديث : (ما أرى هرقل قد علم بإسلام النجاشي ؟ ! قلت : بلى) .

إن العقد المتكافنة على قلب ابن الجلندي بدأت تنحل وتهوى ، ترى ما مصير النجاشي إن صدق عمرو في معرفة قيصر بإسلامه . أليس اختياره أو عزله على أقل تقدير ؟ !!

وتتابع المفاجآت كائناً يمضي عمرو بلب ابن الجلندي وعقله إلى حيث يريد .

(قال : بأى شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً ، فلما أسلم وصدق محمد ﷺ قال : لا والله ، لو سألهنَّ درهماً واحداً ما أعطته) .

إنه إعلان تمرد على ملك الدنيا هرقل ، وهذا يعني تعريض الحبشه للاحتلال المباشر من قيصر الذي تربع على قمة الدنيا ، وهزم كسرى ملك الملوك ، وحجب ماشيَا شكرًا لله على هذا الانتصار .

فهل يقبل هذا التحدى ؟؟

ولا يكاد ابن الجلندي يفيق من ضربة إلا وتأتيه الثانية تنهال كالطارق على رأسه .

(فبلغ هرقل قوله . فقال له (ينافق) أخوه : أندع عبدك لا يُخرج لك خرجاً ويدين ديننا محدثاً . قال هرقل : رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به ، والله لو لا الصنْ بِلْكى لصنعت كما صنع) .

ولم يكدر يصدق ما سمع قال : (انظر ما تقول يا عمرو ، قال : والله صدقتك) .

إن ابن الجلندي الآن قد انزاحت أمامه أكبر عقدة من عقد الكفر والجاهلية ، وهي عقدة الخوف على الملك ؟ فله في النجاشي أسوة ولا خطر على ملكه لو أسلم إذن .

فليعد إلى عمرو يسأله عن هذا الدين .

وكم نجح جعفر رضي الله عنه ، وحطم مؤامرات عمرو ضد الإسلام والمسلمين في الحبشة ، ونفذ إلى قلب النجاشي ، فها هو عمرو بن العاص المسلم الآن . يسجل انتصاراً باهراً في تحطيم عقدة الخوف على الملك من قلب ابن الجلندي ، في الوقت الذي كان عند النجاشي يهولها ويضخمها ليبعده عن الإسلام حين قال له : إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا وأفسد فيما وتناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ، ونحن لك ناصحون ، وأنت لنا عية صدق ، تأتى إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك بعثنا قومنا إليك ، لتنذرك فساد ملكك) .

وكم الفرق شاسع بين عمرو الجاهلي الذي يحذر النجاشي فساد ملكه وزواله لو اتبع الإسلام ، وبين عمرو المسلم الذي يذلل نفسه ابن الجلندي ليقتدي بالنجاشي الذي أسلم وتحرر من سيطرة قيصر وحافظ على ملكه !! « هو الذي أخرجكم من الظلمات إلى النور » .

قال عبد : (فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟) .

ولا يزال جعفر الرمز في قلب عمرو وعقله ، كيف عرض الإسلام على النجاشي فarser قلبه ولبه ، هو القدوة والمثل الأعلى لعمرو . فها هو يمضي على طريقه نفسه قائلاً : (يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثان والصلب . فقال :

ما أحسن هذا الذي يدعو إليه . لو كان أخي يتبعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخي أحسن بذلك من أن يدعه ويصير ذنباً .

قلت : إنه إن أسلم ملّكه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فرداً على فقيرهم) .

والجديد عند عمرو رضي الله عنه هو أنه يريد أن يقنع أبني الجلندي ليس بعقيدة الإسلام فقط إنما بشرعية الإسلام كذلك ، ولا يثبت هذا الملك إلا بتطبيق هذه الشريعة ، فلذلك أردف حديثه عن ثبيت ملك الجلندي بحديثه عن تطبيق نظام الإسلام في الصدقة .

(قال : إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟

فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل
قال : يا عمرو ، تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ قلت : نعم .
قال :

والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطعون بهذا) .

وكانت نظرة عبد بن الجلندي بعيدة الغور . فردة العرب معظمها كانت من أجل ذلك ، فملك سلطة مطلقة ، والعدل وإنقاذ الفقير من فقره ليست سمة من سمات صاحب السلطان والصوبجان ، إن لم ترافقه عقيدة وازعة . ودين رادع .

قال عمرو : (فمكثت بيابه أياماً ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى) .

فلقد كان يرسل نسائم الإسلام وأعلامه وأحكامه المرة بعد المرة إلى جيفر بن الجلندي عن طريق أخيه . وكان اللقاء الحاسم .

(ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه ، فأخذ أعنانه بضيعي (١) . فقال : دعوه ؛
فارسلت فذهبت لاجلس ، فأبوا أن يدعوني أجلس ؛ فنظرت إليه ، فقال : تكلم
بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوماً ، فقض ختمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم
دفعه إلى أخيه ، فقرأه مثل قراءته إلا أنني رأيت أحاه أرق منه ثم قال : ألا تخبرني عن
قرיש كيف صنعت ؟) .

وادرك عمرو من الموقف كله ، طبيعة اللهجة التي يتكلم بها أمام هذا الملك البدوي
الخشن الذي يعلم أن سعار الحرب كلها كانت بين محمد وقرish التي نصب لها خربة .

(قلت : تبعوه إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف) .

وإذا كان العدو الأول قد سقط رغبة أو رهبة ، فمن أتباعه ؟ واستطاع عمرو ثوابته
بعقريته النادرة إلى أن يغوص إلى أعماق جيفر ، وأبعد تفكيره ، وخفقات قلبه ،
 واستجمع كل بلاغته وكل شجاعته وكل إيمانه ليشخص الموقف كله ، فلن يستطيع الحوار
الطويل مع هذا الملك العتيد بكله وأتباعه . قال :

(قال : ومن تبعه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ،
 وعرفوا بقولهم مع هدى الله إياهم أنهم في ضلال ، فما أعرف أحداً غيرك في هذه
 الحرجة (٢) ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبّعه يوطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم

(١) الضيع : ما بين الإبط إلى نصف العضد .

(٢) الحرجة : غيبة الشجر المثمرة ، لا يقدر أحد أن ينفذ فيها .

وستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

قال : دعني يومي هذا وارجع إلى غداً) .

وصدق فراسة عمرو ، فلو لم ينقل الموقف كاملاً ، بحيث أوضح فيه كل ما لديه من قوة في احتمال زوال ملكه وإيادته إن وقف في وجه الإسلام ، وكل ما لديه من حكمة في ثبات ملكه لو أسلم ودخل في دين الله ، لو لم يتمكن من إيضاح هذا الموقف الجلي تماماً لما يمكن جيفر أن يفكر تفكيراً صحيحاً في اتخاذ الموقف المناسب ، ولم يقف عمرو مع هذا مكتوف اليدين فهو يريد أن يتبع الأمر من كل جهة حرصاً على اعتناق هذا الملك للإسلام . حيث يتبع قومه كلهم بذلك .

(فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إني لا رجو أن يسلم إن لم يضن بملكه ! حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لي ، فانصرفت إلى أخيه . فأخبرته إني لم أصل إليه ، فأوصلني إليه . فقال :

إني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ها هنا ، وإن بلغت الفت (١) قتالاً ليست كفتال من لاقى) .

وعوضاً عن أن يلجم عمرو إلى الحوار والكلام . لجا إلى أسلوب زعزع به شخص جيفر بكلمة واحدة . (قال : وأنا خارج غداً) . وهذا يعني أن الموقف النهائي سيتحمل تبعته كاملة .

(فلما أيقن بمخرجي خلا به أخيه فقال :

ما نحن فيما ظهر عليه !! وكل من أرسل قد أجابه !؟

فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه ، وصدق النبي ﷺ وخلياً بيني وبين الصدق ، وبين الحكم بينهم ، وكان عوناً لي على من خالفني) .

وندع التعليق للواء شيت خطاب على هذه الدعوة قائلاً :

(لقد كان جيفر أكبر من أخيه عبد ستاً ، فكان هو الملك ، ولكن أخيه عبداً كان أكثر عقلاً واتزانًا وروية من أخيه ، وأرحب صدرًا ، وأوسع أفقارًا ؛ لذلك تأثر بكتاب النبي ﷺ قبل أخيه ، ومال إلى الإسلام .

أما جيفر ففَكَرَ بملكه أولاً ، وخشي عليه من الإسلام ، فما تجاوب مع الكتاب البوى تجاوياً سريعاً كما تجاوب أخيه ، فطلب جيفر أن يمهله عمرو يوماً واحداً ليفكر في

(١) الفت : وَجَدْتُ .

أمره ملياً ، وليقرر ما يفعله بعد أن يقلب الأمور كما ينبغي .

وهنا برب دور أخيه عبد في حث جيفر على اعتناق الإسلام ، وحمل أخيه على الإيمان بدين الله ، وألا يرد عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة المنورة خاتماً .

واقتنع جيفر بالإسلام كما اقتنع أخوه عبد ، فأسلموا عن قناعة كاملة لا غبار عليها ؛ لذلك قدموا الصدقات طوعاً ، وعاونا عمرو بن العاص على جمع الصدقات من الأغنياء وردها على الفقراء ، وجمع الجزية من المجوس ، وكان خير عون له في النهوض بهمته في واجبات الحكم والإدارة في عُمان وما حولها من البلاد، كما أنهما ثبّتا على الإسلام، ولم يرتدَا كما ارتد غيرهما من أهل عُمان ، وتعاونا مع القائد الذي بعثه أبو بكر الصديق إلى عُمان ، ومع جيشه في حرب المرتدين ، حتى عادت عُمان إلى الإسلام .

أما عمرو فقد كان يحق سفيراً متّمرساً، مارس السفارة مرتين قبل الإسلام، ومارسها هذه المرة الثالثة بعد الإسلام ، فلا عجب أن يكون تصرفه في هذه السفارة تصرفاً حصيفاً يدل على الالعنة والذكاء الخارق ، فكان حاسماً في جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول به ؛ إذ أظهر له أنه راحل غداً ، فخاف جيفر من عواقب الأمور ، وبخاصة أن العرب دخلوا في دين الله أفواجاً ، وفتحت مكة المكرمة ، وأصبحت وفود العرب تتقاطر إلى المدينة من كل حدب وصوب معلنة إسلامها وأنها انضمت تحت راية الوحدة والتوحيد في ظل الإسلام .

وقد أخفق عمرو في سفارته قبل الإسلام ، ولكنه نجح أعظم النجاح في سفارته النبوية بعد الإسلام مع أنه حشد الهدايا للنجاشي ملك الحبشة في سفارته الأولى والثانية ولرجالات النجاشي من رجال الدين ورجال الدنيا ، أما في سفارته الثالثة التي كانت بعد الإسلام ، فلم يحشد شيئاً من متعة الدنيا يستعين به على إنجاح سفارته ، فنجحت بمحاذير الروح لا بمحاذير المادة، وانتصر الإسلام بمبادئه ، ولم يتصرّ بشيء آخر من مغريات الحياة . وهكذا استطاع عمرو أن يضم عدداً ضخماً من العرب إلى الإسلام ، وأن يضم بلاداً شاسعة إلى بلاد المسلمين)⁽¹⁾ .

مع الجلندي الأب :

ويحدثنا وثيمة في كتاب الردة عن ابن إسحاق :

(أن النبي ﷺ بعث إلى الجلندي عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام...).

فيرجح للجمع بين الروايات أن عبداً وجيفر ولدي الجلندي بعد أن أسلموا أدخلوا

(1) سفارة النبي ﷺ للواء الركن محمود ثابت خطاب ص 106 .

عمرو بن العاص على أبيهما الجلندي ، ولعله لتقديمه في السن قد تنازل عن الملك لولديه ، وكان لدى عمرو من الوقت والسرعة والاطمئنان ما يدخل الإسلام هبّا طریاً إلى قلبه . فيقول : بعد أن نجح عمرو رضي الله عنه في إسلام بيت الجلندي كله أباً وأبناءً يقول الجلندي والإسلام قد عشعش في قلبه وفراذه :

(لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يطر ، ويُغلب فلا يهجر ، وأنه يفني بالعهد وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي ثم أنسد)

أثاني عمرو بالتسلي لبس بعدها
من الحق شيء والنصح نصيح
فقلت له : ما زدت أن جئت بالذى
جلendi عُمان فى عُمان يصبح
فيما عمرو قد أسلمت لله جهرة
ينادى بها فى الواديين فصيح)^(١)

ولا شك أن هذه الرواية تحمل في ثناياها أن الجلندي متعمق في كتب النصرانية ، وعارف أن هناك نبياً سيعث بهذه الموصفات ، وأنه كان يبشر بهذا النبي ، ولم يأت عمرو إلا بما كان يبشر به الجلندي قومه ، وهنا يعلن أن ما قرأه قد تحقق تماماً بهذا النبي الأمي الذي وجد وصفه في التوراة والإنجيل كما سمع ولا يبعد أن يكون إسلام ولديه قد تجاوب مع قناعة أبيهما ، فأسلم الثلاثة كلهم لله رب العالمين .

ومن عمرو بن العاص إلى العلاء بن الحضرمي ، وهو من الرعيل الأول من المهاجرين . ولعل كون أصله من حضرموت هو الذي دعا رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إرساله إلى المنذر بن ساوي أمير البحرين ^(٢) .

مع أمير البحرين :

لقد كان العلاء بن الحضرمي أحد إخوة أربعة حلفاء لبني أمية في قريش ، وكان أباهم الحضرمي هو الذي حالف حرب بن أمية ، ويقى أولاده حلفاء لبني أمية ، وكان عمرو بن الحضرمي أول قتيل قتلته المسلمين في سرية عبد الله بن جحش ، وكان آخره عامر هو الذي قام بنشد خفارة أخيه عمرو عندما فكر عتبة بن ربيعة زعيم بني أمية أن يوقف الحرب بين المسلمين والمشركين ويحمل دم حليقه عمرو بن الحضرمي ، واتهى الجميع في صف الشرك إلا العلاء الذي قدر الله تعالى له الهداية ، وعاش في مدرسة

(١) الأصلية في تمييز الصحابة لابن حجر ١/٢٧٥ ت ١٢٦٢ .

(٢) لابد من الإشارة إلى أن ما يطلق عليه اليوم اسم دولة البحرين ليست هي المقصودة في السيرة ، وفي الماضي ، لقد كانت البحرين تطلق على ما يسمى اليوم بالاحسان والهفوف والقطيف ، وهو المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية . وكثير من الأسماء والواقع سابقاً لا تزال على اسمها اليوم في هذه المنطقة .

النبوة عشرين عاماً يتلقى من رسول الله ﷺ ، ويشهد معه مشاهده كلها ، ولقد أتى
الإيذان في قلبه ، وأجرى على يديه في الفتوحات الإسلامية كرامات لا تبلى أبداً الدهر .

(يقول أبو هريرة رضي الله عنه) :

رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبداً ، قطع البحر على فرسه يوم دارين ،
وقدم بريد البحرين ، فدعوا الله بالدهناء فنبع لهم ماء فارتوا . ونسى رجل منهم بعض
متاعه فرد فلقه ولم يجد الماء . . .) (١) .

وفي اجتياز البحر قال عفيف بن المنذر :

أَلْمَسْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ذَلِيلَ بَحْرَهُ
وَأَنْزَلَ بِالْكُفَّارِ إِحْدَى الْجَلَالِ
دَعَوْنَا الَّذِي شَقَّ الْبَحَارَ فَجَاءَنَا
بِأَعْجَبِ مِنْ فَلَقِ الْبَحَارِ الْأَوَّلِ) (٢)

وكان هذا في الجولات اللاحقة للعلامة رضي الله عنه ، أما الجولة الأولى فكانت مذلة
مبكرة مسهلة ليس فيها حرب ولا ضرب ، إنما فيها رسالة من رسول الله ﷺ إلى المنذر
ابن ساوي ليس بين يدينا أي تفاصيل عن اللقاء بين العلاء والمنذر إلا أن الله تعالى شرح
قلب المنذر للإسلام بلا سيف ولا سلاح ، وكان جواب الرسالة النبوية :

(إنى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ،
ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلى في ذلك أمرك) .

لقد استسلم لله رب العالمين ، ووضع نفسه جندياً بين يدي رسول الله ﷺ يتضر
أمره . فكان الجواب النبوى له :

«إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية
فعليه الجزية » ، وبهذا تعلم المنذر إمكانية التعايش بين الأديان من خلال هذا الكتاب .
لكن هذا التعايش لا يعني إلغاء الدعوة إلى الله ، فجاء الكتاب الثاني : (وكتب رسول
الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبواأخذت منهم الجزية ، وألا
تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذباختهم) .

فهم على شبهة أهل كتاب ، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « سنوا بهم
سنة أهل الكتاب »، وتحدد هذا النص العام حين استثنى منه نكاح نسائهم وأكل ذباختهم ،
بينما يجوز ذلك بالنسبة لليهود والنصارى ، وبذلك انحصرت شبهتهم بأهل الكتاب من
خلال أخذ الجزية فقط ، وعدم إجبارهم على التخلص عن دينهم ، وإذا كانت الجزية هي

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ النعوي ١/٢٦٥ . (٢) المصدر السابق هامش ١/١ .

نصيب المجوس واليهود ، فما فرض الله على المؤمنين من زكاة لا تقل عما فرض على المجوس من جزية . فالصدقات والزكاة من المسلمين ، والجزية من اليهود والمجوس ، وتحددت أنصبة الزكاة من رسول الله ﷺ (وكتب رسول الله ﷺ للعلاء فرائض الإبل والغنم والبقر والثمار والأموال . فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقائهم) .

فالعلاء هو الحاكم الإسلامي الذي ينفذ شريعة الله على المسلمين ، والمنذر هو الحاكم الأول للبحرين .

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَثُوكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الحج : ٤١] .

وأما الصلاة فقد كان الوزير المفوض بإقامتها هو أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان هو رفيق العلاء في قドومه من المدينة إلى البحرين ، وأبو هريرة مثل العلاء كلاهما من اليمين ، واختار أن يكون مؤذنه (فعن سالم مولى بنى نصر قال : سمعت أبي هريرة يقول : بعثني رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي . وأوصاه بي خيراً ، فلما فصلنا قال لي : إن رسول الله ﷺ قد أوصانى بك خيراً فانتظر ماذا تحب ؟ قال : تجعلنى أؤذن لك ، ولا تسقنى بأمين ، فأعطيه ذلك) (١) .

وقدّر الله تعالى لأبي هريرة أن يكون أميراً على البحرين فيما بعد ، فقد كانت خبرته التي اكتسبها سبباً في هذه الولاية ، ولم يشهد المسلمون مالاً وغناها كما شهدوا يوم جاء أبو هريرة من البحرين .

مع خالد رضي الله عنه إلى اليمين :

واليمين أوسع الأقطار في تلك الأيام فهي تمتد من جنوبى الطائف إلى البحر ، وهى أكبر من الحجاز ومن نجد ، ولذلك تتابعت عليها السرايا والبعوث والوفود لفتح مغاليقها أمام الإسلام ، وكان أول هؤلاء الوافدين سيف الله خالد بن الوليد الذى برع من أعظم القادة العسكريين بين يدي رسول الله ﷺ ، ولا بد له أن يتدرّب على الدعوة ، ويلقى السيف جانباً ، ويعمل جاهداً داعياً إلى الله تعالى بلسانه ، ولا يحتمكم إلى القوة حين يصد عنك الناس .

وها هو خالد رضي الله عنه يدعو همدان إلى الإسلام ، ولم يمض وحده إنما كان معه سرية كبيرة من المسلمين لكنه لم يؤذن لهم بقتال ، إنما مضى يدعوهم إلى الله عز وجل ، وهم يصدون عن سبيل الله ، ومتى كان خالد بن الوليد يصبر هذا الصبر على لأواء الدعوة ، ويذوق مرارة الصد ، إنه أمضى حياته يحتمكم إلى السيف ، وينهى أمره في التو واللحظة ،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/٢ .

أما اليوم فهو داعية إلى الله عز وجل عليه أن يصبر ويصبر ، ويتجه عقابيل الصد عن الدعوة والدعاة ، فهو لم يعش هذه المرحلة إطلاقاً في حياته ، بل كان في صف المعاندين والمكابرین والمحاربين لله ورسوله ، وكان يذيق الدعاة غصص الصد والاستكبار والاستهزاء بشريعة الله هو وأبوه من قبله . وتشاء إرادة الله تعالى أن يمضي ستة أشهر في هذه الدعوة ، ولا تفتح القلوب الغلف ، ولا تبصر الأعين العمى ، ولا تسمع الآذان الصنم ، وهو ماض في سبيل الله مذعن لقدر الله ، لكم كان يقرأ قول الله عز وجل : **«إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»** [القصص : ٥٦] ، لكنه لم يكن يحسن بها إنما كان يقرؤها بلا شعور ، أما الآن فهو يعيش مأساتها ويحترف بمشاعرها ، وكم يتمنى لو تفتح هذه القلوب ، ويرسل البشري لرسول الله ﷺ بذلك ، ولكن دون جدوی ، مما اضطره أن يبعث إلى رسول الله ﷺ بواقع الأمر ، وجاءه على بن أبي طالب ظوئيشه بإثره ، وعادت إلى ذاكرته سرية بنى جذية يوم قتل الأسرى ، وتبرأ رسول الله ﷺ من عمله بكل شجونها وまさにها ، وأن علياً هو الذي آسى الجراح ، وودي القتلى وطيب القلوب ، فهل يقوم على ظوئيشه بهذا الدور من جديد مع هذه القلوب الجاسية .

يروى لنا البراء بن عازب ظوئيشه ذلك بقوله :

(كنت من خرج مع خالد بن الوليد إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيئوه ، ثم إن النبي ﷺ بعث على بن أبي طالب مكان خالد ، وأمره أن يقف خالداً وقال : « من أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ، ومن شاء فليقبل ». قال البراء : كنت فيمن عقبَ مع على ، فلما دعونا من القوم خرجوا علينا فصلى بنا على ، ثم صفتنا صفاً واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلمت همدان جميعاً . فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان مرتين » .

ونعود إلى خالد بن الوليد ظوئيشه الذي عجز عن تحقيق نصر في مجال الدعوة ينضم إلى انتصاراته العسكرية ، فهل يدفعه رسول الله ﷺ مني البشرية بحمل هذه العقدة في حياته ؟ أبداً ، إنه ابن هذا الدين ، وليس ابن الوليد الجاهلي فقط ، فلنفتح أمامه ثغرة ثانية في اليمن ، ومع بنى الحارث بن كعب الذين لا يقلون نسباً وشرفًا وعددًا عن همدان ، وذلك بعد مرور عام على تجربته الأولى التي فشل فيها ، وبعد نجاحه الباهر في إحضار أكيدر بن عبد الملك إلى رسول الله ﷺ في تبوك ، وذلك ليغسل آثار تلك المهمة الشاقة التي لم تتحقق فيها أهدافها .

وفي بعث خالد بن الوليد ظوئيشه إلى بنى عبد المدان - كما عند ابن سعد - في السرايا

وهم من بنى الحارث بن كعب بنجران في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر.

قالوا : بعثه رسول الله ﷺ إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : « أسلموا تسلمو » فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم شرائع الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه .

لقد كان خواشٍ يُعدُّ العدة لستة أشهر أخرى كما كان الأمر في جولته مع همدان ، ولكن ذلك الصبر العظيم هو الذي قدَّم له هذا النصر الكبير ، ثلاثة أيام فقط ، والرسل تجول في بنى الحارث بن كعب تدعوهם إلى الله تعالى قبل المعركة الفاصلة ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تفتح هذه القلوب على يديه فكانت الفرحة الكبرى التي غمرته باتصار هذا الدين في القلوب ، وقدَّمت له أعظم درس عليه أن يحافظ عليه في حياته إلى أن يموت ، وهو أن يكرر هذه التجربة كلما حاصر قوماً أو قاد جيشاً أو نزل بعده ، لابد من الدعوة إلى الله تعالى والإذن للناس قبل المعركة ، واللهة التي ذاقها بهذه الهدایة جعلته يمضي في فتوحاته القادمة كلها على هذه السنة ، وكان رسول الله ﷺ يعدهُ هذا الإعداد لأنَّه يتوسَّم فيه أن يكون قاهراً لفارس الروم والعرب ، فهو سيف الله في الأرض ، ولا بد لهاذا السيف أن يحمل الرحمة مع الملجمة ، وما حلم به خواشٍ من قبل يراه اليوم واقعاً يتحرك ، فها هو يكتب جوابه لنبيه ﷺ حول مهمته :

بسم الله الرحمن الرحيم لحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد :

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، يا رسول الله صلَّى الله عليك ، فإنك قد بعثتني إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ ويعثُّ فيهم ركباناً ينادون : يا بنى الحارث أسلموا تسلمو فأسلموا ولم يقاتلوا ، وإنني مقيم بين أظهرهم بما أمرهم الله به ، وأنه لهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ ، حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته .

و واضح من ثنيا الرسالة ، والتفاصيل المسهبة فيها تلك السعادة الغامرة التي ملكت خالداً رضوان الله عليه حتى تحس بكل سطر إشعاع هذا النور الذي ملاً نجران بدخولهم

ولعل أهل نجران من بنى الحارث بن كعب إنما استجابوا لهذا الدين ، كما فعل الأنصار من قبل ، لجوارهم لنصارى نجران الذين كانوا يتحدثون أمامهم دائمًا عن النبي الامى الذى أظل زمانه ، وحين نراجع السيرة النبوية نلاحظ أن وفد نجران من النصارى رغم أنه جادل بالباطل ورفض الإسلام ، إلا أنه رفض المبالة فى اللحظة الخامسة . (فلمًا أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله عنه ، والفضل من القضاة بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك ، فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعقب ، وكان ذا رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال :

والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنك للاستصال منكم إن فعلتم فإن كنتم قد أبىتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في أصحابكم ، فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا إلا نلاعنك ، وأن تركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن أبعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضا) (١) .

وبقدار ما سعد سيف الله بإسلام القوم ، وإخبار النبي ﷺ بهذا الإسلام ، سعد كذلك بالجواب النبوى له :

(فكتب إليه رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قبل أن نقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وأن قد هدأهم الله بهداه ، فبشرهم ، وأنذرهم ، وأقبل ، وليرقبل معك وفهم السلام عليك ورحمة الله وبركاته) (٢) .

قيس بن سعد والصادى :

قال ابن إسحاق : لما رجع رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمان بعث قيس بن سعد إلى ناحية اليمن ، وأمره أن يطأ صداء ، فعسكر بناحية قناة في أربعمائة من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٨٣ ، ٥٨٤ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/٣٥٤ ، ٣٥٥ .

ال المسلمين ، فقدم رجل من صداء ، فسأل عن ذلك البعث فأخبر به ، فجاء رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ، جئتك وافداً على من ورائي ، فاردده الجيش فأنا لك بقومي) .

فردهم من قناء ، وخرج الصدائى إلى قومه ، فقدم منهم بعد ذلك خمسة عشر رجلاً فأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك مطاع في قومك يا أبا صداء » . فقال: بل الله هداهم ، ثم وفاه في حجة الوداع بمائة منهم) (١) .

وقيس بن سعد هو ابن سيد الخزرج سعد بن عبادة وهو أولى بأهل اليمن لأن الانصار يمنيون ، وصاده حتى من عرب اليمن وهو حليف بني الحارث بن كعب بن مذحج . ومضى قيس خوفاً بهذا الجيش منصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة هو جزء من الخطة التي بعث فيها خالد بن الوليد خوفاً إلى همدان في اليمن في محاولة لاجتذابهم إلى الإسلام ، وتأهب الجيش ماضياً إلى صداء ، ويشاء قدر الله أن يرد المدينة سيد من سادات هذه القبيلة ، ويعرف أن هذا الجيش ماض لقبيلته يدعوها إلى الإسلام أو يطؤها حريراً لا هواة فيها . ونظفر بن نصي بلسان زياد خوفاً يحدثنا فيه عن ذاته ومشاعره رواه ابن سعد في طبقاته ، يعطينا إضاءات تربوية رائعة بين يدي المربى الأعظم عليه الصلاة والسلام .

روى البغوي والبيهقي وابن عساكر وحسنه عن زياد بن الحارث الصدائى خوفاً قال:

أتيت رسول الله ﷺ فبأيته على الإسلام ، فأخبرتُ أنه قد بعث جيشاً إلى قومي .

قال ابن سعد رحمة الله : لما انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمان بعث قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن وأمره أن يطأ صداء فعسّر بناحية قناء في أربعينات المسلمين .

وإلى هنا ونحن نثبت من المكان والزمان والسبب ، ونتنقل بعدها إلى صاحبنا زياد :

قال زياد بن الحارث الصدائى : فقلت : يا رسول الله ، قد جئتك وافداً على من ورائي ، فاردده الجيش . وأنا لك بآسلام قومي وطاعتكم . فقال لي : « اذهب فردهم » فقلت : يا رسول الله ، إن راحلتي قد كللت ببعث رسول الله ﷺ رجلاً فردهم من صدر قناء . فقدم منهم بعد ذلك على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على من وراءهم من قومهم .

فقد كان هذا الصدائى يعيش لقومه ، يريد أن ينقذهم بالإسلام لا يغنيهم بالقتل ،

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٢/٥٩٢، ٥٩٣ .

فتعهد رسول الله ﷺ بـإسلام قومه راجياً أن يرد الجيش المتأهب للمضي نحوهم . وبفراسة النبي العظيم صلوات الله عليه أدرك أن الرجل ذو جاه في قومه . فقال له : «ذهب فردهم » والزمن له قيمة عند أخرى صداء ؛ فنافته التي جاء بها إلى اليمن قد نزل بها الإعياء بحيث لا تصل إلى قناة إلا والبعث قد مضى لهم ، فكانت جرأتة في مقابلة رسول الله ﷺ طالباً منه أن يعطيه ناقة ذلولاً يدرك البعث قبل تحركه ، ورأى إمام المربيين جدية هذا الأعرابي ، وحرصه على قومه وأنه بهم زعيم أن يسلموا ، وكان هذا هو الأحباب لرسول الله ﷺ أن يرى هذه القلوب عامرة بالإيمان من أن يراها مضرجة بالدماء ، وليدع الفرصة أمام هذا الأعرابي ينقذ قومه من الكفر والموت ، فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً خاصاً من عنده لإيقاف الجيش عن التحرك أمام كفالة فرد واحد من القبيلة .

(بعث رسول الله ﷺ رجالاً فردهم من صدر قناة) .

ونمضي مع زياد بن الحارث الصدائي في حديثه عن قومه قائلاً :

(وكتب إلى قومى كتاباً فقدم وفدهم بـإسلامهم)

وما أروعه من لقاء بدل أن يمضى قيس بن سعد رضي الله عنه في نحر القوم يقتل ويبيد . أن يتقدم أبو قيس سعد بن عبادة باستضافة هذا الرولد عنده حباءً وكرمًا وضيافة وكسوة .

(قدم منهم بعد ذلك على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً . فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله ، دعهم ينزلوا على ، فنزلوا عليه ، فحباهم وأكرمههم وكساهم ، ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وبايعوا رسول الله على من وراءهم من قومهم) . إنها رسالة الهدى للبشرية وليس رسالة الإبادة ، أو رسالة الحكم والسيطرة ، إن هذه العصبية المؤمنة في الأرض تود أن تنشر النور فيها والحياة فيها ، والكفر عندها عديل الموت .

﴿أَوَ مَنْ كَانَ مِيتاً فَأَحْييْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام] .

ونعود إلى أخرى صداء يطلعنا على أسرار جديدة عنه وعن قومه .

(قال زياد: فقال لـي رسول الله ﷺ: « يا أخا صداء ، إنك لطاع في قومك » . قال: فقلت : بل الله هداهم للإسلام ، فقال لـي رسول الله ﷺ: « أفلأ أُمرك عليهم ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، فكتب لـي كتاباً أمرني فيه . فقلت : يا رسول الله ، مر لـي بشيء من صدقائهم قال : « نعم » . فكتب لـي كتاباً آخر) .

ورأى رسول الله ﷺ هذا الانصياع من صداء لابنها البار زياد بن الحارث ، ورأى موقعه العظيم فيهم حتى ليتخلوا عن دينهم لدينه وهو عند رسول الله ﷺ .

فأراد أن يسبر غوره في هذه الإشارة للملائحة « يا أبا صدائ ، إنك لطاع في قومك » وعوضاً عن أن تأخذه العنجية والاعتزار بهذه الثقة من قومه به ، والتي يشهد رسول الله ﷺ بها ، إذ به يُجبل دمه بالإسلام ، ويصاغ بمفاهيمه وعقائده فيقول للمربي الأعظم رضي الله عنه : بل الله هداهم للإسلام .

إنها فرصة مواتية لأن يعدد مآثره ومآثر قومه ، والمرات السابقة التي أطاعوه فيها تدللأ على زعامته وموقعه وقيادته ، وقد رأى رضي الله عنه من هذه النماذج الكثير ، فهو لاء زعماء بنو تميم راحوا يمنون بزعامتهم وأمجادهم وشعراهم وخطبائهم على رسول الله ﷺ ، أما هذا المعدن النفيس الحالد ، الذي نسي ذاته ، والتي ذكره رسول الله ﷺ بها : « إنك لطاع في قومك » قد بدت الصياغة الإسلامية فيه خلال هذه الأيام القليلة التي أمضاها في المدرسة الإيمانية واعتبر هذا فضلاً من الله تعالى عليه وعلى قومه فقال : بل الله هداهم للإسلام .

وأمام هذا الجواب الإسلامي الصراح ، رأه رسول الله ﷺ أهلاً لأن يقود قومه القيادة الإسلامية بمفاهيمها الجديدة فقال له : « أفلأ أومرك عليهم ؟ » .

وأن يأتي العرض من الرسول المصطفى ﷺ ، فهو شرف لا شرف فوقه ، فلم يتردد لحظة واحدة أن قال : بلني يا رسول الله . (فكتب لي كتاباً أمرني فيه) .

وتطلعت نفس هذا الفتى إلى المال الذي لا تصلح الإمرة إلا به ، فكيف يقود قومه . وليس هو ذلك الفتى الذي يملك المال ليسدده به ثغرة السيادة في قومه ، فقلت : يا رسول الله ، مر لى بشيء من صدقاتهم قال : « نعم » ، فكتب لي كتاباً آخر ، وبذلك غدا سيد قومه وأعطى مفاتيح هذه الزعامة بما أمر له من صدقاتهم ، ولم يعد عليه إلا أن ينهي الدورة التربوية في مدرسة القادة ، ويمضي إلى قومه ، وكان آخر مواد هذه الدورة هو مرافقة رسول الله ﷺ في سفره ؛ لمتابعة أعلى أنواع التدريب له ليتسلم بعدها قيادة قومه .

وكانت المفاجآت في هذه المادة العملية .

(قال زياد : وكان ذلك في بعض أسفاره ، ونزل رسول الله ﷺ متولاً فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون : أخذنا بكل شيء بيننا وبين قومه في الجاهلية ، فقال النبي ﷺ : « أ فعل ذلك ؟ » قالوا : نعم . فالتفت رسول الله ﷺ لاصحابه وأنا

فيهم فقال : « لا خير في الإمارة لرجل مؤمن » ، قال زياد : فدخل قوله في قلبي .

ثم أتاه آخر فقال : يا رسول الله أعطني . فقال رسول الله ﷺ :

« من يسأل الناس عن غنى صداع في الرأس وداء في البطن » فقال السائل :
أعطني من الصدقة . فقال رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل لم يرض فيها بحکم نبی ولا غيره في الصدقات حتى حکم فيها
فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ، وإن كنت غنیاً عنها فإنما هي
صداع في الرأس وداء في البطن » . وسمع زياد هذين الجوابين بحساسية عالية ، ونفس
مرهفة ، وغلق العجب الكبير .

رسول الله ﷺ يؤمره على قومه ، ويقول الآن : « لا خير في الإمارة لرجل مؤمن » ،
ورسول الله ﷺ يكتب له من صدقات قومه ويقول له يطلبها : « فإنما هي صداع في
الرأس وداء في البطن » ولو كان من عشاق الإمارة ومن صرعى الرعامة لرمى الأمر بعيداً
عن نفسه فهو الذي عرضت عليه الإمارة من رسول الله ﷺ قبلها ، فليس هو المعنى
في هذه الكلمة : « لا خير في الإمارة لرجل مؤمن » ، وهو الذي طلب من الصدقات
فأعطاه رسول الله ﷺ دون أن يسأل ، أما هذا فرفض أن يعطيه لأنه ليس أهلاً لذلك .

كان بإمكان زياد رحمه الله أن يعتبر هذين الحديثين لا علاقة له بهما ، وقد أخذ من
رسول الله ﷺ صك الإمارة ، وصك المال اللازم لها ، غير أن هذا المعدن العظيم ارتج
كيانه كله لهذين الموقفين ، وراح يتضرر الفرصة السانحة ليطأط حبيبه المصطفى بما يعاني ،
ويسأله عما فوجئ به وإلى أن يخلو له الجو مع رسول الله ﷺ أتحفنا رحمه الله بالمعلومات
الغالية التالية :

(قال زياد : فدخل في نفسي أني سالته من الصدقات وأني غنى ، ثم إن رسول
الله ﷺ اعتنى (١) من أول الليل فلزمت غرذه ، وكانت قريباً منه ، فكان أصحابه
يقطعون عنه ويستاخرون عنه حتى إذا لم يبق معه أحد غيري ، فلما كان آذان صلاة
الصبح أمرني فأذنت ، فجعلت أقول : أقيم الصلاة يا رسول الله ، فجعل رسول الله ﷺ
ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ، ويقول : لا ، حتى إذا طلع الفجر نزل رسول الله ﷺ
فذهب لحاجته ، ثم انصرف إلى وتلاحق أصحابه فقال : « هل من ماء يا أخا صداء ؟ »
فقلت : لا ، إلا شيء قليل لا يكفيك ، فقال رسول الله ﷺ : « اجعله في إناء ثم
اثنتي به » ففعلت ، فوضع كفه في الماء ، فقال زياد : فرأيت بين كل أصابعين من أصابعه

(١) اعتنى في أول الليل : سار في وقت العشاء .

عيناً تفور ، ثم قال لى رسول الله ﷺ :

« يا أخا صداء لولا أنى أستحبى من ربى عز وجل لسقينا واستقينا ، ناد فى أصحابى من له حاجة فى الماء » فناديت فىهم فأخذ من أراد منهم شيئاً .

ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة فأراد بلال أن يقيم فقال له رسول الله ﷺ : « إن أخا صداء هذا أذن ، ومن أذن فهو يقيم » قال الصدائى : فأقمت الصلاة) .

كان لابد أن يشهد هذا الوافد - بعد أن اختلط حمه وعظمه بالإيمان - إكراماً له شيئاً من العجزات النبوية - والتى لم تكن تخطر له على بال ، فهو مشغول مرتجع عليه بما سمع عن الإمارة وأموال الصدقة ، ولعل الظروف لم تسعفه فى مفارقة رسول الله ﷺ فى الأمر ، فرسول الله يكره الحديث بعد العشاء ، فانتظر وبقى بجواره ينتظر أن يتلقى أمراً من رسول رب العالمين ، وكان الأمر أن أمره أن يؤذن فمضى يصدق بما عند أهل اليمن من مزامير داود بصوته الشجى فى الأذان ، وأفاق المسلمين على صوته . وفرح بهذه المهمة السعيدة التى كلفه بها قائده وحبيبه ، وانتظر الإذن بالإقامة ، فهو يعلم أنهما قريتان لا تفترقان ، ولم يكن يعلم إلا بالإقامة بعد الأذان ، ولم يكن يدور بخلده ما أعد الله تعالى له من الكرامة فى هذه اللحظات الخالدة .

انبلاج الفجر ، ومضى رسول الله ﷺ حاجته ، وبدأ الأصحاب يتجمعون ، فينتظرون قدوم روحهم وحياتهم محمد رسول الله ﷺ ، فلا يستطيعون فراقه ، ورأى أن الأمل قد ضعف فى إفشاء ما فى نفسه لقائده . وإذا إمام المربيين ﷺ يختاره من بين الأصحاب ، ويناديه بشخصه وعيشه ، وهو ليس من خاصته فهو وافد جديد تحت المراقبة ، قال له رسول الله :

« هل من ماء يا أخا صداء ؟ » فأقبل بكليته على حبيبه قائلاً : لا ، إلا شيء قليل لا يكفيك ، وأغممه لا يكون عنده الماء الذى يتوضأ به النبي عليه الصلاة والسلام ، لكن الصوت الشجى الذى سمعه وكشف غمه هو قول الحبيب المصطفى له : « اجعله فى إماء ثم اتنى به » ففعلت .

ها هو الآن وقد دخل فى خدمة المصطفى ﷺ ، وسيسجل التاريخ له أنه قد استعمله فى حاجة من شؤونه الخاصة ، وسوف يحدث قومه بهذه الميزة الخاصة ، لكنه لم يكن يدرى أنه معد فعلاً ليخبر الأمة عبر القرون ، لا قومه خاصة بهذه المعجزة الربانية للنبي الكريم .

(فوضع كفه فى الماء ، فقال زياد : فرأيت بين كل أصابعين من أصابعه عينًا تفور) . إنه يفرك عينيه أفى منام هو أم فى يقظة ، إنه هو هو ، وهو الذى يرقب انبلاج الفجر

ليقيم ، وها هو الماء يفور بين أصابع الرسول ﷺ ، وقد أدرك الآن سر هذه الميزة الخاصة ، إنه لابد أن يتقلب إلى قومه ، ويحدثهم عما يرى ، ولا يزال الماء ينبع وينبع ، ويفور ويفور ، وكأنما هي عيون ماء تتفجر ، إنه يعلم أن الماء الذي جاء به إنما كان في قعر الإناء لا يكفي للوضوء ، أما الآن فلا ، الماء يتفجر والرسول يتوضأ ، ويستمع إلى الكلمة الخالدة من نبي الرحمة :

(ثم قال لى رسول الله ﷺ) :

« يا أخا صداء ، لو لا أن أستحيي من ربى عز وجل لسقينا واستقينا » .

لقد آمن بنبوته مجرد سماعه لكلامه الذي شهد فيه صدقه من سيماه ﷺ ، أما الآن فهو يرى بأم عينه آثار النبوة ، ومعجزة النبوة ، وتتدفق الماء من أصابع النبي المصطفى صلوات الله عليه ، وزيادة قدر قليل من الماء عند الكهنة تدفعهم لأن يبنوا عليها مجدًا إلى أن يموتو ، بشعوذة معينة منهم ، أما هنا فالماء يتزايد ، والعيون تفور ، وينظر بوجه نبيه ﷺ ، وقد ذاب حبًا فيه ، وملا الإيمان بنبوته كل ذرة من كيانه يسمع هذا المقام العظيم له عند ربه ، فلولا حياؤه منه لسقى الجيش كله ، ولكن لابد من شيء من هذا الفضل النبوى أن ينال الجيش فقال له :

(« نادى في أصحابي من له حاجة في الماء » فناديت فيهم ، فأخذ من أراد منهم شيئاً).
وقررت عينه بحضور الدرس الأخير ، في الدورة النبوية ، وقد شهد في هذه المادة ما لم يشهده أحد ، ورأى بأم عينيه المعجزة النبوية الخالدة ، وبينما هو في غيبوبة من السعادة فيما شهد . إذ ينادي رسول الله ﷺ يذكر اسمه مرة ثانية ، حين أراد بلا لآن يقيم ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أخا صداء هذا أذن ، ومن أذن فهو يقيم » وأقام الصلاة ، وكانت أسعد صلاة صلاتها في حياته ، وأسعد لحظات حياته ، فيما رأى وشاهد . وانتهت الصلاة ، وأن الأوان لأن يطرح نفسه بين يدي رسوله من أجل صك الإمارة ، وصك مال الصدقة ، بعد أن كاد ينسى هذه القضية الرئيسية .

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين . فقلت :

يا رسول الله ، اعفني من هذين الكتابين .

فقد عمر قلبه بأعظم بكثير من الإمارة والمال ، عمر قلبه بالإيمان الحالص ، وصغرت في عينه الدنيا ، وكبر في عقله ورأسه ذلك القول الذي لا يزال يرن في أذنه : « لا خير في الإمارة لرجل مؤمن » ، والقول الآخر : « إنما هي صداع في الرأس ، وداء في البطن » .

(فقال رسول الله ﷺ : « ما بدا لك ؟ ». فقلت : سمعتك تقول يا رسول الله :

« لا خير في الإمارة لرجل مؤمن » ، وأنا مُؤمن بالله تعالى ورسوله ، وسمعتك تقول للسائل : « من سأله الناس عن غنىٰ فصداع في الرأس وداء في البطن » وقد سألك وأنا غنىٰ .

هذه هي عظمة التربية النبوية بالإيحاء والإشارة ، وهي التربية العملية التي تمت من خلال هذا السفر الطويل ، وإسماع هذا الفتى خطورة الإمارة ، وبيده صك فيها ، وإسماعه خطورةأخذ الصدقة عن ظهر غنىٰ وبيده صك فيها ، وأعطت التجربة ثمارها اليائعة مباشرة حيث رمى بالصكين بين يدي رسول الله ﷺ ، وأعلمته عن خوفه على نفسه من آثارهما .

وجاء الجواب النبوي : « هو ذاك ، فإن شئت فاقبل ، وإن شئت قدع » ، فقلت : أدع . ولكن أن يبقى القوم دون أمير فلا ، وهذا الذي برئت نفسه من حظوظ نفسه ، هو الأقدر على اختيار الأنسب لإمارة صداء ، فقال لي رسول الله ﷺ : « فدللني على رجل أومره عليكم » فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمره عليهم .

وبعد أن تخلى طائعاً مختاراً عن الإمارة ، وعن مال الصدقة ، كان له هم آخر وهو حياة قومه الذين يعانون القحط والجحاف عندما تقل مياه بترهم ، فهل يمكن لهذه العيون التي فارت بين يدي رسول الله ﷺ أن تفور في بترهم ، إنه ليس همه نفسه ، بل همه قومه ، وهمه حياة قومه لا الإمارة والسيطرة عليهم ثم قلنا : يا رسول الله ، إن لنا بترأ إذا كان الشتاء كفانا ما ذرها واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف قل ما ذرها فتفرقنا على المياه حولنا وكل من حولنا لنا عدو ، فادع الله لنا في بترنا أن يسعنا ما ذرها فنجتمع عليها ولا نتفرق) . وهي هي البركة النبوية تمس الأرض كلها حين يطلب منها ذلك بإذن الله . وحضرت الآبار الارتوازية التي يصل عمقها إلى مائة متر من خلال سبع حصيات ، (فدعا بسبعين حصيات ففركهن بيده ، ودعا فيهن ثم قال : « اذهبوا بهذه الحصيات ؛ فإذا أتيتم البتر ، فاللقو واحدة واحدة واذكروا اسم الله تعالى » ، وكانت المعجزة النبوية الأولى في أرض صداء وبترها .

قال زياد الصدائى : فعلنا ما قال ، فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها) (١) ، وبذلك أنقذ قومه من الفرقة وال الحاجة وكان ذلك أجدى عليه مائة مرة من إمرة قومه وهو الرجل المؤمن .

(١) سيل المهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٥٣٢ - ٥٣٤ ، وقال : روى البغوى والبيهقي وابن عساكر وحسنه عن زياد ابن الحارث وهى في الدلال ٥ / ٣٥٥ - ٣٥٧ .

القادة

الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب :

(قال أبو عبيد : صحب النبي ﷺ وعقد له لواء ، وقال الواقدي : كان على صدقات قومه ، وكان من الشجعان يعد بمائة فارس ، وبعثه النبي ﷺ على سرية ، وفيه يقول العباس بن مردارس :

إن الذين وفوا بما عاهدتهم
جيش بعثت عليهم الضحاكا
أمرته ذرب اللسان كأنه
لما تكشفه العدو يراها
طوراً يعائق باليدين وتارة
يفرى الجماجم صارماً بتاكا

وقال ابن سعد : كان يتزل ضرية نجد في موالي ضرية ، وكان والياً على من أسلم هناك من قومه . وأخرج ابن السكن بسنده صحيح عن عائشة قالت : نزل الضحاك بن سفيان الكلابي على رسول الله ﷺ فقال له وبيني وبينه الحجاب : « هل لك في اخت أم شبيب امرأة الضحاك » ، فتزوجها النبي ﷺ ثم طلقها ولم يدخل بها ، ولما رجع النبي ﷺ من الجعرانة بعثه على بني كلاب يجمع صدقاتهم...) (١) .

وهذه البعثة على الصدقات تعنى أنهم قد أسلموا ودخلوا في دين الله .

لكن البعث الثاني كان إلى فريق خاص من بني كلاب وهم القرطاء (٢) .

(قال محمد بن عمر وابن سعد : سنة تسع ، وقال الحاكم : في آخر سنة ثمان ، وقال محمد بن عمر الأسلمي : في صفر ، وقال ابن سعد : في ربيع الأول ، وجرى عليه في المورد والإشارة .

قالوا : بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى القرطاء عليهم الضحاك بن سفيان الكلابي ، ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط ، فلقوهم بالرَّجَّ ؛ رَجَ لَاوَة بِنْجَد ، فدعوهُم إلى الإسلام فأبوا ، فقاتلُوهُم فهزموهُم فلتح الأصيد أبا سلمة ، وسلامة على فرس له في غدير بالرَّجَّ ، فدعا أباه إلى الإسلام ، وأعطاه الأمان ، فسبَّهُ وسبَّ دينه ، فضرب الأصيد عرقوبه فرس أبيه ، فلما وقع الفرس على عرقوبه ارتکز سلمة على رمحه في

(١) الإصابة في تميز الصحابة ٢٦٧/٣/٢ ت ٤١٦١.

(٢) في شرح المواهب : القرطاء : هم بطن من بني كلاب واسمه عبيد بن كلاب .

الماء ، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتل سلمة ولم يقتله ولده) .

والضحاك بن سفيان هو الذي اختاره رسول الله ﷺ أميراً على قومه بضرية ، وكان يراوح بين قومه وبين صحبة المصطفى ﷺ ، ويقى هذا الفرع من قومه لم يدخل الإسلام . بعثه رسول الله ﷺ إليهم ، وكلاب بن ربيعة هم أحد أعز فرعين من بنى عامر ، والذي يقابلها كعب بن ربيعة وفيهما قال الشاعر :

غرض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

والمطلوب أن تذلل الجزيرة كلها للإسلام ، وحين يكون أحد أبناء القبيلة هو قائد السرية يكون هذا أقرب لقبول دعوته من القريب من قبيلة أخرى ، لكن هؤلاء المعنин في البدائية ، مثل بنى العبر من بنى تميم الذين يرون دنياهم هي كل الدنيا ، فلا تزال العزة القبلية تملّكتهم ، ورفضوا الانصياع للإسلام ، ووجد القوم المسلمون أن المعركة مفروضة عليهم فخاضوها .

لقد شهدنا الفرق بين زياد وافد صداء ، والذى أنتزد قومه من الموت والكفر ، ووظف كل جاهه عند عشيرته فى خدمة هذا الدين ، بينما واجه القرطيون بنو عبيد بن كلاب أباهم الضحاك بالحرب ورفض هذا الدين ، وكان فى جيش الضحاك أحد الأفداد المسلمين . الأصيد بن سلمة الكلابي ، بينما كان أبوه فى صف أعداء الله ، وجدها فرصة سانحة حين فاته قومه الا يفوته أبوه ، فمضى إليه يدعوه ويلمح عليه فى الدعاء ليسلم ويدخل فى دين الله ، فما كان من الآب إلا أن سبَّه وسبَّ دينه .

وانقلبت الصورة عند الفتى المسلم ، ولم يعد ير فى أبيه إلا عدواً لدوداً متھكاً لحرمات الله ، فهل يقتل أبوه فى سبيل الله كما فعل أخوه أبو عبيدة بن الجراح ذات يوم ، أم يدعه ، وقد سبَّ دين الله تعالى وأعلن التحدى لله ولرسوله ، ولم يدع هذا الصراع ليأخذ منه الكثير ، فقد ضرب عرقوبى فرس أبيه حتى يقعى الفرس ، ويقع أبوه عن ظهره فتناوشة السيف المسلمة ، لكن سلمة اتكأ على رمحه ، وبقى ابنه يصاروه حتى جاء من شارك الأصيد فى قتال أبيه وقاتلته ، ثم قتل سلمة أبا الأصيد ، وهو الذى هيا قتل أبيه فى سبيل الله .

ولا شك أن هذه الحادثة ستتشر فى مضارب الجزيرة ويتحدث الناس عن عظمة هذه العقيدة فى القلوب ، والتى تجعل هذا الدين فوق الولد والأهل والأب ، وسيسارعون فى السؤال ، والتعرف على هذا الدين الجديد الذى غزا هذه القلوب فى مجتمع دينه العصبية ، ولو أن سلمة والد الأصيد قد قتل فى الباھلية لكن الأصيد هو حامل ريات الثال لابيه ، فى قوم لا ينام الثأر عندهم ، وهم أشراف بنى كلاب بن ربيعة كما يقول ابن

حزم في الجمهرة : (وقرط ، وقريط ، وقرطة وهم القرطاء ولهم شرف) (١) .
سرية علقة بن مجزز المذجى رضي الله عنه إلى الحبشة :

قال ابن سعد : في شهر ربيع الآخر سنة تسع . . . قالوا : ويبلغ رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن ناساً من الحبشة ترآهم أهل الشعيبة في ساحل جدة بناحية مكة في مراكب ، فبعث إليهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم علقة بن مجزز في ثلثمائة فاتنه إلى جزيرة في البحر وقد خاض إليهم في البحر فهربوا منه . فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلיהם فأذن لهم) (٢) .

والشيء المهم في هذه السرية هو تفكير الأحباش بالوصول إلى مكة عن طريق البحر ، والشعيبة تبعد عن مكة قرابة مائة كيلو متر ، وخيبر الصحراء علقة بن مجزز المذجى ، وابن بنى مدحنج أدلة الساحة العربية حول مكة ، وخاض البحر إلى جزيرة ، فهربوا منها في مراكبهم ، وعلى الغالب أن هؤلاء الثلاثمائة قد مضوا في مراكب خلفهم كذلك ، ولعلها أول معركة بحرية في التاريخ الإسلامي يغامر فيها المسلمون خلف عدوهم ويطاردوه ، وبعد عودتهم مظفرین جرى الحدث الذي مضى مفصلاً في مفهوم السمع والطاعة للأمير .

(كما روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

بعث رسول الله صلوات الله عليه وسلم علقة بن مجزز وأنا فيهم حتى إذا بلغنا رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش ، واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وكانت فيه دعاية ، فنزلوا ببعض الطريق ، وأوقفوا ناراً يصطلون عليها ويصطنعون ، فقال : عزمت عليكم إلا توأتم في هذه النار ، فقام بعضهم فتحجزوا (٣) حتى ظنّ أنهم واثبون فيها ، فقال لهم : اجلسوا إنما كنت أضحك معكم ، فذكروا ذلك لرسول الله صلوات الله عليه وسلم فقال :

« من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » (٤) .

وفي الرواية نفسها تفصيل دقيق عن المحادثة بينه وبين جنده : (قال : أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى . قال : ألم أأمركم بشيء إلا فعلتموه ؟ قالوا : نعم . قال : فإني أعلم عليكم بحق وطاعتني إلا توأتم في هذه النار . . .) ، وأما الرواية الثانية التي ذكرها البخاري عن على رضي الله عنه : (أن أحد الأنصار هو الذي فعل هذا ، فقال أليس أمركم النبي أن تطعوني ؟ قالوا : بلى . قال : فاجتمعوا لي حطباً . . . فجمعوا .

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٨٢ / ٦ . (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٣١ / ٦ .

(٣) فتحجزوا : يشد ثوبه على صخرة بمنزلة المخازم . (٤) السيرة النبوية لابن هشام ٦٤٠ / ٢ .

قال : أوقدوا ناراً فأوقدوها . فقال : ادخلوها . فهموا ، وجعل بعضهم يمسك ببعضًا ويقولون : فرنا إلى النبي ﷺ من النار ، فما زالوا حتى خمدت النار ، فسكن غصبه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيمة ، والطاعة في المعروف » (١) .

وندع التعليق للحافظ ابن حجر رحمة الله على الحادثة بقوله :

(وفي الحديث من الفوائد : أن الحكم في حال الغضب ينفذ منه ما لا يخالف الشرع ، وأن الغضب يغطي على ذوى العقول ، وفيه : أن الإيمان بالله ينجي من النار لقولهم : إنما فرنا إلى النبي ﷺ من النار ... وفيه : أن الأمر المطلق لا يعم الأحوال لأنه ﷺ أمرهم أن يطعوا الأمير ، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وفي حال الأمر بالمعصية ، وبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه من غير معصية ... واستنبط منه الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة أن الجموع من هذه الأمة لا يجتمعون على خطأ لانقسام السريعة قسمين ، منهم من هان عليه دخول النار ، ومنهم من فهم حقيقة الأمر وأنه مقصور على ما ليس بمعصية ، فكان اختلافهم سبباً لرحمة الجميع ، قال : وفيه أن من كان صادقاً للنية لا يقع إلا في خير ، ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه ، ولذلك قال بعض أهل المعرفة : من صدق مع الله وقاه الله ، ومن توكل على الله كفاه الله) (٢) .

إلى الفلس صنم لطفي ليهدهم :

كان شهر ربيع الآخر سنة تسع شهراً عامراً بالحركة في جميع الاتجاهات لإنتهاء جيوب الوثنية في الحجاز ونجد واليمن .

قال الصالحي : الباب الرابع والستون في سيرة أمير المؤمنين على بن أبي طالب رض إلى الفلس (٢) صنم لطفي ليهدهم في شهر ربيع الآخر سنة تسع .

قالوا : بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب رض في خمسين ومائة رجل أو مائتين كما ذكره ابن سعد : من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساناً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفلس ليهدهم ، فأغاروا على أحياء من العرب ، وشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر ، فهدموا الفلس وخربوه وملقوها أيديهم من السبي والنعم والشاء ،

(١) فتح الباري ٨/٥٨ ح ٤٣٤ . (٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/٦٠ .

(٣) قال ابن دريد : الفلس : بكسر القاء صنم كان لطفي في الجاهلية ، وفي كتاب الأصنام للكلبي : كان آثماً أحمر في وسط جبلهم أجاً أسود كأنه تمثال إنسان وكانتوا يعبدونه ويهدون إليه ، ويعتررون عنده عتارتهم ، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده ... وكان سنته بنو بولان .

وكان في السبي سفانة أخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام ، ووُجِدَ في خزانة الفلس ثلاثة أسياف : رسوب والمخدّم - كان الحارث بن أبي شمر قلده إياهما - وسيف يقال له اليماني وثلاثة أدرع ، واستعمل على السبي أبا قنادة واستعمل على الماشية والرفة^(١) عبد الله بن عتيك . فلما نزلوا رنك اقسّموا الغنائم ، وعزّلوا للنبي ﷺ صفي رسوبياً والمخدم ثم صار له بعد السيف الآخر ، وعزّل الخمس ، وعزّل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة .

طبي من القبائل العربية الكبرى وهي قحطانية ، ويرز اسم حاتم الطائى في دنيا العرب على أنه أجود العرب حتى صار مضرب الأمثال في الكرم ، كما يقول الشاعر:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحلف في ذكاء إياس

ويررون قصصاً عن جوده تفوق الوصف ، وهو عدي بن حاتم وريث هذا المجد ، وقد دخلت النصرانية إلى هذه القبيلة لقربها من الشام ، وكان هذا الصنم رمزاً لطبي ووثنيتها ، ويريد رسول الله ﷺ أن يمحى معالم الوثنية في هذه الأمة ، فكان أن عهد إلى رجل المهمات الكبير عنده على بن أبي طالب مع مائة وخمسين من الانصار ليؤدوا هذه المهمة ، وليس بين يدينا تفصيلات حول المعركة وعلى الغالب كما سيرد معنا أن طبّينا لم تقاوم ، إنما فرت من القوة الإسلامية ، ورغم أن القوة قليلة ، وبإمكان هذه القبيلة أن تواجه أضعافها ، إلا أن القوة المعنوية التي امتلأت بها الساحة العربية للمسلمين ، جعلت الأعداء يرهبون المقاومة ، ويخشون المواجهة ، خاصة بعد فتح مكة بجيشه قوامه عشرة آلاف مقاتل ، وبعد هزيمة هوازن التي تکاد تكون أكبر القبائل العربية ، فقد بُثَّ الرعب في المشركين وأهل الوثن ، وراحت أخبار القوة الإسلامية تنفذ إلى مضارب الجزيرة العربية في كل مكان ، وعلى خطيث الفدائى الذي قتل القادة الكبار في المبارزة له سمعته وصيته كذلك .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : نجد عبقرية على خطّيث في كسر الصنم وأخذ كل ما فيه من سيوف ودروع ليهدم خلف ذلك كل ما في نفوس عباده من قداة ، وتكريم ، وحين وزع على رضوان الله عليه الغنائم لم يقدم على توزيع بنت حاتم الطائى ، إنما ترك أمرها لرسول الله ﷺ ، فهو يدرك البعد المعنوي لتوزيع مثل شريقة قومها هذه على المسلمين ، وكون على رضوان الله عليه داعية قبل أن يكون قائداً عسكرياً جعله يحسب حساب المستقبل لقبيلة طبي كلها ، ويدرك الآفة العربية التي ستثور من أجل كرامته سفانة والحق الذي ستحمله طبي على المسلمين ، فتبعدها عن الإسلام ، أما حين تراعي حرمة

(١) الرقة : الفضة وأصله الورق فحذفت الواو وعوض عنها بالهاء .

ابنة سيدها وتعامل معاملة خاصة ، سيكون لهذه المعاملة دور إذابة الجليد الجاثم على قلب هذه القبيلة ، ولم تكن هذه المعانى لتغيب عن ذهن الداعية العظيم أخى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو الذى كان يعد لغسل الجراح ، ويعد لرأب الصدع ، ويعد لفتح القلوب كما كان يعد للمهام المستعصية ، فهو يمثل القوة العادلة الداعية ، لا القوة القاهرة الظالمة ، ومن معه من الأنصار يحسون كائنا هم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلعلى فى قلوبهم حب نابع من جبهم لحبهم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أخص أهل بيته، وهو زوج ابنته فاطمة، ولهذا كانت الكتبية كلها من الأنصار ، وكان قائد رجاله المسلمين أبو قتادة هو المسؤول عن الحفاظ على السبى ، كما كان ابن عتىك أحد الفدائين الكبار هو المسؤول عن الحفاظ على الماشية والمال والفضة .

شخصيات عظيمتان تنضمان إلى الإسلام

أما الشخصية الأولى فهي عدى بن حاتم ، ونأخذ الحديث منه مباشرة كما في رواية ابن إسحاق : (قال ابن إسحاق : وأما عدى بن حاتم فكان يقول فيما بلغنى :

ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني ، أما أنا فكنت امراً شريفاً وكانت نصرياناً ، وكنت أسير في قومي بالمرباع ^(١) . فكنت في نفسي على دين ، وكانت ملائكة في قومي ، لما كان يصنع بي . فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعياً لإبلى : لا أبا لك ، أعدد لي من إبلى أحجاماً ذلاً سمائًا ، فاحتسبها قريباً مني ، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذني ، ففعل ، ثم إنه أثاني ذات غداة فقال :

يا عدى ، ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد ، فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رايات فسالت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد ، قال ، فقلت : فقرب إلى أحجمالي ، فقربها ، فاحتسلت بأهلني وولدي . وقلت : الحق بأهل ديني من النصارى بالشام ، فسلكت الجوشية - ويقال : الحوشية فيما قاله ابن هشام ، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر ، فلما قدمت الشام أقمت بها .

وتخالفني خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سباعيا من طين ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام ...) .

هذه هي الجولة الأولى من الحديث النفسي الذي قدمه لنا عدى خوجة . وهو يمثل نفسية كل قائد من قادة الجزيرة العربية . حيث يحمل مباشرة الكره لرسول الله ﷺ لإحساسه أنه سيزارعه ملكه ، وسيترزع منه سلطانه ، ومن أجل هذا يؤكد لنا ابن حاتم أنه ما كان أحد أشد كراهية لرسول الله ﷺ منه ، وقد سمعنا هذه الكلمة من قبل من كثير من هؤلاء الزعماء ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص قبل إسلامه ، والذي يقول : ما كرهت أحداً كراهتي لمحمد ، ولو تمكنت منه لقتله . إنه شعور التنافس الذي يجيش في صدور هؤلاء الزعماء ، وهو شعور عبد الله بن أبي الذى سلخ في الإسلام زهاء ثمانين سنتين ، ولم يفتح قلبه لهذا الدين ، ولم يفتح قلبه لرسول الله ﷺ لأنه يرى أنه استله ملائكة ، وهو شعور أبي جهل من قبل ، حين يرى القضية صراعاً على السلطة في قريش

(١) أي آخر ربع الغنيمة ، وكذلك كان يفعل الرؤساء في الجاهلية .

بين بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، إننا بحاجة إلى دراسة هذه النفيسيات ، وما يتعلّج فيها حين تقاوم الإسلام وتحاربه .

والعنصر الثاني الذي عمّ الكراهة في نفس عدى هو أنه نصراني ، لكن هذه النصرانية أخذتها لتناسبها مع سلطنته ، فليس من أولئك الأثّار والرهبان الذين يجدون صفة محمد ﷺ عندهم في كتبهم ويجدونها ظلماً وعلواً ، بل أخذ دين النصرانية الذي رأسه على قومه وأخذ ربع الغنائم مع أن النصرانية لا تبيح له ذلك ، ولكنه تألف معها بحيث حافظ من خلالها على زعامته ، ولم يمس مقدسات قومه المشركين ، حين بقى محافظاً على صنم الفلس يُبعد من دون الله ، وتتحرّ عنده الذبائح ، وتقديم له القرابين ، وجميع قومه النصارى والمشركين مذعنين له بالقيادة والسيادة ، لا ينزعه عليهما أحد .

لكن أخبار محمد ترده تباعاً ، فقد حطم عيينة بن حصن أكبر أعدائه وزعيم غطفان حتى صار تبعاً له ، وذاك علقة بن علاة سيد بن عامر أعلن ولاءه له ، وتلك هوازن التي جيشت الجيوش ضده ، عاد زعيمها مالك بن عوف فانضم إليه بعد هزيمة قومه ، لقد بقى عدى في الساحة وحده ، وهو يعلم أن محمداً لن يدعه ، ولا قبل له بمواجهته بعد انهيار كل المواجهات حوله ؛ ولذلك أعد الحطة إن جاءت جيوش محمد إليه أن يلوذ بالفرار سالماً بروحه وجسده ، ويمضي حياته لاجئاً سياسياً عند العرب النصارى ؛ فهم يعرفون شرفه وفضله ، وأوكل للأعرابي المسؤول عن رعاية إبله أمر إعلامه بجيوش محمد إذا جاءت ، وأن يعلّف له خير إبل الذللُ السريعة ؛ حتى يتمكن من الفرار عليها هو وأهله وكان ما حسبه ؛ إذ جاءه الأعرابي قائلاً له :

يا عدى ، ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد ، فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رأيات فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد .

ولم يتوان لحظة واحدة إذ جمع أهله وولده ، وامتطى جماله المعدة للفرار ، ومضى بعيداً قبل وصول جيش النبوة إليه ، وفي غمرة هذه العجلة نسي أخته سفانة في الحاضر . لكن أني يعود لها إلا على خطير رقتها ، ومضى يقيم في أقصى أرض العرب . حيث لا يتصور وصول محمد إلى هذه البقاع في أرض الشام أو حدودها ، لكنه بقى منغصاً لما آل إليه أمر أخته من السيء ؛ حيث بلغه أن الجيش قد أخذها وهدم صنم طين الفلس وأخذ هداياه كلها ، ولم يكن أمر الصنم يشغله كثيراً ، إنما آلمه ألا تكون هذه السيف المشهورة من نصيبه خاصة وهي من هدايا الحارث بن أبي شمر للصنم .

وها هو في منفاه يزداد حقداً على محمد ﷺ وقد سبى الكثير من أهله وعشائرته ، وعلى رأسهم أخته سفانة بنت حاتم ، وأذل كبراء قبيلته ، وأخذ ثرواتها من الإبل

والنعم والشاء والفضة ، لكن الغريب الذى يعاني منه هو أنه لا يجد الراحة فى هذا المنفى الجديد الذى اختاره وكما يقول فى رواية أخرى رواها البيهقى عن أبي عبيدة : فخرجت إلى أقصى أرض العرب ما يلى الروم ثم كرهت مكани أشد ما كرهت مكاني الأول ، وعاد ليضطرب بتصراته التى تعمق فيها ، فلم يعد يجد فيها لذته المنشودة بعد أن فقد عزه وسلطانه ، وراح أفكار ترد إلى نفسه فيطاردها عن ماهية رسالتنا محمد الذى دانت له العرب .

وإلى الجولة الثانية من حديث عدى الذى يعتبر من أنفس الوثائق التى وصلتنا عنه :

(فقدم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا طبئ ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام ، فجعلت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبسن فيها ، فمرّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة ، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامن علىَّ منَ الله عليك . قال : « ومن وافقك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، قال : « الفار من الله ورسوله ؟ » قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى حتى إذا كان من الغد مرّ بي ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ما قاله بالأمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يشتبه منه ، فأشار إلى رجل من خلفه أن قومي فكلميه . قالت : فقمت إليه ، فتات : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامن علىَّ منَ الله عليك . فقال ﷺ : « قد فعلت ، فلا تعجل بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنني » . فسألت عن الرجل الذى أشار إلىَّ أن أكلمه فقيل : على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاعة ، قالت : وإنما أريد أخي بالشام . قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكسانى رسول الله ﷺ ، وحملتى وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام...) .

وهذا حديث أخته ، وحديث المعاناة التى لاقتها وهى الأسيرة السبية ، ولاشك أنها هي التى حديث أخاها عدى بهذه المعاناة ونقلها لنا عنها ، فقد حبست فى حظيرة مع بقية السبايا يتظطرن حكم رسول الله ﷺ فيهن ، وسفانة ليست امرأة عادية ، بل هي سيدة من نساء العرب لها جزالتها وفصاحتها ومجرد سمعاعها برسول الله ﷺ قامت إليه غير هيبة ولا وجة وبكلام محكم فصل تقول له :

يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامن علىَّ منَ الله عليك .

وسمع رسول الله ﷺ كلامها ، وأعلن لهذا الكلام اهتمامه ، وهو يغير للطفل

الصغير اهتمامه إذا كلمه ، فكيف إذا كانت المتكلمة بهذه الفصاحة والجزالة !! قال لها : « من وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، وأدرك رسول الله ﷺ السر كله وأنها ابنة أحد أمجاد العرب وسادتها ، لكنه يود أن يعطيها درساً أولياً في الإيمان ، فقال لها : « الفار من الله ورسوله » .

وبذلك سدَّ عليها طريق المحاجة . ومضت تعالج أحزانها وألامها صامتة بينما ينطق قلبها بالآف الكلمات . ولم تيأس ، فأعادت محاولتها في اليوم الثاني ، وجاءها الجواب نفسه ، وأيقنت أن الطريق مسدودة أمامها ، وأن مستقبلها المظلم أن توزع سيبة على بيت من بيوتات هؤلاء المسلمين ، تباع وتشرى بعد أن كانت السيدة الأولى في قومها .

وكان اليوم الثالث ، ولم تكن تدرك أن حوارها مع رسول الله ﷺ قد استحوذ على اهتمام العديد من الصحب ، وراعهم بيانها الآسر ، وإذا بها تجد من يشير إليها أن تقوم ثلاثة ، وتطلب المَنَّ من رسول الله ﷺ عليها من جديد ، وأمام هذا الاهتمام حولها بها قامت وأعادت الكرة الثالثة ، وقالت : يا رسول الله ، مات الوالد ، وهلك الوافد ، فامن علىَّ منَ الله عليك .

ولم تتلق الجواب المرعب المؤلم : « الفار من الله ورسوله » . إنما جاءها أجمل جواب تتلقاه في حياتها « قد فعلت » .

وشعرت بعظمته العفو النبوى بعد ذلك التقرير السابق لأنبيها الذى تحمل من الغيط عليه ما لا يطاق ، فهو سبب نكبتها ، وببدأ التحت فى قلبها المسدود يحفر حفرًا عميقاً حين سمعت تتمة الجواب :

« فلا تعجل بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة ، فاذئبني » .

يا لها من مكرمة خالدة ، فليست بدار مضيعة ولا هوان ، لقد غدت الآن فى ذمة محمد بن عبد الله ورعايته ، ولا يريد لها الضياع فى البيد ، والموت فى التيه ، إنما يريد لها أن تعود مصونة معززة مكرمة إلى أهلها ، فقد ارتفعت من ذل السبي إلى إكرام الضيف ، وعادت صورة أبيها حاتم تتلاًّا في محياتها وهو يفك العاني ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، وهذا الطراز من الرجال هو الذى تعشقه .

ولم تنس فضل ذلك الرجل الذى أشار عليها وألح عليها بإعادة الطلب من رسول الله ﷺ أن يمن عليها ، فقيل لها : على بن أبي طالب .

ولا شك أنه قد تناهى إلى سمعها أن قائد جيش المسلمين إلى طبيه هو على خطيبه ، ولم تنس أنه هو الذى أكرمتها ولم يقسمها مع السبي ، وعرفت فيما بعد أنه ابن عم

رسول الله ﷺ وأقرب المقربين إليه ، ودليل مدى شكرها لهذا القائد العظيم ، أن أخاها عدى بن حاتم بعد أن أسلم ثوابه حارب في جيش على في موقعه كلها ، وكان من جنده المخلصين .

قالت: وإنما أريد أن آتني أخي بالشام، قالت: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي لى فيهم ثقة وبلغ . وكانت تحسب أن قمة الإحسان إليها هو أن يسمح لها بالسير إلى أهلها واعتق حريتها ، لكنها عرفت أنها مع رسول كريم في فضله أعظم من كل حساباتها .

(فكساني رسول الله ﷺ وحملني ، وأعطاني نفقة ، وخرجت معهم حتى قدمت الشام) . لقد كساها رسول الله ﷺ الإيمان بهذه الكسوة التي ألبسها إياها ، وحملها الإيمان بهذه الناقة الذلول التي أعطاها إياها لتركيب عليها إلى الشام ، وانفق من قبلها كل عقد الكفر بهذه النفقة من الدرارهم والدنانير التي سلمها إياها ، ولا يعرف الفضل إلا أصحاب الفضل ، وهي بنت حاتم الطائني ، فهي تعرف معنى المرودة والإكرام ، وتعلم أن الكريمه إذا قدر عفا .

وطالعنا في رواية أخرى للبيهقي زيادات يحسن أن نتناولها ، تلقى إضاءات على عظمة التربية النبوية التي غيرت تركيب سفانة من موتورة حاذدة إلى معجبة مؤمنة .

(أخرج البيهقي بسنده عن كميل بن زياد التخعي قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا سبحان الله ، ما أزهد كثيراً من الناس في الخير ، عجبًا لرجل يجيئه أخوه المسلم في الحاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سُلُّ النجاح ، فقام إليه رجل فقال: فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ، أسمعته من رسول الله ﷺ؟ قال : نعم ، وما هو خير منه .

لما أتى بسبايا طين وقفت جارية حمراء (١) لعساء (٢) ذلفاء (٣) عطاء (٤) ، شماء الأنف ، معتدلة القامة والهامة درماء الكفين (٥) ، خدلجة الساقين (٦) ، لفاء الفخذين (٧) ، خميصة الخصرين ، ضامر الكشحين (٨) ، مصقوله المتنين (٩) . قال : فلما رأيتها أعجبت

(٢) لعساء : في لونها أدنى سواد ومشيرة بحمرة .

(١) حمراء : بيضاء .

(٤) عطاء : طولية العنق مع اعتدال .

(٣) ذلفاء : صغر الأنف واستواء الأربطة .

(٦) درماء الكفين : متداينتهما من السن .

(٥) دماء الكفين : لا حجم لعظامها .

(٨) ضامر الكشحين : قليلة لحمها غير مرحلة .

(٧) لفاء الفخذين : متداينتهما من السن .

(٩) مصقوله المتنين : مضموريهما .

بها وقلت : لا طلب من رسول الله ﷺ يجعلها في فئي . فلما تكلمت أنسية جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت :

يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمط بي أحياء العرب ، فإني ابنة سيد قومى ، وإن أبي كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقىى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ولا يرد طالب حاجة قط . أنا ابنة حاتم الطائى .

قال النبي ﷺ : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلو عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق .

فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ، الله عز وجل يحب مكارم الأخلاق ؟

قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسي بيده ، لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق)١(.

والذى يعنيها فى هذه الزيادة عن أمير المؤمنين على رضوان الله عليه هو التركيز على الجانب الخلقى فى هذا الدين الذى رأيناها فى لحظة انبات النور الحمدى فى هذا الوجود على لسان خديجة رضي الله عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتحمل الكل ، وتفك العانى ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وهذا هو خلق النبي المجتبى ولا يمكن أن يكون نهبة للشيطان من يملك هذا الخلق الفذ أو يتخلى الله عنه ، وهنا ، فمثل من كان أبوها بهذه المكارم والمعالى من الأخلاق لابد أن تناول ثمرة هذا الخلق العظيم بأن تطلق حريتها ، وتكرم وفادتها ، ويفصل جرحها ، ولو كان أبوها حاتم مسلماً لترحمنا عليه ، وجاء الإسلام ليجعل للخلق الحسن مقاماً بجوار مقام الأنبياء . وبه يتمثل كمال الإيمان .

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم حلماً »)٢(.

« ألا أدلكم على أقربكم منى مجلساً يوم القيمة . أحسنكم أخلاقاً » .

وتروعنا من طرف آخر بلاغة أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو يصف هذه الجارية ، التى أنسى جمالها أمام فصاحتها . وهذا ينبهنا إلى الدور العظيم الذى ستقوم به فى دفع أختيها الفار من الله ورسوله إلى الله ورسوله ، وهذا ما نشهده فى الجولة الثالثة من حديث عدى رضي الله عنه :

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣٤١/٥ .

وقال المحقق فى هامشة : نقله المحافظ ابن كثير فى المصنف البداية والنهاية وقال حديث حسن المتن غريب الاستاد جدًا عزيز المخرج .

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود .

(قال عدى : فوالله إنى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلى تؤمنا . فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا هي هى ، فلما وقفت على انسحلت ^(١) تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك . قلت : أى أخيه . لا تقولى إلا خيراً ، فوالله مالى من عذر ، لقد صنعت ما ذكرت . قال : ثم نزلت فاقامت عندى . فقلت لها : وكانت امرأة حازمة - ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت . قلت : والله إن هذا الرأى) .

لقد كان دورها دور أسيد بن حضير ، وهو يبعث سعد بن معاذ إلى لقاء مصعب بن عمير ، فهى ت يريد أن يلتقي أخوها مع رسول الله ﷺ ، ويشهد عظمته ونبوته ، ولم تعلمه بإسلامها حتى لا يشك فيها ، وتركت الأمر معلقاً ، وأدركت نفسيه وخوفه على رعامتها ، فأغرته أن الأمر لابد أن يعيد له زعامته على كل الأحوال ، فإن كان الرجلنبياً ، فلا بد أن يكون سباقاً للإيمان به ، وإن كان زعيماً فمثله يرعى حق الزعماء أمثاله ، ولا شك أنها قصت عليه حسن تعامله معها ، والمبالغة فى إكرامها والاحتفاء بها وتأتى بعدها إلى الجولة الأخيرة من حديث عدى والتى هي أهم جولاتة ، حيث تنقل لنا نقلته الهائلة لهذا الدين وبهذا الدين :

(قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ ، فانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعادم بي إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها ، قال : قلت في نفسي ، والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليقاً ، فقدفها إلى ، فقال : « اجلس على هذه » . قلت : بل أنت فاجلس عليها . فقال : « بل أنت » . فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : « إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسياً ؟ » قلت : بلى . قال : « فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك » . قلت : أجل والله ، وقال : وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل . ثم قال : « لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوش肯 المال أن يفاض فيهم حتى لا يوجد من يأخذنه ؛ ولعله إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوش肯 أن تسمع بالمرأة تخرج من القadasية على بعيرها حتى تزور

(١) انسحل : جرى بالكلام ، وشتم ولام .

هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وایم الله ليوش肯 أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ». قال : فأسلمت .

وكان عدى يقول : قد مضت اثنان وبقيت الثالثة . والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القadesية على بعيدها لا تخاف حتى تخرج هذا البيت ، وایم الله لتكونن الثالثة ، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذنه) (١) .

ونقضى مع عدى محوثته إلى المدينة ، وقد رسم في نفسه خطة يستطيع أن يعرف بها نبوة محمد من ملكه وكيف لا ، وهو ملك ونصراني ، لكن جدار الحقد بدأ يتحاث عنده لاعجابه بمعاملة محمد صلوات الله عليه لاخته وإكرام وفادتها ، ولقوة تأثير اخته عليه بحيث دفعاً إلى لقاء رسول الله صلوات الله عليه .

ونعود إلى رواية للإمام أحمد ، تحدثنا عن اللحظات الأولى للمقابلة ، فهو علم في الأمة ليس بنكرة ، ومجرد أن رأه الناس استبشروا وفرحوا (فلما قدمت قال الناس : عدى بن حاتم) (٢) ، ولاشك أن سيد البشرية قد سرّ به .

وفي الرواية الثانية : (أظنه قال : ثلاثة مرار) . فقد تداعى الناس اسمه مرات ثلاثة تعبيراً عن فرحتهم بقدومه لكن الشيء الذي رأه مع ملك العرب شيء لا يصدق . (فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي - فذكر قربهم من النبي صلوات الله عليه) .

ولا يمكن لملك من ملوك الدنيا أن يقبل بجلوس على الأرض مع صبيان ، وبجلس آخر مع امرأة عجوز .

ورواية ابن إسحاق تؤكد أن المرأة العجوز الكبيرة لقيته على الطريق واستوقفته طويلاً ، وهو زار ملوك الأرض ورآهم ، فايقنه أنه ليس أمام ملك ، أما النبوة ففي خطوة لاحقة .

وهذه الخطوة تلachee مباشرة ، مما يكاد يتقط أنفاسه حتى يسمع صوت النبوة ينفذ إلى أعماقه مقتحاماً جُذُر الشك المسلحة كلها . وذلك كما في رواية أحمد : (عرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيسار ، فقال له :

« يا عدى بن حاتم ما أفرنك أن يقال : لا إله إلا الله، فهل من إله إلا الله ؟ ما أفرنك »

(١) المقاطع الأربعية هي رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٧٨، ٥٨١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٥٧ .

أن يقال : الله أكبر ، فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل ؟)١(.

إنه حين يزدح عن قلبه ران التثليث النصراني ، ويعود إلى فطرته النية الصافية ، يرى أن لا إله إلا الله ولا أكبر من الله ، لكنه يريد أن يتثبت بهذه النصرانية التي يعتقد بها ، والتي اختارها لرضاء جيرانه الروم ، (فقال لي : « يا عدى بن حاتم ، أسلم تسلّم ». فقلت : إنّي من أهل دين . قالها ثلثاً) .

وهذا التكرار مقصود من إمام المربين عليه الصلاة والسلام ، فهو يريد أن يعلن تمسكه بدينه على الملاً أولًا وثانياً وثالثاً ، ليهدم الباطل الذي يحمله في ثنایا هذا الدين ؛ لأن قضية الألوهية قد حسمت عنده بالفطرة الصافية عنده ، أما قضية النبوة والرسالة ، فلا بد لها من دليل عملي حسب مفهومه عن النبوة في اتصالها بالغيب ، والتلقى من الله .

(قال : « أنا أعلم بدينك منك ». قال : أنت أعلم بيديني مني ؟ .

ودخلت القضية عملية التحدى ، وإثارة الاهتمام وتوفّر الأعصاب إلى قمته .

(قال : « نعم ». قال : « أليس ترأس قومك ». قلت : بلـى ، قال : ذكر محمد الركوسية ، قال كلمة التمسها يقيمها فتركها) .

ولا يزال الأمر في قمة الاضطراب والشك . فقد قدّر عدى بن حاتم أن كلمة الركوسية قد التقاطها محمد من النصارى في بيته ، فليست كافية في الدلالة على النبوة ، لكن الطلاقة الأخيرة من البدقية على الكفر : عند عدى كانت : « فإنه لا يحل في دينك المربع ». .

أى أخذ ربع غنائم قومه ، ولا غرو فهذه مما اختص به نبينا محمد ﷺ من دون سائر الأنبياء :

« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلى ... وأحلى لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ... »)٢(.

فلما قالها توافضت مني هنية .

وفي الرواية الثانية : قلت : أجل والله ، وقال : وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل .

فقد أيقن الآن أنه أمام نبى يوحى إليه من السماء ، جاء ليصحّح أخطاء البشر في دين الله ، وجاء بالرسالة الخاتمة ، والكتاب المهيمن على كل الكتب التي قبله .

(٢) متفق عليه وهو عند مسلم / ٣٧٠ ح ٥٢١/٣ .

(١) مستند الإمام أحمد ٤/ ٣٧٨ .

ويضى رسول الله ﷺ في إزاحة الركام المتهدم من جدر قلبه ، حين مضى في أعماق قلبه الذي يتوقف عن إعلان الإسلام خوف ملوك الأرض كسرى وقيصر ، وما يرى من ضعف المسلمين وفاقتهم أمام كنوز الأرض المفتوحة لأولئك الملوك .

« قال : وإنى قد أرني أن ما يمنعك خصاصة تراها من حولي وأن الناس علينا إلى واحداً . هل تعلم مكان الحيرة ؟ » قال : قد سمعت بها ولم آتها . قال : « لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكتيبة » .

وفي رواية للبيهقي : (« فإن طالت بك حياة لترى الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكتيبة لا تخاف أحداً إلا الله ») . قلتُ : فيما يبني وبين نفسى : فأين زعار طين الذين سعرووا البلاد) (١) .

ويمقدار ما وثق بصدق نبأه الذي نطق عما يعتليج في نفسه بمقدار ما عجب من هذا الأمر ، فهل تنتهي سلطة طين . ويتهى سراق الحجيج منها ومن غيرها ، حتى لا تخاف إلا الله وحده ، وهل سيستقر أمر هذا الدين ، ويتمكن في الأرض حتى يحكم هذه الأرض ، وتنتهي صعاليك طين وغفار وغيرهم من السطوة على الحجيج . كلها تساؤلات وانفعالات تدور في نفسه - وهل سيسكت كسرى ملك الملوك على سلطان هذا الدين للعرب ، ومع هذا التساؤل العنيف جاء الطرق العنيف عليه من نبأ الله يقول له :

« ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز أن تفتح » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى ابن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » . ثلاث مرات) (٢) .

فما يكاد يملأ عقله من مسيرة الظعينة أشهرًا لا تخاف إلا الله ، حتى يأتيه الخبر الصاعق في فتح كنوز كسرى بن هرمز في سبيل الله ، ومحمد اليوم لا يتجاوز حدود الجزيرة ، وهل ستتصبح هذه الكنوز كلها بين يدي محمد بن عبد الله ، ولم يكدر يتحرك في نفسه هذا السؤال ، حتى جاءه الجواب المفحوم عليه من دون أن يغادر التساؤل أعمق قلبه .

« ولويشكن أن يبتغى من يقبل منه ماله صدقة فلا يجد » .

أو « ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه » .

وانتهت كل هذه التساؤلات فأعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ ، وانضم قائد

(٢) مستند الإمام أحمد ٤/٣٧٨ .

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/٣٤٣، ٣٤٤ .

جديد إلى هذه الدعوة سنشهده فيما بعد على الثغور الإسلامية ، ومع القادة المحاصرين للقصور البيض في بابل وهي التي وعده بها رسول الله ﷺ : « وايم الله ، ليوش肯 أن نسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » .

يقول خطيب :

(قد مضت اثنان وبقيت الثالثة ، والله لتكونن : قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القadesية على بعيرها لا تخاف حتى تفتح هذا البيت ، وايم الله لتكونن الثالثة : ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه) (١) .

ونوادع عدياً خطيب في جزئية لم نلقها في كتب السيرة ، حدثنا عنها الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره قال: روى الإمام أحمد والترمذى وأبن جرير من طرق عن عدى بن حاتم خطيب أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته ، وأعطاهما ، فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ، فقدم عدى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طبي وأبواه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ ، وفي عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرِيَادَا مِنْ دُونِ اللَّهِ » [التوبه : ٣١] . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » . ثم دعا إلى الإسلام ، فأسلم وشهد شهادة الحق قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » (٢) .

ويسعدنا عدى خطيب بتسجيل خطبة نبوية سمعها منذ لحظاته الأولى بين يدي رسول الله خطيب بعد أن شرح الله صدره للإسلام . ففى رواية أحمد :

(فأسلمت فرأيت وجهه استبشر ، وقال : « إن المغضوب عليهم اليهود وإن الصالين النصارى » ، ثم سأله ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل ، ارتضخ أمره بصاع ببعض صاع ، بقبضة ، ببعض قبضة - قال شعبة : وأكثر علمي أنه قال : بتمرة بشق تمرة : وإن أحدكم لاقى الله عز وجل فقاتل ما أقول :

الله أجعلك سميحاً بصيراً ؟ ألم أجعل لك مالاً وولداً ؟ فماذا قدمت ؟

فينظر من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماليه ، فلا يجد شيئاً ، فما يتقى النار إلا بوجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوه ، فبكلمة لينة .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٨٥/٢ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٨٨١.

إنى لا أخشى عليكم الفاقة ، لينصرنكم الله تعالى ، وليعطيكم أو ليفتحن عليكم حتى تسير الطعينة بين الحيرة ويشرب أو أكثر ما تخاف السرقة على ظعيتها « (١) .

إنها من أبلغ الخطط التى صكت أسماعه فى حياته ، وهو يجد الحديث عن رب العزة حديثاً شيئاً يختلف عن الإله عند النصرانية الذى تجسده بولد ، وصُلب من اليهود ، وحمل خطية آدم ، بينما يجد رب العزة جل جلاله يحاسب عبده يوم القيمة عما قدّم وقاءً من النار ، ولو شق ثمرة ، ولو كلمة طيبة ، فلا بد من الإنفاق والبذل فى سبيل الله . ولم الخوف من الفقر ، خشية الفاقة . فليطمئن هذا الركب المؤمن أن نصر الله قادم ، وأن الأموال ستتدفق على المدينة ، وأن المجرمين قتلة الحجيج وسلامهم من غفار وطنى سوف يمسون كأمس الدابر ، وأن الأمان سيتّم في ربوع الجزيرة بهذا الدين ، وتتصبح راية الإسلام خفافة فيه من الحيرة إلى يثرب .

لقد سطع الإسلام في قلب عدى ، وملاً كيانه من فرقه إلى قدمه ، وسنجد في مقبلات الأيام أن إيمانه لم يكن كإيمان بقية الزعماء وإيمان خوف ومصلحة ، إنما كان إيمان يقين وهدى جعله يسخر كل طاقاته في سبيل الله ، ومن أجل هذا شهدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن رأى زيد الحير الزعيم الثاني لطبيه والذى أسلم فيما بعد نجده يقول لزيد : (لله درك يا أبي مكفت ، فلو لم يكن لطبيه غيرك وغير عدى بن حاتم لقهرت بما في العرب) (٢) .

الشخصية الثانية : عروة بن مسعود الثقفى :

وعروة ليس جديداً على الساحة ، وليس نكرة في عالم العرب بل هو علم من أعلامها في الجاهلية ، وهو من أعظم سادة ثقيف ، بل كانت العرب ترى أنه أهل لنزول الوحي عليه بصفته زعيم ثقيف .

يقول الحافظ ابن كثير رحمة الله : (وقالوا) أى كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس : « لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ عَظِيمٍ (٣) » [الزخرف] ، أى هلا كان إزالة هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القربيين ؟ يعنون مكة والطائف ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقادة والسدى وابن زيد وقد ذكر غير واحد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى) (٤) .

وهو الذى أنقذ قومه من حرب طاحنة كان يمكن أن تفني ثقيفاً حين حمل دية ثلاثة

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧٨، ١٧/٢٢٥، أخبار زيد الخيل .

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٢٢٤، وهناك آراء أخرى للمفسرين تذكر غير عروة من ثقيف .

عشر رجالاً من بنى مالك قتلهم ابن أخيه المغيرة بن شعبة .

وهو الذى قاد مائة من قومه ، ونزل بهم إلى مكة عوناً لقريش ضد رسول الله ﷺ ، وهو أخيراً الاداهية الأربيب الذى أوفدته مكة إلى رسول الله ﷺ للفت فى أعضاد المسلمين وليقود الحرب النفسية ضد المسلمين والتى يحسن أن نستحضرها كما وردت فى السير .

قال الزهرى فى حديثه : ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود القفقى فقال : يا عشر قريش ، إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنی ولد - وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم^(١) بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بعثهم ، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد ، أجمعـت أوشـاب^(٢) الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك^(٣) لتفضـها^(٤) ، بهـم إنـها قـريـش قد خـرجـت مـعـهـا العـوذـ المـطـافـيلـ ، قد لـبسـوا جـلـودـ النـمورـ ، يـعاـهـدوـنـ اللهـ لـا تـدـخـلـنـاـ عـنـهـ أـبـداـ ، وـاـيمـ اللهـ لـكـأـيـ بـهـؤـلـاءـ قـدـ اـنـكـشـفـواـ عـنـكـ غـدـاـ . قال : وأـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ خـلـفـ رسولـ اللهـ ﷺ قـاعـدـ فقال : اـمـصـ بـظـ الـلـاتـ ، أـنـحـنـ تـنـكـشـفـ عـنـهـ ؟ قال : مـنـ هـذـاـ يـاـ مـحـمـدـ ؟ قال : هـذـاـ اـبـنـ أـبـيـ قـحـافـةـ . قال : أـمـاـ وـالـلـهـ لـوـ لـاـ يـدـ^(٥) كـانـتـ لـكـ عـنـدـ لـكـافـاتـكـ بـهـاـ ، وـلـكـ هـذـهـ بـهـاـ . قال : شـمـ جـعـلـ يـتـنـاـولـ لـحـيـةـ رـسـولـ اللهـ ﷺ وـهـوـ يـكـلمـهـ . قال : وـالـمـغـيـرـةـ بـنـ شـعـبـةـ وـاقـفـ عـلـىـ رـأـسـ رـسـولـ اللهـ ﷺ . قال : فـجـعـلـ يـقـرـعـ يـدـهـ إـذـاـ تـنـاـولـ لـحـيـةـ رـسـولـ اللهـ ﷺ وـيـقـولـ : اـكـفـ يـدـكـ عنـ وـجـهـ رـسـولـ اللهـ ﷺ قـبـلـ أـلـاـ تـصـلـ إـلـيـكـ . فـيـقـولـ عـرـوـةـ : وـيـحـكـ مـاـ أـفـظـكـ وـأـغـلـظـكـ . قال : فـتـبـسـمـ رـسـولـ اللهـ ﷺ ، فـقـالـ لـهـ عـرـوـةـ : مـنـ هـذـاـ يـاـ مـحـمـدـ ؟ قال : هـذـاـ اـبـنـ أـخـيـكـ المـغـيـرـةـ بـنـ شـعـبـةـ ، قال : أـىـ غـدـرـ ، وـهـلـ غـسـلـتـ سـوـأـتـكـ إـلـاـ بـالـأـمـسـ . قالـ الزـهـرـىـ : فـكـلـمـهـ رـسـولـ اللهـ ﷺ بـنـحـوـ مـاـ كـلـمـ أـصـحـابـهـ ، وـأـخـبـرـهـ أـنـ لـمـ يـأـتـ بـرـيدـ حـرـبـاـ .

فـقـامـ مـنـ عـنـدـ رـسـولـ اللهـ ﷺ ، وـقـدـ رـأـىـ مـاـ يـصـنـعـ بـهـ أـصـحـابـهـ ؛ لـاـ يـتـوـضـاـ إـلـاـ اـبـتـدـرـواـ وـضـوءـهـ ، وـلـاـ يـصـقـ بـصـائـاـ إـلـاـ اـبـتـدـرـوـهـ ، وـلـاـ يـسـقـطـ مـنـ شـعـرـهـ شـىـءـ إـلـاـ أـخـذـوـهـ . فـرـجـعـ إـلـىـ قـرـيـشـ فـقـالـ : يـاـ عـشـرـ قـرـيـشـ ، إـنـىـ قدـ جـئـتـ كـسـرـىـ فـىـ مـلـكـهـ ، وـقـيـصـرـ فـىـ مـلـكـهـ ،

(١) آسيتكم : عاونتكم .

(٢) الأوشاب : الأخلاط .

(٣) بيبة الرجل : أهل وقيمه .

(٤) تفضـها : تكسرـها .

(٥) الـيدـ الـتـىـ لـأـبـىـ بـكـرـ مـغـيـرـةـ عـنـدـ عـرـوـةـ عـنـهـ فـىـ الـدـيـاتـ الـثـلـاثـةـ عـشـرـ التـىـ تـحـمـلـهـاـ عـنـ قـوـمـهـ لـيـعـطـيـهـاـ لـبـنـ مـالـكـ ، وـقـدـ أـعـانـهـ أـبـوـ بـكـرـ .

والنجاشي في ملکه ، وإنى ما رأيت والله ملکاً في قومٍ قط مثل محمدٍ في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلموه لشيء أبداً . فروا رأيكم)^(١) .

فهو الذي أقنع قريشاً بشكل غير مباشر بقبول المصالحة ، وقد غزا الإسلام قلبه ، وغزا رسول الله قلبه دون أن يعلن شيئاً من ذلك ، وراغبه ذلك التفاني والحب من المسلمين لقادتهم عليه الصلاة والسلام ، ولم ير هذا عند أحدٍ من ملوك الأرض ، وبعد أن قال محمد بن عبد الله ما تقتضيه الدعاية : لكانى بك قد انكشفوا عنك غداً ، ها هو يعلن بعد انتهاء المقابلة : ولقد رأيت قوماً لا يسلموه لشيء . وفي رواية : (واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، ولقد رأيت قوماً ما يباليون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، والله لقد رأيت نسيات)^(٢) معه إن كن ليسلمته أبداً على حال)^(٣) .

وعروة بن مسعود هو الذي مدحه الأعشى بقوله عندما حمل ديات قومه :

تحمل عروة الاحلاف لما
رأى أمراً تضيق به الصدور
ثلاث مثين في ديه وألفاً
فذلك يفعل الجلد الصبور)^(٤)

(وكان عروة بن مسعود حين حاصر النبي ﷺ أهل الطائف بجُوش ، يتعلم عمل الدبابات والمنجنيق ، ثم رجع إلى الطائف بعد أن ولّى رسول الله ﷺ ، فعمل الدبابات والمنجنيق والعرادات) ، وتمكنَت زعامته في قومه ، إذ أدخل إليهم هذا السلاح الجديد الذي استعمله محمد ﷺ ضد ثقيف ، وحدثَت ثقيف أسلحتها بحيث لو جاءها هجوم مفاجئ من محمد ﷺ ، فقد أعدَت له العدة ، لكن خبرها الحربي ، وزعيمها العسكري كان يعيش عالماً آخر ، كان قلبه يخنق بحب محمد ﷺ العدو الألد الثقيف؛ لذلك ما أن أنهى مهمته في تدريب قومه على هذا السلاح حتى غادر الطائف سرًا ميمماً صوب المدينة ، وأعادَ ذلك حتى قذف الله عز وجل في قلبه الإسلام ، فقدم المدينة على النبي ﷺ فأسلم) وهو تعبير موحٌ فعلًا ، أن قذف الله في قلبه الإسلام ، فهو نور رباني يدخل هذا القلب فيحرق كل عقائد الجاهلية ولكن الزعماء عادة وكثيراً ما يحجب حب الزعامة والسيادة النور عن قلوبهم حتى لو أسلموا ، أما عروة فلا شك أن له معدنًا نفيسًا وكان مطموراً في ركام الجاهلية .

وآذن الله تعالى لهذا المعدن أن ينفض عنه هذا الركام ويزحزحه عنه ، ولا يبعد أن يكون موقف الرسول ﷺ من قومه حينما حاصرهم له دور كبير في فتح مغاليق قلبه حين

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣١٣ / ٢، ٣١٤.

(٢) نسيات : تصغير نسوة ، أي عدد قليل من النساء .

(٣) المخاري للواقدي ٥٩٨ / ٢ .

سمع مقالة رسول الله ﷺ : « اللهم اهد ثقيلاً واثب بهم » ، وذلك حين طلب منه أن يدعو عليهم - بعد أن استشهد العديد من أصحابه - ولا شك أن اللقاء الوحيد الذي تم بينه وبين رسول الله ﷺ في الحديبية قد بقى له آثار ضخمة تعمل في كيانه ، ولا شك وأنه هو الشخص الذاهية الذي ينظر إلى الأفق البعيد ويدرك أبعاد المستقبل أكثر من حوله الذين لا يرون إلا لحظتهم الآتية . ومن خلال هذا الأفق الواسع الرحيب أدرك أن المستقبل للإسلام ، فقد بقيت ثقيفاً وحدها جزيرة من الشرك في بحر من الإسلام ، وهو قد عاش تطور هذا الدين عندما كان بحيرة صغيرة ، وجزيرة ضئيلة في قلب بحر الشرك الآخر حين كان المسلمين قليلاً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وكل هذه العوامل وغيرها كان لها دور في تحقيق هذا الانقلاب العظيم لديه ، ولعل أشد ما زلزل كيانه أن يقوم ابن أخيه الذي كان يغدوه بحياته المغيرة بن شعبة بتهديده بقطع يده إن امتدت إلى لحية رسول الله ﷺ فما هو هذا المفعول السحري لهذا الدين الذي جعل ابن أخيه المغيرة يستعد لقتله ، بعد أن كان مستعداً لقتل كل من تسول له نفسه المساس به .

ليس بين أيدينا حدث معين كان هو السبب المباشر في هذا الاتجاه نحو الإسلام ، ومن التحرك من الطائف إلى يثرب ، ولعل الجهة في الروايات جعلت هذا السبب غائباً عن الذهن ، فهو لم يقدم على المدينة مجرد إعلان للإسلام وإناء للحياة ، بل هو إعلان للإسلام وإيذان بحياة جديدة في هذا الدين ومن أجله .

(فقدم المدينة على النبي ﷺ فأسلم ثم قال :

يا رسول الله ، إيذن لي فأتى قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب) يا سبحان الله ، وبعد عشرين عاماً من الجهاد لهذا الدين يعجب عروة لذهب عقول الناس عن هذا الدين ، وحربيهم له ، (فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأقدم على أصحابي وقومي بخبر قادم ، وما قدم وافق قط على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به) .

إنه لا يكتفى بذلك بل يستعيد صفة حياته كاملة ، فإذا هي كلها صد عن سبيل الله ، فهل يمكن أن يسجل في الصفحة الجديدة لحياته بعض معالم النور المضيئة فوق هذا الظلام الدامس : (وقد سبقت يا رسول الله في مواطن كثيرة) .

فقال رسول الله ﷺ : « إنهم إذن قاتلوك » ، قال : يا رسول الله ، لأننا أحب إليهم من أبكار أولادهم . ثم استأنفه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول ، وقال رسول الله ﷺ : « إنهم إذن قاتلوك » قال : يا رسول الله ، لو وجدوني نائماً ما أيقظوني) .

لقد غاب عن عروة حلمه ، من شدة انفعاله بهذا الدين ، وهو يسمع رسول الله ﷺ يحذره من قومه ، وهو يعلم أنه النبي الموحى إليه ، فلن يتكلم هذا الكلام عرضًا أو ظنًا ، لكن رغبته الجامحة بإيمان قومه ، وما يعرفه من رسوخ زعامته في قلوبهم دفعته إلى الإصرار على العودة إليهم ليأتي بهم أنفواجًا إلى الإسلام واستأذنه الثالثة « فقال : إن شئت فاختر » .

فخرج إلى الطائف فسار إليها خمساً ، فقدم على قومه عشاء فدخل منزله ، فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتي الربيبة (أي اللات) ثم قالوا : السفر قد حصره .

أما عروة فهو على يقين أنه سيعيد سيرة سعد بن معاذ في قومه ، فكما لا يعد في بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة ولا طفل إلا دخلوا في هذا الدين ، فتوقع ألا يبقى في الأحلاف (فرع عروة) رجل ولا امرأة ولا طفل إلا دخل في الإسلام . (فجاوزوا منزله فحيوه تحية الشرك ، فكان أول ما أنكر عليهم تحية الشرك ، فقال : عليكم تحية أهل الجنة ، ثم دعاهم إلى الإسلام وقال :

يا قوم ، أتتهمونى ؟ ألستم تعلمون أنى أوسط لكم مالاً ، وأكثر لكم مالاً ، وأعز لكم نفراً) . وهكذا راح يحشد كل ماله من مكانة وحسب وعلو كعب في قومه ليوظفها لخدمة هذا الدين الجديد ، ويدعوهم إلى الله عز وجل ، فتابع قوله : (فما حملني على الإسلام إلا أنى رأيت أمراً لا يذهب عنه ذاهب ، فاقبلوا نصحي ، ولا تستعصونى ، فوالله ما قدم وافد على قوم بأفضل مما قدمت به عليكم) ، وانتظر من هذه الوجوه التي جاءت مستبشرة بقدومه ، وتعتلج شوقاً إليه ، نظر في هذه الوجوه فإذا بها باهتة كالحة . (فاتهموه ، واستفسروه وقالوا : قد واللات وقع في أنفسنا حيث لم تقرب الربيبة ، ولم تخلق رأسك عندها إنك صبوت ، فاذوه ونالوا منه) ، وتجرب عروة غصصاً قاتلة ، فمتى كان قومه يردون عليه ، ومتى لم تكن كلمته قانوناً ينفذ ، إنها مفاجآت جارحة مؤلمة له ، لكنه مع ذلك لا يزال يأمل أن بالإمكان معالجة الموقف ، وأعاد هذا الأمر لشدة تعليقهم بالآهتين ، فراح يحلم بإعادة الجولة معهم بالحديث عن هذا الدين . أما هم (فقد خرجوا من عنده يأترون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجر أوفى على غرفة له فإذاً بالصلاحة) . وكان قدر الله النافذ ، ونبوءة رسول الله ﷺ الصادقة (فرماه رجل من الأحلاف يقال له : وهب بن جابر - ويقال أوس بن عوف من بنى مالك - وهذا ثبت عندنا - وكان عتبة رجلاً من الأحلاف ، فأصاب أكحله ، فلم يرقا دمه ، وحشد قومه في السلاح ، وجمع الآخرون وتجابسوا) .

وكما كان عروة سيداً لقومه استطاع أن يجنب قومه المقتلة العظيمة يوم جريمة ابن

أخيه، فها هو وهو على فراش الموت يحرض على ألفة قومه، وصلاح ذات بينهم، لعلهم يدخلون في هذا الدين وافرين (فلما رأى عروة ما يصنعون قال : لا تقتلوا في ، فإنى قد تصدقت بدمى على صاحبه ليصلح بذلك بينكم فهى كرامة أكرمنى الله تعالى بها . الشهادة ساقها الله إلى) .

وأدرك وهو يتصرّج بدمه ، تحذير حبيبه المصطفى ﷺ من هذا المصير فقال وقلبه يذوب حباً وشوقاً إليه :

(أشهد أن محمداً رسول الله ، خبرني عنكم أنكم تقتلوني) .

إنه مثل زيد الحليل الطائى ، الذى كتب سعيداً وهو في بطنه أمه ، فقد أمضوا حياتهما في الجاهلية ، ورباهم يعرف صدقهم وصلاحهم ، فهيا لهما سعادة قبل الموت بأيام أن يدخلان في هذا الدين ويحملان رايته . من دون أن يكون لهم دور في المستقبل الإسلامي العظيم .

وغدا حلم عروة طويلاً بعد أن ذاق لذة الشهادة أن يدفن بجوار إخوانه من الشهداء الذين قضوا نحبهم تحت حصون الطائف ، فقد أصبح اليوم ابن هذا الدين ، ولم يعد ابن اللات ولا ولد ثقيف العصاة المشركين ، فكانت وصيته : (ثم قال لرهطه : ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، قال : فدفونوه معهم .

ولم يعش عروة في هذا الدين إلا أيامًا قد لا تبلغ أسبوعاً واحداً ، لكن الله تعالى ذكرى هذه الأيام ، وقبل إسلام عبده عروة ، فإذا به يصبح رمزاً من رموز هذا الدين ، وعلمًا من أعلامه بحيث يكون صاحب يس هذه الأمة من دون الناس جميعاً ، صاحب يس الذي يتلو المؤمنون قصته أبداً الدهور : « وجاء من أقصى المدينة رجال يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون (٢١) وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) أللّهُمَّ منْ دُونِهِ أَهْلَهُ إِنْ يُرِدُنَ الرَّحْمَنَ بِعِزْرٍ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْدِدُنَ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَقِيَ ضَلَالاً مُّبِينًا (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرِبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ (٢٥) قَبْلَ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ (٢٧) » [يس] .

وكان عروة هو هذا الداعية العظيم في قومه الذي فدى دعوته ودينه بحياته .

(وبلغ رسول الله ﷺ قتله فقال :

« مثل عروة مثل صاحب يس ؛ دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه ») .

وأقض مضاجع ولدى الشهيد أبي ملبيع بن عروة ، وابن أخيه قارب بن الأسود .

فناً لأهل الطائف : (لا نجامعكم على شيء أبداً وقد قتلتم عروة) .

وكان هذا الدم الزكي القوار قد سقى أرض الطائف فازهر منها هاتين البنتين اللتين انضمتا إلى الإسلام ، (ثم لحقا برسول الله ﷺ فأسلمتا ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « توليا من شتاما » ، قالا : نتولى الله ورسوله) . فهما ثلاثة أيتام من ثقيف مع المغيرة ابن شعبة ابن عمهمما . فقال النبي ﷺ : « وخالفهما أبو سفيان بن حرب ، حالفاه » ، ففعلا ، ونزلوا على المغيرة بن شعبة وأقاما بالمدينة) . وحين توضع النبتة الطيبة المعطاء وتُسقى بالنرجس القوار ، لا بد أن تزهر وتشمر .

لقد غُيّبت النبتة (عروة) تحت الشرى ، وامتدت جذورها دون أن يُرى امتدادها في أشهر الشتاء الموسوم بالبرد والزمهرير لكن إذا أقبل الربيع ، تجود الأرض ، وتختضوض الأرض ، وتبرز من جديد تلك الشمرات اليانعات ، لقد امتدت هذه النبتة تحت الأرض وامتدت حتى غطت أرض ثقيف كلها . وما أن جاء الربيع ، ومضت أشهر الشتاء القاسية العاصفة حتى برزت هذه النبتة وغطت أرض ثقيف كلها بالإسلام . كل أرض ثقيف .

(حتى قدم وفد ثقيف في رمضان سنة تسع) (١) .

لعل استشهاد عروة كان في جمادى ، ومر الجمادان ورجب وشعبان ، وجاء رمضان ربيع المؤمنين ، وعاد رسول الله ﷺ من تبوك ليتلقى أول وفد إسلامي من ثقيف في رمضان سنة تسع ، ليتلقى هذا الوفد وعلى رأسه من قال لرسول الله ﷺ : أنا أمرت ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك ، هذا الوفد الذي أعطاه الله عمر جيل كامل حتى يأتي عمر خمسين عاماً . « لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله » . ولكنها عشر سنين فقط ، وبالسماد الكيماوي الذي غذى هذه الأرض اختصر الزمن ، وجاء الوفد قبل أربعين عاماً من الميلاد ، وضن رسول الله ﷺ بهذا الجيل عن الفناء ، حين عرض عليه ملك الجبال إفناه ليس من أجله ، ولكن ليخرج من أصلابه من يقول : لا إله إلا الله . لكن الله تعالى كان يدخل هذا الجيل نفسه لا غير ؛ ليكون حامل راية الإسلام في أرض العرب مع القادة المسلمين الآخرين .

(١) هذه المقاطع كلها بين الأقواس هي رواية الواقعى فى المغارى عن إسلام عروة ٢ / ٩٦٠ - ٩٦٢ .

غزوة تبوك

أسباب الغزوة ووقتها :

ويقال إنها غزوة العسرة والفاصلة : اختلف في سببها؛ فقيل إن جماعة من الأنبياء الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ذكروا لل المسلمين أن الروم جمعوا جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لستة ، وأجلبت معهم لحم وجذام وعاملة وغضان وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى اللقاء، ولم يكن لذلك حقيقة، ولما بلغ رسول الله ﷺ ذلك ندب الناس إلى الخروج. نقله محمد بن عمر، ومحمد بن سعد.

وروى الطبراني بسنده ضعيف عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كانت نصارى العرب كتبوا إلى هرقل : إن هذا الرجل الذي قد خرج يدعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنتون فهلكت أموالهم فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالأآن ، فبعث رجلاً من عظامائهم ، وجهز معه أربعين ألفاً ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأمر بالجهاد .

وقيل : إن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقاً فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء ، فغزا تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة بنى إسرائيل : **﴿وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا أَلْبَثْتُمْ خَلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** [الإسراء] رواه ابن أبي حاتم ، وأبو سعد ، والنسابوري ، والسيهقي بإسناد حسن .

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى لما منع المشركين من قربان المسجد الحرام بالحج وغيره قالت قريش : لتقطعن علينا التجار والأسواق . وليدهن ما كان نصيب منها ، فعوضهم الله تعالى عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كما قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَعْسَنُ فَلَا يَقْرِبُوا الْمَسْجِدَ الْعَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خَفِقْتُمْ عَلَيْهِ فَسَوْفَ يَغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** [النور] فاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون **﴿وَإِنَّمَا الظَّالِمُونَ الَّذِينَ يَعْصِمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوْا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** [التوبه] ، وقال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا قَاتِلَوْا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيْكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** [التوبه] ، وعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس

إليه ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام . رواه ابن مardonie عن ابن عباس وابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد ، وابن حجرير عن سعيد بن جبير (١) .

وذكر ابن إسحاق في السيرة قوله :

(ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب ، ثم أمر الناس بالتهيؤ إلى غزو الروم ، وقد ذكر لنا الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر ... وغيرهم من علمائنا .. أن رسول الله ﷺ أمر بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان عشرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الشمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخصوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأنبأ أنه يريد غير الوجه الذى يقصد له . إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، وبعد الشقة وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يقصد له ، ليتأهّب الناس لذلك أهّبته ، فأمر الناس بالجهاد ، وأخبرهم أنه يريد الروم) (٢) .

وروى ابن أبي شيبة والبخارى وابن سعد عن كعب بن مالك خواشى قال : كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورث بغيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ فى قيظ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وغُزِّي عدداً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبة غزوهם وأخبرهم بوجهه الذى يريد (٣) .

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهם ، فبعث إلى أسلم بريدة بن الحصيب ، وأمره أن يبلغ الفرع ، وبعث أبا رهم الغفارى إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبو واقد الليثى فى قومه ، وخرج أبو الجعد الضمرى فى قومه بالساحل وبعث رافع بن مكىث ، وجندب بن مكىث فى جهينة ، وبعث نعيم بن مسعود فى أشجع ، وبعث فى بني كعب بن عمرو بدبل بن ورقاء ، وعمرو بن سالم ، وبشر ابن سفيان ، وبعث فى سليم عدة منهم العباس بن مردارس .

يقول الحافظ ابن حجر :

وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق ، ويقال بيته : وبين المدينة أربع عشرة مرحلة ... وفي حديث ابن عباس : قيل لعمر : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، قال : خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد ، فأصابنا عطش ... وفي تفسير عبد الرزاق عن عمر عن ابن عقيل ، قال : خرجوا فى قلة من الظهر وفى حر شديد حتى

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥، ٦٢٦، ٦٢٧ . (٢) السيرة النبوية لأبن هشام ٥١٦/٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥، ٦٢٨ .

كانوا ينحررون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء ، فكان ذلك عشرة من الماء وفي الظهر وفي النفقه ، فسميت غزوة العسرة ^(١) .

نحن على أبواب مرحلة جديدة أعقبت مرحلة فتح الحجاز وخصوصه للسيادة الإسلامية بعد فتح مكة ، وحيث أن شمال الجزيرة العربية يستمد قوته من فتح حدوده مع الروم ، وال المسلمين كانوا من قبل يترجحون من قتال النصارى فهم أهل كتاب مثلهم ، وإنهايار مكة مركز الوثنية في الأرض العربية يعني أن الجهاد قد توقف ، فلا بد إذن من الانتقال إلى المرحلة الجديدة التي تعنى فتح الجبهة مع الروم النصارى الذين يحددون الله ورسوله ، وجاء البناء العقائدي أولًا ليوضع للمسلمين كفر النصارى ثم حربهم انطلاقاً من هذا المفهوم .

فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيمة :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَآبَاءُكُمْ إِخْرَانِكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَاتُكُمْ وَأَمْوَالُ اقْرَفَتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضُونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَرَبِصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٢٤) ﴿ التوبه ﴾ .

ويأتي الحديث بعدها عن حنين ، وقتل المشركين الذي تم فيه ، وإنهايار هوازن أكبر قبائل العرب المشاركة في الأرض العربية ، وإنهاء الشرك فيها بحيث لا يجوز اقتراب المشركين من المسجد الحرام .

﴿ وَيَوْمَ حَنِينٍ إِذَا أَعْجَبْتُمْ كُفَّارَكُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتَمْ مُدْبِرِينَ ^(٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِيْتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جِنِيداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ^(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ^(٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خَفِقْتُمْ عَلَيْهِ فَسُوفَ يَغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(٢٨) ﴿ التوبه ﴾ .

وبعد انتهاء حرب المشركين يعلن القرآن الكريم فتح جبهة الحرب ضد أهل الكتاب لكن بصيغة تختلف عن صيغة المشركين ، وهي إيجاد الخيار الثالث بعد الخيارات الأولين الإسلام أو الحرب ، وهو خيار الجزية واستمرار المعايشة من خلالها بين المؤمنين وأهل الكتاب .

﴿ قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ١١١/٨

يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزِّيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ۝

[التوبة]

وبسبب القتال هو الكفر :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَانُهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخِذُو أَحْجَارَهُمْ وَرَهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مَّنْ دُونَ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ۝ [التوبة]

وانطلاقاً من هذا الفهم والتقرير العقidi سيكون موقفهم الاصليل هو حرب الله ورسوله :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ وَلَوْ كَرِهُ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ۝

[التوبة]

فلا بد أن يظهر الإسلام على الدين كله ، على المشركين وعلى النصارى وعلى اليهود الذين لا يدينون دين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

في هذه الأجواء كانت هذه الآيات تتنزل ، وتعد المؤمنين ، وتعينهم للمرحلة الجديدة ، وانطلاقاً من هذا الفهم فلا داعي للبحث عن أسباب خارجة عن الإرادة الإلهية في حرب أعداء هذا الدين ، والأسباب التي ذكرت للغزو هي روايات ضعيفة ت يريد أن تجعل الحرب حرباً دفاعية ضد هجوم محتمل من النصارى على أرض الإسلام ، ولو فرضنا جدلاً وجود مثل هذه الحشود على الأرض العربية ، والتي تريد أن تغزو المسلمين ، فهذا يؤكد المفهوم القرآني نفسه ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ (٣٢) ۝ [التوبة]

وتأتي الآيات القرآنية بعد ذلك تحت الناس على الجihad في الوقت الذي تعلقت فيه النفوس بالأرض وأخلدت إليه حيث طابت الظلال وأوقدت الشمار ، واشتد الحر في هذا الوقت بالذات تريد أن تتزعز هؤلاء المؤمنين من دنياهم إلى جهادهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْفَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيْمُ

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ [التوبه] .

وإذا كان الحديث من قبل عن فضل الجهاد والمجاهدين وما أعد الله لهم من جنات ونعم ، فالحديث هنا عن أن التخلف عن الجهاد يعني العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، واستخلاف هذه الأمة بغيرها .

﴿ إِلَّا تَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَدِلُّونَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٣٩﴾ [التوبه] .

وإذا اعتبرتم أن الإسلام قام بكم فاذكرروا يوم لم يكن مع عبده ورسوله محمد ﷺ وصاحبـهـ في الغار إلا الله ، فـأينـ كـتـمـ أـنـتـمـ جـمـيـعـاـ حينـ نـصـرـهـ اللـهـ ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ الْثَّيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٤٠﴾ [التوبه] .

وجاء الأمر النهائي الذي لا يقبل الجدل :

﴿ انفِرُوا خِفَاً فَوَقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ [التوبه] .

ولابد من الإشارة من جهة ثانية أن هذه الغزوة في المصطلح العسكري المعاصر مناورـةـ عـسـكـرـيةـ أوـ استـعـرـاضـ للـقـوـاتـ الإـسـلـامـيـةـ فـيـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ .ـ فإذاـ كانـ التـحـرـكـ قـبـلـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ بـثـلـاثـةـ آـلـافـ مـقـاتـلـ عـلـىـ رـأـسـهـمـ مـوـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ زـيدـ بنـ حـارـثـةـ ،ـ فـجيـشـ الـيـومـ عـشـرـةـ أـضـعـافـ ذـلـكـ الـجـيـشـ ،ـ جـيـشـ الـيـومـ ثـلـاثـونـ أـلـفـاـ ،ـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ مـوـلـىـ مـحـمـدـ اـبـنـ عـبـدـ اللـهـ سـيـدـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـرـسـوـلـ ربـ الـعـالـمـيـنـ ﷺ ،ـ وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ كـلـ الـأـرـاضـيـ الـتـيـ تـحـرـكـ بـهـاـ الـجـيـشـ قـدـ غـدـتـ خـاصـصـةـ لـلـحـكـمـ الـإـسـلـامـيـ ،ـ رـغـبـةـ أـوـ رـهـبـةـ ،ـ وـمـاـ روـيـ أـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ عـنـدـمـ وـصـلـ إـلـىـ تـبـوـكـ قـالـ :ـ «ـ هـاـ هـنـاـ شـامـ»ـ ،ـ فـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ غـدـتـ كـلـهـاـ تـحـتـ سـيـادةـ الـإـسـلـامـ ،ـ أـمـاـ الشـامـ فـلـهـاـ جـوـلـةـ أـخـرـىـ وـمـرـحـلـةـ قـادـمـةـ تـبـدـاـ الـحـرـبـ مـعـ أـهـلـهـ ،ـ وـمـنـ أـجـلـ هـذـاـ وـجـدـنـاهـ ﷺ يـرـسـلـ إـلـىـ قـلـبـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ إـلـىـ أـكـيـدـرـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ ،ـ هـذـهـ الـجـزـيرـةـ الـتـيـ تـدـيـنـ لـلـرـوـمـ بـالـلـوـلـاءـ يـرـسـلـ إـلـيـهـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ لـيـنـزـعـهـ عـنـ عـرـشـهـ ،ـ وـيـقـدـمـهـ أـسـيـراـ بـيـنـ يـدـيـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ ،ـ وـيـتـزـعـ الـوـلـايـةـ الـرـوـمـيـةـ لـيـكـونـ مـحـلـهـ الـوـلـايـةـ الـإـسـلـامـيـةـ .ـ

وـأـخـيـرـاـ فـرـحـلـةـ الـثـلـاثـيـنـ أـلـفـاـ هـؤـلـاءـ هـىـ رـحـلـةـ تـدـرـيـسـةـ تـرـبـوـيـةـ لـأـكـبـرـ عـدـدـ مـمـكـنـ منـ الـمـسـلـمـيـنـ مـعـ قـائـدـهـمـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ ،ـ فـالـمـدـيـنـةـ لـاـ تـسـعـ لـمـثـلـ هـذـهـ الـأـعـدـادـ لـتـلـقـىـ مـعـ

رسول رب العالمين ، فلابد من هذه الدورة الكبرى في الصحراء المترامية الأطراف ، يعيش فيها المسلمون بهذه الأعداد مع قائدتهم عليه الصلاة والسلام ، ومع بعضهم بحيث يخلصون من سلطان العشيرة إلى سلطان الأمة الواحدة .

لقد كانت رحلة العشرة آلاف إلى مكة، وشهدنا حلقات التربية الكاملة فيها، وهذا نحن نشهد الآن ثلاثة أضعاف أولئك في رحلة شاقة بعيدة المدى ، تهـىء هذا الجيل ليقوم ب مهمته القادمة وليواجه أمم الأرض بهذا الدين ، فلابد من إعداد هذه الأعداد الضخمة بمثيل هذه الدورة الضخمة .

وقد مثلت الرحلة الأولى مجتمع المهاجرين والأنصار ، فقد تحدد الأنصار ، وتمدد المهاجرون إذ لا هجرة بعد الفتح ، وانضم إلى هذه الدورة وفي متصفوها مسلمة الفتح الذين تجاوز عددهم الألفين .

وتتأتى هذه الدورة الجديدة لتمثل مجتمع المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، والذين انضموا إليهم من حول المدينة من الأعراب كما حددتهم الآية : «**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلُهُمْ مِنْ أَعْرَابٍ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغِبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ**» [التوبـة : ١٢٠] ، وهم والأنصار والمهاجرون جميعاً يمثلون صحابة رسول الله الذين سعدوا بهذه الصحبة لشهرين متكملين مع سيد ولد آدم .

وذلك قبل الدورة الأخيرة في حجة الوداع ، والتي ارتفعت الأعداد فيها إلى مائة وثلاثين ألفاً بزيادة مائة ألف من قبائل العرب المشتشرة في أنحاء الجزيرة ، ونشهد في هذه الرحلة معالم جديدة ومعالم ثابتة في تربية القاعدة العربية كما نشهد استمرار التربية الفردية والقيادة للمرشحين للقيادة ، والقادة الكبار الذين لم تنقطع تربيتهم حتى اللحظات الأخيرة من حياته صلوات الله عليه وآله وسلامه .

الجهاد بالمال في سبيل الله :

(في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه) عند الطبراني : أن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه كان يجلس كل يوم على المنبر فيدعـو فيقول : « اللهم إن تهـلك هذه العصابة لن تبعد في الأرض » فلم يكن للناس قوة .

قال محمد بن عمر : حضر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه على الصدقات فجاؤها بصدقات كثيرة ، فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، جاءه بالله كله أربعة آلاف درهم ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » قال :

نعم، مثل ما جئت به ، وحمل العباس ، وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن عبادة رضي الله عنه ، وحمل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ماتى أوقية إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وتصدق عاصم بن عدى رضي الله عنه بسبعين وسقاً من تمر ، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش حتى أنه كان يقال : ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شقّ أستيقنهم) (١) .

قلت : كان ذلك الجيش زيادة على ثلاثين ألفاً ، فيكون رضي الله عنه جهز عشرة آلاف .

وذكر أبو عمرو في الدرر ، وتبعه في الإشارة أن عثمان حمل على تسعمائة بعير ومائة فرس بجهارها) (٢) .

وقال ابن إسحاق رحمه الله : (أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها) ، ونقل ابن هشام عن من يشق به : (أن عثمان رضي الله عنه أنفق في جيش العسرة ألف دينار) (٣) .

قلت : غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك . فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه » ، وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه (٤) والبيهقي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : جاء عثمان إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم بالف دينار في كمه حين جهز رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فصبّها في حجر النبي صلوات الله عليه وسلم ، فجعل النبي يقبلها بيده ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » يرددتها مراراً . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند والترمذى والبيهقي عن عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فتح على جيش العسرة ، فقال عثمان رضي الله عنه : على مائة بعير بأحلاسها (٥) وأقتابها (٦) ، ثم نزل مرقة أخرى من المنبر ، فتح ف قال عثمان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقة أخرى فتح ف قال عثمان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فرأيت رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول بيده هكذا يحركها للتعجب : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم » أو قال بعدها) (٧) .

وروى الطيالسى والإمام أحمد والنسائى (٨) عن الأخفى بن قيس رحمه الله تعالى قال : سمعت عثمان رضي الله عنه يقول لسعد بن أبي وقاص وعلى والزبير وطلحة : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال : « من جهز جيش العسرة غفر الله له » فجهزتهم

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٢٩، ٦٢٨ . والشق : جمع شق وهي أربطة الأسية .

(٢) المصدر السابق ٥/٦٢٩ .

(٣) سنن الترمذى ٥/٦٢٦ ح (٣٧٠) مناقب عثمان .

(٤) الأخلاص : جمع حلس وهو كساء يكون تحت البردعة .

(٥) الأقتاب : جمع قتب : وهو البردعة التي توضع على البعير .

(٦) وهي عند الترمذى ستمائة بعير ٥/٦٢٥، ٦٢٦ . (٨) سنن النافى ٦/٣٩ .

حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقاً؟ قالوا : اللهم نعم) (١) .

(ورغم أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك الخير، وقوروا أناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكمما تتعاقباه ، ويأتى الرجل فيعطيها بعض ما يخرج ، حتى إن كُنَّ النساء ليُعنَّ بكل ما قدرن عليه .

قالت أم سنان الإسلامية : لقد رأيت ثواباً ميسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة فوثقها فيه مسک ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات مما يبعث به النساء يُعنَّ به المسلمين في جهارهم) (٢) .

وروى أبو داود) (٣) ومحمد بن عمر عن واثلة بن الأشعى فوثقها قال : نادي منادي رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلى - وقد خرج أول أصحابه - فطافت في المدينة أنادي . الا من يحمل رجلاً وله سهمه ، فإذا شيخ من الأنصار (سماه محمد ابن عمر : كعب بن عجرة) فقال : سهمه على أن نحمله عقبة وطعامه معنا ؟ فقلت : نعم ، فقال : سر على بركة الله تعالى ، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا .

قال محمد بن عمر : بعثه رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة . قال : فأصابني قلائص) (قال محمد : ستة) فسقطهن حتى أتيته بهن . فخرج فقد على حقيقة من حقائب إيله ثم قال : سقطهن مقبلات ، فسقطهن ، ثم قال : سقطهن مدبرات ، فقال : ما أرى قلائصك إلا كراماً ، فقلت : إنما هي غنيمتك التي شرطت لك ، قال : خذ قلائصك يا بن أخي ، فغير سهمك أردنا) .

وروى الحافظ ابن كثير في تفسيره قال :

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد الجريري عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيقع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيقع وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيمة » قال : فحللت عمامتي لوئاً أو لوئين وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فلدركتني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبيقع أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا أذم بيعير ساقه لم أر بالبيقع ناقة أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، أصدقة ؟ قال : « نعم » . قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه فوالله لهى خير منه . قال : فسمعاها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات) (٤) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٦٣٠ . (٢) المغارى للواقدى / ٣ / ٩٩١، ٩٩٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٦٣١ ، والواقدى / ٣ / ٩٩١ . (٤) تفسير ابن كثير / ٣ / ٤٣٠ وهي في المستند / ٥ / ٣٤ .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رباء ، وقالوا : إن الله ورسوله لغينان عن هذا الصاع .

وقال العوفى عن ابن عباس : إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم فتصدق بصاع من تمر فقال : يا رسول الله ، هذا صاع من تمر ، بت ليتني أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فامسكت أحدهما ، وأتيتك بالآخر . فأمره رسول الله ﷺ أن ينشره في الصدقات ، فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغينان عن هذا ، وما يصنعون بصاعك من شيء . ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لم يبق أحد غيرك » . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب : أمجنون أنت ؟ قال : ليس بي جنون . قال : أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالى ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي ، وأما أربعة آلاف فلى ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ^(١) .

(وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل أخو بنى أئيف الأراشى حليف بنى عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن الله غنى عن صاع أبى عقيل) ^(٢) .

وأما علبة بن زيد فخرج من الليل فصلى من ليته ما شاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغيت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أنتقى به مع رسول الله ﷺ ، ولم تجعل في يد رسول الله ﷺ ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها في مال أو جسد أو عرض ، ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ : « أين المتصدق هذه الليلة ؟ » فلم يقم أحد ، ثم قال : « أين المتصدق ؟ » فلقيم ، فقام إليه فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « أبشر ، فوالذى نفس محمد بيده لقد كتب في الزكاة المقبلة » ^(٣) .

* * *

(٢) المصدر السابق ٤٣١/٣ .

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٠/٣ .

(٣) دلائل البوة للبيهقي ٢١٩ ، ٥٢١٨ .

رسول الله ﷺ يقدم على أخطر قرار في تاريخ الدعوة ، وأعظم مواجهة ، ففتح الجبهة مع الروم يعني تعرضه لأكبر دول الأرض . وهو يريد أن يعيّن أعظم الطاقات عنده ، ويحشد كل قواه الفدائیة والاحتیاطیة في استعراض عسكري شامل ، يمكن أن تفتح على طریقته جبهات عددة من القبائل التي لا تزال موالية للروم في شمال الجزیرة ، إضافة إلى احتمال المواجهة المباشرة مع جیوش الروم ، ويدرك صلوات الله وسلامه عليه سرية مؤنة التي مضت وأوغلت في أرض الروم والعرب الأتباع لهم ، وكان قوامها ثلاثة آلاف مقاتل كيف حشد لمواجهتها مائتا ألف من الروم والعرب الأتباع لهم ، وكان على رأسها مولاهم زید بن عائشة فماذا يعد الروم لمواجهة سید الجزیرة محمد بن عبد الله رسول رب العالمين ؟

إن الإمکانات البشرية لابد من استثار کامل لها من جميع الذين أعلنوا انتمامهم وانتسابهم للإسلام ؛ ولهذا مضت الرسل إلى القبائل في كل مكان تدعوهم إلى الحضور للمدينة ، كما فعل يوم فتح مكة ، لقد مر أقل من عام على غزو الفتح ، وارتفع الجيش النبوی إلى اثنى عشر ألف مقاتل حين دخلت قريش المعركة بجوار رسول الله ﷺ ، لكن التعبئة القتالية تحتاج إلى الأموال الطائلة للسلاح والعتاد والتموين ، فموقع المعركة بعيد جداً عن العاصمة (المدينة) ، والمسيير في وقت غير ملائم للنفير في شدة من الحر ، وشدة من القيظ ، والنفوس - غير مهيأة للمعركة - قد استرخت ، وطابت الظلال ودنت الشمار وأخلد الناس إلى الأرض .

هذه المعركة كما قلنا هي أخطر قرار على الساحة ، فلا بد من إعداد الأبهة الكافية لها .

وكان أول تغيير في التخطيط العسكري هو الإعلان عن زمان ومكان المعركة عكس كل المعارك السابقة كلها التي كان رسول الله ﷺ يوري عن غيرها ، ولا يعلن حتى موعدها حفاظاً على السرية الكاملة ، وطبيعة الغزوات السابقة أنها تقتد لمسافات قريبة باتجاه القبائل المجاورة .

والمال والقوة البشرية هو عصب المعركة ، وكلما ارددت الطاقة البشرية كلما زادت التكاليف الباهظة لها . أقدم رسول الله ﷺ على هذا القرار وليس بين يديه درهم واحد للمعركة ، فلم يكن هناك ميزانيات عادلة ولا احتیاطية مثل هذا المواجهة ، ومع ذلك فتحتة رسول الله ﷺ بقاعدته الصلبة جعلته يتّخذ القرار بعد التوكل على الله اعتماداً عليها ، وبعد إعلان التفیر الشامل والتعبئة العامة ، وبعد الإعلان الذي نزل من رب السموات والارض يدعو إلى استثمار الطاقات كافة :

﴿ انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ... ﴾ [التوبه : ٤١] .

﴿ وقاتلو المشركيـن كـافـة كـما يـقاتـلـونـكـمـ كـافـةـ ... ﴾ [التوبه : ٣٦] .

ومن أين يأتي العتاد والعدة والطعام والشراب لهذه الآلاف المؤلفة ؟؟
الطريق الوحيد لذلك هو الحث على الصدقات في هذه العسرة ، وهذه الظروف
الصعبة .

فهل تستطيع القاعدة الصلبة تحمل مثل هذا القرار ، وتلبى حاجات الجيش الإسلامي
كافة ؟

ويأتي الجواب من هذه القاعدة في أنها نجحت أياً نجاح في هذا الامتحان القاسي .

لم تبرز الحاجة إلى المال كما برات اليوم ، ففي التفير الأول في فتح مكة لم يجد
مثل هذا الأمر خلال التعبئة ؛ لأن كل قبيلة كانت تحمل تكاليف أبنائها ، وتسليحهم
وقوتهم . أما الآن ، فقد توافق على المدينة الآلاف من أفراد القبائل من كل مكان ،
والراغبون في الجهاد ، ولم يفدوا من خلال زعامة قبيلتهم إنما وفدوا من خلال
الاندفاعات الشخصية يملكون أنفسهم فقط ، ويطبلون التسلية والتموين من قيادة
الدولة؛ من رسول الله ﷺ . والقائد الأعظم ماض في الحث على الصدقات .

وبرز الرجل الأول في الأمة أبو بكر الصديق ، والذي حق له أن يكون الوزير
الأول ، والرجل الأول ، فقدم كل ثروته ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ ، وكانت
الثروة أربعة آلاف درهم . إن هذا الأمر لا ينظر له من خلال هذه الثروة المتواضعة ، فقد
كانت ثروة الصديق عشرة أضعاف هذه الثروة ، أربعون ألف درهم ، وأنفقها كلها في
سبيل الله ، وتجاوزاً مع النداء الأول جاء الصديق رض بكل ما يملك ، فقال له رسول
الله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وعندما يقدم رئيس الوزراء كل ثروته لله ، ولا يدع لأهله شيءً فهذا من ناحية
معنوية يعني العظمة المطلقة لهذا القائد الذي لا يصل إلى مستوى أحد ، وكل الذين أنفقوا
في سبيل الله لم يقدموا واحداً منهم على تقديم ثروته كلها إلا الصديق الأكبر رض ؛
ولهذا كان موقعه في قمة هذه الأمة والسيد الأول فيها ، أما الرجل الثاني في الأمة
عمر رض فقد قدم نصف ثروته ، وأبقى لأهله نصفها الآخر . لقد مثل الصديق القدوة
العلياً لعمر رض ، ومثل عمر وأبو بكر القدوة لاغنياء الأمة في البذل والتبرع يؤكّد هذا
المعنى ما قاله عمر رض : (وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر فقال : ما استبقنا إلى الخير فقط
إلا سبقنى إليه) (١) .

وما كان لرسول الله ﷺ أن يقبل إنفاق المال كله من غير أبي بكر لما يعلم من عظمة

(١) المغارى للواقدى ٩٩١/٣

نفسيته ، وعظمته توكله ، وعظمته ثقته بربه .

ثم جاء ما يملاً الخزينة العامة ، جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه الرجل الثالث في الأمة ، الذي بعث ابتداءً بalf دينار ، وصبهما بين يدي رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، ونال أعظم وسام نبوى في حياته على هذه النفقه : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » .

ثم كانت المرحلة الثانية من البذل بعد الألف دينار التي تعدل عشرة آلاف درهم أو تزيد ، حين كان يعلن أمام الأمة كلها لتقتنى به في البذل ، وهو يسمع رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يحث على الصدقة على المنبر ، قال على : مائة ناقة بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ولابد أن ييرز هذا السيد العظيم أمام الأمة كلها ؛ ليكون القدوة العليا في البذل لأغنياء الأمة ، ونزل رسول الله صلوات الله عليه وسلامه درجة وحث على الصدقة ، فقال عثمان رضي الله عنه : على مائتا ناقة بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، وتستمع الأمة ولا تكاد تصدق أفي حلم أم فيحقيقة ، أمام تبرع وبذل ذي التورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ونزل رسول الله صلوات الله عليه وسلامه درجة أخرى ، وحث على البذل ، فوق عثمان ثلاثة ، وقال : على ثلاثة ناقة بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله : خمسمائة ناقة وألف دينار وفي رواية لابن عدى : أنها عشرة آلاف دينار . والذى اتفق عليه الرواية أنه جهز ثلث الجيش أى عشرة آلاف جندى بكل ما يحتاجون حتى كفاهم شتق أسفتهم ، فهو تمرين كامل وعموين كامل لثلث الجيش . . . لقد قام عثمان رضي الله عنه مقام الدولة ، وسد ثغرة ثلث الخزينة المعدة للمعركة ، وكم يكون رسول الله صلوات الله عليه وسلامه قرير العين ، يوم يجد الراعيل الأول ليس جاهزاً فقط للجنديه والموت في سبيل الله . بل يجد كذلك عمولاً للجيوش . رغم كل انشغاله بالجهاد مع رسول الله صلوات الله عليه وسلامه .

هؤلاء الثلاثة من العشرة المبشرين ، ويطالعنا بقيمة العشرة المبشرين وهم طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم ، فعبد الرحمن بن عوف يصب بين يدي رسول الله صلوات الله عليه وسلامه مائة أوقية من الذهب ، لتنفق في سبيل الله ، وطلحة الجود . طلحة الخير لم تنقل لنا الروايات ما قدم ، لكننا نعرف أن اسمه قد رافقه ألقاب ثلاثة كلها منصبة على العطاء والبذل ، فهو طلحة الخير ، وطلحة الجود ، وطلحة الفياض ، وكم هو دور عظيم لهذا الجيل القائد يسد مسد دولة ، وهم الذين لم يختلفوا عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه عن معركة قط .

هذا عن قادة المهاجرين ، ويطالعنا من قادة الأنصار كذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة ، وسيدان آخران من الأنصار محمد بن مسلمة وعاصر بن عدى بتقديم الكثير الكثير لتلبية حاجات الجيش وتجهيز المقاتلين وينضم إلى هؤلاء جميعاً سيد عظيم من سادات الأمة وهو عم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه العباس بن عبد المطلب الذي هيأ الله تعالى له

الفرصة الأولى لينفق فيها مع رسول الله ﷺ ماله ، وينضم جندياً بعد حنين إلى هذه المعركة الجديدة .

في خضم تربية القاعدة العريضة . وتذليل السبل أمام المقاتلين من كل فع ، تبرز هذه القيادات السابقة التي ذكرناها تتمثل الميزانية الرئيسية والاحتياطية لدولة الإسلام ، وتكون عند حسن ظن نبيها في الأزمات الصعبة ، والمواجهات الهائلة ، وتبرز عظمة الفبراسة النبوية يوم اتخاذ القرار الخطير في مواجهة الروم وليس بين يديه درهم واحد ، لتلقى بين يديه آلاف الدنانير ومئات الآلوف من الدرام غير المساعدات العينية ، والتکفل بثبات المقاتلين .

ولا ننسى الميزانية الاحتياطية التي مثلها ربات الخدور من المسلمين . حيث كانت حلبيهن تلاً الثوب من كل أنواع الخل لتوظف للإنفاق في سبيل الله ، ولتحمل الناس على الجهاد .

تحدثنا عن نصف قيادات الأمة الذين شكلوا العنصر الأكبر في نجاح قرار المعركة . ونتحدث عن نصف القيادات الأخرى للذين ساهموا بشكل متواضع في عملية النفقة والحملان ، فرسول الله ﷺ بيني الأمة كلها ، وبيني القاعدة العريضة ، فهو يريد من كل جندي أن يساهم بكل ما لديه من طاقات في عملية البناء ، والذى يكفى نفسه هو الأساس الأولى الذى يريده رسول الله ﷺ من كل جندي ، لكن الحث على النفقة والحملان لم ينقطع ، ونجد أن هذه النماذج العظيمة قد ارتفعت حتى وصلت إلى مستوى القيادات العظيمة .

فهذا الذى هم بالتصدق ببعض عماته خواست ثم أدركه ما يدرك الإنسان من الحرص فتراجع عن ذلك ، هو نفسه يحدثنا عن ذلك الأسود الدميم القصير الذى لم نعرف اسمه إلى الآن خواست ، والذى قدم أجمل ناقة في المدينة ، وأثر بها رسول الله ﷺ على نفسه فكان هو أبو بكر الفقراء ، حتى لا يستهزئ به أحد المنافقين من غلـف قلبه بالرمان قائلاً : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهـ خير منه . فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت ، بل هو خير منك ومنها » ثلاـث مرات ، وكم هو باشـ وتأفـ ذلك الإنسان الذى يقول له رسول الله ﷺ على الملاـ ثلاـث مرات : « كذبت » ، هذا إن كان به ذرة إيمـان لذـاب خجلـاً من هذا الموقف ، لقد قدم هذا الأعرابـ أنفسـ ما عنـدهـ وما ضـنـ بهاـ علىـ رسولـ اللهـ صـلـواتـ اللهـ عـلـيهـ .

ويطالـناـ عمرـ الفـقـراءـ خـواـستـ الذىـ تـبـرـعـ بـنـصـفـ ثـروـتهـ كـماـ تـبـرـعـ عمرـ الفـارـوقـ خـواـستـ . هذاـ الذـىـ جـمـعـ ثـروـتهـ مـنـذـ أـنـ سـمـعـ النـداءـ النـبـوىـ يـطالـبـ بـالـبـذـلـ فـقالـ : (ياـ رسـولـ اللهـ ،

بت ليلتي أجر الجرير بالماء حتى نلت صاعين من نهر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر ، وعندما تكلم الطابور الخامس يضحك بصاع هذا الصحابي الانصاري العظيم ، لم يرد عنه رسول الله ﷺ ، إنما تكفل الله رب السموات العلي أن يرد عنه بقوله عز وجل :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطْرَقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَسَخَرُونَ مِنْهُمْ سَخْرَةً اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [التوبه ٢٧] .

وماذا يتبقى من الكرامة والوزن لمن يسخر الله تعالى منه لأنه يسخر بالمجاهدين المصدقين بجهدهم فيدعون نصفه لعيالهم ، ويتصدقون بنصفه .

أما حتى الذين لا يملكون هذا الجهد ، ولا يملكون درهماً واحداً يتصدقون به ، لا يملكون إلا البكاء على فقدانهم آلة الجهاد : اللهم إنك أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أنتقى به مع رسول الله ﷺ ، ولم تجعل في يد رسول الله ﷺ ما تحملني عليه) .

ووجد حلاً موفقاً للصدقة يملكونها وهو أن يتصدق بعرضه على من ناله منه .

(وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها من مال أو جهد أو عرض) ثم أصبح مع الناس ، أما الملائكة المقربون فقد باتوا ساحرين ينتلون ما قال ويكتبونه ، وجاء الجواب من رب العالمين على لسان رسوله الكريم لتبلغه جواب رسالته إلى ربه أمام الناس جميعاً ، مع أن الرسالة كانت في ظلمات الليل البهيم لا يعلمها إلا رب العالمين . قال رسول الله ﷺ : « أين المتصدقون هذه الليلة ؟ » .

ولم يكن يحسب في ذهنه أن الأمر يعني فلا درهم ولا دينار يملك ليجيب ، (فلم يقم أحد) . ثم قال : « أين المتصدق ، فليقم » ، واستحشا ، فيخشى أن يكون هو المقصود ولا يجيب . (فقام إليه فأخبره) وأعلن على الملا عن صدقة هذا الفقير المدقع ، لم يعلن هو ، إنما أعلن ذلك رسول رب العالمين ، باسم ربه جل وعلا . أنه قد أدى زكاته كاملة هذا العام والعام الذي يليه ، والإعلان الأعظم أنها قبلت من رب العزة جل جلاله ، ويقسم رسول الله ﷺ على ذلك مبشرًا لهذا المدقع البائس : « أبشر ، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المقبولة » .

ونقف مليأً مع هذا المجتمع العظيم الذي لم تشهد البشرية مثيلاً له ، والذي يقوم على التطوع والعطاء الاختياري في تجهيز الجيش ، وما الذي تبقى من عجز الميزانية عن تفيذه .

وبمراجعة وثائق الأيام التي تمت بها التعبية والتفير يطلع علينا ما يلى :

١ - (روى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى . . . أن عصابة من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم جاؤوه يستحملونه ، وكلهم معسر ذو حاجة لا يحب التخلف عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم فقال رسول الله : « لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيس من الدمع حزناً إلا يجدوا ما يتفقون » وهم سبعة . وانختلفوا في أسمائهم ، فالذى اتفقوا عليه سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف ، وعبلة بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وهرمى بن عبد الله . . . وانختلفوا في العرياض بن سارية ، وعبد الله بن مغفل المزنى ، وسلمة بن صخر ، وعمرو بن عتمة ، وعبد الرحمن بن زيد ، ومعقل بن يسار . . . وبعضهم يقول : البكاؤون بـ مقرن السبعة وهم من مزينة) (١) .

وفيهم نزل قول الله عز وجل :

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُمْ لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوْلُوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيسُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا إِلَّا يَجِدُوا مَا يَتَفَقَّنُونَ » (٤٢) [التوبة] .

٢ - (قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر : لما خرج البكاؤون من عند رسول الله صلوات الله عليه وسلم وقد أعلمهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه لقى يامين بن عمرو النضرى أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهو يكىان ، فقال : ما يبكيكم ؟ قالا : جئنا رسول الله صلوات الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نقوى به على الخروج ونحن نكره أن نفوتنا غزوة مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم فأعطاهما ناصحا له ، وزود كل واحد منها صاعين من تمر ، زاد محمد بن عمر : وحمل العباس بن عبد المطلب منهم رجلين ، وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة نفر بعد الذى جهز من الجيش .

٣ - روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلوات الله عليه وسلم في نفر من الأشعريين ليحملنا - وفي رواية : أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم أسأله لهم الحملان . فقلت : يا رسول الله ، إن أصحابي أرسلوني لتحملهم . فقال : والله لا أحملكم على شيء وما عندي ما أحملكم عليه ، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر ، فرجعت حزيناً من منع رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، ومن مخافة أن يكون رسول الله صلوات الله عليه وسلم وجد في نفسه ، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذى قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم ثم جيء رسول الله صلوات الله عليه وسلم بنهب إيل فلم ألبث إلا سوية إذ سمعت بلاً ينادي : أين عبد الله بن قيس ؟ فأجبته ، فقال : أجب ،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٣٣، ٦٣٤ .

رسول الله ﷺ يدعوك . فلما أتت رسول الله ﷺ قال : « خذ هذين القرىنين ، وهذين القرىنين ، وهذين القرىنين لستة أبعة ابتعاهن حيتذ من سعد » ، وفي رواية : فأمر لنا بخمس ذود غُر التُّرى . فقال : « انطلق بهن إلى أصحابك فقل : إن الله - أو قال : إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوا » ، فانطلق إلى أصحابي فقلت : إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء . ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سأله لكم ومنعه في أول مرة ، ثم بإعطائه إياي بعد ذلك ، لا تظنوا أنني حدثكم شيئاً لم يقله . فقالوا : والله إنك عندنا لمصدق ، ولنفعلن ما أحبت ، فانطلق أبو موسى بنفِّر منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ﷺ من منعه إياهم ثم بإعطائه بعد ذلك فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى . ثم قلنا : تغفلنا رسول الله ﷺ عمنه ، والله لا يبارك لنا فرجعت . فقلنا له فقال : « ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم » . قال : « إنني والله لا أخلف على عين فارى غيرها خيراً منها إلا أتيت التي هي خير وتحللتها » . فقال : « كفرت عن عيبي » (١) .

هذه هي الوثائق التي بين أيدينا عن العجز الذي تبقى في ميزانية الدولة عن استيعاب المطوعين في التعبئة العامة أى قرابة ثلاثة عشر من ثلاثين ألفاً ، واللاحظ أن هذا العجز سُدَّ فيما بعد ، وتم حمل الجميع ، ولم يكن لأحد عنzer بالخلاف ، فهو إما حامل لنفسه وغيره ، وإما حامل لنفسه ، وإما مُعَان من خزينة الدولة ، ولكن التربية الربانية لهذا الجيل بإشراف إمام المربيين عليه الصلاة والسلام هي التي أبرزت قصداً هذا العجز ، وذلك لكشف خبايا النفوس ، وتمييز الخبيث من الطيب .

فهذا واثلة بن الأشعري يعجز عن حمل نفسه ، ولا يوجد عند رسول الله ﷺ ما يحمله (فقط في المدينة أثارى : ألا من يحمل رجلاً له سهمه) فلا بد من كشف المخبوء من نفس واثلة وأنه على استعداد للتضحية في المستقبل فيما يغنهه من الحرب مقابل حملاته إليها ، إنه حين يتبرع بسهمه كاملاً لمن يحمله ، يعني أنه قد خرج في سبيل الله لا يعني مغنمًا من الدنيا ، ولا نصيبي منها إنما يعني مرضاة الله والدار الآخرة وألا يختلف عن غزوته مع رسول الله ﷺ .

وجاء الشيخ الانصارى ، ورأى هذا الشاب المتعمس المتوقد غيرة على الجهاد ، فدعاه ليكون رفيقه في خروجه ، ويشاركه في الركوب ، ويشاركه في المؤونة ، ويشاركه في الجهد ، وقدر لكتيبة فدائية واحدة من هذا الجيش الكبير أن تخوض معركة ، وتكتب منها . وكان واثلة بن الأشعري أحد أفراد هذه الكتيبة ، حيث كان سهمه سبعة أبعة سمان ذلل جيدة ، جاء بها لرفيق دربه الشيخ الانصارى ، وفاء بما التزم به ،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٣٥/٥ ، ٦٣٦ .

وكانت هذه المحادثة العظيمة بين الشيخ والشاب .

أما شيخنا فهو كعب بن عجرة رضي الله عنه ، ولم يكن أحسن حالاً بكثير من شابنا وائلة ابن الأسعق ، فقد جاء النبي صلوات الله عليه يوماً سائلاً . فتغير لون النبي صلوات الله عليه ، فمضى يكسب قوته من كدّ جبيه (فذهبت فإذا يهودي يسوق إيلاء له فسقية له على كل دلو بتمرة ، فجمعت تمراً ...) (١) .

فهو إذن على حال متواضعة ، لكن قلبه الكبير لم يقبل تخلف جندي محب للنبي صلوات الله عليه عن الغزو فكانا قاسمه جده و قال له :

(أنا أحملك عقبة بالليل ، وعقبة بالنهار ، ويدك أسوة يدى ولى سهمك . قال وائلة : نعم) .

وحدثنا عن معاملته له قائلاً : (لقد كان يحملني عقبتي (٢) ، ويزيني ، وأكل معه ، ويرفع لي) .

أما الكتبية الفدائية ، فيحدثنا عنها يايجاز قائلاً : (حتى إذا بعث رسول الله صلوات الله عليه خالد بن الوليد إلى أكيدر الجندي بدومة الجندي ، خرج كعب معه ، وخرجت معه ، فأصبنا فيها كثيراً ، فقسمه خالد بينما فأصابني ست قلاتص (٣) ، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب بن عجرة فقلت : اخرج رحmk الله فانظر إلى قلاتصك فاقضها ، فخرج إلى وهو يتسم ويقول : بارك الله لك فيها ، ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً) (٤) .

وأن الأول للوفاء ، وأن الأول للاستيفاء ، وليعود الحق إلى نصابه فكان جواب الشيخ الانصارى العظيم :

خذ قلاتصك يا بن أخي غير سهمك أردا ، بعد أن ساقهن وائلة مقبلات ومدبرات قائلاً : ما أرى قلاتصك إلا كراماً . فقلت : خذ قلاتصك يا بن أخي غير سهمك أردا .

لقد ظهر هذا العجز كما قلنا لإبراز جوانب التربية العظيمة للشيخ الانصارى والشاب الليشى . وأن كلّيهما يتسبّبان في مرضاه الله ، ويخلسان من حظوظ نفسيهما .

فوائلة رضي الله عنه ابتداء تخلى عن دنياه التي ستأنه من غنيمتها ؛ ليربح أجر صحبة النبي صلوات الله عليه في غزاته تلك .

وكعب بن عجرة رضي الله عنه لم يكن في ذهنه ابتداءً أن يأخذ غنيمة وافده وضيقه وائلة

(١) الإصابة في تميز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣٠٤ / ٥ / ٣ .

(٢) العقبة : فترة من الوقت ثم يمشي ، ثم يركب نهاراً ، ثم يمشي تناوياً مع صاحب الدابة .

(٣) القلاتص : جمع قلوص ، وهى الشابة من الأبل .

(٤) مغازي الواقدي ٩ / ٣ ، ١٠ .

كما قال : (فغير سهمك أردننا) .

وي بذلك تبرز القدوة والتربية العظيمة عند الرجلين .

كما ظهر العجز عند السبعة البكائين . حين قابلهم رسول الله ﷺ قائلاً : « لا أجد ما أحملكم عليه ، حتى ييقوا مثلاً في عين التاريخ لصدق العاطفة ، وصدق الرغبة في البلاء في سبيل الله ، تولوا وأعينهم تفيس من الدمع ، ولم يتولوا فرحين باعفائهم من أعظم مشقة يتعرض لها المسلمون . إن حبهم للنبي ﷺ ، وللجهاد في سبيل الله هو الذي ملك قلوبهم وأفتدتهم وملك كيانهم . وجاء القرآن الكريم ليقدمهم قدوة للناس في هذا المجتمع فيشهد لهم بصدقهم وإخلاصهم ، ومن الذي يفوز بهذه الشهادة من رب العالمين إلا القليل القليل ، النادر النادر ، وأحد هؤلاء السبعة هو الذي تصدق بعرضه على الناس فجاءه الوحي : « والذى نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المقبلة » .

ولا أدل على ذلك من أن هؤلاء السبعة قد لقوا من يحملهم في اليوم الثاني ، فقد حملهم يامين التضري والعباس بن عبد المطلب ، وعثمان بن عفان ، ولو أن الحملان كان منذ اليوم الأول لم يكن في تاريخنا من يحدثنا رب العزة والجلال عنه بأنه بكى حرقة على الجهاد ، ولو عة على فراق رسول الله ﷺ .

لابد أن تبرز هذه النماذج حتى تكون القدوة في الوزير الأعظم ، والجندي العادي البسيط ، والأعرابي الموغل في الباية حين يقدم أجمل ناقة في المدينة صدقة في سبيل الله ، ويزر في الجندي الذي أمضى ليه ونهاره ليتصدق بنصف ماله من الصاعين اللذين ربحهما نتيجة هذا الجهد .

وذلك قصة الأشعرين رضي الله عنهما كما رواها لنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، وذلك حين جاءه أبو موسى يطلب الحملان له ولشباب عشيرته ، ويوافي رسول الله ﷺ غاصباً في قسم رسول الله ﷺ لا يحملهم .

إن المعنى الأعمق وراء هذا القسم من رسول الله ﷺ ليس هو الغضب ، بمقدار ما هو التربة لهذا الجيل الرائد أن يتعود على تحمل المسؤولية ، خاصة والأشعريون هم أصحاب رسول الله ﷺ وقد أثني على تحملهم المسؤولية من قبل فقال فيهم :

« إن الأشعرين إذا أرملا في الغزو ، أو قل طعام عيالهم في المدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقسموه بينهم في إماء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم » (١) .
فلم يفعلوا هذا اليوم ، ولم يتدبروا أمرهم بينهم فيحمل غنيهم فقيرهم ؟ ولا

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٤٥ ح (٢٥٠٠ / ١٦٧) .

يريد رسول الله ﷺ أن يحمل همهم وهم حملاتهم ، فالأعراب المتواдовون من أصناف الجزيرة هم الذين يحمل هم حملاتهم ، وليس تجافياً عنهم ، وبعدها حملهم رسول الله ﷺ ، وعلمهم أن العود أحمد ، وأن التراجع عن اليمين ليمين خير منها هو الأكمل والأفضل ، ولهذا وبعد أن تلقوا درس التربية الأول في اعتمادهم على ذاتهم حسب المستوى الذي هم فيه عاد فأعطاهم درساً جديداً في العودة إلى الأكمل دائمًا ، ولو كان في الأقل يمين فيكفرون عن اليمين للأفضل .

مجتمع النفاق

- ١ - قال ابن عقبة رحمة الله تعالى : (و تختلف المتفاقون ، و حدثوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لا يرجع إليهم أبداً) ^(١) .
- ٢ - وال المسلمين منتبع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يعني بذلك الديوان - يقول : لا يجمعهم ديوان مكتوب - قال كعب : فقلَّ رجل ي يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفي له ذلك ما لم يتزل فيه وحى من الله عز وجل) ^(٢) .
- ٣ - روى ابن المنذر والطبراني وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس ، وابن مردويه عن جابر ، وابن عقبة ، ومحمد بن إسحاق ، و محمد بن عمر عن شيوخهم ، زاد ابن عقبة :
- أن الجد بن قيس أتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد معه نفر . فقال : يا رسول الله ، ائذن لي في القعود ، فإني ذو ضيقه وعلة فيها عذر لي . فقال رسول الله ﷺ « تجهيز فإنك موسر - ثم اتفقوا : لعلك تُحِقِّبُ من بنت بني الأصفر ؟ » قال الجد : أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما أحد أشد عجبًا من النساء مني ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر إلا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنا لك » . زاد محمد بن عمر ^(٣) : فجاءه ابنته عبد الله بن الجد - وكان بدرىًا وهو أخو معاذ بن جبل لأمه فقال لابنته : لم ترد على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فوالله ما في بني سلمة أكثر منك مالاً أبداً ، ولا تخرج ولا تحمل أحدًا قال : يا بني ، مالي وللخروج في الرياح والحر والعسرة إلى بني الأصفر ؟ والله ما آمنْ خوفًا من بني الأصفر ، وأنا في منزل بحزبي ، فاذهب إليهم فاغزوهم إني والله يا بني عالم بالدولائر ! فأغلظ له ابنته فقال : لا والله ، ولكن النفاق والله ليتزلن على رسول الله ﷺ قرآن يقرؤونه . قال فرفع نعله فضرب بها وجهه ، فانصرف ولم يكلمه ، وجعل الخبيث يبطئ قومه ، وقال جبار بن صخر ونفر معه من بني سلمة : يا بني سلمة ، لا تنفروا في الحر ، يقول : لا تخرجوا في الحر رهادة في الجهاد ، وشكراً في الحق ، وإرجافاً برسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : « فَرِحَ الْمُخْلَفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنَّ

(١) سيل الهدى والرشاد للصالحي ٦٣٣/٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٣٢/٢ .

(٣) سيل الهدى والرشاد للصالحي ٦٣٣/٥ .

يُجاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرَقْلَنْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرَّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨) فَلَيَضْعُكُوا قَلِيلًا وَلَيُكَوِّنُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩) [التوبه] .

(وفيه نزلت : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذْنَنِ لِي وَلَا تَقْتَسِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ (١٠) » [التوبه] .

أى كانه إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذر بالباطل ، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ، بخلافه عن رسول الله ﷺ ، ورغبة بنفسه عن نفسه . يقول الله عز وجل : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ (١١) » يقول : إن جهنم لم يوراهم . فلما نزلت هذه الآية جاء ابنته إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنه سوف يتزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون ؟ يقول أبوه : اسكت عنى يا لکع ، والله لا أفعلك بنافة أبداً ، والله لأنت أشد علىَّ من محمد ...) (١) .

٤ - قال ابن هشام : (... بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويملي اليهودي ، وكان بيته عند جاسوم ، يبطرون الناس عن رسول الله ﷺ في غرفة تبوك ، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفي من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويملي ، ففعل طلحة بن عبيد الله ، فاقتصر الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتصر أصحابه ، فأقلتوا الضحاك في ذلك :

كادت وبيت الله نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد كَبَست بيت سويملي أتوء على رجل كسيراً ومرفقى
سلام عليكم لا أعود لثلها أخاف ومن تشمل به النار يُحرق) (٢) .

٥ - وجاء أهل مسجد الضرار إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذى العلة وال الحاجة والليلة الطيرة ، ونحب أن تأتينا فتصلى علينا فيه . فقال رسول الله ﷺ : « إنا في شغل السفر ، وإذا انصرفت سيكون » (٣) .

٦ - أخرج البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك ، واستخلف علياً فقال : أتخلفنى في الصبيان والنساء ؟ قال : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه ليسنبي بعدى » (٤) .

قال الحافظ ابن حجر : (... في رواية عطاء بن أبي رياح مرسلأ عند الحاكم في

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥١٧/٢ .

(١) المغارى للواقدى ٩٩٢/٣ ، ٩٩٣ .

(٤) فتح البارى ١١٢/٨ ح ٤٤١٦ .

(٣) سبل المدى والرشاد للصالحي ٦٣٢/٥ .

الإكليل « فقال : يا على ، اخلفني في أهلى ، واضرب وخذ وعظ » ثم دعا نساءه فقال : « اسمعن لعلى وأطعن ») (١) .

أما رواية ابن إسحاق فهى :

وخلَّفَ رسول الله ﷺ على بن أبي طالب خليفة على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه إلا استقالا له ، وتخفقا منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ على بن أبي طالب رضوان الله عليه سلامه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالحرف ، فقال : يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استقلتني ، وتخففت مني فقال : « كذبوا ، ولكنني خلفتكم لما تركت ورائي ، فارجع فاحلفني في أهلى وأهلك ، أفلأ ترضى يا على أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى - إلا أنه لا نبي بعدى » . فرجع على إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره) (٢) .

٧ - (وجاء ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ ليستأذنوه في القعود من غير علة فأذن لهم ، وكانوا بسبعة وثمانين رجلاً .

وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله خـ: استدار برسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس يستأذنون يقولون : يا رسول الله ، ائذن لنا فإننا لا نستطيع أن نغزو في الحر ، فأذن لهم ، وأعرض عنهم .

وجاء المعدرون من الأعراب ، فاعتذرلـوا إليه ، فلم يعتذرـهم الله . قال ابن إسحاق : (وهم نفر من غفار قال محمد بن عمرو : كانوا اثنين وثمانين رجلاً . منهم خفاف بن إيماء) (٣) .

٨ - (قالوا : خرج رسول الله ﷺ في رجب سنة تسع فعسكر ﷺ في ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً . قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر ، وابن سعد ، وزاد محمد بن عمر ، ونقله ابن الأمين عن زيد بن ثابت ، وروى الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفاً . ونقل الحاكم في الإكليل عن أبي زرعة قال : كانوا بتبوك سبعين ألفاً ، وجمع بين الكلامين بأن من قال : ثلاثين ألفاً ، لم يعد التابع ، ومن قال : سبعين ألفاً عد التابع والمتبوع ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس ، وقيل : بزيادة ألفين .

وروى عبد الرزاق وابن سعد عن كعب بن مالك خـ: قال : خرج رسول الله ﷺ

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥١٩ / ٢ ، ٥٢٠ .

(١) فتح الباري ١١٢ / ٨ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٣٣ / ٥ .

إلى تبوك يوم الخميس ، وكانت آخر غزوة غزاها ، وكان يستحب أن يخرج يوم الخميس ، وعسكر عبد الله بن أبي معه على حدة ، عسكره أسفل منه نحو ذباب ، قال ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر ، وأبن سعد : كانوا فيما يزعمون ليس بأقل العسكريين . قال ابن حزم : وهذا باطل ، لم يختلف عن رسول الله ﷺ إلا ما بين السبعين إلى الشهرين فقط ، فآقام ابن أبي ما آقام رسول الله ﷺ ، فلما سار رسول الله ﷺ نحو تبوك ، تخلف ابن أبي راجعاً إلى المدينة فيم تخلف من المنافقين . وقال : يغزو محمد بنى الأنصار مع جهد الحال والحر والبلد بعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قاتل بنى الأنصار معه اللعب ، والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرئين بالحال ، إرجاً برسول الله ﷺ وأصحابه) (١) .

* * *

لابد من الإشارة ابتداءً إلى أننا لا نتحدث عن نخبة مختارة من المجتمع ونحن نتناول القاعدة العريضة في الأمة ، إنما نتناول المجتمع كله ، والمجتمعات الإنسانية عادة تقسم إلى ثلات فئات :

- ١ - الفتنة الممتازة من الأمة : وفيها أذكياؤها وقادتها ومصلحوها ودعاة الخير فيها ، والذين تمثل بهم القدوة والأسوة ، وهي فتنة قليلة .
- ٢ - الفتنة المختلفة من الأمة : وفيها السينون ، والعصاة ، وضعاف العقول ، والشريرون ودعاة الرذيلة والشر ، وهي فتنة قليلة كذلك ، وعادة يكون الصراع بين الفتنة الأولى والثانية على القطاع العريض في المجتمع حيث تحاول كل فتنة أن تسيطر على الفتنة الثالثة ، وتقودها باتجاهها .
- ٣ - الفتنة الثالثة : وهي التي تمثل القطاع العريض في المجتمع وغالباً تكون أكثر من النصف ، فيهم متواطوا الموهاب ، والعاديون من الناس ، والذين تأخذهم نوازع الخير والشر هنا وهناك حسب التأثيرات الأقوى التي تهب عليهم .

أما المجتمع النبوى الإسلامي فيختلف تركيبه عن مجتمعات الأرض بأن الفتنة الممتازة فيه تمثل القطاع الواسع العريض ، وتکاد تكون الفتنة الثالثة غير موجودة . وذلك لقلة أعدادها ، وقلة تأثيرها ، وهذا لا نجد إلا في هذا المجتمع المثالى الذي شهدته البشرية حقبة من الزمن ، وبقى بعدها حلمًا ترنو إلى الوصول إليه .

وإذا أردنا أن نطبق هذه المعايير على المسلمين في غزوة تبوك . فنجد مثلاً أن الذين

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٣٨/٥

جاوزوا يعتذرون من الأعراب هم بضعة وثمانون رجلاً . ولم يعذرهم الله ، كما تخلف اثنان ابتداءً وهم من الطبقة الممتازة . لكنهم سرعان ما تداركوا الأمر ولحقوا بالجيش ، والشمار في هذه الغزوة هو تخلف الثلاثة الكبار عن المعركة : كعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن الربع ، وحتى نأخذ صورة حية عن هذا المجتمع نأخذ شهادة كعب بن مالك رضي الله عنه عن المجتمع المدنى المتخلص عن الغزوة ، والذى كان فيه كعب بن مالك يقول : (فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلوات الله عليه وسلم فلقيت فيهم أحزنني أنى لا أرى إلا رجالاً مغموماً عليه بالتفاق ، أو رجلاً من عذر الله تعالى من الضعفاء) ^(١) .

لكن الذين يمثلون الفئة الثانية في المجتمع الإسلامي فئة الشريرين والمفسدين في الأرض ، فإنما هي فئة المنافقين ، والتي أفرزت هذه الفقرة للحديث عنها قبل المعركة ودورها في الكيد لهذا الدين وأهله . ولعل أبرز شخصيتين قياديتين في المدينة من زعماء التفاق هما عبد الله بن أبي الجلد بن قيس ، وكلاهما من عنا في الجاهلية ، وفاته المصب في الإسلام ، فبقى قلبه منكوساً مغموماً عليه بالتفاق ؛ ورأينا رسول الله صلوات الله عليه وسلم يعرض التفیر على الجلد بن قيس ، فوراءه مجموعة تدين له بالولاء والزعامة : « تجهز فإنك موسر ، لعلك تُحثّب من بنات بنى الأصفر » والرواية الأخرى تبرز محاولة انتزاع قتيل التمرد عنده من رسول الله صلوات الله عليه وسلم . حين يناديه بكلته :

« يا أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك تختقب من بنات بنى الأصفر » ،
وفي رواية ابن إسحاق : « هل لك يا جد في جlad بنى الأصفر » .

فهو عرض فيه تكريم له ، وترغيب له وتشجيع في أن يقتسم من الروم لو مضى مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وهو شديد العجب بالنساء ، ومع كل هذا التعامل ، ومع كل هذا التكريم كان جوابه :

يا رسول الله ، أو تاذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل باشد عجباً بالنساء مني ، وإن أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلوات الله عليه وسلم وقال : « قد أذنت لك » .

وحسب الجلد أن هذه الحيلة قد طلبت على رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، لكن الذي كشف زيفه ابنه المؤمن الصادق الإبيان : (ف جاء ابنه عبد الله بن الجلد بن قيس قائلاً له : لم ترد على رسول الله صلوات الله عليه وسلم مقالته ، فوالله ما في بنى سلمة أكثر مالاً منك . ولا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١٤/٨ من الحديث (٤٤١٧) .

تخرج ولا تحمل أحداً . قال : يا بنى ، ما لى للخروج في الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر) ، وكشف المخبء من نفسه بقوله : ما آمن خوفاً من بنى الأصفر ، وإنى فى متزلى بحزبي ، فاذهب إليهم فاغزوهم ، إنى يا بنى عالم بالدواير ، فهو يقدم نفسه العقري الطلاقة الذى يدرك عواقب الأمور ، ولا يتسع تسع التحمسين من الشباب ، بل هو السياسي البارع الحكيم فى عدم الانحرار وراء غزو بنى الأصفر ، أما ابنه وهو ربيب المدرسة النبوية ، وأحد تلامذتها النجباء ، لم يجد لها تفسيراً غير قوله : لا والله ، ولكنه التفاق .

وغضب الأب للفضيحة التى نالته من ابنه ، فقد عقله وصوابه ، وقام يضرب ابنه بنعله على وجهه ، والولد من عظمة الأدب الإسلامى فى احترام الآبوبة لا يرفع يده على أبيه ، ولا يرد عليه ، لكنه يكتفى بنصحه وزجره بقوله : والله لينزلن على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فيك قرآن يقرؤونه .

ولم يكتف الجد بن قيس بدورة وحده فى عدم الخروج ، وبعد فضيحته من رب العالمين ، وكشف عوراته ، لم يكتف بذلك ، بل راح يسعى جاهداً للتشييط عن الجهاد فى صفوف من يديرون له بالولاء من المنافقين ، وفي صفوف أنصارهم الجدد من الأعراب ، كما ذكر القرآن الكريم ذلك فى تعرية هذا الحزب فى أعضائه القدامى وأعضائه الجدد .

**﴿وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَغْرَابِ مُتَّافِقُونَ وَمَنْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى التِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ سَعَدَهُمْ مُرْتَبِينَ ثُمَّ يُرْدُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١١)﴾ [التوبه] .**

وصار ديدن الاعتذار الجديد بعد اعتذار الجد خوفاً من الفتنة هو الخوف من الحر ، وبنو سلمة من أكبر البطون الأنصارية المؤيدة للإسلام ، وقد حقد الجد بن قيس حين لم يختر نقىباً عليهم منذ بيعة العقبة ، وقد سبق أن غير رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه زعمته لشاب مقبل على الإسلام ومن خلال حوار مباشر مع بنى سلمة .

فعن ابن شهاب الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب الأنصارى أن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قال : « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا : جد بن قيس . قال : « بم تسودونه » فقالوا : إنه أكثرنا مالاً ، وإنما على ذلك لزنه بالبخل . قال : « وأي داء أدوء من البخل ؟ ليس هذا سيدكم » قالوا : فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال : « بشر بن البراء بن معروف » تابعه ابن إسحاق عن الزهرى ، وقال فى روايته : « بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء » (١) .

(1) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر / ١ / ١٥٥ ت (٦٥١) .

ويشر بن البراء رضي الله عنهما هو ولد البراء بن معروف نقيب بنى سلمة يوم بيعة العقبة ، لكنه توفي إثر وصوله إلى المدينة . فنَقَبَ رسول الله صلوات الله عليه وسلم ولده بشر الذي اخْتَلَطَ الإسلام بلحمة ودمه ، وبقيت آثار فقدان الرغامة تعمل عملها عند الجد بن قيس كما فعلت فعلها مع عبد الله بن أبي . ونجح الجد في تشبيط بضعة وثمانين رجلاً عن الالتحاق بالجيش الإسلامي ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ »

[التوبه : ٩٠]

وكانَتْ المهمة الخفية موزعة بين الزعيمين ، عبد الله بن أبي ، والجد بن قيس . فالجد يثبّط . وعبد الله بن أبي يتظاهر بالاستعداد للخروج ، ويلتقي سرًا مع أنصاره بيت مؤامرة في اللحظة المناسبة ، ويُودُّ أن يثبت له موقعاً على ساحة المدينة ، ومن أجل ذلك عندما ابتدأ تجمع الجيش الإسلامي وكان عبد الله بن أبي يجعل له تجمعاً خاصاً ومعسكراً خاصاً منفصلًا عن موقع الجيش الإسلامي ؛ على أساس أنه رديف للجيش ، وماضٍ معه إلى المعركة ، وبعد فضيحة عبد الله بن أبي لم يبق معه إلا الذين لا يخشون الله تعالى ولا يؤمنون به ، واستفاد ابن أبي من حركة الأعراب الجديدة والذين دخلوا في الإسلام ، وبدأ يؤوی إليه أصحاب المصالح ، والحاقدين على زعمائهم ، والذين كان يغريهم بالمال والمنصب والموقع ، وبدأ معه عدد لا يأس به من المؤيدين جعلت كتاب السير يبالغون فيه حتى قالوا : وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكريين ، غير أن ابن حزم رحمه الله أبطل هذا القول وفنده حين عاد إلى الجمع بين الروايات فقال : وهذا باطل لم يختلف عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلا ما بين السبعين إلى الثمانين .

ومع فضيحة ابن أبي يوم أحد ، وما أنزل الله تعالى فيه من وحى ، وكذلك يوم بنى المصطلق ، مع ذلك كله ، لم يلن قلبه للإسلام ، ولم يفتح له ، وبقى محافظاً على التظاهر في الإسلام والكيد له في الباطن ، والقرآن الكريم يتولى فضح هذا الباطن ، وأعاد مؤامرة أحد ، لكن شتان بين الموقفين ، ففي أحد انفصل بثلث الجيش ، حين كان عدد المسلمين ألفاً . أما اليوم فينفصل المسلمون ثلاثة عشر ألفاً غير الأتباع ، لكن الحقد الذي أكل قلبه ، لم يطأوه أن يمضى مع الجيش ، ورضى بأن يتختلف عن المعركة على أمل أن يُقتل المسلمون في خروجهم هذا ، ويفر من يفر منهم عائداً إلى المدينة ، وتعود زعامته إليها ، وكان على ثقة من ذلك حيث أعلن موقفه والرأي في اللحظة المناسبة ، لحظة تحرك الجيش الإسلامي قال :

(يغزو محمد بنى الأنصار جهد الحال والحر والبلد بعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأنصار معه اللعب ، والله ل坎ى أنظر إلى أصحابه مقرنین فى

الجبال . إرجاً برسول الله ﷺ وأصحابه ، وانضم هؤلاء المخلفون أتباعه إلى القاعدين الذين اعتذروا ابتداءً أتباع الجد بن قيس ، وشكلوا جيّداً وجبهة معادية في المدينة يخشى خطرها في غياب رسول الله ﷺ على المدينة وعلى نسائها ، ومن أجل ذلك اختار رسول الله ﷺ رجلين من أعظم رجاله ليقيا في حراسة المدينة ، خاصة وقد يطول الغياب في هذا الخروج الشاق .

اختار رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة أميراً على المدينة في غيابه ، وهذه هي الغزوة الوحيدة التي تخلف محمد فيها عن رسول الله ﷺ ، وهو قائد أوسي أشهلي ، وهو من نفذ قتل كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق ، أما البطل الثاني فهو على بن أبي طالب ، وناهيك عنه بطلاً مغواراً أشهر من علم في رأسه نار ، وكان بقاء على في المدينة كبقاء الهم على قلوب المنافقين .

وقد خلف رسول الله ﷺ علياً على أهله ، وأمر نساءه أن يسمعن له ويطعن ، وحاول المنافقون جاهدين في إخراج على من المدينة بحجة الإشاعات التي أطلقوها عليه بأن رسول الله ﷺ استقله فتركه ، ومضى على ثوابه ، والهم يملأ كيانه من هول هذه الشائعات ، مضى يسأل رسوله الحبيب ، وينقل له ما يتحدث به الواشون والمنافقون ، وعلى رضوان الله عليه يدرك إفك هذه الافتراضات ، ولكنه يود أن يسمع تكذيبها من حبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

أتاح لها لسان حسود
لو لا اشتعال النار فيماجاورت

وقد قلب الله تعالى كيد المنافقين عليهم ، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكان لهم بالرغم عنهم ، وأنفهم في الرغام أن تحدث رسول الله ﷺ عن منقبة لعلى ما كان يعرفها أحد ، كشفت بكيد هؤلاء المنافقين فقال له :

« كذبوا ، لكنني خلقتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلى وأهلك » وما سمعه على يرضيه وزيادة بعد تكذيب المنافقين من المصطفى ﷺ ، وبعد الثقة به أن يكون خليفته على أهل رسول الله ﷺ ، لكن المنقبة العظيمة التي طارت صيانته في قلب التاريخ لتفرض على أبي الدهر ، والتي لم يفز بمحنة تعدلها ، ووسام ينافسها . ألا وهي :

« أفلأ ترضى يا على أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى » .

لقد كان هارون في قلب موسى يوم كلمه ربها فقال : « واجعل لي وزيراً من أهلي (٢٥) هرون أخي (٢٦) اشدده به أذرعي (٢٧) وأشركه في أمري (٢٨) كي نسبحك كثيراً (٢٩) وندركوك

كَبِيرًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُتَّبَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ [طه] .

فهارون أعظم شئ في حياة موسى ، ووزيره في أهلة ، وشريكه في أمره يشد به أزره . فما أعظم أن يكون على خواليق من رسول الله ﷺ بمنزلة هارون من موسى ، والفرق الوحيد فقط هو فرق النبوة ؛ لأنه لا نبوة بعد رسول الله ﷺ .

وأنجزى الله تعالى المنافقين ، وبقى على خواليق جائماً على صدورهم ، وراحوا يأكلون قلوبهم من الغيط فسوف تفسد كل مخططاتهم بوجوده .

بقي علينا أن نشير إلى تحطيم المنافقين المحكم ، وياجراء اللقامات السرية لتنفيذ خططهم الخبيثة وكان ذلك في محاولتين :

المحاولة الأولى : محاولة إيجاد موقع رسمي معترف به يجتمعون به دون أن يثير الشكوك ، وتفتقت العبرية الشيطانية عندهم في بناء مسجد للعبادة يتلقون فيه ظاهراً ، ويحيكون المؤامرات والدسائس فيه باطنًا ، وأرادوا استغلال ظروف القائد الأعظم ﷺ ليبارك لهم هذا العمل .

(وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا آتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذى العلة وال الحاجة والليلة الطيرة والليلة الشاتية ، وإننا نحب أن تأتينا ، فتصلى لنا فيه ، فقال : « إنى على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال ﷺ - ولو قدمتنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا فيه » ، وما كان يخطر بذهن المصطفى ﷺ أن يحول دون بناء مسجد ، حتى جاء القرآن الكريم ليوضح نوايا أربابه : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفُرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَّ أَرْدَنَا إِلَّا الْحَسْنَى وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ [التوبه] .)

ودخل في مفهوم التربية الجديد مدىوعي الأمة لمخططات أعدائها ، حين تتمسك بظاهر من هذا الدين . لتضرب به الدين كلها ، وخاصة حين يكون مؤلاء الاعداء داخل الصف الإسلامي ، وعلى القيادة المسلمة أن تدرس بعمق وتحلل ، كل العوامل والشبهات التي تحبط بهؤلاء الناس ، فاتخاذ المسجد قد يكون كفراً، وتحويل دار العبادة إلى دار تأمر على المسلمين ، وموقع لرسم المخططات لحرب هذا الدين باسم - هذا الدين - الإسلام .

المحاولة الثانية : وهذه المحاولة عندما كانت مكشوفة ، ووصلت إلى حد الاجتماع في دار اليهودي سويفل أحد أعداء هذه الأمة ، فهي مؤامرة خيانية ، وتحدد سافر لدولة الإسلام وقوانينه ، وكان الجزء من جنس العمل هو تحرير هذا البيت بن فيه ؛ لأنهم لا

يخفون هدفهم وهو تفسيل هذه الحملة العسكرية وتبييض الناس عن الجهاد ، وإذا وصلت الجرأة والوقاحة لهذا الحد من التحدي ، فلابد أن تقابل بما يناسبها من عقوبة زاجرة تجثت هذا التحدي من الجذور ، ببعث إليهم النبي ﷺ طنحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويم ، ففعل طنحة ، فاقتصرم الصحاح بن خليفة من ظهر البيت ، فانكسرت رجله ، واقتصرم أصحابه فأفلتوا .

ولعل الصحاح صحا ضميره ، وعرف حدود خيانته ، فقال الآيات التي يعلن فيها توبته عن المشاركة مع الخائنين .

سلام عليكم لا أعود لثلها أخاف ومن تشمل به النار يحرق

وبذلك وئدت الكثير من المؤامرات التي ظهرت على الساحة ، وبقي الكثير منها مخفياً من خلال الذين أوكل إليهم مرافقة الجيش ؛ لتحقيق المخطط الأكبر في اغتيال رسول الله ﷺ ، وتحقيق انقلاب عسكري يعود فيه ابن أبي إلی سدة الحكم .

تحرك الجيش ... و التربية على الطريق

١ - (.... فقال رسول الله ﷺ : « لا يخرج معنا إلا مقوٍ » فخرج رجل على بكر صعب فصرعه ، فقال الناس : الشهيد ، الشهيد . فبعث رسول الله ﷺ مناد ينادي : « لا يدخل الجنة إلا مؤمن - أو إلا نفس مؤمنة - ولا يدخل الجنة عاصٍ » . وكان الرجل طرحة بعيدة بالسويداء) (١) .

٢ - وقال رسول الله ﷺ : « استكثروا من النعال فإن الرجل لا يزال راكباً ما دام متullaً » ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين ... فلما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع إلى تبوك وعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزبير ، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حبيب ، ولواء الخزرج إلى أبي دجابة ، ويقال إلى الحباب بن المنذر) (٢) .

٣ - (وقالوا : وإذا عبد لأمرأة من بنى ضمرة لقيه على رأس ثنية التور ، والعبد متسلح . قال العبد : أقاتل معك يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « وما أنت ؟ » قال : ملوك لأمرأة من بنى ضمرة سيئة الملكة . قال رسول الله ﷺ : « ارجع إلى سيدتك ، لا تقتل معى فتدخل النار ») (٣) .

٤ - قال : حدثني رفاعة بن ثعلبة بن أبي مالك عن أبيه عن جده قال : جلست مع زيد بن ثابت فذكرنا غزوة تبوك ، فذكر أنه حمل لواء مالك بن النجار في تبوك ، فقلت : يا أبو سعيد ، كم ترى كان المسلمين ؟ قال : ثلاثون ألفاً ، لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقة مقيمون حتى يرحل العسكر ، فسألت بعض من كان بالساقية . فقال : ما يرحل آخرهم إلا مساءً . ثم نرحل على أثرهم فما نتهي إلى العسكر إلا مصبعين من كثرة الناس) (٤) .

٥ - (وتخلف نفر من المسلمين أبطأهم اليبة عن رسول الله ﷺ حتى تخلفوا من غير شك ولا ارتياط ، منهم : كعب بن مالك ، وكان كعب يقول : كان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ عن تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك

(١) المغارى للواقدى ٩٩٥/٣ ، والمقوى : هو صاحب الدابة القوية .

(٢) - (٤) المصدر السابق ٩٩٦/٣ ، ٩٩٧ .

الغزوة ، فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمين معه ، وجعلت أعدو لاتجهز معهم فارجع ولم أقض حاجة ، فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك ، فلم أزل يتمادي بي حتى شمر الناس بالجلد ، فأصبح رسول الله ﷺ عازياً المسلمين ، وذلك يوم الخميس ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يخرج فيه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده يوم أو يومين ثم الحق بهم ، فبدوت بعدها فصلوا أتجهز ، فرجعت ولم أفعل شيئاً ، ثم غدوات فلم أفعل شيئاً ، فلم أزل يتمادي بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وقلت أرتحل فأدركهم ، ويا ليتني فعلت ، ولم أفعل . وجعلت إذا خرجت في الناس فطفت فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلاً معموصاً عليه بالتفاق ، أو رجلاً من عذر الله ...) (١) .

٦ - قال هلال بن أمية الواقفي حين تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك :

والله ما تخلفت شكّاً ولا ارتياباً ، ولكن كنت مقوياً في المال قلت : أشتري بعيراً ، ولقيني مرارة بن الريبع فقال : أنا رجل مقوٍ ، فأبتابع بعيراً وأنطلق به . فقلت : هذا صاحب أرافقه . فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيرين فنلتحق بالنبي ﷺ ولا يفوتنا ذلك ، نحن قوم مخفون على صدر راحلتين فغداً نسير ، فلم نزل ندفع ذلك ، ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد ، فقلت : ما هذا بحين خروج ، فارجع مغتمماً بما أنا فيه ، وجعلت لا أرى في الدار ولا في غيرها إلا معذوراً أو منافقاً معلناً ، فارجع مغتمماً بما أنا فيه) (٢) .

٧ - روى ابن إسحاق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان فيقول :

« دعوه ، فإن يك به خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ». حتى قيل : يا رسول الله ، تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيه ، فقال رسول الله ﷺ : « فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه ». وتلوم أبو ذر على بعيه ، فلما أبطأ عليه أخذ متعاه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ مashiماً ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده . فقال رسول الله ﷺ : « كن أباً ذر » ، فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ») (٣) .

(١) المغارى للواقدى ٩٩٧/٣ .

(٢) المصدر السابق ٩٩٨/٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٥٢٤/٢ .

٨ - قال ابن إسحاق : ثم رجع على إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره ، ثم إن أبي خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه ، قد رشت كل واحدة منها عريشها ، وبردت له فيه ماء وهياط له فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأته وما صنعتنا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضحى^(١) والربيع والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعم مهياً وأمرأة حستاء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله ﷺ ، فهياطاً لى زاداً ، فعلتنا ، ثم قدم ناصحة فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك . قال أبو خيثمة لعمير بن وهب إنني لى ذنبًا ، فلا عليك أن تختلف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ فعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك . قال الناس : هذا راكب على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبي خيثمة » فقلوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة . فلما أanax أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله : « أولى لك يا أبي خيثمة » . ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله خيراً ، ودعا له بخير .

قال ابن هشام ، وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

| | |
|---|--|
| لَا رأيْتُ النَّاسَ فِي الدِّينِ نَافِقُوا | أَتَيْتُ الَّتِي كَانَتْ أَعْفَ وَأَكْرَمَا |
| وَبَإِيمَنِي يَدِي مُحَمَّدٌ | فَلَمْ أَكْتُبْ إِثْمَا وَلَمْ أَغْشِ مُحْرَمَا |
| تَرَكْتُ خَضِيبًا فِي العَرِيشِ وَصَرْمَةَ | صَفَّا يَا كَرَاماً بِسَرْهَا قَدْ تَحْمِمَا |
| وَكُنْتُ إِذَا شَكَ الْمَنَافِقَ أَسْمَحْتَ | إِلَى الدِّينِ نَفْسِي شَطَرْهِ حِيثَ يَمَا ^(٢) |

٩ - (ومضى رسول الله ﷺ من المدينة فصبح ذا خُشُب ، فنزل تحت الدومة ، وكان دليلاً إلى تبوك علقة بن الفغوا الخزاعي ، فقام رسول الله ﷺ تحت الدومة ، فراح منها مسيّا حيث أبرد ، وكان في حر شديد ، وكان يجمع من يوم نزل ذا خُشُب بين الظهر والعصر في منزله ، يؤخر الظهر حتى يبرد ، ويعجل العصر ، ثم يجمع بينهما ، فكل ذلك فعله حتى رجع من تبوك ، وكانت مساجده في سفره إلى تبوك معروفة ، صلى تحت دومة بذى خُشُب ، ومسجد الفيء ، ومسجد بالمرورة ، ومسجد بالسقيا ، ومسجد بوادي القرى ، ومسجد بالحجر ، ومسجد بذنب حوصلاء ، ومسجد بذى الجيفة ، من حوصلاء ومسجد بشق تاراء ، مما يلى جوير ، ومسجد بذات الخطومي ، ومسجد بسمة ،

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٢٠، ٥٢١ .

(١) الضحى : الشمس .

ومسجد بالأخضر ، ومسجد بذات الذرائب ، ومسجد بالمدران ، ومسجد بتبوك) (١) .

١٠ - وكان أبو رهم الغفارى وهو كلثوم بن الحصين ، وقد بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة فقال : غزوت مع رسول الله ﷺ تبوك . قال : فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر ، وأنا قريب من رسول الله ﷺ ، والقى على النعاس ، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله ﷺ ، فيفرعنى دنوها منه خشية أن أصيب رجله في الغرز ، فطفقت أحوز راحلتي حتى غلبني عياني في بعض الطريق ونحن في بعض الليل ، فزاحمت راحلتي راحلته ورجله في الغرز فما استيقظت إلا بقوله : « حَسَّ » : فقلت : يا رسول الله ، استغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « سر » . فجعل رسول الله يسألنى عن تخلف من غفار فأخبره بهم . وهو يسألنى : « ما فعل التفر الحمر الطوال النطاطن) (٢) ؟ » فحدثه بتأخرهم . قال : « مما فعل التفر السود القصار الجعاد الحلس) (٣) ؟ » فقلت : والله يا رسول الله ، ما أعرف هؤلاء . قال : « بلى ، الذين هم بشبكة شدخ » . قال : فتذكرتهم فيبني غفار فلا ذكرهم .

ثم ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا ، وكانوا يحلون بشبكة شدخ ، لهم نعم كبير . فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم حلفاء لنا . فقال رسول الله ﷺ : « ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله رجلاً نشيطاً في سبيل الله من يخرج معنا ، فيكون له مثل أجر الخارج ، إن كان من أعز أهلى على أن يتخلف عنى : المهاجرون من قريش والأنصار ، وغفار وأسلم ») (٤) .

١١ - وقالوا : بينما رسول الله ﷺ في مسيره مر على بعير من العسكر قد تركه صاحبه من العجف والضعف ، فمر به مار فأقام عليه وعلفه أياماً . ثم حوله إلى منزله ، فصلح البعير فسافر عليه ، فرأه صاحبه الأول ، فاختصما عليه إلى النبي ﷺ فقال : « من أحياناً خفأ أو كرائعاً بهلكة من الأرض فهو له ») (٥) .

١٢ - وكانوا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً ، ومن الخيل عشرة آلاف ، وأمر رسول الله ﷺ كل بطن من بطون الأنصار أن يتخذوا لواء ورایة ، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية ، وكان رسول الله ﷺ قد دفع رایة مالك بن النجار إلى عمارة بن حزم . فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ، فأعطاه الرایة ، قال عمارة : يا رسول الله ، لقد وجدت على . قال : « لا ، ولكن قدموا القرآن ، وكان أكثر أخذنا للقرآن منك ،

(١) المغارى للواقدى ٩٩٩/٣ .

(٢) النطاطن : جمع نطاطن وهو الطويل المديد القامة .

(٣) الحلس : جمع الحلس وهو الذى لونه بين السواد والحمرة .

(٤) المغارى للواقدى ١٠٠٣/٣ ، ١٠٠٤ . (٥) المصدر السابق ١٠٠٤/٣ .

والقرآن يقدم ، وإن كان عبداً أسود مجدعاً ، وأمر في الأوس والخزرج أن يحمل رياتهم أكثرهم أخذها للقرآن ، وكان أبو زيد يحمل راية عمرو بن عوف ، وكان معاذ بن جبل يحمل راية بنى سلمة ، وصلى رسول الله ﷺ يوماً بأصحابه في سفره ، وعليه جهة صوف ، وقد أخذ بعنان فرسه - أو قال مقدون فرسه - وهو يصلى . فبالفرس فأصحاب الجبة ، فلم يغسله فقال : « لا بأس بآبواها ولعابها وعرقها » (١) .

١٣ - روى الطبراني عن عبد الله بن سلام ثوبيه أن رسول الله ﷺ لما مر بالخليلية في سفره إلى تبوك قال له أصحابه : المبارك يا رسول الله ، الظل والماء - وكان فيها دوم وماء - فقال : « إنها أرض زرع نفر ، دعواها فإنها مأمورة » فأقبلت حتى بركت تحت الدومة التي كانت في مسجد ذي المروة . . . قال أبو حميد الساعدي : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام تبوك حتى أتينا وادي القرى ، فإذا امرأة في حديقة لها فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « اخرصوا » فخرص القوم ، وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق وقال رسول الله ﷺ للمرأة : « احفظني ما يخرج منها حتى أرجع إليك إن شاء الله تعالى » ، ولما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك إلى وادي ذي القرى قال للمرأة : « كم جاءت حديقتك ؟ » قالت : عشرة أوسق ، خرصن رسول الله ﷺ . رواه ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ومسلم (٢) .

١٤ - قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر : (وكان رهط من المنافقين يسرون مع النبي ﷺ في تبوك منهم وديعة بن ثابت أحد بنى عمرو بن عوف ، والجلاس بن سويد ابن الصامت ، ومخشن بن حمير من أشجع حليف لبني سلمة ، وثعلبة بن حاطب فقال : تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكانوا بكم غداً مقرنین في الحبائل ، إرجافاً برسول الله ﷺ ، وترهيباً للمؤمنين ؟ فقال وديعة بن ثابت : مالي أرى قراءنا أو عبنا بظوانا ، وأذنبنا السنة ، وأجبتنا عند اللقاء ، وقال الجлас بن سويد - وكان زوج أم عمير ، وكان عمير يتيمًا في حجره : هؤلاء سادتنا وأشارانا وأهل الفضل منا - والله لنن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير . فقال مخشن بن حمير : والله ، لو ددت أنى أقضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأنا نتفقل من أن ينزل فينا القرآن بمقالتك ، فقال رسول الله ﷺ لumar بن ياسر : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم مما قالوا . فإن أنكروا فقل : بلى قد قلت كذا وكذا » . فذهب إليهم عمار فقال لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه . فقال : وديعة بن ثابت ، ورسول الله ﷺ على ناقته ، وقد أخذ بحقب ناقة النبي ﷺ ورجلاه تنسفان الحجارة وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا

(١) المغارى للواقدى ٢/٣ ، ١٠٠٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٤٣ ، ٦٤٤ وهى عند مسلم ٤/١٧٨٥ ح (١٣٩٢/١١) .

نخوض ونلعب ، ولم يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : « وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ » [التوبه : ٦٥] ، وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ، قعد بي اسمي واسم أبي ، وكان الذي عفى في هذه الآية مخشن بن حمير . فتسمى عبد الرحمن وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم مكانه ، فقتل شهيداً يوم اليمامة فلم يوجد له أثر .

ويقال في الجلاس بن سويد : أنه كان من تخلف من المنافقين في غزوة تبوك ، فكان يشبط الناس عن الخروج وكانت أم عمير تحته ، وكان عمير يتيمًا في حجره ولا مال له . فكان يكفله ويحسن إليه ، فسمعه وهو يقول : والله لئن كان محمد صادقاً لنجن شر من الحمير ، فقال له عمير :

يا جلاس قد كنت أحب الناس إلى ، وأحسنتهم عندى أثراً ، وأعزهم على أن يدخل عليه شيء تكرهه . والله ، لقد قلت مقالة لئن ذكرتها لأفضحتك ، ولئن كتمتها لأهلكن ، وإن داهماً أهون من الآخرى ، فذكر للنبي ﷺ مقالة الجلاس ، وكان رسول الله ﷺ قد أعطى الجلاس مالاً من الصدقة لحاجته وكان فقيراً ، فبعث النبي ﷺ إلى الجلاس فسأله عما قال عمير ، فحلف بالله ما تكلم به قط ، وأن عميراً هو الكاذب ، وهو حاضر عند النبي ﷺ فقام وهو يقول : اللهم أنزل على رسولك بيان ما تكلمت به ، فأنزل الله على نبيه : « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَاتُلُوا وَلَقَدْ قَاتَلُوا كَلْمَةَ الْكُفَّارِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْأُلُوا وَمَا نَقْمُدُ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » [التوبه : ٧٤] ، للصدقة التي أعطاها النبي ﷺ ، فقال الجلاس : أسمع الله قد عرض على التوبة ، والله لقد قلت ما قال عمير : ولما اعترف بذنبه وحسنت توبته ، ولم يتمتنع عن خير كان يصنعه إلى عمير بن سعيد ، فكان ذلك مما عرفت به توبته) (١) .

* * *

صدرت تعليمات نبوية عامة للجيش بعد كل التجهيزات التي تم تسليمها لكل جندي . وأهم هذه التعليمات والتعليمات :

- ١ - « ألا يخرج معنا إلا مقو » : (أى ذو دابة قوية) .
- ٢ - « استكثروا من النعال ، فلا يزال الرجل راكباً مadam متعلاً » .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٢٤، ٥٢٥ ، والمغارى للواقدى ٣/١٠٠٥ - ١٠٠٣ .

وعلى دقة هذين التعميمين . فلهمما أثر كبير على مسيرة الجيش كله ؛ ذلك لأن الجيش له خطة يسير فيها من مرحلة إلى مرحلة ، ولا يود أن ينشغل بالمتخلفين عن المسير ، والذين تقطع نعالهم ، أو تنهك دوابهم ، فسوف يمضى ويتركهم ؛ لأن هذه الأعداد الضخمة تحتاج إلى تنظيم واسع وتعبئة كاملة للتحرك نحو تبوك .

وكان التعميم الثالث : هو مطالبة كل قبيلة بأن تتخذ راية أو لواء لها يتجمع أبناء القبيلة حوله .

وبهذا التنظيم الدقيق وتوزيع المسؤوليات أمكن أن تعرف التحركات للجيش كله ، ويكتفينا وصف طبيعة هذا التحرك الذي قدمه لنا زيد بن ثابت رض ، أحد أئمة القرآن في الأمة ، والذي أوكل إليه فيما بعد من بين الأمة جميعاً مهمة جمع القرآن من الصحف والعسب وصدور الرجال ، ها هو يصف تحرك هذا الجيش بقوله :

(لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقية مقیمون ، حتى يرحل العسكر فسألت من كان بالساقية ، فقال : ما يرحل آخرهم إلا مساء ، ثم نرحل على أثرهم فما تنتهي إلا مصبعين مع كثرة الناس) .

وأمام هذه التعميمات الثلاثة ، ما هو الخلل الذي وقع في الجيش ؟

كان هناك ثلاثة مخالفات :

المخالفة الأولى : أن رجلاً ركب على دابة بكر صعب . أى على جمل صغير لم يدرِب بعد على الركوب عليه ، فكلما أراد صاحبه الركوب عليه كان ينفر منه ، حتى رماه وصرعه ، فصاح الناس الشهيد الشهيد ، فهو مع رسول الله صل ، وقد خرج عن رغبة صادقة في سبيل الله . وقد صرعته دابته . فلا عجب أن يتبارى الناس بإعطائه هذا اللقب ، كما نرى اليوم في توزيع هذا اللقب حتى رخص وبهت ، وكانت التربية النبوية في هذا المجال ، تربية للبشرية كافة . في أن المعصية لا تثبت شهادة ، ولا تثبت قربى ، ولا تثبت جنة . إنما تورث المعصية حسرة وندامة وناراً .

(فأمر رسول الله صل منادياً ينادي :

« لا يدخل الجنة إلا مؤمن - أو نفس مؤمنة - ولا يدخل الجنة عاصٍ » .

وذلك لأنه خالف التعليمات الصادرة عن النبي صل وخرج عليها ، برکوبه على هذا البكر الصعب ، فلابد أن يتحمل مسؤولية معصيته ، وبا لهول هذه النتيجة ، التي يجب أن يعيها الدعاة العاملون للإسلام بأن الخروج على أمر الأمير ، ولو كان بالنية الصادقة ، والحماس للجهاد ، والرغبة في الخير لا يغفِّلُهم من هذا المصير الرهيب .

أما المخالفة الثانية فكانت مخالفة أبي ذر رضي الله عنه وذلك عندما أبطأ به بعيره الأعجم الهزيل ، وتابع الجيش مسيرته ، وتتابع أبو ذر رضي الله عنه محاولته في تهيئة هذا البعير ، لكن دونما فائدة . وممضى الجيش بعيداً ، وتناثرت الآباء إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن قد تخلف أبو ذر ، وأبوا ذر رضي الله عنه هو من الراعيل الأول لهذه الأمة ، ومن الذين تلقوا المحنة والصبر والتغذيب في سبيل الله ، بل يمكن القول أنه هو أول من أعلن كلمة التوحيد في الأرض في بيت الله الحرام ، وعلى الملا من قريش ، وأمضى حياته جندياً صابراً في سبيل الله ، لكن لا مراعاة لظروف أحد ، ولن يتوقف مسار الجيش لأحد مهما علا شأنه ، ولذلك عندما قيل للرسول صلوات الله عليه وسلم :

تخلف أبو ذر ، أبطأ به بعيره ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« فإن يكن به خير فسيلحةه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك ، فقد أراحكم الله تعالى منه » .

لم يتوقع المسلمين أن تقال هذه الكلمة في حق أبي ذر رضي الله عنه ، لكن جدية الأمر لم تعرف أحداً مهما كان كبيراً من هذا الحكم ، فإن كان به خير ، فلا بد أن يتحقق بالركب ويتجاوز ظروفه ، وإن لم يكن كذلك ، فعدم خروجه خير للمسلمين من مرافقته لهم .
لكن أبو ذر رضي الله عنه الذي يمثل الهمة الفعسane في الإسلام نسيج وحده ، لا يمكن أن يلحق به أحد ، ونخانه بعيره ، فلا يستجيب له ، والجيش مضى بعيداً عنه ، فماذا يفعل إنه بعظمة إيمانه ونفاسة معدنه ، وقدره وصبره وتجله على حياة الصحراء ، فهو ابنها الذي قتلها ، وما قتلتة يحمل حمل بعيره ، فيضعه في عنقه ، ويدع بعيره الأعجم الهزيل ، ويضيّق معناً وحده في الصحراء ، يلحق ركب الإيمان ، فهو الخير كله ، ولا بد أن يلحق بعييه المصطفى صلوات الله عليه وسلم حتى لا تفوته غزوة مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

غارق في الآل يطوى اليد طيما
هو ذا شطرهم يهوى هوابا
قاد يشوّه لهيب الرمل شيئا
رهبة الصحراء والدرب العصيا
ضمّه الحشد إليه سمهريا
يا أبو ذر عرفناك وفيما
غلّتى ، حسبي رسول الله ريا

من على الأفق بعيداً؟ شبحُ
ورمى الأصحاب أبصارهمُ
مجهد الخطوة معصور القوى
من تراه؟ يتخطى وحده
غضّن بالدموع أبو ذر وقد
أدركوا الظامي تطفئ ناره
بابى أنت وأمى نفعت

عاقنِي عنكم بغير أعجف عِفتُهُ خلفي لاحد وقدمياً)١(

إنه يمشي في هذه الصحراء تحت حر الهاجرة ، ووهج الشمس المحرقة في أيام الصيف وحدها عندما تندف باللهب من الأرض ، لكن لهيب الإيمان في قلبه كان أكبر وأعظم بكثير من لهيب الصحراء ، فقد أحرقت النار النار ، لقد كان في الجاهلية يطرق الصحراء وحده ، ويهاجم الركب فيستلبه كل ما عنده كأنه السبع ، فهل تخونه همه في الإسلام أن يمضى في هذه المجاهيل ملتحقاً بركب محمد ﷺ ، وعليه أن يسارع الخطأ ليستدرك ما فاته من التأخير ، وأطلت عليه من بعيد ملامح الجيش العظيم الذي نزل في موقع من الواقع يستريح على الطريق ، كما بزرت ملامحه من بعيد .

(فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده) .

ويرى رسول الله ﷺ خيالاً قادماً من بعيد ، ويبحث عنمن يفطر قلبه بعده عنه ، فهو يعرف مستوى الكبار الكبار عنده ، ولا ينقصه هؤلاء العظام إلا أبي ذر الغفارى رضي الله عنه ، ومن أجل هذا قال : « كن أبي ذر » ، فهو حبة العقد الناقصة لهذا العقد ، فهل يعقل أن يكون أحد الخمسة الأوائل في هذا الدين خارج الثلاثين ألفاً الذين جاؤوا من أقصى الأرض العربية .

(فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر) .

وكشف الرسول ﷺ عن هوية أبي ذر الذي يمثل كلمة الحق في الأمة يصدع بها حتى لا تبقى الكلمة له صديقاً ، فيقول عنه :

« رحم الله أبي ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويعيش وحده » .

ولا عجب فهو في الزهد المسيح ابن مريم في هذه الأمة :

« أبو ذر في أمتي على زهد المسيح ابن مريم » .

وهو في الصدق ، لا يبلغ شاؤه أحد في هذه الأمة ولا في غيرها :

« ما أقلت الغباء ، ولا أطلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » .

* * *

ويأتي آخر لأبي ذر من السابقين الأولين من الانصار هو : أبو خيثمة ، الذي تلّكاً وتاخر ابتداء بالالتحاق مع الجيش ، وانفصل الجيش الإسلامي من المدينة ، وهو

(١) من ديوان : فقى غفار ، للشاعر سليمان العيسى .

لا يزال فيها على أمل اللحاق بالركب ، (ثم إن أبي خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ إلى بيته في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط له ، قد رشت كل واحدة منها عريشها ، وبردت له فيها ماء ، وهياتاً له طعاماً) .

وها هو شيطانه بكل ما يملك من قوة وإغراء يدفعه دفعاً ليمضى إلى الماء البارد على الظماء ، والظل الهنئ في الحر المهمل ، لكن لة الملك جاءته فوخزته وخزاً عنيناً أيقظته من سباته ، أين هو ؟ وأين رسول الله ﷺ ، قائلًا له من أعماق أعماقه :

رسول الله ﷺ في الضحى والربيع والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعم مهياً ، وامرأة حسناء في ماله مقيم ، ما هذا بالنصف .

واستجواب للنداء الملكي من أعماقه مباشرة بلا تردد ، يستحيل أن يكون هذا الأمر ، ورسول الله ﷺ والمسلمون جميعاً معه ، وهو وحده من بين الناس جميعاً في العين والظل والراحة والماء البارد ، وكانت الاستجابة : (والله لا أدخل عريش واحدة من كما حتى الحق برسول الله ﷺ ، فهو ألى زاداً ، ففعلنا ، ثم قدم ناضجه فارغله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ) ، لكن أني له أن يلحق به ، وبينه وبين المسلمين آماد وأفاق ، ومسافات لا تحصى ، فمضى لا يلوى على تعب ، ولا يلوى على حر ، ولا يلوى على عطش ، ولا يلوى على شيء أبداً في هذا الوجود إلا مرضاه الحبيب ، لقد ارتقى في سلم الإيمان الذي فيه بضع وسبعون درجة ، ارتقى إلى القمة العليا فيه إلى قمة لا إله إلا الله التي جعلته يقطع وحده ستمائة كيلو متر دون أن تلين له قناة ، أو تشنى له عزيمة ، أو يفتح للشيطان ثقب إبرة يدخل منها ، مضى حتى وصل إلى تبوك ، وقبل وصوله التقى بعمير بن وهب الجمحي ثنوتي ، والذي كان في مهمة في الساقية ، ولم يأت ليمن على الله ورسوله بهذا العمل العملاق ، يقطع الصحراء كلها وحده ملتحقاً بركب الإيمان، إنما رأى عميراً ، ولا تزال عقدة الذنب تملأ قلبه ، وهو على مشارف تبوك ، فقال لعمير ابن وهب : إن لي ذنباً فلا عليك أن تُخْلَفَ عنى حتى آتني رسول الله ﷺ .

لقد كانت غزوة تبوك أسر امتحان يخوضه المسلمون السابقون الأولون منهم واللاحقون بهم في جوها ، وفي بعدها ، وفي حرها ، وفي عسرتها ، وفي كل شيء فيها ، وعادة يكون الامتحان الأخير دائمًا ذروة الامتحانات ، لتوهله المؤمن بهذه الدورة أن يغدو القمة والقدوة لمن بعده ، حتى أولئك الذين انضموا حديثاً لدين الله عز وجل ، كان لهم شرفدخول هذا الامتحان بجوار السابقين السابقين ، ولئن نجحوا في هذا الامتحان فسيعاملون معاملة الرواد الأوائل ، والقادة العظام ، والتحق أبو خيثمة بالركب ، وقد مضى نصف الدورة كاملة وفاته ، ومن أجل هذا فهو مذنب ، لكن هذا أولى من

أن يحمل أعباء التخلف كاملاً ، كما جرى مع ثلاثة الكبار الآخرين الذين قعدت همتهم به ولم يلحقوا بالركب كما لحق أبو خيشمة .

وتلقاه رسول الله ﷺ بالبشر ، وأكبر فيه هذه الهمة ، وهو الذي كان يتنتظره حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل تبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيشمة » فقلوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيشمة ، فلما أتى أبا خيشمة قبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له : « أولى لك يا أبا خيشمة » ، فهو الأولى والأكمel والأنسب لشخصيته خوشة ، ولا يناسب شخصيته أن يكون قابعاً عند حسناوته في المدينة ، فليست حيلته كذلك .

(ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، أما الذين تخلفوا من المنافقين فصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : « فقد أراحكم الله منه لأنه لا خير فيه » ، وهؤلاء المنافقون هم الذين هيجروا أبا خيشمة على اللحاق بالركب ، فإذا فهوا واحد منهم .

لما رأيت الناس في الدين نافقو
أنيت التي كانت أعنف وأكرما
وبايوعت ياليمنى يدى لحمدٍ فلم أكتسب إثماً ولم أغش محراً
أما الدنيا وأما المرأة وأما المال والنخيل فقد تركه لأهله المتشائلين إلى الأرض ،
المجولين فيها .

تركت خضيئاً في العريش وصرمة صفايا كراماً بسرها قد تحتمما
وعندما وجد نفسه ، في موقع المنافقين ، ووجد إخوانه المهاجرين والأنصار في
الصحراء ، عرف أن موقعه ليس هنا ، وأن عليه أن يمضى لإخوانه ، ولو كلفه ذلك
روحه .

وكنت إذا شك المافق أسمحت إلى الدين نفسى شطره حيث يما
فإذا يم الدين إلى تبوك ، فليمض شطره هذا الدين نحوه أياماً كان .

وإذا تدارك الأمر أبو ذر وأبو خيشمة ، لكن ثلاثة من الطبقة الأولى في الامة من
أهل بدر لم يتداركوا الأمر ، وقعدت همتهم بهم ، وتخلعوا عن الركب ، وسنعرض
لکعب تفصيلاً إن شاء الله . لكننا بحاجة لادبه الرفيع وذوقه الفنى نتعرف منه على واقع
هؤلاء الثلاثة ، فهو يصدقنا الأمر قائلاً : (كان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله
ﷺ عن تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ،
والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعنا فى تلك الغزوة) فهو ليس من البكائين

الذين لا يجدون ما يحملون أنفسهم عليه ، ولا يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه ، فلم يكن أيسر منه في ذلك الوقت ، وعنه عوضاً عن الراحلة الواحدة راحلتين ، وقد أصابه وإنحواه الثلاثة ذلك الإهمال ، وتلك العزيمة ، ثم التراخي إلى الدنيا ، فعاشا في صعود وهبوط لا يتناسب مع مستواهم العالي الرفيع ومع ماضيهم المجيد .

(وتجهز المسلمين معه ، وجعلت أعدو لأنتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فما أصبح رسول الله ﷺ غازياً وذلك يوم الخميس ، وكان رسول الله ﷺ يجب أن يخرج فيه ، ولم أقض من جهازى شيئاً) . ولا شيء إلا الإهمال (فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم الحق بهم ، فغدوات بعد ما فصلوا ولم أفعل شيئاً) لم يفعل التي كانت أعرف وأكرم كما فعل أبو خيثمة ، ورفعته همته إلى الاتصال بإخوانه ، بل أخلد إلى الأرض ، والشمار والظلال ، (فلم أزل يتمادي بي حتى أسرع الناس ، وتفارط الغزو ، وقلت : أرتحل فأدركهم وبالبيتني فعلت ، ولم أفعل) بينما فعلها أخوه أبو خيثمة ، والتحق بهم حتى قطع الفيافي والقفار وحده ، ووصل إليهم وهو في تبوك ، وعرف أى جريمة ارتكب يوم يخرج كل يوم من بيته ، (وجعلت إذا خرجت في الناس فطفت فيهم يحزنني لا أرى إلا منافقاً مغموماً عليه بالتفاق أو رجلاً من عذر الله) .

وهو الذي جرى مع صاحبيه هلال بن أمية الواقفي ومراة بن الريبع ، حيث يحدثنا هلال عن خفقان قلبه ، (والله ما تخلفت شكاً ولا ارتياها) ولم يختلف لضعف وعجز ، (لكن كنت مقوياً من المال فقلت : أشتري بعيراً ، ولقيني مراة بن الريبع فقال : أنا رجل مقو فابتاع بعيراً وأنطلق به ، فقلت : هذا صاحب أرافته) وبدل أن تبعث هذه الشراكة العزم على الشراء ، كونت لديهما شيئاً من التراخي . فهما ستصاحبان على كل الأحوال ، (فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيرين فنلحق بالنبي ﷺ ولا يفوتنا ذلك) ، وسهل الشيطان لهما الأمر ، (نحن قوم مخونون على صدر راحلتين فغداً نسير) وتسابق القوم ، وكان الشيطان معهما يرخي همتهم ، وبهون الأمر عليهم ، (فلم نزل ندفع ذلك ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد ، فقلت : ما هذا يجين خروج فارجع مفتماً بما أنا فيه ، وجعلت لا أرى في الدار ولا غيرها إلا معذوراً أو منافقاً معلناً فارجع مفتماً بما أنا فيه) ، وهكذا كان حال أبي خيثمة لكنه نجا بعزمه الحديدية ، ومضى شطر الدين حيث كان في تبوك وتدارك الأمر ، أما هؤلاء الثلاثة ، فقد عدت همتهم في النهاية عن اللحاق بالركب ، وهم إذن ثلاثة من ثلاثين ألفاً أي نسبة واحد إلى عشرة آلاف ، هم الذين قصرُوا عن المستوى المعمود فيهم وتخلّفوا عن المعركة ، ولمعرفة رسول الله ﷺ فيهم ، وانتظرهم عليه الصلاة والسلام كما انتظر أبا خيثمة بهذه ثقته فيهم لكن كانوا دون ثقته ، ولم يتمالك رسول الله ﷺ عندما رأى بعض أهليهم وذويهم

أن سأله : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » ، فقال رجل من بنى سلمة (أى من أقربائه وأهله) يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بسم الله قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . وسنعود للحديث عن هؤلاء الثلاثة فيما بعد والذين كانوا من جيل بدر وبيعة العقبة وبيعة الرضوان .

هذا الأمر بالنسبة لهؤلاء الثلاثة فى المدينة المنورة ، لكن المجتمع الإسلامى الذى تكون تجاوز حدود المدينة ، وضم القبائل المجاورة لها من الأعراب ، ودخلوا مع المهاجرين والأنصار فى سلك واحد كما هو التعبير القرآنى .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلُهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغُبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ﴾ [التوبه : ١٢٠] ، فقد رفض رسول الله ﷺ عن الأعراب الشمانين من غفار والذين قدموا المدينة لذلك ، ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُزَدَّنَ لَهُمْ ... ﴾ [التوبه : ٩٠] ، بينما أذن للمنافقين بصفتهم خارجين عن المجتمع الإسلامى ، وبث رسول الله شجونه لأبي رهم الغفارى ، فغفار من أقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ ، ولا يرضى أن يتخلص منهم أحد ، فقال لأبي رهم رض :

(فجعل رسول الله ﷺ يسألني : « ما فعل النفر الحمر الطاطن ؟ » فحدثته بتخلفهم . قال : « فما فعل السود القصار الجعاد الحلس ؟ » فقلت : والله يا رسول الله ما أعرف هؤلاء .

ورسول الله ﷺ بين عشرات الآلوف يدرك بين بعض العشرات من تخلف من غفار . والغفارى أبو رهم ينساهم ولا يذكرهم ، فيذكره رسول الله ﷺ بهم قائلاً : « بلى الذين هم بشبكة شدخ » . قال : فذكرتهم فى بنى غفار ، فلا ذكر لهم ، ثم ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا ، وكانوا يحلون بشبكة شدخ لهم نعم كبير . فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا .

و سواء كانوا من أسلم أو غفار فهم من المجتمع الإسلامى ، ويعيشون فى قلب رسول الله ﷺ القائد الأعظم للأمة ، ويعتبرهم من أهله وخاصة .

يقول عليه الصلاة والسلام : « ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله رجلاً نشيطاً فى سبيل الله من يخرج معنا ؟ » .

والعتب المريء عليهم أنهم لم يجاهدوا بأموالهم إذ فاتهم الجهاد بأنفسهم ، فهم مختلفون على الحالتين ثم يُتبع ذلك رض : « إن كان من أعز أهلى على أن يتخلص عنى المهاجرون من قريش والأنصار ، وغفار وأسلم » .

التعيم الرابع : وكان هذا التعيم عندما وقع خلاف بين مسلمين أحدهما ترك بيته لعجفه وهزاله وضعفه وجاء الآخر فأطعنه وغذاه وسقاه دواوه حتى بريء وعوفى فاستقه ، فلمن هو ؟ ف جاء الحكم النبوى الذى عم على الجيش كله :

« من أحيا خفأ أو كُرِأعَا بعهلكة من الأرض فهو له » .

ويهدف هذا التعيم إلى معاقبة الذى يترك دابته ويهملاها ببيداء فى الأرض ، بأن تتزع منها ملكيتها إن وجد من يحييها ويغذيها ويداوريها ، كا يهدف إلى التشجيع على معالجة الدابة الصعبة العجفاء وعدم التخلى عنها ، ومن يفعل ذلك فلن يذهب تعبه سدى فستكون الدابة له ، سيان كانت خيلاً أو إبلًا فهو صاحب الحق يملكتها مثل ملكية « من أحيا أرضًا مواثًا فهي له » تشجيعاً على ذلك وحثا عليه .

التعيم الخامس : وهو تابع للتعيم الثالث : حيث قامت القبائل بتوزيع رياتها وألويتها على أبنائها لتبقى كل قبيلة تحت لوائها ، وتتلقي التعليمات الكبرى من قيادتها ، والأمثل أن تكون هذه القيادات اختيارية من أبناء القبيلة ، لكن التعديل الذى أجراه النبي ﷺ يهدف إلى أسلمة هذا المجتمع القبلى ؛ بحيث يكون القرآن الكريم هو الذى تنبثق منه الأمة ، وطبقه رسول الله ﷺ عملياً على بعض قبائل الأنصار بأن سلم الراية لمن هو أكثرهم أخذًا للقرآن ، فرایة بنى مالك بن النجار وهم من أخواله ﷺ كانت مع عمارة بن حزم ، فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت فاعطاه الراية . قال عمارة : يا رسول الله ، لقد وجدت على ؟ قال : « لا ، ولكن قدّموا القرآن وكان أكثر أخذًا للقرآن منك ، والقرآن يقدم وإن كان عبدًا أسود مجدعًا ... » .

هي تربية عملية ، حيث قام رسول الله ﷺ بتنفيذها بنفسه ، وهذا الجيل الذى رياه عليه الصلاة والسلام فيما رياه عليه ، وبمقدار ما كان يملك الأدب العظيم مع رسوله وقائده ، بمقدار ما كان يملك الوعى العظيم الذى رياه عليه قائده ، فعمارة بن حزم رض ، وقد أخذت منه الراية لابد أن يعرف لم أخذت منه ، لابد أن يعرف لم أخذت منه ، وعند الجرأة الكافية ليسأل سيده وقائده عن ذلك ، هل عن تقدير منه في حمل الأمانة ؟ هل عن معصية أو زلل وقع منه فترتت منه الراية ؟ وكان الجواب النبوى ليس بإخراسه عن الكلام وليس باعتقاله ، وليس بتهزئته وقمعه ، بل بإبداء السبب لذلك أيام هذا الجندي العادى - لا ، فليس غضباً من رسول الله ﷺ ، وليس موجودة عليه منه ، ولكنه التقديم والتعظيم للقرآن . وحامل القرآن متصل بالله يعلو على المتصل بالنسب ، ولو كان عبدًا مجدعًا ، ويشير هذا التعيم من جهة ثانية إلى حساسية هذا الجيل ورهافة حسه ، فكل الذى يخشاه هو غضب قائده أو عتبه عليه ، ولا يضيره بعد ذلك ما يؤخذ

منه وما يمنع منه أو يتزعزع منه ، ولو كان اللواء أو الإمارة أو القيادة ، فكان جواب رسول الله ﷺ : « لا ، ولكن قدموا القرآن » ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك . بل أبدى أيضًا يصل إلى درجة الاعتذار بأن زيد بن ثابت أكثر أخذًا للقرآن من عمارة بن حزم ، ولم يكتف القائد الحبيب ﷺ بايضاح أسبقيته زيد في كتاب الله ، بل رياهم كذلك على أن يتبعوا القرآن ، ولو كان حامله عبدًا مجددًا حبشيًا فكرامة القرآن فوق كرامة القبيلة .

التعيم السادس : وهو تعيم عملى كان سببه أن باى فرس النبي ﷺ على جبهة ، ولم يغسل منه رسول الله ﷺ هذا البول الذى انطلق من إطعام هذا الفرس ، وبما أن خروج هذا الفرس فى سبيل الله ، فسيكون كل ما يخرج منها فى سبيل الله قال :

« لا بأس بأبواها وعرقها ولعابها » .

وهذا قد يقع مع كل جندي وعليه أن يقوم بتطهير ثيابه منها ، وأصبحت الفرس جزءًا من حياة المسلم ترافقه فى كل مكان ، فقد بلغت الأفراص عشرة آلاف فرس بعد أن كانت فرسين فى غزوة بدر .

وهذه هي الحيل كما يحدث عنها رسول الله ﷺ :

« الحيل ثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . فاما الذي هي له أجر : فرجل ربطة فى سبيل الله ، فأطالت لها فى مرج أو روضة ، فما أصابت من طيلها من المرج والروضة كانت له حسناً ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرقاً أو شرقين كانت آثارها وأروائتها حسناً له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسناً ، ورجل ربطة تغنى وستراً وتعفف ، ثم لم ينس حق الله فى رقبتها وظهورها فهي له ستر ، ورجل ربطة فخرًا ورياءً ونواه لأهل الإسلام فهي له وزر » (١) .

وفي رواية لمسلم :

« ... فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسناً ، وكتب له عدد أروائتها وأبواها حسناً ، ولا تقطع طولها فاستنت شرقاً أو شرقين إلا كتب الله له عدد آثارها وأروائتها حسناً » .

ويطالعنا خرص رسول الله ﷺ لتمر حديقة المرأة ، وهو لا يزال فى أول نعوه وظهوره حيث قدره رسول الله ﷺ بعشرة أوسق ، وعاد الجيش الإسلامي من تبوك ، ومرروا

(١) مالك وأحمد وابن ماجه والشیخان وهو عند مسلم ٦٨١ / ٢ ح (٩٨٧/٢٤). والشرف : هو العالى من الأرض، وقال ابن الأثير : الشرف هو الشوط ، واستنت : جرت وعدت .

بحديقة المرأة ، وسألوها عن تمرها فأخبرتهم أنه عشرة أو سق ، وكان المسلمون الذين معه من الأنصار أرباب النخل والذين عاشوا وتربوا ونشؤوا في خدمته وجنيه والعمل فيه .

نذكر هذا الحديث في مقابل حديث تأيير النخل ، والذى قال فيه رسول الله ﷺ لل المسلمين : « أنت أعلم بأمور دنياكم » ، ثم جاء المغرضون بعد هذا ليجعلوا من هذا الحديث تكأة لفصل رسول الله ﷺ عن الدنيا ، وعن علمه بها ، وحصر علمه بالأخرة ، وهو افتئات على مقامه الشريف ، وإنقاذه من قدره ﷺ . فما من خير في الدنيا والأخرة إلا دلنا عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وما من أمر من أمور الدنيا حدثنا عنه إلا كان كما قال عليه الصلاة والسلام ، وإنما كانت تلك الحادثة التي لم تتكرر في السيرة النبوية لإثبات العبودية لله سبحانه ، فما يعلم الغيب إلا الله ، وحتى ييقن المسلمين دائمًا على وعي في الفصل بين العبودية والالوهية ، ورأينا كيف غرس رسول الله ﷺ ثلاثة غرسات من النخل ، مما يبيت منها واحدة ، فهو المبارك المعصوم ﷺ ، وهو الهادى لنا إلى كل خير في الدنيا والأخرة ، والذين يريدون أن يجعلوا من رسول الله ﷺ واعظًا للأخرة فقط ، هم مجرمون بحقه أو جاهلون بمقامه ، فهو الحياة لنا هكذا بدون قيد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِسْتِجْبَاءِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ
بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَإِنَّهُ إِلَيْهِ تُعْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال] .

وهو النور لنا في الدنيا والأخرة ، هكذا بدون قيد ، **﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَّكِتَابٌ**
مِّنْ بَيْنِ أَيْمَانِكُمْ (١٥) ﴾ [المائدة] .

وهو قدوتنا في كل ذرة من ذرات حياته ﷺ ، هكذا بدون قيد :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا (٢٦) ﴾ [الأحزاب] .

فهي التربية النبوية لهذا الجيش كله حتى يتعرف على معجزاته ﷺ خاصة من الذين يتلقون معه للمرة الأولى ، فلا بد أن يروا في هذا الرسول الأمي دنياهم وأخريتهم وجودهم وحياتهم ، وما هذه التعميمات الستة إلا جزء من التربية للقاعدة العريضة الممتدة في الصحراء ، بحيث تتفقه في دين الله من خلال كل جزئية تواجهها فتعرف عليها من رسول رب العالمين .

هذه التربية العامة التي لم تقطع التربية الخاصة والقيادة أبدًا ، فلم تمنع الحديث مع أبي رهم الغفارى عن خواصه ﷺ من جنده الذين تخلفوا عنه ، ولم تتوقف التربية

الخاصة أبداً للقيادات الكبرى فأبُو ذر وهو من الرواد الخمسة الأوائل يسمع التقرير النبوى فيه: « إن يكن به خير فسيلحق بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه »، وأبُو خيثمة من جيل السابقين الأولين من الانصار ، يسمع ما قال فيه رسول الله ﷺ من أنه قد يسقط من القمة الشاهقة لو لم يلحق بهذا الركب ، ويسقه الثلاثون الفا ولو دخلوا اليوم في دين الله : « وإن كان غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ، ثم يتلقيان معًا الثناء النبوى الخالد لهما عندما تجاوزاً ظروفهما والتحقاً في الركب النبوى : « إنك من أعز أهلى على تخليقاً » و « أولى لك يا أبا خيثمة » .

ولم يمنع كذلك من السؤال عن كعب بن مالك رضي الله عنه أخص خواصه وشاعره المحب إليه : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » واختلاف الآراء في سبب تخلفه دون أن يؤيد أو يعارض عليه الصلاة والسلام . فيمن أحسن الظن ومن أساء .

النفاق ... والنزو في المحرر

١ - (روى الإمام مالك وأحمد والشیخان .. وابن إسحاق .. أن رسول الله ﷺ لما مر بالحجر تقنع بردائه وهو على الرحل ، فاتضاع راحلته حتى خلف أبيات ثمود . ولما نزل هناك سارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، واستنقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا ، ونصبوا القدور باللحم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنودي في الناس : الصلاة جامعة . فلما اجتمعوا قال رسول الله ﷺ :

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيغكم ما أصابهم، ولا تشربوا من مائها ، ولا تتوضؤوا منه للصلوة ، وأعلفوا العجين للإبل » ، ثم ارتحل بهم حتى نزل على العين التي كانت تشرب منها الناقة ، وقال :

« لا تسالوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، سألوا نبيهم أن تُبعث آية ، فبعث الله تبارك وتعالى لهم الناقة ، فكانت ترد هذا الفحج ، وتصدر من هذا الفحج ، فعثروا عن أمر ربهم فعثرواها . وكانت تشرب مياههم يوماً ، ويشربون لبنها يوماً ، فعثرواها ، فأخذتهم صيحة أهمل الله تعالى من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله تعالى » ، قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، ما تدخلون على قوم قد غضب الله عليهم » .

فناداء رجل منهم : تعجب منهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم فنبئتم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدهم ، فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعيا بعذابكم شيئاً ، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء ، وإنها ستذهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقوم أحد ، ومن كان له بغير فليوثق عقاله ولا يخرجن أحدكم إلا ومعه صاحب له ». فعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بنى ساعدة ، خرج أحدهما لحاجته ، والأخر في طلب بعيره ، فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبة - أى موضعه - وأما الذى خرج فى طلب بعيره ، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبل طین اللذين يقال لأحدهما : أجا ، ويقال للأخر : سلمى ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ، ثم دعا للذى أصيب على مذهبة فشفى ، وأما الآخر فإن طينا أهدته لرسول الله ﷺ حين رجم إلى المدينة) (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٤٤ / ٥، ٦٤٥.

٢ - وكان أبو هريرة يحدث فيقول: وتحولنا إلى بشر صالح النبي عليه السلام، فجعلنا نستقي من الأسمية ونغلصلها ، ثم ارتدينا ، فلم نرجع يومئذ إلا ممسين ، فقال رسول الله عليه السلام : « لا تسألوا نبيكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سأّلوا نبيهم آية ، فكانت الناقة ترد عليهم من هذا الفلج تسقيهم من لبنها يوم وردها ما شربت من مائها ، فمقرروها فأوعدوا ثلاثة ، وكان وعد الله غير مكذوب ، فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق أحد منهم تحت أديم السماء إلا هلك ، إلا رجل في الحرم ، منعه الحرم من عذاب الله ، قالوا : يا نبى الله ، من هو ؟ قال رسول الله عليه السلام : « أبو رغال ، أبو ثقيف » قالوا فماهه بناحية مكة ؟ قال : « إن صالحًا بعثه مصدقا ، فاتنهى إلى رجل معه مائة شاة شخص (١) ، ومعه شاة والد ، ومعه صبي ماتت أمه بالأمس ، فقال : إن رسول الله أرسلني إليك ، فقال : مرحباً برسول الله وأهلاً ، خذ ، قال : فأخذ الشاة اللبون ، فقال : إنما هي أم هذا الغلام بعد مماته ، خذ مكانها عشرًا . قال : لا ، قال : عشرين . قال : لا . قال : خمسين . قال : لا . قال : خذها كلها إلا هذه الشاة . قال : لا . قال : إن كنت تحب اللبن فأنا أحبه ، فشركتاته ثم قال : اللهم شهد ، ثم فوق له بسهم فقتله . فقال : لا يسبق بهذا الخبر إلى نبى الله أول مني ، فجاء صالح فأخبره الخبر . فرفع صالح يديه مددًا فقال : اللهم عن أبي رغال ثلاثة ، وقال : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم فيصيّركم ما أصابهم » (٢) .

٣ - (روى البيهقي عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب رحمة الله تعالى قال :

خرج المسلمون إلى تبوك في حر شديد ، فأصابهم يوم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليغصروا أكراشها ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة في الماء ، وعسرة في النفقة ، وعسرة في الظهر .

وروى الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن إسحاق عن .. قال عمر : خرجنا إلى تبوك في يوم قيظ شديد ، فنزلنا متولاً ، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقبانا ستقطع حتى أن الرجل يذهب يلتمس الرجل فلا يرجع ، حتى يظن أن رقبته ستقطع حتى أن الرجل لينحر بعيده ، فيغصر فرثه فيشربه ، و يجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله عودك في الدعاء خيراً . فادع الله تعالى لنا ؟ قال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه نحو السماء

(١) شخص : جمع شخصوص وهي الناقة التي ذهب لبنها .

(٢) المغارى للواقدى ١٠٠٧/٣ ، ١٠٠٨ .

فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأظللت ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبا نظر
 فلم نجدها جاوزت العسكرية .. وزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ لا يحملوا من مائتها
 شيئاً ، ثم ارتحل ، ثم نزل متزلاً آخر وليس معهم ماء ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ،
 فقام فصلى ركعتين ، ثم دعا ، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة فأ茅طرت عليهم حتى
 استقوا منها ، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالتفاق: ويحك قد ترى ما دعا
 رسول الله ﷺ فأ茅طرب الله علينا السماء ، فقال: إنما أمرنا بنوء كذا وكذا فأنزل الله
 تعالى: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَلِّبُونَ» (٨٢) [الواقعة]. وذكر ابن إسحاق أن هذه
 القصة إنما كانت بالحجر ، وروى عن محمود بن ليد عن رجال من قومه قال: كان
 رجل من المنافقين معروف نفاقه يسير مع رسول الله ﷺ حيثما سار ، فلما كان من أمر
 الحجر ما كان . ودعا رسول الله ﷺ حين دعا ، فأرسل الله سبحانه فأ茅طرب حتى
 ارتوى الناس ، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك ، هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة
 مارة) (١) .

٤ - قال محمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر - رحمهم الله تعالى : (ثم إن رسول
 الله ﷺ سار حتى إذا كان بعض الطريق متوجهاً إلى تبوك فأصبح في منزل ، وضلت
 ناقة رسول الله ﷺ (قال محمد بن عمر : هي القصواء) فخرج أصحابه في طلبها ،
 وعند رسول الله ﷺ عمارة بن حزم وكان عقيباً بدرياً ، قتل يوم اليمامة شهيداً ، وكان
 في رحله زيد بن اللصيت ، أحد بنى قييقاع كان يهودياً فأسلم فنافق ، وكان فيه خبث
 اليهود وغشهم ، وكان مظاهراً لأهل النفاق ، فقال زيد وهو في رحل عمارة بن حزم ،
 وعمارة عند رسول الله ﷺ : محمد يزعم أنهنبي ، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا
 يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : «إن منافقاً قال : محمد يزعم أنه
 نبي وهو يخبركم بأمر السماء ولا يدرى أين ناقته . وإن والله لا أعلم إلا ما علمني الله
 تعالى ، وقد دلني الله عز وجل عليها ، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا - لشعب
 وأشار لهم إليه - حبستها شجرة بزماتها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها » . فذهبوا فجاؤوا بها
 (قال محمد بن عمر : الذي جاء بها الحارث بن خزيمة الأشهبى) فرجع عمارة إلى
 رحله فقال: والله العجب لشيء حدثنا رسول الله ﷺ آثنا عن مقالة قائل أخبره الله
 تعالى عنه ، قال كذا وكذا - للذى قال زيد - فقال رجل من كان في رحل عمارة - قال
 محمد بن عمر : وهو عمرو بن حزم أخو عمارة - ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيد
 والله قائل هذه المقالة ، قبل أن تطلع علينا . فأتى عمارة على زيد يجا في عنقه ،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٤٥ / ٥ ، ٦٤٦ ، وهي عند ابن إسحاق ٥٢٢ / ٢ .

ويقول : إن في رحلى لداهية وما أشعر ، اخرج يا عدو الله من رحلى فلا تصحبنى ، قال ابن إسحاق : زعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس : لم يزل متهماً بشر حتى هلك) (١) .

٥- روى ابن سعد بسند صحيح عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال :

(لما كنا ما بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله صلوات الله عليه وسلم حاجته . وكان إذا ذهب أبعد ، وتبعته باء بعد الفجر ، وفي رواية قبل الفجر . فأسفر الناس بصلاتهم وهي صلاة الفجر حتى خافوا الشمس ، فقدموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فصلى بهم ، فحملت مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم أداة فيها ماء ، وعليه جبة رومية من صوف ، فلما فرغ صبيت عليه فغل وجهه ، ثم أراد أن يغسل ذراعيه فضاق كم الجبة . فأنخرج يديه من تحت الجبة فغسلهما ، فأهلرت لأنزع خفيه فقال : « دعهما فإنني أدخلنهم طاهرين » فمسح عليهم ، فانتهينا إلى عبد الرحمن بن عوف ، وقد ركع ركعة فسبع الناس لعبد الرحمن حين رأوا رسول الله صلوات الله عليه وسلم حتى كادوا يفتون ، فجعل عبد الرحمن يريد أن ينكص وراءه ، فأشار إليه رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن اثبت ، فصلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم خلف عبد الرحمن بن عوف ركعة ، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف تواب الناس ، وقام رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقضى الركعة الباقية ثم سلم بعد فراغه منها ثم قال : « أحسنت - أو قد أصبت - فبغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها - إنه لم يتوف نبى حتى يؤمِّه رجل صالح من أمته » ورواه مسلم بن حموده) (٢) .

٦- عن يعلى بن أمية رضي الله عنه : (أتى رسول الله صلوات الله عليه وسلم بأجير له نازع رجلاً من العسكر فغضبه ذلك الرجل ، فانتزع الأجير يده من فم العاض فانتزع ثيتيه فلزمته العاض ، فبلغ به رسول الله صلوات الله عليه وسلم وقمت مع أجيرى لأنظر ما يصنع ، فأتى بهما رسول الله صلوات الله عليه وسلم فقال : « أيعمد أحدكم فيغض أخيه كما يغض الفعل » فأبطل رسول الله صلوات الله عليه وسلم ما أصاب من ثيتيه ، وقال : « أقيعد أحدكم يده في فيك تقضمها وكأنها في فم فحل يقضمها ؟ » رواه البخاري وغيره) (٣) .

٧- عن سهيل بن بيضاء رضي الله عنه (أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم أرده على رحله في تبوك . قال سهيل : ورفع رسول الله صلوات الله عليه وسلم صوته : « يا سهيل » ، كل ذلك يقول سهيل : يا ليك يا رسول الله صلوات الله عليه وسلم - ثلاث مرات - حتى عرف الناس أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم يريدهم ، فانثنى عليه من أمامه ، ولحقه من خلفه من الناس فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، حرم الله على النار » . رواه

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٤٦ ، ٦٤٧ ، وهو عند ابن هشام ٢/٥٢٣ ، وعند الواقدي ٣/١٠٠٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/٦٤٨ .

٨ - ذكر محمد بن عمر ، وأقره أبو نعيم في الدلائل ، وابن كثير في البداية ، وشيخنا في الخصائص الكبرى قال : (عارض الناس في مسيرهم حية . ذكر من عظمها وخلقها ، فانصاع الناس عنها ، فأقبلت حتى وافت رسول الله ﷺ وهو على راحته طریلاً ، والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتدل الطريق ، فقامت قائمة ، فأقبل الناس حتى لحقوا برسول الله ﷺ فقال : « هل تدرؤون من هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا أحد الرهط الشمانية من الجن الذين وفدوا إلى يستمعون القرآن . فرأى عليه من الحق حين ألم به رسول الله ﷺ أن يسلم عليه ، وها هو يقرئكم السلام ، فسلموا عليه » فقال الناس جميعاً : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته)^(٢).

٩ - فلما كان رسول الله ﷺ في وادي المشق سمع حادياً في جوف الليل فقال : اسرعوا بنا نلحقه ورسول الله ﷺ يقول : « من الحادي ، منكم أو من غيركم ؟ » قالوا : بلى من غيرنا . قال : فأدركه رسول الله ﷺ ، فإذا جماعة ، فقال : « من القوم ؟ » قالوا : من مصر . قال رسول الله ﷺ : « وأنا من مصر » ، فانتسب حتى بلغ مصر ، قال القوم : نحن أول من حدا بالإبل ، فقال النبي ﷺ : « وكيف ذلك ؟ » قالوا : بلى ، إن أهل الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض . فأغير على رجل منهم ومعه غلام له ، فندت إبله ، فأمر غلامه أن يجمعها ، فقال : لا أستطيع ، فضرب يده ببعضها ، فجعل الغلام يقول : وايده ، وايده وتحتم الإبل ، فجعل سيده يقول : قل هكذا بالإبل ، وجعل النبي ﷺ يضحك ، وقال رسول الله ﷺ : « ألا أبشركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، وهم يسيرون على رواحلهم ، فقال :

« إن الله أعطاني الكتين فارس والروم ، وأمدّني بالملوك ملوك حمير ، يجاهدون في سبيل الله ويأكلون في الله »^(٣).

١٠ - قال أبو سعيد الخدري : (رأيت رجلاً جاء إلى النبي ﷺ بخاتم وجده في الحجر في بيوت المعدين فقال : فأعرض عنه واستر بيده أن ينظر إليه وقال : « آله » فلما أدرى أين وقع الساعة ، وكان ابن عمر يقول : إن رسول الله ﷺ قال لاصحابه حين حاذهم : « هذا وادي النفر » ، فجعلوا يوضعون فيه ركابهم حتى خرجوا منه)^(٤).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٤٩/٥ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٦٤٨/٥ .

(٤) المصدر السابق ١٠٠٨/٣ .

(٣) المغارى للواقدى ١٠١١/٣ .

١١ - عن يعقوب بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد أنه قال له : هل كان الناس يعرفون أهل النفاق فيهم ؟ فقال : نعم ، والله إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه وبني عمه ، سمعت جدك قتادة بن النعمان يقول : تبعنا في دارنا قوم متفافقون منهم ، ثم سمعت من بعد ريد بن ثابت يقول : في بني التجار من لا يبارك الله فيه ، فيقال : من يا أبو سعيد ، فيقول : سعد بن زرارة وقيس بن فهر)^(١) .

* * *

لقد كان حزب المنافقين منفصلًا تماماً عن حزب الله ، كما هو الفرق اليوم بين الأحزاب العلمانية والاحزاب الإسلامية ، وإن كان المظاهر الخارجى لهذا الحزب مظهراً إسلامياً ، لكنه يتعمى إلى قيادة غير قيادة النبي ﷺ ، ويتلقى منها الأوامر ، هذه القيادة هي قيادة عبد الله بن أبي ، ولكن خطة هذا الحزب هو العمل جاهدين على عدم كشف أعضائه ، وإن كانت الخطة فاشلة . فالغموض عليهم في النفاق كانوا مغضوبين في قومهم كما مرّ معنا في النص السابق : (نعم والله إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه وبني عمه) ، ونادرًا ما يبقى المنافق عميلاً سرياً في الصف الإسلامي دون أن يكشف ، ولا مناص لنا من التحدث عن دور هذا الحزب في داخل الصف الإسلامي خلال هذه المرحلة حتى الوصول إلى تبوّك .

ونشير إلى أن سورة التوبة التي سميت سورة براءة ، والفاصلة ، والمعشرة ؛ لأنها فضحت كل مخططات المنافقين ، وسنعرض للأيات التي تتحدث عن عملاء هذه المرحلة)^(٢) .

بطالعنا قبل الوصول إلى الحجر ذلك اللقاء السرى الخاص بين هؤلاء المنافقين الذين وجدوا فرصة يكتشفون عمما تحمل صدورهم من إحن وحقد على الإسلام والمسلمين .

- ثعلبة بن حاطب : (تحسبون قتال بنى الأصفه كقتال غيرهم ، والله لكأننا غداً مقرنين في الحال) .

وهي كلمة سيده عبد الله بن أبي الذي برأ فيها تخلفه عن رسول الله ﷺ ، وأصدرها تعليمات تلقاها أعضاء الحزب فنكروا عن الجهاد ، لكن هؤلاء العملاء السريين

(١) المخازى للواقدى ١٠٩ / ٣ .

(٢) سبق أن تحدثنا تفصيلًا من خلال النص القرائى في سورة التوبه في كتابنا : (التربية الجهادية ، الجزء الثالث) ، حيث كانت الآية هي الأساس في البحث .

مضوا مع الجيش بهدف تحطيم المعنويات وإشعال الفتنة في الصف الإسلامي .

- وديعة بن ثابت : (مالى أرى قرائنا ، أو عينا بطنوا ، وأكذبنا السنة وأجبتنا عند اللقاء) .

وعند تحطيم هذه القدوت والنيل منهم - يعني تفتت الثقة بالإسلام نفسه - فهو لاء أهل القرآن هم الأكذب ، وهم الأجيئ ، وهم الأكبر بطنوا وشرها وجباً للدنيا .

ولابد أن نشير إلى أن هذا المزاح كثيراً ما يستعمل في صحفنا الإسلامية اليوم - وهو من سمات المافقين ، ويتباهي الناس في تحجيم أخطاء (المشايخ) من باب الدعاية والنكتة ، وهي قاسمة الظاهر للصف الداخلي .

- الجلاس بن عمرو : (والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير) ، أو (هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ، والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير) .

وهو تتمة الكلام السابق ، فهو لاء القراء - السادة والاشراف وأولوا الفضل - هم الأكذب ، وهم الأجيئ ، وهم الأكبر بطنوا ، فإن كانوا كذلك - وهم كذلك في رأيهم - فنحن شر من الحمير ، بينما هم الأذل والأوضع . ونحن أصحاب العقل الواعي الذين يدركون الأخطار الذي يقودنا إليه محمد بن عبد الله .

- مخشن بن حمير : (والله لو ددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإننا ننفلت أن يتزول فيما قرآن لمقاتلكم) .

واوضح أن رباعهم مومن بصدق محمد ، ومومن أن هذا الاجتماع سيكشف ويود أن يجلد مائة جلدة ولا يفضح بأية من كتاب الله .

هذا الاجتماع السرى حضره مسلم صغير لما ينchez البلوغ ، ولم يلتقط إليه الحالسون ، أو يعبروه أهمية ، وهو يتيم في حجر الجلاس بن سويد زوج أمه . هذا اليتيم يمثل الأصالة الإسلامية للجيل الجديد الذى نشا على الإسلام ، فقال لريبيه الجلاس :

(يا جلاس ، قد كنت أحب الناس إلى ، وأحسنهم عندي أثراً ، وأعزهم علىَّ أن يدخل عليه شيء نكرهه . والله لقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحك ، ولئن كتمتها لأهلكن ، وإن داهماً هون علىَّ من الأخرى) ، وهو يهم أن يمضي إلى رسول الله ﷺ ليعلم بما قال زوج أمه ورفاقه .

إن الصورة تتكرر كما بربرت قبل خمس سنوات في غزوة بنى المصطلق عندما أعلن عبد الله بن أبي حربه على الإسلام والمسلمين ، وختمتها بقوله : لئن عدنا إلى المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقام زيد بن أرقم ، ونقل تفصيلات الحرب كلها لرسول الله ﷺ ، وجاء القرآن الكريم بصدق الغلام الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « لقد صدق أذنا هذا الغلام ، وفصح ابن أبي » ، لكن الحقد كان أكبر عنده من الاستسلام ، فتابع مسيرته ، وهذه المجموعة من ثماره المرة التى زرعها فى الجيش الإسلامي .

ولم يكن الأمر بحاجة ليمضى غلامنا الجديد إلى رسول الله ﷺ ، فقد ضبطوا بالجمل المشهود من عمار بن ياسر الذى أوفده رسول الله ﷺ ليحضر معهم خلوتهم ، ويخبرهم بما قالوا بالتفصيل ، فقد كانت التعليمات النبوية : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم مما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، فقد قلتم كذا وكذا » ونفذت التعليمات بدقة ، وما ندرى هل أنكروا ابتداءً أن يكونوا قالوا شيئاً فجوبهوا بكلام الله تعالى فيهم ، أم أقروا منذ اللحظة الأولى للسؤال ؛ لكنهم مضوا مع عمار إلى رسول الله ﷺ يعتذرون ، وكان عندهم ثلاثة الأول ، أنه مزاح لا جد ، وهم لا يعنون ما يقولون ، بينما كان عندهم مخشن بن حمير رابعهم : (يا رسول الله قعد بي اسمى واسم أبي) فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن أو عبد الله .

وصدر التقرير الربانى من رب السموات والأرض بنتيجة هذه المحاكمة :

﴿ يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَهِّمُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ أَسْتَهْزِئُ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذِرُونَ (٦٥) وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآبَائِهِ وَرَسُولِهِ كُنُّنَا تَسْتَهْزِئُونَ (٦٦) ﴾ [التوبه] .

وصدر العفو عن واحد من المجرمين ، بينما أدين الباقون ودمعوا بالكفر والإجرام .

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذَّبْ طَائِفَةٌ بِإِيمَانِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٧) ﴾ [التوبه] .

في الحجر :

وصل الجيش الإسلامي للحجر ، وللقوم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُغَرِّضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِينَ (٨٢) فَأَخَذْتُهُمُ الصِّيَحَةَ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ [الحجر] .

وهذه الصيحة يحدثنا القرآن الكريم عنها فى سورة أخرى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٤١) فَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخْذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظَرُونَ ﴾ ٤٢﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴾ (٤٣) ﴿ النَّارِيَاتِ ﴾ .

ويحدثنا رسول الله ﷺ بقوله: «... فعقروها فأوعدوا ثلاثة ، وكان وعد الله غير مكذوب ، فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق أحد منهم تحت أديم السماء إلا هلك ، إلا رجل في الحرم منعه الحرم من عذاب الله ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » (١) .

ولا يعرف المسلمون توجيهات معينة للتعامل مع ديار هؤلاء القوم المعدين فلا أول مرة يتعرضون لهذا الموقف ، أما رسول الله ﷺ (لما مر بالحجر تقنع برداه وهو على الرحل ، فاضطر راحله حتى خلَّفَ آيات ثمود) بينما تصرف المسلمين تصرفاً عادياً (ولما نزل هناك سارع الناس إلى الحجر يدخلون عليهم ، واستنقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا ونصبوا القدور باللحم) كما هو الحال اليوم في زيارة الآثار للأمم البائدة حيث يتجمش الناس السفر من أقصى الأرض ليروها ويستمتعوا بجمالها ويعجبوا بقوة أهلها وعقربيتهم في البناء ، وأصبح هذا الأمر رسالة عالمية يجمع عليها الناس في أهميتها ، بل غدت مورد رزق للدول الحديثة تدر عليها أرباحاً طائلة ولها وزارات خاصة هي وزارات السياحة ، ومعروف أن هذه الأمم التي بادت معظمها كانت أمماً وثنية كافرة مشركة بالله عز وجل ، والكثير منها نزل بها عذاب الله كما ذكر القرآن الكريم ، وقد قال الله تعالى عن قوم ثمود خاصة أنهم : « كَانُوا يَنْتَهُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيْوَاتًا آثَمِينَ ﴾ (٨٢) ﴿ [الحجر] ، وقال: « وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خَلْفَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَآكُمْ فِي الْأَرْضِ تَشَدِّلُونَ مِنْ سَهْلِهَا قُصُورًا وَتَنْتَهُونَ الْجِبَالَ بَيْوَاتًا فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٧٤) .

[الأعراف]

فالآدميَّة اليوم ؛ المسلمين منهم وغيرهم يتباهون بأنَّهيار الأمم الذين ظلموا أنفسهم ، ويدعون السواح من كل مكان لزيارتهم ، هذا الوضع العادي الذي تصرف به المسلمين مع قوم صالح ، استدعى أن يصدر النداء للMuslimين جميعاً ، للثلاثين الفاً تحت عنوان : الصلاة جامعَة ، وما ينادي بالصلاحة جامعَة إلا لأمر هام ، خاصة عندما يكون ذلك في غير وقت صلاة ، وهذا يعني أن تعليمات هامة ستبلغ للمسلمين .

(فنودي في الناس الصلاة جامعَة ، فلما اجتمعوا قال رسول الله ﷺ :

« لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيغكم ما أصابهم ،

(١) مسند الإمام أحمد ٢٩٤ / ٣

ولا تشربوا من مائها ، ولا تتوضؤوا منه للصلوة ، واعلفو العجين للإبل ٤ .

إنها تربية جديدة لهذه الأمة على التعامل مع الأمم التي أهلكها الله ، وأثارها الباقي ، ومنهج جديد لهذه القاعدة الغريبة كلها محددة في أربع تعميمات قاسية على النفس ؛ لتدرب هذه النفس على أن تنفطم عن الهوى . وهذه التعميمات هي :

١ - لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصييكم ما أصابهم ٥ .

فلا بد من الخضوع والتذلل لله والخوف من عذابه وعقابه الذي يرافقه البكاء حتى لا يصييما ما أصاب الأمم السالفة قبلنا . إنها بعث للحدث من جديد ، وكأنما القوم الساعة قد أخذتهم الصيحة بحيث يأخذ الرعب بكل الأفتدة من هول العقوبة الربانية ، ولنictصنع المرأة البكاء حين يعجز عن البكاء العادي ، فإن لم يكن باكيًا فمتباكيًا ومتصنعاً البكاء ، لا بد من استجاشة هذه الأحساس بحيث يمر المرء مسرعاً خائفاً وجلاً باكيًا ، وهذا غير أن يدخل ضاحكاً لا هيأياً مستمتعاً ، يتصور عند أصنامهم ، ويتناول أشهر المأكولات في مطاععهم ، وكأنما القوم من أولياء الله يتقدّب بالحياة معهم وبجوارهم ، ويستأنس بقريهم ، فالدخول حسراً لا بد من مرافقته البكاء أو البكاكى والسرعة ، والخوف من الأعماق لا يصييما ما أصابهم ٦ .

٢ - لا تشربوا من مائها « فلا يمكن التعايش أو المعيشة مع هؤلاء - على الإطلاق - ورغم الحاجة الماسة للجيش الإسلامي للماء - وقد ذُبحوا عطشاً - فلا إذن في الشرب من ماء هؤلاء القوم ، وذلك مثل تجربة طالوت لقومه : « إِنَّ اللَّهَ مُتَلِّكُ بَنَهْرٍ فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَلَيَسْ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبَهُ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا » [البرة: ٢٤٩] ، فلقد سقطوا في الامتحان ، لكننا لم نسمع أحداً من المسلمين أنه رسب في الامتحان بعد إصدار التعميمات النبوية المطلوبة ٧ .

٣ - وإذا كان العطش قد ذبح الجيش ، فالجوع قد قتله ، وما هي قدور اللحم تنصب وما هو العجين يخمر ليتم تناول الخبز الشهي ، فإذا بالأوامر تصدر بمنع تناول الخبز ، وإعلاف العجين الذي عجن بهم الذين ظلموا أنفسهم للإبل ، وبحظر تناوله أو أكله - وهي تربية ثالثة وتجربة ثالثة لهذا الجيل المفرد في التاريخ ، ومقارنة هذه التربية مع تربية الجيل القيادي في الحديبية نلاحظ أنها تسير على نفس النسق ، لكن بصورة أخف مما كانت عليه عند أهل بيعة الرضوان ٨ .

فرأينا هنا فطم النفس عن شهوة الجنس من خلال تحريم نكاح المتعة ، وفطم النفس عن شهوة الطعام من خلال إكفاء القدر التي تغور باللحم ، بعد تحريم الحمر

الأهلية ، وفطم النفس عن شهوة الثأر حين مضى رسول الله ﷺ في الصلح مع قريش ، إنها تجرب أشد من تجارب اليوم ؛ لأن مهمته الجيل القيادي في بدر والحدبية هي أعظم من مهمة هذا الجيل ، ولكنه يمضى على النسق نفسه ، فهو لاءُ الثلاثون الفاً لم يحرموا من الماء ؛ لأنهم مضوا بعد ذلك للعين التي كانت تردها الناقة فشربوا منها ، كما أن الأوامر صدرت لهم بعد الشرب بعد أن شرب قسم منهم من مياه الحجر ، وإعلاف العجين للإبل لم يرافقه إكفاء قدور اللحم ، ثم كانت التربية التوجيهية الثابتة في الحجر ، والتي تم تبليغها لل المسلمين جميعاً هي لا يسألوا الله تعالى الآيات حتى لا يهلكوا كما هلك الذين من قبلهم حين لم يؤمنوا « سأّلوا نبيهم أن تبعث آية ، فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد هذا الفجع ، وتصدر من هذا الفجع ، فعتوا عن أمر ربهم وعقروها وقالوا : « فَأَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » [الاعراف: ٧٦] ، فأخذتهم صيحة أحمد الله تعالى من تحت أديم الأرض منهم .

وطلب الآيات الذي ينهى عنه رسول الله ﷺ هو توقيف الإيمان عليها ، فلا يدرؤون أيمونن بعدها أم لا ، أما طلب بركته عليه الصلاة والسلام وطلب الاستسقاء منه ﷺ ، فلا يدخل في هذا الحظر . وهو ما مستناوله فيما بعد .

« وَمَا مَنَّعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبُوهَا أَوْلُونَ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبَصِّرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَغْوِيْفًا » [الإسراء: ٤٩] . وكانت معجزة القرآن الحالدة أبد الدهور كافية لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، وبعد هذا التحذير النبوى ، يأتي الإلحاد النبوى بالبعد عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم بقوله عليه الصلاة والسلام : « مَا تَدْخَلُونَ عَلَى قَوْمٍ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ? » .

فكان جواب ذلك الصحابى الذى يود كل المسلمين اليوم أن ينطقوا به هو الموعظة والتعجب والإعجاب (فناداه رجل منهم : نعجب منهم) . ووجه رسول الله ﷺ للأمة كلها لبناء ذاتها ، وصياغة نفسها صياغة ذاتية ، لترى أن أعظم هدية قدمت للبشرية ، وأعجب ما أهديتها البشرية هو هذا النبي سيد الأولين والآخرين ، والذي يفكرون فيه لا تنقضى عجائبه ، ولا تدرك عظمته ، ولا يعرف كنته ، هو خيرة الله وصفاته من خلقه ، « أَلَا أَنْبَثْكُمْ بِأَعْجَبِ مِنْ ذَلِكَ ? رَجُلٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ فِينِبْثَكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَمَا هُوَ كَائِنُ بَعْدَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا » . وما في هذا الدين من أسرار ، وما في هذا النبي من عظمة وآيات بینات يشغل المسلمين عن كل ما على هذه البسيطة من آيات ومعجزات ، وهل لهم أن يتعرفوا على قدر رسول الله ﷺ عند ربه ، وهو من العرب أنفسهم نشاً في نفس بيتهما وجاهليتهما ، وظلماتهما « لِتُغْرِيَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

صِرَاطُ الْغَرِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَلِيلُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) [ابراهيم].

٤ - وبعد أن نفذوا الأوامر النبوية وتوقفوا عن الشرب - مع شدة عطشهم - من عيون وأبار الذين ظلموا أنفسهم ، وكلفوا بمتابعة السير في هذا الظما القاتل ، وليس في هذه الصحراء إلا السماء المحرقه والأرض المتهبه ، والأجوف المحترقة على قطرة ماء ، فماذا يفعلون أمام هذا الظما ، حتى ليحسوا أنهم إلى الموت أقرب منهم إلى الحياة ؟ فلنجا بعضهم - وقد نفذ صبره من العطش - إلى أن يذيع جمله (وأصابنا فيه عطش حتى ظتنا أن رقابنا ستقطع ، حتى أن الرجل يذهب يتلمس الرجل فلا يرجع ، حتى يظن أن رقبته ستقطع حتى أن كان الرجل لينحر بغيره ، فيعصر فرثه ، فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده) . هذا حزب الله وجيش الله يوشك على الهلاك ، فيتحرك الرجل الأول في الأمة أبو بكر الصديق لإنقاذ هذا الجيش من الفناء. ليس هناك عمال ، ولا آبار ارتوازية ، ولا هواتف إلى المدينة لإيصال قوافل المياه ، ولا بد أن تخل هذه القضية مع سيد ولد آدم ، وقائد الجيش محمد بن أبي بكر وذلك من خلال هاتف ربانى إلى رب السموات والأرض من عبد الله ورسوله ، فهو السلطان الأعلى في السموات والأرض لإنقاذ هذا الجيش من الهلاك ؛ هذا الجيش الذي يمثل خيرة الخلق في هذه الأرض .

ما هو هذا الهاتف الرباني ، الذي يعرف الصديق رقمه ، ولا يتم الاتصال به إلا عن طريق القائد الأعلى للجيش ؟ ! (فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله عودك في الدعاء خيراً ، فادع الله تعالى لنا ؟ قال : « أتحب ذلك ؟ » قال : « نعم » فهو قرار مشترك من القائد الأعظم ونائبه ، وهو الأخذ بشوراه من أجل إرسال هذا الهاتف إلى الله سبحانه .

(فرفع يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظللت ثم سكت فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكرية) هكذا بدون حاملة طائرات ولا طائرات عمودية ، إنما بأوامر وجهت من رب السموات والأرض ، أن جيشه في مكان كذا ، وعلى السماء أن تطر في مكان كذا حيث صدرت الأوامر الربانية إلى ميكائيل ، فأصدر أوامره بعد أن عرف من ربه (بالرادار السماوي) مكان وجود الجيش ، ونزل المدد لهؤلاء الثلاثين ألفاً دون أن يغادر العسكرية قطرة واحدة ، وأحسن الجيش كله بعظمة النعمة وعظمة الهاتف النبوى لجبار السموات والأرض ، ومدى حب رب له ، والصلة المباشرة بين عبد الله ورسوله وبين رب الآرباب أدرك الجيش كله ذلك ، وازداد إيماناً على إيمانه ، وانسكب اليقين في قلبه ، وقربة ثلثي الجيش يشهد لأول مرة هذه الصلة بالله رب

العلميين ، فيومن أنه مع رسول رب العالمين الذى ابتعثه خلقه وهو على صلة به فى الليل والنهار يدعوه فيجيئه ، لكن بعض العتاولة الغلاظ الأكباد الذين يعيشون مع رسول الله ﷺ منذ ثمانى سنوات ، وقد ملاً كيانهم بغض رسول الله ، وحب عبد الله بن أبي ، لم يستطع أن يخفى وجهه الكالح ، وانتقامه لحزب أعداء الله - حزب المنافقين - فسأله : أبعد هذا شىء ؟

فأخرج له بطاقة انتقامه للحزب الكافر . قال :

سحابة مارة فامطرت أو قال : (إنما أمرنا بنوء كذا) ، وأنزل الله تعالى قوله فيه : **﴿وَتَجْعَلُنَّ رِزْقَكُمْ أَكْمَمْ تَكْلِيْبُونَ﴾** [الواقعة : ٤٢] .

٥ - ويريد الله تعالى أن يكشف المدسوسين جميماً في الصف الإسلامي ، فقد كشف بعضهم يوم التقوا لقاءهم السرى ، وحسبوا أن نجواهم لن يطلع عليها أحد ، وفاتهـم أنه **﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَقْتَرَ إِلَّا هُوَ مَعْهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ...﴾** [المجادلة : ٧] .

وتم كشف هذا العمـيل الجـديد بعد هـطول الغـيث العـيم ، وارتـواه العـسـكر بالـماء الزـلال ، وكانت هذه المناسبـة الثالثـة لكـشف بـقـية الـخـيوـط المـختـبـة داخل الصـف الإـسـلامـي ، ولـها مـهـمـات متـعدـدة سـوف يـنكـشـف جـانـبـها فـيـما بـعـد .

كـانـتـهـذهـالـقضـيـةـهـىـضـلـالـنـاقـةـالـنـبـىـ**ﷺ**ـ،ـوـحدـثـمـثـلـهـذـاـيـتـنـاقـلـهـالـعـسـكـرـمـثـلـ

حدـثـالـغـيـثـالـذـىـنـالـكـلـفـرـفـيـهـ،ـفـماـيـخـصـالـقـيـادـةـيـسـرـىـالـنـارـفـىـالـهـشـيمـ،ـ

وـالـسـلـمـونـالـصـادـقـونـجـمـيـعاـيـعـرـفـونـأـنـمـحـمـدـأـهـوـعـبـدـوـلـيـسـيـإـلـهـ،ـوـسـوـفـيـعـلـمـهـرـيـهـ

عـنـهـإـنـشـاءـوـفـىـأـىـلـحظـةـ،ـلـكـنـهـالـفـرـصـةـالـمـنـاسـبـةـلـاـصـطـيـادـالـعـلـمـاءـوـضـعـافـالـإـيمـانـ،ـ

وـوـجـدـرـيـدـبـنـالـلـصـيـتـفـرـصـتـهـالـمـوـاتـيـةـلـبـثـالـسـمـفـيـمـحـولـهـ،ـوـإـعـلـانـكـفـرـهـبـقـوـلـهـ:

مـحـمـدـيـزـعـمـأـنـنـبـىـوـيـخـبـرـكـمـبـأـمـرـالـسـمـاءـوـهـوـلـاـيـدـرـىـأـيـنـنـاقـتـهـ.

فـهـوـلـاـيـكـنـفـيـتـبـكـاتـةـالـتـقـارـيرـأـوـحـفـظـهـاـفـىـعـقـلـهـ،ـبـلـلـاـبـدـأـنـيـثـالـإـشـاعـاتـ

داـخـلـالـصـفـ،ـوـيـزـعـعـمـإـيمـانـمـنـحـولـهـ،ـوـهـذـهـمـهـمـةـرـئـيـسـيـةـمـنـمـهـمـاتـهـ.

﴿لَوْخَرَجُوا فِيْكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَيْلًا وَلَا وَضَعْوًا خِلَالَكُمْ يَغُوْنُكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيْكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [٤٧] لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر

أمر الله وهم كارهون **﴿أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾** [٤٨] [التوبه] .

وـهـاـهـوـهـذـاـيـنـفـذـمـاـقـالـالـلـهـتـعـالـىـفـيـهـ:ـ**﴿وَلَا وَضَعْوًا خِلَالَكُمْ يَغُوْنُكُمُ الْفِتْنَةَ﴾** .

فرد واحد يقول كلمته في رحل عمارة بن حزم بين الثلاثين ألفاً من المسلمين ، يتزلزل الوحي الرباني لفضحه وللقبض عليه في الجرم المشهود ، فهذا عمارة بن حزم عند رسول الله ﷺ ينهل من علمه ، ويتربي على سلوكه ، وينعم بالنظر إليه ، ولا يصدق قلبه أنه بجوار حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ها هو يصنف إلى قول رسوله الحبيب :

«إن منافقاً قال: محمد يزعم أنه نبي وهو يخبركم بأمر السماء ولا يدرى أين ناقته».

وبناء العقيدة عند رسول الله ﷺ هو الهدف الرئيسي ، وليس الفخر أو التعالي أو التكبر على عباد الله ، وما هو يعلن عليه الصلاة والسلام على هذا الجيش الذي كاد يفتت بالمعجزة أنه عبد لله عز وجل لا يعلم إلا ما علمه : «وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ فَقِيبًا لَا سَكُونَتْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنَّ السُّوءَ» [الاعراف : ١٨٨] ، «وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلِمْنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» [الانعام : ٥٩] .

فهذه الكتاب الإسلامية الضخمة التي كان الكثير منها يعبد الأوثان والأصنام وهي لا تضر ولا تنفع ، فكيف بها الآن وهي ترى بشراً مثلها يستدعي السحاب فيغيث عشرات الآلوف منها ، فقد تفتقن فيه ، وتعبدوه من دون الله ، فلابد من الفصل والتبيان لهذه الجماعات أنه الغيب بيد الله «وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» [الانعام : ٥٩] ، وبعد رسوخ هذه العقيدة يأتي الجواب لهذا المنافق الدجال :

«وَقَدْ دَلَّنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا ، وَهِيَ فِي الْوَادِي فِي شَعْبِ كَذَا وَكَذَا - لِشَعْبِ أَشَارَ لَهُمْ إِلَيْهِ - حَبَسْتَهَا شَجَرَةً بِزَمَانِهَا ، فَانطَلَقُوا حَتَّى تَأْتُونِي بِهَا» فذهبوا فجاؤوا بها .

ومضى عمارة بن حزم ثانية موقف الشمار بهذه المعجزة التي رأها بأم عينيه ، ومضى إلى رحله يقص على أهله وولده وإخوانه ما قاله رسول الله ﷺ عن هذا المجرم الأفاك الذى يشكك بنبوة محمد ﷺ وهو جندى فى جيشه ، وكيف أعلم الله تعالى نبيه بمكان ناقته ، وجاؤوا بها على ما وصفها به رسول الله ، لكن المواجهة التي أذهلت وكادت تشله أن هذا المنافق هو رفيق دربه من المدينة وقيمه وأكيله وشربيه . هو زيد بن اللصيت الذى أشفق عليه وحمله من المدينة ، فقد قال له أخوه عمرو بن حزم : زيد والله هو القائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا .

إنه الإعلام الرباني بالتو واللحظة عن طريق وحي الله لكلمة زيد ، وكاد عمارة يجن جنونه ، وقد رأى المعجزة بعينيه ، والمنافق بعينيه (فأقبل عمارة على زيد يجاوز عنقه : إن في رحلى داهية ولا أشعر ، اخرج يا عدو الله ولا تصحبني ، وكان هذا من تمام المعجزة أن يكون عمارة عند رسول الله ﷺ وبأيادي ليلى القائل فى رحله فيطرده من خيمته ، أما أين مضى زيد ؟ وأين اندرس ؟ وهل غيرت المعجزة قناعاته أم زادته شرًا على شره ؟ فالله

أعلم أيما ذلك كان ؛ لأن النصوص التي بين أيدينا لا تسعفنا عنه بجديد .

٦ - وبعقار ما يشرئب النفاق ، ويزر من خلال مثله ، فنرى الإيمان يشرئب ويزر في هذه الكتائب العظيمة فقد حانت وقت صلاة الفجر ، وخرج رسول الله ﷺ حاجته معه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وقد علمنا في رفقته تلك مع النبي ﷺ حكم المسح على الحفين حيث لم يتزعمهما عليه الصلاة والسلام لأنه أدخلهما طاهرين ، ولكن الأهم من هذا أن المسلمين جميعاً كانوا في قلق شديد فقد أسرى الفجر ولم يُقدم رسول الله ﷺ من حاجته ، وتربوا في هذه المدرسة النبوية على أن ﴿الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء] ، فمهما كان مقام النبوة فلا تفوّت الصلاة من أجل هذا المقام وهذه الإمامة ، ويدرك هذا الأمر خاصة الجيل الأول من السابقين الأولين ، وطال الانتظار وتأخر النبي ﷺ ، وتبقي إقامة الصلاة في عنق هذا الجيل خاصة ، فانتفقوا وقدموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إماماً عليهم وهو أحد العشرة المبشرين ، لكن المحنة كانت يوم قدم رسول الله ﷺ ، ورأى أصحابه وتلامذته قد وعوا درس الصلاة وأهميتها وأقاموها بغيابه حتى لا يفوتهم الوقت ، إنما المشكلة فماذا يفعل هذا الجندي وقد حضر قائده وهو في الصلاة ؟ وعاش الجيش كله حين رأى قائده في قلق عن التصرف المناسب ، لكن رسول الله ﷺ حسم الأمر وأشار إلى عبد الرحمن رضي الله عنه أن يستمر في إمامته ، ثم أخذ رسول الله ﷺ موقعه بين جنوده واقتدى بجنديه عبد الرحمن بن عوف ، ثم قام فأتم ما فاته ، ولم يتسع عقل المسلمين إلى أن يقتدى سيد ولد آدم بجندى من جنوده ، لكنه القدر المخباً لهذا الجندي العظيم عبد الرحمن بن عوف « أنه لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمه » وتكررت هذه السنة في الأنبياء جميعاً ، وكان قدر الله مع نبيه المصطفى ﷺ أن يكون هو الرجل الصالح الذي اختاره رب السموات والأرض ليوم نبيه ، وليهنك يا عبد الرحمن هذا الشرف العظيم المذكور لك في غيب الله .

٧ - وحيث إن الجيش الإسلامي يمثل المجتمع كله بكل طبقاته وفئاته ، فقد شهدنا نموذجاً من النفاق ، وشهدنا نموذجاً من الإيمان ولا بد أن نشهد نموذجاً من الناس العاديين الذين يختلفون فيما بينهم على النافه من الأمور ، ولا يضطرون أعصاهم ، فينفلتون على سجيتهم وذلك من خلال الحديث الذي رواه يعلى بن أمية رضي الله عنه حين تنازع أجيره مع رجل من العسكر ، فغضبه الرجل ، فانتزع الأجير يده ، وانتزع مع يده ثيـةـ الرجل ، هذا هو المجتمع على طبيعته بكل مستوياته والإسلام جاء ليحكم كل هذه المستويات وليس خاصاً بالمستويات العليا من الأمة ، وحكم رسول الله ﷺ بالأمر بأن أهدر ثيـةـ الرجل لأنه هو الذي أقدم على عض أخيه ، ولن يصبر المعرض على هذا الألم فيدفع الألم عنه بتنزع يده ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « أفيدع يده في فيك تقضمها كأنها في فم فحل يقضيها » ومع هذا الإهدار ، فقد كان جانب التربة بجوار العقرة . فأشعار

هذا العاكس أن هذا العمل هو عمل الإبل وليس عمل الأدميين . هو تنفير له من معاودة مثل هذه الخطية ، إضافة إلى ما عاناه من سقوط ثنيته .

٨ - وانطلاقاً من هذه القاعدة، في أن الأمة كلها هي في هذا الجيش بجميع مستوياتها وليست النخبة فقط ، لكنها تعد لتكون النخبة بعد أن يدخل العرب جميعاً في دين الله ، وسيكون مقام تشريفها أنها تلقت التربية النبوية لمدة شهرين بمرافقة النبي ﷺ ، بينما لم يتع لغيرها أكثر من لقاء أو لقاءين ، نستمع إلى حديث سهيل بن بيضاء رضي الله عنه ، وقد أردفه رسول الله ﷺ على رحله ؛ لهدف تربوي واضح في ذهن المصطفى صلوات الله عليه ، فهو إضافة إلى تعليم الأمة التواضع والحمد من كبراء الأمراء والملوك . وبَيْتَ ذلك الفارق بين الأمير والسوقة ، فهناك هدف تعليمي آخر يحدثنا عنه سهيل رضي الله عنه (قال سهيل : ورفع رسول الله ﷺ صوته : « يا سهيل » ، كل ذلك يقول : يا ليك يا رسول الله ، ثلاث مرات) فسهيل خلف رسول الله ، وما كان من خلق المصطفى ﷺ رفع صوته ، فيمكن أن يسمع سهيل بأخفض صوت ممكن ، ويجب سهيل بسرعة تأكيداً لسماعه : يا ليك يا رسول الله ، لكن النداء يتكرر والصوت يرتفع مرة ثانية ، فإذاً هنا شيء غير عادي وغير مألوف ، يثير انتباه الصحابة إلى أمر يريد المصطفى ﷺ ، وهذا هو يعيد النداء ثالثة : « يا سهيل » بصوت عال مرتفع . فأدرك الناس أن رسول الله يريد أن يسمعهم شيئاً عاماً ، فالتفوا حوله (فاثنى الناس من أمامه ، ولحقه من خلفه من الناس . وعندما أطمان عليه الصلاة والسلام إلى هذه المجموعة حوله قال :

« من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، حرّم الله على النار » .

ومضى كل واحد من سمع هذا من فم رسول الله ﷺ يبشر بها إخوانه وأهله وأقربائه . نلاحظ أن الخطة اختلفت هنا عما كانت مع معاذ بن جبل رضي الله عنه يوم قال له ذلك رسول الله ﷺ .

(فقد أخرج مسلم عن أنس بن مالك قال ؛ أن النبي ﷺ ومعاذ بن جبل رديفة على الرحل قال : « يا معاذ » قال : ليك يا رسول الله وسعديك . قال : « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا حرّم الله على النار » .

قال : يا رسول الله ، أفلأ أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : « إذاً يتكلوا » . فأخبر بها معاذ عند موته تائماً (١) (٢) .

(١) تائماً : خشى أن يكتس شيئاً علمه رسول الله ﷺ ليه فيائم .

(٢) مسلم ٦١ / ٥٣ ح (٣٢) .

فالمخطة هنا لرديف رسول الله ﷺ معاذ هي : أن تبقى خاصة به ، ولا يبشر بها الناس حتى لا يتتكلوا . بينما المخطة هناك لرديف رسول الله ﷺ سهيل بن بيضاء هي أن يعرف بها أكبر عدد ممكن من صحبة ، ولم يمنعهم من نشرها وإبلاغها لإخوانه .

والهدف هنا هو تثبيت الوحدانية في قلوب هذه الألوف المؤلفة ودعوة الناس إلى نبذ الأصنام والأوثان ، وإخلاص العبودية لله ، وهؤلاء الذين انضموا إلى الإسلام حديثاً بهذه الأعداد الكبيرة لابد أن يُركز فيهم على العقيدة وبلورتها في نفوسهم ، والخلص من براثن الشرك ، وأثار الوثنية . وقد انتهت عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا المجال إلى رأي جمعت فيه بين الأحاديث ، حيث فسرت النار هنا بinar الخلود ، أي بمعنى : لا يخلد في النار من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وسنجد العودة ثانية من رسول الله ﷺ إلى هذا الأمر في الغزوة نفسها في طريق العودة من تبوك . بأسلوب تربوي آخر .

٩ - هذه البشارة العظيمة التي تناقلها أفراد الجيش كله ، وراحوا ينقلونها لبعضهم فرحين بها راقتها بشاراة أخرى في رفع معنويات هذا الجيش ، وتوجيهه لمسؤوليته الكبرى في الأمم ، وذلك بعد الحديث عن هلاك أمّة ثمود ، وبمناسبة المرور من الحجر ، وذلك عندما سمعوا الحادى في الليل يحدوا الإبل فقال رسول الله ﷺ : « أسرعوا بنا نلحقه » ، ورسول الله ﷺ يقول : « من الحادى . منكم أو من غيركم ؟ » قالوا : بلى ، من غيرنا ، فأدركه رسول الله ﷺ فإذا جماعة ، قال : « من القوم ؟ » قالوا : من مصر . قال رسول الله ﷺ : « وأنا من مصر » فانتسب حتى بلغ مصر ، قال القوم : نحن أول من حدا بالإبل ...) إلى آخر القصة وسعد المسلمين وأكثرهم من مصر بهذا الانتساب النبوى ، ويقصة حداء الإبل من الغلام الذي كسرت يده وراح يصرخ : وايداه ، وايداه ، وراحت الإبل تجتمع على صوته .

كل هذه المقدمات وقلوب المسلمين تتحقق ، وقد أخذتهم روعة القصة ، وهم مشدودو الانتباه إليها ، وحياتهم المصطفى يصفي إليها معهم ، وفي هذه اللحظات التي تعلقت الأنوار والأبصار والقلوب بسماع القصة الشيقـة جاء السؤال النبوى الذي هو الهدف الرئيسي من كل هذه المقدمات .

(وقال رسول الله ﷺ : « ألا أبشركم ؟ » . قالوا : بلـى يا رسول الله ، وهو يسرون على رواحلهم) . ونسى القوم قصة الإبل وحدائـها ، واتجهوا بكينونتهم إلى رسول الله ﷺ ينتظرون البشارة النبوـية التي جاءت بصيغـة سؤـال ، تشـاق القلوب وتحـقق لـسماع جوابـه .

فماذا كانت البشرة ؟

« فقال : إن الله أعطاني الكترين فارس والروم » .

وهم ماضون الآن إلى لقاء الروم ، وفي قلوب المنافقين الرعب من هذا المسير كما وصفه رب العزة جل جلاله : « وَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُنُوا وَمَا هُمْ مِنْ كُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَقْرَفُونَ [٥٦] لَوْ يَجِدُونَ مُلْجَأً أَوْ مَقَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ [٥٧] » [التوبية] . وقد عبروا عن هذا الرعب والخوف بقول سيدهم الجد بن قيس في المدينة : والله ما آمن خوفاً من بني الأصفر ، وإنى في متزلي بخربى ، فاذهب إليهم فاغزوهم !

وهو يمثل نفسية العرب قبل أن يكرهم الله بهذا الدين ، فما طمع أى زعيم عربي مهما انقادت له القبائل أن يغزو الروم أو يغزو الفرس ، وأقصى ما حفظ في تاريخ العرب من بطولات ، أنهم دافعوا بشرف عن أنفسهم خوفاً من الذلة والعار ، بل كان من ينشد الزعامة في العرب يضى إلى الروم أو الفرس ، فباتى بجيشه منهم ليتصدر به على خصومه ، ويوضع التاج على مفرقه ، وهذا تاريخ العروبة كله بصفحاته المفتوحة كاملة ، فليس فيها أن يفكر أحد مجرد تفكير - بله أن ينفذ - في غزو الروم .

ومثل هذه الصورة من الخوف كذلك جواب السيد الأكبر للمنافقين عبد الله بن أبي يوم انخذل بحزبه عن رسول الله ﷺ من ثيبة الوداع ، وانخس في جحره قائلاً :

(يغزو محمد بن الأصفر ، مع جهد الحال والخر والبلد البعيد ، إلى ما لا قبل له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب ؟ والله لكتأى أنظر إلى أصحابه عدماً مقرنين في الحال) ، إرجاها برسول الله ﷺ وأصحابه .

وهو هو جواب العلماء الموسسين في الصف والذين قالوا في اجتماعهم السرى الذي شهدته ملائكة رب العزة جل جلاله : (تخسون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكتأنا بكم عدماً مقرنين في الحال) .

فهم مهزومون نفسياً ، والفرق والخوف يقطع قلوبهم ، وحقّ لمن لم يذق طعم الإيذان أن يحس بهذه الأحساس ويركبها هذا الرعب ، فمن ذا الذي يفكر بمواجهة الروم وهم ملوك الأرض وقد هزموا ملوك الفرس وانتصروا عليهم ، إن أقصى ما يطمع به زعيم عربي أن تدين له مصر ، أو تدين له قيس أو نزار أو عدنان ، وإذا كان من ملوك الجنوب أن تدين له حمير أو همدان أو مذحج أو زيد أو غيرها .

أما أن يفكر بغزو ملوك الأرض ، فهذا ما لم تشهده هذه الأمة إلا على يد بانيها محمد ﷺ ، وقد عبا النفوس كلها لمواجهة بني الأصفر وها هو يعدهم الآن بأن بني الأصفر ، وملوك الفرس سوف تفتح كنوزهما لرسول الله ﷺ ! إن الله أعطاني الكترين

«... وأمدني بالملوك ملوك حمير، يجاهدون في سبيل الله ، ويأكلون في الله ». .

فاجتاز الإسلامي اليوم معظم من مصر ، ومعظم من عدنان . وبهؤلاء الثلاثين ألفاً مضى رسول الله ﷺ يغزو الروم ، ولن يفتح كنزهم إلا بالجهاد في سبيل الله ، وعلى المسلمين أن يعدوا أنفسهم لهذه المواجهة ، لكن البشرة الثانية هي أنهم لن يكونوا وحدهم في الساحة ، فسيكون معهم ملوك حمير، هؤلاء سينضمون لهذا الدين ويدخلون فيه ، ويأتون مددًا لإخوانهم المجاهدين في سبيل الله ، والماضين اليوم إلى تبوك وهم العصبة المؤمنة في الأرض ، لقد كانت هذه العصبة ثلاثة في بدر وقال يومها رسول الله ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فإن تشا لا تعبد في الأرض » ، وهذا هي الآن تبلغ أضعاف بدر مائة مرة ، وهي العصابة المؤمنة في الأرض ، وإذا كانت العصابة الأولى قد فرحت بنصر الروم الذي جاء خبره مع أعقاب بدر فهي تمضي اليوم إلى غزو الروم ، وستكبر هذه العصابة وستنمو وتزداد حتى يكون من أتباعها وأبنائها ملوك حمير الذين يجاهدون في سبيل الله ، ويأكلون في الله ، ويا سعادة هذا الجيل الذي يعيش مع رسول رب العالمين ، وهو يرى المعجزة تلو المعجزة تتحقق ، وهو من الذين أسعدهم الله أن يكونوا من المجاهدين في سبيل هذا الدين ونشره ، وهو شرف كبير لهم أن يتموا إلى الله تعالى ، ويكون قائدتهم ومربيهم سيد ولد آدم ، وكل فرد في هذه الكتاب العظيم يحرص على كل كلمة ، وكل توجيه ، ويستمع لكل خبر ، ولكل حدث ، فهو سوف يعود إلى قومه ويخبرهم بكل ما سمع ، وبكل ما رأى ، وبكل ما تعلم ، فيكون هو رسول رسول رب العالمين إلى قومه .

١٠ - ولا تنتهي هذه المرحلة من الرحلة إلا بالبشرة الثالثة التي عرفها المؤمنون في كتاب الله ، وهو هم يرونها بأم أعينهم ، عرروا أن رسول الله ﷺ ، قد استمع إليه نفر من الجن ، ومضوا دعاء إلى الله في قومهم لكنهم لم يروا شيئاً عياناً من هذه الأمور ، فكانت المعجزة وكانت البشرة و(عارض الناس في مسيرهم حية ذُكر من عظامها وخلقها فانصاع الناس عنها ، فأقبلت حتى وافت الرسول ﷺ ، فهي تقف أمامه بأدب كامل حيث ابذر الناس عنها وهم ينظرون إليها ، وإذا كانت معجزة عصا موسى عليه السلام أن تقلب حية ، فالمعجزة للنبي ﷺ أن تقف هذه الحية تكلمه طويلاً (وهو على راحته) - والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتدل الطريق فقامت قائمة) وأقبل الناس حتى لحقوا برسول الله ﷺ ، فقال : « هل تدركون من هذا ؟ » وذلك على طريقته ﷺ باستثناء الاستثناء ؛ تكون القلوب مشربة إلى السماع ، فهم متلهفون ليعرفوا خبراً ، ورسول الله ﷺ يزيد لهفتهم بسؤاله : « هل تدركون ما هذا ؟ » قالوا: الله ورسوله

أعلم ، فقال : « هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلى يسمعون القرآن ، فرأى عليه من الحق حين ألم به رسول الله ﷺ أن يسلم عليه ، وها هو يقرنكم السلام فسلموا عليه » فقال الناس جميعاً : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته . فهو من الثمانية المبشرين مثل العشرة المشرين في الجنة من الإنس ، ومن حق رسول الله ﷺ أن يسلم عليه ، ويواقفه طويلاً ، ويبلغ التحية للمؤمنين من الإنس ، ويتناهى الشكلاں في الحب والفاء لرسول الله ﷺ حين كان المسلمين يرددون : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته .

١١ - وفاتها أن نتحدث عن التعيم الرابع الذي أصدره المصطفى ﷺ :

(وإنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقومون أحد ، ومن كان له بغير فليوث عقاله ، ولا يخرجن أحدكم إلا ومعه صاحب له) فهو تعيم بثلاثة توجيهات ضمنه لغير المكابر أن يشهد صدق النبي ﷺ من خلال هبوب الريح الشديدة ، فقد تنبأ بها عليه الصلاة والسلام قبل وقوعها ، ويكتفى أن تهب بهذا العنف ليلاً حتى يعلم أنه مع رسول رب السموات والأرض . ومن خلال هذا الإيمان سوف ينفذ التوجيهات كاملة ، أن يبقى في مكانه ، ويوثق عقال بعيره باكراً قبل هبوب الريح ، ولا يخرج وحده حاجته فهي أوامر صادرة للتنفيذ ، وقد خالف من الثلاثين ألفاً رجالاً خرجا حاجتهم أو طلب بعيهما ، ولم يدر المسلمين سر هذه التوجيهات حتى استيقظوا صباحاً ، ووجدوا بأعينهم ثمرة المخالفة فقد فقد الذي مضى يبحث عن بعيره ، ولم يمض مع صاحب له ليعرف ما نزل به وأين افقد ، كما وجدوا الذي مضى لحاجته ، مختوفاً في المكان الذي مضى إليه ، وعرفوا أنه ما من أمر يصدر من النبي ﷺ إلا وهو لصالح المؤمن المجاهد ، وبعد أن رأوا عقوبة المعصية ، أراد الله تعالى أن يكرم نبيه بالغفران عن هذين الصاحبين . فاما الذي خنق على مذهبة فدعا الله تعالى فشفى ، وأما الذي افتقد ، فقد أعادته طين إلى رسول الله ﷺ وهو عائد من تبوك ، لكن لابد أن تستقر في نفوس العصبة المؤمنة خطورة معصية أمر الله وأمر رسوله ، فهذه العصبة مقدمة فيما بعد على أن تحمل راية الإسلام إلى الخافقين فتربى على الجنديـة كما تربى على القيادة ، وتعلم أنه قد يكون على كاهلها فيما بعد الإيمان في غزو الروم والإيمان في غزو فارس ، والإيمان في غزو كل من يقف مصادداً لله ولرسوله .

ويتجه الركب بعدها إلى تبوك بأمان الله .

في تبوك : الأمة والدولة

١ - (روى الإمام مالك ، وابن إسحاق ، ومسلم عن معاذ بن جبل والإمام أحمد برجال الصحيح عن حذيفة رضي الله عنهما ، ولفظ مسلم : (أن أبا الطفيلي عامر بن وائلة أخبره أن معاذ بن جبل أخبر قال :

خرجنا مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم عام غزوة تبوك ، فكان يجمع الصلاة ، فصلى الظهر والعصر جمیعاً ، والمغرب والعشاء جمیعاً ، حتى إذا كان يوماً آخر الصلاة ، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جمیعاً ، ثم دخل ، ثم خرج بعد ذلك ، فصلى المغرب والعشاء جمیعاً ثم قال : « إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتواها حتى يضحي النهار ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها ، قال فسألهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم : هل مستsuma من مائها شيئاً ؟ » قالاً : نعم . فسبهما النبي صلوات الله عليه وسلم ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرفوا بآيديهم من العين قليلاً حتى اجتمع في شيء . قال وغسل رسول الله صلوات الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ، ثم أعاده فيها . فجرت العين بعاء منهمراً - أو قال غزير - شك أبو على أيهما قال - حتى استقى الناس ثم قال : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جناناً » (١) ولفظ ابن إسحاق : فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه : إن له حسناً كحس الصواعق وذلك الماء فواردة تبوك) (٢) .

وروى البيهقي وأبو نعيم عن عروة أن النبي صلوات الله عليه وسلم حين نزل تبوك وكان في زمان قل ما ذرأها فاغترف غرفة بيده من ماء فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلاء ، فهي كذلك حتى الساعة .

٢ - روى البيهقي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم في غزوة تبوك فاستقرد رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فلما كان منها على ليلة ، فلم يستقطط حتى كانت الشمس قيد رمح ، قال : « ألم أقل لك يا بلال أكلأ لنا الفجر » . فقال : يا رسول الله ، ذهب بي النوم ذهب بي الذي ذهب بك ، فانتقل رسول الله صلوات الله عليه وسلم من ذلك المجلس غير بعيد . ثم صلى ، ثم هدر بقية يومه وليلته ، فأصبح بتبوك ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال :

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٤٩ / ٥ .

(١) مسلم ٤ / ١٧٨٤ ح (٦٠٧) .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملة ملة إبراهيم ، وخير السنن ستة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمهما ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتل قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلاله بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلية ، وما قل وكفى ، خير مما كثُرَ وألهى ، وشر المعدنة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيمة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دُبرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكم مخافة الله عز وجل ، وخير ما وقر في القلوب اليقين ، والارتباط من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حثاء جهنم ، والسكر كى في النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر الماكلا مال اليتيم ، والسعيد من وُعظ بغيره ، والشقي من شقى في بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى أربع أذى ، والأمر إلى الآخرة ، وملأك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقاتله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتآل على الله يكتبه ، ومن يغفر يُغفر له ، ومن يعف يُعف الله عنه ، اللهم اغفر لي ولأمتي . قالها ثلاثة ثم قال : أستغفر الله لى ولكم »^(١) .

٣- قال شيخ محمد بن عمر : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجرًا قبلة مسجد تبوك وأومأ بيده إلى الحجر وما يليه ثم صلى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم فقال :

« ما ها هنا شام ، وما ها هنا يمن » .

وروى الإمام أحمد : خطب رسول الله ﷺ عام تبوك وهو مستند ظهره إلى نخلة ، فقال : « ألا أخبركم بخير الناس ، وشر الناس ، إن من خير الناس رجلاً يحمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره ، أو على قدميه حتى يأته الموت ، وإن من شر الناس رجلاً فاجرًا جريئاً يقرأ كتاب الله ولا يرعوي إلى شيء منه »^(٢) .

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤٤٢ / ٥ وقال محققه في الهاشم : نقله الحافظ ابن كثير (٥ / ١٣ ، ١٤) عن المصنف وقال : هذا حديث غريب ، وفيه نكارة ، وفيه إسناده ضعف .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥ / ٦٥٠ ، وعند أحمد ٣ / ٣٧ - ٤١ .

٤ - (وقال رجل من سعد هذيم جئت رسول الله ﷺ وهو جالس بتبوك في نفر من أصحابه هو سابعهم فوقفت فسلمت فقال : « أجلس » . فقلت : يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ؛ قال : « أفلح وجهك » ثم قال : « يا بلال ، أطعمنا » قال : فبسط بلال نطعاً^(١) ثم جعل يخرج من حميت^(٢) له فأخرج خرجات بيده من تمر معجون بالسمن والأقط ، ثم قال رسول الله ﷺ : « كلوا » ، فأكلنا حتى شبينا ، فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لأكل هذا وحدي ، قال رسول الله ﷺ : « الكافر يأكل في سبعة أماء ، والمؤمن يأكل في معي واحد » .

قال : ثم جئته من العد متحبينا لغدائه لأزداد في الإسلام يقيناً ، فإذا عشرة نفر حوله . قال : « هات أطعمنا يا بلال » . قال : فجعل يخرج من جراب تمر بكفه قبضة قبضة . فقال : « أخرج ولا تخف من ذي العرش إقفارًا » فجاء بالجراب فشره . قال : فحضرته مدين . قال : فوضع النبي ﷺ يده على التمر ثم قال : « كلوا باسم الله » . فأكل القوم وأكلت معهم ، وكنت صاحب تمر ، قال : فأكلت حتى ما أجد له مسلكاً ، قال : ويقي على النطع مثل الذي جاء به بلال ، كأنما لم نأكل تمرة واحدة ، قال : ثم عدت من الند قال : وعاد نفر حتى باتوا ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين . فقال : « يا بلال أطعمنا » فجاء بذلك الجراب بعينه أعرفه فشره ، ووضع رسول الله ﷺ يده عليه فقال : « كلوا باسم الله » فأكلنا حتى نهلنا ، فعل مثل ذلك ثلاثة أيام^(٣) .

٥ - (عن عرباض بن سارية قال: كنت ألم بباب رسول الله ﷺ في الحضر والسفر، فرأيتني ليلة ونحن بتبوك وذهبنا حاجة ، فرجعنا إلى منزل رسول الله ﷺ وقد تعشى ومن عنده من أضيافه ، ورسول الله ﷺ يريد أن يدخل في قبته ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية ، فلما طلعت عليه قال : « أين كنت منذ الليلة؟ » فأخبرته ، فطلع جمال بن سراقة ، وعبد الله بن مغفل المزنى فكنا ثلاثة كلنا جائع . إنما نعيش بباب النبي ﷺ ، فدخل رسول الله ﷺ البيت فطلب شيئاً نأكله فلم يجده ، فخرج إلينا فنادي بلالاً ، « يا بلال هل من عشاء لهؤلاء التمر؟ » قال: لا والذى بعثك بالحق لقد نقضتنا جرۇينا وحُمُتنا . قال: « انظر عسى أن تجد شيئاً » فأخذ الجرب ينفضها جراباً جراباً فتفقى التمرة والتمرتان حتى رأيت بين يديه سبع تمرات ، ثم دعا بصفحة فوضع فيها التمر ، ثم وضع يده على التمرات وسمى الله وقال : « كلوا باسم الله » فأكلنا ، فاحصيست أربعين وخمسين تمرة أكلتها أعدها ونواها في يدي الأخرى ، وصاحبى يصنعن ما أصنع ،

(٢) الحميت : الرزق الذى لا شعر فيه وهو للسمن .

(١) النطع : بساط من أدم .

(٣) المغازى للواقدى ١٧/٣ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ .

وسبعينا . وأكلنا كل واحد منا خمسين غرة ، ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هي فقال : « يا بلال ، ارفعها في جرابك ، فإنه لا يأكل أحد منها إلا نهل شبعاً » فيينا نحن حول قبة رسول الله ﷺ ، فكان يتهجد في الليل ، فقام تلك الليلة يصلى ، فلما طلع الفجر ركع ركعتي الفجر وأذن بلال وأقام فصلى رسول الله ﷺ بالناس ، ثم انصرف إلى فناء قبته ، فجلس وجلسنا حوله فقرأ من المؤمنين عشرة ، فقال : « هل لكم في الغداء » فقال عرياض : فجعلت أقول في نفسي : أى غداء ؟ فدعنا بلال بالتمر ، فوضع بيده على الصحفة ثم قال : « كلوا باسم الله » فأكلنا - والذى بعثه بالحق - حتى شبعتنا وإنما لعشرة ، ثم رفعوا أيديهم منها شيئاً ، وإذا التمرات كما هي فقال رسول الله ﷺ : « لو لا أنى استحيى من ربى لاكلنا من هذا التمر حتى نرد المدينة عن آخرنا » وطلع غلائم من أهل البلد وأخذ رسول الله ﷺ التمرات بيده فدفعها إليه ، فولى الغلام يلوكهن) (١) .

٦ - (وقدم نفر من بنى سعد هذيم على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا قدمنا عليك وتركنا أهلنا على بئر لنا قليل ماؤها ، وهذا القبيظ ، ونحن نخاف إن تفرّقنا أن نقطع ، لأن الإسلام ولم يفش حولنا بعد ، فادع الله لنا في ماء بئرنا ، وإن روينا منه فلا قوم أعز منا ، لا يعبر بنا أحد مخالف لديتنا ، قال رسول الله ﷺ : « أبلغونى حصيات » فناولت ثلاث حصيات فدفعهن إليه ، ففرّكهن بيده ثم قال : « ادفعوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوها واحدة واحدة ، وسموا الله » فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ ، ففعلوا ذلك فجاشت بترهم بالرواء ، ونفوا من قاربهم من المشركين ووطوهم . مما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطثوا من حولهم غلبة ودانوا بالإسلام) (٢) .

٧ - قالوا : وكان زيد بن ثابت يحدث فيقول : غزونا مع رسول الله ﷺ تبوك ، فكنا نشتري ونبيع ورسول الله ﷺ يرانا ولا ينهانا .

(وكان رافع بن خديج يحدث يقول : أقمنا بتبوك فأرمنا من الزاد وقرمنا إلى اللحم ونحن لا نجد له ، فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن اللحم هنا ، وقد سالت أهل البلد عن الصيد ، فذكروا لي صيداً قريباً ، فأشاروا إلى ناحية المغرب ، فاذهب فأصيده في نفر من أصحابي ؟ قال رسول الله ﷺ : « إن ذهبت فاذذهب في عدة من أصحابك وكونوا على خيل فإنكم تفرقون من العسكر » قال فانطلقت في عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة - وكان صاحب طرد بالرمي ، وكانت راميأ ، فطلبنا الصيد فأدركنا

(١) المغارى للواقدى ١٠٣٧/٣ ، وأبو نعيم وابن عساكر كما في سبل الهدى والرشاد ٥/٦٥٤ .

(٢) المصدر السابق ١٠٣٥/٣ .

صيّدًا فقتل أبو قتادة خمسة أحمراء بالرمح على فرسه ، ورميت قريباً من عشرين ظبياً ، وأخذ أصحابنا الظبيان والثلاثة والأربعة ، وأخذنا نعامة طردناها على خيلنا ، ثم رجعنا إلى العسكر ، فجئناهم عشاء ورسول الله ﷺ يسأل عن « ما جاؤوا بعد؟ » فجئنا إليه فالقينا ذلك الصيد بين يديه فقال: « فرقوه بين أصحابكم ». قلت: يا رسول الله، أنت مربه رجالاً . قال: فأمر رافع بن خديج . قال: فجعلت أعطى القبيلة بأسرها الحمار والظبي ، وأفرق ذلك حتى كان الذي صار لرسول الله ﷺ ظبي واحد مذبحة . فأمر به فطبح فلما نضج دعى به - وعنده أضياف - فأكلوا ، ونهانا بعد أن نعود وقال: « لا آمن » أو قال: « أخاف عليكم » (١) .

٨- قالوا : وكان رجل من بني عذرة يقال له عَدِيٌّ . يقول : جئت رسول الله ﷺ بتبوك فرأيته على ناقة حمراء يطوف على الناس يقول : « يا أيها الناس يد الله فوق يد المعطي ، ويد المعطي الوسطى ، ويد المعطي السفلى ، أيها الناس فتنعوا ولو بحزم الخطب ، اللهم هل بلغت ؟ ثلاثة ، فقلت : يا رسول الله ، إن امرأتي أقتلتنا ، فرميت إحديهما فرمى في رميتي - ي يريد أنها ماتت - فقال رسول الله ﷺ : « تعقلها ولا ترثها » فجلس رسول الله ﷺ في وضع مسجده بتبوك فنظر نحو اليمين ورفع يده يشير إلى أهل اليمين . فقال : « الإيمان يمان » ونظر نحو المشرق فأشار بيده وقال : « إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبير من نحو المشرق يطلع الشيطان قرنيه » (٢) .

٩- (وهاجت ريح شديدة بتبوك فقال رسول الله ﷺ : « هذا الموت منافق عظيم النفاق » قال: فقدموا المدينة ، فوجدوا منافقاً قد مات عظيم النفاق) (٣) .

١٠- وأتى رسول الله ﷺ بجنبة تبوك فقالوا: يا رسول الله ، إن هذا طعام تصنعه فارس وإننا نخشى أن يكون فيه ميتة ، فقال رسول الله ﷺ : « ضعوا فيه السكين واذكروا اسم الله » (٤) .

١١- (وأهدى رجل من قضاة إلى النبي ﷺ فرساً فأعطاه رجلاً من الأنصار ، وأمره أن يربطه حياله استثناساً بشهيله ، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فقد صهيل الفرس فسأل عنه صاحبه فقال: خصيته يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « فإن الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيمة . اتخاذوا من نسلها وباهوا بصفتها المشركين ، أعراضها أدفاها » (٥) ، وأذابها مذابها . والذى نفسى بيده إن الشهداء ليأتون

(١) المصدر السابق ١٠١٧/٣ .

(٢) المغارى للواقدى ١٠٣٦/٣ .

(٣) أدفاها : تدبها .

(٤) المصدر السابق ١٠١٩/٣ .

يوم القيامة بأساليبهم على عوائقهم لا يمرون بأحد من الأنبياء إلا تنجي عنهم ، حتى إنهم ليملون بإبراهيم خليل الرحمن فيتتحى لهم حتى يجلسوا على منابر من نور ، يقول الناس : هؤلاء الذين أهربوا دماءهم لرب العالمين ، فيكون كذلك حتى يقضى الله عز وجل بين عباده » .

قالوا : وبيننا رسول الله ﷺ بتبوك قام إلى فرسه الظرف فلعل عليه شعاره وجعل يمسح ظهره بردائه ، قيل : يا رسول الله تمسح ظهره بردائك . قال : « نعم : وما يدريك ؛ لعل جبريل أمرني بذلك مع أنى قد بت الليلة وإن الملائكة لتعاتبني في حسن الخليل ومسحها » وقال : « أخبرنى خليلى جبريل أنه يكتب لي بكل حسنة أوفيتها إياه حسنة ، وإن ربي عز وجل يحط عنى سيئة ، وما من أمرى من المسلمين يربط فرساً في سبيل الله فنوفيه بعلقه ، يلتسم به قوته إلا كتب الله له بكل حبة حسنة ، وحط عنه بكل حبة سيئة » قيل : يا رسول الله ، وأى الخيل خير ؟ قال : « أدهم ^(١) ، أقرح ^(٢) ، أرثم ^(٣) ، محجول الثالث ، مطلق اليمين ، فإن لم يكن أدهم فكميت ^(٤) على هذه الصفة » وقيل : يا رسول الله ، فما في الصوم في سبيل الله ؟ قال : « من صام يوماً في سبيل الله تباعدت منه جهنم مائة سنة كأغذ السير ، ولقد فضل نساء المجاهدين على القاعددين في الحرمة كأمهاهاتهم ، وما من أحد من القاعددين يخالف إلى امرأة من نساء المجاهدين فيخونه في أهلها إلا وقف يوم القيمة فيقال لها : إن هذا خانك في أهلك ، فخذ من عمله ما شئت فما ظنك ^(٥) ؟ » .

١٢ - (وكان عبد الله بن عمر أو عمرو بن العاص يحدث قال : فزع الناس بتبوك ليلة ، فخرجت في سلاحى حتى جلست إلى سالم مولى أبي حذيفة وعليه سلاحه ، فقلت : لا أقتدين بهذا الرجل الصالح من أهل بدر ، فجلست إلى جنبه قريباً من قبة رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ علينا مغضباً فقال : « أيها الناس ما هذه الخفة ؟ ما هذا الترق ؟ لا صنعتم ما صنع هذان الرجال الصالحان ؟ » يعنينى وسالما مولى أبي حذيفة).

١٣ - (وكان عبد الله ذو البجادين من مزينة ، وكان يتيمًا لا مال له ، قد مات أبوه فلم يورثه شيئاً ، وكان عممه ميلاً ^(٦) ، فأخذوه وكفله حتى كان قد أيسر ، فكانت له إبل وغنم ورقيق ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ، ولا

(١) الأدهم : الأسود .

(٢) الكميـت : الذي خالط حمرته قتوه .

(٣) الأرثم : الذي ليلاصق في أنهه .

(٤) ميلاً : كثير المال .

(٥) المغارى للواقدى ١٠٣٨/٣ .

يقدر عليه من عمه ، حتى مضت السنون والشاهد كلها ، فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعاً إلى المدينة . فقال عبد الله لعمه : يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تزيد محمداً ، فائذن لي في الإسلام . فقال : والله لئن اتبعت محمداً لا أترك يبدك شيئاً كنت أعطيتك إلا نزعته منك حتى ثوبيك . فقال عبد العزي - وهو يومئذ اسمه - وأنا والله متبع محمداً ومسلم ، وتارك عبادة الحجر والوثن ، وهذا ما بيدي فخذنه ، فأخذ كل ما أطعاه ، حتى جرده من إزاره ، فأتى أمه فقطعت بجاداً لها باثنين فاقتصر بواحد وارتدى بالأخر ، ثم أقبل إلى المدينة ، وكان بورقان - جبل من حمى المدينة - فاضطجع في المسجد في السحر ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فنظر إليه فأنكره . فقال : « من أنت؟ » فانتسب له ، فقال : « أنت عبد الله ذو البجادين » ثم قال : « انزل مني قريباً » ، فكان يكون في أضيافه ، ويعلمه القرآن ، حتىقرأ قرأتنا كثيراً ، والناس يتجهزون إلى تبوك ، وكان رجلاً صيّتاً ، فكان يقوم في المسجد ، فيرفع صوته بالقراءة فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة؟ فقال النبي ﷺ : « دعه يا عمر ، فإنه خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله » ، قال : فلما خرجوا إلى تبوك قال : يا رسول الله ، ادع الله لي بالشهادة ، قال : « ابلغنى لحاء سمرة » فأبلغه لحاء سمرة ، فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال : « اللهم إنّي أحرّم دمه على الكفار » فقال : يا رسول الله ، ليس أردت هذا . قال النبي ﷺ : « إنك إذا خرجمت غازياً في سبيل الله ، فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، ووقفتك دابتكم فأنت شهيد ، لا تبال بأية كانت » فلما نزلوا تبوك فأقاموا بها توفى عبد الله ذو البجادين ، فكان بلال بن الحارث يقول : حضرت رسول الله ﷺ ، ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفاً بها ، وإذا رسول الله ﷺ في القبر ، وإذا أبو بكر وعمر عليهما السلام يدليانه إلى النبي ﷺ ، وهو يقول : « أدنينا إلى أخاكما » ، فلما هيا لشقة قال : « اللهم إنّي أمسّت عنه راضياً فارض عنّه » قال : فقال عبد الله بن مسعود : يا لينى كنت صاحب اللحد)١(.

١٤ - روى الطبراني في الكبير والأوسط عن معاوية ، وابن سعد والبيهقي عن أنس

عليهم السلام قالوا :

(كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك . قال أنس : فطلعت الشمس بشعاع وضياء ونور . لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « يا جبريل مالى أرى الشمس اليوم طلعت بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم

(١) المغازي للواقدي ١٠١٣/٣ ، ١٠١٤ .

فيما مضى ؟ » قال : ذاك معاوية بن معاوية المزنى مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه ، فهل لك في الصلاة عليه ؟ قال : « نعم ». فخرج رسول الله ﷺ يمشي ، فقال جبريل بيده هكذا يفرج له عن الجبال والأكام ، ومع جبريل سبعون ألف ملك ، فصلى رسول الله ﷺ ، وصف الملائكة خلفه صفين فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبريل : « بم بلغ هذه المترلة ؟ » قال : بحبه « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » [سورة الإخلاص] . يقرؤها قاعداً أو قائماً أو راكباً أو ماشياً وعلى كل حال » .

(قال الحافظ في لسان الميزان في ترجمة محبوب بن هلال : هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وله طرق يقوى بعضها بعضاً ، وقال في فتح الباري ، في باب الصفوف على الجنائز : إنه خبر قوى بالنظر إلى مجموع طرقه ، وقال في اللسان في ترجمة نوح ابن عمر طريقه أقوى طرق الحديث . انتهى) .

وأورد النووي في الأذكار في باب : الذكر في الطريق ، فعلم من ذلك رد قول من يقول : إن الحديث موضوع لا أصل له) (١) .

١٥ - وروى الطبراني ب الرجال وثروا ، وأبو نعيم عن محمد بن حمزة بن عمر الأسلمي عن أبيه عن جده ثوابته قال : خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ، و كنت على خدمته [في] ذلك ، فنظرت إلى نحى السمن قد قلَّ ما فيه ، وهياط للنبي ﷺ طعاماً فوضعت النحى في الشمس ، وغت فاتبعت بحرير النحى ، ففقمت فأخذت رأسه بيدي ، فقال رسول الله ﷺ ورآني : « لو تركته لسائل الوادي سمعنا » (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٦٥٦ ، ٦٥٧ .

(٢) المصدر السابق / ٦٦٢ .

الدولة : غزوة أكيدر بن عبد الملك

١ - روى الواقدي عن شيوخه قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك في أربعينات وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصراوياً فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لي به وسط بلاد كلب ، وإنما أنا في أنساس يسير ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ستتجده يصيد البقر فتأخذه » . قال : فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر بن كندة ، وصعد على ظهر الحصن من الحر ، وقيته تغشه ، ثم دعا بشراب فشرب ، فأقبلت البقر تحلك بقرونها باب الحصن . فأقبلت امرأته الرباب ، فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت : ما رأيت كالليلة من اللحم ؟ هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا . ثم قالت من يترك هذا ؟ قال : لا أحد . قال : يقول أكيدر : والله ما رأيت . جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة ، ولقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً ، ثم أركب بالرجال والآلة . فنزل فامر بفرسه فأسرج ، وأمر بخيله فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، معه أخوه حسان وملوكان فخرجوا من حصتهم بطاردهم ، فلما فصلوا من الحصن ، وخيل خالد نظرهم لا يصهل منها فرس ، ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستأسر أكيدر ، وامتنع حسان ، فقاتل حتى قتل ، وهرب الملوكان ، ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن ، وكان على حسان قباء ديباج مخصوص بالذهب ، فاستلب خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذ أكيدر .

قال أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله : رأينا قباء حسان أخي أكيدر حين قدمَ به على رسول الله ﷺ ، فجعل الناس يتلمسوه بأيديهم ويتعجبون منه . فقال رسول الله ﷺ : « أنتعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا » ، وقد كان رسول الله ﷺ قال خالد بن الوليد : « إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله ، وائت به إلى فإن أبي فاقتلوه » فطاو عهم ، فقال بجير بن بحرة من طيء ، ذكر قول النبي ﷺ خالد : « إنك تتجده يصيد البقر » وما صنع البقر تلك الليلة تصدق قول رسول الله ﷺ ، قال شعراً :

تبarak سائق البقرات إنى
رأيت الله يهدى كل هاد
ومن يك عاندًا عن ذى تبوك
فإنما قد أمرنا بالجهاد

وقال خالد بن الوليد لاكيدر : هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتى بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لي دُومة ؟ قال : نعم . ذلك لك . فلما صالح أكيدر ، وأكيدر في وناق . انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن ، ونادي أكيدر أهله : افتحوا باب الحصن ، فأبى عليه مضاد أخو أكيدر ، فقال أكيدر لخالد : تعلم والله لا يفتحون لي ما رأوني في وناق . فخل عنى ، فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن كنت صالحنتي على أهله ، قال خالد : فإني أصالحك ، فقال أكيدر : إن شئت حكمتك ، وإن شئت حكمى . قال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت ، فصالحه على الفى بغير ، وثمامائة فراس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيما حكمه ، فلما قاضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح الحصن ، فدخله خالد ، وأوثق أخاه مضاداً أخا أكيدر ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح ، ثم خرج قافلاً إلى المدينة ، ومعه أكيدر ومضاد ، فلما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية ، وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما ، وكتب رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم ، وختمه يومئذ بظفره .

وكان بلال بن الحارث المزنى يحدث فيقول : أسرنا أكيدر وأخاه ، فقدمنا بهما على النبي ﷺ ، وعزل يومئذ صفي خالص قبل أن يقسم شئ من الفى ، ثم خمس الغنائم فكان للنبي ﷺ الخمس وكان عبد الله بن عمرو المزنى يقول : كنا أربعين رجلاً من مزينة مع خالد بن الوليد ، وكانت سهامنا خمس فرائض كل رجل مع سلاح يقسم علينا درع ورماح .

وعن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال : رأيت أكيدر حين قدم به خالد ، وعليه صليب من ذهب ، وعليه الدبياج ظاهر . قال الواقدي : وحدثني شيخ من أهل دومة أن رسول الله ﷺ كتب له هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لاكيدر حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الانداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكتافها ، وإن لنا الصافية من الضحل ^(١) والبور ^(٢) والمعامى ^(٣) وأغفال الأرض ^(٤) ، والحلقة والسلاح والخافر ^(٥) والحسن ، ولكم الصامنة من التخل ^(٦) ، والمعين ^(٧) من المعمور »

(١) الضحل : الماء القليل .

(٢) البور : ما ليس فيه زرع .

(٣) المعامى : ما ليست له حدود معلومة .

(٤) أغفال الأرض : مياه .

(٥) الخافر : الخليج .

(٦) الصامنة من التخل : التي نبت عروقها في الأرض .

(٧) المعين : الماء الطاهر .

بعد الخمس ، لا تُعد سارحتكم ، ولا يحضر عليكم النبات ، ولا يؤخذ منكم عشر النباتات ^(١) تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكنكم بذلك الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين ^(٢) .

قالوا : وأهدى له هدية فيها كسوة ، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً آمنه فيه ، وفيه الصلح ، وأمن أخاه ووضع عليه فيه الجزية ، فلم يك في يد النبي ﷺ خاتم فختمه بظفره .

٢ - وكانت دومة وأيلة وتيماء قد خافوا النبي ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت ، وقدم مُحَنَّة بن رؤبة على النبي ﷺ وكان ملك أيلة ، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر ، وأقبل معه أهل جرباء وأذرح ، فأتوه فصالحهم ، فقطع عليهم الجزية - جزية معلومة - وكتب لهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحْنَة بن رؤبة وأهل أيلة لسفتهم وسائرهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يريدونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ، هذا كتاب جهنم ابن الصلت ، وشريحيل بن حسنة بإذن رسول الله ﷺ » . ووضع رسول الله ﷺ الجزية على أهل أيلة ، ثلاثة دينار كل سنة ، وكانوا ثلاثة رجل . قال : حدثني يعقوب بن محمد الظفري عن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال : رأيت يحْنَة بن رؤبة يوم أتى به إلى النبي ﷺ عليه صليب من ذهب ، وهو معقود الناصية ، فلما رأى النبي ﷺ كفراً وأومأ برأسه ، فألواما إليه النبي ﷺ : « ارفع رأسك » وصالحه يومئذ ، وكسه رسول الله ﷺ بردًا يمنة ، وأمر له بمنزل عند بلال) ^(٣) .

٣ - وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح هذا الكتاب : « من محمد النبي لأهل أذرح ، أنهم آمنون بأمان الله ، وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم » .

قال الواقدي : نسخت كتاب أذرح وإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم بالتصح والإحسان للMuslimين ، ومن جا إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خسروا على المسلمين وهم آمنون ، حتى يحدث إليهم

(١) لا تُعد راقدتكم : لا يُعد ما يبلغ أربعين شاة . (٢) النباتات : المئاع ليس فيه زكاة .

(٣) المغارى للواقدى ١٠٣١ / ٣ - ١٠٣٢ . (٤) المغارى للواقدى ١٠٢٥ / ٣ - ١٠٣٠ .

٤ - وكتب لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزوتهم ، وربع ثمارهم ، وكان عبيد بن ياسر بن ثمير أحد سعد الله ، ورجل من جذام أحد بنى وائل قدما على النبي ﷺ بتبوك ، فأسلمها وأعطاهما رسول الله ﷺ ربع مقنا مما يخرج من البحر ومن الشمر من نخلها وربع المغزل) (٢) .

٥ - وروى الإمام أحمد وأبو يعلى بسنده حسن لا يأس به عن سعيد بن أبي راشد قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص ، وكان جاراً لشيخاً كبيراً قد بلغ (لعلها المائة) أو قرب فقلت : ألا تحدثني عن رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل ؟ فقال : بلى . قدم رسول الله ﷺ بتبوك ، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل ، فلما جاء كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقته ، ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم ، وقد أرسل يدعونى إلى ثلاثة خصال : أن أتبعه على دينه ، أو أن أعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا ، أو نلقى إليه الحرب ، والله لقد عرفت فيما تقرؤون من الكتب ، ليأخذن أرضنا ، فهلم فلتتبعه على دينه ، أو نعطيه مالنا على أرضنا ، فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا : تدعونا أن نذر النصرانية ، أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز ؟ فلما ظن أنهم إذا خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رقاهם ولم يكدر ، وقال : إنما قلت ذلك لأنكم صلابتكم على أمركم ، ثم دعا رجلاً من عرب تحيب كان على نصارى العرب قال : ادع لي رجالاً حافظاً للحديث عربي اللسان ، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاءنى ، فدفع إلى هرقل كتاباً فقال : اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل ، فما سمعته فاحفظ لي منه ثلاثة خصال : هل يذكر صحيفته التي كتب بشيء ؟ وانظر إذا قرأ كتابي هذا هل يذكر الليل ؟ وانظر في ظهره هل فيه شيء يرييك ؟ قال : فانطلقت بكتابه حتى جئت بتبوك فإذا هو جالس بين ظهري أصحابه محتياً على الماء ، فقلت : أين صاحبكم ؟ قيل : ها هو ذا . فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه ، فتناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال : « من أنت ؟ » فقلت : أنا أبو تنوخ . فقال : « هل لك في الحنفية ملة أريك إبراهيم ؟ » فقلت : إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم . فضحك وقال : « إنك لا تهدى من أحثيت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدفين (٦) » [القصص]. يا أبا تنوخ ، إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه ، والله مزقه ومزق ملكه ، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فمزقها ، والله مزقه ومزق ملكه ، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها ،

فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خيراً ». قلت : هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبى ، فأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جفن سيفي ، ثم ناولت الصحفة رجلاً عن يساره ، قلت : من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية ، فإذا في كتاب صاحبى : تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ » قال : فأخذت سهماً من جعبتي ، فكتبته في جفن سيفي ، فلما فرغ من قراءة كتابي قال : « إن لك حقاً ، وإنك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، إنا سفر مرملون » (١) . قال قنادة ، فناداه رجل من طائفه الناس قال : أنا أجوزه ، ففتح رحله ، فإذا هو بحلة صفورية فوضعها في حجرى . قلت : من صاحب الجائزة ؟ قيل لي : عثمان ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أيكم ينزل هذا الرجل ؟ » فقال فتى من الأنصار : أنا ، فقام الأنصاري وقامت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ فقال : « تعال يا أخا تنوخ » فأقبلت أهوى حتى كنت قائماً في مجلسى الذى كنت بين يديه ، فحل حبوته وقال : « ها هنا امض لما أمرت له » فجئت في ظهره ، فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضروف الكتف مثل المصحفة الضخمة) (٢) .

قال محمد بن عمر : فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى التصديق بالنبي ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه ، وهو في موضعه بمحصن لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذي خبر النبي ﷺ من تعبئة أصحابه ودنوه إلى وادي الشام لم ير ذلك ولا هم به (٣) .

وذكر السهيلي : (أن هرقل أهدى لرسول الله ﷺ هدية ، فقبل رسول الله ﷺ هديته وفرقها على المسلمين (٤) .

ثم إن هرقل أمر منادياً ينادي : ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، فدخلت الأجناد في سلاحها وطافت بقصره تزيد قتلها ، فأرسل إليهم : إنني أريد أن أختبر صلابتكم في دينكم ، فقد رضيت عنكم ، فرضوا عنه ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً مع دحية يقول فيه : إنني معكم ، ولكنني مغلوب على أمري ، فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال : « كذب عدو الله ، وليس بمسلم بل هو على نصرانيته » (٥) .

٦ - وكان عبد الله بن عمر يقول : كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك فقام يصلى من الليل ، وكان يكثر التهجد من الليل ولا يقوم إلا استاك ، وكان إذا قام يصلى صلى بفداء خيمته ، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه فصلى ليلة من تلك الليالي ، فلما فرغ أقبل

(١) مرملون : الزاد عندنا قليل . (٢) مسن الإمام أحمد ٤٤٢ / ٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥ / ٦٦٠ .

على من كان عنده فقال: «أعطيت خمساً ما أعطيهن أحد قبلى : بعثت إلى الناس كافة، وإنما كان النبي يبعث إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركتنى الصلاة تيممت وصليت ، وكان من قبلى يعظمون ذلك ولا يصلون إلا فى كنائسهم أو البيع ، وأحلت لى الغنائم كلها ، وكان من قبلى يحرمونها ، والخامسة هي ما هي ، هي ما هي ، هي ما هي (ثلاثة) » قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «قيل لها : سل ، فكل نبى قد سأله ، فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله ». .

٧- (وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فى التقدم فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال رسول الله ﷺ :

«لو أمرت بالسير لما استشرتكم فيه » فقال : يا رسول الله ، فإن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفرغتهم دنوك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله عز وجل لك فى ذلك أمراً) (١) .

* * *

الخطوط الكبرى التى تتناولها فى الإقامة فى تبوك ضمن إطار الامة . هي :

أولاً : ثبيت وترسيخ الوحدانية والرسالة من خلال المعجزات النبوية .

ثانياً : التوجيهات النظرية والعملية للأمة حتى تتفقه فى دينها .

ثالثاً : المزنيان نموذجان للإيمان الحالى .

أولاً : ثبيت وترسيخ الوحدانية والرسالة :

هؤلاء الأعراب الذين قدموا من كل فج كانوا يتعاملون مع الأصنام والأوثان فى كل مكان يوجدون فيه ، ويدعون مع الله آلهة أخرى يرجون منها الفر والفتح خشية ورغبة ، وهم اليوم قد نبذوا هذه العبادة مصدقةين رجالاً منهم يقول : إنه رسول الله ، وأن لا إله إلا الله ، وقد اقتنعوا نظرياً بقوله وصدقه واستجابوا له ونفروا معه ، ولم يوقفوا إيمانهم على طلب المعجزات منه ، وهذه الفرصة الأولى لكتير منهم أن يتلقوا معه ، وكل رجل منهم سيمضى إلى قومه يحدثهم بما رأى وما سمع ، فيزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويؤمن الشاكرون والمرتابون ، ولهذا كانت المعجزات بعضها عامة يشهدها الجيش كله ، وبعضها خاصة يشهدها نفر من الجيش ، ويقضى ليحدث إخوانه بما رأى وشاهد .

(١) المغارى للواقدى ٣ / ٢٢٠ .

وكانت المعجزة الأولى قبيل الوصول إلى تبوك معجزة عين تبوك أو فواراة تبوك ، وكما شهدنا قصتها ابتداء : « إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتواها حتى يضحي النهار فمن جاءها فلا يمس من مائتها شيئاً حتى آتى » .

فقد حددَ رسول الله ﷺ يوم الوصول وساعة الوصول ، ويكتفى أن يصدق هذا التحديد حتى يستجيب الناس للنداء الثالث لا يمسوا من مائتها شيئاً . لكننا لا ندرى هل هناك مخطط من المنافقين بأن تتم مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، وتحدى هذه الأوامر ، ولابد من فدائين اثنين يقومان بهذه المهمة ، لأننا لا تتوقع أن يقدم مسلم عادى على هذه المخالفة ، بعد أن شهد صدق النبي ﷺ في تحديد يوم الوصول وساعة الوصول كما علمه ربه ، إنما يقدم على هذه المخالفة مكذب مนาق يظهر الإسلام ويبطن الكفر (فجئناها وقد سبق إليها رجالان والعين مثل الشراك تبيض بشيء من مائتها ، فسألهما رسول الله ﷺ : « هل مستمتا من مائتها شيئاً ؟ » قالا : نعم . فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، فالماء يسيل قليلاً قليلاً ، لا يكاد يشع ظماماً رجل واحد إلا في غرفات عدة . ويرحل المافقون أنهم إن مساوا ماءها أن يطأوا المعجزة النبوية ، ويشك الناس في النبوة ، فهم أصحاب رسالة في حرب هذا الدين وأهله ، لكن أبطل الله تعالى كيدهم ، والناس جميعاً مجتمعون عند عين تبوك يتظلون قطرة ماء يبلون صديهم . وعيونهم مسمرة بنبيهم ﷺ ماذا يفعل .

وثم غرروا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شن ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها ، فجررت العين بماء كثير .

وأقبل الجيش على العين يشرب ويرتوى ويملاً آتيته ، ولا داعي لأن يرى عملية إنبعاث الماء كل جندي ، لكن ما من جندي إلا وجاء يملأ شنه ويتردد ويشرب ويتوضأ ، ومئات الشهداء وألافهم أكدوا أن العين لم يكن فيها ماء يذكر .

وإذا أخذتنا برواية ابن إسحاق : (فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه : إن له حسناً كحس الصواعق) ، ونحن بإمكاننا أن نشهد العين ، فلا تزال تزار حتى اليوم ، ونشهد عظمة المعجزة ، وبذلك انفجرت عيون الإيمان في قلوب الجيش مثل انفجار عين تبوك ، وأصبحت القلوب تفوح باليقين مثل فواراة تبوك بعد أن كانت مثل شراك النعل ، وأدرك القوم أنهم حزب الله ، والله لا يتخلى عن حزبه وجنته وفيهم عبده ورسوله ونبيه ، ولا يمكن أن يهلك حزب الله في هذه البيداء القاحلة وهو خيرة الله من خلقه ومعهم سيد ولد آدم ، فكان لإنبعاث الماء في هذه الصحراء حياة للمؤمنين وحياة للقلوب بهذا الدين الذي أسعدهم الله به ، وأقرّ أعينهم بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي .

وبعد أن أطمأن الجيش إلى هذه المعجزة ، لا شك أن كثيراً من الصحابة أخذت تتوه نفسي إلى أن يلتقي مع رسول الله ﷺ ويحدثه ، ويكلمه ، ويخبر قومه بما جرى بينه وبين رسول الله ﷺ .

وشهدنا هذه الصورة مع رجل من سعد هذيم لا هم له إلا أن يشهد جديداً من العجزات النبوية ، حيث جاء ورسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه هو سابعهم (فوقت فسلمت . فقال : « اجلس » فقلت : يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . قال : « أفلح وجهك ») .

وحق الضيف القرى على مضيقه . ثم قال : « يا بلال ، أطعمتنا » وكانت نفس السعدى تتوه لترى شيئاً خاصاً تغدر به على الآخرين (فبسط بلال نطاً ، ثم جعل يخرج من حبيت له ، فأخرج خرجات بيده من عمر معجون بالسمن والإقط ، ثم قال رسول الله ﷺ : « كلوا ») .

وأقدم على الطعام وهو يرى أن الأكل لا يكفيه وحده ، فماذا يأكل السبعه الآخرون وثامنهم رسول الله ﷺ ، وتقدم وأكل ، وهو يود أن ينسحب فمن العيب أن يأكل مع الآخرين ويلتهم طعامهم كله ، وأكل وهم أن يتوقف ، لكنه يرى التمر لم ينقص ، وياكل ولا يزال في التمر مدد حتى شبع ، وها هو يرى المعجزة بعينه لم يحدثه عنها أحد فما ثالك أن قال لنبيه المصطفى ﷺ : يا رسول الله ، إن كنت لا أكل هذا وحدي ، وكان الجواب النبوى يحمل في ثناياه التعليل التربوى المناسب لهذا الأعرابى قائلاً : « الكافر يأكل فى سبعة أيام ، والمؤمن يأكل فى معى واحد » فالالأصل قلة الأكل بالنسبة للمؤمن خاصة إذا قيس بالكافر ، ومضى لا يكاد يصدق نفسه مما رأى ، ولو سمعها من غيره لشك في كلامه ، وقرر أن يعود في اليوم الثاني متحبينا الغداء ، ويهدثنا عن هدفه من ذلك : (لازداد في الإسلام يقيناً) فهو يدخل دفقات الإيمان إلى قلبه مع كل معجزة يراها (فإذا عشرة نفر حوله ، قال : « هات أطعمتنا يا بلال ») ورسول الله ﷺ يدرك لم جاء هذا السعدى مرة ثانية وفي وقت الغداء . (قال : فجعل يخرج من جراب عمر بكفة قبضة قضبة ، فقال : « أخرج ولا تخف من ذى العرش اقتاراً » فجاء بالجراب فشره قال : فحضرته مدین) وهو اليوم مؤمن ، وسوف يقيس طعامه اليوم بطعام الأمس وهو مؤمن ليس بكافر ، وهو يرافق كل كلمة وكل نامة وكل حرقة (أى قرابة نصف كيلو من التمر ، وقد اجتمع عليه عشرة نفر ، فهل يبلغ لكل واحد منهم ثلاثة ثمرات ؟) يجيئنا السعدى عن هذا التساؤل بقوله بعد المس النبوى له : (فرض النبي ﷺ يده على التمر ثم قال : « كلوا باسم الله » فأكل القوم ، وأكلت معهم ، وكانت صاحب عمر ، فأكلت حتى ما أجد مسلكاً) فقد كفى المدان هؤلاء عشرة أشخاص ، لكن الذى أدهشه

أن التمر على ما هو عليه. «أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَتُمْ لَا تَبْصِرُونَ (١٥)» [الطور] ، بل هو الحق والنبوة الصادقة الموصولة بالله رب العالمين ، (ثم عدت من الغد ، قال : وعاد نفر حتى باتوا ، فكانتوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين فقال : « يا بلال أطعمنا ») فإذا بالجراب نفسه لم يتغير ولم يتبدل ، والتمرات نفسها اللاتي كن في النطع وزادت المأدبة ، وزاد الضيوف ، وزاد الشيع ، والتمر هو هو (فأكلنا حتى نهانا ثم رفع مثل الذي صب ، ففعل مثل ذلك ثلاثة أيام) .

ومضى السعدى إلى قومه وقد غدا منوراً بنور النبوة يحدثهم بما رأى بعينه ، لم يحدنه أحد . ليست مرة واحدة بل ثلاث مرات ، وإذا فتح مشكلة القبيلة كاملة ، مضى هذا السعدى وجاء بوفد من قبيلته الذين آمنوا بالله ربنا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، جاؤوا بأمر لا يعجز رسول الله ﷺ ، وهمهم أن يبلغ هذا الدين كل ذرة رمل في هذه الصحراء ، وكل نفس حرّ فيها ، (وقدم نفر من بنى سعد هذين على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إننا قدمنا إليك ، وتركتنا أهلنا على بئر لنا قليل ما وها ، وهذا القيظ ونحن نخاف إن تفرقنا أن نقطع) . فإذا مضت القبيلة تبحث عن الماء في كل جانب وكل متاهة ، فسيلاقهم المشركون ويقتربونهم ، وقد سمعوا كيف جاش الماء في تبوك عندما مضمض فيه رسول الله ﷺ وغسل فيه وجهه ويديه ، فهل يقتضي الأمر أن يرد رسول الله ﷺ ماءهم ليصدق فيه ، ويغسل وجهه ويديه ، وقد سمعوا عن التمر الذي أكل منه ما ينوف عن العشرة وهو لا يزيد عن المدين ، وشبعوا وأتخموه والتمر هو التمر لم تنقص منه ثمرة واحدة ، وسمعوا عن البشر التي جاشت بالروء بعد أن كانت تبص كالشراك ، والأمر أمر هذه القبيلة وهمها كلها فبلاء الحياة وبالماء الرداء ، وبالماء الظهور (فادع الله لنا في بئرنا ، وإن روينا فلا قوم أعزمنا) فهم كتلة واحدة إذا اجتمعت على الإسلام هابت الأعداء جانبها ، ولن نضطر بعدها لتفرق بحثاً عن المرعى والكلأ ، وحُفِرَ أعظم بئر أرتوازى عند سعد هذين ، وكانت تكاليفه عوضاً عن مئات الآلوف من الدنانير بضعة حصيات فركهن رسول الله ﷺ بيده وقال : « ادفعوا بهذه الحصيات إلى بئركم ، فاطرحوها واحدة واحدة ، وسموا الله » وكانت هذه الآليات المطلوبة ، وهذه الخبرات الاختصاصية المستوردة ، وكل ذلك منطلق باسم الله عز وجل وليس باسم محمد ﷺ ، كل هذا لتشيّت الوحدانية الخالصة لله ، وإثبات الرسالة لرسول الله .

ومن منطلقات النهج التربوي لهذه القاعدة أن يفسح المجال أمام أكبر عدد ممكن من المؤمنين ليشهدوا هذه المعجزات ويكونوا دعاة ورسلاً إلى قومهم وعشائرهم بهذا الدين ، وعلى هذا النهج قصة عرباض بن سارية الذي لم يكن ضيقاً على رسول الله ﷺ مثل

أخيه السعدى ، إنما كان ملازماً لرسول الله ﷺ في الحضر والسفر ، فهو مع معجزاته باستمرار ينقل لنا إحداها حين حضر الضيوف ليت النبوة فقال رسول الله ﷺ لبلال : «يا بلال هل من عشاء لهؤلاء التفر ؟» قال : لا والذى بعثك بالحق ، لقد نفخت جربنا وحُمْتنا . قال : « انظر عسى أن تجد شيئاً » فأخذ الجرب ينفضها جراباً فقع التمرة والتمرتان حتى رأيت بين يديه سبع تمرات ، ولا ندرى فعل هؤلاء التمرات قد ابتعثهن رب العزة من عنده ليكرم رسوله في ضيفه ؛ إذ أن أوعية التمر قد نفخت كلها ، وعهد بلال أن لا شيء فيها . (ثم دعا بصحفة فوضع فيها التمر ، ثم وضع يده على التمرات وسمى الله وقال : « كلوا باسم الله ») اليد المباركة والبسمة الخالصة ومعلم التمر الذى بدأ يفرز ما تحتاجه الوليمة (فأكلنا ، فاحصبت أربعة وخمسين تمرة أكلتها أعدها ونوافها فى يدى الأخرى ، وصاحبى يصنعن ما أصنع ، وشعبنا وأكل كل واحد منا خمسين تمرة ، ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هي . فقال : « يا بلال ، ارفعها فى جرابك ، فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعاً » . وتكررت المأدبة ثلاثة أيام متالية قال على إثرها رسول الله ﷺ : « لو لا أنى أستحي من ربى لاكلنا من هذا التمر حتى نرد المدينة عن آخرنا » فهو العبد ذو الحظوة العليا عند ربه ، ولو طلب من ربى الواحد الأحد أن يطعم الجيش كله حتى يرد الجيش المدينة من هذه التمرات لاعطاه ربى ذلك ، ولكن عظمة عبوديته فى عظمة استحيائه من خالقه ، وعلى هذه القواعد التى سمعت ورأيت أن تمضى ضاربة فى الأرض داعية إلى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

فوات الفجر :

وخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ، حتى إذا كنا منها على ليلة استرقد رسول الله ﷺ فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح ، وهذا يعني أن المسلمين جميعاً لم يستيقظوا وما ينزل بالجيش من التعب والإرهاق بعد المسير المضنى يجعل قضية استيقاظهم صعبة للغاية ما لم يكن الأذان الذى يوقظهم للصلوة . (فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال ألم أقل لك إكلاً لنا الليل ؟ » فقال بلال : ذهب بي النوم ، ذهب بي الذى ذهب بك) .

وكان هذا درساً جماعياً للجيش حتى يتعلم ماذا يفعل لو أخذته النوم فلم يستيقظ على الصلاة ، (فارتخل رسول الله ﷺ من ذلك المكان غير بعيد ، ثم صلى ركعتين قبل الفجر ، ثم صلى الفجر) . ولعل الارتحال كان لمكان فيه شيء من الماء ، وأقيمت الصلاة بعد صلاة ركعتى السنة ، وصلى رسول الله ﷺ بال المسلمين الفجر ، وكانت أهمية هذا الدرس الجماعى فى أن الصلاة لابد أن تقام حتى لو فات وقتها ، وخاصة صلاة الصبح التى تصلى ولو كان الاستيقاظ متأخراً ، ولم يفهم المسلمون أنها أدبت قضاء ، إنما فهموها أداءً وعلى ذلك رأى الفقهاء فى هذا الأمر .

ثانياً : التوجيهات النظرية والعملية :

(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجراً قبلة مسجد تبوك وأوْمأ بيده إلى الحجر وما يليه ، ثم صلّى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم فقال : « ما ها هنا شام ، وما هاهنا يمن » وعرف المسلمون أن هذا الحجر هو دار الرئاسة والقيادة ، فعنه يوم رسول الله ﷺ المسلمين للصلوة ، وعنده يجلس ويتحدث إلى المسلمين ، وفي جواره يفتى ويجيب على الأسئلة ، ومنه ينطلق إلى ما يخص المسلمين في دنياهم وأخراهم ، ويمثل وحدتهم واتحادهم .

وكان أول إعلام نبوى فيه أن كان هذا الحجر هو الحد الفاصل بين اليمن والشام ، ووصل رسول الله ﷺ إلى تخوم الشام وآخر حدود الجزيرة ، حيث كان موقعه اليوم ، وهذا يعني من طرف آخر أن الجزيرة العربية قد دانت له ، وأصبحت قبائلها إما مسلمة أو مسلمة ، وسبق أن بشر المسلمين بما أمره الله تعالى به من ملوك حمير في أقصى الجنوب اليمني يقاتلون في سبيل الله ويأكلون في الله ، ويدخلون في دين الله ، وتمجد في هذا الموقع كذلك ما نشهده في الكعبة المشرفة حيث الركن اليمني باتجاه اليمن ، والركن الشامي باتجاه الشام ، فكانت هذه الحجرة التي حددت قبلة المسجد ، وحددت الحدود بين الشام واليمن ، وحددت بوصلة الاتجاه نحو القبلة المشرفة من كل مكان في الأرض .

وكان الإعلام الثاني بعد البشارة الأولى بملوك حمير أن تكون اليمن من أعظم معاقل الإسلام ، وكأنما اليمن هي الإيمان والإيمان هو اليمن ، فسماه رسول الله ﷺ : « الإيمان يمان » ، وفي رواية أخرى : « والحكمة يمانية ») وكأنما الأعرابية وخباؤها وغاظتها ليست منتشرة هناك ، فلذلك اتجه رسول الله ﷺ صوب المشرق وقال : « إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر من نحو المشرق حيث يطلع الشيطان قرنيه » ، ونعرف الأهوال التي لاقها المسلمون في حرب فارس ، وحرب العرب الموالين لهم أو الذين ارتدوا من قبل المشرق ، وكأنما الشيطان قد اتخذ من المشرق موقعاً لحرب هذا الدين ، وراح ينطح بقرنيه هذا الدين .

كتابٌ سخرة يوماً ليوهنها فلم يهنها وأدمى قرنه الوعل

وكان الإعلام الثالث لكتائب الإسلام المتجمعة من كل أنحاء الجزيرة بعد أن تحدث عن خير الواقع في تعاملها مع الإسلام وشرها في ذلك ، أن يتحدث عن خير الناس وشر الناس .

« لا أخبركم بخير الناس وشر الناس » وما أحرص المسلمين على التعرف على هذه النماذج « إن من خير الناس رجلاً يحمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت » فذروة سلام الإسلام للجهاد ، وإذا كان الله تعالى

عافى المسلمين في هذه الجولة من مواجهة الروم كما يظهر حتى الآن ، لكن هذا لا يعني أن الجهاد انتهى ، وأن تبقى الشام رهينة بأيدي الروم وغير الشام كذلك خاصة ورسول الله ﷺ مع أنه وضع الحجر الذي حدد فيه الشام عن اليمن ، لكنه قال : « اللهم بارك لنا في شامنا وينتبا » فنسب الشام إلى رسول الله ﷺ واليمن كذلك ، فالجهاد ماض ولن يتوقف ولا خير في الدنيا يعدل فضل الجهاد أو أحد يفضل على المجاهد .

لكن شر الناس هو المفاجأة التي فاجأت عساكر المسلمين ، فكان المتوقع أن يكون شر الناس هو الذي يركب فرسه أو بعيده أو قدميه ليصد عن سبيل الله ، وهم المشركون المحاربون ، كانت المفاجأة غير ذلك . « وإن من شر الناس رجالاً فاجرًا جريئاً يقرأ كتاب الله ولا يرعى إلى شيء منه » (١) .

فإذن قد يوجد من يحمل اسم الإسلام ويقرأ كتاب الله ، ولكنه لا يحل حرامة ، ولا يحرم حلاله ، ولا يرعى إلى شيء منه ينتهك حرمات الله بفجوره وجرائمها على حدود الله وعلى دينه وكتابه ورسوله ، وهذا الخطأ لم يكن ليخطر على ذهن المسلمين ، وأن هناك مواجهة مع العدو الداخلي الذي حمل اسم الإسلام وقرأ كتاب الإسلام ، وحارب هذا الكتاب وأهله وتجرأ عليهم فهو من شر الناس .

الخطبة الجامعية المانعة :

إنها تربية جماعية لهذه الكتاب الإسلامية منها ما يسمع الخطبة ، ومنها ما ينقل له نصها أثناء الخطابة أو معناها بعدها . فهؤلاء الثلاثون ألفاً قد جمعتهم هذه الصحراء المتراصة الأطراف وبيود كل فرد منهم أن يعي هذه الموعظة ، وكثير منهم يسمع كلام رسول الله ﷺ للمرة الأولى .

روى البيهقي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أصبح بتبوك حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال وتعلم هذا الجيل منه أنه لو قدر لأى واحد أن يكون أميراً وخطيباً في قومه فلابد أن يحمد الله تعالى ابتداء ، ويشتري عليه بما هو أهله ، وأن يصلى على نبي الهدى والرحمة ، ثم يبدأ بكلامه وخطبته .

وبعد أن حدث رسول الله ﷺ في الجولة الأولى وفي الخطبة الأولى عن خير الناس وشر الناس ، جاءت هذه الخطبة الجامعية المانعة ليحدث عشرات الآلاف هذه عن الخيرية في كل شيء والشرية في كل شيء .

فقد قدم لنا رسول الله ﷺ الخيريات العشر في هذا الوجود :

(١) سبق أن ذكرنا أن هذا الحديث في مسند أحمد ٣٧/٣ - ٤١ .

- ١ - فإن أصدق الحديث كتاب الله .
- ٢ - وأوثق العرى كلمة التقوى .
- ٣ - وخbir الملل ملة إبراهيم .
- ٤ - وخير السنن ستة محمد .
- ٥ - وأشرف الحديث ذكر الله .
- ٦ - وأحسن القصص القرآن .
- ٧ - وخير الأمور عوازمه .
- ٨ - وأحسن الهدى هدى الأنبياء .
- ٩ - وأشرف الموت قتل الشهداء .
- ١٠ - وخير الأعمال ما نفع .

هذه الخيريات العشر التي يحب أن ترسخ في قلوب هذه الآلاف المؤلفة ، يقابلها
الشريات الخمس :

- ١ - شر الأمور محدثاتها .
- ٢ - وأعنى العمى الضلاله بعد الهدى .
- ٣ - وشر العمى عمى القلب .
- ٤ - وشر المغيرة حين يحضر الموت .
- ٥ - وشر الندامة يوم القيمة .

وبعد هذه الكليات من الخير والشر ، يعود إمام المريين صلوات الله وسلامه عليه ليلقى الضوء على بعض الجزيئات الهامة التي تقود هذا الجيل إلى النور وتخرجه من الظلمات ، فيكون موصول القلب بدنياه وأخرته فيريد جيلاً فاعلاً معطاءً عملياً يقول له:

- ١ - واليد العليا خير من اليد السفلی .
- ٢ - وما قل وكفى خير ما كثر وألهي .

ويتصدّد الحديث عن اللهو يذكر يوم القيمة وما سبق أن ذكرناه عن شر الندامة ،
وشر المغيرة .

ويعرض بعدها لمناذج محذورة مرفوضة .

٣ - ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرا .

٤ - ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا .

٥ - ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب .

ليعرض بعدها خمادج محتداة مقتداة في أربع فقرات تتصل بحبلها الوثيق بالخيريات

العاشر الأولى :

١ - وخير الغنى غنى النفس .

٢ - وخير الزاد التقوى .

٣ - ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل .

٤ - وخير ما وقر في القلب اليقين .

ليقابلها عشر خمادج مرفوضة تتصل بحبلها الوثيق في الشريات الخمس الأولى :

١ - والارتياض من الكفر .

٢ - والنباحة من أعمال الجاهلية .

٣ - والغلو من جن جهنم .

٤ - والسكرة من النار .

٥ - والشعر من إيليس ^(١) .

٦ - والخمر جماع الإثم .

٧ - النساء حبالة الشيطان ^(٢) .

٨ - الشباب شعبة من الجنون ^(٣) .

٩ - وشر المكاسب كسب الriba .

١٠ - وشر المأكل أكل اليتيم .

(١) إلا ما استثنى الله تعالى بيقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آتُوا وَعْدَنَا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾

[الشعراء : ٢٢٧] ، وما قاله عليه الصلة والسلام : « إن من الشعر حكمة » .

(٢) النساء حبالة الشيطان إلا الصالحات القانتات الحافظات للغيب .

(٣) إلا من كانت سرائره إلى الله ورسوله .

ويكون جماع هذه الأمور كلها في خطيبين : الشقاء والسعادة .

١ - والسعيد من وُعِظَ بغيره .

٢ - والشقي من شقى في بطن أمه .

ويختصر الدنيا كلها لتعبر من القبر إلى الآخرة .

٣ - وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع .

٤ - والأمر إلى الآخرة .

٥ - وملأك العمل خواقه .

ومن أين يأتي الشقاء فمن هذه الخطوط :

١ - وشر الرؤيا رؤيا الكذب .

٢ - وكل ما هو آت قريب .

٣ - وسباب المؤمن فسوق .

٤ - وقتل المؤمن كفر .

٥ - وأكل حمه من معصية الله عز وجل .

٦ - وحرمة ماله كحرمة دمه .

٧ - ومن يتأنى على الله يكذبه .

ومن أين تأتي السعادة فمن هذه الخطوط :

١ - ومن يغفر يغفر الله له .

٢ - ومن يعف يعف عنه .

٣ - ومن يكظم غيظه يأجره الله .

٤ - ومن يصبر على الرزية يعوضه الله .

وختم رسول الله ﷺ خطبته العظيمة الفذة البليغة بقوله :

١ - « ومن يتبع السمعة يسمع الله به » .

٢ - « ومن يصبر يضعف الله له (الأجر) » .

٣ - « ومن يعص الله يعذبه الله » .

٤ - اللهم اغفر لي ولا متنى - قالها ثلاثاً - أستغفر الله لي ولكم ،

ثلاث وخمسون فقرة كانت هذه الخطبة النبوية جمعت معالم الخير والشر في الحياة، بحيث لو تمثلها هذا الجيل في قلبه وعقله وكانت أكبر زاد له على الطريق وحيث ينقلها كل فرد إلى أهله وقومه وذويه وعشيرته ، فتبني الأمة بهذه الأخلاقيات الكبرى والمحاذير الكبرى كذلك ، وتنهيأ هذه القاعدة العريضة بهذه الخطبة وأمثالها ، لتمثل الصياغة الربانية بالإشراف النبوي الذي اختاره الله تعالى لتحقيق هذه المهمة .

ولم يكفي رسول الله ﷺ بالقاء خطبته على جنده ، أو استقبال ضيوفه ، إنما مضى يطوف على جيشه يتعرف عليهم عن كثب ، ويلتقى بوجوههم وساداتهم ، وجاءتنا لقطة واحدة من هذه اللقاءات قدمها لنا رجل من بنى عذرة اسمه « عدى » إذ يقول :

جئت رسول الله ﷺ بتبوك، فرأيته على ناقة حمراء يطوف على الناس يقول: « أيها الناس يد الله فوق يد المعطى ، ويد المعطى الوسطى ، ويد المعطى السفلى » .

فتوجيهاته ﷺ بجيشه ليست في باب الجهاد فقط ، إنما في كل باب من أبواب الحياة، وهذا التوجيه الذي يود به رسول الله ﷺ دفع أمته للعمل والسعى ، والبعد عن التواكل والدعة ، فجعل يد الله تعالى فوق يد المعطى ، ويد المعطى هي يد الغنى القوى الذي يتصدق ولا يُصدق عليه، وزاد هذا المعنى جلاءً بقوله: « اقتفوا ولو بحزم الخطب » ويد عدى أن ينقلها إلى الأمة كلها وتنقل عنـه : فقال : « اللهم هل بلغت ، اللهم اشهد » ثلاثاً .

وفي غضون ذلك وفي تلك الحلقة التي رآها عدى كانت فرصته سانحة له أن يسأله عن همه وغمّه فقال : يا رسول الله ، كان لى امرأتان اقتلتا ، فرميت فأصبت إحداهما فرمى في رميتي - يعني ماتت - فقال : « تعقلها ولا ترثها » فكان الحكم أن يدفع ديتها ويحرم ميراثها ، وكم فاتنا من الحلقات والتعليمات والاستفسارات التي لم ينقلها لنا أناس مثل عدى العذري رض .

وحتى تحول التعليمات إلى واقع عملى نشهد توجيه رسول الله ﷺ جنوده إلى السعي ، كما حدثنا رافع بن خديج رض يقول : (أقمنا بتبوك ، فأرملي من الزاد ، وقرمنا إلى اللحم ، ونحن لا نجد له ، فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن اللحم ها هنا ، وقد سالت أهل البلد عن الصيد ، فذكروا لي صيداً قريباً ، فأشاروا إلى ناحية المغرب ، فاذهب فأصيد في نفر من أصحابي ؟) .

قال رسول الله ﷺ :

« إن ذهبت فاذهب في عدة من أصحابك ، وكونوا على خيل فإنكم متفرقون من العسكر » .

فلم يعرض عليه رسول الله ﷺ معجزة يطعمنها فيه مع أصحابه ، كما رأينا من قبل مع أصحاب التمر ، ولم يدعه إلى الزهد قائلاً : « مالك واللحم ، والتمر يكفيك » بل أراد له أن يغامر فيصطاد ضمن مراعاة الناحية الأمنية ؛ لأن العدو محظوظ من كل جانب ، ورغم هذا الخطر فلم يمنعه ، لكن دعاه لأخذ احتياطه الكافي من العدة القوية والعدد المناسب ، وخرجت مجموعة الصيادين المهرة ، وعلى رأسهم رافع بن خديج ، وأبو قتادة ، وكان قتادة فارس رسول الله ﷺ (فانطلقت في عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة ، وكان صاحب طرد بالرمي وكانت راميًا ، فطلبنا الصيد ، فأدركنا صيداً ، فقتل أبو قتادة خمسة أحمراء بالرمي على فرسه ، ورميتُ قريباً من عشرين ظبياً ، وأخذ أصحابي الظبيان والثلاثة والأربعة ، وأخذنا نعامة طردنها على خيلنا ثم رجعنا إلى المعسكر ، فجئناهم عشاءً ورسول الله ﷺ يسأل عننا « ما جاؤوا بعد؟ » إنه عليه الصلاة والسلام لم ينس وضع هذا التفر الصغير من بين الثلاثين ألفاً ، وقد خرجوا يصطادون للجيش ، وهو قلق عليهم يخشى أن يغتالهم العدو ، وقلبه على آخر من الجمر يتضرر قدومهم ، فظفر جندي واحد عنده بعدل جيش عدو بأكمله ، وهو لا يريد أن يشغل حرباً فيما حوله ، لكن لو مسَّ هؤلاء التفر خطر لأشعل حرباً مع العدو من أجلهم ، ولا استخف العدو بجيشه وجنته ، وشهدنا في الحديبية كيف قرر رسول الله ﷺ حرباً من أجل عثمان بن عفان حين بلغه أنه قتل ، وكانت بيعة الرضوان . فكما ذكر لنا رافع ثوابه أن رسول الله ﷺ كان يسأل عنهم بقلق بالغ « ما جاؤوا بعد؟ » .

(فجئنا إليه فألقينا ذلك الصيد بين يديه ، فقال : « فرقوه بين أصحابكم » .

وهذا هو جانب التربية العظيم ، فليس هذا الصيد للقيادة فقط ، وللمجموعة التي اصطادت ، ويبقى سراً لا يعلم به أحد كما هو الحال دائمًا عند القيادات التي تستأثر بالخيرات لنفسها ولاتبعها وخواصها بحجة المصلحة العامة ، بينما هو للأمة ولأصحاب المجموعة التي مضت تصطاد ، وليس للمصطادين فقط ، إنها الروح الجماعية التي ينتها رسول الله ﷺ في جنته : « فرقوه بين أصحابكم » وعلى هذا النسق العالى من التربية قلت : يا رسول الله أنت مر به رجالاً ، قال : فأمر رافع بن خديج .

قال : فجعلت أعطي القبيلة بأسرها الحمار والظبي ، وأفرق ذلك حتى كان الذي صار لرسول الله ﷺ ظبي واحد ذبح ، فأمر به فطيخ ، فلما نضج دعا به وعنده أضياف فاكروا .

وتحصة القيادة مثل حصة القاعدة ظبي واحد للرسول ﷺ وضيفاته الذين لا يفارقوه أبداً . وتتوزع القبيلة الحمار الوحشى والظبي ، وذاق الجيش اللحم الذى حرم منه منذ شهر ونيف ، وتحقق الهدف ، لكن لم يعد هناك ضرورة لمثل هذه المخاطرة مرة

ثانية حتى لا تأتى بنتائج أكثر خطورة من ذوق اللحم .

(ونهانا بعد أن نعود ، وقال : « لا آمن » أو قال : « أخاف عليكم ») .

إنه التوازن الكامل بين سلامة الفرد المسلم ، وبين إطعام الجيش المسلم ، وبين تنمية الروح الجماعية والإيثار والتضحية في الصدف المسلم ، بحيث تحقق الخطوات العملية التوجيهات النظرية في السعي للرزق ، والجهد فيه ، مع عدم الاستئثار بهذا الجهد في هذه الرحلة الجماعية الكبرى ، فقد كانت الإقامة في تبوك عشرين يوماً تتحقق فيها أعظم قدر ممكن من التربية نظراً وسلوكاً ، لم ينقل لنا منه إلا هذا النزر اليسير . عشرون يوماً للقاء رسول الله ﷺ مع أكبر عدد ممكن من جنده ، وتقديم أكبر قدر ممكن من هذا الدين ليتفقه به الجيش ، وتوجيه الطاقات كلها لذلك ، ويسعدنا حقاً أن نشهد كل همسة نبوية ، أو توجيه أو إشارة تتفقه منها في دين الله ، فتبوك لم تشهد حرباً ، إنما هي دورة تربوية ضخمة على مستوى الأمة ، نعيش فيها مع سيد الخلق صلوات الله عليه ، وهذه نبذة أخرى نشهدها في تبوك تعطينا إضاءات عن التربية النبوية الخالدة ، هي ليست في مجال الطعام والشراب ، إنما في مجال الجهاد .

المخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيمة :

(وأهدى رجل من قضاة إلى النبي ﷺ فرساً فأعطاه رجلاً من الانصار ، وأمره أن يربطه حاله استنساً بصهيله ، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة) .

ولا شيء أغلى من الفرس يهدى للمجاهد ، وسعادة رسول الله ﷺ به أن يكون بجواره لיסטانس بصهيله ، فصهيله مثار عز وقوة ، ولم يبعده عنه ﷺ طيلة إقامته بتبوك ورافقه إلى المدينة ، وهو غير فرسه الظرب الذي ستحدث عنه فيما بعد ، ريشما نتابع رحلتنا مع الفرس الهدية إلى المدينة حيث افتقد رسول الله ﷺ صوته بعد الوصول إلى المدينة بأيام فسأل جنديه الانصارى عن ذلك فقال : خصيته يا رسول الله ﷺ ، وكانت هذه مناسبة طيبة جداً للحديث عن المخيل وفضل اقتناها في سبيل الله . نستمع إلى التوجيه النبوى فيه :

« فإن المخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيمة ، اتخذوا من نسلها ، وباهوا بصهيلاها المشركين » .

فلا بد أن تناضل المخيل العربية الأصيلة ، ولا بد أن تكون السلاح الذى لا يفل للمسلمين ، وصهيلاها حين تكون ذات أعداد ضخمة تثير الرعب فى صفوف المشركين ، « وباهوا بصهيلاها المشركين » . لقد كان سلاح الفرسان فى بدر التاريخ فرسين فقط ، واليوم بلغ سلاح الفرسان عند رسول الله ﷺ عشرة آلاف فرس . وتأتى الدعوة النبوية

لإكثار نسلها والاستزادة منها ، ثم هي « أعرافها أدفاوها وأذنابها مذابها » فهي تقوم بأود نفسها ، ولا تحتاج إلا إلى علفها ، ودواوها فيها ، ولكن هذه الخيل ليست للمباهة والفحفختة والاستكبار كما هي الحال عند الكثير من يقتنونها ، إنها أداة الموت والشهادة في سبيل الله ، وهي التي تقدم المسلم وروحه مهراً للجنة ، ولهذا انتقل رسول الله ﷺ إلى الحديث عن الشهداء والشهادة في صورة حية تقاد تلقظت تلفزيونياً من عظمة وصفها : « والذى نفسى بيده إن الشهداء ليأتون يوم القيمة بأساففهم على عوائقهم لا يمرون بأحد من الآباء إلا تنجى عنهم ، حتى إنهم ليمرن بإبراهيم خليل الرحمن ، فيتنجى لهم حتى يجلسوا على منابر من نور ، يقول الناس : هؤلاء الذين أهريقوا دماءهم لرب العالمين ، فيكون ذلك حتى يقضى الله عز وجل بين عباده . . . » فهم وفد الرحمن المكرم على منابر من نور ، يطوفون بين صفوف الخلق ، وتفسح لهم الطرقات ، ومعهم سيفهم ، ولماذا هذا العرض العسكري في عرصات يوم القيمة ، إنه تكريم لهم لأنهم أهروا دمهم في سبيل الله عز وجل ، فيجلسون على سدة الاحتفال العليا ، بحيث يراهم الخلق جميعاً ، وهم يعانون ما يعانون من أهوال يوم القيمة .

وعودة إلى فرس رسول الله ﷺ الظرب - الفرس الرفيق لرسول الله ﷺ في رحلته من المدينة إلى تبوك ، وقام في خلال الإقامة هناك إلى صديقه ، فعلق عليه شعاره ، وجعل يمسح ظهره بردائه ، أى إكرام لهذا الفرس الذى تود عشرات الآلوف من الرجال أن ينالوا مثله يمسح ظهره بردائه ، ويقلده شعاره .

(قيل يا رسول الله ، تمسح ظهره بردائك ؟) ونحن نود ذرة من ذلك الرداء تبرك به ، ونسع به على قلوبنا وظهورنا ، فليهنك الله أيها الفرس السبوح بهذا الفخر ، خاصة ورسول الله ﷺ هو الذى يجيب عن هذا المسح بقوله : « وما يدريك ؟ لعل جبريل أمرنى بذلك ، مع أنى قد بت الليلة ، وإن الملائكة لتعاتبني فى مسى الخيل ومسحها » وأى معانٍ من الحماس والحب للخيل تتدفق في قلب هذا الجيل الربانى نحو الخيل وإكرامها بعد سماع معاتبة الملائكة لحبيب رب العالمين فى التقصير فى حسُّ الخيل ومسحها .

ويتابع الرسول ﷺ إيقاد هذه القلوب بهذا الحب لاقتناء الخيل والاعتناء بها ، والاهتمام بأحساسها ومشاعرها ، (وقال : « أخبرنى خليلى جبريل أنه يكتب لى بكل حسنة أوفيتها إيه حسنة ، وإن ربي عز وجل يحط عنى سبعة . . . ») وحتى لا يتدسس الشيطان في هذا الجيل الحبيب فيوسوس له أن هذا الفضل خاص برسول الله ﷺ ، جاء الكلام النبوى المعجز ليروى ظماً كل فرد في هذا الجيش تجاه فرسه « وما من أمرئ من المسلمين يربط فرساً في سبيل الله فيوفيه بعلفة ، يلتمس به قوته إلا كتب الله له بكل

حبة حسنة ، وحطَّ عنه بكل حبة خطيئة ١ .

وسعد الجيل السعيد بما وعده ربه ، وكانت فرصة لسؤال خيير الخيول العربية رسول الله ﷺ عن أنواعها ، وأجوادها ، فقيل : يا رسول الله ، وأى الخيل خير ؟ فقد تافت نفس كل جندي ليقتنى فرساً أو حصاناً في سبيل الله ، فأى الخيل خير ؟ قال : « أدهم ١) ، أقرح ٢) ، أرثم ٣) ، محجل ٤) الثالث ، مطلق اليمين ، فإن لم يكن أدهم فكميت ٥) على هذه الصفة ٦) .

وإذا كانت الأمة قد خرجت كلها لتفقه في الدين مع رسول الله ﷺ ، فهى الفرصة المناسبة للسؤال عن كل شيء (قيل : يا رسول الله ، فما في الصوم في سبيل الله ؟ قال :

« من صام يوماً في سبيل الله تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة سنة كأغذ السير ٧) . »

وتتحرك لواقع المهاجرين المنقطعين عن أهليهم ما ينوف عن شهر ونيف ، ما هي أوضاعهم وما هي أحوالهم ؟ هم مطمئنون عليهم ، فمسلمة بن مخلد ، وعلى بن أبي طالب ، فارسي رسول الله ﷺ ، يشيران الرعب في قلب كل منافق تحدثه نفسه الماس بنساء المجاهدين ، وكأنما يغضي رسول الله ﷺ في رحلة داخلية إلى أعماقهم ، ويستجيشن أشواقهم إلى أهليهم قائلاً : « ولقد فضل نساء المجاهدين على القاعددين في الحرمة كأهميةهم ، وما من أحد من القاعددين يخالف إلى امرأة من نساء المجاهدين إلا وقف يوم القيمة فيقال له : إن هذا خاتك في أهلك فخذ من عمله ما شئت ، فما ظنك ؟ ٨) . »

وهذا فرس آخر يُهدى لرسول الله ﷺ من عبيد بن ياسر السعدي من أهل قضا واسمها : مُراوح ، ولمعرفة عراقة الفرس عرضه عبيد للسباق فسبق ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وجاء فارس الإسلام الأول أو الثاني أحد أبطال بدر : المقداد بن عمرو يستهدي هذه الفرس من رسول الله ﷺ ، وللنظر إلى هذا الحوار الطريف بين القائد العظيم ﷺ وفارسه :

قال رسول الله ﷺ : « أين سبحة ؟ ٩) (فرس للمقداد المشهور شهد عليها بدرأ) . »

قال : يا رسول الله ، عندي قد كبرت وأنا أضن بها للمواطن التي شهدت عليها ،

(١) الأدهم : إذا اشتتد سواده .

(٢) الخيل الأقرح : هو ما كان في جبهة فُرحة ، وهو ياض يسير في وجه الفرس دون الغرة .

(٣) الأرثم : الذي أنهى أليس وشفته العليا .

(٤) المحجل : هو الذي يرتفع البياض في قوامه إلى موضع القيد .

(٥) الكميـت : الذي خالط حمرته قنوـه .

وقد خلقتها بعد هذا السفر وشدة الحر عليها ، فاردت أحمل هذا الفرس المعرق عليها فتائيني بغير .

قال النبي ﷺ : « فذاك إذن » .

ولن يضن المصطفى الحبيب ﷺ على أعز جنوده عليه بهذا الحصان ، يحمله المقداد على فرسه سبعة لتنجح خيلاً عراباً أصيلة قوية ، وتم ذلك . (فتاجت له مهرًا كان سابقاً يقال له : الزيال سبق في عهد عمر وعثمان ، فابتاعه منه عثمان بثلاثين ألفاً) .

ومن معين التربية أن يكرم رسول الله ﷺ فرسانه ، وتبلغ قيمة الفرس الأصيلة ثلاثة ألف ، كما يطالعنا من طرف آخر فرسان آخرون كان على رأسهم عباد بن بشر ، وهم الحرس النبوى الخاص ، فكان عباد بن بشر يطوف على أصحابه فى العسكر ، فقدأ على رسول الله ﷺ يوماً فقال : يا رسول الله ما زلت نسمع صوت تكبير من ورائنا حتى أصبحنا ، فوليت أحذنا يطوف على الحرس ؟ قال رسول الله ﷺ : « ما فعلت ، ولكن عسى أن يكون بعض المسلمين على خيلنا انتدب » ، وكانت أخلاقيات هذا الجيل تبرز ثمرة عظمة التربية النبوية .

(فقال سلكان بن سلامة : يا رسول الله خرجت في عشرة من المسلمين على خيلنا ، فكنا نحرس الحرس) فهي الأعماق الصافية الظاهرة التي تحمل هم حراس رسول الله ﷺ أن ينالها سوء ، فتتضى دون تكليف ولا تهديد ولا تلميح ، تضى لتحرس حرس المصطفى ﷺ ، وقررت عين المصطفى لهذا المستوى العالى الذى ارتفع له جنده وقال : « رحم الله حرس الحرس فى سبيل الله ، فلكم قيراط من الأجر على كل من حرست من الناس جميعاً أو دائبة » .

وهو الجيل الذى يتنافس على الأجر ، طارداً الذكر والصيت بعيداً عن حياته ، بعد أن غدا حياته وماته لله ، وهذا محمد بن حمزة بن عمر الأسلمي رض يحدثنا عن قصة أبيه ونحو السمن والإعجاز فيه ، وحمزة من أهل بيضة الرضوان يكرمه ربه برفقة حبيبه المصطفى فى تبوك ، ورؤية المعجزات التى لا تكاد تتقطع فيزداد قلبها هدى ونوراً يضىء به للسلالكين من بعده قال :

(خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وكنت على خدمته ذلك السفر ، فنظرت إلى نعى السمن قد قلَّ ما فيه ، وهياط للنبي ﷺ طعاماً ، فوضعت السمن فى الشمس وفت فاتبعت بخريث النحى فقمت فأخذت برأسه بيدي ، فقال رسول الله ﷺ ورأى :

« لو تركته لسال وادي سمنا » (١) .

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/١٩١، وقال فيه : رواه الطبرانى من طريقين إحداهما فى علامات النبوة ورجالها ونقوا .

إن السمن ليستأذن ربه جل وعلا أن ينمو ويبارك على يد نبيه المصطفى ﷺ ، كما ينمو ويبارك التمر واللحم والماء والطعام ، والمنفذ الوحيد الذي وصلنا منه هذا المجد للسمن هو منفذ محمد بن حمزة بن عمر الأسلمي والذي مضى القرون تلو القرون نسمع لتلك المعجزة النبوية : « لو تركته لسال الوادي سمنا » .

ثالثاً : المزنیان نموذجان للإیمان الخالص :

المزنی الأول :

وهذا منفذ آخر ومعجزة أخرى وردت لنا عن طريق معاوية بن أبي سفيان ؓ وأنس بن مالك ؓ وروته العديد من كتب السنة (١) .

(فعن أنس قال : كنا مع رسول الله ؓ بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى) ، وهذا يعني أن ظاهرة يحتفل بها الكون حتى بدت الشمس وكأنها في عرسها ، فأتى جبريل رسول الله ؓ فقال رسول الله ؓ : « يا جبريل مالي أرى الشمس اليوم طلعت بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى؟ » . قال : ذلك معاوية بن معاوية المزنی مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله تعالى سبعين ألف ملك يصلون عليه .

فهو عبد مؤمن صادق الإیمان ، قلبـه مع الله ورسوله ، وقد جاء أجله وليس في المدينة إلا منافق مغمومـص عليه في النفاق حاشـا على وابن مسلمة ، والثلاثة المخلفـين ، فهل يكفي هؤلاء ليصلـون على سيد من سادات أهل الآخرة ؟ لهذا بعـث الله تعالى من سماواته العـلى سبعين ألف ملك يصلـون عليه .

وإذا كان الله تعالى قد أنـزل سبعين ألف مـلك من عـليـاه سـماواتـه ، فـهل يـعجزـه - تعالى الله عن ذلك - أن يـأـتـي بـسـيد ولـدـ آـدـم وـرـسـول ربـ الـعـالـمـين الـذـي تـلقـى مـعاـويـة بن مـعاـويـة النـور وـالـهـدـى عـلـى يـدـيه ، هل يـعـجز ربـ الـعـالـمـين أن يـحـضـر إـلـى المـديـنـة ليـومـ الملـائـكـة ، وـيـشـهـد عـرـسـ مـعاـويـة وـزـفـافـه إـلـى الجـنـة ؟ إـنـ الله لا يـعـجزـه شـئـ فـي الـأـرـض وـلـا فـي السـمـاء ، وـكـانـتـ الاـوـامـر صـادـرـة لـلـروحـ الأمـيـنـ جـبـرـيلـ أنـ يـحـضـرـ مـحـمـداً ؓ يـوـمـ مـلـائـكـةـ السـمـاءـ بـالـصـلـاـة عـلـىـ المـزنـى ، وـلـاـ غـرـوـ فقدـ أـمـانيـاءـ اللهـ مـنـ قـبـلـ فـيـ الـقـدـس ، فـلـمـ لـاـ يـوـمـ مـلـائـكـةـ اللهـ وـجـنـدـهـ فـيـ المـديـنـةـ ، وـهـوـ الـيـوـمـ فـيـ وـسـطـ الـطـرـيـقـ بـيـنـ الشـامـ وـالـحـجـاجـ ؟

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وابن سعد ، والبيهقي وأبو يعلى .

(قال جبريل ... فهل لك في الصلاة عليه ؟ قال : « نعم ») .

وما أسعد الجبال والأكادم والأودية أن سيمر عليها اللحظة أعظم وفد في الوجود : الروح الأمين جبريل وسيد ولد آدم محمد ﷺ ، وقد أعلمت بذلك فراحت تتطامن وتتساقق ليطأها سيد الخلق .

(فخرج رسول الله ﷺ يمشي ، فقال جبريل بيده هكذا يفرج له عن الجبال والأكادم ومع جبريل سبعون ألف ملك) فهذا الوفد كله لرافقة عبد الله ورسوله محمد ﷺ من تبوك إلى المدينة .

(فصلى رسول الله ﷺ ، وصف الملائكة خلفه صفين ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبريل : « بم بلغ هذه المزلة ؟ ») .

ولا عجب أن يسأل رسول الله ﷺ جبريل عن هذه الحظوة لهذا العبد الصالح عند ربه ، فهو لا يعلم الغيب ، ولا يعلم إلا ما علمه الله ، فهو يعلم صاحبه سعد بن معاذ الذي اهتز له العرش فرحاً بمقدمه وخشي رسول الله ﷺ أن تسبق الملائكة الصحابة إليه ، ويعرف جهاده وفضله وسابقته . لكن معاوية بن معاویة المزنی الذي تختفي ملائكة السموات السبع بوفاته ، ويُستدعي رسول الله ﷺ من المدينة ليصلّى عليه ، لا يعلم سر هذه الحظوة ، وجاء الجواب من رب السموات والأرض على لسان جبريل الأمين :

(قال : « بحبه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يقرؤها قائمًا أو قاعداً أو راكباً أو ماشياً وعلى كل حال ») (۱) .

فهو إنسان يعيش في قلبه ولسانه مع ربه جل وعلا في كل لحظات حياته ، يشهد وحدانيته ، وتفردته بالربوبية ، ولا يغيب عن قلبه لحظة من اللحظات ، وحق لمثل هذا العابد الموصول بالله أن تختفي السموات والأرض ، وتطوى الأرضين لرسول الله ﷺ ليصلّى عليه ، فهو يحب ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ويقرؤها ويتلوها في ليله ونهاره ، في سره وعلانيته ، وعلى جميع أحواله ، فلم لا ينال هذه الحظوة إذا .

(۱) ذكر الحافظ ابن حجر حول صحة هذا الحديث ما نقله الصالحي عنه ، قال الحافظ في لسان الميزان في ترجمة محبوب بن هلال : هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وله طرق يقوى بعضها بعضاً ، وقال في فتح الباري ، في باب الصنفون على الجنارة : إنه خير قوى بالنظر إلى جميع طرقه . وقال في اللسان في ترجمة نوح بن عمرو : طريقه أقوى طرق الحديث . انتهى وأورد التوسي الحديث في الأذكار في باب : الذكر في الطريق ، فعلم من ذلك رد قول من يقول : إن الحديث موضوع لا أصل له ، ولعله يقصد قول ابن كثير في البداية والنهاية ۴ / ۱۴ : وهذا الحديث فيه غرابة شديدة ونکارة .

المزنى الثاني :

ويشتراك المزنانيان إضافة إلى أنهما من قبيلة واحدة في أن قلبهما عامر بالإيمان منورٌ بنور الله ، ولم نسمع عن أحد منهما مشاركته في غزوة أو سابقة له في الدين ، وهذه قصة صاحبنا المزنى الثاني - ذي البجادين - عبد الله :

(كان عبد الله ذو البجادين من مزينة مات أبوه وهو صغير ، فلم يورثه شيئاً ، وكان عمه ميلأ فأخذه فكفله حتى أيسر ، وكانت له إبل وغنم ورقيق ، فلما قدم رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ إلى المدينة ، جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ، ولا يقدر عليه من عمه حتى مضت السنون والمشاهد كلها) .

وماله للإسلام ، وهذه الدنيا قد فتحت ذراعيها له ، وأشرقت له ، وابتسمت له الحظوظ بعد أن كان فقيراً مدقعاً ، فإذا هو صاحب الإبل والغنم والرقيق ، وهي ثروة يحلم بها شبان عشيرته جميعاً ولا يصلون إلى القليل القليل منها ، وهو يعلم أن عمه ولى نعمته ، وعمره لا يحب الإسلام ، بل ويتعصّب من ذكره ، أما قلب صاحبنا المزنى فلم يكن فيه موقع لهذه الدنيا رغم أنها مرتبة بين يديه ، إن قلبه يتوق إلى محمد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ ويحلم في اللحظة التي تكتحل عيناه بمرآه ، (فانصرف رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ من فتح مكة راجعاً إلى المدينة) .

وبلغ السيل الزبى عند عبد الله . فحتم يتضرر ، وكانت اللحظة الخامسة التي كاشف فيها عمه بما تعتلج به نفسه :

(فقال عبد الله ذو البجادين لعمه: يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمداً، فائذن لي في الإسلام ! فقال : والله لئن اتبعت محمداً لا أترك يدك شيئاً كنت أعطيتك إلا نزعته منك حتى ثوبيك) .

وكانت مفاجأة صاعقة له ، فهو ليس مع رجل حيادي ، وليس مع رجل يهوى محمداً ، بل هو مع رجل عدو لـ محمد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ ولديه ، وليس الأمر أمر غضب من عمه أو عتب عليه ، بل هو أمام مصير يتحطم ، ومستقبل يهدم ، وثروة تجثث ، وما يُترّع ، وعودة إلى ما كان عليه أيام فقره و حاجته وعزّه ، ترى هل يعتذر عن ذكر ما يؤذى عمه ، ويعلن له أنه إنما أخطأ و هو يتوب عما بدر منه ؟ أم يصمت عن هذا الموضوع ، حتى تأتى الفرصة السانحة ، فيعيد ذكر الإسلام أمام عمه ؟ وماه للإسلام وهو في هذه الصحراء يتنهى في ماله وجاهه وعزه وثروته ورقيقه ، يتحسر على وضعه معظم قريان العشيرة ، وكيف تكون شماتة الحساد والبغضين . والشائين له إن عاد لا يملك شروى نقير ؟

لا شك أن هذه الخواطر قد هيّجها الشيطان على قلبه ، وكاد يمسك بختاقه فيختقه عن أن يمضي إلى محمد ، كما في الحديث النبوي الشريف :

« إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتدرب دينك ودين آبائك وأباء آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر ، ثم قعد له في طريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقوّاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقوّاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقوّاً على الله أن يدخله الجنة . وإن وقصته دابة كان حقوّاً على الله أن يدخله الجنة » (١) .

أما صاحبنا هذا فقد جاء الشيطان دفعة واحدة له بكل هذه الثلاثة ، لكن القلب المعمور بين جنبيه بحب الله ورسوله جعل الدنيا عنده جناح بعوضة كما هي عند ربه عز وجل ؛ لأنّه يستمد نظرته إليها من ربه ، ومن يعرفحقيقة هذا القلب إلا خالقه وفاطرها ؟ ومن يعرف من الجيش الإسلامي ودولة الإسلام ، وتاريخ البهاليل من المسلمين خلال واحد وعشرين عاماً شيئاً عن قلب هذا الأعرابي ؟ لا أحد . فهو نسي منسى لا وجود له في تاريخ الإسلام الحافل ، أما عند الله تعالى فهو مثل أخيه معاوية ، الذي لم يعرف مقامه عند ربه إلا بمorte ، لكن صاحبنا هذا يتم التعرف عليه قبيل موته .

(فقال عبد العزى - وهو يومئذ اسمه : وأنا والله متبع محمداً ومسلم ، وترك عبادة الحجر والوثن ، وهذا ما يبدى فخذه) وهي صورة صهيب بن سنان تتجدد يوم أعطى ماله كله ليغور بالهجرة في سبيل الله ، فلم يدعه الله تعالى من ثناه بقوله : « ومن الناس من يُشري نفسه ابغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد » (٢٠٧) [البقرة] .

وهذا صهيبنا الثاني يسلم كل ثروته لعمه (فأخذ كل ما أعطاه حتى جرده من إزاره) ويبح هذا المجرم هل يبلغ به الحقد إلى هذا الحد ، وهل يبلغ الإيمان بالمؤمن حتى هذا الحد ، أن يصبح عارياً حتى من إزاره ليغور بصحبة حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام ، ومضى سريعاً إلى أمه ، تلك المؤمنة التي ربته ليدخل عليها بلا إزار ويقص علىها قصته ، فقامت وليس في قومها في هذا الحزب إلا هى وابتها ، قامت إلى البجاد - إلى بساط البيت الذى تجلس عليه - فقطعته قطعتين جعلت أحدهما إزاراً لحبيبها عبد العزى ، وثانيهما رداء ، وودعته لينقل تحياتها لهذا الذى اختاره رب العالمين رسوله إلى خلقه ،

(١) أحمد والنسائي وأبي ماجة ، وهو عند أحمد ٤٨٣ / ٣ وهو صحيح .

(فأئنّى أمه فقطعت بجاذباً لها باثنين فاتتني بأحددهما وارتدى بالآخر ثم أقبل إلى المدينة ، وكان بورقان جبل من حمى المدينة) وهو يمضى ويكان يتقد حرّاً من ردائه ويتقد شوّفاً للحظة لقاء حبيبه ، (فاضطجع في المسجد في السحر ، ثم صلّى رسول الله ﷺ الصبح ، وكان رسول الله ﷺ يتصف الناس إذا انصرف من الصبح) إذ هو به أمام رجل غريب لم تسبق أن وقعت عيناه عليه ، ويلفت النظر بطرافته وطراقة ملبيه ، وخشونة عيشه ، ترى هو جنى أو إنسى بهذا اللباس الموحش الموجل في الأعرابية . (فأذكره ، فقال : « من أنت ؟ » فانتسب له ، فقال : « أنت عبد الله ذو البجادين » ثم قال : « انزل مني قريباً » ولم يقل له : اغرب عن وجهي لا أراك بعد اليوم ، إنما قال له : « انزل مني قريباً » فكان يكون في أضيافه ويعلمه القرآن) ، ووصل ذو البجادين إلى حلمه ، ترى هو في حلم أم في يقظة ، وحتى الآن لا كسام له إلا بجاديه يتوضّح بهما في قلب هذا اللظي حتى قرأ قرآننا كثيراً والناس يتجهزون إلى تبوك .

وارتفع ذو البجادين ليغدو من أهل الله ، فقد كان يسبح الله ويقدسه في أعماقه بما يفتح الله عليه ، أما اليوم فهو مع القرآن وكلام الله (وكان رجلاً صيناً فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة ، فقال عمر : يا رسول الله ، لا تسمع إلى هذا الأعراب يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة) وعندما يتكلم عمر بن الخطاب فهذا يعني ظاهراً إظهار أمر بإبعاد هذا الأعرابي الغليظ الذي يُنقل على الناس ويشغلهم عن عبادتهم لكن الأوامر العليا عكس ذلك : « دعه يا عمر » فهو إذن من خاصة رسول الله من لا يناله سلطان عمر بن الخطاب ولا أعلى منه « دعه يا عمر ، فإنه خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله » ومن الهجرة إلى الجهاد ، فها هو يمضى بجاديه لا يملك غيرهما ، ولا يريد من الدنيا إلا شيئاً واحداً . وهذا الشيء أن يفارقها شهيداً ، ومحط الآمال عند قائد هذه الحبيب ف جاء إليه قائلاً : (يا رسول الله ، ادع الله لي بالشهادة . قال : « أبلغني لحاء سمرة » وهرول صاحبنا إلى لحاء السمرة يتשוק أن تكون الشهادة فيها ، فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال : « اللهم إني أحرم دمه على الكفار » ولم يكدر يصدق ما يسمع ، ولا تزال الكلمة ترن في أذنه « أحرم دمه على الكفار » وعاماً قلبه ، ووعتها جوارحه ، وليس هذا الذي يريد فلم يتمالك أن قال : « يا رسول الله ، ليس أردت هذا » إنما أراد أن يُحلَّ دمه على الكفار فيجري أنهاراً على يديهم ليذوق طعم الشهادة في سبيل الله ، وهل يا ترى لفقره وعوزه وبجاديه لا يستحق الشهادة . وعلمه حبيبه المصطفى ﷺ مذاقاً جديداً للشهادة لم يسمع به من قبل « إنك إذا خرجمت غازياً في سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، ووقصتك دابتكم فأنت شهيد ، لا تبالي بأية كان » . فلما نزلوا تبوك فاقاموا بها أياماً كان صاحبنا ذو البجادين قد أخذته الحمى ، وأرتفعت حرارته ،

وُنْقَل لسانه ، و(توفي عبد الله ذو الْجَادِين) حيث لم يدر بوفاته إلا رجل من قومه مزينة جيء به ليحضر هذه الوفاة حتى لا يكون وحده ، وراح يحدثنا عن اللحظات الأخيرة التي غيّب فيها هذا الأعرابي المزنى في جوف الشرى ، ولا يملك من الدنيا إلا بجاديه ، ويحضر بلال بن الحارث (كاميرته) لتلتقط جنازته التي لم يحضرها إلا خمسة أو ستة من عشرات الآلوف هناك ، وفي بهيم الليل مما اضطربهم أن يحضروا شعلة من نار لدفته ، وسيسلط بلال (كاميرته) في هذا الليل البهيم وتکاد تلتقط الصورة للحاضرين ، فمن هم؟

(فكان بلال بن الحارث يقول : حضرت رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفاً بها ، وإذا رسول الله ﷺ في القبر ، وإذا أبو بكر وعمر يدلانيه إلى النبي ﷺ وهو يقول : « أدنى إلى أخاكما » فلما هيا له شقه قال : « اللهم إني أسيّط عنه راضياً فارض عنه » فسيد الخلق سيد ولد آدم يشهد ربّه أنه راض عنه ، فهو آخر من مسأله ودفنه وهيأ له شقه ، أما مساعداه فرئيس الوزراء ونائبه ، هؤلاء الثلاثة هم الذين تولوا دفن هذا الأعرابي ذي الْجَادِين ، ويسترق ابن مسعود رضي الله عنه النظر والمشهد ويستمع للدعاء رسول الله ﷺ له وهو يدفنه ويوسده التراب (فيقول : يا ليتني كنت صاحب هذا اللحد) ويتمناها كل مؤمن في هذا الوجود أن يوسد التراب بيد نبيه ، ويقول له : « اللهم إني أسيّط عنه راضياً فارض عنه » آه ، آه ، آه ، يا ليتنا كنا أصحاب ذلك اللحد ، وتناول رضا المصطفى كما ناله ذو الْجَادِين ؟ !

تبوك ... الدولة

لقد كان أكبر جيب نصراني تابع للروم في الأرض العربية هو جيب دومة الجندل ، وكان لل المسلمين جولات عديدة معه منذ السين الأولى لدولة الإسلام .

أولاً: ففي سنة خمس للهجرة غزا رسول الله ﷺ بنفسه غزوة الجندل ، وكانت هذه الغزوة كما ذكرها ابن إسحاق في السيرة .

(غزوة دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس)

قال ابن إسحاق : (ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فأقام من مقدم رسول الله ﷺ بها أشهراً حتى مضى ذو الحجة ، وولى تلك الحجة المشركون وهي سنة أربع ، ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل) ، قال ابن هشام : (في شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى) ، قال ابن إسحاق : (ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيداً ، فأقام بالمدينة بقية سنته) (١) .

وكانت هذه الغزوة استعراضية على أعقاب ليل المحنـة الطويل في أحد والرجـع ومعونة وقبيل غزوة الخندق ، وبعد غزوة بدر الآخرة .

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه قال مخاطباً قريشاً عقب غزوة بدر الآخرة :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| دعوا فلجلات الشام قد حال دونها | جلاد كأفواه المخاض الاوارك |
| بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم | وأنصاره حقاً وأيدي الملائك |
| إذا سلكت للغور من بطن عالج | فقولا لها ليس الطريق هنالك |
| فإن نلق في تطاوفنا والتماسنا | فرات بن حيان يكن رهن هالك (٢) |

ومن أجل التنفيذ العملي للسيطرة على طريق الشام الذي تحدث عنه حسان ، كانت غزوة دومة الجندل في هذا الوقت المبكر .

ثانياً: سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ست :

حدثني سعيد بن مسلم بن قمادين عن عطاء بن أبي رياح عن ابن عمر قال : (دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فقال : تجهز فإني باعثك في سرية من يومك هذا

(٢) المصدر السابق ٤/٢١١ .

(١) السيرة النبوية لأبي هشام ٤/٢١٣ .

أو من غد إن شاء الله ، فسمعتُ ذلك فقلت لادخلن فأصلين مع النبي الغداة فلاسمعن وصيته لعبد الرحمن بن عوف ، قال فغدوت فصليت فإذا أبو بكر وعمر وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دُومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن : « ما خلفك عن أصحابك ؟ » - قال ابن عمر : وقد مضى أصحابه في السحر فهم معسكون بالجرف ، وكانوا سبعمائة رجل - فقال : يا رسول الله ، أحببت أن يكون آخر عهدي بك وعلى ثياب سفري . قال : وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفها على رأسه - قال ابن عمر : فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه فنقض عمamته بيده ، ثم عممه بعمامة سوداء . فارخي بين كفيه منها ثم قال : « هكذا فاعتم يا بن عوف » قال : وعلى ابن عوف السيف متتوشحه ثم قال رسول الله ﷺ :

« اغز باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً » ...

قال : فخرج عبد الرحمن بن عوف حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دُومة الجندل ، فلما حلّ بهم دعاهم إلى الإسلام فمكث بهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبيخ بن عمرو الكلبي - وكان نصرانياً وكان رأسهم - فكتب عبد الرحمن بن عوف إلى النبي ﷺ يخبره بذلك ، ويبعث رجلاً من جهينة يقال له : رافع بن مكث ، وكتب يخبر النبي ﷺ أن يتزوج بنت الأصبيخ تماضر ، فتزوجها عبد الرحمن وبني بها ، ثم أقبل بها وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف) .

(حدثني عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عوف عن صالح بن إبراهيم أن النبي ﷺ بعث عبد الرحمن بن عوف إلى كلب ، وقال : « إن استجبابوا لك فتروج ابنة ملكهم أو ابنة سيدهم » ، فلما قدم دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا ، وأقاموا على دفع الجزية وتزوج عبد الرحمن بن عوف تماضر بنت الأصبيخ بن عمرو ملكهم ، ثم قدم بها المدينة وهي أم أبي سلمة) (١) .

وتضمنت الروايات بعدها عن وضع دومة . ودخول ملكهم بالإسلام منذ السنة السادسة إلى السنة التاسعة لشهاد توجيه رسول الله ﷺ خالداً إلى أكيرد دومة .

والمرجح أن الروم عادوا فاستعادوا دومة وقضوا على المسلمين ، وملكوها أكيرد بن

(١) المغارى للواقدى / ٢ - ٥٦٢ .

عبد الملك ، وبلغت الاخبار رسول الله ﷺ فوجد الفرصة سانحة لاسترداد هذا الثغر الإسلامي الذي تعدى النصارى واحتلوه وأجلوا المسلمين عنه ، ويقاء هذا الجيب بيد النصارى التابعين للروم هو تهديد للقوة الإسلامية التي ملكت الساحة العربية كلها .

قال الواقدي عن شيوخه : (بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك في أربعينات وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بذمة الجندل ، وكان أكيدر بن كندة قد ملكهم ، وكان نصرانياً) .

بينما كان الأصبعي بن عمرو كلبياً من قومه ، أما أكيدر فهو من كندة وقد ملكهم وسيطر عليهم ، ومن تبوك إلى ذمة الجندل مسافات شاسعة تتقطع فيها الرقاب ووسط أرض لا يعرف خالد عنها شيئاً .

(فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لي وسط بلاد كلب ، وإنما أنا في أنساب يسير؟
فقال رسول الله ﷺ : « ستجلده يصيد البقر فتأخذنه ») .

وكان خالد هو البطل الذي أنقذ المسلمين في مؤتة ، وحاز على لقب سيف الله ، وتكسرت في يده تسعه أسياف ولم يثبت بيده إلا صفيحة يمانية ، فهو ابن الصحراء ، وأبو المهمات الصعبة ، لكن أربعينات فارس حين يوغلون في وسط بلاد كلب بما هم فاعلون في قلب هذا البحر الخضم من العدو ، وجاء الجواب التبوى لقائده الفارس : « ستجلده يصيد البقر فتأخذنه » وفقه خالد رضي الله عنه من نبيه المصطفى ﷺ أن الطريق مأمون ، وأن المهمة العسيرة عليه هو أن يأتي به حياً أسيراً ، لكن النص التبوى يؤكد أنه سيأخذنه ، وهذا يعني أن كل السبل ستذلل لتحقيق هذه النبوءة ، وسوف تسخر كل الطاقات لتختبر هذه المهمة وهذا ما حدث بالفعل ، فبقر الوحش كلفت من رب العالمين بمهمة أن ترك مواقعها في الصحراء وتتجه لخصن أكيدر فتدعوه إلى صيدها ، استجابة لدين الله : « **وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** » [آل عمران : ٨٣] .

(فخرج خالد حتى إذا كان من حضنه بنظر العين في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت أبيف بن عامر من كندة ، وصعد على ظهر الحصن من الحر ، وقيته تغنية ، ثم دعا بشراب فشرب ، فأقبلت البقر تحك بقرونها بباب الحصن ، فأقبلت امرأته الرباب فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت ما رأيت كالليلة من اللحم ، هل رأيت مثل هذا قط؟ قال : لا ، ثم قالت : من يترك هذا؟ قال : لا أحد . قال : يقول أكيدر : ما رأيت جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة ، ولقد كنت أصم لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً أو أكثر ، ثم أركب بالرجال وبالآلة) كان هذا في غير التسخير الرباني لنبيه وعبده ، حيث يضطر أكيدر تهيئة خيله شهرًا للصيد ، أما اليوم فالبقر تناديه : هل إلى

اللحم ، ولا يضيرها أن تكون الفدائية في سبيل الله . كما صدر أمر رباني آخر إلى الخيل المسلمة أن تتنزع عن الصهيل خلال هذه الساعات التي يخرج فيها أكيدر ، وليس بقر الوحش بأطوع من الخيل المسلمة لله سبحانه ، والتي يمتطيها حزب الله ، ونفذت الخيل الأوامر الربانية إكراماً لرسول الله ﷺ .

(فنزل فأمر بفرسه فأسرج ، وأمر بخيل فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، معه أخوه حسان وملوكان ، فخرجو من حصنه بمطاردهم ، فلما فصلوا من الجيش ، وخيل خالد تنظرهم لا يصلح منها فرس ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان ، فقاتل حتى قُتل وهو في الملوكان ، ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن ، وكان على حسان قباء دياج مخصوص بالذهب فاستله خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذهم أكيدر ، قال أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله : رأينا قباء حسان أخي أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ :

« أتعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » .

وبذلك ينقولهم عليه الصلاة والسلام من هذا الخطاب الفانى ، وهذه الزينة الأخاذة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، ومناديل سعد في هذه الجنة التي يستعملها للتتنظيف أرق وأجمل وأندى من هذا القباء الذي أخذ بلب المسلمين ، أما المجاهدون فقد راهم هذا التوفيق الرباني اللطيف في بعث البقرات من رب السموات والأرض لاستجرار أكيدر من عرشه وتسلیم القائد الإسلامي ، فصاغها ابن بحيرة شرعاً :

تبارك سائق البقرات إني رأيت الله يهدى كل هاد

ومن يك عاندًا من ذى تبوك فإنما قد أمرنا بالجهاد

ولو كان غير خالد بن الوليد لمضى بأكيدر فقد نفذ المهمة ، لكن البطل العظيم لا يرضى لنفسه إلا أن يفتح دومة على مصاريعها جيش محمد ﷺ ، وتعلن استسلامها ، ولا يكفى خطف قائدتها والفارار به بعيداً عن الحصن والعودة إلى الحصن ، عودة إلى قلب الخطر ، ونار الموت ، لكن خالد لا يعرف لهذا الخطر معنىًّا أمام الهدف الكبير الذي يود تحقيقه ، وهو فتح حصن دومة .

(وقال خالد بن الوليد لأكيدر : هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتى بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لي دومة ؟ قال : نعم ، ذلك لك . فلما صالح خالد أكيدر ، وأكيدر في وثاق ، انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن ، ونادي أكيدر أهله :

افتحوا باب الحصن ، فرأوا ذلك فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر ، فقال أكيدر خالد : تعلم والله لا يفتحون لي ما رأوني في وثاق ، فخل عنى فلك الأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صاحلتي على أهله ، قال خالد : فإني أصالحك) .

ما هي القوة التي يعتد بها خالد بن الوليد رضي الله عنه ليفرض صلحًا على أكيدر ، وكيف تكون عبقرية التخطيط عنده فيما لو غدر أكيدر بعد فك وثاقه ودخل إلى الحصن ، واستنفر أهل دومة ، وواجهها هؤلاء الأربعمائة ، واستنفروا عليهم كلها ، وأبادوهم قتلاً عن بكرة أبيهم ؟ لماذا يستفيد خالد من هذه المغامرة إلا إيهادة جيشه ، وفشل مهمته ، وفي أحسن الأحوال أن ينجو بنفسه دون أكيدر ، إن منطق الأشياء كان يقتضي من خالد رضي الله عنه أن يمضى فاراً بأكيدر نحو المدينة أو تبوك ميمماً حيث رسول الله صلوات الله عليه وسلم ؛ لكن منطق البطولة شيء آخر ، فاختطاف قائد شيء ، وافتتاح حصن شيء آخر ، إن اختطاف قائد لا يعني في عالم البطولة إلا أخذه حين غرة ، وبقاء قوته وفتوره وجبوشه على ما هي عليه مستعدة للموت والمواجهة ، أما إنهاء الجيب فلا تخل قضية إلا بفتح الحصن ، واستسلامه ، وخطا خالد رضوان الله عليه خطواته هذه بحكمة وعبقرية بعيدة عن منطق التحدي ، واستعمال لمنطق الدهاء والحكمة والروية حتى أخذ العهد والميثاق من أكيدر أن يصالحه ، ولن تم المصالحة دون فك وثاقه .

(قال خالد : فإني أصالحك ، فقال أكيدر : إن شئت حكمتك أو شئت حكمتني . قال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت ، فصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع ، على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم فيحكم فيهما حكمه ، فلما قاضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح الحصن) وخالد يريد لهؤلاء الأبطال الأربعمائة الذين قطعوا مجاهيل الصحراء أن يؤزويا بالغنيمة بجوار الأجر ، فهي العملية العسكرية الوحيدة التي تمت في تبوك ، ونلاحظ أن خالدًا رضي الله عنه يحسب حساب تسليح جيشه وقويته من هذه المصالحة ، فال الأربعمائة الأبطال الفرسان الذين معه سيكون لكل واحد منهم من الغنيمة خمسة أبعة رؤوساً غنم ودرع ورمح . حين توزع الغنائم ، وهذا وائلة بن الأسعق أحد هؤلاء الأبطال الأربعمائة يتحدث عن غنائمه قائلاً : (حتى إذا بعث رسول الله صلوات الله عليه وسلم خالد ابن الوليد إلى أكيدر الكندي بدومة الجندي خرج كعب بن عجرة في جيش خالد بن الوليد ، وخرجت معه فأصبنا فيها كثيراً فقسمه خالد بيننا ، فأصابني ست قلاتص ، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب بن عجرة) .

وذاك عبد الله بن عمرو المزني يقول : كنا أربعين رجلاً من مزينة مع خالد بن الوليد ، وكانت سهمنا خمس فرائض ، كل رجل مع سلاح يقسم علينا درع ورمح ، وكان أبو سعيد الخدري رحمة الله يحدث يقول :

(أسرنا أكيدر فأصابني من السلاح درع وبيبة ورمع وأصابني عشر من الإبل ...)
ولعل اختلاف الإبل من خلال تقسيمها ببرؤوس الغنم وتوزيعها حسب ذلك ، فخالد إذن
يريد لهذه الكتبية أن تزور من المعركة بالغنية إلى جوار الأجر لا بالإياب فقط ، (فلما
قاضاه خالد على ذلك ، خلى سبيله ففتح الحصن ، فدخله خالد ، وأوثق أخاه مضاداً
أخاه أكيدر ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرفيق والسلاح ، ثم خرج قافلاً إلى المدينة
ومعه أكيدر ومضاد) إنه الرعب الذي حل بالقوم فلم يجرؤوا على مواجهة خالد الذي
بلغ صيته الآفاق . على أنه سيف الله الذي لا يظهر (فلما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ
صلحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه ، وخلى سبيلهما ، وكتب رسول الله ﷺ
كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم وختمه يومئذ بظفره) .

وهذا وصف لأكيدر بين يدي رسول الله ﷺ يقدمه لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه
يقول : (رأيت أكيدر حين قدم به خالد ، وعليه صليب من ذهب ، وعليه الديباج ظاهر)
فمظاهر النصرانية عليه ولا غرو فالتعاش مع أهل الكتاب قائم ، وهو واحد من أهل
الكتاب ؛ فلا يتدخل رسول الله ﷺ وهو الحاكم الأعلى بشؤون دينه حين يصير على
نصرانيه وصليبه .

قالوا : وأهدى له هدية فيها كسوة ، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً أمنه فيه وفيه
الصلح ، وأمن أخاه ووضع عليه في الجزية ، فلم يك في يد النبي خاتم فختمه بظفره .
كما ينقل لنا الواقعى نص الكتاب عن شيخ من أهل دومة أن رسول الله ﷺ كتب
له هذا الكتاب ، والكتاب يدل على أنه أسلم وتعهد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأجاب
إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ، وهو رأى ضعيف خاصة أنه مروى عن شيخ من
أهل دومة غير معروف .

يقول الحافظ ابن حجر : (أكيدر دومة هو أكيدر بن عبد الملك ... بن السكون
صاحب دومة الجندي ذكره ابن منه وأبو نعيم في الصحابة وقالا : كتب إليه النبي ﷺ ،
وأرسل إليه سرية مع خالد بن الوليد ، ثم إن أسلم وأهدى إلى النبي ﷺ حلة سيراء
فوهبتها لعمر ، وتعقب ذلك ابن الأثير فقال : إنما أهدى إلى النبي ﷺ وصالحه ولم
يسلم ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل السير ، ومن قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهراً بل
كان نصريانياً ، ولما صالحه النبي ﷺ عاد إلى حصنه وبقي فيه ، ثم إن خالد بن الوليد
أسره في أيام أبي بكر فقتله كافراً ، وقد ذكر البلاذري : أن أكيدر دومة لما قدم على النبي
ﷺ مع خالد أسلم وعاد إلى دومة ، فلما مات النبي ﷺ ارتدى ومنع ما قبله ، فلما سار
خالد بن الوليد إلى الشام قتله ، قال ابن الأثير : فعلى كل حال لا ينبغي أن يذكر بين

وهذا التعامل مع أكيدر في عدم إجباره في الدخول في هذا الدين هو الذي شجع الجيوب الصغيرة النصرانية المجاورة أن تأتي فتعقد العقد نفسه مع رسول الله ﷺ وتصالحه على الجزية .

وهذه الجيوب هي : أيلة ، وتيماء ، وأهل جرباء ، وأذرح ، ومقنا فمن ساحل البحر الأحمر وحدود فلسطين من أرض الشام جاؤوا جميعاً يهادنون ويصالحون ، حيث خافوا أن يرسل رسول الله ﷺ إليهم كما أرسل إلى أكيدر فيتزعمهم من عروشهم ، وبأنسهم ويقتلهم ، ولا قبل لهم بذلك ، فجاءت وفودهم إلى رسول الله ﷺ تصالحه على الجزية والأمان والخضوع لدولة الإسلام ، وهذه بعض نصوص الكتب بين رسول الله ﷺ وبينهم .

أيلة)٢(:

(وكانت دومة وأيلة وتيماء قد خافوا النبي ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت ، وقدم يحنة بن رؤبة على النبي ﷺ وكان ملك أيلة ، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر ، وأقبل معه أهل جرباء وأذرح ، فأنوه فصالحهم ، فقطع عليهم الجزية ، جزية معلومة ، وكتب لهم كتاباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة لسفتهم وسائرهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله ، وذمة محمد رسول الله ، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يتحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء بريدونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ، هذا كتاب جheim بن الصلت . وشرحبيل ابن حسنة بإذن رسول الله ﷺ . »

ووضع رسول الله ﷺ الجزية على أهل أيلة ثلاثة دينار كل سنة وكانوا ثلاثة رجال)٣(.

وها هو جابر بن زبيني يصف لنا يحنة بن رؤبة كما وصف لنا أكيدر بن عبد الملك يقول :

(١) الإصابة في تميز الصحابة ١٢٩/١/١ ت ٥٤٦ .

(٢) أيلة : وهي التي تسمى إيلات اليوم ، وهي مدينة على شاطئ البحر الأحمر في فلسطين المحتلة .

(٣) المغارى للواقدى ١٠٣١/٣ .

رأيت يوحنة بن رفوة يوم أتى به إلى النبي ﷺ عليه صليب من ذهب ، وهو معقود الناصية فلما رأى النبي ﷺ كفر^(١) وأومأ برأسه ، فاولما إلية النبي ﷺ : « ارفع رأسك » وصالحه يومئذ وكساه رسول الله ﷺ بُرداً يمنية ، وأمر له بمنزل عند بلاط .

أهل جرباء :

وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح هذا الكتاب :

(من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم)^(٢) .

وزاد الواقدي : (والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ، ومن جاؤ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون ، حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه)^(٣) .

أهل مقنا :

وكتب لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزوتهم ، وربع ثمارهم^(٤) .

وليس بين يدينا نص كتاب أهل تيماء وهي التي تبعد ثمانى مراحل عن الشام ، أما جرباء وأذرح فقريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام .

بين النبي ﷺ وقيسر :

ودحية ظريف^٥ كان من أجمل الناس ، ولها كان جبريل ظريف^٦ إذا جاء بصورة رجل جاء بصورة دحية (ويروى أنه كان إذا قدم من الشام لم تبق امرأة إلا خرجت تنظر إليه ، بعده رسول الله ﷺ إلى قيسر في الهدنة ستة خمس ، قاله خليفة . وقال محمد بن عمر : لقيه بحمص ستة سبع ، وقال في المنهل : وظاهر الخبر يدل على أن رسول الله ﷺ أرسله إليه مرتين : الأولى في الهدنة (هدنة الحديبية) ، والثانية : في تبوك ، قلت : أرسله من تبوك ، رواه أبو يعلى وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المستند وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد مولى راشد عن التنوخي رسول هرقل ، وأرسله في الهدنة ، رواه البخاري عن ابن عباس عن أبي سفيان)^(٥) .

أما الوفادة الأولى فسبق أن استعرضناها في الأجزاء السابقة ، وكيف استندتى هرقل

(٢) - (٤) المصدر السابق ١٠٣١ / ٣ ، ١٠٣٢ .

(١) كفر : أومأ برأسه للتحية من غير سجود .

(٥) سبل الهدى والرشاد الصالحي ٣٤٧ / ١٢ .

مجموعة من العرب يسألهم عن رسول الله ﷺ ، وكان أبو سفيان على رأسهم وذلك بعد هدنة الحديبية ، وكيف استبد الرعب بقلب أبي سفيان زعيم المشركين يومذاك وقال : لقد أمر أمير ابن أبي كبيشة أن تخافه ملوك بنى الأصفر ، وذلك حين قال :

(فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدمي) .

لكن رسول الله ﷺ ضمن خطته التي أتى فيها كما أعلم المسلمين لغزو بنى الأصفر أراد أن يبعد الكراة مع هرقل ملك الروم حيث إنه يعرف في أعماقه صدق رسول الله ﷺ ليقيم الحجة عليه .

روى أبو يعلى وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد بن أبي راشد قال : (لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ فقلت : إلا تخبرنى عن رسالة هرقل ؟ قال : بلى . قدم رسول الله ﷺ تبوك ، فبعث دحية إلى هرقل ، فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها ، ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال : إن هذا الرجل قد أرسل إلى يدعونى ، ووالله لقد قرأتم فيما تقرؤون من الكتب ، إنه ليأخذن ما تحت قدمي فهلم إلى أن تتبعه ، فنخروا نخرة رجل واحد ، فلما ظن أنهم إن خرجوا أفسدوا عليه الروم قال : إنما قلت ذلك لأعلم صلاتبكم في دينكم ..) ^(١) . وفي رواية أخرى :

(ثم أخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه فوق رأسه ، ثم قبله وطواه في الديباج والحرير وجعله في سقط ^(٢) صاحب له بروميه وكان نظيره في العلم ، وسار هرقل إلى حمص ولم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل بخروج النبي ﷺ وأنه النبي الذى يتُنطر لاشك فيه فاتبعه ، فأمر عظماء الروم فجمعوا له في دسكرة ^(٣) ملكه ، ثم أمر بها فاغلقوا عليهم ، ثم اطلع عليهم من علية له وهو منهم خائف فقال : يا معشر الروم إنه جاءنى كتاب أَحْمَد ، وإنه والله النبي الذى يتُنطر لا شك فيه الذى يُشرّ به عيسى ، وإنه والله للنبي الذى نتظره ، ونجد ذكره في كتبنا نعرفه بعلاماته وبزمانه ، فأسلموا واتبعوه ، وسلم لكم آخرتكم ودنياكم) .

ترى لو استجاب الروم لهرقل عظيمهم كم كانوا وفروا على البشرية من الدماء

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١٢/٣٥٣ .

(٢) سقط : محركة وعاء كالجلون أو القفة .

(٣) الدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت .

والاحقاد والنكبات ، والضلال والشقاء ، ولكنها النقوس التي أثرت الهوى على الحق . (فنخروا نخرة رجل واحد ، وحاصلوا حيصة حمر الوحش ، وابتدرعوا أبواب الدسكرة فوجدوها مغلقة دونهم ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان وخافهم قال : ردوهم على ، فردوهم عليه) .

إنها صورة الوليد بن المغيرة تتكرر اليوم مع هرقل ، فقد تفوتهم الرعامة ، وقد يعرض نفسه للقتل ، « إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ ^(١٦) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ^(١٧) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ^(١٨) ثُمَّ نَظَرَ ^(١٩) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ^(٢٠) ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْكَرَ ^(٢١) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ ^(٢٢) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ^(٢٣) » [المثل] .

وبذلك سطّر على نفسه أنه من أهل النار بعد أن شهد بأن هذا ليس قول بشر : « سَأَصْلِيهِ سَقَرَ ^(٢٤) » [المثل] . وهذا هرقل بين خيارين كبيرين ؛ خيار الإيمان والجنة كما اختار عبد الله بن سلام رضي الله عنه حبر يهود الأعظم ، وكيف اختار الإسلام ، فحاربه قومه ولعنوه وسبوه . كما قال عنهم : « أنهم قوم بهت » أو يختار هرقل دنياه وملكه وصوبلجانه وجيشه وجنته وزعامته ، كما اختار الوليد بن المغيرة ، وأثر ملكه على ربه ، وأثر دنياه على دينه (قال : ردوهم على ، فردوهم عليه ، فقال : يا عشر الروم ، إنما قلت مقالتي هذه لاختبار صلابتكم على دينكم ، وقد رأيت ما يسرني ، فوقعوا له سجداً ورضوا عنه) .

لكن كان بين هذا الجموع كله صاحب يس ، وكان فيه عبد الله بن سلام آخر ، كان فيهم الأسقف قاضيه فقال : أشهد أنه رسول الله ، فأخذوه فما زالوا يضربونه ، ويغضونه حتى قتلوه ، فقال عنه النبي ﷺ : « إنه يبعث أمة وحده » . ثم فتحت له أبواب الدسكرة فخرجوا .

وكم ارتفع شأنه ومجلده يوم سجدوا له بدل أن يقتلوه ، وكم سقط في أعماقه يوم كذب النبي الحق المرسل من عند الله ، وهو لن يجرؤ على مواجهة محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه لأنه يعرف أنه خاسر ، وأنه سيملّك ما تحت قدميه ، يحدثنا دحية رضي الله عنه عن موقفين أقدم عليهما في محاولة التقرب من النبي المتظر .

(فقال دحية : ثم بعث إلى من الغدر سراً ، فأدخلني بيّنا عظيمًا فيه ثلاثة وثلاثة عشر صورة ، فإذا هي صور الأنبياء والمرسلين ، قال : انظر أين صاحبك من هؤلاء ؟ فرأيت صورة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه كأنه ينطق ، قلت : هذا ؟ قال : صدقت) . فهو يريد أن يتيقن أنه النبي نفسه ، ولهذا أدخل دحية على هذه القاعة ، ليتركه يكتشف صورة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه بين مئات الصور المبثوثة في القاعة ، ورأها دحية واستخرجها من هذه المئات . (قال

صدق ، صورة من هذا عن يمينه ؟ قلت : رجل من قومه ، يقال له : أبو بكر . قلت : فمن ذا الذي عن يساره ؟ قلت : رجل من قومه يقال له : عمر ، قال : إنما نحمد في الكتاب أن بصاحبيه هذين يتم الله هذا الدين ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته فقال : « صدق بأبي بكر وعمر يتم الله هذا الدين بعدى ويفتح » (١) .

فهما من الأزل ومن قبل خلق آدم وزيري رسول الله ﷺ ، توارث الأجيال بعد الأجيال ، والنبي بعد النبي الحديث عن النبي الخاتم وصاحبيه اللذين يقيم الله تعالى بهما الملة العوجاء ويحيى البشرية من ضلالها المبين ، وصدق رسول الله ﷺ ، فأبى بكر اجتثت الردة ودفت ، ولو لاه كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : (والله الذي لا إله إلا هو لو لا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة ، فقالوا : مه يا أبا هريرة . . .) (٢) . وعلى يد عمر رضي الله عنه كان انهيار الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية . وكان الأمر الثاني الذي أقدم عليه هرقل أن كتب إلى رسول الله ﷺ : إنني مسلم ولكني مغلوب على أمري . فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال :

« كذب عدو الله ، وليس مسلم ، بل هو على النصرانية » .

لقد أراد رسول الله ﷺ من تبوك أن يحفظ البشرية من الدماء بإسلام هرقل ، وإسلام الروم معه . لكن الجواب الذي جاءه أكد له أن هرقل لا يمكن أن يخرج على عظماء الروم ويعلن إسلامه ، إنما بعث يهادن رسول الله ﷺ ، ويطلب منه قبوله في صفة جندية على ما هو عليه ، ولكنه آثر ملكه على دينه كما آثر أبو طالب عمه ملة عبد المطلب خوف السبة عليه من العرب ، وشنان بين هجومهم عليه القتل ، وبين أن يخروا سجوداً له حين أعلن أنه يختبر صلاتهم في دينهم .

ويريد الله تعالى لهذا الدين أن يحرر البشرية من ضلالات النصرانية وسيطرة الرومان ؛ فرداً وقرية ويدخلها في دين الله على بصيرة وهدى ، لا أن يكون إيمان هذه البشرية لإيمان عظيمها هرقل ، أو عظماء الروم ، وبذلك ينحرفون بانحراف هؤلاء الأشخاص .

(١) المصادص الكبرى للسيوطى ٦/٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٤٤/٦ ، وقد وردت قصة بعثة دحية لهرقل عند البخارى ٤/٥٤ - ٥٧ ، ومسلم ٥/١٦٣ - ١٦٦ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤٢٠ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ٢٣٩ ، ٣٤٣ - ٣٤٥ ، وفتح البارى ٦/٤٥٠ ، وأحمد في المسند برقم ٢٢٧ ، وأبو داود في الأدب ، والترمذى في الاستذان ، والسائل فى التفسير ، ولم يخرجه ابن ماجه كما قال العسقلانى فى شرح البخارى ، وانظر : الاصطفاف فى تاريخ المصطفى ٣/٢٧ ، وانظر : سيل الهدى والرشاد للصالحي هامش ١٢/٣٥٢ .

كم جر إيمان ملك الروم بالنصرانية التي يريدها على البشرية من ويلات حين فرضها بصلالاتها وانحرافاتها ولا تزال تعاني إلى اليوم بعد مئات القرن من هذا الانحراف ، وشاءت إرادة الله عز وجل أن يحفظ هذا الدين من هو الطواغيت وتحكمهم فيه . ليقى كما قال عليه الصلاة والسلام :

« تركتم على بيساء نقية ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وأى إيمان هذا الذى ينتقل من أنه يريد أن يفسل الأرض بين قدميه إلى أن يخر قومه سجوداً له لرده عن دين الله ، لقد حفظ الله البشرية من الضياع بضياع دينها الإسلام ، وبقيت مرتبطة برسول رب العالمين ، بعيدة عن أهواء ورغبات الطواغيت والحاكمين كما هو الحال في النصرانية حتى اليوم .

(وقد تدخل قسطنطين إمبراطور الرومان في الأمر . فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، ويقول ابن البطريق المسيحي في وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون ألفاً من الأساقفة ، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان . . . وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من مثليها ، فعجب أشد العجب بما رأى وسمع ، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من ، وأخلوا داراً للمناظرة ، ولكنه جنح أخيراً إلى رأي بولس ، وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأي ، وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة . ويقول في ذلك ابن البطريق : وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً ، وجلس في وسطهم ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على ملكتى لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا بما فيه قوام الدين ، وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك ، وقلدوه سيفه وقالوا له : أظهر دين النصرانية ، وذب عنه ، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشريائع ، منها ما يصلح للملك أن يعمل به ، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به) .

وضع هذا المجمع المحدود من الأساقفة قرارات في العقيدة وفي الشريائع ليقيدوا بها المسيحيين ، ولا يهمنا إلا بيان العقيدة التي قررها المجمع وفرضها على المسيحيين ، وقد ذكرها صاحب كتاب الأمة القبطية فقال عنها ما نصه : (إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحريم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء ، أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول : إنه قابل للتغيير ، ويعترى به ظل دوران) .

(إذن قرر المجمع الوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، وأنه قديم بقدمه، وأنه لا يعتريه تغيير ولا تحويل وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين ، لاعنة كل من يقول غير ذلك ، والذين فرضوا هذا القول (٣١٨) أسفقا ، ويخالفهم في ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف ، وإن لم يكونوا متفقين على نحلة واحدة) (١) .

هذا ما جناه دخول قسطنطين إمبراطور الروم على المسيحية ، وفرض الوهية المسيح عقيدة فيها . وبعد مرور أربعة عشر قرنا ، ولا تزال هذه الشركية ثملا النصارى في فجاج الأرض .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيمَ﴾ [المائدة : ١٧] .

فكيف لو سيطر هرقل على الأرض ، وجاء ليقوم بحل وسط بين الإسلام والنصرانية ليرضى أساقفته ويرضي محمدا ﷺ ، ويقدم دينًا جديدا خليطا بينهما ، فمحمد الله عز وجل على دين الإسلام .

وجرت المحاولات جادة من اليهود - كذلك - لإدخال رسول الله ﷺ في متأهات أهل الكتاب :

(فقد روى البيهقي بسنده جيد عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوما فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقاً أنك نبي فاحلق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدق ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ حَلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سَنَةٌ مَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسْتَنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾ [الإسراء] . فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة وقال : فيها محياك ، وفيها عمالك ومنها تبعث ، فرجع رسول الله ﷺ) (٢) .

وإن كان بين يدينا روایة أخرى شاور فيها رسول الله ﷺ وزير عمر بن الخطاب بالتقدم إلى أرض الروم ، ولعل هذا كان قبل نزول الآيات السابقة .

قال محمد بن عمر : (شاور رسول الله ﷺ أصحابه في التقدم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، إن كنت أمرت في السير فسر ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أمرت بالسير لما استشرتكم فيه » ، فقال : يا رسول الله ، إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنومنا منهم وقد أفزعهم ذنوك ، فلو رجعنا هذه

(١) محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله . ط ٤ ١٣٩٢ هـ . ط دار الفكر العربي .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٤ .

السنة حتى ترى أو يحدث الله لك أمراً)^(١) .

ولم يكن يدرى الوزير الثاني عمر رضي الله عنه أن قدر الله قد أعدَ ليكون قاهر الفرس والروم ، وأنه سيتم الرسالة النبوية ويجيش الجيوش إلى أرض الروم تحمل رايات هذا الدين إلى كل صقع ، وأنه هو الذي سيسقط إمبراطور الروم من أرض الشام حتى يمضى قائلاً :

(سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده) .

وتصبح أرض المحشر ، وأرض الأنبياء بورة إسلامية للنور تشع منها إلى الخافقين ، ولم يكن يدرى رضي الله عنه أن صورته هناك في أرض الروم بجوار أخيه أبي بكر ، يتم الله بهما فتوح هذا الدين .

ونعود إلى قيصر الذي لم يبل حرقته كتاب من رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، ولا حديث من أبي سفيان عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، عن هذا النبي المتظر ، إنما أراد أن يستيقن اليقين الأخير ، فاستدعي ذلك التنوخى الذي أوصاه أن يمضي إلى محمد في تبوك ، ويسعدنا أن يكون هو هو نفسه محدثنا عن هذه المهمة .

(ثم دعا رجلاً من عرب تجib كان على نصارى العرب قال : ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاءني ، فدفع إلى هرقل كتاباً فقال :

اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل . فما سمعته من حديثه فاحفظ لي منه ثلاثة خصال :

هل يذكر صحيفته التي كتب بشيء ؟ وانظر إذا قرأ كتابي هذا هل يذكر الليل ؟ وانظر في ظهره هل فيه شيء يرييك ؟ قال : فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك) .

هذه الأسئلة الثلاثة اثنان منها يدلان على عمق تفكير هرقل وسعة أفقه ، والثالث مرتبط بعلمه في الكتاب الأول وصفة خاتم النبوة في ظهر رسول الله صلوات الله عليه وسلم .

(حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهرى أصحابه محظياً على الماء ، فقلت : أين أصحابكم ؟ قيل : ها هو ذا ، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فتناوله كتابه فوضعه في حجره ثم قال :

« من أنت ؟ » فقلت : أنا أخو تنوخ ، فقال : « هل لك في الإسلام ، الحنيفة

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٦٤/٥ ، والمغارى للواقدى ١٩٣/٣ .

ملة أيك إبراهيم؟ » فقلت : إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم فضحك وقال :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

[القصص]

ورسول الله ﷺ يعني إسلام هذا الأعرابي أكثر مما يعنيه رسالة هرقل أعظم أباطرة الأرض ، ولهذا عرض عليه الإسلام قبل أن يفض الرسالة ، وذكره أن هذا الدين هو ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والعرب تفخر أن تنتسب لإبراهيم الذي مثل رمز مقدساتها في البيت الحرام الذي أقامه مع ابنه إسماعيل ، لكن صاحبنا التنوخي ينظر أنه يمثل أعظم أباطرة الأرض ، وهو رسول هذا الإمبراطور ، فكيف يترك دينه ويقبل بهذه الملة التي تقاد أن تكون دين البدو ، فهو سائق في سلم الحضارة ومرتبط بأعظم ملوك الأرض ، وإذا كان محمد ﷺ ملك العرب ، فهرقل ملك الأرض كلها بعد أن هزم خصمه الأكبر ملك الفرس ، ولا شك أن جواب رسول الله ﷺ وضحكه ، ثم تلاوة الآية المباركة أدخلت شيئاً من القلق والخيرة إلى نفس هذا التنوخي ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦].

(قال : « يا أخا تنوخ إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه ، والله ممزقه ومزق ملكه ، وكتب إلى النجاشي بصحيفة فمزقها ، والله ممزقه ومزق ملكه)^(١) ، وكتب إلى صاحبكتاب بصحيفة فامسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً مادام في العيش خير » قلت : هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبى ، فأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جفن سيفي) .

ومن هنا صدق ظن هرقل وحده في أن الرسول ﷺ قد يتحدث عن هذا الكتاب لأنه بعث جواباً آخر مع دحية بن خليفة الكلبي ، ويختلف مضمون الرسائلتين عن بعضهما ، فالمتوقع أن يشير إلى ذلك . ولا يتناقض ، ومن أجل ذلك كان السؤال الثاني مرتبطة بمضمون هذه الرسالة الثانية .

(ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره ، قلت : من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية . فإذا في كتاب صاحبى : تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ » قال : فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جفن سيفي) وحسب فهم هرقل

(١) المعروف أن النجاشي استجاب لدعوة رسول الله ﷺ وأسلم ، ولعلها مصفحة في المخطوطات عن كلمة أخرى .

للنفوس البشرية يجب أن يكون الجواب المنطقى لثل تسؤاله هو هذا الجواب ، وهرقل إذن من أعاظم الرجال فى الأرض ، ومن عباقرتهم ، وذلك حين يوصى هذا الأعرابى بهذين الأمرین أن يتاکد من ذكرهما ، ويدرك هرقل أن عظمة هذا النبى وعقريته تقتضى مثل هذين الأمرین .

(فلما فرغ من قراءة كتابى قال : « إن لك حقاً ، وإنك لرسول ، فلو وجدتُ عندنا جائزة جوزناك بها ، إنا سفر مرملون » قال قتادة : فناداه رجل من طائفه الناس ، فقال : أنا أجوزه . ففتح رحله ، فإذا بحلة صفورية فوضعها فى حجرى ، قلتُ : من صاحب الجائزة ؟ قيل لي : عثمان . ثم قال رسول الله ﷺ : « أيكم ينزل هذا الرجل ؟ » فقال فتى من الأنصار : أنا ، فقام الأنصارى ، وقامت معه ، حتى إذا خرجت من طائفه المجلس ناداني رسول الله ﷺ فقال : « تعالى يا أخا تنوخ » فأقبلت أهوى حتى كنت قائماً فى مجلسى الذى كنت بين يديه ، فحل حبوته وقال : « ها هنا امض لما أمرت له » فجلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة فى موضع غضروف الكتف مثل المحجة الضخمة) (١) .

ويدرك الحبيب الأعظم ﷺ أن قضية ختم النبوة هي قضية متواترة عند أهل الكتاب الأول ، فقد جاء سلمان الفارسى الذى جاب الآفاق كلها يبحث عن ختم النبوة فى جسد المصطفى الشريف ﷺ . ودعا له رؤيته ، وهذا أخو تنوخ حسب التعليمات الموجهة له من هرقل عظيم الروم ، يدعوه رسول الله ﷺ خصيصاً ؛ ليرى ختم النبوة فى ظهره الشريف حتى تكتمل رسالة هرقل ، وحتى يعرف التنوخى أنه أمام رسول رب العالمين ، فالامور الثلاثة التى أصدرها له هرقل ، رأها كاملة ، وسيمضي مغبطاً إلى هرقل بها ، ولكنه سيمضى وقلبه معلق برسول الله ﷺ الذى يخشأه هرقل ويصانه ويصالحه .

كما أنتا نشير من خلال الحديث إلى عراقة الأعراف الدبلوماسية فى أصول التعامل مع الرسل ، فمع أن التنوخى لم يسلم ، لكن رسول الله ﷺ يعتذر له من إجازته ؛ لأن حق الرسل ذلك ، ويقوم عثمان رضي الله عنه بسد هذه الثغرة ، وإعاداته الحلة الصفورية ، والرسل تكرم ، فيسأل رسول الله ﷺ عمَّن يستضيفه ، ويقوم الفتى الأنصارى بذلك ، والمعروف عنه ﷺ أنه كان يكرم الرسل والوفود ، وقلما جاء وفد إليه ولم يخرج بهدايا وجوائز تناصبه ، وسنستفيض فى هذا الحديث عند الوصول إلى عام الوفود الذى هو هذا العام نفسه ، وأخيراً نتابع مع التنوخى إلى هرقل كما يحدثنا الواقدى :

قال محمد بن عمر : (فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٥٩/٥ وفي هامته قال المحقق : قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١٦/٥ هذا حديث غريب وإسناده لا يأس به . تفرد به الإمام أحمد .

الصدق بالنبي ﷺ فآبوا حتى خافهم على ملكه ، وهو في موضعه في حمص لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذي خبر النبي ﷺ من تعبة أصحابه ودنوه إلى وادي الشام لم يُرِد ذلك ولا هم به) (١) .

وهذا هو المتوقع من هرقل فهو لن يقود حرباً ضد نبي مرسل ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يتم هذا الاستئثار العظيم لل المسلمين جميعاً ليحضروا هذه الدورة التربوية الخالدة ، ويشهدوا أعظم أباطرة الأرض ، يسالم رسول الله ﷺ ويطلب رضاه ، ويعيث له الهدایا كما ذكر السهیلی (أن هرقل أهدى لرسول الله ﷺ هدية . فقبل رسول الله ﷺ هديته ، وفرقها على المسلمين) .

وهذه هي المرة الثالثة التي يبعث بها قيسار الروم هداياء ، والمرة الثالثة التي يحاول قيسار الروم أن يدخل قومه في الإسلام ويقنهم فيه ، وهذه هي الرسالة الثالثة التي يبعثها هرقل إلى رسول الله ﷺ يصانعه ويداريءه ، ويعلن إسلامه ، ويعتذر لرسول الله أنه مغلوب على أمره ، ويطلب رضاه . ولكن رسول الله ﷺ يعلن كذبه ، وأنه آثر دنياه على آخرته ودينه ، ولكن هذا لا يمنع من قبول الهدية ، ولا يمنع من إكرام رسوله ، ولا يمنع من الثناء عليه على موقفه من رسالته ، واحتفاظه فيها بحق من عاج تكريماً لها ، وكل هذا لا يتعارض مع التميز والمقاصلة الذي جاء الإسلام بها في مجال العقيدة . وطلب التعايش في مجال السلوك ما لم يكن إنثماً أو عقوفاً أو شيئاً من ذلك .

لقد شهدنا في تبوك الدولة التعاقدات الدولية مع معظم قادة الشام من العرب ، وشهدنا أكثر من ذلك الرسائل المتبادلة بين هرقل عظيم الروم وبين رسول الله ﷺ ، وما كانت هذه الغزوة إلا توطنة لفتح الشام وتهيئة لهذه النfos أن تخضى فاتحة بعد ذلك ، بعد عام ونصف العام تقريباً ، ماضية بدين الله إلى كل صدق . وقد تعلمت وتركت على فقه الأعراف الدبلوماسية التي أجازها الشرع فيما أجازه ، وعلى البحث عن الهدف الأول من نشر الدعوة لا نشر السيف والقتل في النfos ، فمسيرة رسول الله ﷺ شهران بكل ما كلفته وأرهقت أصحابه وحملتهم من متاعب ومصاعب وتكليف ، لم يدفعه ذلك كله إلى خوض حرب لا ضرورة لها ، ولم يجد لها مبرراً طالما أن هرقل سالم ولم يحارب ، وعلمت هذا الجيل الكبير الكثير من أحكام دينه ومن تفصيلات شريعته ، وكيف أن امتدادات هذا الدين عند أهل الكتاب الأول ضاربة في الأعمق ، موغلة في التاريخ من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة ، وأن هذا الجيل نفسه مذكور في كتب

(١) المغارى للواقدى ١٩/٣ .

النصارى واليهود سيفتح الله به الأرض . ويغير به الباطل والفساد إلى الحق والهدى والنور ، وجاءت الآيات فى سورة التوبة تؤكد هذه المعانى جمِيعاً وتفصيلاً بعد أن فندت دعاوى النصارى وضلالاتهم لتنقول : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرِيمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ ﴾^(٣١) بُريءُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْتِيَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتْمِمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ^(٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ^(٣٣) ﴾ [التوبه] ويدعوهم إلى الحرب العامة الشاملة ﴿ وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ^(٣٤) ﴾ [التوبه] .

في العودة إلى المدينة : تربية كذلك

١ - (روى مسلم عن أبي هريرة ، وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، قال شيخ محمد بن عمر : لما أجمع رسول الله صلوات الله عليه وسلم السير من تبوك أرمل الناس إرملاً فشخص على ذلك من الحال .)

قال أبو هريرة : فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنتحر نواضحنا فأكلنا وادهنا .

قال شيخ محمد بن عمر : فلقيهم عمر بن الخطاب وهم على نحرها فامرهم أن يمسكوا عن نحرها ، ثم دخل على رسول الله صلوات الله عليه وسلم في خيمة له (ثم انفقوا) فقال : يا رسول الله أذنت للناس في نحر حمولتهم يأكلونها فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « شكوا إلى ما بلغ منهم الجوع فأذنت لهم بنحر الرفقة البعير والبعيرين ، ويعاقبون فيما فضل من ظهرهم ، وهم قافلون إلى أهليهم » فقال : يا رسول الله ، لا نفعل فإن يكن للناس فضل من ظهرهم يكن خيراً ، فالظاهر اليوم رقاق (١) ، ولكن ادع بفضل أزواجهم ثم اجمعها فادع الله فيها بالبركة كما فعلت في منصرفنا من الخديبية حيث أرمنا ، فإن الله عز وجل يستجيب لك) ، فنادي منادي رسول الله صلوات الله عليه وسلم : من كان عنده فضل من زاد فليأت به ، وأمر بالانقطاع فبسطت ، فجعل الرجل يأتي بالمدد الدقيق والسوق والتمر ، والقبضة من الدقيق والسوق والتمر والكسر ، فيوضع كل صنف من ذلك على حدة ، وكل ذلك قليل ، فكان جميع ما جاؤوا به من الدقيق والسوق والتمر ثلاثة أفراق (٢) حزراً (٣) ، ثم قام فتوضاً وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عز وجل أن يبارك فيه (٤) .

فكان أربعة من أصحاب النبي صلوات الله عليه وسلم يحدثون جميعاً حديثاً واحداً ، حضروا ذلك وعاينوه أبو هريرة ، وأبو حميد الساعدي ، وأبو زرعة الجهنمي معبد بن خالد ، وسهل بن سعد الساعدي ، قالوا : ثم انصرف رسول الله صلوات الله عليه وسلم ونادي منادي : هلموا إلى الطعام ، خذوا منه حاجتكم ، وأقبل الناس فجعل كل من جاء بوعاء ملأه ، فقال بعضهم : لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز وقبضة من تمر ، ولقد رأيت الانقطاع تفيض ، وجئت بجرابين فملات أحدهما سويقاً والأخر خبزاً ، وأخذت في ثوبى دقيقاً ، ما كفانا إلى

(١) الرقاق : جمع رقق ، أي ضعيف .

(٢) الأفراق : جمع فرق ، وهو مكيال في المدينة يسع ثلاثة آصع ، أو يسع ستة عشر رطلاً .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٦٥ / ٥ .

(٣) الحزر : التقدير والخرص .

المدينة ، فجعل الناس يتزودون عن آخرهم حتى نهلو عن آخرهم ، حتى كان آخر ذلك أن أخذت الأنطاع ونشر ما عليها ، فجعل رسول الله ﷺ يقول وهو واقف : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى عبده ورسوله ، وأشهد أنه لا يقولها أحد من حقيقة قلبه إلا وقاه الله حر النار » (١) .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة : (فدعوا رسول الله ﷺ بالبركة ، ثم قال : «خذلوا في أوعيتك » ، قال فأخذلوا في أوعيهم حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه ، قال : فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله :

«أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة » (٢) .

٢ - وروى محمد بن عمر بسنده عن أبي قتادة قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ نسير في الجيش ليلاً وهو قائلاً وأنا معه ، إذ خفق خفقة وهو على راحته ، فمال على شقه ، فدنت منه فدعنته فاتبه فقال : « من هذا ؟ » قلت : أبو قتادة يا رسول الله ، خفت أن تسقط فدعنته . قال : « حفظك الله كما حفظت رسول الله » ثم سار غير كثير ، ثم فعل مثلها ، فدعنته فاتبه ، فقال : « يا أبو قتادة ، هل لك في التعريض ؟ » فقلت : ما شئت يا رسول الله ، فقال : « انظر من خلفك » فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال : « ادعهم » . فقلت أجيروا رسول الله . فجاوزوا فعرسنا ونحن خمسة برسول الله ﷺ ، ومعي إداوة فيها ماء وركوة لشرب فيها ، فنمنا ليالينا فما اتبهنا إلا بحر الشمس ، فقلنا : إننا لله ، فاتنا الصبح . قال رسول الله ﷺ : « لنغيبن الشيطان كما أغاظنا » فتوضاً من ماء الإداوة ففضل فضلة فقال : « يا أبو قتادة احتفظ بما في الإداوة والركوة فإن لها شأنًا » ثم صلى بنا الفجر بعد طلوع الشمس فقرأ بالمائدة ، فلما انصرف من الصلاة قال : « أما إنهم لو أطاعوا أبو بكر وعمر لرشدوا » وذلك أن أبو بكر وعمر أرادا أن يتزلا بالجيش على الماء ، فأبوا ذلك عليهما ، فنزلوا على غير ماء بفلاة من الأرض ، فركب رسول الله ﷺ فلحق بالجيش عند زوال الشمس ونحن معه ، وقد كانت تقطع أعنق الرجال والخيول عطشًا فدعوا رسول الله ﷺ بالركوة ، فافرغ ما في الإداوة فيها ، فوضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا ، وفاض الماء حتى ترموا ، وأروروا خيلهم وركابهم ، فإن كان في العسكر اثنا عشر ألف بعير ، ويقال : خمسة عشر ألف بعير ، والناس ثلاثة ألاف ، والخيول عشرة آلاف ، وذلك قول النبي ﷺ لأبي قتادة : « احتفظ بالركوة والأداة ... » (٣) .

(٢) مسلم ١ / ٥٦ ح (٤٤ / ٢٧) .

(١) المغارى للواقدى ٣ / ٣٨ ، ١٠٣٩ .

(٣) المغارى للواقدى ٣ / ٤٠ ، ١٠٤٠ .

وكان في تبوك أربعة أشياء ، فيينا رسول الله ﷺ يسير منحدراً إلى المدينة وهو في قيظ شديد عطش العسكر بعد المرتدين الأولين عطشاً شديداً حتى لا يوجد للشفة ماء قليل ولا كثير ، فشكوا بذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل أسيد بن حضير في يوم صائف وهو متلثم فقال رسول الله ﷺ : « عسى أن تجد لنا ماء » فخرج وهو ما بين الحجر وتبوك ، فجعل يضرب في كل وجه . فيجد راوية من ماء مع امرأة من بلي ، وكلمها أسيد فخَّرَّها بخبر رسول الله ﷺ فقالت : « هذا الماء فانطلق به إلى رسول الله ﷺ ، وقد وضعتم لهم الماء ، وبينهم وبين الطريق هنية ، فلما جاء أسيد بالماء ، دعا فيه رسول الله ﷺ بالبركة . ثم قال : « هلعوا أسيقكم » فلم يبق معهم سقاء إلا ملتوه ، ثم دعا برکابهم وخیولهم فسقوها حتى نهلت ، ويقال : إنما أمر رسول الله ﷺ بما جاء به أسيد ، وصبه في قعْب عظيم من عساس أهل الباية ، فادخل رسول الله ﷺ فيه يده ، وغسل يديه ووجهه ورجليه ، ثم صلى ركعتين ، ثم رفع يديه مدائ ، ثم انصرف وإن القعْب ليفور ، فقال رسول الله ﷺ زودوا ، فاتسع الماء ، وانبسط الناس حتى يصف عليه المائة والمائتان ، فأرورووا ، وإن القعْب ليجيش بالرواء ، ثم راح رسول الله ﷺ مبردًا متربويا من الماء .

قال : وحدثني أسامة بن زيد بن أسلم عن أبي سهل عن عكرمة قال : خرجت الخيل في كل وجه يطلبون الماء وكان أول من طلع به وبخبره صاحب فرس أشقر ، ثم الثاني أشقر ، ثم الثالث أشقر فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك في الشقر » .
وروى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الخيل الشقر » (١) .

٣ - قال ابن إسحاق : (وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادي المشقق ، فقال رسول الله ﷺ : « من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستيقن منه شيئاً حتى تأتيه » . قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه ، فلم ير فيه شيئاً . فقال : « من سبقنا إلى هذا الماء ؟ » فقيل له : يا رسول الله ﷺ ، فلان وفلان . فقال : « أو لم أنهما أن يستقوا منه شيئاً حتى آتية » ثم لعنهم رسول الله ﷺ ، ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل (٢) ، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نصحه به ، ومسح يده ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعوه به فانخرق من الماء كما يقول من سمعه إن له

(١) المغارى للواقدى ١٠٤٠ / ٣ - ١٠٤٢ .

(٢) الوشل : حجر أو جبل ينطر منه الماء قليلاً قليلاً ، وهو أيضًا الماء القليل .

حساً كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: «لئن بقيتم أو بقى منكم لتسمعن بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه»^(١).

٤ - وروى الطبراني بسند صحيحه الشيخ وحسنه الحافظ - خلافاً لمن ضعفه - عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك فجهد الظهر جهداً شديداً، فشكوا ذلك إليه، ورآهم يزجون ظهورهم^(٢)، فوقف في مضيق والناس يمرون فيه ، فتفتح فيها فقال: «اللهم احمل علينا في سبيلك ، فإنك تحمل على القوى والضعف والرطب والثابس في البر والبحر» فاستمرت ، فما دخلنا المدينة إلا وهي تزارنا الأعنة^(٣)^(٤).

٥ - روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل ، والبيهقي عن حذيفة ، وأبن سعد عن جبير ابن مطعم وأبن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ، ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ لما كان بعض الطريق مكر به ناس من المنافقين واتتمنوا بينهم أن يطرحوه من عقبة في الطريق - وفي رواية كانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ - فجاؤوا يلتسمون غرته ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكونها معه ، وقالوا : إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي ، فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم ، فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة نادى مناديه في الناس: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ، واسلکوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع ، فسلك الناس بطن الوادي إلا التفر الذين مكرروا برسول الله ﷺ ، لما سمعوا ذلك استعدوا وتلشموا ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة ، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه ، فبينا رسول الله ﷺ يسير من العقبة ، إذ سمع حس القوم قد غشوه ، فنفروا ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه ، وكان حمزة بن عمرو الأسلمي لحق برسول الله ﷺ بالعقبة ، وكانت ليلة مظلمة ، قال حمزة : فنور لي في أصحابي الخمس فأضاءت حتى جمعت ما سقط من السوط والخبل وأشياهما ، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم ، فرجع حذيفة إليهم ، وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن فجعل يضرب وجوه رواحلهم وقال : إليكم يا أعداء الله تعالى فعلم القوم أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ . فقال: «اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمار» فأسرعوا حتى استوى بأعلاها ، وخرج رسول الله ﷺ من العقبة يتنظر الناس ، وقال حذيفة : «هل عرفت أحداً من

(١) السيرة النبوية لأبي هشام ٥٢٧/٢ ، ومن المرجح أن تكون هذه الحادثة في النهار إلى تبوك كما مر معنا .

(٢) يزجون ظهورهم : يعوقون ظهورهم . (٣) تزارنا الأعنة : تزيد أن ترك أعنتها من نشاطها .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٦٨/٥ .

الركب الذين رددتهم؟ ». قال: يا رسول الله، قد عرفت رواحلهم ، وكان القوم ملثمين فلم يبصّرهم من أجل ظلمة الليل قال: « هل علمتم ما كان شأنهم وما أرادوا؟ » قالوا: لا والله يا رسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسروا معنى فإذا طلعت العقبة زحمونى فطرحونى منها وإن الله قد أخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم وساخيركم بهم إن شاء الله تعالى » قالوا : أفلأ تأمر بهم يا رسول الله ، إذا جاء الناس أن تضرب أعناقهم؟ قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده في أصحابه » فسماهم لهما ثم قال : « اكتنامهم » فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم لى ، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الحضير : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادي؟ فقد كان أسهل من العقبة . فقال : « يا أبا يحيى ، أتدرى ما أراد بي المنافقون وما همو به؟ قالوا : تتبعه من العقبة ، فإذا أظلم عليه الليل قطعوا أنساع راحلتي ونكسوها حتى يطروحونى عن راحلتي » قال أسيد: يا رسول الله قد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهدا ، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله وإن أحبت فوالذى بعثك بالحق ، فنبتئ بأسمائهم فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم . قال : « يا أسيد ، إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم » .

وفي رواية : « إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً لما قضيت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه » فقال : يا رسول الله ، فهو لا ليسوا بأصحاب ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟ » قال : بلى ، ولا شهادة لهم قال : « أليس يظهرون أنى رسول الله؟ » قال : بلى ، ولا شهادة لهم . قال : « فإني نهيت عن قتل أولئك » .

وقال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكيـر ، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال حذيفة: « ادع عبد الله ، وأبا حاضر الأعرابي ، وعامراً وأبا عامر ، والجلاس بن سويد بن الصامت » وهو الذي قال : لا تنتهي حتى نرمي محمداً من العقبة . ولthen كان محمد وأصحابه خيراً إنا إذن لغنم وهو الراعي ، ولا عقل لنا وهو العاقل ، وأمره أن يدعو مجمع بن جارية ، وفليح التمييـ ، وهو الذي سرق طيب الكعبة ، وارتدى عن الإسلام وانطلق هارباً في الأرض فلا يدرى أين ذهب - وأمره أن يدعو حصين بن ثمير - الذي أغـار على قمر الصدقة فسرقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « ويـحك ما حملك على هذا؟ » قال : حملـنى عليه أـنى ظنتـ أن الله تعالى لم يـطلعـكـ عليهـ ، أما إذا أـطلـعـكـ عليهـ ، فإـنى أـشـهدـ الـيـومـ أـنـكـ رسـولـ اللهـ ، فإـنى لـمـ أـوـمـنـ بـكـ قـطـ قبلـ السـاعـةـ ، فـأـقـالـهـ رسـولـ اللهـ ﷺ وـعـفـاـ عـنـهـ بـقـوـلـهـ الذـيـ قـالـهـ ، وأـمـرـ رسـولـ اللهـ حـذـيفـةـ أـنـ يـأـتـيهـ بـطـعـمـةـ بـأـبـيرـقـ ،

وعبد الله بن عبيدة ، وهو الذى قال لاصحابه : اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله مالكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « ويحك ما كان ينفعك من قتلى لو أنى قتلت يا عدو الله ؟ » فقال عدو الله : يا نبى الله . والله ما تزال بخير ما أعطاك الله تعالى النصر على عدوك ، فإنما نحن بالله وبك فتركه رسول الله ﷺ وقال حذيفة : « دع مرة بن الربيع » وهو الذى ضرب على عاتق عبد الله بن أبي شم قال : تمطى ، أو قال تمتطى ، والنعيم كائن لك بعده ، نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « ويحك ما حملك على أن تقول الذى قلت ؟ » قال : يا رسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك فإناك العالم به ، وما قلت شيئاً من ذلك .

وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربوا الله تعالى ورسوله ، وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلاناتهم ، وأطلع الله نبى ﷺ على ذلك يعلمه وذلك قول الله عز وجل : « وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنْتَلِوا » [التوبه : ٧٤] .

ومات الاثنا عشر منافقاً محاربين لله تعالى ورسوله .

قال حذيفة - كما رواه البيهقي : ودعا عليهم رسول الله ﷺ فقال : « اللهم ارمهم بالديبلة » قلنا : يا رسول الله ، وما الديبلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » .

وروى مسلم عنه (أى حذيفة) أن رسول الله ﷺ قال : « في أصحابي اثنا عشر رجلاً منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يلعن الجمل في سم الخياط ، ثماني تكفيهم الديبلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » (١) .

قال البيهقي : (ورويانا عن حذيفة خواصهم أنهم كانوا أربعة عشر أو خمسة عشر) .

٦ - روى البخاري وابن سعد عن أنس عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال :

« إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » فقالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حبسهم العذر » (٢) .

٧ - روى الإمام أحمد والشیخان عن أبي حميد الساعدي ، وعبد الرزاق وابن أبي شيبة في مصنفهما ... عن أنس وجابر وأبي قتادة قالوا :

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٦٩ - ٦٧٢ . (٢) المصدر السابق ٥/٦٧٢ وهي عند البخاري .

أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى أشرفنا على المدينة قال :

« هذه طابة - زاد ابن أبي شيبة : أسكنتها ربي - تنفي خبث أهلها كما ينفي الكير
خبث الحديد » انتهى - فلما رأى أحداً قال : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه ، لا أخبركم
بخير دور الأنصار ؟ » قلت : بل يا رسول الله . قال : « خير دور الأنصار بنو النجار ،
ثم دار بنى عبد الأشهل ، ثم دار بنى الحارث بن الخزرج ثم بنى ساعدة » . فأدرك سعد
رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله خير دور الأنصار فجعلتنا آخرها داراً ، فقال :
« أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار ؟ » (١) .

٨ - روى البخاري وأبو داود والترمذى عن السائب بن يزيد رضى الله عنه قال : أذكر أنى
خرجت مع الصبيان نتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من تبوك) (٢) .
(وروى البيهقي عن ابن عائشة رحمة الله تعالى قال : لما قدم رسول الله ﷺ
المدينة جعل النساء والصبيان والولاند يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع) (٣)

٩ - روى ابن إسحاق عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفارى قال :

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان بلد بيته وبين المدينة ساعة من نهار ،
وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ،
إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة وال الحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإننا نحب أن تأتينا
فتصلى لنا فيه .

فقال : « إنى على جناح سفر ، وحال شغل » أو كما قال ﷺ ، ولو قد قدمنا إن
شاء الله لأتيناكم ، فضلينا لكم فيه . فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد . فدعى رسول
الله ﷺ مالك بن الدخشم أخي بنى سالم بن عوف ، ومعن بن عدى أو أخيه عاصم بن
عدي أخي بنى العجلان فقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقاه » ،
فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك
لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفان من نخل ،
فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاً وهدموا ، وتفرقوا عنه ،

(١) سيل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ - ٦٧٢ - ٦٧٣ ، وهي عند مسلم / ٤ ١٩٤٩ ح (٧٧ - ١٨٠ / ٢٥١١) .

(٢) سيل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ - ٦٧٣ وهي عند البخاري .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي / ٥ - ٢٦٦ .

ونزل فيهم من القرآن ما نزل : «**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكَفَرُوا ...**» إلى آخر القصة) [التوبه : ١٠٧ - ١١٠] (١) .

وروى البيهقي عن ابن عباس في قوله : «**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكَفَرُوا ...**» [التوبه : ١٠٧] هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر : ابنيوا مسجدكم، واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فاتى بجند من الروم ، فأخرج محمدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا : إننا قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلى فيه وتدعوا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل : «**لَا تَقْعُمْ فِيهِ أَيْدِي الْمَسْجِدِ أَسْسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أُولَئِكَ يَوْمٍ**» يعني مسجد قباء «**أَحَقُّ أَنْ تَقْعُمْ فِيهِ رِجَالٌ يَحْبُّونَ أَنْ يَظْهِرُوا**» إلى قوله «**شَفَاعَ جُرْفٍ هَارِقَانَهَارِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**» يعني قواعده «**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي النَّقْوَمَ الظَّالِمِينَ**» (١٩) لا يزال بنائهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم » يعني الشك «**إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ**» يعني الموت) (٢) .

وروى الواقدي عن شيوخه قال: وكان عاصم بن عدى يقول: كنا نتجهز إلى تبوك مع النبي ﷺ فرأيت عبد الله بن نبيل ، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الفرار وما يصلحان ميزاباً قد فرغوا منه فقالا: يا عاصم ، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلى فيه إذا رجع . فقلت في نفسي : والله ما بني هذا المسجد إلا منافق معروف بالتفاق ، أَسْسَه أبو حبيبة بن الأزرع ، وأخرج من دار خدام بن خالد ، ووديعة بن ثابت في هؤلاء النفر ، والمسجد الذي بني رسول الله ﷺ بيده ، يؤسسه جبريل عليه السلام يوم به البيت . فوالله ما رجعنا من سفرينا حتى نزل القرآن بذلك ودم أهله الذين جمعوا في بنائه وأعانتوا فيه: «**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكَفَرُوا**» إلى قوله : «**يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ**» (٢٠) [التوبه] .

وقبل ل العاصم بن عدى : ولم أرادوا بناءه ؟ قال : كانوا يجتمعون في مسجدنا ، فلما هم يتاجرون فيما بينهم ، ويلتفت بعضهم إلى بعض ، فيلحوظهم المسلمون بأصواتهم ، فشق ذلك عليهم ، وأرادوا مسجداً يكونون فيه لا يغشاهم فيه إلا من يريدون من هو على مثل رأيهم ، فكان أبو عامر يقول: لا أقدر أن أدخل مربدكم هذا ، وذلك أن أصحاب محمد يلحوظونني ، وبينالون مني ما أكره . قالوا: نحن نبني مسجداً نتحدث فيه عندهنا) (٣) .

١٠ - قال ابن سعد : وجعل المسلمين يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ، بلغ ذلك رسول الله ﷺ . فنهاهم وقال :

(٢) دلائل النبوة لأبي شمام ٢٦٣ ، ٢٦٢ / ٥ .

(١) السيرة النبوة لأبي شمام ٥٣٠ / ٢ .

(٣) المغارى للواقدي ١٠٤٩ ، ١٠٤٨ / ٣ .

« لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال » (١) .

١١ - روى البيهقي عن خريم بن أوس بن حارثة بن لام قال :

هاجرت إلى رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك فأسلمت ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله ، إنني أريد أن أمتدحك . فقال رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك ». فقال العباس :

مستودع حيث يُخصف الورق
أنت ولا مضفة ولا علق
الجسم نسراً وأهل العرق
إذا مضى عالم بـدا طبق
خندفَ علياء تحتها النطْرُ
ض وضاءت بنورك الأفق
و سُبل الرشاد نخترق
من قبلها طبت في الظللا وفى
ثم هبطت البلاد لا بشر
بل نطفة تركب السفين وقد
تنقل من صالب إلى رحم
حتى احتوى بيتك المهيمن من
وأنت لما ولدت أشرقت الار
فتحن في ذلك النور وفي الضيَا

وفي رواية عن زكريا بن يحيى الطائى (فذكره بإسناده إلا أنه قال : « حدثني ابن أوس قال : هاجرت ثم ذكره بمثله وزاد :

ثم قال رسول الله ﷺ : « هذه الحيرة البيضاء قد رُفعت لي ، وهذه الشيماء بنت نفيلة ، الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود » فقلت : يا رسول الله ، إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهي لي ؟ قال : « هي لك ») (٢) .

* * *

أهم الأحداث التي تواجهنا بعد الاتجاه من تبوك إلى المدينة هي :
أولاً: إطعام الجيش كله وإسقاوه .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥٧٤ وهي عند ابن سعد / ٢٦٧ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي / ٥٢٨ . وينقل لنا الحافظ البيهقي عن خريم بن أوس ثنا البيهقي ، كيف تحقق معه موعد رسول الله ﷺ يوم كان في الجيش الذي مضى إلى الحيرة مع خالد بن الوليد ثنا البيهقي يقول : (... ثم أقبلنا على طريق العطف إلى الحيرة فأول من يلقانا حين دخلناها الشيماء بنت نفيلة كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود ، فتعلقت بها وقلت : هذه وهيها لي رسول الله ﷺ ، فدعاني خالد عليها بالبيضة فأتيته بها وكانت البيضة محمد بن مسلمة ، ومحمد بن بشير الانصاريان ، فسلّمها إلى ، فنزل إليها آخرها عبد المسيح يريد الصلح . قال : بعنديها ، فقلت : لا انقصها والله عن عشرة مائة درهم . فاعطاني ألف درهم ، وسلمتها إليه . فقيل : لو قلت مائة ألف لدفعها إليك ، فقلت : ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مائة) . الدلائل / ٥٢٩ .

ثانياً : مؤامرات المنافقين في محاولة قتل النبي ﷺ ومسجد الضرار .

ثالثاً : الجو النفسي لل المسلمين بعد غزوة تبوك .

و سنستعرض تباعاً هذه القضايا الثلاث :

أولاً : إطعام الجيش كله وإسقاوه :

والملاحظ أن التربية الفردية تكاد تكون أحداثها نادرة أثناء هذه الغزوـة بينما تنصـب التربية على الجماعة المسلمة كاملة ، فليـست المعـجزـة ضمن مـجمـوعـة مـحدـدة منـالـجـيـش ، إنـما تـعرـضـ المـعـجزـةـ الـرـبـانـيـةـ ،ـ فـيـشـهـدـهاـ الجـيـشـ الإـسـلـامـيـ كـلـهـ ،ـ وـذـلـكـ بـعـدـ عـشـرـينـ يـوـمـاـ منـ التـرـبـيـةـ الـمـسـتـمـرـةـ الـخـاصـةـ وـالـعـامـةـ الـتـىـ أـتـاحـتـ أـكـبـرـ قـدـرـ مـمـكـنـ لـأـكـبـرـ عـدـدـ مـنـ الصـحـابـةـ أـنـ يـلـتـقـواـ بـقـائـدـهـمـ وـرـسـولـهـمـ ،ـ فـيـ اـسـتـفـسـارـ أوـ اـسـتـمـاعـ لـخـطـبـةـ ،ـ أـوـ شـهـودـ لـمـعـجزـةـ ،ـ أـوـ حلـ لـمـشـكـلـةـ .ـ وـتـعـرـفـ الجـيـشـ عـلـىـ سـيـدـ وـلـدـ آـدـمـ بـيـنـ ظـهـرـانـهـمـ ،ـ فـيـهـلـوـاـ مـنـ نـورـهـ مـاـ شـاءـ اللـهـ أـنـ يـنـهـلـوـاـ ،ـ أـمـاـ وـقـدـ تـحـرـكـ بـجـيـشـ قـافـلـاـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ،ـ فـلـاـ عـجـبـ فـيـ هـذـهـ الـمـسـافـةـ الـطـوـيـلـةـ الـتـىـ تـعـجاـزـ سـتـمـائـةـ كـيـلوـ مـتـرـ أـنـ تـحـصـلـ الـمـاجـاعـةـ فـيـ الـجـيـشـ ،ـ وـأـنـ يـنـفـدـ الزـادـ ،ـ وـلـاـ عـجـبـ أـنـ يـشـرـفـ الـجـيـشـ عـلـىـ الـهـلاـكـ ،ـ وـتـقـطـعـ أـعـنـاقـ الرـجـالـ وـالـدـوـابـ مـرـاتـ وـمـرـاتـ ،ـ وـالـطـرـيقـ كـلـهـ صـحـراءـ قـاحـلةـ ،ـ يـنـدـرـ أـنـ تـلـقـىـ بـهـاـ المـاءـ ،ـ وـهـاـ هوـ الـجـيـشـ يـعـودـ دـوـنـ مـعـرـكـةـ تـذـكـرـ أـوـ حـرـبـ يـحـصـلـ مـنـهـاـ عـلـىـ غـنـائـمـ أـوـ ثـرـوـاتـ ،ـ اللـهـمـ إـلـاـ الـكـتـيـبـةـ الـعـدـائـيـةـ إـلـىـ دـوـمـةـ الـجـنـدـلـ ،ـ وـقـدـ أـثـبـتـ الـجـيـشـ اـنـضـبـاطـاـ عـظـيمـاـ وـكـفـاءـةـ كـبـيرـةـ وـصـبـرـاـ عـلـىـ الـجـوعـ وـالـحرـ وـالـعـطـشـ .ـ هـذـاـ الـجـيـشـ الـذـىـ نـجـحـ فـيـ هـذـاـ الـامـتـحـانـ وـرـضـىـ رـبـهـ عـنـهـ ،ـ لـنـ يـدـعـهـ عـزـ وـجـلـ يـهـلـكـ فـيـ هـذـهـ الـصـحـراءـ جـوـعاـ وـعـطـشاـ ،ـ إـنـماـ يـدـرـيـهـ وـيـعـجـمـ عـودـهـ ،ـ وـيـقـوـىـ سـاعـدـهـ اـسـتـعـدـادـاـ لـلـجـوـلـاتـ التـالـيـةـ .ـ وـهـوـ الـثـروـةـ الـبـشـرـيـةـ الـتـىـ أـعـدـهـاـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ خـلـالـ اـثـنـيـنـ وـعـشـرـينـ عـامـاـ ،ـ وـهـوـ الـمـرـشـحـ لـلـتـغـيـرـ الشـامـلـ فـيـ الـأـرـضـ ،ـ فـلـاـ عـجـبـ أـنـ يـشـهـدـ رـسـولـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ ،ـ وـكـيـفـ يـطـعـمـ ثـلـاثـيـنـ أـلـفـ مـنـ الـبـشـرـ بـرـكـتـهـ ﷺ ،ـ وـكـيـفـ يـسـقـىـ الـعـطـاشـ الـظـمـائـيـ مـنـ الـبـشـرـ وـالـدـوـابـ بـرـكـتـهـ عـلـيـهـ الـصـلـاةـ وـالـسـلـامـ ،ـ لـيـزـدـادـ الـدـيـنـ آـمـنـاـ إـيمـانـاـ وـيـزـدـادـ الـدـيـنـ فـيـ قـلـوبـهـمـ مـرـضـ رـجـسـاـ وـلـعـنـةـ وـغـضـبـاـ مـنـ اللـهـ .ـ

فـالـجـيـشـ يـؤـدـبـ عـاـئـدـاـ بـرـعـاـيـةـ اللـهـ ،ـ وـالـطـرـيقـ طـوـيـلـ ،ـ وـالـجـوـعـ كـافـرـ ،ـ وـالـصـحـراءـ عـنـدةـ فـقـالـواـ :ـ يـاـ رـسـولـ اللـهـ ،ـ لـوـ أـذـنـتـ لـنـاـ فـتـنـحـ نـوـاضـحـنـاـ فـأـكـلـنـاـ وـادـهـنـاـ .ـ فـهـذـاـ هـوـ الـخـلـ المـنـطـقـىـ ،ـ أـنـ يـضـحـىـ بـالـقـلـيلـ مـنـ الـبـعـيرـ ،ـ وـتـنـاـوـلـ كـلـ مـجـمـوعـةـ فـيـ الرـكـوبـ ،ـ وـهـذـاـ هـوـ الـأـمـرـ الـذـىـ أـصـدـرـهـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ أـوـ الـإـذـنـ بـالـأـحـرـىـ ،ـ لـكـنـ الـوـزـيـرـ الثـانـيـ ﷺ تـدـخـلـ وـأـوـقـفـ الـإـذـنـ ،ـ ثـمـ دـخـلـ عـلـىـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ وـقـالـ :ـ يـاـ رـسـولـ اللـهـ ،ـ أـذـنـتـ لـلـنـاسـ فـيـ

نحر حمولتهم يأكلونها ؟ ورأى رسول الله ﷺ أن الإذن قد فهم على غير صورته الحقيقة، من خلال هذه الإشاعة ، فقال صلوات الله وسلامه عليه لوزيره : « شكوا إلى ما بلغ منهم الجوع فأذنت لهم ، ينحر الرفقة البعير والبعيرين ، ويعاقبون فيما فضل بينهم » .

وعلى ضوء هذه الخطة ، فقد تنقص الركائب حوالي ثلاثة عشر بعير من اثنى عشر ألف بعير ، وذلك قياساً على غزوة بدر ، حيث عرف رسول الله ﷺ عدد القوم مما ينحرون من الإبل كل يوم . إذ قال الأسير القرشي ، ينحرون كل يوم تسعًا أو عشرًا من الإبل ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم بين التسعمائة والألف » . لكن هذا العدد اليومي حين ينقص كل يوم فقد يجهز على الكثير من البعير ، فلو احتملت العودة عشرة أيام فهذا يعني أنهم ينحرون ثلاثة آلاف بعير ، بينما لو احتملت العودة عشرين يوماً فهذا يعني أنهم ينحرون ستة آلاف بعير ، أي نصف مراكبهم ، وهذا يهدد الجيش بالهلاك .

لم يكن لدى ابن الخطاب خليفة حرج أن يراجع رسول رب العالمين في أمر رآه ، فهو مسؤول وقائد وليس جندياً عاديًّا فحسب ، والجندي العادي يراجع فكيف بالوزير المسؤول ، ومع أنه لم يستشر ، ولم يطلب رأيه ، لكنه مع ذلك ومن موقع المسؤولية أوقف الإذن ، ودخل على قائده يناقشه فيه .

قال عمر : يا رسول الله ، لا تفعل ، فإن يك في الناس فضل من الظهر يكن خيراً ، فالظهر اليوم رقاد ، والمُسؤول ليست مهمته فقط أن يبين أبعاد القرار المتخذ ، بل مهمته كذلك أن يقدم القرار البديل لحل الأزمة .

إن الإسلاميين اليوم يطرحون شعارهم الخل الإسلامي ، ويوجهون نقدتهم المستمر لكل الحلول القائمة للأزمات المستعصية في الأمة ، لكن لا يكفي أن نوضح خطأً بعد عن الحل الإسلامي . فهذا يستطيعه الكبير والصغير ، أما المطلوب منا فهو أن نقدم الحل الإسلامي للأزمة المستعصية ، ولاشك أن الفكرة التي تقول : إن هذه الأزمات والمشاكل إنما نتجت عن تطبيق غير الإسلام ، وليس الإسلام مسؤولاً عنها هي فكرة صحيحة والقول : دعوا الإسلام يحكم ، ثم حاسبوه على المشكلات التي تنشأ من حكمه ، هذه الفكرة وجيئه ، لكن المغالاة فيها أحياناً تحول الوضع إلى صورة خيالية ، فهناك أزمات اقتصادية مستعصية ، وحكم الإسلام في أكثر من قطر ، ولم يتمكن الإسلاميون من أن يقدموا المجتمع النموذجي الذي يدعون به الجماهير بعد حكم الإسلام ، ونخشى أن يوقعوا هذه الجماهير بالسراب كما أوقعتهم الشيوعية فيه ، حين يعجزون عن حل هذه الأزمات ، وهذا عمر خليفة أمامه مشكلة الجوع المستحكمة في الجيش ، ولا يكفي أن

نحافظ على الركائب والظهر أمام فتك الجوع بهذه النفوس ، بل لابد من إيجاد حل واقعي .

إن ثقة الوزير الثاني بقائمه رسول رب العالمين ثقة لا تعرف الحدود ، وما أعجب هذا الخل الذي طرحة ؟

(ولكن يا رسول الله ، ادع الله بفضل أزواجهم ثم اجمعها ، وادع الله تعالى بالبركة لعل الله تعالى أن يجعل فيها البركة كما فعلت في منصرفنا من الخديبية حين أرملينا ، فإن الله تعالى مستجيب لك) .

فقد كان هذا الخل منطلقاً من الخبرات السابقة ، حيث أرملي الجيش في الخديبية ، وأطعم الله ذلك الجيش ، ولكن الفرق كبير بين الألف والخمسمائة وبين الثلاثين ألفاً ، لكن عند الله عز وجل لا يعني هذا الفرق شيئاً .

« يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنكم وجنكם اجتمعوا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر » .

ورأى رسول الله ﷺ الأخذ برأي وزيره عمر رضي الله عنه ، كما أخذ في القدوم إلى تبوك برأي وزيره الصديق حين قال له : يا رسول الله ، إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً ، فادع الله تعالى لنا . قال : « أتَبْرُئُ ذَلِكَ؟ » قال : نعم .
وهنا يقول لوزيره الثاني : نعم .

(فدعا بنطع فبسط ، ونادي منادي رسول الله ﷺ : من كان عنده فضل من زاد فليأت به ، وهو امتحان عسير جداً لإيمان هؤلاء المؤمنين ، فالذى عنده القليل من الزاد إن لم يكن الإيمان يملاً كيانه أن الله تعالى سيبارك له فيه ، كيف يفرط بما عنده ، ويدع نفسه جائعاً ليطعم غيره ، وما أعنسره من اختبار أن تتنازل عما تملك في أشد الساعات عسرة وأصعب الأوقات حرجاً ، إن التمرة في مثل هذه الحال ليصن بها صاحبها على غيره . ولكن الأوامر النبوية لا تدع مجالاً للاحتفاظ بشيء ، والذى يحتفظ بما عنده يعلم أن الله تعالى يراه ، فقد يخبر رسوله عنه ، ويفتضح أمره بين المسلمين .

(فجعل الرجل يأتي بكاف ذرة ، ويجيء الآخر بكاف ثغر ، ويجيء الآخر بكسرة وفي الرواية الثانية : وجعل الرجل يأتي بالدقائق أو التمر أو القبضة من الدقيق والسويد والتمر ثلاثة أفراق حزراً ، والفرق ثلاثة آصع قال : فجزأانا ما چاؤوا به فوجدناه سبعة وعشرين صاعاً) . ويمكن لهذه الكمية من التمر أن تشبع مائة من جنود هذا الجيش الذى يبلغ عشرات الآلاف ، والله تعالى يرىده لهذا الجيش المعرض للهلاك أن يقدم له مأدبة

لهذه الوجبة الغذائية على حساب رسوله ﷺ، وتمويلًا للجيش على الطريق للأيام القادمة، ويعلم هذا الجيش مكانة هذا النبي العظيمة عنده ، وأثرته لديه ، وحبه له ، وأنهم قد أكرمهم ربهم برفقة إمام الأنبياء ، وأعظم خلق الله في هذا الوجود ، وفي هذه العملية وحين يستجيب الله تعالى لعبده ورسوله ، إنما يطال كل جندي من جنود هذا الجيش ، ما يكرمه الله تعالى به من دفقات الإيمان إلى قلبه ، والجيش كله يشهد هذه العملية ، والكل يتطلعون بكل أحصاهم وجوارحهم ، وبكل ما يملكون من جوع فاتك يتطلعون إلى هذه الأصع السبع والعشرين ، وإلى هذه الكسرات والذرة ، وهذا الطعام الذي يطعم مائة أو مائتين كيف يمكن أن يطعم الجيش كله ، وهو هو ﷺ بين يدي جيشه يقوم بالعمليات اللازمة لإطعام الجيش كله ، والجيش ينظر إليه ، والمؤمنون تهفو قلوبهم حبًّا وشوقًا وهياماً بسيدهم ، والناقوس يشمون ويصمدون ويظاهرون بالإيمان الكاذب .

(فتوضاً ، وصلى ركتين ، ثم دعا الله تعالى أن يبارك فيه ، قال عمر : فجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال : «أيها الناس ، خذوا ولا تنهوا» . وانتهت المعامل الكبرى للتقطيع الغذائي ، التي تحتاج إلى المليارات ، لتأمين طعام الجيش وتمويله حتى العودة إلى المدينة .

(فأخذوه في الجُرب والغرائز ، حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه . قال أبو هريرة رضي الله عنه : وما تركوا في المعسكر وعاء إلا ملؤوه ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة . قال محمد بن عمر : قال بعض الصحابة : لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز ، وقبضة من نمر ، ولقد رأيت الانطاع تفيس ، وجشت بجرابين فملأت أحدهما سويقًا والآخر خبزًا ، وأخذت في ثوبى دقيقاً كفاني إلى المدينة) .

إن رسول الله ﷺ ليعجب لهذا الفيض الريانى الذى بعثه ربى على يديه فموئًّا الجيش كله وأطعمه ، والجيش يملؤون جراب قلوبهم إيماناً ويقيناً قبل أن يملؤوا أوعيتهم خبزاً وتغراً ، وكان عرساً خالداً من أعراس الإيمان التى لم تتكرر فى التاريخ ولن تتكرر لها هذا الجيش الضارب فى الصحراء ، والذى يمثل الهدى فى الأرض ، وهو الوحيد فى هذا الوجود والذى يمثل نور الوجود وهذه .

ولهذا كان الحديث مناسبة لتعزيق الإيمان فى القلوب يقول عقبه رسول الله ﷺ :

«أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يقولها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»

وفي لفظ : «لا يأتي بها عبد محق إلا وقام الله حر النار» ، إننا لتغمتنا السعادة ونحن نقرأ عن هذه المعجزة ونحمل بروأها ، فكيف بمن شهدنا عياناً ورأها بعينه !

وليس إبقاء الجيش كله بأقل معجزة من إطعامه ، فهى مضافة ربانية لأحبابه فى الأرض ، أن سقاهم من عنده تكريماً لرسوله ﷺ ثلاث مرات بعد عطش مرضن فى هذه اليد ، وأى عجب فى ذلك أن يرعى الله تعالى عبيده وأحبابه الذين أطاعوا الله تعالى ورسوله ، ونفروا معه فى الحر والعسرة والشدة ، وتركوا الظلال والشمار والنعيم المقيم ، وانضموا إلى جيش التوحيد يقطع الصحراء جيئة وذهباباً فى سبيل الله ، ويرفع ريات التوحيد خفافة فى الأرض العربية كلها .

وما أجمل قصة الإداوة والركوة التى نبه رسول الله ﷺ على أهميتها قبل وقوع المعجزة ومحدثنا فى ذلك أبو قتادة ؓ ، الذى أكرمه الله تعالى برفقة سيد الثقلين ، وهو الذى يحمل هموم الأمة كلها : « إِنَّا سَلَقْنَا عَلَيْكَ قُوْلًا ثَقِيلًا ٤٥ 】 [الزمل] ، وهو عليه الصلاة والسلام بطبيعته البشرية يأخذ منه الإرهاق كل مأخذ ، (فمال على شقه فدعمته فاتبه ، فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أبو قتادة يا رسول الله ، خفت أن تسقط فدمعتك . فقال رسول الله ﷺ : « حفظك الله كما حفظت رسوله » وهنئنا لك يا أبا قتادة دعوة نبيك . (ثم سار غير كثير ، ثم فعل مثل هذا فدعنته فاتبه . فقال : « يا أبا قتادة ، هل لك فى التعريض ؟ » فقلت : ما شئت يا رسول الله) وهذا أحب إلى أبا قتادة ، فسوف يبيتون ويجلسون ، ويستمع لحديث نبى المصطفى ، ويتاح له أن يخدمه ، وفي هذا من المتعة والسعادة أكثر من حديث الراكين على راحتيهما يتحدىان ، وانضم أربعة صحابة مع أبا قتادة أحاطوا برسول الله ﷺ (فنما فما اتبهنا إلا بحر الشمس ، فقلنا : إننا لله ، فاتنا الصبح ، فقال رسول الله ﷺ : « لنغieten الشيطان كما أغاظنا » .

« قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَامُ الْغَيْبِ ٤٦ 】 [قل جاءَ الْحَقُّ وَمَا يُنْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِدُّ ٤٧ 】 [سباء]

فتوضاً من ماء الإداوة ففضل فضلة فقال :

« يا أبا قتادة ، احتفظ بما فى الإداوة والركوة ، فإن لها شأناً » .

وينظر أبو قتادة فرحاً سعيداً بهذه الإداوة والركوة ، ترى أية معجزة سيشهدها بهما ، ويضمهمما إلى صدره ، ويعجهمما الحب الغامر ، فهما مرشحتان لمعجزة من معجزات الدنيا .
 (وصلى رسول الله ﷺ بنا الفجر بعد طلوع الشمس ، فقرأ بالمائدة ، فلما انصرف من الصلاة قال : « أما إنهم لو أطاعوا أبا بكر وعمر لرشدوا » . وذلك أن أبا بكر وعمر أرادا أن يتزلا بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما ، فنزلوا على غير ماء بفلاة من الأرض). فالجنود يحدوهم الشوق إلى أهلיהם فى المدينة ويودون لو تطوى بهم الأرض ليصلوا إلى

بيوتهم وثمارهم وظلالهم ، وإذا بهم يجدون أنفسهم بفلاة من الأرض حيث لا ماء ولا ظل ولا هناء ، وكانت مناسبة لإعلام المسلمين في الأرض إلى يوم القيمة ، وليس جيش العسرا فقط ، لإعلامهم جميعاً أن طاعة أبي بكر وعمر هي الرشد بعينه ، سواءً كان ذلك في تبوك وغيرها ، سواءً في الجيل المعاصر لهم أو ما بعدهما ، فهما أمناء الله تعالى في أرضه على رسالة نبيه محمد ﷺ حتى ليقول لهما سيد ولد آدم: « لو اجتمعتما على أمر ما خالفتكم » ، ولكننا نحمد الله أن المسلمين في هذه المناسبة ما استجابوا للوزيرين ، وما نزلوا على الماء ، حتى نشهد معجزة جديدة تغمر الكون بعظمتها تبع من بين أصابع المصطفى ﷺ .

(فركب رسول الله ﷺ فلحق بالجيش عند زوال الشمس ونحن معه ، وقد كادت أعناق الخيل والرجال والركاب تقطع عطشاً ، فدعا رسول الله ﷺ بالركرة فأفرغ ما في الإداوة فيها ووضع أصابعه عليها قبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى رروا ، ورروا خيولهم وركائبهم ، وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألف ، واحيل اثنا عشر ألف فرس ، فذلك قول رسول الله ﷺ : « احتفظ بالركرة والإداوة ، فإن لها شيئاً ») وإن الخيل وكل فرس فيها لتشهد شهادة الحق بالوحدانية والرسالة ، وإن كل ناقة لتسعد بهذا المدد الرباني ، وتشعر أنها مع نبي هذا الوجود ، وقد أكرمت من ربها بفضل رسوله بهذا الماء الزلال في الصحراء ، وإن الصحراء كلها بكل ذرة دمل فيها لنفخر على أخواتها أن مسها رسول الله ﷺ ومشى على ثرائها ، وغمرها بالماء الرباني بفضل الله عز وجل ، وببقى هو عبد الله ورسوله ، وتبقى الوحدانية الخالصة هي الهدف من وراء كل هذه المعجزات ، فالصارى لم يتسع عقلهم البعض المعجزات التي أجرأها الله تعالى على يد نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام أن يحيى الموتى بإذن الله ، ويبرى الأكمه والأبرص بإذن الله ، فجعلوه إليها من دون الله ؛ لأنهم يرون ألا يفعل هذا أحد إلا الله . بينما نشهد عشرات الآلوف هنا ، والتي كانت تعبد الحجر من دون الله ، تلقاء في الطريق فستنتظمه وتفسله وتعبه ، بل وتبعد التمر والخشب بيخرها البخار فيذهب عقلها بها ، وهي لا تملك نفعاً ولا ضرراً ولا تردد كلاماً ، ولا تنطق شيئاً . ومع كل ذلك يقدمون لها القرابين ويختلفون منها ، ويتمسحون فيها . وهذا محمد ﷺ يطعم جيشاً من سبع وعشرين صاعاً من التمر ، ويسكن جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من بقية ماء في ركوة ، ويغور الماء من أصابعه ، ومع هذا كله فيقول: « إنني عبد الله ورسوله » . ويدعو معلناً في هذا الجيش « أن من يأتي يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى عبد الله ورسوله ، لم يحتجب عن الجنة أو يقيه الله تعالى النار » . أى وحدانية هذه وأى عظمة هذه ، وأى عبودية هذه ، يصبح بها رسول الله ﷺ جنده وحزبه « إن

الشيطان قد يشن أن يعبد في أرضكم هذه ، ورضي أن تطهروه بما تحقرن من أعمالكم * .

إنها رأية الوحدانية الخالصة ، والعبودية الخالصة لله وحده ، ولو كان رسوله يطعم عشرات الآلوف ، فإنما يطعمهم بإذن الله ، ويدعو الله تعالى بذلك ، وحين يسقى عشرات الآلوف ، إنما يسقىهم بإذن الله ، وبعطاء الله . وخشية منه عليه السلام أن يتلبس إيمانهم بظلم أو يتلبس بشرك ، يعود ليقرر لهم في كل لحظة عبوديته لله وحده ، وامثاله لأمر ربه سبحانه ، وأنه بشخصه لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موئلاً ولا حياة ولا نشوراً إلا فيما يعطيه الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، بل يمضي به جبريل عليه السلام ليصل إلى المدينة على جندي من جنوده حضر صلاة جنازته سبعون ألف ملك ، وبماذا نال هذا الوسام ، ناله بجهة ، **« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۖ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ۖ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ۖ ۝ »** [الإخلاص] يتلوها قائماً وقائعاً أو راكباً أو ماشياً على كل حال . وما سقاية الماء الذي تفجر من الوشل تختلف عن الماء التفجر من بين أصابع المصطفى عليه السلام ، يفجر من هذا النبع القليل الذي يؤخذ بالمصة والمصتين ليتفجر أنهاراً فيسمعون له كحس الصواعق من هدير تفجره ، وما سقاء المرأة البلوية الذي باركه رسول الله عليه السلام فأصبح عيناً من عيون الماء ، ومعيناً من معينه ، يستنقى منه الجيش ، إلا شواهد لوحدانية الله ، الذي رضى عن هذا الجيش ، ورضي عن قائدته ، وأكرمه بالطعام والماء وغذائهم وسقاهم من عنده . إن المؤمنين ليلحون بالمائدة من السماء ، والتي تلا رسول الله عليه السلام آياتها قبل معجزة المائدة التي أطعنت ثلاثين ألفاً ، أرادوا أن يجعلوا منها عيذاً ، كما قال المسيح عليه السلام عنها : **« قَالَ يَسُرِّ ابْنُ مَرِيمَ اللَّهُمَّ رِبِّنَا أَنْزَلْتُ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيْدًا لِأُولُوا وَآخِرَنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَرْزَقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ ۝ قَالَ اللَّهُ أَنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُفِرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَلَيْسَ أَعْذِبُهُ عَذَابًا لَا أَعْذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ ۝ »** [المائدة] .

ترىكم من الأعياد ^(١) علينا أن نحتفل بها بمناسبة هذا الغذاء الرباني والسؤال رباني من خلال هذه الآيات التي أجرتها جل وعلا على يد نبيه محمد عليه السلام ورزقه ورثيق حزبه وجنته وهو خير الرازقين .

(فيجد راوية من ماء مع امرأة من بلى ، فكلمها أسيد ، وأخبرها خبر رسول الله عليه السلام ، وقد وصفت له الماء وبينه وبين الطريق هنية ، فلما جاء أسيد بالماء ، دعا فيه رسول الله عليه السلام ، ودعا فيه بالبركة ، ثم قال : « هلم أستقيتكم » . فلم يبق معهم سقاء إلا ملزوة ، ثم دعا بر كابتهم وبخوبتهم فسقوها حتى نهلت . ويقال : إنه عليه السلام أمر بما جاء به

(١) وهذا من باب ذكر الشيء بالشيء . فلا يغيب عن الذهن أن أيام الأضحى والغطير والجمعة هي الأعياد الوحيدة للمسلمين ، والأعياد ثبتت بنص شرعى ، لا بابتداع بشرى .

أسيد فصبه في قعوب عظيم من عساس أهل الباية . فأدخل رسول الله ﷺ فيه يده ، وغسل وجهه ويديه ورجليه ثم صلى ركعتين ، ثم رفع يديه مذماً ، ثم انصرف وإن القعوب ليفور . فقال رسول الله ﷺ للناس « ردوا » فاتسع الماء وانبسط الناس حتى يصنف عليه المائة والمائتان . فارتوا وإن القعوب ليجيش بالرواء ، ثم راح رسول الله ﷺ مبرداً متروياً .

وتلئى خاتمة المعجزات في تبوك ، وقد كلّ الظهر وتعب من هذه الرحلة الصحراوية المهمكة ، وجهد جهداً شديداً ، وبخشى أن ينقطع بهم هذا الظهر في تبوك ، فالإبل أمضت شهرين في الرواح والغدو ، وقطعت هذه المسافات الشاسعة ، حتى أنهم ليسو قوتها بعنف ، ولا تقدر على المسير ، (فوقف في مضيق والناس يمرون فيه ، فتفتح فيها وقال : « اللهم احمل عليها في سبيلك فإنك تحمل على القوى والضعف والرطب واليابس في البر والبحر » ، وكانت هذه الدعوة العظيمة المباركة بمثابة إدخال هذه الإبل في عملية استجمام واسعة ، قد تزيد عن الشهر ، حيث استعادت قوتها ، وعادت لها فتوتها ، وكما يقول فضالة بن عبيد رض (فاستمرت فما دخلنا المدينة إلا وهي تزارعنا أرمتها) يحاول المسلمون كبح جماحها فما يستطيعون من النشاط والفتوة والحركة . ويعيد إلى الذاكرة فضالة بن عبيد الذي ابتدأ حياته بالإسلام بمعجزة خالدة يوم أقدم على اغتيال الرسول ﷺ وفك رأسه ، فأخبره رسول الله ﷺ بما كان يفكرا . (فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أفضاله ؟ » قال : نعم . قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله . فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق شيء أحب إلىّ منه . ورجع فضالة إلى أهله قال : فمررت بأمرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث . فقال : لا . وابن عباس يقول :

| | |
|--|-----------------------------|
| يأبى عليك الله والإسلام | قالت هلم إلى الحديث فقلت لا |
| بالفتح يوم تأسر الأصنام | لو ما رأيت محمداً وقبيله |
| والمشرك يفشى وجهه الإظلام ^(١) | لرأيت دين الله أضحم بيتنا |

فإن كانت المعجزة لفضالة خاصة يوم فتح مكة ، ففتحت قلبه المغلق للإسلام ، بعد أن كان مزمعاً قتل نبي الإسلام فيها هو يحدثنـا عن المعجزة التي عمـت الجـيش كـله ، ويعـثـت النـشـاطـ والـحـرـكةـ والـحـيـوـيـةـ فـيـ الإـبـلـ التـيـ يـرـكـبـهـ الـمـسـلـمـونـ وـالـتـيـ تـبـلـغـ اـثـنـاـ عـشـرـ الفـ بـعـيرـ ،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٥٦/٥ .

وبالعجزة الكبرى الأخرى التي حمت نصفه من الذبح ، وطالما حن الإبل لرسول الله ﷺ . فلا عجب أن يكون الإبل اليوم وهو ينارع ركابه الأعنة يود أن يسابق الريح فرحاً برسول الله ﷺ ، وشوقاً إليه وإلى مدينة المصطفى ﷺ . وأي غرابة في ذلك . ألم تقف النملة محذرة قومها بطش سليمان عليه الصلاة والسلام : « قَاتَ نَمَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْ إِدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْظُمْنَكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجَنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » [النمل] .

أو لم يعلن الهدى التوحيد ، ويعلن ثورته على ملكة سبا . فائلاً :

« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحْظِ به وَجَهْتُكَ مِنْ سَبَأً بِسَبَأٍ يَقِينٌ » [النمل] إنني وجدت امرأة تملّكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم [النمل] ، وكلف بعدها بالسفارة بين نبي الله سليمان وملكة سبا ، أي غرابة أن يحن الإبل إذا كان الجذع حن لرسول الله ﷺ وخار متجمعاً على فراقه . وجاء الجمل إليه وشكى له معاناته من صاحبه . أليس هذا الظهر هو خيرية خلق الله في الأرض ، لم يركبها خيراً منهم قط ، ولن يركبها كذلك ، وهم يسعدون بصحبة خاتم رسول الله ، فلم لا تفرح الإبل وتترافقن بين رسول الله ﷺ سعيدة به وبصحابته ، ويشكرن المصطفى ﷺ على ما أزال بدعوه عنهم من وصب وتعب وجهد وضنك وكلل .

والجو يزهر إشرافاً من الجذل (١)

والارض ترجمف من زهو ومن فرق

والخيال تخال زهواً في ثني الجذل (٢)

والعيس تثال زهواً في اعتها

له النبوة فوق العرش في الأزل (٣)

الملك لله هذا عز من عقدت

ثانياً : مؤامرات المنافقين :

لقد كان التخطيط عند المجرمين المنافقين على مستوى عالٍ . شارك فيه زعماؤهم الكبار وعلى رأسهم عبد الله بن أبي والجد بن قيس ، وعاد أبو عامر الراهب من جولته في أرض الشام والروم ليشارك في هذه المؤامرات ، وشارك اليهود ، والشيطان في هذا الأمر بكل ما أوتوا من قوة .

وقد تحدثنا عن المؤامرات السابقة ، ونتائج فضح المؤامرات هنا في العودة من تبوك ، وإن كان القرآن الكريم هو الذي سجلها لتبقى أبداً الدهر تدل على الكيد لهذا الدين ، وكيف يحيط الله تعالى هذا الكيد حتى أن سورة براءة من كثرة ما فضح فيها من مؤامرة وخبث وكيد . أطلق عليها اسم (الفاضحة) و (المبشرة) .

(١) الجذل : الفرح .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٩٥/٥ من قصيدة للإمام الشقرابطي .

أما المؤامرة الكبرى التي بين أيدينا فهي محاولة اغتيال رسول الله ﷺ ، ويحسن أن نبرز المخطط الذي انطلق منه المنافقون في الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين معه :
أولاً: إطلاق الإشاعات عن استعداد قيصر لغزو المدينة ، مع إغراءات اليهود لرسول الله ﷺ أن يرد أرض المشر « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاْكِرِينَ » [٣٠] [الأنفال]. فاليهود والمنافقون يعلمون بأن يغضي المسلمين لارض الروم وغزو الشام حتى تكون مقبرتهم هناك .

ثانياً: تشبيط المؤمنين على الجهاد وإثارة الشكوك في الصفة المسلم ؛ لتكون لهم الأعذار المناسبة في عدم اللحاق بالجيش كى ينجوا بأنفسهم وتستقيم لهم السيطرة على المدينة وكان المسؤول عن هذه الجريمة الجد بن قيس .

ثالثاً: التظاهر بالاستعداد للنفير ، ثم التخلى عنه في اللحظات الأخيرة ، والانفصال بالمنافقين عن الجيش الإسلامي .

رابعاً: بناء مسجد الضرار ليكون مركز القيادة للمنافقين ، ويتمكن أبو عامر الفاسق من الانضمام إليهم ، وتشكيل قيادة مؤقتة بديلة عن القيادة الإسلامية .

خامساً: بث عناصر متنوعة في داخل الجيش لكشف الأسرار الإسلامية ، والتعرف على المخططات ضد المنافقين .

سادساً: إعلان قيام دولة المنافقين في حالة هزيمة المسلمين مع الروم ، وطرد المسلمين منها .

سابعاً: قتل رسول الله ﷺ أثناء عودته من غزاته لارض الروم في حالة العودة المظفرة .

ثامناً: إعلان قيام دولة المنافقين حين ينفع مخطط الاغتيال لرسول الله ﷺ .

تاسعاً: استدعاء قوات من عند قيصر تقوم باحتلال المدينة ، وإنها الإسلام من الأرض .

عاشرًا: مبايعة عبد الله بن أبي ملکاً على المدينة ، وقيام أبي عامر الفاسق بدور القائد العسكري ، وتبني النصرانية ديناً عوضاً عن الإسلام ، والتحالف مع قيصر حامياً لجزيرة العرب .

أما قضية الهم بقتل الرسول ﷺ فقد سجلها القرآن الكريم بقوله جل وعلا :
﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفَّارِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلِوا

وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَعْوِبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَعْوِلُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلَيْهِ وَلَا نَصِيرٌ [٧٤] [التوبه]

(كانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، فجعلوا يتامسون غرته ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه) .

ويح هؤلاء المنافقين الجاسية قلوبهم ، والغليظة أكبادهم ، في كل ساعة يرون معجزة ، وفي كل لحظة يشهدون انتصارا ، وفي كل مرة يأتي وحي من السماء يفضح مؤامراتهم ، ثم لا يروعون .

﴿ ثُمَّ قَسْتَ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهُنَّ كَالْعَجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قُسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْعَجَارَةِ لَمَا يَفْجُرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقْ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٧٥] [القطعنون] أَفَقْطَمُوْنَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَعْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [٧٦] [إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آتَنَا وَإِذَا خَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتَحَدُثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجِجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رِبِّكُمْ أَفَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ [٧٧] [البقرة]

صحيح أن الآيات السابقة إنما تتحدث عن اليهود ، والمنافقين منهم الذين ظاهروا بالإيمان . ولكنها تحدث كذلك عن تلامذتهم من المنافقين الذين ربوهم على الحقد على هذا الدين ، وشجعوهم عليه ، بل كان انضمّ بعض أighbors اليهود علينا إلى الإسلام ، وإبطانه الكفر ليقود إخوانه الآخرين للثبات على هذا الموقف ، لقد نكسوا على رؤوسهم ، وعرفوا الإسلام ثم كفروا ، لقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهو ما يعلمون . وهم في ظاهر الأمر جند من جند الله تحت راية رسول الله ﷺ يقاتلون أعداء الله ، ورضوا بأن يعانون كل هذه المعاناة من المشقة والعسرة ، والتعب والأهوال ، تنفيذاً لماربهم النجسة الدنسة ، وتحقيقاً للمؤامرة التي يخططون لها .

والله تعالى يذكر بهم ، ويستهزئ بهم وبكرهم ﴿ اللَّهُ يَسْتَهِزُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُفَّاهُمْ يَعْمَهُونَ [١٥] [البقرة]﴾ . فيدع الله عز وجل الأمر يمضي بنبيه حتى يروا أنهم قاتلوا أو أدنوا من أهدافهم ، ثم يفضحهم متلبسين بالجريمة المشهود ؛ ولهذا كان الأمر واضحاً وصريحاً في منع سلوك العقبة لأحد ؛ لأن رسول الله ﷺ سوف يمر منها وعلى المسلمين جميعاً أن يمضوا في الوادي بعيدين عنها ، وفي هذا الأمر تعرية مكشوفة للمنافقين ، بحيث لا يضيعون في خضم المسلمين ، وفي ظلمة الليل حيث يصعب كشفهم ؛ ولهذا كان الأمر النبوى :

« إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ، واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع » .

والمفروض أن يتراجع المنافقون عن مؤامراتهم حيث ستفضح تماماً ؛ إذ سيكونون وحدهم هم المخالفون للأوامر ، لكن الحقد الذي ينبع قلوبهم أغراهم أكثر وأكثر في تنفيذ مخططاتهم ، قالوا : (إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحته في الوادي) فهم مطمئنون لنجاح خطتهم ، وإنقاذه من العقبة إلى الوادي ، يعني الانتهاء منه ، وبمعنى العودة بال المسلمين إلى جاهليتهم الأولى كما يتوهمون ، وتعود القيادة لابن أبي وابن قيس وأبي عامر الراهن فابن قيس المعزول عن سيادة بنى سلمة يعود فيسلمه قيادتهم ، ويعزل أسيد بن حضير عن الأوس ليعود أبو عامر الراهن الملحق إلى قيادة الأوس ، ويمكن أن تعود البيعة لابن أبي إذا رتب الأمر بين الأوس والخزرج ، ولاشك أن لهم عملاء في كل قبيلة يقومون بالانقضاض على القيادات المسلمة ، واستلام أمر قبائلهم عنها .

إنه انقلاب عسكري شامل ، لن ينجح بدون القوات التي وعد أبو عامر الراهن بإحضارها من عند قيسير ؛ كما فعل سيف بن ذي يزن يوم استنجد بالفرس ، وطرد الأحباش من اليمن .

وكل الاحتياط الذي أخذه هؤلاء المغامرون هو أن يكونوا ملثمين بحيث لا يعرفهم أحد .

(فسلك الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكرروا برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة ، وكان معه جنديان فدائيان فقط ، هما : عمار بن ياسر الأخذ بزمام الناقة يقودها ، وحذيفة بن اليمان يسوقها من خلفها). لقد اعتمدوا عنصر المفاجأة بأن ينفروا الناقة ، ويقطموها حزاماها ، ويدفعوا برسول الله ﷺ إلى الوادي ، ويفرروا بعدها تحت جنح الظلام ليختلطوا في الناس .

(فيينا رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه ، ونفروا ناقه رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه). وكانت هذه هي الخطوة الأولى من المؤامرة ، ولم يبق إلا أن يتبعوا الخطوة الثانية والثالثة ، لكن لم يأخذوا بحسبائهم حماية الله تعالى لنبيه ، وافتداء رسول الله ﷺ من الفدائين اللذين معه ، (فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم) .

وحذيفة وحده هو الفدائى المشهور يوم الخندق ، فهو الذى اختاره رسول الله ﷺ ليأتيه بخبر القوم حين خاف الناس جميعاً من شدة البرد والريح والظلمة ، فجاء الأمر

النبي : « قم يا حذيفة » ، وقام حتى دخل في صف الجيش المكي . واحتلّت فيه ، وعرف أخباره ، وعاد إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو مدرب أعظم تدريب على الأعمال الفدائية ، وحيث إنه كان في الخلف فهو الذي صدرت له الأوامر بمواجهة القوم ، والناقوسون على كل ما يبرزون من عضلات هم أجبن وأذل من أن يواجهوا مثل حذيفة رض فقد اتجه حذيفة نحوهم بموجهه لا بسيفه ، وراح يضرب وجوه رواحلهم بالمحججن صارحاً بهم :

(إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى) وَكَانَ هَذَا النَّدَاءُ كَفِيلًا أَنْ يَخْلُمَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ كَمَا وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ : « أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتُمُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَمَا الْذِي يُغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ... » [الأحزاب : ١٩] .

لم يتقدمو لـالتابعا تفويض مخططهم ، وكشفهم الله وفضحهم ، فعلم القوم أن رسول الله صل قد اطلع على مكرهم ، فانحطروا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس .

ولحق برسول الله صل أحد الأدلة الخبرين وهو حمزة بن عمرو الأسلمي رض وهو صاحب نحى السمن المعروف ، فوضعت النحى في الشمس ، ونمّت فاتنها بخبرين النحى ، فأخذت رأسه بيدي ، فقال رسول الله صل ورأني : « لو تركته لسال الوادي سنتاً » ، وهو الآن تتحقق الكراهة بيديه ، حتى يجمع في هذا الظلام متاع رسول الله صل .

(وكانت ليلة مظلمة ، قال حمزة : فنور لي في أصابعى الخمس ، فأضاءت حتى جمعت ما سقط من السوط والخبل وأشياهما) .

وبذلك انتهت كل آثار هذه المؤامرة . بحيث لم يفقد رسول الله من متاعه شيئاً ، بعد أن كان التخطيط العالمي قائماً على فقده صل من خلال قتله ، فالله تعالى يرعى نبيه حتى بسوطه وحبله . ويجرى الله تعالى الكرامة على يد أحد أصحابه لذلك ، فain هؤلاء الذين يحلمون بقتل رسول رب العالمين ؟

ولاحتمالات أن يكون القوم قد أعدوا مكمّنا ثانياً للاغتيال ، ومن طبيعة الأخذ بالأسباب التي أمر الله تعالى بها نبيه صل (أقبل حذيفة حتى أتى رسول الله صل فقال : « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمارة » ، فأسرعوا حتى استوى بأعلاها ، وخرج رسول الله صل من العقبة يتظر الناس) . وابتداّت التحقيقات لكشف خيوط المؤامرة على التو .

(قال حذيفة : « هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم ؟ » .

قال : يا رسول الله ، قد عرفت رواحلهم ، وكان القوم ملثمين فلم يصرهم من

أجل ظلمة الليل) .

ويأتى جبريل عليه الصلاة والسلام أحد الشهود والمُرسل من رب العالمين ليطلع الرسول ﷺ على تفصيات الخطة ، ويضع رسول الله ﷺ هذه التفصيات عند أمين سره حذيفة .

قال : « هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا ؟ » .

قال : لا والله يا رسول الله .

قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معى فإذا طلعت العقبة زحموني فطرحونى منها » . وهذه قائمة بأسمائهم : « وإن الله تعالى قد أخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وسأخبركم بهم إن شاء الله تعالى » .

وطالبت النيابة العامة بإعدامهم فوراً وبدون محاكمة طالما أن الله العليم الخبير هو الذى أخبرهم بأسمائهم .

قالوا : ألا تأمر يا رسول الله إذا جاء الناس أن تضرب أنفاسهم ؟

وخلالاً لكل المحاكم الميدانية الأمنية في الأرض التي تصدر أحكامها بالإعدام فوراً وعلى الساحة العامة ، ولا تقبل استثنافاً ولا تمييزاً ، نجد المحكمة النبوية تعلن رفض طلب النائب العام .

قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده فى أصحابه » .

فسماهم لهما : (أى لumar ، وحذيفة رضوان الله عليهما) . وأمر الرسول ﷺ بأن تكون الجلسة سرية ، ولا يعرف أحد إلا أمينى الوحى أسماء هؤلاء الجرميين . ثم قال : « اكتنامهم » .

وأصدر أمره عليه الصلاة والسلام بالقبض عليهم مع الصباح مخمورين ، ليساقوا إلى قاعة المحكمة .

« فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم لى » .

وأضاف رسول الله ﷺ إلى عضوية المحكمة سيد الأوس أسيد بن حضرير ، حيث دعاه مع الصبح ، (فقال أسيد : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادى ؟ فقد كان أسهل من العقبة) . فقال : « أتدرى يا أبا يحيى ما أراد بي المناقون وما هموا به ؟) .

وأسيد لا يعلم من وقائع المؤامرة شيئاً فقال له عليه الصلاة والسلام :

(« قالوا : تتبعه من العقبة ، فإذا أظلم عليه الليل ، قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحونى عن راحلتي » . وكان جواب سيد الأوس متباوياً مع رأى النائب العام ، بل أشد عنفًا منه . فقال :

(يا رسول الله ، قد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا ؛ فيكون الرجل الذى من عشيرته هو الذى يقتله) وكان هذا هو الاقتراح الأول ، أما الاقتراح الثانى من سيد الأوس أن يكون هو المكلف بقتلهم جميعاً . والقضية تتوقف على إشارة نبوية من رئيس المحكمة عليه السلام . (وإن أحبتى والذى بعثك بالحق فنبتئنى باسمائهم ، فلا أُبرح حتى آتيك برأوسهم) .

ولم يتغير قرار سيد ولد آدم ، فهو يرفض قتلهم . قال :

« يا أسيد ، إنى أكره أن يقول الناس : إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أمر بقتلهم » ، وفي رواية : « إنى أكره أن يقول الناس : إن محمدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه » .

وووجدها أسيد فرصة سانحة ليعلن براءة المؤمنين من هؤلاء المنافقين . لعل رسول الله عليه السلام يشتبه عزمه عن العفو عنهم فهو لاء سدنة الفاق ، وعربيو الإجرام ، وسوابقهم تدفعهم في كل مواقفهم فقال : (فهو لاء ليسوا لك بأصحاب) وكيف يكونوا من أصحابه وهم يهمنون بقتله !؟

فقال رسول الله عليه السلام : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟ » .

قال : بلى ولا شهادة لهم ، قال : « فقد نهيت عن قتل أولئك » .

وهذه تربية لا يملكتها إلا نبى ، فالسلطان لا يعرف حدوداً للرحمة حين يقع الخطير عليه ، وهو لاء قد أدانهم رب العزة جل جلاله وفضحهم على الخلق ، والتفكير البشري العادى لا يرى عقوبة لهؤلاء إلا القتل وقد هموا بقتل النبي عليه السلام ، وأدینوا متلبسين بالجريمة ، وطالب قادة المهاجرين والأنصار بقتلهم فهم عملاء الكفر في جيش الإسلام ، لكن النبي عليه السلام يرفض قتلهم؛ لأن الجيش الذى يقوده إمام الأنبياء جيش الهدایة للبشرية ، لا يمكن أن تكون صورته عند هذه البشرية أنه يقتل للسلطان والحفاظ عليه ، خاصة من أنصاره الذين آووه ونصروه فيضع السيف فيهم ، وهذا يعني أن السيف لن يأتيون بعد أسرع ، وأنهم معصومون بـ لا إله إلا الله الذى قالوها ، لكن هذا لا يعني تركهم يعيشون فساداً في الأرض ، فلابد من فضحهم ومحاكمتهم .

(فلما أصبح قال : « ادع عبد الله وأبا حاضر الأعرابي ، وعامراً وأبي عامر ،

والجلas بن سويد بن الصامت » والجلas هذا من المخططين للقتل ، فهو الذى يقول : لا ننتهى حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة ، ولشن كان محمد وأصحابه خير منا إنما لغتم وهو الراعى ، ولا عقل لنا وهو العاقل .

والشريك الثانى فى القتل والمبيح له هو : عبد الله بن عيينة ، وهو الذى قال لأصحابه : أشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، والله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل ، فمستقبل النفاق والمنافقين متوقف على قتل هذا الرجل .

والشريك الثالث هو : مرة بن الربيع . وهو الذى تعهد لعبد الله بن أبي بتفيد الخطة . فهو الذى ضرب على عاتق عبد الله بن أبي ثم قال : تقطى ، والنعيم لنا من بعده كائن ، نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين .

وعندما حوكم الشريك الثانى ابن عيينة وسأله رسول الله ﷺ بقوله : « ويحك ما كان ينفعك من قتلى لو أني قتلت !؟ » فأصبح كالحية الرقطاء يتلوى قائلاً : يا رب الله لا تزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك ، إنما نحن بالله وبيك . فهو يتزلف لرسول الله ﷺ ويشنى عليه ، ويعرف له بالرسالة فيتركه رسول الله ﷺ بعد أن أعلمته أن الله تعالى مطلع على قوله ، ومطلع على فعله ومطلع حتى تبصّر النية التي لا يعرفها أحد ، وقد أطلع رسوله على ذلك كله ، فليزيد لقلبه إن كان له قلب لعل هذا الكشف يجعله يبعد النظر في كفره ، ويفتح أمامه مغاليق الإيمان ، وإن لم يكن ذلك فلا أقل من أن يعلم أن رسول الله قد منَّ عليه ب حياته وسلامته وقد كشف مؤامرته وخبيثه ، فعلل هذا الإحسان يدفعه إلى القرب من رسول الله ﷺ ، وأن يبقى الرسول ﷺ أعظم من في حياته؛ لأنَّه منَّ عليه في حياته .

وكذلك الشريك الثالث قال له رسول الله ﷺ : « ويحك ما حملك على أن تقول الذي قلت !؟ » .

قال : يا رسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك ، إنك لعالم به ، وما قلت شيئاً من ذلك ، فهو إصرار على الإنكار ، واعتراف بالرسالة ، وترك له المجال ليراجع نفسه .
﴿فَإِنْ يَتَوَلُّوْا يَكُحُّرُّا لَهُمْ وَإِنْ يَعْوَلُوا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبه] .

إنها الفسحة الأخيرة للتوبة من الجرم الفاضح المخزي ، أما استمرارهم على خطتهم فلن يتنهى دون عقوبة في الدنيا ، ودون عقوبة في الآخرة .

واستدعي آخرون بجرائم أخرى اقترفوها وهما : مجتمع بن جارية ، وفلح التميي ،

أما فليخ فهو الذي سرق طيب الكعبة ، وارتدى عن الإسلام فانطلق هارباً في الأرض فلا يُدرى أين ذهب .

ما هو هذا الإنسان الذي يترك كل الأرض العربية ، وقد استسلمت لله ، ويصير على كفره هارباً خائفاً مذعوراً ، ولا يلين قلبه للإسلام ! إن الله يهدى من يشاء .

واستدعي حصين بن ثمير الذي أغار على عمر الصدقة فسرقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك ما حملك على هذا ؟ » قال : حملني عليه أني ظنت أن الله لم يطلعك عليه ، فاما إذا أطلعك عليه وعلمه فإنيأشهد اليوم أنك رسول الله ، وإنى لم أؤمن بك قط قبل الساعة يقيناً ، فأقاله رسول الله ﷺ ، وعفا عنه بقوله الذي قال .

وهو موقف مشرف ، يعترف بالحقيقة ، ويعلن دخوله في الإيمان ، ويعلن نفاقه من قبل أنه إنما كان عن غير قناعة بالنبوة ، والإسلام يفسح صدره لعودة أمثال هؤلاء ، والأصل أن يكون موقف جميع هؤلاء هو موقف حصين بن ثمير هذا ، لكنها العزة بالإثم ، والإصرار على الباطل يدفعهم للتندم فيه . فجمعهم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربوا رسوله وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم ، وأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك بعلمه ، ومات الاثنا عشر منافقين محاربين لله تعالى ورسوله .

بناء مسجد الضرار :

ولابد من وصل مؤامرة القتل بمؤامرة مسجد الضرار فجميعها تصدر من وحل واحد ، وحل هؤلاء المنافقين ؛ لقد صحا النفاق بالانضمام الكبير من الأعراب إليه ، واستدعي أبو عامر الفاسق ليشارك في قيادة تجتمعه من جديد ، وما فكرة مسجد الضرار إلا تنفيذ لهذه المهمة التي تعيّن لأبي عامر المشاركة الفعلية (وكان أبو عامر رأسهم وله بناوا مسجد الضرار ، وهو الذي كان يقال له : الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ : الفاسق ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة فأرسلوا إليه فقدم عليهم أخزاء الله وإياهم ، وانهارت تلك البقعة في نار جهنم ، وقال مجمع حين بني المسجد : إن هذا المسجد إذا بنيناه اتخذناه لسرنا ونجوانا ، ولا يزاحمنا فيه أحد ، فذكر ما شئنا ، ونخيل إلى أصحاب محمد إنما نريد الإحسان) (١) .

إن أغرب ما تفتقت عنه عبقرية النفاق هي بناء مسجد ، والمساجد هي بيوت الله في أرضه ، لكنها هنا كما قال عنها القرآن الكريم بأجلى بيان وأنفع عبارة :

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢٥٨/٥ ، ٢٥٩ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَّا أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [١٠٧] لَا تَقُولُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدَ أَسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُولَ فِيهِ رِجَالٌ يُحْمِلُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [١٠٨] ﴿ التَّوْبَةَ ﴾ .

إن المظهر الخارجي واحد تماماً مثل مظاهر المؤمن والمنافق ، فكلاهما مسجدان تقام فيما الصلوات ، لكن شتان بين المسجدين والفرق بينهما كما بين السماء والأرض .

﴿ أَفَمَنْ أَسَسَ بُنيَّاهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنيَّاهُ عَلَىٰ شَفَاعَ جُرْفٍ هَارِ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [١٠٩] ﴿ التَّوْبَةَ ﴾ .

فهل يستوى من يبني على تقوى من الله ورضوان ، ومن يبني على شفا جرف هار في نار جهنم !؟
معاذ الله .

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَاهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٠] .

وبيان كان المسجد النبوى أو مسجد قباء فكلاهما بناها بيد النبي ﷺ ، وكلاهما بنا على التقوى ، أما مسجد اليوم فإنه هو مسجد قيادة النفاق فى المدينة ، وكان رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه هذه الآيات قد وعد ببناء مسجد الضرار أن يصلى فى مسجدهم ، لم يكن على جناح سفر ، ورأوا هم أن المؤامرة قد نجحت ، وكانت محبوكة بحيث انطلت على رسول الله ﷺ ، وتم استدعاء أبي عامر الفاسق ، وقت الاستعدادات للاحتفالات الكبرى بقيام دولة النفاق فى الأرض ، وهذا هو مركز الدولة وأسها ، ولكن قبل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة نزل القرآن الكريم فى مسجد الضرار وأهله ، وبدلأ من أن يمضى رسول الله ﷺ ليصلى فيه ، بعث مالك بن الدخشمش ، عاصم بن عدى إلى المسجد قائلاً : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهمدماه واحرقاه » وعاصم خاشع كان قبله على الجمر يتضرر هذا الأمر ، فقد ارتاب به من مت الخروج إلى تبوك ، وذلك حين رأى عبد الله بن نبتل ، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار ، وهما يصلحان ميزاباً قد فرغ منه ، فانتفتحت أوداجهما أمامه قائلاً له : يا عاصم ، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلى فيه إذا رجع ، فقلت في نفسي : والله ما بني هذا المسجد إلا منافق معروف بالنفاق ، أَسَسَهُ أَبُو حِيَةَ بْنَ الْأَزْعَرِ ، وَأَخْرَجَ مِنْ دَارِ خَدَّامَ بْنَ خَالِدٍ ، وَوَدِيعَةَ بْنَ ثَابَتَ فِي هَؤُلَاءِ النَّفَرِ ، وَالْمَسْجَدُ الَّذِي بَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ يَؤْسِسُهُ جَبَرِيلُ يَوْمَهُ الْبَيْتُ ، لَقَدْ انْفَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ طَمْسِهِ هَذَا الْأَمْرُ ، فَكَيْفَ يَتَشَابَهُ الْمَسْجَدَانِ ؟ وَكَانَ يَوْدُ

من أعماق قلبه لو يفضح هذا المسجد وأهله ، وعرفَ الله تعالى في قلب عبد الصالح عاصم هذه الحمية الإيمانية . فالله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يختار عاصماً ليكون أحد الرجال المكلفين بتحريق المسجد على أهله .

يقول : (فوالله ما رجعنا من سفنا حتى نزل القرآن يذمه ، وذم أهله الذين جمعوا في بنائه وأعانتوا فيه ، وعاصم الذي ارتات عليهم في البداية هو الذي فضحهم في النهاية بعدهما ففضحهم القرآن فقيل له : لم أرادوا بناءه ؟ قال : كانوا يجتمعون في مسجدنا ، فلأنما هم يتناجون فيما بينهم ويلتفت بعضهم إلى بعض فيلحوظهم المسلمون بأبصارهم ، فشق ذلك عليهم ، وأرادوا مسجداً يكونون فيه لا يغشاهم فيه إلا من يريدون مَنْ هو على مثل رأيهم ، فكان أبو عامر يقول : لا أقدر أن أدخل مربيكم هذا ، وذلك أن أصحاب محمد يلحوظونى وينالون مني ما أكره ، قالوا : نحن نبني مسجداً تتحدث فيه عندينا) .

وأبو عامر الفاسق هو الوحيد الذي لم يعلن إسلامه ، وكان مع العدو في أحد ، وأرجح أن حضوره كان سراً، ولا يمكن بهذه السهولة أن ييرز بعد ذلك العداء السافر الذي أعلنه في أحد إلا أن يقتل ، أما هؤلاء - جنده - فقد تستروا تحت راية لا إله إلا الله ، وأرادوا أن يكملوا جريمتهم باعتراف رسمي بهم في مركز مستقل . وهذا ما رفضه الإسلام ، وبإباء الله تعالى ورسوله والمؤمنون ، ولذلك كان الأمر من الخزم والصرامة بحيث لا يقبل الجدل ، وكان الأمر ل العاصم بن عدي الذي تحدثنا عن حسنة الإسلامى ، وغيره من المناقين ، ومالك بن الدخشم ، كان الأمر : « اذهبوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموا ثم حرقوه » .

(فخرجوا سريعاً على أقدامهما حتى أتيا مسجد بنى سالم ، فقال مالك بن الدخشم ل العاصم بن عدي :

أنظرني حين أخرج إليك ب النار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه النار ، ثم خرجا يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء) .

بقى أن نتعرف على هذه الأسماء التعيسة الملوثة التي حرصت على كتمان حقدتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، لكن حقدتها الطافع كان أكبر من أن يكتتم ، وقد ساق ابن هشام أسماء البناء الثانية عشر لهذا المسجد، بينما رفعهم الواقدى إلى خمسة عشر ، وكان رأسهم جارية بن عامر بن العطاف وهو حمار الدار، وابنه مجتمع بن جارية وهو إمامهم، وابنه زيد بن جارية ، وهو الذي احترقت أليته فأباً أن يخرج لثيابه على نفقة وتنف هذا النفاق ، ووديعة بن ثابت ، وخدمان بن خالد - ومن داره أخرج - وعبد الله بن نبل ، وبجاد بن عثمان ، وأبو حبيبة بن الأزرع ، ومعتب بن قشیر ، وعياد بن حنيف وثعلبة ابن حاطب .

ويصف لنا عاصم بن عدي ساعة الاحتراق هذه ، ومن كان منهم فيه فقال عاصم : ما أنسى تشوفهم إلينا كان آذانهم آذان السرحان ، فأحرقناه حتى احترق ، وكان الذي ثبت فيه من بينهم زيد بن جارية حتى احترقت أليته ، فهدمناه حتى وضعناه بالأرض وتفروا .

لقد هُدم مركز النفاق في المدينة وأحرق ، وأحرق معه النفاق كله ، واحتراق كل المخططات التي وضعوها ، وتبخرت كل الأحلام التي عاشهما في أن تقوم دولتهم ، ويتهي المسلمون أسرى يد بنى الأصفر ، ويؤتى برأس محمد بن عبد الله إليهم ، وتخرج المدينة بجامعة الروم ، ويوضع الناج على رأس عبد الله بن أبي وأبى عامر الفاسق والجلد ابن قيس كما وضع على رأس سيف بن ذى يزن .

وهناك ثلاثة منهم ذكروا بأسمائهم وأشخاصهم ؛ لأنهم غائبون في النفاق إلى آذانهم ، فقال فيهم رسول الله ﷺ : « زمام خير من خدام ، ووسط خير من بجاد » . أما الثالث فهو عبد الله بن نبيل الذى وصل من القحة في النفاق والشهرة فيه أن يأتي جبريل عليه الصلاة والسلام لينبه على نفاقه .

(فقال جبريل عليه السلام : يا محمد إن رجلاً من المنافقين يأتيك فيسمع حديثك ، ثم يذهب به إلى المنافقين . قال رسول الله ﷺ : « أيهم هو ؟ » قال : الرجل الأسود ذو الشعر الكبير ، الأحمر العينين كأنهما قران من صفر ، كبد حمار فينظر بعين شيطان) . أما البقية ، فقد شاء رسول الله ﷺ أن يجعلهم ضمن مجموعة عامة ، بحيث يكونون موضع الشك والارتياط دون تحديدهم .

وقد تكفل الله تعالى بإحراقهم كما قال عليه الصلاة والسلام :

« في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يلعن الجمل في سم الخياط . ثمانية يكفيهم الدبالة ، سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » (١) . قال البيهقي : وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر رجلاً أو خمسة عشر .

(يقول حذيفة : وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا و يوم القيمة يقوم الأشهاد) (٢) .

ثالثاً : المدينة تستقبل رسول الله ﷺ :

أنفاس المدينة الحرى وأشواقها إلى رسول الله ﷺ وصحابه بدأت تفوح ، وهو هو

(١) مسلم ٤/٢١٤٤ ح (٢٧٧٩/١١) .

(٢) المصدر السابق (٢٧٧٩/١٠) .

رسول الله ﷺ يلدو من المدينة يحس ما يحسه يعقوب نحو يوسف عليهما الصلاة والسلام .

﴿إِنِّي لَأَجَدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ﴾ [يوسف] .

ويذكر رسول الله ﷺ أحبابه فيها ، ويدرك أهله ، ويدرك علياً ومحمد بن مسلمة ، ويذكر أناساً يعرف صدق إيمانهم وثبات عقيدتهم ، لم يتمكنوا أن يشاركونا معه في هذه الغرفة ، وأقواماً قد تخلفوا على غير نفاق ولا دخل ، فاما الذين عذراهم الله فيقول عنهم والمسلمون معه بنفس واحد شوقاً وتحناناً إلى المدينة :

«إن بالمدينة أقואاماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» فقالوا : يا رسول الله ، وهم في المدينة ؟ قال : «وهم في المدينة ، حبسهم العذر» .

لقد تكونت أمة جديدة ، حين تفقد فرداً من أفرادها تحس به ، وهذا الفرد حين يضطر للبعد عنها يحس كأنما انت وانقطع عن أهله ورحمه ، وهولاء المؤمنون المخلصون الصادقون الذين حبسهم العذر في المدينة كانوا يحسون أن من حولهم من المنافقين هم رجس من الرجس ، أما موقفهم فهو مع رسولهم الحبيب ﷺ يكون لفراقه ، ويحترون للقاء ، فلا يحسن حين لقاء هؤلاء من إخوانهم المجاهدين أن يفخروا عليهم ، وأن يتبهوا بصحبة المصطفى ، فيكتوهم بذلك ، ويزيدو لهم حسرة إلى حسرة ، فكان هذا التعميم العظيم على الجيش كافة أن هؤلاء المؤمنين ولو كانوا في المدينة ، إنما هم مع الجيش الإسلامي . «ما هبطتم وادياً إلا كانوا معكم» . وبذلك يعتبر أولاء من الجيش وجزءاً ولحمة منه ، أما هؤلاء المنافقون الذين أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، وزادوا رجساً إلى رجسهم فأحببهم في المدينة ، وقلوبهم تحن وتتغور لعبد الله بن أبي وللجد بن قيس ولأبي عامر الراهب ، هم منتبتون من هذا الجسم الإسلامي ، هذا الجسم الذي لا يقبل أى غريب دخيل عليه ، سرعان ما يفرزه وسرعان ما يطرده ، وسرعان ما يبنيه ، فموقع المؤمنين الذين حبسهم العذر موقع القلب من الإنسان الذي يغادره ، وموقع المنافقين في الجيش الإسلامي والأمة المسلمة موقع الفاذورات التي تطردتها وتطرحتها .

لقد جاء الحديث النبوى الشريف فى وقته المناسب قبيل ساعات الوصول إلى المدينة وفي مكانه المناسب قبيل دخول المدينة ؛ ليشد انتباه هذه الأمة العظيمة الفريدة في التاريخ إلى أبنائها الذين حبسهم العذر في المدينة بأنهم أشد شوقاً ، وأشد حباً ، وأشد استعداداً للجهاد من إخوانهم المجاهدين ؛ ولهذا فهم قد شاركوا في الأجر كله ، واعتبرهم رسول الله ﷺ من حضر تبوك ، وجاحد مع المجاهدين .

لقد كان الأمر نفسه في أول غزوة كبرى للمسلمين يوم بدر ، وكان في آخر غزوة

للمسلمين في تبوك .

وتكتفـ سعد بن معاذ في بدر بذكر أولئك الصادقين المخلصين الذين فاتتهم الغزوة لأنهم لم يعرفوا أن رسول الله ﷺ يلقى كيداً ، يقول سعد :

(يا رسول الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببناه ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، ينصحونك ويجاهدون معك ، فائنى عليه رسول الله خيراً ودعا له بخير ، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه) (١) .

أما هؤلاء وعددهم قليل ، فكان لابد أن يخصهم رسول الله ﷺ بالذكر .

ويقيـت قضية كبيرة تشـغل بالـ هذه الـ اـمة التي خـرجـت إـلى الـ حـرب كلـها ، فالـ شـعـبـ المـسـلمـ كـلهـ قدـ انـضمـ إـلى رـسـولـ اللهـ ﷺـ فـيـ هـذـهـ الـغـزـوةـ لـكـيـ يـنـخـلـعـ مـنـ قـبـاتـهـ وـنـوـازـعـهـ وـعـصـيـاتـهـ ، وـيـنـصـهـرـ فـيـ لـحـمـةـ جـديـدـةـ هـيـ الـاـمـةـ الـمـسـلـمـةـ التـيـ تـجـعـلـ وـلـاـهـاـ فـقـطـ لـهـ وـلـرـسـولـهـ ، هـذـهـ الـقـضـيـةـ هـيـ أـنـهـ لـمـ يـلـقـواـ حـرـبـاـ ، وـلـمـ يـوـاجـهـوـاـ عـدـواـ ، وـلـمـ يـضـرـبـوـاـ بـسـيفـ ، وـلـمـ يـطـعـنـوـاـ بـرـمـحـ ، فـأـيـنـ أـجـرـ الـجـهـادـ لـهـمـ ، وـأـيـنـ أـجـرـ الـغـزـوـ لـهـمـ . وـعـرـفـ رـبـ رـيـهـمـ جـلـ وـعـلـاـ مـاـ فـيـ قـلـوبـهـمـ ، وـمـاـ يـحـيـكـ بـهـاـ مـنـ تـسـاؤـلـ ، فـكـانـ الـجـوـابـ مـنـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ الـذـيـ أـعـطـاهـمـ الـجـائزـةـ الـكـبـرـىـ بـعـدـ عـودـهـمـ مـنـ تـبـوكـ وـهـيـ أـعـظـمـ جـائزـةـ يـفـوزـ بـهـاـ جـيشـ مـسـلـمـ لـمـ يـقـاتـلـ عـدـواـ ، وـلـمـ يـرـقـ دـمـهـ فـيـ مـعـرـكـةـ ، جـاءـهـمـ الـجـوـابـ فـيـ سـوـرـةـ التـوـبـةـ :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغِبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ تَفْسِيرِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيمُهُمْ طَمَّاً وَلَا نَصَبًّا وَلَا مَخْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْهُرُونَ مَوْطَنًا يَفْيِظُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنْأَلُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْرِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢١) ﴾ [التوبـةـ] .

فهمـ إذـنـ مجـاهـدوـنـ يـكـتبـ لـهـمـ الـأـجـرـ فـيـ كـلـ وـعـثـاءـ سـفـرـ ، وـفـيـ كـلـ جـهـدـ ، وـفـيـ كـلـ مـشـقةـ ، وـفـيـ كـلـ وـادـ بـطـوـهـ ، أوـ جـبـلـ صـعـدـوـهـ ، أوـ قـوـزـ رـكـبـوـهـ ، أوـ مـفـارـةـ قـطـعـوـهـاـ ، كـلـ ذـلـكـ وـالـتـسـجـيلـ بـالـأـجـرـ وـالـعـمـلـ الصـالـحـ مـسـطـرـ لـهـمـ عـنـدـ رـبـهـمـ ، وـشـرـكـاؤـهـمـ تـلـكـ الـحـفـةـ الصـغـيرـةـ التـيـ حـسـبـهـاـ العـذـرـ ، أوـ حـسـبـهـاـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ بـعـهـمـهـ لـهـ .

(١) السـيـرـةـ النـبـوـيـةـ لـابـنـ هـشـامـ / ٦٢٠ - ٦٢١ .

(إن أهل المدينة هم الذين بثوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، وهم أهلها الأقربون ، وهم بها ولها ، وهم الذين آتوا رسول الله ﷺ وبايعوه ، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين في مجتمع المجزرة كلها ، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ، وباتت تولف الخزام الشارجي للقاعدة ، فهو لاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخللوا عن رسول الله ، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه . وحين يخرج رسول الله ﷺ في الحر أو البرد ، في الشدة أو الرخاء ، في اليسر أو العسر ، ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب وهم قربون من شخص رسول الله ﷺ ، ولا عندهم في إلا يكونوا قد علموا أن يشققوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ ... إنه على الظما جراء ، وعلى النصب جراء ، وعلى الجوع جراء وعلى كل موطئ قدم يغطيه الكفار جراء ، وعلى كل نيل من العدو جراء ، يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع الله لهم أجرا ، وإنه على النفقه الصغيرة والكبيرة أجرا ، وعلى الخطوات لقطع الوادي أجرا ؛ أجرا كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة) (١) .

وبعد هذا التعميم الذي كان قبل دخول المدينة ليحسن المجاهدون لقاء إخوانهم المجاهدين معهم ولو كانوا مقيمين في المدينة (قالوا : يا رسول الله ، وهم في المدينة . قال : « نعم وهم في المدينة حبهم العذر » .)

بعد هذا التعميم الذي حفظ حق هذه الحفنة المؤمنة الصغيرة نقترب مع رسول الله ﷺ وأصحابه حتى تبدو معالم المدينة ، وتترقرق الدموع في العيون وتجف القلوب ، وتحقق الأفادة ، وعلى رأسه هؤلاء جميعاً قلب الحبيب المصطفى ﷺ ، وال المسلمين حوله يكادون يطيرون من الفرح ، وتففز قلوبهم من أجوافهم ذرياً وحناناً وحبًا لكل حبة رمل في المدينة يسمعون التعميمات الجديدة الخالدة التي نجاها نحن اليوم بعد خمسة عشر قرناً من الزمان ، فتحرك فيما القلوب والمشاعر والأفادة .

(قالوا : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى أشرفنا على المدينة قال : « هذه طابة - وزاد ابن أبي شيبة : أسكنتها ربي - تنفي خبث أهلها كما ينفي الكبير خبث الحديد ») (٢) ، فإذاً سبقى المدينة ظهوراً كلها ، ستكون طيبة لا تقبل الخبث فيها ، ولا بد أن يتهي المنافقون موئلاً ، أو دخولاً في هذا الدين ، فهي لا تحمل الخبث كما ينفي الكبير خبث الحديد . هي موطن أنصار الله ورسوله ، وهي سكن حبيبه المصطفى ﷺ ،

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٧٣٢/٣ ، ١٧٣٤ .

(٢) رواه أحمد والشیخان وغيرهم .

وهي مثواه الأخير ، وهي مهوى أفتدة المؤمنين في الأرض إلى يوم الدين ، فلا مكان فيها للخبث ولا للرجس ولا للنفاق ، وهي على وشك أن تنتفي هذا الخبر إلى الأبد ، وتخرجها كلما هم أن يدخل فيها .

فكثيرها موجود ، حتى الدجال يدخل كل الأرض إلا مكة والمدينة على كل نقب من أنقابها ملك يحرسه . ولتقر عيون المؤمنين بطبيعة هذه ، فما لها في الأرض من مثيل .
ويلوح الجبل الأشم أحد ، معبأً برائحة الدم الذكي التي سفتحت على ربوعه ،
وتعود ذكراه حية كلها بكل ما فيها من بطولات وتضحيات ، ويبدو الأسد النصور حمزة
أسد الله ورسوله قابعاً في عرينه على السبعين الذين معه ، والذين قضوا شهداء ، وأمام
هذه الذكريات الغزار الغزار ينطق المصطفى ﷺ عن تلك العلاقة الوثيقة الوشيكية بينه
 وبين أحد ، وبين حزب الله وبين أحد ، وبين المؤمنين في الأرض وبين أحد ، فيقول
عليه الصلاة والسلام :

« هذا أحد جبل يحبنا ونحبه » .

آه ما أروعه من تعبير ، وما أعظمه من آصرة ، وما أخلده من عاطفة ، فأحد ابتداء
هو الذي يعشق المؤمنين الذين قد أراقوا دماءهم في حضته ذوداً عن نبיהם عليه الصلاة
والسلام ، والذين سطرت أرواحهم سطور المسجد بين يديه ، فمكثوا برفقه إلى يوم
القيامة أحياه عند ربيهم يرزقون ، لا تزال أجسادهم غضة طرية كما هي ونحن نحبه ،
ولم لا نحبه وهو يحمل هؤلاء السبعين الشهداء بجواره ، حتى لترى رسول الله ﷺ
عندما ودعه بعد المعركة الفاصلة يتمنى أن يكون مع الشهداء هناك فيقول :
« أما والله لو ددت أني غوردت مع أصحابي بفحص الجبل (١) ، (٢) .

فيصعب عليه ﷺ أن يغادر هؤلاء الشهداء الذين قضوا بين يديه ، ولا يبقى معهم .
وصار أحد في وجدان المسلمين تهتز أعماقهم لذكره ، وتماوج الجبال والوديان من كل
مكان في الأرض تفسح مجالاً لهذا الحب وهذا اللقاء بين جبل الفداء ، وجبل الفداء في
الأرض :

« أحد جبل يحبنا ونحبه » .

كان ﷺ في صبيحة كل عيد قبل أن يمضي إلى أهله وصحبه يمضي إلى البقع
ف يستغفر لموته الباقي إكراماً لحقهم قبل حقوق الأحياء ، ومن حق شهداء أحد أن يكونوا
هم أول المستقبلين لحييهم محمد عليه الصلاة والسلام الذي يتظرون لقاءه بفارغ الصبر ،

(٢) رواه الحاكم والحاوثل بن أبيأسامة في مسنده .

(١) فحص الجبل : كل موضع يسكن .

ومن أجل ذلك أكرم الله المسلمين بهذا السجل العظيم الذي شهد به رسول الله ﷺ لأحد وشهاداته : « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

ومن أحد إلى ثنيات الوداع ، هذه الثنائيات التي استقبلت حبيبها المصطفى يوم جاء مهاجراً مع الصديق أبي بكر ، وها هي اليوم تستقبله ليس معه الصديق فقط ، وإنما معه ثلاثون ألفاً من كرام المسلمين وغير العرب تتضررهم أزواجاًهم وأمهاتهم وبناتهم وإخوانهم الذين حبسهم العذر .

وليس في المدينة اليوم رجالات الانصار يتظرون كل يوم حتى تزول الشمس قدوم قائدهم الحبيب ، فهم اليوم مع أبنائهم الشباب ، ومع إخوانهم من القبائل الأخرى بجوار رسول الله ﷺ ، إنما خرجت المدينة نساءً وصبياناً وجواري وولائد ، خرجت كلها تستقبل الجيش المظفر ، الذي كان يحمل المناقوف أن يأتوا جميعاً أسارى يسلمون إليهم ، ها هو الجيش يعود وعلى رأسه قائده الحبيب المصطفى ﷺ ، ورمز هذه الأمة كلها هو رسول رب العالمين ، فليكن الشيد له ، ولتكن الاغاريد له ، ول يكن الاستقبال له .

وقد اخترن رضوان الله عليهن أن يكون نشيدهن هو :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

هذا النشيد الذي سرى في شريان كل مسلم في الأرض ، فما أن يسمع لحنه ، وما أن تصل إليه كلماته حتى يحس بالثياب يجري في عروقه ، حباً وشوقاً وتحناناً لرسول الله ﷺ :

أيها المبعوث فيما جئت بالأمر المطاع

وسواءً كان هذا النشيد يوم الهجرة ، أو يوم تبوك ، فالطبيعي أن يكون بعد طول غياب ، وبعد طول انتظار ، وبعد طول شوق وجوى وحنين ووجد ، عادت روح المدينة إليها بعودة حبيبها المصطفى صلوات الله عليه . أما القصيدة التي القيت في هذا الاحتفال فكانت للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ الذي استاذن ابن أخيه محمداً قاتلاً : يا رسول الله ، إنني أريد أن أمتدحك . قال : « قل لا يفضض الله فاك » . وكانت قصيدة لم يشهد تاريخ الشعر لها مثيلاً ، فقد رافقت رسول الله ﷺ ، وعرضت تاريخه منذ الأزل من لدن آدم عليه السلام .

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
من يوم أن أكل أبواناً آدم وحواء من الشجرة ، حيث شهدت يا رسول الله الحياة هناك ، وهبطت مع أبيك آدم .

ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا نطفة ولا علق
إلى أن عشت مع نوح عليه الصلاة والسلام دعوته ، وانتصار عقيدته :
بل نطفة تركب السفين وقد ألمج نسراً وأهله الفرق
ورحت :

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
وكان هذا تقلبك في الساجدين ، حتى هوتك أمك خنندف :
حتى احتوى بيتك المهيمن من خنندف عليهاء متحتها النطق
وكانت إشراقة الأرض بالنور :
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض ض فضاءات بنورك الأفق
وسيقى هذا النور حتى يرث الله الأرض ومن عليها :
فتحن في ذلك النور وفي الضياء وسبل الرشاد نخترق
هذا وقد قدر الله تعالى أن ينقل لنا القصيدة العباسية أغراضي حضر من عند قومه
وسمع بالإسلام وجاء ليسلم ، وما نقل لنا كذلك حديث رسول الله ﷺ عقب قصيدة
عمه .

هذه الحيرة البيضاء قد رفعت لى ، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء
معتبرة بخمار أسود . فقلت : يا رسول الله ، إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف
فهي لى ؟ قال : « هي لك ». هذا الصفاء الحالص عند هذا الأعرابي الذي ارتفع
بالإسلام فصار صحابياً لا يخامرها الشك لحظة واحدة في صدق رسوله ، حيث آمن لتوه ،
وآمن أن الحيرة ستفتح أبوابها أمام هذا الدين ، وطالب بالشيماء بنت الحارث التي يراها
رسول الله ﷺ بعين قلبه بخمارها وركوبها حتى ليحدد لون الخمار ، وهذا يعني أنه
بجوارها وليس بعيداً عنها ، لم يتمالك هذا الأعرابي الصحابي أن يطالب بها أن تكون له
إن شارك في فتح الحيرة ، حيث ملوك العرب هناك ، وعزهم الأئل .

ولم يمر أكثر من ثلاثة سنوات حتى كانت أبواب الحيرة تدق من قبل خالد بن الوليد
فتفتح له .

(ثم أقبل خالد بن الوليد حتى نزل الحيرة ، فخرج إليه أشرافهم مع قبيصة بن إيس
ابن حية الطائني ، وكان أمّه عليها كسرى بعد التعمان بن المنذر . فقال له خالد
ولا أصحابه : أدعوك إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبرتم إليه فأنتم من المسلمين ، لكم ما
لهم وعليكم ما عليهم ؛ فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم الجزية فقد آتكم بأقوام هم

أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

فقال له قبيصة بن إيس : ما لنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية ، فصالحهم على تسعين ألف درهم . فكانت أول جزية وقعت بالعراق)^(١) .

ونعود إلى صاحبنا خريم وإلى أخباره مع الشيماء بنت نفيلة إذ يقول :

ثم أقبلنا على طريق الظف إلى الخيرة فأول من يلقانا حين دخلناها : الشيماء بنت نفيلة كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شباء معتبرة بخمار أسود ، فتعلقت بها وقلت : هذه وهبها لى رسول الله ﷺ . فدعاني خالد عليها بالبينة ، فأتيته بها ، وكانت البينة محمد بن مسلمة ، ومحمد بن بشير الانصاريان ، فسلمها إلى ، فنزل إلينا أخوها عبد المسيح)^(٢) يريد الصلح قال : بعئتها . فقلت : لا أنقصها والله عن عشرة مائة درهم ، فاعطاني ألف درهم وسلمتها إليه . فقيل : لو قلت مائة ألف لدفعها إليك ، فقلت : ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مائة)^(٣) .

هذه هي الأمة الوارثة لوعود الله في الأرض فيها قوم لا يعرفون عدداً فوق الألف ، ضاربون في التيه ، معنون في الصحراء ، رفعهم الإسلام حتى صاروا سادة الأمم كلها ، وقد مثل هذا المعنى مقالة خالد ورسالته إلى أهل المذاهب عقر كسرى ومعقله :

(من خالد بن الوليد إلى مرازية أهل فارس ، سلام على من اتبع الهوى ، أماً بعد فالحمد لله الذي فضّل خدمتكم)^(٤) ، وسلب ملككم ، ووهن كيدهم ، وإنه من صلبي صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا ، أما بعد ، فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إلى بالرهن ، واعتقدوا مني الذمة ، ولا فوالذي لا إله غيره لأبعش إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون الحياة) .

فلما قرؤوا الكتاب ، أخذوا يتعجبون وذلك سنة اثنى عشرة)^(٥) .

فالحمد لله الذي بعث هذا الكتاب كان قبل خمس سنوات فقط ، يفكرون بالهروب من مكة متوجهاً إلى فارس خوفاً من دخول محمد مكة ، وكان يمكن أن يكون أحد الأسرى في الخيرة لولا دخوله في هذا الدين ، فإذا به يغدو سيف الله في الأرض ، وهذا هو حديثه مع نفسه قبل أن يسلم :

(١) تاريخ الأسم والملوك للطبرى ٣٤٤/٣ .

(٢) في الرواية الثانية عند الطبرى أن الذي عقد الصلح هو عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة ، وهي اخته . انظر الطبرى ٣٤٥/٣ .

(٤) فض خدمتكم : فرق جماعتكم .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢٦٩/٥ .

(٥) تاريخ الأسم والملوك للطبرى ٣٤٦/٣ .

(فقلت في نفسي : أى شيء بقى ؟ أين المذهب إلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده . فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية فأقيم مع عجم تابعاً ؟ أو أقيم في داري فيمن بقى ؟) (١) .

واختار الإسلام بعد هذا الضياع ، فإذا به اليوم يخاطب ملوك الفرس بتحرير الأرض العربية منهم لا باسم القومية العربية ، إنما باسم هذا الدين الذي يقول لهم فيه (وإنه من صلبي صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا) .

وحين شهد المسلمين الأرض العربية قد دانت لهم ، ومضوا إلى تبوك وعادوا ولم يعرض لهم عدو ، ولم يقف أمامهم محارب ، رأوا أن الحرب قد انتهت كما روى ابن سعد (وجعل المسلمين يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم ، وقال : « لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال ») . إنها إذن استراحة المحارب الذي أنهى جولته الأولى في جزيرة العرب ، وأعلمهم قائدتهم الحبيب أن الطريق طويل لاحب ، فليس همهم تحرير الأرض العربية وقد حررت ، إنما رسالتهم تحرير الأرض كلها من طواغيتها في الامتداد المكاني ، ومتابعة الجهاد حتى تقوم الساعة في الامتداد الزمانى ، ولا تزال أمامهم إمبراطوريات الروم وفارس تنتظر جولتهم الثانية ، والحقيقة أول الطريق الثاني حيث ينفل خريم بالشيماء بنت نفيلة .

(١) المغارى للواقدى ٢/٧٤٦ .

المدينة بعد تبوك

المختلفون عن الغزوة :

(قال ابن عقبة : لما دنا رسول الله ﷺ من المدينة ، تلقاه عامّة الذين تخلّفوا عنه وقال رسول الله ﷺ لاصحابه : « لا تكلموا رجلاً منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم » فأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمؤمنون حتى أن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه ، وحتى إن المرأة لتعرض عن زوجها ، فمكثوا كذلك أياماً حتى ركب^(١) الذين تخلّفوا ، وجعلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بالجهد والاسقام ، ويحلّفون له ، فرحمهم وباع لهم واستغفر لهم)^(٢) .

وعند ابن إسحاق : (فصفع عنهم رسول الله ﷺ ، ولم يعذرهم الله ولا رسوله)^(٣) .

وفي رواية كعب : وصَبَحَ رسول الله ﷺ في المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخالفون ، فجعلوا يعتذرون إليه ويحلّفون له وكانتوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيامهم ، ويكلّ سرائرهم إلى الله تعالى)^(٤) .

كعب بن مالك وإخوانه :

قال كعب : لم أتختلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزّاها إلا في غزوة تبوك ، غير أنّي كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام^(٥) ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها .

كان من خبرى أنّي لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزّة ،

(١) ركب : هي في الأصول وفي سبل الهدى والرشاد : كرب . وهي أصح .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٧٨ . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣١ .

(٤) المغارى للواقدى ٣/١٤٩ .

(٥) توافقنا على الإسلام : يعني بيعة العقبة الثانية يوم بايعوا رسول الله ﷺ على أن يحمّوهم بما يحمّون به نساءهم وأولادهم وتسمى بيعة الحرب .

والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ ي يريد غزوة إلا ورئي (١) بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفارقاً (٢) وعدواً كثيراً ، فجل على المسلمين أمرهم ليتأمروا (٣) أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، وال المسلمين مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد الديوان) ، قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيختفي له ما لم ينزل فيه وحى الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الشمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ففُظقت أaldo لتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي ، أنا قادر عليه ، فلم ينزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم يذكروني رسول الله ﷺ حتى بلغ بيتك ، فقال وهو جالس في القوم بيتك : « ما فعل كعب؟ » فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداء ونظره في عطفه (أو عطفيه) (٤) فقال معاذ بن جبل : بشّ ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمتنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ ، قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قائلاً حضرني همي ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غالباً ، واستعنت على ذلك بكل ذي رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ أظلَّ قادماً زاح عن الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه .

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخالفون فطقوها يعتذرون إليه ، ويحلقون له ، وكانتوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ ، ووكل سائرهم إلى الله ، فجثته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضوب ثم قال : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : « ما خلفك ، ألم تكن قد ابتعد ظهرك؟ » فقلت : بلى ،

(١) ورئي بغيرها : أو هم الناس أنه يريد غيرها . (٢) المغار : الصحراء .

(٣) يتأمروا : يستعدوا .

(٤) شغله برداء والنظر في عطفه : أى اشغاله بلباسه وزيته عن الجهاد .

إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لمن حدثك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوش肯َ الله أن يسخطك علىَ ، ولهن حدثك بحديث صدق تجد علىَ^(١) فيه إنى لارجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى مني ولا أيسر حين تخلفتُ عنك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت .

وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت الا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخالفون ، قد كان كافيك ذلك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤمنون حتى أردت أن أرجع فاكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معنى أحد ؟ قالوا : نعم . رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الريبع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدوا بدرأً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تكررت في نفس الأرض فما هي بالتي أعرف ، فلبيتنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما أصحابي فاستكانا ، وقعدا في بيوتهم يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق فلا يكلمني أحد ، واتى رسول الله ﷺ ، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فاقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علىَ أم لا ، ثم أصلى قريباً منه ، فأسرقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال علىَ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تصورت جدار حائط أبي قنادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد علىَ السلام ، فقلت : يا أبا قنادة : أشندك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فتشدته فسكت ، فعدت له فتشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تصورت الجدار .

فيينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من أنبياط أهل الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلىَ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه :

أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ،

(١) تجد علىَ : تغضب علىَ .

فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضًا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجّرَه
بها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيك فقال : إن رسول
الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها
ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبِي مثل ذلك فقلت لأمرأتي : الحق بأهلك فتكوني عندهم
حتى يقضى الله في هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ
فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن
أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله
ما زال يبكي منذ أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فالى بعض أهلي : لو
استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لهلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت ، والله
لا استأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدرني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها
وأنا رجل شاب ، فلبت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى
رسول الله ﷺ عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر
بيت من بيوتنا فيينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت على نفسى ، وضاقت
على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته :
يا كعب بن مالك أبشر . قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج .

وأذن رسول الله ﷺ بتوبية الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس
يشروننا وذهب قبل صاحبِي بشرون ، وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم
فاوْقى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته
يشرننى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما بيهراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرت
ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهتلونى
بالتوبية يقولون : ليهنك توبية الله عليك ، قال كعب ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول
الله ﷺ جالس وحوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبد الله يهروه حتى صافحنى
وهنائى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو ييرق وجهه من السرور :
« أبشر بخير يوم مر عليهك منذ أن ولدتك أمك » قال : قلت : يا رسول الله ، أمن
عندك أم من عند الله ، قال : « لا ، بل من عند الله » . وكان رسول الله ﷺ إذا سر
استثار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت :
(يا رسول الله ، إن من توبتى أن أخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى

رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ». قلت: فإنني أمسك سهmi الذى بخير. فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتى إلا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلغنى ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذلك وإنى لا رجو أن يحفظنى الله فيما بقيت.

وأنزل الله على رسوله ﷺ : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمَهَاجِرِينَ » إلى قوله : « وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١٦) » [التوبة] . فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذلك فاملك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى : « سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا افْلَقْتُمْ إِلَيْهِمْ » إلى قوله : « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (١٧) » [التوبة] .

قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فباعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه . بذلك قال : « وَعَلَى الْثَلَاثَةِ الدِّينِ خَلَوْا (١٨) » [التوبة] . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليقه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه) (١) .

(وروى ابن عساكر عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : لما نزلت توبتى قبلت يد رسول الله ﷺ) (٢) .

وأما أجواء المدينة بتوبه كعب فينقلها لنا الواقدى بقوله عن شيوخه :

(فكانت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول : قال لي رسول الله ﷺ من الليل : « يا أم سلمة ، قد نزلت توبية كعب بن مالك وصاحبيه » فقلت : يا رسول الله ، أفلأ أرسل إليهم فأبشرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « يعنونك النوم آخر الليل ، ولكن لا يرون حتى يصبحوا » قال : فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخبر الناس بما تاب الله على هؤلاء النفر ؛ كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه فوافى على جبل سلع فصاح : قد تاب الله على كعب ، بيسره بذلك ، وخرج الزبير على فرسه فى بطん الوادى ، فسمع صوت أبي بكر قبل أن يأتي الزبير ، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال بيسره بيني واقف ، فلما أخبره سجد ،

(١) صحيح البخارى ٤/٦ - ٩ . (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٨٥ .

قال سعيد : فظننت أنه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفسه ، وكان بالسرور أكثر منه بكاء بالحزن حتى خيف عليه ، ولقيه الناس يهتلونه ، فما استطاع المشى إلى رسول الله ﷺ لما نال من الضعف والحزن والبكاء حتى ركب حماراً ، وكان الذي يبشر مراة بن الربيع سلكان ابن سلامة أبو نائلة ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ووافيا الصبح مع النبي ﷺ من بني عبد الاشهل ثم انطلقا إلى مراة فأخبراه ، فأقبل مراة حتى توافقوا عند النبي ﷺ (١) .

وقال كعب - قال الواقدي : (أنسدنه أبوبن النعمان بن عبد الله بن كعب :
سبحان ربى إن لم يعف عن زلى فقد خسرتُ وتبَّ القول والعمل) (٢)
ذكر أقوام تخلعوا من غير عذر :

روى ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردوه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والبيهقي عن سعيد بن المسيب رحمه الله في قوله تعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذَنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » [التوبه : ١٠٢] قال ابن عباس : كانوا عشرة رهط تخلعوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك منهم أبو لبابة ، وسمى قتادة منهم جد بن قيس ، وجذام بن أوس ، رواه ابن أبي حاتم :

فلما قتل رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وكان عمر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم ، فلما رأهم رسول الله ﷺ قال : « من هؤلاء المؤثرون أنفسهم ؟ » قالوا : أبو لبابة وأصحاب له تخلعوا عنك يا رسول الله ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم ، فترضى عنهم وتعذرهم ، وقد اعترفوا بذنبهم ، فقال رسول الله ﷺ : « وإنما أقسم بالله ألا أطلقهم ولا أعزّرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلعوا عن الغزو مع المسلمين ». فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذي يطلقنا فأنزل الله تبارك وتعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذَنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْتَبِرَ عَلَيْهِمْ » [التوبه : ١٠٢] . وعسى من الله واجب : « إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ » [البقرة : ٥] . فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إليهم فاطلقهم وعذرهم ، قال ابن المسيب : فارسل رسول الله ﷺ إلى أبي لبابة ليطلقه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ فاطلقه بيده فجاوزوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها علينا واستغفر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أمرت أن آخذ

(١) المغارى للواقدى ١٠٥٣/٣ ، ١٠٥٤ . (٢) المغارى للواقدى ١٠٥٥/٣ .

أموالكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ حَذَّرَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُرْكِيهِمْ بِهَا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ صَلَاتُكُمْ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ ﴾ [التوبه : ١٠٣] . يقول : رحمة . فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسواري ، فأرجعوا سنة لا يدرؤون يعذبون أو يتاب عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ إلى آخر الآية [التوبه : ١١٧] . قوله : ﴿ وَعَلَى الْأَلْيَامِ الَّذِينَ خَلُقُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبه : ١١٨] . يعني استقاموا فأنزل الله تبارك وتعالي في شأن هذه الغروة كثيراً من سورة براءة تقدم كثير من ذلك في محاله .

قال البيهقي : (وزعم ابن إسحاق أن ارتباط أبي لبابة كان في وقعة بنى قريظة ، وقد رويانا عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ما دل على أن ارتباطه كان بخلافه في غزوة تبوك) (١) .

(وفي شرح المواهب : من حديث ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ حَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبه : ١٠٢] . قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وثلاثة لم يوثقوا ، وهم كعب ومرارة وهلال ، والذين أوثقوا أبو لبابة ، وأوس بن خدام ، وثعلبة بن وديعة ، رواه ابن مندة وأبو الشيخ عن جابر بإسناد قوى ، وجد بن قيس ، وجذام بن أوس ومرداس رواه ابن حميد وابن أبي حاتم من مرسل قتادة .

والسابع وداعة بن حرام الأنصارى - رواه المستغفى عن ابن عباس) (٢) .

مصرع النفاق بموت عبد الله بن أبي :

قالوا : ومرض عبد الله بن أبي في ليال بقين من شوال ، ومات في ذي القعدة ، وكان مرضه عشرين ليلة . فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها ، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه ، فقال : « قد نهيتك عن حب اليهود ». فقال عبد الله بن أبي : أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه ، ثم قال ابن أبي : يا رسول الله ، ليس بعين عتاب ، هو الموت ، فإن مت فاحضر عُسلي ، وأعطي قميصك أكفنه فيه . فاعطاه الأعلى - وكان عليه قميصان - فقال : الذي يلى جلدك ، فنزع قميصه الذي يلى جلدته فاعطاه ثم قال : صلّ على واستغفر لى .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٨٥ - ٦٨٧ . (٢) شرح المواهب اللدنية للزرقاوى ٣/٨٧ .

قال : وكان جابر بن عبد الله يقول خلاف هذا ، يقول : جاء رسول الله ﷺ بعد موت ابن أبي إلى قبره ، فأمر به فأنخرج . فكشف عن وجهه ، ونفت عليه من ريقه ، وأسنده إلى ركبتيه ، وألبسه قميصه ، وكان عليه قميصان - وألبسه الذي يلى جلده - والأول أثبت عندنا أن رسول الله ﷺ حضر غسله وحضر كفنه ، ثم حل إلى موضع الجنائز ، فتقدم رسول الله ﷺ ليصلّى عليه ، فلما قام وثب عمر بن الخطاب فقال : أصلّى على ابن أبي ، وقد قال يوم كذا كذا يوم كذا كذا ؟ فعدّ عليه قوله ، فبسم النبي ﷺ وقال : « أخر عن يا عمر ». فلما أكثر عليه قال : « إنّي قد خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنّي إن زدت عن السبعين غفر له زدت عليه » وهو قوله عز وجل : « استغفروه أو لا تستغفروه إن تستغفروه سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » [التوبه : ٨٠] . فيقال إنه قال : « سأزيد عن السبعين » فصلّى رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يكن إلا سيراً حتى نزلت هذه الآيات من براءة : « وَلَا تُصلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا وَلَا تَقْمِ عَلَى قَبْرِهِ » [التوبه : ٨٤] . ويقال : إنه لم تزل قدماء بعد دفنه حتى نزلت عليه هذه الآيات ، فعرف رسول الله ﷺ المنافقين فكان من مات لم يصل عليه ، وكان مجمع بن جارية يقول : ما رأيت رسول الله ﷺ أطّال على جنازة قط ما أطّال عليها من الوقت ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى قبره وقد حمل على سرير يحمل عليه موتاهم عند آل نبيط ، وكان أنس بن مالك يحدث يقول : رأيت أبي على السرير وإن رجليه لخارجتان من السرير من طوله ، وكانت أم عمارة تحدث قالت : شهدنا ماتم ابن أبي ، فلم تختلف امرأة من الأول والآخر إلا أتت ابنته جميلة بنت عبد الله بن أبي وهي تقول : وا جبلاء ، ما ينهاها أحد ولا يعيب عليها ، وا جبلاء ، وا ركتاه ، قالوا : ولقد انتهى به إلى قبره ، فكان عمرو بن أمية الضمرى يحدث يقول :

لقد جهدنا أن ندنو من سريره فما قدرنا عليه ، قد غالب عليه هؤلاء المنافقون وكانوا قد أظهروا الإسلام وهم على النفاق من بنى قينقاع وغيرهم : سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، وسلامة بن الحمام ، ونعمان بن أبي عامر ، ورافع بن حرملة ، ومالك بن أبي نوفل ، وداعس وسويد ، وكانوا أخاً ثمانين المنافقين ، وكانوا هم الذين يعرضونه ، وكان ابنه عبد الله ليس شيء أثقل عليه ولا أعظم من رؤيتهم ، وكان به بطنه ، فكان ابنه يغلق دونهم الباب ، فكان ابن أبي يقول : لا يليني غيرهم ، ويقول : أنت والله أحب إلى من الماء على الظماء ويقولون : ليت أنا نفديك بالأنفس والأموال والأولاد ، فلما وقفوا على حضرته ، ورسول الله ﷺ واقف يلحظهم ، ازدحموا على التزول في حضرته ، وارتفعت الأصوات حتى أصيّب أنف داعس ، وجعل عبادة بن الصامت يذبّهم ويقول : اخضوا أصواتكم عند رسول الله ، حتى أصيّب أنف داعس فسال الدم ،

وكان يريد أن ينزل في حضرته . فتحىَّ ونزل رجال من قومه أهل فضل وإسلام ، وكان لما رأوا رسول الله ﷺ من الصلاة عليه وحضوره ، ومن القيام عليه ، فنزل في حضرته ابنه عبد الله ، وسعد بن عبادة بن الصامت ، وأوس بن خولي حتى سُوَّ عليه . وإن عليه أصحاب رسول الله ﷺ والأكابر من الأوس والخزرج يدلونه في اللحد وهم قيام مع النبي ﷺ ، وزعم مجمع بن جارية أنه رأى رسول الله ﷺ يدلهم بأيديه إليهم . ثم قام على القبر حتى دفن ، وعزَّ ابنه وانصرف ، فكان عمرو بن أمية يقول : ما لقى عليه أصحابه هؤلاء المنافقون إنهم هم الذين كانوا يحثون في القبر التراب ويقولون : يا ليت أنا نفديك بالأنفس وكنا قبلك ، وهم يحثون التراب على رؤوسهم . فكان الذي يحسن أمره يقول : قوم أهل فقر ، وكان يحسن إليهم) ١(.

* * *

(قالوا : وقدم رسول الله ﷺ المدينة في رمضان سنة تسع ، فقال : « الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجر وحسنة ومن بعدها شر كاؤنا فيه » فقالت عائشة شرعاً يا رسول الله ، أصابكم السفر وشدة السفر ومن بعدكم شر كاؤكم فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن بالمدينة لأقواماً ما سرنا من مسيرة ولا هبطنا وادياً إلا كانوا معنا ، حبسهم المرض » ، أو ليس الله تعالى يقول في كتابه : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » [التوبه : ١٢٢] . فتحن غزاتهم وهم قعدتنا ، والذي نفسي بيده لدعاؤهم أنفذ في عدونا من سلاحنا) ٢(.

شهران من الزمن استغرقت رحلة الثلاثين ألفاً ، وها شهراً مستمراً من التربية النبوية لهذه الكتاب الإسلامية لتنصهر كما قلنا في بوتقة الأمة الواحدة ، ورأينا كيف اعتبر رسول الله الذي حبسهم العذر جزءاً من هذه الأمة ، شاركوا في الأجر كله كما لو كانوا في الغزوة ، والإضافة الجديدة في هذا النص ، هو فضل دعائهم لهؤلاء المجاهدين :

« والذي نفسي بيده لدعاؤهم أنفذ في عدونا من سلاحنا » .

ويقى معنا الحديث عن هؤلاء العشرة الذين هم أعضاء في جسم الأمة المسلمة ، لكن تخلفوا بدون عذر وقصروا في الانتحاق بالركب النبوى أو الانضمام إليه عندما مرض إلى تبوك ، وهؤلاء كما تقول الروايات أنهم عشرة ، وهؤلاء العشرة كانوا على قسمين :

(١) المغارى للواقدى ١٠٥٧/٣ - ١٠٦٠ . (٢) المغارى للواقدى ١٠٥٦/٣ ، ١٠٥٧ .

المسجد إعلاناً عن جرمتهم ، واعترافاً بخطئهم ليتحملوا مسؤولية هذا الخطأ بشجاعة متناهية .

وقد أكتفى بالاعتراف بين يدي رسول الله ﷺ ، وصدق رسول الله أنه لم يكن لديه أى عنز بالتلخلف ، ولم يقسم الأيمان المغلظة كذباً وزوراً وبهتاناً أنه لم يتمكن من الخروج .

وستتحدث عن الفريقين ، وإن كنا لابد أن نشير إلى عظمة هذه الأمة التي لا يتجاوز المقصرون فيها والمتخلفون عدد أصابع اليدين ، لاي مستوى ارتفعت هذه الأمة بالتربيه ، بعد أن كانت في مرحلة من المراحل يتخلق ثلثها عن المعركة في أحد أى نسبة ٣٠٪ ، وبمتابعة التربية والجهاد الدؤوب في بنائها تصل إلى حد $\frac{1}{3}$ ٪ من دون حساب البضعة والثمانين من المنافقين وبحسابهم تبلغ النسبة ١٠٪ ، وهذا يعني أن الأمة قد مثلت أعظم انضباط والتزام في تاريخ البشرية وذلك بدون قهر أو خوف أو سيف إنما بالاندفاع الذاتي . والدافع الشخصي .

ونعود إلى قصة هؤلاء العشرة التي مثلت في روعتها أعظم دروس التربية ، حتى لكياد نقول : إننا ما كنا نتمنى ألا يكون هذا التخلف ، وذلك لتعلم الدروس من هذه المستويات التي هبطت عن الحد العادي ، وتختلفت في المدينة ، وتأتي الآية القرآنية لتحدث عن هؤلاء العشرة بأنهم قد تداركهم رحمة الله ، وبقوا أعضاء في جسم هذه الأمة ، دون أن يسلخوا عنها .

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيْغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه] .

والقرآن اعتبر الطبقة العليا في الأمة هي طبقة المهاجرين والأنصار ، وهي التي تمثل العشرة آلاف الذين شاركوا في فتح مكة المكرمة ؛ لأنه لا هجرة بعد الفتح ، وعظمة الكريم لهذه الطبقة أن الله تعالى أشرك معهم نبيه في التوبة ، ولاشك أن القيادة في هذه الطبقة هي للسابقين الأولين ، لكنها وبعد انضمام المؤمنين في تبوك ، أصبحت هي التي تقود هؤلاء الثلاثين ألفاً المشتركين في هذه الغزوة ، هؤلاء المهاجرين والأنصار كاد يزيغ قلوب فريق منهم وهم هؤلاء العشرة الذين تخلفوا بدون عنز .

وابتدأ القرآن الكريم بالحديث عن الثلاثة الذين خلفوا من هذا الفريق ، وستتابع الحديث عنهم كما ورد في كتاب الله عز وجل .

﴿وَعَلَى الْتَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

أَنفُسُهُمْ وَظَلُّوا أَن لَا مَلْجَا مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِتُبُوَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ (١٨)

[التوبة]

ومن حسن حظنا أن كان أحد هؤلاء الثلاثة أمير من أمراء البيان الإسلامي وهو كعب بن مالك رض الذي أبدع في العرض والوصف والتحليل لوضعه مع رفيقيه ، بحيث لم يدع لأحد زيادة ، ومهمتنا أن نعمل على هذا العرض والوصف والتحليل الذي يعتبر قمة من قمم الإبداع البشري ، وأية من آيات الله سبحانه في إبراز هذا المجتمع العظيم.

ماضى كعب بن مالك :

هو ماض ناصع نظيف خالد يحمل رفة المصطفى صلوات الله عليه وسلم في كل معركة وغزاة ولم يختلف عنه في غزاة قط إلا في غزوة بدر ، ولم يكن ذلك التخلف عن ضعف أو وهن أو تقدير ، إنما لم يكن المسلمين يرون أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم يلقى حرباً ، كان الخروج لللاقة القافلة ؛ ولهذا قال سعد رض : (قد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ، ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، ينصحونك ويجاهدون معك) .

وفي أحد كان الغدائى العظيم لرسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فهو الذى نقل البشرة لل-Muslimين بحياة قائده الحبيب .

قال ابن إسحاق : وكان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة وقول الناس : قُتل رسول الله كما ذكر لى ابن شهاب الزهرى كعب بن مالك . قال : عرفت عينيه تزهراً من تحت المفتر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معاشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فأشار إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن أنصت (١) .

وعن كعب قال : (لما انكشفنا يوم أحد ، كنت أول من عرف رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وبشرت به المؤمنين حياً سوياً ، وأنا في الشعب ، فدعا رسول الله صلوات الله عليه وسلم كعباً بلا منه - وكانت صفراء - فلبسها كعب ، وقاتل يومئذ قتالاً شديداً ، حتى جرح سبعة عشر جرحاً) (٢) .

وكان أحد ثلاثة كبار هم شعراء رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وهم : حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

صدق كعب :

ويصور لنا كعب صوراً عديدة لداخل أعماقه ، ولأجواء المدينة ، ولأجوائه وهو يسعى للتأهب للغزو ، كأنما نحن نظره في تلفار متحرك .

(٢) سير أعلام النبلاء / ٥٢٤ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٨٣ .

أما داخل أعمقه قوله : (كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة) . وهل هو معدنور فى تخلفه ؟ يجيب عن ذاته : (ولم يكن رسول الله ﷺ ي يريد غزوة إلا ورئ عن غيرها حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفارقاً وعدداً كبيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهلاً) فلا عذر في الإمكانيات المادية ، ولا عذر في المفاجأة أو الجهل أو السرعة ، وبإمكان من يريد أن يتخلف ألا يعرف أمره ؛ لأن أعداد المسلمين كبيرة كذلك ، وليس هناك سجل يحفظ أسماء الناس جميعاً - وهو ما يسمى بالديوان - فيعرف تخلفه ، إنما الإيمان هو العاصم والداعي للانضمام إلى المعركة ، فالذى يتعامل مع هذه النبوة وهذا الوحي ، يدرك أن الله تعالى مطلع على الغيب ، وسيكشف أمره لرسوله ﷺ ، وقد ينزل الله تعالى به قرأتاً ، فالعجب عند كعب مجاشي أنه يتفى أى عذر يخطر على بال لأحد ، يعذره عن التخلف ، بينما النماذج المنافقة تبحث من تحت أظفارها بكل عذر قوى أو عذر واه لتدفع عن نفسها ، ولو جاء النائب العام ليقدم قرار الاتهام بالإدانة ، لما جاء بأكثر مما جاء به كعب مجاشي ليدين به نفسه . فهو يقدم اعترافاته كاملة ، بل يشير إلى الأهواء الداخلية التي تدفعه إلى التخلف وهو حب الدنيا ، والركون إلى الأرض ، ولا يجد حرجاً في ذلك وهو في موطن القدوة ، وموقع القيادة من الأمة .

(غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الشمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والملعون معه) .

وهذه أجواءه وهو يمضى للاستعداد للغزو ، يراوح بين العرض الخارجى لسعيه ، وبين العرض الداخلى لشاقله (فنطقت أخدو لاتجهز معهم ، فارجع ولم أقض شيئاً ، فاقول في نفسك : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد) علينا أن ندرك أن كعباً مجاشي كان مشغولاً بأرضه ، ومستجيبياً لتلك الظلال الوارفة في حدائقه ، فلم يعط كل وقته لإتمام تجهيز سفره لارض الروم (فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والملعون معه ولم أقض من جهازى شيئاً) . لكن الشيطان جالس بالمرصاد له ، فما زال يمهله ويدفعه للتسويف ، ويحدثنا عن محاولات الشيطان معه قائلاً : (قلت : أجهز بعده يوم أو يومين ثم الحقهم ، فغدروت بعد أن فصلوا لاتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدروت ورجعت ولم أقض شيئاً ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو) .

في هذه الأثناء كان أخوان له يعيشان واقعه نفسه ، واقع التقصير وعدم المبادرة كما يسميه الله تعالى في كتابه شacula : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي

سَيِّلَ اللَّهُ الْأَقْلَمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ [التوبه] .

يقول هلال بن أمية الواقفي وهو أحد مؤلاة ثلاثة وبدري من أهل بدر : (والله ما تخلفت شكًا ولا ارتياها ، ولكن كنت مقوياً)^(١) في المال قلت : أشتري بغيراً ، ولقيتني مراة بن الربع^(٢) فقال : أنا رجل مقوٍ فابتاع بغيراً وأنطلق به ، فقلت : هذا صاحب أرفقه ، فجعلتنا نقول : نغدو فنشترى بغيرين فنلتحق بالنبي ﷺ ، ولا يفوت ذلك ، نحن قوم يخرون على صدر راحلتين فغداً نسير ، فلم نزل ندفع ذلك ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ على البلاد ، فقلت : ما هذا بحين خروج ، وجعلت لا أرى في الدار ولا في غيرها إلا معدوراً أو منافقاً معلناً فأرجع مغتمماً بما أنا فيه)^(٣) .

وكان كعب أكثر شباباً وحيوية من أخيه هلال ومرارة ، فقد هم أن يرحل كما رحل أبو خيثمة ، ولكنه عاد مثاقلاً ، وغض أصابعه ندماً قائلاً : يا ليتني فعلت ، فلم يقدر لى ذلك ، وشهدنا أبا خيثمة كيف جاب الصيافي والقار وحده حتى التقى برسول الله ﷺ في تبوك .

المنافق يفرح بكعب وبتلخله ، ويأمل أن يتضم إلى صفه ، لكن كعب يقتله يقتله الالم ، ويختنه الندم أن يرى أصحابه الذين يتتصق بهم ويتمى إليهم هناك في الصحراء والحر والقحط أما هنا فهو بين أعدى العدو المنافقين المtribعين (فلأن إذا خرجمت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت بهم أحزنني أنى لا أرى إلا رجلاً مغموماً عليه في النفاق ، أو رجلاً من عنده من الضعفاء . وكان يلقه وهو في هذه الحالة الكثيرة هم ملاقاة النبي ﷺ ، وما يترب من عقوبة ربانية على هذا التخلف ، فالآيات القرآنية هم هددت بعذاب للمتخلفين عن الجهد .

﴿إِلَّا تَفْرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَدِلُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبه] . ويبليغ التهديد مبلغه أن يستغنى الله تعالى عن المتخلفين بقوم آخرين خير منهم ، وهو يتتابع الأخبار من كل صفع عن أخبار الجيش الإسلامي وأين نزل ، ومتى تحرك ، حتى تناهى إلى سمعه أن الجيش عاد فافلاً بنصر الله وتوفيقه ، وعاد لهم والغم إليه تتجسد بين عينيه لحظات المواجهة مع قائد الحبيب .

(١) مقوٌ : قوى في المال .

(٢) مراة بن الربع هو ثالث الثلاثة الذين نزل القرآن بحقهم .

(٣) المغارى للواقدى ٩٩٨/٣ .

(فلما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرني همى) وأكبر هذا الهم كيف يخرج من غضب الله ورسوله ، ولم يسبق له في حياته قط أن لقى مثل هذا الموقف ، وراح يفكر باختراع بعض الحجاج التي تجعل رسول الله راضياً عنه فيعذرها ، ثم يستغفر الله تعالى بعدها بينه وبين ربه (وطفقت أذنكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غالباً ، واستعنت على ذلك بكل ذي رأى من أهلى) . ولعلهم كانوا يشجعونه على العمل على إرضاء رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ بأية صيغة ، وبعدها يستغفر الله بيته وبين ربه .

وفي رواية الواقدي : (حتى ر بما ذكرته للخادم رجاء أن يأتينى بشيء أستريح إليه) وهو في تناقض داخلى عنيف بين أن يقدم الأعذار المناسبة ، ولا يعجزه ذلك ، وبين أن يصدق رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ الخبر ، ولتكن النتائج ما تكون ، وهو عاجز عن ترجيح أي جانب (فلما قيل : إن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه) .

إنه الإيمان الذى عمر فى هذا القلب طيلة هذه الحياة لا يمكن أن يكون مغزاً أو مغلوبياً إنه يغالب ، أو ليس كعب بن مالك هو الذى أحب ربه من وصفه تلك القوة المؤمنة التى يفتخر بها على أعداء الله .

قال له رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ : « ما نسى ربك لك - وما كان ربك نسيًا - بيتاً قلته » قال : ما هو ؟ قال : « أنشده يا أبا بكر » فقال :

رعمت سخينة أن ستغلب ريها
وليُغلبن مغالب الغلاب (١)

لقد اختار الأرشد ، وقدم تقريره وافقاً أمام حبيبه المصطفى صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ ، ولا ينسى وهو الفنان البارع ، والأديب المبدع ، أن يعرض لنا كل جزئيات الساحة داخلية كانت أو خارجية ، ونحس كأننا فى المسجد معه هناك نشهد لقاء العظيم العنيف .

(وأصبح رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلدون فطفقوا يعتذرون إليه ويحللون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ وكل سرائرهم إلى الله . فجثته ، فلما سلمت عليه تبسم المغضب ثم قال : « تعال » . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابعت ظهرك ؟ » .

لقد قدم لنا الصورة الظاهرة الوضاءة والكافحة الباطن مع هؤلاء المنافقين ، أيمان وكذب واستخفاف ، وشعور بأنهم نجحوا فى لعبتهم على الله ورسوله ، وسنعود إليها فيما بعد ، وها هو ينقل لنا سجله الذاتى بين يدي حبيبه المصطفى صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ ، وما كان يُكُن ،

(١) سير أعلام النبلاء ٥٢٥/٢ ، ٥٢٦ .

وما يحس ، وما يعتقد ، وما فعل .

(فقلت : بلى ، إنني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، لكنني والله لقد علمت لو حدثتك اليوم بحديث كذبٍ ترضى به عنى ليوش肯 الله أن يسخطك على ، ولوthen حدثتك بحديث صدق تجد على فيه إنني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى مني ولا أيسر حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ :

« أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت) .

وهذا يعني أن كل الذين سبقوه كانوا كاذبين ، وتعامل رسول الله ﷺ مع مظاهرهم . وترك فضح سائرهم لربهم متى شاء أن يفضحها عز وجل أو أن يسترها ، لكن جنديه القائد الشاعر كعب هو من غير هذه الطينة ، ومن غير هذا الطراز ، هذا صدق ، وما كذب وما حلف وما تأثم ، ولم يستغفر له ، ولم يعذر ، إنما أمره أن يمضي حتى يحكم الله تعالى فيه .

وحساب القائد الملزم يختلف عن حساب المشبوه المنافق .

وبنوا سلمة أمرهم عجيب ، ففيهم أعلى المستويات الإيمانية ، وفيهم أدنى المستويات ، لقد أنزل الله تعالى قرأتنا بهم بأنهم كادوا يستجبيون لابن أبي في أحد ، لو لا أن عصمتهم الله :

﴿ إِذْ مَمْتُ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ (١٢) ﴾

[آن عمران] . وكانوا أكثر الناس جراحًا وشهداء في أحد .

ومن هذا المنطلق تشهد اندفاع شباب منهم غرتهم مظاهر عفو رسول الله ﷺ عن المنافقين ، بينما زعيمهم كعب يخرج دون استغفار ودون قبول عذر ، وهذا إهانة لهم ولزعيمهم ، وعرفوا سبب ذلك أنه لم يعتذر كما اعتذروا فهو المسؤول عن هذه التبيجة ، فمضوا مقهرورين يقولون له :

(والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبي قبل هذا ، ولقد عجزت إلا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلعون ، قد كان كافيك ذلك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤمنون حتى هممت أن أرجع فاكذب نفسي) .

ولعل هذا الجو الجماعي كان قد ألقى ظلاله عليه في قوله : قد كان كافيك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فأى ريح يعدل في الدنيا استغفار رسول الله ﷺ له ، وقد حرمته ولا سبيل له إلا أن يفعل كما فعل الذين سبقوه ، وكاد يحس بالندم الشديد ، ويغضى عائداً فييرز عذره لو لا أن تداركه الرحمة العظمى مرة ثانية ، وذلك حين سأله

أصحابه وأحبابه : (هل لقي هذا معنى أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهمما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مراة بن الريبع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكرنا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا فيهما أسوة فمضيت حين ذكر وهمالى) .

هناك بضعة وثمانون من دونه ، حلفوا واعتذروا واستغفروا لهم رسول الله ﷺ وهو يعرف أن أكثرهم مغموماً عليه في التفاق ، لكن ترى هل له مثيل آخر من كان يعرف بالصلاح والاستقامة وقصر مثل تقصيره ، فهو لم يكن يرى في المدينة أحداً مثله ، ترى هل أصبح واحداً من هؤلاء المنافقين ؟

وهل سقط في بئرهم ! لا يدرى ، وإذا به يجد القشة التي يتعلّق بها أملاً بالنجاة ، ذكرنا له رجلين صالحين من أهل بدر ، صدقاً رسول الله ﷺ ، واعتبرنا بقدرتهما على الخروج ، وتقصيرهما في العدة ، وتسويفهم في المسير واللحاق برسول الله ﷺ ، وهذين الرجلين من أهل بدر وارتدى روحه له ، فليس هو وحده على الساحة ولم يحضر مع المنافقين ، وإنما أمرهما رسول الله ﷺ مثله : « قوماً حتى يقضى الله فيكم » ولوه في البدررين أسوة حسنة ، ولا يزال يذكر قصة حاطب بن بلتعة يوم الفتح ، وكانت أكبر من قصته ، ومع ذلك فقد غُفر له وقيل له : « لعل الله اطلع يوم بدر على أهل بدر فقال : اعملوا ما شتمت فقد غفرت لكم » فإذاً هو سعيد أن يصيّبه ما أصابهم - وهو من أهل العقبة الأولى - فماله وهؤلاء المنافقين ، وبهذا حسم أمره وعاد عن تردداته ، وانتظر أمر الله تعالى فيه ، ولاشك أن المعاناة صعبة للغاية ، فله إخوان هناك قد ربطوا أنفسهم بسواري المسجد يتظرون توبه الله عليهم قد تخلّفوا مثله ، وتركهم رسول الله ﷺ مربوطين حتى يقضى الله فيهم أمره . وبدأت المحن الأكبر تخل بساحتها ، وعليه أن يتحمل بصير وثبات آثار خطيبته .

(ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي بالتي أعرف) لقد كان الأمر أهون عليه بكثير - على صعوبته - يوم كان المسلمون في تبوك ، فإنّ إخوانه بعيدون عنه ، وسيحضرون إليه ، وسيثems أشواقه ووده ، وسيعتذر لهم عن اللحاق بهم ، أما الآن ، فالدنيا تغيرت عليه والأرض تنكرت ، فكل صديق له صد عنه ، وكل حبيب له فارقه ، وكل قريب قطع صلته به بعد أن صدر الأمر النبوى بالمقاطعة وعدم الكلام معه ، فصار كما قال ليد : وأفردت إفراد البعير المعد ، بعد أن تحامته العشيرة الإسلامية كلها ، إنها سهام تغزو في كبدة كلما رأى إخوانه يصدون وجوههم عنه ، ويبتعدون عنه ، لكن المنافقين يقدمون ويسلمون عليه... ويحاولون جاهداً أن يصل إلى مرضاه رسوله الحبيب ،

لعله يستغفر له ربه ، ولكن دون جدوى ، فقد قال له : « قم حتى يقضى الله فيك » وأخوه الآخران استسلماً للمصيبة ، وجلأا إلى البكاء فهو السبيل الوحيد الذى ييل حرقة الكبد من الألم ، أما هو فما يريد أن يستسلم ، لا يزال يرجو رحمة الله تعالى تنزل عليه فى كل لحظة ، والله أعلم بقلبه ومدى حبه لله ولرسوله .

(فأما أصحابى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهم يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق فلا يكلمني أحد) وهو يعلم أن لا جدوى من كلام أحد له ، فالامر صادر من الرسول ﷺ ولن يخالف أحد من المسلمين أمره إلا الذين فى قلوبهم مرض ، إذن فليحاول مع رسول الله ﷺ وذلك بما له من ماضٍ إسلامى مشرق ، وموضع كبير فى الدعوة ، لعل رسول الله ﷺ يدعو ربه أن يغفر له بعد هذا العذاب النفسي القاتل .

(واتى رسول الله ﷺ فاسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام علىًّا أم لا ؟ ثم أصلى قرباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى) .

إن حياته بهذا المجتمع الإسلامى ، وبرسول الله ﷺ ، وحين ينفصل عن هذا المجتمع ينفصل عن روحه ، ولا باب إلى الله تعالى إلا من خلال رسول الله ﷺ ، فليلق نفسه بين يديه ، وليس له عليه ، فهو لم يُنه عن إلقاء السلام على إخوانه ، ولم يؤمر بمقاطعة إخوانه ، وليمضى إليهم وليس لهم فهو مصر على إلا حياة له إلا بهم ، ولا خط له إلا خط هذا الدين ، مهما كانت العقوبة جسيمة ، ومهما كانت العقوبة أليمة فطريقه هو سبيل المؤمنين لا طريق سواه ، يسارق رسول الله ﷺ النظر على أمل نظرة حانية منه ، لكن لا جدوى (إذ أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى) . ويعود من جولته كل يوم كليم القلب كسير الفؤاد دامع العين ، ولا ييأس ، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لن يكون منهم . وتذكر أحب أحبابه ، وأقرب أصدقائه له : أخاه أبي قتادة :

(حتى إذا طال عليه ذلك من جفون الناس ، مشيت حتى تسرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردَّ علىًّ السلام ، فقلت : يا أبي قتادة ، أشدك الله هل تعلمى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت فنشدته ، فسكت ، فعدت فشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسررت الجدار) .

ولن يحاول مع أحد بعد محاولته مع ابن عميه وأحب الناس إليه ، فحب الله تعالى

رسوله وطاعة الله ورسوله أولى من طاعة وحب العبيد ، ولن يكمل إيمان المؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولو كان مكان ابن عمه أبي قتادة لفعل مثل ما فعل ، ولن يخالف أمر رسول الله ﷺ ، وعاد كثيراً حزيناً باكيًا ، تكاد تقطع أنيات قلبه الألم ، حتى متى ، هل لهذا الليل من آخر ؟ متى يكون الفرج ؟ أسئلة لا جواب لها عنده إلا البكاء والدعاء والاستغفار واللجوء إلى أرحم الراحمين أن يتوب عليه ، ويتأني الشيطان يحاول أن ينفع فيه دواعي العزة والاستعلاء والجاهلية فيستغفّر الله تعالى من هذه الخواطر ، وهل بلغ الذنب إلى هذا الحد حتى لا يكلمه المسلمين جميعاً ، وها قد مر قربة شهر على مقاطعته ولم يتغير في الساحة شيء .

أى تربية في هذا الوجود أعظم من هذه التربية ، فحين تقتضي القسوة فلا بد منها ، وقد تربى هذا الجيل على الولاء الحالصن لله ورسوله مهما اشتدت نiyob الشيطان وزبانيته ، وهذا رسول من رسل شياطين الإنس والجن يصل إليه ليقتلعه من هذه الأرض ، ويحمله إلى أرض الشام حيث أرومته هناك ، وجريدة غسان هناك الذين كان يعتقد بهم وبيخبر بهم ؛ ولهم ملك عريض قد بسط قيصر عليه سلطانه ، فهم يأخذون العزة من هذا الاتمام الرومي ، وجاءه وهو في أشد لحظات المحن وحرب المجتمع الإسلامي له ، جاءه من يدعوه إلى عزة النصر وعزّة المجد في الشام .

(فيينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطى من أنبياط أهل الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت : هذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بالتنور فسحرته بها) .

وتبرز هنا عظمة التربية النبوية لهذا الجيل ، فقد فتحت الدنيا مصراعيها له ، وملك غسان يفتح ذراعيه لاستقباله ، والمجتمع الإسلامي مفتوح ، فعندما يسأل النبطي عن كعب يشيرون إليه ، ولا يجري تحقيق بعد ذهاب هذا النبطي عن الصلة التي ثبتت معه ، وهذا نجد كعب بكل ما يحمل من ماضٍ عريق ، ويشاعرته التي رفعته إلى الشخص الثاني في الإعلام الإسلامي ، وشعره يتناوله العرب في كل مكان ، ويتعرّض حياته للموت بين يدي رسول الله ﷺ في أحد ، وهو الآن منبود لا يكلمه أحد من المسلمين حتى ابن عمه وأقرب الناس إليه ، وهنا حيث يسقط الكبار ، الكبار أمام إغراءات المنصب ، نجد كعباً جواثيًّا يضع الكتاب في موقعه الصحيح ، فهو ليس أهلاً للمناقشة ، وهذا من شدة البلاء والابتلاء .

ويقول في رواية أخرى : (قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع في رجال من أهل

الشرك) فقد هانت عنده نفسه وصغرت حين رأى أن ملك غسان يدغدغه ويدعوه إليه ، وذلك بدل أن تجتمع نفسه وترغى وتزبد بأهميته وأهمية موقعه وشهرته ، وكان الحل الذي لا حل سواه .

(فعمدت إلى نور فسجرته بها) .

وكانت ثقة قائدہ به عليه السلام وثقة إخوانه أن لم يخطر ببال أحد أن يشك به ويسأله عن هدف النبطي من البحث عنه ؛ إذ كان السؤال عنه علناً وفي الشارع : (من يدلني على كعب بن مالك ؟) .

لقد رفض إخوانه التشكيك به وهو متخلف في المدينة ، فعندما سأله رسول الله صلوات الله عليه وسلم عنه في تبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبشه برداه والنظر في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بشش ما قلت ، والله يا رسول الله ، ما عرفنا عليه إلا خيراً .

وتمر الأيام كالسنون واللحظات كالآيات يتذكر كعب رضي الله عنه جديداً من السماء أو رسول السماء فلا جديد ، وما هو يلوح إليه من بعيد رسول رسول الله صلوات الله عليه وسلم . فخفق قلبه بعنف لعله جاء الفرج وجاءت التوبة ، وانتظر على آخر من الجمر أن يحدثه عن الرسالة التي يحملها فإذا هي :

(حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلوات الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل امرأتك ، فقلت : أطلقتها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبها بمثل ذلك ، فقلت لأمرأتي : الحق بأهلك ، ف تكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر) .

وبعد طول الانتظار هذا وبعد أربعين يوماً يبلغ رضي الله عنه عقوبة جديدة أقسى من العقوبة الأولى بكثير ، فالإسلام يتدخل حتى في فراشه ، وجاء الأمر النبوى باعتزال امرأته ، فلم يغضب ولم يثر ولم يعلم العصيان ، نحن نتحدى أمم الأرض كلها أن تملك تربة فعلت برجالها ما فعل الإسلام برجاله ، بل سأله رسول رسول الله عن تفصيات العقوبة . أطلقتها أم ماذا ؟ ولو كان الأمر بالطلاق لما تردد لحظة واحدة في التنفيذ ، ولكن الأمر كله في الاعتزال فقط ، وأصدر أمره إلى امرأته أن تغادر البيت إلى أهلها إلى أن يقضي الله في هذا الأمر .

ونغادر إلى صاحبيه الآخرين رضوان الله عليهمما ، وقد صدر الأمر لهما باعتزال زوجيهما ، وخاصة شيخنا هلال بن أمية الواقفي رضي الله عنه فقد روى الواقدي عنه : (وأما هلال بن أمية فكان رجلاً صالحًا ، فبكى حتى إن كان يرى أنه هالك من

البكاء ، وامتنع عن الطعام ، فإن كان يواصل اليومين والثلاثة من الصوم ما يندوّق طعاماً ، إلا أن يشرب الشربة من الماء أو اللبن ، ويصلّى الليل ، ويجلس في بيته لا يخرج ؛ لأن أحداً لا يكلمه حتى إن كان الولدان ليهجرونه لطاعة رسول الله ﷺ ، فجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع ، لا خادم له ، وأنا أرفق به من غيري ، فإن رأيت أن تدعني أن أخدمه فعلت . قال : « نعم ، ولكن لا تدعيه يصل إليك » فقالت : يا رسول الله ، ما به حركة إلى ، والله ما زال يبكي منذ يوم كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، وإن لحيته لتقطر دموعاً الليل والنهار ، ولقد ظهر الياض على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره) (١) .

وحدا هذا بن حول كعب رض أن يطلبوا منه إذن هلال (قال كعب : فقال لي بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ص في امرأتك كما أذن لهلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ص وما يدرني ما يقول لي إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب) .

وهل في الدنيا من العذاب النفسي أقسى من أن تمنع المرأة عن زوجها عقوبة له من الله ، فامرء لو قاطعه كل أهل الدنيا ، فيمكن أن يدخل إلى بيته ، فيجد في زوجه وأهله من يواسيه ويسعّ دموعه ويخفف عنه ، فكيف إذا انقلب هذا البيت عدواً له ، حتى يمتنع عن الحديث معه استجابة لأمر الله ورسوله ، فذاك الشيخ الفانى هلال بن أمية لم يعذر وهو بهذا السن عن التخلف ، وكان الولدان يقاطعونه طاعة لرسول الله ص ، والمنافقون يسرحون ويعرحون ويتكلمون مع المسلمين ، وكان لم يجرموا بشيء وقد كذبوا على الله ورسوله ، ولو كان هذا الأمر في غير هذا المجتمع لانقسم المجتمع قسمين ، ووقع انشقاق وانقلاب عسكري مثل هذه العقوبة ، والنها عن الكلام عقوبة يساهم فيها كل فرد في المجتمع النبوى المسلم ، وليس هناك مخابرات عسكرية وأجهزة أمن تراقب هذه العقوبة ، وتراقب هذه المقاطعة إنما هو الواقع الداخلى فقط هو الذي يملأ التنفيذ أو عدمه ، فمن يرى كعباً إن تكلم مع أحد من المسلمين ، أو ليس هذا ابن عمه وأحب الناس إليه ، ولا يوجد غيرهما أحد يسأله بالله ثلاثة مرات : هل تعلموني أحب الله ورسوله ؟ حتى يجيب في الثالثة : الله ورسوله أعلم ، بل لا يرد عليه حين يسلم عليه ، ولا رقيب عليهما إلا الله ، بل إن كعباً ليعن من حوله على تنفيذ العقوبة ، فلا يدع امرأته بين يديه ليحرجها تمنع أم لا ، بل يتطلب منها اللحاق بأهلها لتنفيذ العقوبة عليه ، ويرفض أن يستأذن رسول الله ص أن تقوم بخدمته طلباً لمرضاة الله سبحانه .

(١) المغارى للواقدى ١٠٥٢/٣ .

وكان هذا في صبيحة الأربعين فتحاتم بقى هذه العقوبة الجدية ، وإلى متى تستمر ، والله أعلم ، وعليه أن يأتي إلى بيته ليلقى فيها الجدران ، وكأنها هي مقاطعة كذلك ، فيفر إلى السطح ، ويلجأ إلى السجود ضارعاً باكياً أن يغفر الله له ، وكانت تلك اللحظة الحالة الحالدة التي يعطينا كعب عنها رضي الله عنه أدق التفاصيل في شعوره وقلبه وفي سلوكه ومن حوله .

(فلبت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كلامنا ، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فيينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علىّ نفسي ، وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر .

قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج) .

أى أرض تقله وأى سماء تظله ، لقد طار فرحاً ، فما يصدق حاله أية قطة أم مناماً ، وبفرك عينيه . لقد سمعت أذناء البشرة ، وخر على أثرها ساجداً لله (وأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوبته الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس) .

أى مجتمع هذا ، وهو قبل ثوان يقاطع كعباً وإخوانه ، ويتنع عن الحديث معهم ، ويعتبر الحديث معهم خيانة ، لكن نياط أفراده تتقطع لهذه المقاطعة ، وما أن جاءت التوبة حتى ماج المجتمع الإسلامي في عرس من أغراسه ، فيطير أحد أفراده على رأس جبل سلع صارخاً بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، فالمجتمع كله يخفق بقلب كعب وصاحبيه ، ويعيش مأساتهم ، بينما يركب الآخر فرسه ويطاردها فينهب بها الأرض ليشره بتوبته الله عليه ، لقد عبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا المجتمع من خلال حواره مع أم سلمة رضي الله عنها كما روى الواقدي : « يا أم سلمة ، قد نزلت توبه كعب بن مالك وصاحبيه ». فقلت : يا رسول الله ، أفلأرسل إليهم فأبشرهم ، فقال : « يمنعونك النوم آخر الليل ، ولكن لا يردن حتى يصبحوا » ولم يمنعون أم سلمة النوم ، وأم سلمة قرشية مخزومية لا تمت بصلة القرابة ولا نسب إلى كعب بن مالك ، ولكن لو علموا تلك الليلة لما ذاقوا طعم النوم يسألون ويهثون ويفرحون ويستفسرون ، أليس هو مجتمع الجسد الواحد إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والشهـر ، فإذا لـيـتـظـرـ الخبرـ إـلـىـ الفـجـرـ ، وتعلـنـ للـدـنـيـاـ تـوـبـةـ اللهـ عـالـىـ عـلـىـ الثـلـاثـةـ .

والقرآن الكريم ينزل من لدن رب العالمين على لسان جبريل أمين وحى الله ، من أجل ثلاثة أفراد تخلفوا عن المعركة ، ويعطيهم من الاهتمام والعناية ما يمكن أن يهتم بإشارة للنبي ﷺ دون وحى يتلى .

ولكنه الفرد المسلم الذى هو عند الله تعالى أعظم من الكعبة ، وحرمة أعظم من حرمة الكعبة ، وها هو الواقعى ينقل لنا عن شيوخه مساحة أعرض من مساحة كعب ، تعطينا تماوج المجتمع الإسلامي مع نبا التوبة السعيد .

(فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخبر الناس بما تاب الله على هؤلاء التفر : كعب بن مالك ومراة بن الربيع وهلال بن أمية ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه فأوفى على جبل سلع ، فصاح قد تاب الله على كعب يبشره بذلك ، وخرج الزبير على فرسه في بطنه الوادى فسمع صوت أبي بكر قبل أن يأتي الزبير ، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ببني واقف ، فلما أخبره سجد) .

ونستمع إلى وصفعاشر العشرة المبشرين بالجنة يحدثنا عن واقع الخبر على شيخنا هلال بن أمية رضوان الله عليه ، وهو الذى نقل البشارة إليه (قال سعيد ، فظننت أنه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفسه ، وكان بالسرور أكثر منه بكاء بالحزن حتى خيف عليه ، ولقيه الناس يهتئونه بما استطاع المشى إلى رسول الله ﷺ لما ناله من الحزن والضعف والبكاء حتى ركب حماراً ، وكان الذى يبشر مراة بن الربيع سلكان بن سلامة أبو نائلة ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ووافيا الصبح مع النبي ﷺ من بني عبد الأشهل) .

ونعود بعدها إلى كاميرا (كعب) وألة المصورة ، فهي مثل آلات الأطباء ، تنقل ما في الأعمق ، ودقات القلوب كما تنقل على الساحة ، فهي تنقل دائمًا المشاعر والمظاهر .

(فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياها ببشراء ، والله لا أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما) . فهو يلبس ثوبين مستعارين صبيحة عرسه . (وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتئونى بالitory) . إننا كأننا هناك والشمس لم تزغ بعد ، والناس يتلقاون يوم العيد (فيتلقاني الناس للسلام على كعب وصاحبه وتهتئهما ، وهكذا الناس يكونون يوم العيد) فوجاً فوجاً يهتئونى بالitory يقولون : ليهتك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبد الله يهرب حتى صافحتي وهنائى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، ولا غرابة أن يقوم طلحة بن عبد الله من مجلس رسول الله ﷺ يهرب فি�صافح كعباً ويهته ، فقد آخى رسول الله ﷺ بينهما ، بينما حالت هيبة رسول الله ﷺ أن يتحرك الناس في

المسجد بين يدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور :
« أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .

بينما تلتقط كاميرا تليفزيونية أخرى نقل لنا خبرها الحافظ ابن عساكر . تلتقط كعباً وهو يقبل يد رسول الله ﷺ حين لقيه بخبر توبته الله عليه ، وينقل لنا قول كعب : (لما نزلت توبتي قبلت يد رسول الله ﷺ) ، لكن الذي يتحقق به قلب كعب بعنف ، وقد حبس أنفاسه به قوله هو أن يعرف مصدر التوبة .

ولذلك ما عمالك أن قال لنبيه الحبيب ﷺ : (يا رسول الله أمن عندك أمن من عند الله ؟ قال : « لا ، بل من عند الله » . إذن فقد نزل بتوبته قرآن يتلى إلى قيام الساعة .
ويسلط كعب (كاميرته) على وجه رسول الله ﷺ (وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ استئنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه) .

ولم ندر ما المفاجآت التي أعدّها لنا كعب بمناسبة هذه التوبة ، حتى سمعناها منه الآن .
(فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ) وجاء الجواب من رسول رب العالمين لشاعره العظيم كعب الذي غمرته مشاعر الفرح حتى ينخلع من ماله كله شكرًا لله على ذلك ، فكم له بهذه التوبة في أعماق كعب ، ولا عجب فيكتفى للتعبير عنها مقالة رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .

فقد ولد ولادة جديدة ، وانبثق ابتسافاً جديداً في هذا اليوم ، وليعتبر نفسه أنه في يوم ميلاده ولا حاجة له في ماله كله ، ول يكن صدقة في سبيل الله ، وخفّف رسول الله ﷺ من غلواته فقال له : « أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك » . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير .

وما هي المفاجأة الثانية التي أعدّها كعب لنا خواصه ؟ هي المفاجأة التي لا يملكونها في الدنيا إلا ضمير المسلم ولا يعرف قيمتها إلا المجتمع الذي نبت فيه هذا الفرد المسلم ، إنها مفاجأة أخلاقية بحثة .

(فقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاء الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلغني) ويختتم شريطه بقوله : (ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا ، وإنني لارجو أن يحفظني الله فيما

بقيت) .

ونقل لنا في ختام هذا الشرط آيات الله تتنى في وفى إخوانه من جهة - ثمرة هذا الصدق الذى صدقوا فيه ، فقاموا حتى يحكم الله فىهم ، وهذا حكم الله قد نزل بتوبتهم :

(وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ » إلى قوله : « وَكُوَّنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [١٦] » [التوبه] . فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ إلا أكون كذبت فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قاله لأحد ، فقال تبارك وتعالى : « سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ » إلى قوله : « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرْضِي عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [١٧] » [التوبه]) .

ترى هل شهدت المدينة عرساً آخر قبل عرس كعب وأخويه ؟ نعم ، فقد أنزل الله تعالى التوبه على الذين ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وهم بقية العشرة قبل نزول توبه كعب ، بينما كانت التوبه على هؤلاء الثلاثة هي التي جاءت في النهاية (وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبایعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه بذلك قال : « وَعَلَى الْفَلَاثَةِ الَّذِينَ حَلَّفُوا » [التوبه : ١١٨] ، وليس الذي ذكر الله ما خلفنا عن الغزو ، إنما هو بتخلفه إيانا وإرجائه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه) .

وعودة إلى السبعة الذين ذكرتهم كتب التفسير والسيرة أنهم ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد ولم يطلقوا حتى نزلت توبتهم من السماء كذلك ، وعلى رأسهم أبو لبابة بن عبد المندر ، فلما رأهم رسول الله ﷺ قال : « من هؤلاء المؤثثون أنفسهم ؟ » قالوا : أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله إلا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم فرضى عنهم وتعذرهم ، وقد اعترفوا بذلك رسول الله ﷺ : « وَأَنَا أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَطْلَقُهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَطْلُقُهُمْ ، رَغْبَا عَنِّي ، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ » فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذى يطلقنا . ولا شك أن وثيرة التدم عند هؤلاء السبعة كانت على أعلى المستويات ، فقد أعلنا خطاهم وتخلفهم أمام كل داخل للمسجد وخارج عقوبة لهذه الفوس التى استمرأت المقام فى المدينة ورسول الله ﷺ فى القسط والحر والبىد ، وانخلعوا من ذاتهم متبرئين منها معلنين تقبيلهم لحكم الله فىهم مهما كان

الحكم في قساوته وشنته ، وأنزل الله تعالى توبتهم بقوله عز وجل : « وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذَنُوبِهِمْ خَلَطُوا أَعْمَالًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » [التوبه : ١٠٢] . وعسى من الله واجب : « إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ » [البقرة : ٢٧] . فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم . ولم تأخذ هذه القضية ضجة كبيرة لأنها على الظاهر لم تتأخر كثيراً ، وفي بعض الروايات أن التوبة نزلت بعد خمسة عشر يوماً (١) . إنما الإضافة في هذه القصة هي : (فجاوروا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا أَمْرَتُ أَنْ أَخْذَ أَمْوَالَكُمْ » ، فأنزل الله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُرْكِيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكُمْ سَكِّنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ » [التوبه : ١٠٣] ، وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسواري فأرجعوا سنة لا يدركون يعذبون أو يتاب عليهم ، فأنزل الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ... » إلى آخر الآية [التوبه : ١١٧] ، و قوله : « وَعَلَى الْثَلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا » إلى قوله : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ » [التوبه : ١١٨] .

ونرجح أن هؤلاء الذين أرجعوا سنة ليسوا هؤلاء الثلاثة ، وذلك لأن الثلاثة المذكورين قد نزلت توبتهم بعد خمسين يوماً كما في الصاحح : إنما هم مجموعة أخرى وقد يكونون هم الذي عنهم الله تعالى بقوله : « وَآخِرُونَ مُرْجَونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [التوبه : ١٠٤] ، وهي متناسبة في السياق بعد الآيات « وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذَنُوبِهِمْ » [التوبه : ١٠٢] ، وهي بعدها بثلاث آيات ، والموضوع متتابع بذلك الذين اعترفوا بذنبهم ، ثم أمر النبي ﷺ باخذ أموالهم ، ثم الحديث عن المرجون لأمر الله ، أما الثلاثة أولئك فهم في سياق آخر ويعيد عن هذا السياق .

وهذا يقودنا بعدها إلى التعرف على نوعيات المجتمعات بعد تبوك ، وطبقات هذه المجتمعات وذلك قبل العام العاشر للهجرة .

لدينا ثلاث مجتمعات يعرضها القرآن الكريم ، ويعرض طبقاتها وهذه المجتمعات هي :

١ - مجتمع المدينة وما حولها .

٢ - مجتمع الأعراب .

(١) هناك روايات قوية من أن توبة أبي لبابة إنما كانت في بنى قريظة ، وفيها تفصيلات مسائية سبق أن ذكرناها من قبل .

علمًا أن مجتمع النفاق مثبت في المجتمعين فهو جزء منها ظاهرًا ومنفصل حقيقة عنهما :

أولاً : مجتمع الأعراب ، وهو الذي لا يزال الشر يغلب فيه ، ولا تزال الجاهلية طاغية فيه فلذلك ذكره الله تعالى في وصفه العام بقوله عز وجل :

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفَّارًا وَنَفَاقًا وَأَجَدَرُ الْأَيَّلَةَ حُدُودًا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [التوبه] ، ودليل غلبة الشر فيه وطغيان الجاهلية هي الردة الكبرى التي نزلت به ، فتكاد لا تكون قبيلة من قبائل العرب الكبرى إلا وشاركت فيها ، وكان الوضع كما وصفته عائشة رضي الله عنها : (ارتدت العرب قاطبة إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرابت اليهودية والنصرانية وال المسلمين كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم) ^(١) .

ولهذا وصفه الله تعالى بأنه أشد كفراً ونفاقاً ، وغاذج أفراده يتمثل فيهم هذا الوصف : **﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَخَذُ مَا يُنْفِقُ مَفْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [التوبه] . والأقلية فيه أقلية مؤمنة .

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَخَذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتٍ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُذْلِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه] .

ثانيًا : مجتمع المدينة ، ويحيى في ثناياه ثلاثة طبقات ؛ العليا والوسطى والدنيا .

أما الطبقة العليا في هذا المجتمع فهي أعلى طبقات : البشرية على الإطلاق ، والتي لم تشرف البشرية بها ، ولن تتكرر على الإطلاق ، إنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، هؤلاء تربوا بأعيانهم وأفرادهم وأشخاصهم على يد باني هذه الأمة رسول الله ﷺ .

وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبه]

[التوبه]

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٦/٣٤٣ .

الطبقة الثانية: وهي التي تمثل القاعدة العريضة فيه وإن كانت ليست في حجم الطبقة الأولى ، ومع الملاحظ أن هذه الآية نزلت في السبعة الذين تخلوا عن رسول الله ﷺ ، لكنها ليست محصورة فيهم ، فمن حيث الوصف الفعلى ، تكاد تشمل معظم المسلمين في غير هذا المجتمع ، حتى إن علياً جعل من تواضعه كان يستبشر بهذه الآيات ، ويراهما تتطبق عليه ، فهو لاء الدين خلطا العمل السيئ بالعمل الصالح ، لكن قلوبهم حية وأفندتهم نقية ، سرعان ما يفيثون إلى الله ورسوله ، معرفين بما جنت أيديهم ، وبعدهم الله تعالى برحمته وفضله فالخير هو السمة العامة للمجتمع ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن أعظم مجتمع سادت فيه الخيرية هو هذا المجتمع .

والطبقة الوسطى فيه تمثل أعلى طبقات كل المجتمعات البشرية ، فكيف بالعليا فيه ، وهل حوت البشرية نموذجاً للتوبة مثل أبي لبابة وأمثاله الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد توبة وندماً عما فعلوه من تخلف فاختلط فيها هو غير معتمد ، وسرعان ما تفتق من خطتها ، فاستحقت بجدارة توبه الله تعالى وجه لها :

« لو لم تكونوا تخطتون خلق الله أقواماً يخطئون فيستغفرون فيغفر الله لهم » .

والملاحظ أن الطبقة العليا في هذا المجتمع - مجتمع المدينة - تتف عن الـ ٩٥٪ من أبنائه ، وهذا مجتمع نموذج لا مثيل له في تاريخ البشرية ، وهم السابعون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، بينما نجد الطبقة الوسطى فيه قد تتجاوز الـ ٣٪ ، أما الطبقة الثالثة: « وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يَعْدِيهِمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » [التوبه: ١١] . فهم الـ ١٪ من هذا المجتمع المثالى الحالى .

ثالثاً : مجتمع التفاق وهو شر كله وكفر كله ، لا تستطيع أن تجد فيه تميزاً يذكر ويصل إلى حد الطبقة فيه ، فقد وصف الله تعالى المنافقين بقوله عز وجل :

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيهِمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٢٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسِبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » (٢٨) [التوبه] .

إنما الذى فيه خير ، فسيخرج من هذا المجتمع ويدخل حظيرة المجتمع المؤمن ، وهو لاء الدين استثنام الله عز وجل بقوله : « لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرُتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْذِبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » (٢٩) [التوبه] ، واستثنام فى موقع آخر بقوله عز وجل : « يَعْلَمُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفَّرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا

بِمَا لَمْ يَنْأُوا وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُونُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) [التوبة] .

وتتجلى هذه المعانى فى سورة النساء بشكل واضح أنهم يخرجون من مجتمع المنافقين إلى مجتمع المؤمنين ، عندما يتوبون وبخلصون : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَنَنْهَا تَجَدَّلُهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَأْبُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتَنَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) [النساء] .

وقد أكثرت الآيات من الحديث عنهم لا للحديث عن طبقاتهم وتمايزهم إنما للحديث عن جرائمهم وتخطيطهم لحرب الإسلام والمسلمين وإثارة الفتنة والشبهات في صفوفهم .

بقى علينا أن نشير أن هناك فريقياً من المؤمنين ومن المجتمع المسلم قد تتشابه صفاتهم الخارجية مع المنافقين - كما في الحديث النبوى : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منها ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصلم فاجر » (١) .

وهذا ما يطلق عليه علماء المسلمين بالتفاق العملى ، وهو غير التفاق الاعتقادى للذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر .

(1) رواه البخارى ومسلم .

طبقات المجتمع المسلم

وأهمية هذه الفقرة في البحث ونحن نشرف على نهايته هو ما تفعله التربية في أبناء هذا الجيل الذي مسته يد النبوة وصاغته ، فانتقل من القاعدة العريضة قبل هذه الصياغة إلى القاعدة الصلبة بعدها ، بحيث تصبح هذه القاعدة العريضة بالدورات التي خاضتها. والمحن التي تعرضت لها جزءاً من القاعدة الصلبة الأولى ؛ قاعدة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، لتدخل كلها في إطار الذين اتبعوه بإحسان ، وتدخل في مفهوم الصحابة التي اصطلح العلماء على تسمية طبقتهم كلها بطبقية الصحابة .

يقول الحافظ ابن حجر رحمة الله :

(وأصبح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام ، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز ، ومن رأه رؤية ولم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى) (١) .

ووضع المجتمع الإسلامي بعد تبوك آل إلى الطبقات التالية :

١ - المهاجرون والأنصار .

٢ - الصحابة ، والصحابة قسمان :

أ - من حول المدينة .

ب - من هم بعيدون عنها .

أولاً : المهاجرون والأنصار :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيدُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٧) وَعَلَى الْتَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَلَّوْا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١١٩) ﴾ [التوبه] .

(١) من مقدمة الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني ٤/١/١ .

ولا شك أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم أعلامهم ، ثم الذين اتبعوهم بإحسان ، ثم بقية المهاجرين والأنصار الذين حضروا فتح مكة ؛ إذ لا هجرة بعد الفتح ، وأما الأنصار فيضاف إليهم من أهل المدينة من يبلغ الحلم ، وينضم إلى المجتمع الإسلامي ، فهذه الطبقة التي كانت عشرة آلاف في فتح مكة قد انصرت كلها ، وعادت فشكلت القاعدة الصلبة ، وذلك بعد دورة الفتح وحدين ، والتي استمرت شهرين في صحبة رسول الله ﷺ ، والاستثناء الذي ذكر منهم قد تداركهم الله برحمته ، ودخلوا ضمن توبة الله عز وجل بعد أن كاد أن يزيغ قلوب فريق منهم ، لكن الله تعالى عصمهم وحفظهم ، ومنهم أولئك الثلاثة الذين تأخرت توبتهم خمسين ليلة ، ومنهم - والله أعلم - الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئاً وربطوا أنفسهم بسوارى المسجد ، ومنهم الذين تاب الله عليهم بعد عام . فهذه النماذج الثلاثة التي كادت أن تزيغ ، وتاب الله عليها ونجحت في الامتحان ، وأصبحت القاعدة العريضة قبل الفتح ، ويدخلوها الدورة التربوية مع رسول الله ﷺ والتي استمرت قرابة الشهرين ، صارت تمثل القاعدة الصلبة ، وصارت هي القدوة للأمة بعد أن كان السابقون الأولون منهم هم القدوة فقط .

وهناك إشارة لطيفة فقهها الجليل الأول من الصحابة ، حيث اعتبروا السابقين الأولين من المهاجرين هم قمة القيمة في الأمة ، وذلك انطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ : « الخلافة في قريش » ، والسابقون الأولون من المهاجرين إذا استثنينا بضعة أفراد منهم مثل أبي ذر الغفارى ، والطفيل بن عمرو الدوسى وأبى موسى الأشعري وعمرو بن عبسة السلمى وأمثالهم من أسلموا ، وطلب منهم رسول الله ﷺ أن يكونوا دعاة هداة في أقوامهم ، بينما كان السابقون الأولون في قريش نسباً أو حلقاً أو ولاءً . فهم اعتبروا جمیعاً من قريش باعتبار : « مولى القوم منهم وحليفهم منهم » ، وهذا ما نقل من خطبة الصديق رضي الله عنه في هذا المجال يوم سقيفة بنى ساعدة (وكنا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاماً ونحن عشيرته ﷺ وأقاربه وذرotope رحمه ، فتحن أهل النبوة وأهل الخلافة) ولم يترك شيئاً أُنزل في الكتاب بآيديهم إلا قاله ، ولا شيئاً قاله رسول الله ﷺ في شأن الأنصار إلا ذكره ، ومنه « لو سلكت الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار » وقال : لقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : « قريش ولادة هذا الأمر » فقال سعد رضي الله عنه : صدقت ، فقال : (أى الصديق) رضي الله عنه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، أى في رواية أنه (أى الصديق) قال لهم : أنتم المؤمنون ونحن الصادقون ، وإنما أمركم الله تعالى أن تكونوا معنا فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ١١٩ 》 [التوبة] ، والصادقون هم المهاجرون ، قال الله تعالى :

﴿لِلْفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله : « هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ » [الحشر] .

ثانياً : الصحابة :

أ - من كان الجهاد فرض عين عليهم :

وهؤلاء هم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب :

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِيهِمْ ظَمَّاً وَلَا نَصْبَّ وَلَا مَخْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْهُونَ مَوْطِئًا يَغْيِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنْلَوْنَ مِنْ عَذَّرٍ تَيْلًا إِلَّا كُبَّ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ وَلَا يَنْفَقُونَ نَفْقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيَّا إِلَّا كُبَّ لَهُمْ لِيَجِزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ » [التوبه] .

لقد كانت هذه الطبقة الثانية التي انضمت إلى الطبقة الأولى ، مع النموذج الثاني ، وصاروا ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامي من المهاجرين والأنصار ، ارتفع عددهم إلى ثلاثين ألفاً بعد أن كان المهاجرين والأنصار قد بلغوا يوم الفتح عشرة آلاف ، وهؤلاء العشرون ألفاً فتح أمامهم فرصة الانضمام لهذه الدورة التأهيلية العظيمة في تبوك بصحبة قائد الجيش الإسلامي ، وصحبة الجيل الأول من المهاجرين والأنصار ، ولم يترك لهم الخيار في هذا الانضمام بل كانت الأوامر لا تبيح لأحد منهم التخلف .

﴿إِلَّا تَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَيْمَانًا وَيَسْتَبِدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ » [التوبه] . وهم من الذين اعتبروا قد تخلوا عن قبائلهم ، وتخلوا عن
الولاء لعشائرهم ، وصار لا وهم لله وحده ولرسوله ﷺ كما في الحديث :

« قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله » (٢) وهؤلاء الذين اعتبرهم القرآن القاعدة الصلبة التي تحمل مسؤولية الجهاد مع رسول الله ﷺ مثل أهل المدينة موطن المهاجرين والأنصار .

ب - من كان الجهاد فرض كفاية عليهم :

وهم الأعراب الموغلون في الصحراء خارج المجموعة السابقة ، والذين شاركوا في

(١) السيرة الخليلية / ٣ - ٤٨٠ ، ونص الآية كاملاً : « لِلْفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَغْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَفَوَّهُونَ فَعَلَّمَ مِنَ اللَّهِ وَرَضِيُّوا وَيَصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَوَعَّدُوا الدَّارُ وَالْإِيمَانُ مِنْ قَبْلِهِمْ يَجْهُرُونَ مِنْ هَاجَرُوهُمْ وَلَا يَجْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَغْرَبُوا وَيُؤْتَوْنَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَامَةٌ وَمَنْ يُوقَ شَغْ
نَفْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ » [الحشر] .

(٢) مسلم / ٤ - ١٩٥٦ ح (١٨٩) .

الجهاد على تفاوت منهم ، واعتبر القرآن الكريم أن مشاركة نفر من القبيلة كاف لتحقیق الهدف الشرعی والتربوي ، فهو لاء الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لَّيَتَفَهَّمُوا فِي الدِّينِ وَلَيَنْدِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْدَرُونَ﴾ [التوبه : ١٢٢]

و واضح من النص القرآني أن النفرة مع رسول الله ﷺ هي ذات هدف تربوي أكثر منه ذات هدف عسكري ، فلابد لكل قبيلة من رسمل يحضرون هذه الدورة التربوية يتعلمون بها أحكام دينهم من هادي البشرية محمد ﷺ ، ليعودوا إلى أقوامهم فيعلمونهم أمور دينهم ، ويتحدون لهم عن معجزات نبيهم التي شهدوها ، وغذت قلوبهم بالإيمان والتعين ، وانقلبوا دعاة إلى الله عز وجل ، وقاده يقتدي بهم في تجمعاتهم ومصارفهم ، وانضمائهم إلى هذا النفير العظيم ، ومشاركتهم مع جيش الإسلام في هذه الدورة المباركة يعطيهم الموقعة المتقدم ، يجعلهم جزءاً من القاعدة الصلبة المسئولة عن حمل هذا الدين ونشره في آفاق الأرض ، فال التربية نظرية في فقه الدين ، وعملية في الجهاد في سبله .

(إن هذا الدين منهج حركى لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما ينكشف لهم من أسراره ومعانيه ، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به ، أما الذين يقدعون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا من تحركوا لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ، ولا فقهوا فدهم ، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون ، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ ، والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والفقه ، وهذا عكس ما يتبادر إلى الذهن من أن المخالفين عن الجهاد والغزو والحركة هم الذين يتفرغون للتتفقه في الدين ، ولكن هذا وهم لا يتفق مع طبيعة هذا الدين ، إن الحركة هي قوام هذا الدين ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره في وقع الناس ، وتغليبه على الجahلية بالحركة العملية .

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه ، مهما تفرغوا لدراسته في الكتب دراسة باردة ، وإن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للذين يتحركون به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ، ولا تتجلى للمستغربين في الكتب العاكفين على الأوراق .

إن فقه هذا الدين لا ينبع إلا في أرض الحركة ، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة ، والذين يفكرون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاماً

فقهية يجددون به الفقه الإسلامي أو يطوروه - كما يقول المستشرقون من الصليبيين - وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها ، وطرد شرائع الطواغيت ، هؤلاء لا يفهمن طبيعة هذا الدين ، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين) (١) .

وهكذا نجد رحلة الثلاثين ألفاً عادت موقرة الشمار مليئة الوطاب بهؤلاء الثلاثين الذين فعلت بهم التربية النبوية فعلتها الكبرى ، فأعادت صياغتهم من جديد على ضوء هدي الإسلام ونور النبوة ، وأصبحوا الحداة للأجيال اللاحقة التي تنضم إلى هذا الدين. والدليل الواضح أن التربية العملية لهذا الدين لا تتم إلا من خلال الجihad في سبيل الله هو : هذه الآيات التي سبقت الحديث عن طبقات المجتمع المسلم ، والتي اعتبرت الجihad في سبيل الله هي الصفة الكبرى بين المؤمنين في الأرض وربهم جل جلاله ، وليس الإيمان والفقه النظري فقط ، فقبيل الآيات التي تتحدث عن طبقات المجتمع المسلم التي ذكرناها جاء الحديث عن الجihad بهذه الصيغة :

« إِنَّ اللَّهَ اشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَذَابُهُمْ حَتَّىٰ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِرُوا إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ يَبْأَسُّكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (١١١) [التوبه] .

فهو منهج الله تعالى مع عبيده المؤمنين في الأرض من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وجاءت الآية تؤكد دينونة هذا المنهج وعالميته فهو وعد عليه سبحانه في كتبه المترلة كلها : التوراة والإنجيل والقرآن ، وعظمة الآية أنها لم تتحدث عن شراء النفس فحسب ، بل شراء النفس والمال ، ولم تتحدث عن القتل والنصر فقط ، إنما تحدثت عن المحنة كذلك : « فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ » ، فقد تكون المرحلة مرحلة صبر ومصايرة وكف لليد ، واستشهاد في سبيل الله ، أو مرحلة جهاد بالمال فحسب ، لكن المسلم قد بايع ربها على هذا كله .

إنه نص البيعة الذي ابتدأ مع السبعين الأوائل من الأنصار في بيعة العقبة بيعة الحرب :

(١) وإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذلوه ، فهو والله خير الدنيا والأخرة » قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيينا بذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا: أبسط يدك ، فبسط يده فباعوه) (٢) .

(١) في ظلال القرآن ٣/١٧٣٤ ، ١٧٣٥ . (٢) السيرة النبوية لأبن مسام ٤٤٦/١ .

وتجلت بعد تبوك مع الثلاثين ألفاً في مجتمع الإسلام في المدينة وما حولها ، وتابعت مسيرتها كما قال عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الذين بدأوا يبيعون أسلحتهم شعوراً بانتهاء الجihad (فنهام عن ذلك وقال : « لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال »)^(١) .

اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنْتَ مَعَنِّي إِنِّي لَكَ بِرٌّ لَا أُحْكِمُ حَلْوَى وَلَا أُؤْكِدُ حَسْنَى

لكن هؤلاء المجاهدين في هذه الأمة يختلفون عن المقاتلين والقتلة في أمم الأرض كلها ، فلهم مواصفات قمت صياغتهم عليها من قبل سيد ولد آدم ، وقد أمضى ثلاثة وعشرين عاماً وهو يبني بهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فهؤلاء المقاتلون المجاهدون يمتازون بعشر صفات تؤهلهم للدخول في سلك المجاهدين في سبيل الله ﷺ وهذه المواصفات هي :

﴿الَّذِينَ تَبَرَّأُوا مِنَ الْمُجْرِمِينَ هُمُ الظَّاهِرُونَ وَهُمُ الظَّاهِرُونَ وَالظَّاهِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالظَّاهِرُونَ لِحَدْدِ اللَّهِ وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٢]﴾ [التوبه] .

ومن أهم المواصفات الكبرى والتي تعتبر انعطافة في تاريخ البشرية هو الخلوص من كل ولاءات الأرض قبيلة أو عشيرة أو وطنًا أو أرضاً أو مالاً، واعتبر الولاء للإسلام فقط، وبث كل رابطة دونه أو جعلها على الأقل لا تعلو عليه من خلال القائد الأول لهذه الأمة إبراهيم عليه السلام :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتَغْفارُ إِبْرَاهِيمَ لَأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مُؤْعَدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوُّ لَهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوْأَهُ حَلِيمٌ﴾ (١١٤) ﴿التوبه﴾ [٢].

ولو غيرها الهوية التي أعطاهم الله تعالى إليها لضلوا : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْلِلُ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَقْتَلُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبه] ، والنصرة مرتبطة بالمحافظة على هذه الهوية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبه] .

وبعد هذه المقدمات في هذه الآيات يأتي الحديث عن طبقات المجتمع المسلم :

١٠٥٧ / ٣) المغارى للوادى .

﴿لَقَدْ ثَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ...﴾ [التوبه : ١١٧] إلى آخر الآيات .

لقد مثل انطلاقة الأمة المنكودة في مطلع القرن العشرين الأخذ بالهوية القومية التي لا يعلو فوقها أية هوية وأية رابطة ، ومثل ذلك شاعرهم بقوله :

فلا حد يبعادنا ولا دين يفرقنا لسان الضاد يجمعنا بحسان وعدنان

وها هو القرن العشرون يشارف على الانتهاء ، ولا تزال أمم القومية الواحدة ثلاثة وعشرين دولة .

أما عندما كان الانطلاق من هوية هذا الدين ورابطته ففي ثلث قرن دانت البشرية لهذه الأمة التي يمثلها القول المعاكس :

فلا حد يبعادنا ولا جنس يفرقنا كتاب الله يجمعنا بأعراب وعجمان

والى أن تكون انطلاقة هذه الأمة من هذه الهوية ، وجعلها فوق كل هوية ورابطه وولاء ، يكون عودة النصر والوحدة والتمكين لهذه الأمة ، ويقولون : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً .

مصرع النفاق بمصرع عبد الله بن أبي

لا نزال نذكر في تبوك أن ريحًا شديدة هبت ذات يوم فقال رسول الله ﷺ : « هذا
موت منافق عظيم النفاق » وقدموا المدينة فوجدوا رفاعة بن التابوه أحد أركان النفاق قد
مات يوم هبت الريح ، فحزن عليه كل منافق ، وسرّ موته كل مؤمن ، لكن ابن أبي
الذى خذل رسول الله ﷺ للمرة الثانية كما فعل فى أحد لا يزال قائماً ، لقد فشلت كل
مخطلات النفاق فى إقامة دولتهم بهذه المناسبة ، وعاد رسول الله ﷺ مظفراً منصوراً ،
يرجو ملك بنى الأنصار رضاه بعد أن كان أمل أبي عامر الفاسق أن يأتي بكتائب بنى
الأنصار لاحتلال المدينة ، وعاد المسلمين إلى المدينة ، ولبست المدينة حللها الذهبية ،
وكأنما هي في عرس من أعراسها ، بعد أن عاد إليها سيد الخلق مع خيرة الخلق ، وصار
ابن أبي كالفعمة السوداء قهراً وذلاً وحقداً ، وفتثك به المرض في ليالٍ يقين من شوال
أقعده عن الحركة ، وكأنما هو مرض الموت وذلك بعد قرابة شهرين من تبوك ، فكان
رسول الله ﷺ يعوده ، ولن يدع رسول الله ﷺ رئيس حزب المنافقين وأتباعه يسرحون
ويمرحون دوغاً رقيب أو حبيب ، فزيارة المصطفى تخلخل كل مخطلات اللقاءات
والاجتماعات السرية المقررة ، ولا تدع الفرصة لهم لاتخاذ القرار المناسب ، وانتشر الخبر
في المدينة أن ابن أبي إثماً يعاني من مرض الموت ، فجاءه رسول الله ﷺ يعوده لقد رأى
ابن أبي أمام عينيه تحطم كل آماله فقد أفنى عمره في حرب رسول الله ﷺ ، وهو هو
يراه بجواره يعوده وأفني عمره في حلف اليهود وحبهم ، وهو هم مطرودون خارج الحجارة
كله ، أو يعملون عند المسلمين مزارعين لا شوكة لهم ولا صولة .

وبينظرة نفاذة من النبي ﷺ إلى ابن أبي ، وهو يعاني من سكرات الموت ، قال له
رسول الله ﷺ : « قد كنت نهيتك عن حب اليهود » .

وفى مثل هذه اللحظات كان يناسبه أن يعلن توبته واستغفاره وخطا خط سيره كله ،
واعترافه بالنبوة ، لكنه راح يتبعج ليهاجم أسعد بن زراره نقيب نقباء المسلمين يوم العقبة ،
والذى توفي بعد أن أقر الله تعالى عينه بإقامة دولة الإسلام فى المدينة ، وهو الذى قاد
الانقلاب ضده ضد اليهود المتنفذين فى المدينة ، وجاء برسول الله ﷺ إليها ، فأجاب
الرسول بقوله :

« أبغضهم أسعد بن زراره فما نفعه » .

فالنفع والضر عنده بالموت والحياة ، ورأى أن بعض اليهود من أسعد بن زراره لم يحل بينه وبين الموت .

وكذلك حبه لليهود لم يحل بينه وبين الموت ، فكلاهما يلقيان المصير نفسه ، فماذا بعد الموت ؟

إنه شعر بأنه قد أبرز خبيثة نفسه وخبيثة نفسه ، وأنه لا يؤمن بجنة ولا ب النار ، وقد استوى مصيره ومصير أسعد بن زراره في تلقي غصص الموت ، لكنه عاد فحافظ على خط نفاقه الأصيل بقوله :

يا رسول الله ، ليس بحين عتاب هو الموت فاحضر غسلى ، وأعطنى قميصك أكفن فيه .

إنه مدرسة عالمية للنفاق يجب أن تدرس في جامعات العالم كلها وخرجو مدرسته هم أساتذة فيها وفي فن النفاق بشكل عام ، وهو وأركان حربه المنافقون هم جميعاً الذين كانوا يلحون على رسول الله ﷺ في انتحال الأعذير ، والحديث عن الظروف القاهرة التي حالت بينهم وبين المشاركة في غزوة تبوك ، ويقسمون الأيمان المغلظة الكاذبة الغموسة لهم في النار أنهم صادقون ، ويستغفرون لهم رسول الله ﷺ ، ويغضبون يتبعجون على كعب بن مالك وصاحبيه الذين لم يستغفرون لهم رسول الله ﷺ ، بينما استغفروا لل مختلفين المنافقين ، وفرحوا فيما بينهم أن اللعبة انتهت على رسول الله ﷺ وال المسلمين ، وراحوا يتسابقون في الثناء على الإسلام ورسول الإسلام لتفطية الموقف ، وجاءهم الشهاب الثاقب الذي يرجمهم ، ويعريهم من كل قيمة ، حين أنزل الله تعالى على نبيه فيهم :

﴿ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرْدُونَ إِلَى عَالَمِ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فِيْبِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٤) سَيَخْلُفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَغْرِضُنَا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَاهِمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) يَخْلُفُونَ لَكُمْ لِتُرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٦٦) ﴾ [التوبه] .

هؤلاء هم في ميزان الله ، وميزان رسول الله ، وميزان المؤمنين « إنهم رجس و ما واهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » (٦٥) فبماذا يفخرون بعد هذا على المسلمين ، وقد فضح الله سرائرهم !

هذا وإذا كانوا يؤمنون بالاستغفار النبوى لهم فليطمئنوا إلى الرد الإلهي على استغفارهم والذى جاء كالصاعقة المحرقة لهم بما أنزل على نبيه بشأنهم :
﴿ اسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبه ٨٤] .

وبعد كل هذه الفضائح والتعريه لاستاذ التفاق وزبانيته يعود ليقول لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ليس بحين عتاب ؛ هو الموت فإن مت فاحضر غسلى ، واعطنى قميصك أكفن فيه . فأعطيه الأعلى ، وكان عليه قميصان ، فقال : الذى يلى جلدك ، فترع قميصه الذى يلى جلدك ، فأعطيه ثم قال : صل على واستغفر لى .

لا يمكن أن نخبره إطلاقا على أن نسمى هذا نفاقا لو لم يتزل القرآن بذلك ، وماذا بعد التكفين بقميص رسول الله ﷺ ، وماذا بعد أن يُصرّ على القميص الداخلى الذى تبارك بجسد المصطفى ﷺ ، ونحن اليوم نحمل بذرة منه نبارك بها ، لقد كان خالد بن الوليد أعد لمعاركه كلها شعرات لرسول الله ﷺ وضعها فى قلنسوته لا يخوض معركة إلا وهى معه ، وكان معاوية بن أبي سفيان روى أن قد أعد شعيرات لرسول الله ﷺ تدخل فى كفنه ، وهذا ابن أبي يفور بالقميص الذى يلى جسد رسول الله ﷺ ، ولو لا ما أنزل الله تعالى فيه بعد موته لاتهمنا من يتهمنه بعقيdetه ، فتوبية العبد تقبل منه ما لم يغفر ، وهذا الرجل لا يزال بوعيه وهو يعاني سكرات الموت ، وينتقل من الدنيا إلى الآخرة ، فهل يمكن أن نشك بإيمانه بعد هذه التصرفات .

ومات ابن أبي ، لم يمت منبودا بعيدا خارج المدينة - وهذا هو موقعه - لكنه مات وهو مكفن بالقميص الداخلى للرسول ﷺ ، ورسول الله فوق رأسه حضر غسله ، وحضر تكفينه ، وأن الأوان للصلوة عليه .

القلب المؤمن الذى لم يزغ لهذه الادعاءات لابن أبي هو قلب عمر روى أن رسول الله ﷺ يتقى من يقدم للصلوة على ابن أبي ، فمن يجرؤ فى الدنيا أن يعارض رسول الله ﷺ ؟ هل يعلم أكثر من علمه حتى يقف دون الصلاة عليه ؟ إنه عمر الذى ما رأه الشيطان سالكًا فجألا هرب منه ، إنه عمر الذى تفر عنه شياطين الإنس والجن ، ولم يدع لريبة الموت سلطانا عليه ، فابن أبي فى ذهنه أكبر شياطين الإنس ، ولم تهتز منه شعرة واحدة وهو يراه يكفن فى قميص النبي ﷺ ، إنه هو الشيطان بعينه يراه كاذبا دجالاً منافقاً حتى وهو يعاني سكرات الموت .

(فلما قام وثبت إليه عمر بن الخطاب روى فقال :

يا رسول الله ، أتصلب على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا و يوم كذا كذا ؟ فعدَ عليه قوله . فتبسم النبي ﷺ ، وقال : « آخر عنى يا عمر » .

ولكن عمر لم يؤخر ، وبجرأة عجيبة لا يمكن أن يفعلها إلا عمر رضي الله عنه يعود فيذكر نبيه بابن أبي بأفعاله وموافقه وتخطيطه وكيده الذي ذكره القرآن فيه والذي لم يذكره .

(فلما أكثر عليه عمر قال : « إنى قد خيرت فاخترت ، ولو أنى أعلم إن زدت عن السبعين غُفر له زدت عليها » ، وهو قوله عز وجل : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۝ ۸۰] التوبية : [) .

ورسول الله ﷺ يعلم أن قميصه لن ينجي ابن أبي من عذاب الله ، لكن له هدفًا من ذلك ، هذا الهدف هو أن ابن أبي ذات يوم أغار قميصه لعم محمد العباس بن عبد المطلب ، ولا يريد الله تعالى أن يكون لأحد من خلقه من على رسوله ، وذلك عندما كان العباس أسيرًا في بدر فعن جابر بن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أتى بأسارى ، وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله ابن أبي يقدر عليه ، فكساه النبي ﷺ إيه ، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه . قال ابن عيينة : كانت له عند النبي يد فاحب أن يكافنه) (١) .

فكان الفرصة ليكافئ ابن أبي على معرفته هذا ، فكان أن أعطاه قميصه يتكون فيه ، ورسول الله ﷺ يعلم مواقف ابن أبي كلها ، ويعلم كذبه ودجله وهو على فراش الموت ، ويعلم أن طلبه الاستغفار والصلوة عليه جزء من اللعبة ، ولكن رسول الله ﷺ لا يود أن يبقى منفذًا لاعداء الإسلام أن في داخل صفة جزء يمكن التسلل إليه والتعاون معه ، وتسخيره لخدمة مأرب العدو ، ويعرف أعداء هذا الدين أن أبي أمضى عمره في الكيد للإسلام ، وحين يرى الجواسيس كيف طلب ابن أبي قميص رسول الله ﷺ ، ويرون أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى عليه ، تقطعت آمالهم في أحد من هذا الصيف أن يكون عيناً لهم أو موطن قدم في مدينة النبوة ، وأدرك عمر رضي الله عنه هذا المغزى السياسي الذي استعمله عليه الصلاة والسلام في جميع مواقف ابن أبي المخزية .

« فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ » .

« إن أكره أن يقول الناس : إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه » .

(١) صحيح البخاري ٤/٧٣ باب الكسوة للأسارى .

وهذا ما يفسر عملية الدفن بعد الصلاة عليه ، حيث حرص المنافقون أن يبرزوا أنفسهم أنهم تجمع مستقل ، وأن عبد الله بن أبي زعيم له وزن وله أتباع ، وله جنود يفدونه بأرواحهم ، وقد مثل هذا الحرص موقفهم عند دفنه .

يقول عمرو بن أمية الضمرى رضي الله عنه : (لقد جهدنا أن ندنو من سريره فما نقدر عليه ، قد غلب عليه هؤلاء المنافقون ، وكانوا قد أظهروا الإسلام ، وهم على النفاق ، من بنى قينقاع وغيرهم سعد بن حنيف ، وزيد بن الصبيت ، وسلامة بن الحمام ، ونعمان ابن أبي عامر ، ورافع بن حرملة ، ومالك بن أبي نوفل ، وداعس وسويد ، وكانوا أخاً ثابت المنافقين ، وكانوا هم الذين يعرضونه) بينما كان ولده العظيم عبد الله بن عبد الله بن أبي يكره هؤلاء كراهة لا حد لها (فكان ابنه يغلق دونهم الباب ، وكان ابن أبي يقول : لا يليني غيرهم ، ويقولون : ليت أنا نغديك بالأنفس والأموال والأولاد) فخطفهم تقوم على أساس إعلان الوجود الرسمي للنفاق ، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ فوت عليهم الفرصة ، وأمر صحابته بالمساهمة في الدفن إكرااماً لعبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه ، ولاخته المؤمنة الصادقة جميلة بنت عبد الله ، فتقدم عبادة بن الصامت لذلك (فلما وقفوا على حضرته ، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ واقف يلحظهم ، ازدحموا على التزول في حفرته ، وارتقتعت الأصوات حتى أصيب أنف داعس ، وجعل عبادة بن الصامت يذبهم ، ويقول : اخفضوا أصواتكم عند رسول الله ، حتى أصيب أنف داعس فسال الدم - وكان يريد أن ينزل في حضرته) ومن لهؤلاء غير عبادة بن الصامت الذي أربعب منظره ملك الفرس ، وهو إذا عَدَ عَدَ بالف من الرجال (فتحى - أي داعس - ونزل رجال من قومه أهل فضل وإسلام وكان لما رأوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ من الصلاة عليه وحضوره والقيام عليه ، فنزل في حضرته ابنه عبد الله ، وسعد بن عبادة بن الصامت ، وأوس بن خولي حتى سُوى عليه ، وإن عليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ والأكابر من الأوس والخرج يدللونه في اللحد ، وهم قيام مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ ... ثم قام على القبر حتى دفن ، وعزّى ابنه وانصرف .

وكيف يكون مصاب عبد الله بن عبد الله لو أن الذين شاركوا في التكفين والدفن المنافقون فقط ؛ كم يعاني من القهر والإهانة والخيبة في مصابه هذا ، فهو أبوه ، ولا يشاركه بمصابه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ ولا المؤمنون الصادقون ، فهي عظمة التربية النبوية التي تكرم المؤمن العظيم والمؤمنة العظيمة ، هذا المؤمن الذي استعد لقتل أبيه لو أمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ بذلك ، إنه التكريم الحقيقي والتعزيز لأعضاء الحزب المؤمن من أهله عبد الله وجميلة ، وأن تكون التعزية من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ والأكابر من الأوس والخرج لهم بناء عظيم خالد في نفوس ابنى ابن أبي ، والتحام لهما بهذا الدين ، وهذا القائد وهذه الرسالة ، وهم يعلمون من آباهم ، ويعلمون تاريخه الأسود الملطخ بالوحش والذى

فضحه القرآن في أكثر من موقع ، وكانوا يمتنون لو أن توبته صحت ، أو لعلهم كانوا يعتقدون ذلك بعد صلاة النبي ﷺ عليه واستغفاره ، ولكن ما إن انتهت المصيبة وانتهت التعزية ، وأقرت عين عبد الله بهذه المشاركة (فلم يكن إلا يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من سورة براءة : « وَلَا تُصْلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا وَلَا تَقْمِ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » [٨٤]) [التوبة] .

وتشاء إرادة الله تعالى أن تنزل الآية بعد التكفين والصلاة والدفن . ليتم بذلك الجانب المعنى في جبر خاطر المؤمنين العظيمين ، ثم يفضح بعدها ابن أبي بأنه وهو يطلب قميص النبي ﷺ ليكتفون فيه كان ينافق ، وحين يطلب الاستغفار من رسول الله ﷺ كان ينافق ؛ لأن القرآن أكد أنه يبقى على كفره ومات عليه ، وعرف المسلمين صدق حسن عمر ، والإلهام الرباني الذي أعطاه الله تعالى له ، ولم يصل رسول الله ﷺ بعده على منافق .

وتطالعنا رواية البخاري وهي لا شك أصح من رواية الواقدي والتي تبرز أن كل التصرف النبوى إنما هو إكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبي .

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : (لما توفي عبد الله جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسألته أن يعطيه قميصه يكتفون به أيام فأعطيه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى ، فقام عمر فأخذ بشوب رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما خيرني الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، إن تستغفر لهم إن تستغفرون لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » [التوبة : ٨٠] . وسائله على السبعين » قال : إنه منافق ! قال ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : « وَلَا تُصْلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا » (١) [التوبة : ٨٤] .

(وإضافة هذه الرواية أن عبد الله بن عبد الله هو الذي طلب القميص النبوى ، وعند البيهقي عن ابن عباس أن عبد الله بن عبد الله بن أبي قال له أبوه : أى بنى اطلب ثواباً من ثياب النبي ﷺ تكتفني فيه ومره فليصل على ، قال فأناه فقال : يا رسول الله ، قد عرفت شرف عبد الله وهو يطلب إليك ثواباً من ثيابك تكتفنه فيه وتصلى عليه) (٢) .

ورواية البخارى الثانية فى صحيحه بعد الرواية الأولى بسان عمر رضي الله عنه قال :

(لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٨٨ .

(١) البخارى ٤/٨٥ .

رسول الله ﷺ وثبت إليه ، فقلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبي وقد قال يوم كذا
كذا وكذا ؟ قال : أعدد عليه قوله ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « آخر عن يا عمر »
فلما أكثرت عليه قال : « إن خيرت فاخترت ، لو أعلم أنني إن زدت عن السبعين يغفر له
لزدت عليها » قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يكث إلا يسيراً حتى
نزلت الآيات من براءة :

﴿ وَلَا تُحِلَّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَا تَأْدَأً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبه] .

فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم) (١) .

وإن المرء المسلم اليوم ليعجب من هذا القلب العظيم قلب النبي ﷺ مع أعدى عدوه
الذى نصب له المكائد وال الحرب طيلة حياته ، ولم يخلص لله ولا لرسوله ولا للإسلام
لحظة واحدة ، ويقول الله تعالى له : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبه] : ٨٠ .

ثم يختار بعد هذا الاستغفار لهم ولزعيمهم ابن أبي ، ويأتي عمر رضي الله عنه ليهيج قلب
رسول الله ﷺ في ذكر فضائحه وجرائمها ومخازيه ، وبعد ذلك هو يقول : « وسأزيد
على السبعين » طمعاً في مغفرة الله تعالى لهذا العدو اللدود اللثيم الحاقد ، أو : « لو
أني أعلم إن زدت عن السبعين يغفر له لزدت عليه » أي قلب في هذا الوجود يملك أعظم
من هذه الرحمة ، وأعظم من هذا العفو ، وأعظم من هذا السمو !

ولهذه العظمة ولهذا السمو ولهذه الرقة التي وصفه الله تعالى بها : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّىٰ
خُلُقِ عَظِيمٍ ﴾ [القلم] . نجد القرآن الكريم وفي ختام هذه السورة ، وفي ختام هذه
الرحلة مع الثلاثين ألفاً ، وفي ختام هذه المرحلة التي قام فيها رسول الله ﷺ ببناء هذه
القاعدة العريضة ، وتحويلها إلى قاعدة صلبة ، وفي صياغتها بالهدى الرباني ، يأتي الثناء
العظيم من رب العزة على نبيه المصطفى ﷺ بقوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ
أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عِنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبه] .

فهو يعيش بقلبه كله لأمته ، ويعيش قضية أمته ، وقضية حسن صياغتها ، وحسن
بنائها ، ورفع مستواها الإيمانى ، لا يعيش لذاته ، ولا يعيش لشخصه ، فهو رسول رب
العالمين لخلقه ، عزيز عليه أى معاناة لاي فرد من أمته التي بناها على عينه ، حريص على
هداهم وسعادتهم في الدارين ، فمن لهذه الأمة بعد نبائها عليه الصلاة والسلام ، وأى
رأفة ورحمة تعدل رحمة ورأفة هذا البانى العظيم عليه الصلاة والسلام ، لقد زakah الله

(١) صحيح البخارى ٤/٤٨٦ .

تعالى بما لم يزك به أحد من خلقه ، بأنه يعيش للمؤمنين ويحسن للمؤمنين ، ويُمضي عمره للمؤمنين وهذا الشهراً قد بارك الله تعالى فيهما ، وجعل له جيشاً قوامه ثلاثة ألفاً نال كل واحد منهم شيئاً من رحمته وفيضاً من رأفته وعنابته حتى استحق أن يكون من جيل القدوة .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّعِيمٌ﴾ (٢٨) فَإِن تَوَلُوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

[التوبه]

(ولم يقل : جاءكم رسول منكم ، ولكن قال : من أنفسكم ، وهي أشد حساسية وأعمق صلة ، وأدل على نوع الوشبيحة التي تربطهم به ، فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم صلة النفس بالنفس ، وهي أعمق وأحسن ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه عتكم ومشتكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يلقى بكم في الممالك ، ولا يدفع بكم إلى المهاوى ، فإذا هو كلفكم الجهد وركوب الصعب ، فما ذلك من هوان بكم عليه ، ولا بقسوة في قلبه وغلظة ، إنما هي الرحمة في صورة من صورها ، الرحمة بكم من الذل والهوان ، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة ، والحرص لكم على أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وخط رضوان الله ، والجنة التي وعد المتقون .

ثم ينتقل الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، يعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى ، وبصله بالقوة التي تحمي وتكفيه ﴿فَإِن تَوَلُوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٠) فإليه تنتهي القوة والملك والمعظمة والجاه ، وهو حسب من لاذ به ومن والاه .

إنه ختام سورة القتال والجهاد ، الارتكان إلى الله وحده ، والاعتماد على الله وحده ، واستمداد القوة من الله وحده ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٣١) .

وبعد :

فهذه المدينة كما وصفها رسول الله ﷺ وهي تقع بالمؤمنين المخلصين الذين فازوا بشهادات التزكية من الله تعالى ومن رسول الله ﷺ ، بعد أن حضروا الدورة معه ، وبإشرافه المباشر ﷺ ، وهي تنفي خبثها كما ينفي الكبير خبث الحديد ، فقد انسفح وانفصل بضعة عشر مناقفاً هم حصيلة جهاد عشرة أعوام من زعيم حزب النفاق الذي

(١) في ظلال القرآن ١١/٣ ١٧٤٣.

لقي مصرعه ، وهو يرجو رسول الله ﷺ أن يكفه بقميصه ويصلى عليه ، وتاب الله على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا في ساعة العسرة بعد أن الحق بهم ثلاثة الذين خلفوا وانضموا معهم ، وتكون مجتمع الصحابة الأوسع والأرحب من مجتمع المهاجرين والأنصار الذي شكل ثلاثة أضعافه ، وأصبح كله بالتربيه النبوية مؤهلاً ليتبؤاً موضع القيادة والقدوة ، وجاء كلام رب العزة جل جلاله ليقرر هذه الحقيقة الخالدة لهذا الجيل العظيم الذي أثني عليه ابتداء ، وختم السورة بالثناء على قائدہ عليه الصلاة والسلام ، وأبرز دور هذا القائد العظيم في بناء هذا الجيل وصياغته ، وحرص على السمو والارتفاع به ، وألمه من أى عنت يلم به أو بأى فرد من أفراده ، وهو الرؤوف الرحيم بحزبه وجنده ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه] .

ويبدأت المدينة تستعد لاستقبال الأفواج الجديدة من المؤمنين ، فيما يسمى بعام الوفود ، وبانتهاء تبوك وشعور العرب بالقوة النبوية التي سيطرت على الساحة كلها ، بدأت أفواج القيادات العربية تندى إلى المدينة تعلن ولاءها ودخولها للإسلام ، وأصبح العرب جميعاً هم القاعدة العريضة لهذا الدين ، وهي التي ستكون موضوع حديثنا في الأجزاء القادمة إن شاء الله .

لقد اتسعت القاعدة العريضة حتى صارت أفواجاً بل أمواجاً من كل حدب وصوب من الجزيرة العربية من أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، وأقصى الشرق وأقصى الغرب ، وراح هؤلاء الثلاثون ألفاً يقيمون المدارس والجامعات التربوية في كل ساحات الجزيرة العربية يعلمون الناس الدين ، ويفقهونهم الشريعة الخالدة ويكونون هم عناصر البناء الجديد ، والإشراق الجديد للنور في أرض العرب وأرض الإسلام .

الفصل الأخير

معالم المنهج التربوي النبوى فى تربية القاعدة العريضة

١- الاستفادة من الطاقات الكامنة والشابة :

وذلك في مجتمع يعج بالزعamas الكبri التي تأصلت فيها الجاهلية وترسخت ، فقد اختار رسول الله ﷺ لامرة مكة التي حوت الملا من قريش ، والتي كان فيها ما لا يقل عن مائة زعيم وقائد ، اختار رسول الله ﷺ عتاب بن أبي سعيد ابن العشرين ربيعا ؛ لأنه قد تفاعل مع الإسلام بعيداً عن إرث العصبية والجاهلية وعقد الزعامة ، وهو في الوقت نفسه من بنى أمية حكام مكة وقادتها في تلك المرحلة ، كما استعمل معاذ بن جبل ذا الطاقات الموهوبة في فقه هذا الدين والذي هو في العشرينات من عمره ليكون فقيه المسلمين هناك ، لتمثل فيما القدوة العملية كذلك في الرهد وبعد عن المطامع واستغلال الواقع وإقامة العدل وتحكيم شريعة الله في الأرض ، فلن يحكم بشريعة الله من يحمل أمراض وموروثات الجاهلية ، ولن تتمثل في شخصه أحكم الإسلام وفقهه ، وبذلك تتمثل تربية الجيل للقدوة في الأجيال الجديدة التي تدخل في الإسلام .

٢- كسر الحواجز النفسية بين الإسلام وبين الناس :

فليس من الضروري الإيحاء للناس وذوى التفوذ منهم أثناء التربية العامة أنهم معرضون للخطر ، وأنهم موضع اتهام ، بل إعطاء الثقة لهم ولو على عطائهم القليل ، وأنهم سيجدون في الإسلام ما يحقق مصالحهم ويلبي حاجاتهم هو خط أصول من خطوط التربية العامة وتربية القاعدة العريضة .

فعلى سبيل المثال : كان صفوان بن أمية رضي الله عنه يرى أن خطر الموت يتحقق به من خلال مصالحته مع رسول الله ﷺ ، وإذا برسول الله يعطيه الأمان ، ويترك له الخيار في اختيار الإسلام أو غيره ، ثم يتقدم منه رسول الله ﷺ خطوة أخرى فيستغير أدراجه ، ويستقرض منه المال ، ويدخله في المجتمع الإسلامي وهو لم يؤمن بعد ، وذلك مالك بن عمّار قائد هوازن الذي فر مستخفياً بثيق يعرض عليه رسول الله ﷺ أن يعيد له أهله وما له ومائة من الإبل لو أسلم ، ثم يسخر طاقاته بعد إسلامه في مواجهة ثيق وتشكيل حرب عصابات ضدها ، وذلك ابن الجلندي حاكم عمان يعرض عليه عمرو بن العاص رسالة رسول الله ﷺ : إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، وذلك خالد

ابن الوليد رضي الله عنه وقد أسر أكيدر بن عبد الملك يأتي به إلى المدينة فـ (صالحه رسول الله صلوات الله عليه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه ، وخلّى سبليهما وكتب كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه) .

لكن هذا لا يكون على حساب العقيدة ، فليس كل زعيم أهل لأن يقود قومه فيطغى كما كان يطغى من قبل ، وهذا ما شاهدناه في الفرق بين الصورتين ، حيث أعطيت قيادة مكة لعتاب بن أسيد ولم تعط لأبي سفيان وأمثاله مع إسلامهم رضي الله عنه .

٣ - رفع المعنويات والثقة بالنصر :

وإذا كان الجيل القائد الأول يتربى على الشهادة والتضحية ، فإن الجيل الريديف ومن خلال التربية العامة يمكن أن يعطي الأمل بالثقة والنصر على العدو في ساعات المواجهة ، فعندما وصف الرسول الإسلامي قوات هوازن التي قد يؤدى الحديث عن ضخامتها إيجاطاً في التفاصيل ، كان جواب رسول الله صلوات الله عليه : « تلك غنيمة المسلمين جداً إن شاء الله » ، وهذا هو عليه الصلاة والسلام يخاطب الجد بن قيس بدعوه للخروج إلى تبوك بقوله : « أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك تختقب بنات بنى الأصفر » وهذا هم المسلمون في تبوك لا يجدون ما يأكلون ، ماضيون في هذا الهجير والعطش يقطع رقابهم ، يقول لهم : « ألا أبشركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله - وهم يسيرون على رواحلهم - فقال : « إن الله أعطاني الكترين فارس والروم ، وأمدني بالملوك ملوك حمير ، يجاهدون في سبيل الله ، ويأكلون في الله » .

٤ - التربية بالقدوة من خلال النوعيات الفدائنية العليا :

لابد أن تظهر أمام القواعد العامة للأمة نماذج محذأة ويطولات يقتدى بها الجيل الجديد ، ففعلى حنين قال رسول الله صلوات الله عليه : « ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ » إذ أقبل أئمّس ابن أبي مرثد على فرسه ، فقال : أنا ذا يا رسول الله ، قال : « انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا فلا تنزلن إلا مصلياً أو قاضي حاجة ، ولا تفرّن من خلفك » وبينما حتى أضاء الفجر ، وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله صلوات الله عليه قال : « أحستم فارسكم الليلة ؟ » قلنا : لا والله ، فأقيمت الصلاة ، فصلّى بنا ، فلما سلم رأيته ينظر من خلال الشجر ، فقال : « أبشروا ، قد جاء فارسكم » . وجاء فقال : يا رسول الله ، إبني وقفت على الجبل كما أمرتني ، فلم أنزل عن فرسى إلا مصلياً أو قاضي حاجة ، حتى أصبحت فلم أحس أحداً . قال : « انطلق فائزلا عن فرسك ، وأقبل علينا » ، فقال : « ما على هذا ألا يعمل بعد هذا عملاً » والحديث الآخر : « من قتل قتيلاً فله سلبه » فيتسابق الأبطال على قتل الأبطال ليكونوا في الوقت نفسه قدوة للآخرين ،

وليست دعوة الأنصار ثم الخزرج بعد الهزيمة إلا من هذا المنحى ، فقدومهم والتحاقهم برسول الله ﷺ هو الذي دفع من خلفهم ليقتدوا بهم (فكان سعد بن عبادة يصبح يومئذ يا للخزرج ، يا للخزرج ، وأسيد بن حضير : يا للأوس ثلاثة ، فثابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل تأوى إلى يعسوبيها) وما سرية خالد بن الظفري في تبوك إلى دومة الجندل مع أربعينه فدائى مغوار إلا من هذا الطراز كذلك .

٥ - أهل القائد والمقربون منه أسرع الناس إلى الفداء :

فلقد كانت الجولة الأولى في حين لأهل رسول الله ﷺ وعشيرته الذين دخلوا في هذا الدين مع حداثة دخول بعضهم عند فتح مكة ، وهم الذين تحدث العباس عنهم في شعره قائلاً :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعه
وقد فر من فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه
لما مسه في الله لا يتوجع

وكم يفخر القائد ويتعزز حين يجد أهله وعشيرته المقربين يعانون الموت دونه ، وليس ما يؤوجع الحماس للذود عن القائد مثل أن يرى الجنود تضحيات أهله الأدرين عما وابأنا وحالاً ولدنا .

واتسعت ساحة الأهل عند رسول الله ﷺ لتضم الخمرة الأولى كلها من السابقين الأولين ، فقال لأبي رهم الغفارى في تبوك :

« إن كان لمن أعز أهلى على أن يتخلف عن المهاجرون من قريش ، والأنصار ،
وغفار وأسلم » .

٦ - إعطاء الدرس العملى بأن النصر من عند الله :

فهمما كانت المفاهيم النظرية والتربية عليها بأن النصر من عند الله ، فلن تتضح وتتجلى إلا من خلال الممارسة العملية ، ويكفى لتجليه هذا المعنى قول الله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ حُنِينٍ إِذَا أَخْبَيْتُكُمْ كُثُرَتُكُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبْتَ ثُمَّ وَلَيْسَ مُدَبِّرِينَ ﴾ (٢٥) ﴿ التوبه ﴾ .

فلم تجد ألف مزينة ، ولا الفوارس ألف لسليم ، ولا الأعداد الضخمة من شيء في تحقيق النصر .

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الدِّينِ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) ﴿ التوبه ﴾ .

لقد آمن الكفار قبل المسلمين عملياً بأن النصر من عند الله ، من خلال ما واجهوا من الرعب ، وما واجهوا من أثر الرمية الحصباوية في أعينهم ، وما شاهدوا من الرجال البيض على الخيل البليق الذين يصدونهم .

نحن اليوم نقرأ الآيات بعد خمسة عشر قرئاً من الزمان ، ونحاول بالكلام البليغ تصوير ذلك النصر وتلك الهزيمة فيزداد إيماننا بالحديث حتى المستفيض عنها ، فكيف بالذين عاشوها هرباً واستجابة ورعباً ورؤياً ، وحين نود اليوم أن نحيي هذا المعنى في نفوس الناس وعاتهم إنما نحييه من خلال الانتصارات العملية اليوم للمستضعفين في الأرض على أعتى دول الأرض ، وما انتصارات الأفغان والشيشان على الروس منا ببعيد ، ولا بث الرعب في صف اليهود من الفدائيين الإسلاميين في الأرض المحتلة منا ببعيد ، ومعركة واحدة يخوضها المسلم اليوم ويشهد بها نصر الله رغم قلة السلاح والزاد عنده وأجرم وأفقر السلاح عند عدوه ، إن معركة واحدة يخوضها المسلم أغنی من قراءة آلاف الكتب والقصائد والمحاضرات عن هذا المعنى ، وكما علق أحد المجاهدين الأفغان وهو يسمع المحاضر يشرح غزوة بدر فقال : إننا في كل يوم ، وفي كل معركة عندنا بدر جديدة .

٧ - التربية بالمعجزة على المستوى الفردي :

فهذا شيبة بن طلحة الذي لم يعد بينه وبين رسول الله ﷺ إلا أن يحتوشه بالسيف من خلفه .

(فلم يبق إلا أن أسروره بالسيف إذ رفع ما بيني وبينه شواط من نار كأنه برق ، وخفت أن يمحشني ، ووضعت يدي على بصرى ، ومشيت القهقرى ، والتفت إلى فقال : « يا شيب أدن مني » فوضع يده على صدرى وقال : « اللهم أذهب عنه الشيطان » . قال : فرفعت إليه رأسى ، وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبي ثم قال : « يا شيب ، قاتل الكفار » فتقدمت بين يديه أحب والله أقيه بنفسى ويكل شىء ، فلما انهزمت رجع إلى منزله ودخلت عليه فقال : « الحمد لله الذي أراد بك خيراً مما أردت » ثم حدثنى بما هممت به) . وذاك أنحو سعد هذيم يتحدث في تبوك عن طعام رسول الله ﷺ : (ثم جنته من الغد متخيلاً لآرداده في الإسلام يقيناً ، فإذا عشرة نفر حوله قال : فقال : « هات أطعمنا يا بلال » . قال : فجعل يخرج من جراب ثغر بكفه قبضة . فقال : « أخرج ولا تخف من ذى العرش إقتاراً » فجاء بالجراب فتشره ، فحرزته مدين ، قال : فوضع رسول الله ﷺ يده على التمر ثم قال : « كلوا باسم الله » فأكل القوم وأكلت معهم ، وكنت صاحب ثغر ، فأكلت حتى ما أجد له مسلكاً ، وبقى على النطع مثل الذى

جاء به بلال ، كأنما لم نأكل منه قرة واحدة ، ثم عدت من الغد وعاد نفر حتى باتوا فكانوا عشرة أو يزيدون. فقال : « كلوا باسم الله » ، فأكلنا حتى نهانا ، ثم رفع مثل الذى صب ، ففعل ذلك ثلاثة أيام .

هذه التربية التى تدخل الإيمان فى النفس أو تزيده أضعافاً مضاعفة ، قد لا تملكونها فى وقتنا الحاضر ونحن نربى كل فرد على حدة ، لكن الذى تملكه هو حسن التعامل مع الفرد ، وحسن الاهتمام به . والعفو عن زلاته والإحسان إليه ، بحيث يفقه هذا الدين من هذه المعاملة فيؤمن أو يزداد إيماناً كذلك .

٨- التربية بالمعجزة على المستوى الجماعي :

وذلك حين يشهد الجيش كله معجزة نبوية ، كما هو الحال فى تنزيل الملائكة ورمى التراب يوم حنين ، وما تم من إطعام الجيش كله وإسقائه فى تبوك ، والجماعة المسلمة لا تملك المعجزات اليوم ، ولكنها تملك حين تستقيم على منهاج الله الكرامات التى يسوقها الله تعالى لأوليائه فى كل عصر ، فما يصرف الله تعالى من كيد العدو ، وما يبعث من برkat السماء والأرض ، وما يهين من قوة للجماعة من حيث لا تخسب كلها وسائل تغذى النفوس العامة وتربيتها ، وترتبطها مع العاملين لله فى الأرض .

والنماذج الثلاثة شهدتها الذين أقاموا شريعة الله فى السودان ، بحيث لم يكونوا يملكون الوسائل البشرية فى مثل هذا التغيير ، من حيث خصب الأرض ومضاعفة الإنتاج ، ومن حيث مهادنة كل العدو لهم فى مرحلة التأسيس والبناء ، ومن حيث تهيئة السلاح للجيش المسلم فى عرض البحر وفى السفن التى تحمله ، وحين تصدق الجماعة المسلمة مرة مع الله تعالى تلقى التوفيق والرعاية والنصر مرات ومرات ، كما وعد الله تعالى عباده المؤمنين .

« فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبسطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولشن سالنى لاعطينه ، ولكن استعاذنى لاعيذنى » .

٩- دور المرأة فى المعركة :

وعلى الدعاة إلى الله أن يتعاملوا مع المرأة المسلمة بحيث تؤدى دورها الحقيقى فى الساحة الإسلامية ، من حيث شحذ طاقاتها ، وتهئتها للدعوة والذود عن الدين ، والجهاد فى سبيله وفقه هذا الدين ، والصبر على تكاليفه ، والتضحية من أجله ، وإهمال المرأة المسلمة هو خط جاهلى منحرف يعود بجذوره إلى الفكر الجاهلى الذى حدثنا عنه عمر رضي الله عنه : وكنا لا نعد النساء شيئاً ، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، فهو لاء الرائدات اللاتى دخلن الحرب بجوار رسول الله صلوات الله عليه وسلم فى حنين مع أنهن قد يتعرضن للبسى لو وقعت

الهزيمة ، وهنَّ من كرائم النساء العريقات نسبياً وخلقاً .

قالت أم عمارة : (لما كان يومئذ والناس منهزمون في كل وجه ، وأنا وأربع نسوة في يدي سيف لى صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمه على وسطها ، وهى يومئذ حامل بعد الله بن أبي طلحة ، وأم سليط وأم الحارث ، فجعلت تسله وتتصبع بالأنصار : أية عادة هذه ، مالكم وللفرار ، قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء ، يوضع جمله في أثر المسلمين ، فأعترض له ، وأضرب عرقوب جمله فوق على عجزه ، فأشد عليه ، فلم أزل أضربه حتى أثبته ، وأخذت سيفاً له وتركت الجمل بخرخر) .

وحين يعود المؤمنون إلى بيوتهم فينقلبون بالحديث عما رأوا من معجزات وما فقهوا وما تعلموا ، وتلك أم سلمة رضي الله عنها تستاذن رسول الله ﷺ في تشير الناس بتوبة كعب بن مالك ، بينما تقاطع النسوة الثلاثة أزواجهن بأمر رسول الله ﷺ لتخلفهم عن الجهاد ، ويتسابقن في البذل يوم جيش العسرة (حتى إن كن النساء ليعنَّ بكل ما قدرن عليه ، قالت أم سنان الإسلامية : لقد رأيت ثواباً مبوسطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسك ومعاضد وخلال وأقرطة وخواتيم وخدمات ، مما بعث النساء يعنَّ به المسلمين في جهارهم) .

١٠ - معرفة العدو :

وهذه من أكبر الثغرات التي يؤتى منها العاملون للإسلام اليوم ، فهم يجهلون عدوهم ، وقوته ، وتنظيمه ، وينطلقون في جهادهم من خلال آيات التوكيل العامة ، وهذا ليس هو المنهج الإسلامي الصحيح ، لقد خاض رسول الله ﷺ غزوة حنين ، وهو يعرف كل شيء عن العدو ، فقد انتهى الجاسوس الإسلامي إلى موقع القيادة واطلع على خططها (ودعا رسول الله ﷺ ابن أبي حدرد الإسلامي ، فقال : « انطلق فادخل في الناس حتى تأتى بخبر منهم ، وما يقول مالك » . فخرج عبد الله فطاف في عسكرهم ثم انتهى إلى ابن عوف فيجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لاصحابه : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغاراماً لا علم لهم بالحرب فينصر عليهم ، فإذا كان في السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من وراءكم ، ثم صفوا صفوفكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيفكم فتلقوه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن العقبة لمن حمل أولاً) .

وعندما يبعث بخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أكيدر بن عبد الملك (فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لي به وسط بلاد كلب ، وإنما أنا في أناس يسير ؟ فقال رسول الله ﷺ : « استجلده يصيد البقر فتأخذه ») .

بل كان عليه الصلاة والسلام يعرف موقع قيادة العدو في جيشها وأمتها ، فعندما قُتل اللجاج في غزوة حنين قال : « قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة » ، فهو عليه الصلاة والسلام يدرى تسلسل القيادات الكبرى والفرعية في الشرف والعز ، بل يعرف كذلك حتى عواطف هذه القيادات فحين قيل له قتل عثمان بن عبد الله ، وهو القائد الثالث في ثقيف ، قال : « أبعده الله فإنه كان يبغض قريشاً » .

وعلى العاملين للإسلام أن يعوا هذا المعلم وعيًا جيداً ، ورغم أن رسول الله ﷺ إمام المتكلمين في الأرض ، فما كان ليخوض معركة أو يقاتل عدواً إلا والمعلومات عنده كاملة عنه ، كما شهدنا من قبل حتى في الجاه عواطف هذه القيادات .

١١ - آداب الحرب :

وللحرب في الإسلام آداب وجّه رسول الله ﷺ إلى قسم منها . بقوله : « اغزوا باسم الله قاتلوا من كفر بالله ، وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تعرضوا لهم ، لا تقتلنَّ امرأة ولا صغيراً ضرغاً ولا كبيراً فانياً ، ولا تقربنَّ نخلاً ، لا تغدروا ولا تغلوا ، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوههم إلى إحدى ثلاث فايتهم ما أجابوكم إليها فاقبلو منهم وكفوا عنهم الأذى » .

هذا في المجال النظري ، وفي التطبيق العملي : (رأى رسول الله ﷺ امرأة مقتولة فقال : « ما هذا ؟ قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد : فأمر رسول الله ﷺ رجالاً يدرك خالداً فقال : إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل امرأة أو عبيداً) وعندما وجد امرأة مقتولة أخرى وعرف أنها مقاتلة ، وحاولت اغتيال قاتلها (فأمر رسول الله ﷺ فدفت) ونهى عن قتل الأسرى ، وقتل الرسل ، (وأسرع المسلمين في قتل الذريّة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ألا لا تقتل الذريّة » (ثلاثة) . قال أسيد ابن حصير : يا رسول الله ، أليس إيمانهم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس خياركم أولاد المشركين ، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فابوهاها يهودانها أو ينصرانها » ورسول الله ﷺ لا يقتل بالإشارة « ما كان لنبي أن يومئ » وذلك حين توقف عليه الصلاة والسلام عن قبول توبه عدو لعدو ليقوم من نذر قتله بقتله ، ولما تأخر قبل توبته ، فهى حرب عقيدة وليس حرب إففاء ، وقتل للأمنين وسفك لدمائهم ، إما يقاتل المقاتلون ، ونهى عن المثلثة في الحرب وعن تعذيب وتحميم الأسرى ، وطلب الإحسان حتى في القتل .

١٢ - التربية على فطم الشهوات :

فجيش العقيدة ليس همه قتل الرجال وسبي النساء وحوزة الغنائم كما كان الحال عند

العرب في القرون الخالية كلها ، فدينهم أن يقتل بعضهم بعضاً ، أما الجيش الإسلامي فلا بد أن يتربى على الآداب السابقة كلها .

ولا يقتل من يقول لا إله إلا الله أياً كانت دوافعه لذلك ، والجيش الإسلامي يجب أن يكون أكبر من شهوات بطنه ولباسه فالغناائم لا يؤخذ منها جبة قبل توزيعها من قيادة الجيش الإسلامي ، وحتى يعلم رسول الله ﷺ هذه الآلاف على هذا الأدب (وجعلت الأعراب في طريقه يسألونه ، وكثروا عليه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فتركته عن مثل شقة القمر ، فوقف رسول الله ﷺ وهو يقول : « أعطوني ردائى ، لو كان عدد هذه العضة (الشجر) نعمًا لقسمته عليكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذاباً » ثم لما كان عند القسم قال : « أدوا الحياط والمحيط ، وإلياكم والغلول فإنه عار ونار وشمار يوم القيمة » ثم أخذ بيرة من جنب بغير ، فقال : « والله لا يحل لى مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه الوبرة إلاخمس ، والخمس مردود عليكم ». فجاءه رجل من الانصار بسبعين من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الكعبة أعمل بها برذعة بغير لى دير . فقال : « أما نصبي منها فهو لك » وإذاً عليه أن يستأذن اثنى عشر ألف مقاتل ليتنازلوا عن حقوقهم فيها ، وكما رياهم على الصبر على توزيع الغنيمة ، وإن أخذ أصغر جزء منها قبل توزيعها هو غلول ، وعار ونار يوم القيمة ، عاد فرياهم على الإيثار يوم انتزع منهم السبايا ، وهذه أشد على النفس أن تؤخذ منها بعد امتلاكها .

وفي تبوك ما هو عليه الصلاة والسلام يفطم نفسه حتى عن الطعام والشراب ففي الحجر ، وبعد أن عجبنا العجين ولم يق إلا الخبز حتى يتناولوه شهياً طرياً ، والشرب لم يشرب ، قطرة ماء تحبه في هذه الصحراء ، كما يذكر أبو هريرة رضي الله عنه (لما مررت بالحجر استقى الناس من بترها وعجبنا ، فنادي منادي النبي ﷺ : « لا تشربوا من مائها ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان منه من عجين فأعلفوه الإبل » قال سهل بن سعد : كنت أصغر أصحابي وكانت مقربيهم ^(١) في تبوك ، فلما نزلنا عجنت لهم ثم تحبست العجين ، وقد ذهبت أطلب حطباً ، فإذا منادي النبي ﷺ ينادي : إن رسول الله ﷺ يأمركم إلا تشربوا من ماء بترهم ، فجعل الناس يهركون ما في أسيتها ، قالوا : يا رسول الله ، قد عجبنا ، قال : « أعلفوه الإبل » قال سهل : فأخذت ما عجنت ، فعلفت نضوين ^(٢) ، فهما كانا أضعف ركابنا) . فكيف بهذه النفوس التي كانت تنتظر اللحظة لنضج الخبز ، وقد اطمأنت للماء في الأسقية ، تصدر الأوامر بإعلاف الخبز للإبل وإهراق الأسقية ، كم هي معاناة هذا الجيل وسبل صبره على الجوع والعطش ، وسبل استعداده للطاعة في المشقة والكره ؟ !

(٢) نضوين : بغيرين ضعيفين .

(١) مقربيهم : مضيقهم .

١٣ - تأليف قلوب القيادات الجاهلية :

هذه القيادات التي لا تزال تعيش في كيانها أن القيادة سُلطة ومال ومجده ، وهو هي انضمت إلى المعركة ، وقاتلت مع رسول الله ﷺ، وستعود إلى عشيرتها لتقصد من أفراد هذه القبائل ، ويتحدثون عن كرمها وجودها ، فهل تعود حالية الوفاض ، وتنتقضى أقدارها بالإسلام ، ويضعف كيانها بهذا الدين ؟ لقد أدرك القائد العظيم هذه المعانى فالف هذه القلوب الخائفة الراهبة بالرغبة والمال ، ووزع على أكثر من مائة شخصية النعم والشاء . ابتداء من أصحاب المائة إلى الخمسين إلى العشر من الإبل ، وافتتحت هذه القلوب للرسول ﷺ وللإسلام بماله ، حيث يمثل هذا الواقع هذه الصورة (ويقال : إنه - أى صفوان بن أمية - طاف مع النبي ﷺ يتصرف الغنائم ، إذ مر بشعب مما أفاء الله عليه فيه غنم وإبل ورعاوها مملوء ، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : «أعجبك يا أبي وهب هذا الشعب ؟ » قال : نعم . قال : « هو لك وما فيه » فقال صفوان : أشهد ما طابت بها نفس أحد قط إلا نبي ، وأشهد أنك رسول الله) . وضممان هذه القيادات هو ضمان لعشائرها جمِيعاً أن تأوى إلى الإسلام .

١٤ - عالم القيم :

وكان مثل هذه العطايا أن تكونَ نوعاً من التلق في صفوف القواعد الإسلامية أمام هذا العطاء للقيادات التي كانت قبل أيام وشهرور قد أمضت حياتها في حرب الإسلام، بينما هناك الفقراء المدقعون المؤمنون لا ينالون بغيراً واحداً علاوة على حقهم الذي أخذوه من الغنيمة، فهل هذا يجعلهم أدنى رتبة من أولئك الزعماء ؟ يجيئنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن هذا السؤال :

قال سعد : (يا رسول الله ، أعطيت عينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ، فقال رسول الله ﷺ : « أما والذى نفسى بيده بجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عينة والأقرع ، ولكنى تائفهما ليسلاما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه » .

فماذا يريد جعيل من الدنيا بعد أن قال عنه قائد وحبيبه المصطفى ﷺ أنه خير من طلاع الأرض كلها مثل زعيمى غطفان وتميم ؟ وتلك صورة أخرى عن صحابى آخر من الرغيل الأول :

(حدثى عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين ، فكأنهم عتبوا عليه فقال : « إنى أعطى قوماً أخاف ظل عليهم وجزعهم ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء ، منهم عمرو بن تغلب » ، فقال عمرو بن تغلب : ما أحب

أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم) .

إن هذه الكلمة ومفعولها السحرى فى قلب عمرو أكبر عنده فيما لو قيل له : خذ هذه غنائم حنين كلها : أربعة وعشرين ألف بعير لا تعدل عنده هذه الكلمة ، وهذا هو الفرق الهائل بين الرعيل القيادى الأول ، وبين الجيل الذى يبدأ بوضع خطواته الأولى فى هذا الدين .

١٥ - جيل الفداء والعطاء يربى الأمة :

فهؤلاء السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار مثلوا القدوة العليا للكتائب الإسلامية ، مثلوها أولاً فى أنهم فى ساعة الفداء والموت وفي ساحة الموت كانوا هم الذين استجابوا لله ولرسوله ، لقد كان المطلوب من الجيل القيادى جيل بدر والحدبية أن يكون هو القدوة فى الفداء والتضحية ، ومن أجل هذا توجه النساء لهم عامة (يا معشر الانصار ، يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون : يا ليك ، يا ليك ، فيذهب الرجل منهم فيشيء بغيره فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقدمها فى عنقه ، ويأخذ ترسه وسيفه ثم يقتسم عن بعيره فيدخل سبيله فى الناس ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا ثاب إليه الناس اجتمعوا ، فكانت الدعوة أولاً يا للأنصار ، ثم قصرت الدعوة فنادوا ، يا للخررج ، وكانتا صبرًا في الحرب صدقاً عند اللقاء ، فأشرف رسول الله ﷺ كالتطاول في ركائهما فنظر إلى قتالهما ، فقال : « الآن حمى الوطيس ») .

وهم هم أنفسهم كانوا القدوة العليا فى التربية فى الإيثار حين لم يأخذوا شيئاً من الغنائم ، وعيتوا على حببهم وقائدهم وخسروا أن يكون هذا الأمر عن تقصير أو خلل منهم فكان الجواب النبوى : (« أوجدتكم يا معشر الانصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليس لهم ، ووكلتم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ... » فبكى القوم حتى أخذلوا لحفهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا) وهذه سمة أساسية من سمات التربية الجماعية أن يقوم الرعيل الأول بتربية الجيل الواجب الجديد بسلوكه العملى أمامه ، فينسج على منواله ، ويتربى على قيمه .

١٦ - معالجة الثأر وحرمة الدم :

وهي أحضر قضية كان المجتمع الجاهلى يعاني منها ، ويريد الإسلام أن يرتفع بهؤلاء من هذه الوهدة السحيقة إلى الذروة العالية ، من القبيلة إلى الأمة ، ومن الثأر للنفس إلى الثأر لدين الله ، وبمقدار ما بذل رسول الله ﷺ من جهد فى امتصاص نفحة الثأر

حتى قبل الأولياء بالدية ، بمقدار ما رفض توبه القاتل محلم بن جثامة (قال : قد كان من الأمر الذى بلغكم فإنى أتوب إلى الله تعالى فاستغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال : أنا محلم بن جثامة . قال : « قتلت بسلاحك فى غرة الإسلام ، اللهم لا تغفر لمحلم » بصوت عال يتفقد به الناس ، قال : يا رسول الله ، قد كان الذى بلعك ، وإنى أتوب إلى الله فاستغفر لى ، فعاد رسول الله بصوت عال يتفقد به الناس : « اللهم لا تغفر لمحلم » حتى كانت الثالثة فعاد رسول الله ﷺ لمقاتله ثم قال له : « قم ». فقام وهو يتلقى دمعه بفضل ردائه ، وكان ضمرة السلمى يحدث قال : كنا نتحدث فيما بيننا أن رسول الله ﷺ حرك شفتيه باستغفار له ، ولكنه أراد أن يعلم قدر الدم عند الله .

١٧ - تطبيق الحدود :

وحيث تقوم دولة الإسلام تقوم معها حدود الله ، وتطبق شرائع الإسلام ، وما الجهاد كله إلا وسيلة للوصول إلى هذه الغاية ، وتنتقل العشيرة إلى الأمة والدولة ويصبح القصاص حق السلطان لا تنفيذه الفرد ، فجئه رسول الله ﷺ بقتيل قته ليث ، فنفذ القصاص فى قاته ، وأروع ما فى هذا القصاص هو ما لم تشهد الدنيا مثيلاً له ، هو قصاصه من نفسه ﷺ كما حدثنا أبو رهم الغفارى (إذ كان يسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة له ، وفي رجله نعلان غليظتان ، إذ رحمت ناقته ناقه رسول الله ﷺ ووقع حرف نعله على ساقه فأوجعه ، فقال رسول الله ﷺ : « أوجعتنى وأخر رجلك » وقع رجله بالسوط ، فأخذنى من أمرى ما تقدم وما تأخر ، وخشيته أن ينزل في القرآن العظيم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة ، خرجت أزوعى الظهر وما هو يومى فرقاً أن يأتى النبي ﷺ ورسول الله يطلبني ، فلما رأوا روح الركاب سالت فقالوا : طلبك رسول الله ﷺ ، فجئته ، وأنا أترقب فقال : « إنك أوجعتنى برجلك ، فقرعتك بالسوط ، فخذ هذه الغنم عوضاً عن ضربتى » .

قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلى من الدنيا وما فيها) .

وبعد عودته ﷺ من حنين كان أول ما عمله بعث المصدقين في هلال المحرم - أي الذين يجمعون الزكاة من كل القبائل التي دانت بالإسلام ، تنفيذاً لقوله عز وجل : «**الَّذِينَ إِنْ مَكَثُوكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوكُمُ الزَّكَاةَ وَأَمْرُوكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** (٤) [الحج] .

١٨ - ربح قلوب العدو بإعادة خسائره :

حيث نفذ هذا تنفيذاً دقيناً في إعادة سبابا هوازن ، والذين استعطفوه بالرحم ،

وباللبن الذى رضعه منهم كما يقول شاعرهم :

امن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من محضها الدرر

ثم علمهم طريقة الحصول على سباباهم بقوله : إننا لستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبال المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، وذلك على ملاً عظيم من المسلمين فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « أما ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم » وقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، أما الأقرع بن حابس فقال : « ما كان لى ولبني تميم فلا » ، وقال عبيدة بن حصين : أما أنا وفزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وأبو سليم فلا ، فقالت سليم : فما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وحيث إن القضية تطوعية ، وليس بأمر رسمي يعلم هذا الموقف حكام الأرض ، وقادة الدعوة ، أن الحق غير المفروضة لا تتزعزع اغتصاباً بسلطة الدولة ، إنما بالرضا الشخصى ، وهو ما رأينا قد فعله عليه الصلاة والسلام مع مالك بن عوف حين أعاد له ماله وأهله ، وما فعله مع أكيدر بن عبد الملك حين ترك له أن يقدر الجزية عليه وعلى قومه .

١٩ - رفض سحق الفرد من خلال التربية الجماعية :

وهي التى ترد عقب السمة السابقة ، فقد اختلفت المواقف والأراء فيما رضى بالتطوع ومن لم يرض ، وحيث لا يجوز أخذ درهم واحد بقوة السلطان والقانون وقف رسول الله ﷺ يعلن : (« فمن كان عنده شيء منها منهن (أي السبابا) فطابت نفسه أن يرده فليرسل ، ومن أبى منكم وتمسك بحقه ، فليزيد عليهم ، ولو يكن فرضاً علينا له ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا ؟ » (أي ست جمال ثمن الجارية التى يطلقها) .

قالوا : يا رسول الله ، رضينا وسلمتنا : قال : « فمروا عرفاءكم أن يدفعوا إلينا ذلك حتى نعلم » ، فكان زيد بن ثابت يطوف على الأنصار يسألهم : هل سلموا ورضوا ؟ فخبروه أنهم سلموا ورضوا ، ولم يختلف رجل واحد ، وبعث عمر بن الخطاب غوثاً إلى المهاجرين يسألهم ذلك فلم يختلف رجل واحد ، وبعث أبا رهم الغفارى إلى قبائل العرب ، ثم جمعوا العرفاء ، واجتمع الأماء الذين بعضهم رسول الله ﷺ ، فاتفقوا على قول واحد تسليمهم ورضاهما ، ودفع ما كان فى أيديهم من السبي ، فكانت المرأة التى عند عبد الرحمن بن عوف قد خيرت : تقيم أو ترجع إلى قومها ؟ فاختارت قومها فردت إليهم ، والتى عند على وعثمان وطلحة وصفوان بن أمية وابن عمر رجعن إلى قومهن ، وأما التى عند سعد بن أبي وقاص فاختارت سعداً ولها منه ولد) .

٢٠ - الحيلولة دون الاستغلال واستثمار السلطة :

فقد ظهرت بوادرها عندما جاء أحد موظفى الزكاة ليعلن لرسول الله ﷺ : هذا لكم وهذا أهدى لي ، وتكون هذه بنور البيروقراطية وسلطتها فتكون الطبقة الحاكمة فجاء الامر النبوى الخامس : (قفam النبى على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال العامل نبعه فىأى يقول : هذا لكم وهذا أهدى لي ، فهلاً جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أىُهدى له أم لا ؟ والذى نفسى بيده ، لا يأتى بشيء إلا جاء به يوم القيمة يحمله على رقبته إن كان بعيداً له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر - ثم رفع يديه حتى رأينا عفريت ايطيه - ألا هل بلغت ؟ ثلاثة) .

٢١ - نشر الدعوة ماض بجوار إقامة الدولة :

فالدعوة إلى الله تبقى هدفاً لا يتزعزع ولا يتراجع لحظة واحدة ، بعد أن بعث رسول الله ﷺ المصدقين بجباية الزكاة ، بعث العبريات الإسلامية والتى مارست طاقاتها فى المجال العسكرى ليكونوا دعاة إلى الله فى الأرض العربية ، ورسل هدى فيها ، فمضى عمرو بن العاص خاتم إلى عمان داعية لملوكها الجلندى وابنته ، ولم يعد إلا بدخول عمان فى الإسلام ودخولها فى صفحاته إلى يوم القيمة خاتم ، وبعث خالد بن الوليد إلى اليمن ، وعلى بن أبي طالب إلى اليمن حيث أثمرت دعوه على خاتم بانضمام همدان إلى الإسلام ، وبعث شخصيات القبائل لتقيم فى صفوف قبائلها تدعوهم إلى الله وتفقههم فى الدين ، وما كانت غزوة تبوك إلا مدرسة دعوية أقيمت لمدة شهرين . عبر عنها القرآن الكريم بالقول : **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَقْرُرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنَذِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) [التوبه] ،** وما كانت تبوك إلا فرصة ليقوم جيل المهاجرين والأنصار عامه والسابقين منهم خاصة بتربية الجيل الواعد الجديد في رحلة الثلاثين ألفاً .

٢٢ - جذب الطاقات الكبرى للدين الله :

وعوضاً عن تنفيذ حكم الإعدام بالاعداء الألداء ، فقد كانت التربية النبوية العظمى تسعى جاهدة لافتتاح قلوب هؤلاء الخصوم للإسلام ، وتسخير طاقاتهم وعياراتهم فى خدمة دين الله عز وجل ، فكعب بن زهير الذى أهدر دمه يغدو شاعر الإسلام بعد إسلامه ، وعباس بن مرداش السلمى ، يملا الدنيا بشعره الإسلامي ، وعدى بن حاتم يقود قومه طيباً إلى الإسلام ، والمنذر بن ساوى العبدى فى البحرين يقود قومه إلى الإسلام ، وعروة بن مسعود يحاول ذلك فى ثقيف وهو سيد قومه ، ويمضى شهيداً على طريق الدعوة ، بينما بقيت بعض القيادات كافة أذها عن المسلمين كما هو الحال فى قيادات

غطfan و عامر و قيم ، إذ لم تختلط الدعوة بشاشة صدورهم و تمثل بهم قول الله سبحانه و تعالى : « قالت الأعراب أئنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمتنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيووا الله و رسوله لا ينفعكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » (١٦) [الحجرات] .

٢٣ - استفقاء :

ولعلها أول تجربة لسير الرأي مست كل فرد في الجيش أو ما يسمى اليوم بالاستفقاء ، بحيث يتحقق لكل فرد فيه أن يقبل التنازل عن النبي أو يرفض أو يقبل مع التعويض ، لقد كان الفرد يذوب في كيان القبيلة ، فقول سيده ينوب عنه لكنه وفي أول تجربة لاعتبار الفرد بشخصيته المستقلة المتميزة بحيث يتاح له أن يخرج عن رأي زعيم عشيرته ، وكما هو النص في البخاري : « إنا لا ندرى من أذن في ذلك من لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاءكم أمركم » فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا . فهذا درس لابد أن يفقهه الدعاة بأنه سمة رئيسية من سمات العمل الإسلامي الجماعي بحيث لا يجري بحق الأمة شيء يهمها ويتحقق مصلحتها إلا و تستفني عليه على المستوى الشخصي .

٢٤ - وضع الرجل المناسب في الموقع المناسب :

وهو أكثر ما نراه واضحًا حين استعمل رسول الله ﷺ عينة بن حصن على سرية من سراياه ، وقد شهد منه مواقف في مسيرته معه لا تطمئنه له ، وهو صاحب طاقات عليا في القيادة و حرب الصحراء ، فكيف يستفيد من هذه الطاقات ، وقد قدم نفسه لذلك .

كانت عظمة التربية النبوية أن سلمته قيادة سرية تتجاوز المائة ، وكلهم من الأعراب ليس منهم مهاجرى أو أنصارى واحد ، فهو لا يسهل أن يدينون لزعامته ، ولم يرض عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم أحداً من السابقين الأولين ، وخبرة رسول الله ﷺ بمعدنه دفعته لذلك ، بينما لم يجد عليه الصلاة والسلام حرجاً أن يجعل كبار المهاجرين والأنصار تحت راية عمرو بن العاص وهو حديث الإسلام في غزوة ذات السلاسل ، خبرته كذلك في معدن عمرو رضي الله عنه ، وأنه قد نفذ الإيمان إلى قلبه إلى درجة قال فيه عليه الصلاة والسلام : « أسلم الناس وأمن عمرو بن العاص » ولم يكن عينة كذلك .

وذاك آخر صداء يرد على رسول الله ﷺ إمرته على قومه من خلال التربية العملية التي تمت له .

(قال : يا رسول الله ، اعفني من هذين الكتابين ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بدا لك ؟ » فقلت : سمعتك تقول يا رسول الله : « لا خير في الإمارة لرجل مؤمن » ،

وأنا مؤمن بالله تعالى ورسوله ، وسمعتك تقول للسائل : من سأل الناس عن غنى ، فصداع في الرأس وداء في البطن ، وقد سألك وأنا غنى .

قال : « هو ذاك فإن شئت فاقبل ، وإن شئت فدع » . فقلت : أدع . فقال لي رسول الله ﷺ : « فدلي على رجل أومره عليكم » فدللته) .

٢٥ - اتخاذ القرار الحاسم في اللحظة المناسبة :

فقد اتخذ رسول الله ﷺ قرار المواجهة مع الروم وليس بين يديه درهم واحد ينفقه على تعبئة الجيش ، لكن معرفته بما عنده من رصيد إيماني بشري ومادي . بعد الثقة بالله تعالى والتوكيل عليه ، وكان صواب القرار في أن جهز ثلاثة ألف مقاتل بكل ما يحتاجون من عتاد وعدة ، ونجحت هذه المناورة العسكرية في استسلام الشمال الغربي كله لرسول الله ﷺ ومهادنته قيصر له ، وليس القرار مجرد حماس طاغٍ لا رصيد له من الواقع ، ومهمة القيادة المسلمة دائماً أن تكون على بصيرة برصيدها الحقيقي ، وتعلم على استعماله بأقصى طاقاته وإمكاناته .

٢٦ - دور المال في بناء الدعوات :

وشهدنا كيف تحken الرعيل الأول وحده من حمل ثقل أكثر من نصف المعركة وتوزعت مسؤولية النصف الثاني على بقية المجاهدين ، وحرص رسول الله ﷺ على أن يوظف قليل المال وكثيره لصالح معركته مع العدو ، وكانت فرصة ثمينة لكشف هذه المعادن الثمينة المخبأة في الاستجابة للدعوة النبوية الكريمة في البذل ، وقد شهدنا المال في حين يكسب قيادات العرب من خلاله إلى الإسلام .

إن الزعيم العربي من خلال المال تبرز زعامته حتى يشتهر جوده وكرمه ، وحتى يعيث الحرب ضد عدوه ، وقد انضمت تلك القيادات إلى رسول الله ﷺ على مضض وبدافع الخوف ، وليس عندها قيم أعظم من قيمة المال آنذاك ، فجاءت غنائم حنين لتفعل على الساحة العربية ما لم يفعله زعيم قبله ، حتى ليقول أبو سفيان : يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريش مالاً ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : أعطي من هذا المال يا رسول الله ، قال يا بلال : « زن لأبي سفيان أربعين أوقية ، وأعطيه مائة من الإبل » ، قال أبو سفيان : يا رسول الله ، أربعين أوقية ، وأعطيه مائة من الإبل » ، قال أبو سفيان : أبني معاوية يا رسول الله ، قال : « زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطيه مائة من الإبل » ، قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبي وأمي ، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسلط أنت ، جزاك الله خيراً .

٢٧ - الاهتمام بال التربية العلمية أكثر من النظرية :

فالمجيش الإسلامي سار من المدينة إلى تبوك ، ولم نسمع أن رسول الله ﷺ ألقى خطبة واحدة ، لكن التربية لم تقطع طيلة الطريق في كل جانب في المعجزات النبوية وفي الشاء على المجيدين أمثال أبي ذر وأبي خيثمة اللذين لحقا بالركب النبوى بعد انقطاعهما عنه ، وأخذ الرأبة من عمارة بن حزم إلى زيد بن ثابت لأنه أكثر أخذًا للقرآن ، والتعليمات المشددة عندما هاجت الريح « فلا يقون أحد منكم إلا مع صاحبه ، ومن كان له بغير فليوثق عقاله » والمنع من الشرب من ماء الحجر ، والاستسقاء عندما قل الماء ، وصلة عبد الرحمن بن عوف بالناس ، والمزنى الذي التحق برسول الله ﷺ الذي حرم دمه على الكفار ، وقيامه بدفعه عند موته ، كل هذه الأمور كان رسول الله ﷺ يوجهها في عملية البناء والتربية ثناء أو منعاً أو كراهة أو وصفاً أو دعاءً أو استبشاراً أو غير ذلك .

٢٨ - التوجيه العام في الوقت المناسب :

فال التربية النظرية إنما قامت خلال العشرين يوماً التي أقام فيها رسول الله ﷺ في تبوك ، بحيث جمع كثيراً من معانى الإسلام في خطبة واحدة ودخول المعجزات الكبرى على مستوى الجيش كله ، في إطعامه وإسقائه ، وقيام الراعيل الأول بالتوجيه للمسلمين حديثي الإسلام ، وتعليمهم الإسلام لهم ، وشهاد المسلمين لرسول قيسر الذي جاء مهادئاً لرسول الله ﷺ يحمل معه الهدايا والتحف للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكمن يكون لها من دور في رفع معنويات الجيل المسلم الذي أصبح يتحدى الروم في عقر دارها .

والعملية الفدائية الضخمة في أسر أكيدر بن عبد الملك الذي يمثل أكبر معاقل الروم في جزيرة العرب .

كل هذه أمور كانت توظف في بناء هذا الجيل وربطه بالإسلام والمسلمين .

٢٩ - الخذر من الخطير الداخلى في الصف :

والذى كان يمثله التفاق الذى لم يخطط على المستوى العالمى مثل ما خططت هذه المرة ، من حيث بناء مركز رسمي له في مسجد الضرار ، وذهب أبو عامر الفاسق ليستجده بقوات من إمبراطور الروم ، وتخطيط اغتيال رسول الله ﷺ عند مروره من العقبة ، والعمل على تشويه الهمم وبث الإشاعات في الصف المسلم ، وسلق المؤمنين بالألسنة الخداد فيما بينهم حين يستخفون بالقراء صالحى الأمة ، ويتهمنهم بالكذب والجبن ، وبالحقيقة إلى كل مخطط أو تأمر يمكن أن يقع منهم ، ومتتابعة أبعاده وملحقتها بعين ساهرة حتى ليدرك الطفل أبعادها وينقلها لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفضح كل كلمة أو تصرف أو محاولة يمكن أن تمس الصف المسلم .

٣٠ - فن التعامل مع هذا العدو الداخلي :

والذى تم التوازن فيه بين إحباط المخططات كلها ، وعدم التساهل عن كل نأمة أو إشارة ، وبين الابتعاد عن استعمال القتل والقوة في التعامل معه ، حفاظاً على السمعة الخارجية للجماعة المسلمة ، وحتى لا يؤدى ذلك إلا التراجع عن الانضمام للإسلام خوفاً من العاقبة على الخطأ . والعمل على تعرية زعماء النفاق بحيث يكشفون ، ويحسن رسول الله ﷺ معاملتهم ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، ويحرق الكافرون والذين في قلوبهم مرض . بتخلّى أقرب الناس منهم ، ويرز ذلك بأجل صورة في التعامل مع عبد الله بن أبي زعيم النفاق الذي صرّع النفاق معه حيث حضر رسول الله ﷺ دفته وكفن بقميصه ، وحيل بينه وبين حزبه ، واعتبر التكريم لولده وابنته المؤمنين العظيمين ، والذى يرى انهيار صرح النفاق بعد أن كان يمثل ثلث الجيش الإسلامي ليصبح فيما بعد دون المائة في ثلاثة ألفاً من المسلمين ليدرك مدى الجهد العظيم الدّرّوب المنظم ، والصبر الكبير والتخطيط الدقيق الذى بذله سيد الخلق ﷺ حتى أنهى هذا الجرح الدامى فى جسم الأمة المسلمة .

٣١ - التحول من القاعدة العريضة إلى القاعدة الصلبة :

وهدف التربية إذن هو التحول بهذه القاعدة العريضة الواسعة من مسلمين ليس لهم من الإسلام في بداية الأمر إلا اللفظ بالشهادتين إلى مسلمين مؤمنين صادقين ، وذلك بال التربية المستمرة العامة والخاصة من قيادة الدعوة ، وبالنماذج العالية من السابقين الأولين الذين يتبعون مهمة القيادة ، وينفذون مخططاتها ويبثون الدعوة بسلوكهم وخلقهم في البيئات التي يتقلّلون إليها أو يكلّفون بقيادتها ، أو يمارسون حياتهم فيها ، وما هذه الدورات العظيمة التي يشرف عليها قائد الأمة ﷺ بنفسه وشخصه ويشارك فيها ، حيث استمرت دورة مكة وحنين ثلاثة أشهر ، ودورة تبوك شهرين متكملين ، إلا انتقال بهذه الأعداد الواسعة الممتدة إلى مستوى القاعدة الصلبة ، إلى مستوى القدوة بعد أن عاشت مع رسول الله ﷺ وتفقهت على يديه .

كان على هؤلاء الثلاثين ألفاً أن ينطلقوا في عشائرهم وأوطانهم وأهليهم وبладهم ، أو يكلّفوا بمهام دعوية وعسكرية خارج عشائرهم وأوطانهم وأهليهم ، كان عليهم أن يكونوا دعاة لهذا الدين ورسل هدى في هذه الأرض العربية ، وتمثل فيهم القدوّات الكبار والأسوّات العليا ، لفتح المدينة ذراعيها من جديد وبعد عام ونيف إلى زيادة مائة ألف جديدة فوق الثلاثين ألفاً تتضمّن لهذا الركب في دورة جديدة هي حجة الوداع ، وحيث تدفقت على المدينة الوفود من كل أصقاع الجزيرة العربية تعلن ولاءها للإسلام ودخولها فيه ، وهى التي ستتم دراستها في الحلقة القادمة - التربية الإصلاحية - بإذن الله ، وبذلك تتضح فعل التربية التي ابتدأت من الفرد الواحد إلى الأمة الكاملة ،

وتلقى على ثرى عرفات : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ
الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

أسأل الله تعالى أن أكون قد أديت ولو بصورة تقريرية جواب السؤال الذى قام المنهج
التربوى كله عليه : كيف تمت تربية الجيل المسلم ؟ والله نسأل أن يتقبل العمل ، ويغفر
الزلل ويبارك في الآخر والأول ، إنه على ما يشاء قادر وبالإجابة جدير ، وأآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين .

غرة شعبان ١٤١٩ هـ

منير محمد الغضبان



فهرس الموضوعات

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٥ | مقدمة |
| ٧ | هوازن على الساحة تستعد للمواجهة |
| ٧ | من هوازن |
| ١٤ | تركيب الجيش الإسلامي |
| ٢٠ | التربية في الطريق إلى المعركة |
| ٢٠ | ذكر استعماله <small>عليه السلام</small> عتاب بن أبي أميرًا على مكة |
| ٢٠ | استعارة السلاح |
| ٢٠ | عبد الله بن أبي حدرد لكشف خبر القوم |
| ٢١ | خروج رسول الله <small>عليه السلام</small> للقاء هوازن |
| ٢٢ | اجعل لنا ذات أنواع |
| ٢٢ | فدائى وحارس |
| ٢٣ | شعر عباس بن مرداس |
| ٢٣ | حفظه <small>عليه السلام</small> من أراد الفتك به |
| ٢٤ | جواسيس العدو |
| ٢٤ | تعبئة المشركين وال المسلمين |
| ٤٧ | الجولة الأولى من المعركة |
| ٤٧ | إعجاب المسلمين بكثرتهم |
| ٤٧ | المواجهة الأولى |
| ٥٠ | محاولة اغتياله من شيبة بن عثمان |
| ٥٠ | محاولة ثانية من النضير بن الحارث |
| ٦٢ | المعجزة الخالدة |
| ٨٤ | نماذج من التربية الفردية |
| ٨٤ | أولاً : البطولات الفردية |

| | |
|-----|---|
| ٨٦ | ثانياً : البطولات النسائية |
| ٨٧ | ثالثاً : وضع قيادات العدو |
| ٨٨ | رابعاً : القيادات الإسلامية |
| ٩١ | خامساً : من آداب الحرب |
| ٩٢ | سادساً : جمع غنائم حنين |
| ٩٣ | سابعاً : بين عبيدة بن حصن والأفعى بن حابس |
| ٩٤ | ثامناً : ذكر من استشهد بحنين |
| ٩٥ | تاسعاً : من أشعار حنين |
| ٩٦ | البطولات الفردية |
| ١٠٧ | بطولات رباث الخدور |
| ١١٢ | قيادات العدو |
| ١٢٠ | القيادات الإسلامية |
| ١٢١ | من آداب الحرب |
| ١٢٧ | الحكومة بين سيدى تميم وغطفان |
| ١٣٧ | غزوة الطائف |
| ١٣٧ | الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين |
| ١٣٧ | سيف الله إلى الطائف |
| ١٣٨ | رسول الله ﷺ يتوجه للطائف |
| ١٣٩ | قبر أبي رغال |
| ١٣٩ | في حصار الطائف |
| ١٤٠ | من خرج إلينا فهو حر |
| ١٤١ | المنجنيق |
| ١٤٢ | الحث على الرمي |
| ١٤٢ | النهي عن دخول المختفين |
| ١٤٣ | الررقوا التبوية |
| ١٤٣ | الإذن بالرحيل |
| ١٤٤ | الشهداء |
| ١٤٦ | الطائف من الدعوة إلى الغزوة |

| | |
|-----|--|
| ١٤٩ | هدم معقل وثنى كبير |
| ١٥٠ | الحرب عند الحصون |
| ١٥٠ | التزول عند الحصون |
| ١٥٧ | محاولة المفاوضات مع العدو |
| ١٥٨ | إصرار ثقيف على المواجهة |
| ١٥٩ | من تزل من العيبد فهو حر |
| ١٦١ | رمي حصن الطائف بالمنجنيق |
| ١٦٢ | قطع أعناب ثقيف |
| ١٦٣ | الاتجاه إلى فك الحصار |
| ١٦٥ | الرؤيا |
| ١٧٠ | الاستشارة |
| ١٧٥ | إعلان الرأى لخولة بنت حكيم |
| ١٧٨ | غنائم حنين ودورها في البناء التربوى للأمة |
| ١٧٨ | إلى الجعرانة |
| ١٧٩ | وقد هوازن وإسلامهم |
| ١٧٢ | قسمة الغنائم |
| ١٧٥ | الأنصار والغنائم |
| ١٧٦ | ذو الخويصرة التمييى |
| ١٧٦ | مالك بن عوف وإسلامه |
| ١٧٧ | العودة إلى المدينة |
| ١٧٨ | رسول الله <small>صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small> يبني أمة |
| ١٧٨ | أولاً : مع هوازن |
| ١٨٩ | ثانياً : من هوازن إلى ثقيف |
| ١٩٣ | ثالثاً : من ثقيف إلى قريش |
| ١٩٦ | رابعاً : من قريش إلى القيادات العربية |
| ١٩٨ | الوقفة الأولى : مع عامر بن صعصعة |
| ٢٠١ | الوقفة الثانية : مع عبيدة بن حصن سيد غطفان |
| ٢٠٦ | الوقفة الثالثة : مع الأقرع بن حابس سيد بنى تميم |

| | |
|-----|--|
| ٢٠٩ | من فجع الأرض إلى شعاع السماء |
| ٢١٦ | من لعاعة من الدنيا إلى رسول الله ﷺ |
| ٢٢٢ | العودة إلى المدينة وانتهاء الدورة |
| ٢٢٥ | الشاعران : عباس بن مرداس وكعب بن زهير |
| ٢٢٥ | أولاً : عباس بن مرداس |
| ٢٣٤ | ثانياً : كعب بن زهير |
| ٢٤٦ | العام التاسع للهجرة ... وبعث المصدقين |
| ٢٥٠ | بسر بن سفيان وصدقات خزاعة |
| ٢٦٨ | دعاة ... وقادة |
| ٢٦٨ | ١ - إلى عمان والبحرين |
| ٢٧٠ | ٢ - إلى اليمن |
| ٢٧١ | بعثة معاذ <small>رضي الله عنه</small> |
| ٢٧٤ | عند ملكي عمان |
| ٢٨٠ | مع الجلendi الاب |
| ٢٨١ | مع أمير البحرين |
| ٢٨٣ | مع خالد <small>رضي الله عنه</small> إلى اليمن |
| ٢٨٦ | قيس بن سعد والصدائى |
| ٢٩٤ | القادة |
| ٢٩٤ | الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب |
| ٢٩٦ | سرية علقة بن مجزر المذجبي <small>رضي الله عنه</small> إلى الحبشة |
| ٢٩٧ | إلى الفلس صنم لطفي لهدمه |
| ٣٠٠ | شخصياتاً عظيمات انضمت إلى الإسلام |
| ٣٠٠ | الشخصية الأولى : عدى بن حاتم |
| ٣١١ | الشخصية الثانية : عروة بن مسعود الثقفي |
| ٣١٨ | غزوة تبوك |
| ٣١٨ | أسباب الغزوة ووقتها |
| ٣٢٣ | الجهاد بالمال في سبيل الله |
| ٣٣٧ | مجتمع النفاق |
| ٣٤٧ | تحرك الجيش ... وتربيته على الطريق |

| | |
|-----|--|
| ٣٦٤ | النفاق . . . والنزول في الحجر |
| ٣٧١ | في الحجر |
| ٣٨٤ | في تبوك : الأمة والدولة |
| ٣٩٢ | الدولة : غزوة أكيدر بن عبد الملك |
| ٣٩٧ | الخطوط الكبرى المتناولة في الإقامات في تبوك ضمن إطار الأمة |
| ٣٩٧ | أولاً : ثبيت وترسيخ الوحدانية والرسالة |
| ٤٠١ | فوات الفجر |
| ٤٠٢ | ثانياً : التوجيهات النظرية والعملية |
| ٤٠٣ | المخطة الجامعية المانعة |
| ٤٠٩ | الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيمة |
| ٤١٣ | ثالثاً : المزنیان نموذجان للإیمان الحالص |
| ٤١٣ | المزنی الأول |
| ٤١٥ | المزنی الثاني |
| ٤١٩ | تبوك . . . الدولة |
| ٤٢٥ | آيلة |
| ٤٢٦ | أهل جرباء |
| ٤٢٦ | أهل مقنا |
| ٤٢٦ | بين النبي ﷺ وقيسر |
| ٤٣٧ | في العودة إلى المدينة تربية كذلك |
| ٤٤٥ | أهم الأحداث التي وقعت أثناء العودة إلى المدينة |
| ٤٤٦ | أولاً : إطعام الجيش كله وإسقاوه |
| ٤٥٤ | ثانياً : مؤامرات المافقين |
| ٤٦٢ | بناء مسجد الفرار |
| ٤٦٥ | ثالثاً : المدينة تستقبل رسول الله ﷺ |
| ٤٧٤ | المدينة بعد تبوك |
| ٤٧٤ | المتخلفون عن الغزو |
| ٤٧٤ | كعب بن مالك وأخوانه |
| ٤٧٩ | ذكر أقوام تخللوا من غير عذر |

| | |
|-----|---|
| ٤٨٠ | مصرع النفاق بموت عبد الله بن أبي |
| ٤٨٤ | ماضي كعب بن مالك |
| ٤٨٤ | صدق كعب |
| ٥٠٢ | طبقات المجتمع المسلم |
| ٥٠٢ | أولاً : المهاجرون والأنصار |
| ٥٠٤ | ثانياً : الصحابة |
| ٥٠٤ | ١ - من كان الجهاد فرض عين عليهم |
| ٥٠٤ | ب - من كان الجهاد فرض كفاية عليهم |
| ٥٠٩ | مصرع النفاق بمصرع عبد الله بن أبي |
| ٥١٨ | الفصل الأخير : معالم المنهج التربوي النبوى فى تربية القاعدة العربية |
| ٥١٨ | ١ - الاستفادة من الطاقات الكامنة والشابة |
| ٥١٨ | ٢ - كسر الحواجز النفسية بين الإسلام وبين الناس |
| ٥١٩ | ٣ - رفع المعنويات والثقة بالنصر |
| ٥١٩ | ٤ - التربية بالقدوة من خلال النوعيات الفدائـية العليا |
| ٥٢٠ | ٥ - أهل القائد والمقربون منه أسرع الناس إلى الفداء |
| ٥٢٠ | ٦ - إعطاء الدرس العملى بأن النصر من عند الله |
| ٥٢١ | ٧ - التربية بالمعجزة على المستوى الفردى |
| ٥٢٢ | ٨ - التربية بالمعجزة على المستوى الجماعى |
| ٥٢٢ | ٩ - دور المرأة في المعركة |
| ٥٢٣ | ١٠ - معرفة العدو |
| ٥٢٤ | ١١ - آداب الحرب |
| ٥٢٤ | ١٢ - التربية على قطع الشهوات |
| ٥٢٦ | ١٣ - تأليف قلوب القيادات الجاهلية |
| ٥٢٦ | ١٤ - عالم القيم |
| ٥٢٧ | ١٥ - جيل الفداء والعطاء يربى الأمة |
| ٥٢٧ | ١٦ - معالجة الثأر وحرمة الدم |
| ٥٢٨ | ١٧ - تطبيق الحدود |
| ٥٢٨ | ١٨ - ربح قلوب العدو بإعادة خسائره |

| | | |
|----|--|-----|
| ١٩ | - رفض سحق الفرد من خلال التربية الجماعية | ٥٢٩ |
| ٢٠ | - الخيلولة دون الاستغلال واستثمار السلطة | ٥٣٠ |
| ٢١ | - نشر الدعوة ماض بجوار إقامة الدولة | ٥٣٠ |
| ٢٢ | - جذب الطاقات الكبرى لدين الله | ٥٣٠ |
| ٢٣ | - استفتاء | ٥٣١ |
| ٢٤ | - وضع الرجل المناسب في الموقع المناسب | ٥٣١ |
| ٢٥ | - اتخاذ القرار الحاسم في اللحظة المناسبة | ٥٣٢ |
| ٢٦ | - دور المال في بناء الدعوات | ٥٣٢ |
| ٢٧ | - الاهتمام بالتربية العملية أكثر من النظرية | ٥٣٣ |
| ٢٨ | - التوجيه العام في الوقت المناسب | ٥٣٣ |
| ٢٩ | - الخذر من الخطير الداخلي في الصف | ٥٣٣ |
| ٣٠ | - فن التعامل مع هذا العدو الداخلي | ٥٣٤ |
| ٣١ | - التحول من القاعدة العريضة إلى القاعدة الصلبة | ٥٣٤ |
| | فهرس الموضوعات | ٥٣٧ |

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٠٥٦٤
I.S.B.N:977-15-0318-9
